

المركز القومي للترجمة

أنَّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا

مذكرات زوجة دستويڤسكي

ترجمة: أنور محمد إبراهيم

2236

سلسلة الإبداع القصصي

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2236
- مذكرات زوجة دستويفسكى
- أنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا
- أنور محمد إبراهيم
- اللغة: الروسية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:

А. Г.

ДОСТОЕВСЋАЯ

ВОСПОМИНАНИЯ

Анна Григорьевна Достоевская

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا

مذكرات زوجة دستويڤسكي

ترجمة: أنور محمد إبراهيم



2015

دستويفسكايا، أنا جريجوريفنا، ١٨٤٦ -
مذكرات زوجة دستويفسكى/ أنا جريجوريفنا
دستويفسكايا؛ ترجمة: أنور محمد إبراهيم.
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.
٦٣٦ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ١ ٠٢٦٤ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - دستويفسكايا، أنا جريجوريفنا، ١٨٤٦ - المذكرات.
٢ - القصص الروسية.
أ - إبراهيم، أنور محمد. (مترجم)
رقم الإيداع بدار الكتب ٨١١٣/ ٢٠١٥
I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 0264 - 1

ديوى ٩٢٠

المحتويات

إهداء 7

المقال الافتتاحى: أنّا جريجوريڤنا ومذكراتها 9

مدخل إلى «المذكرات» 49

المذكرات 51

الجزء الأول: الطفولة والشبـاب 53

الجـزء الثانى: التعرف على دستويفسكى والزواج منه 65

الجزء الثالث: الأيام الأولى فى حياتنا الزوجيـة 147

الجزء الرابع: الإقامـة فى الخـارج 189

الجزء الخامس: فى روسيـا من جـديد 255

الجزء السادس: العامان ١٨٧٢ / ١٨٧٣ 297

الجزء السابع: العامان ١٨٧٤ / ١٨٧٥ 325

الجزء الثامن: العامان ١٨٧٦ ـ ١٨٧٧ 367

الجزء التاسع: العامان ١٨٧٨ ـ ١٨٧٩ 403

الجـزء العـاشـــر: العـام الأخـــير 437

الجـزء الحادى عشر: الوفـــاة. الدفـــن 465

الجـزء الثانى عشر: ما بعـــد موت فيودور ميخايلوڤيتش 491

خاتمة مذكراتى 511

التعليقات 513

المصادر والاختصارات 517

الهوامش 519

زوجة دستويفسكى فى سطور 631

المترجم فى سطور 633

إهداء

إلى ذكرى الراحل العظيم المثقف
والمترجم الدكتور سامى الدروبى

المترجم

المقال الافتتاحي
أنّا جريجوريڤنا ومذكراتها

يصف الممثل الروسى الشهير ل. م. ليونيدوف انطباعه عن لقائه أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا قائلاً: «لقد رأيت واستمعت إلى «شيء ما»، شيء لا شبيه له، ولقد شعرت من خلال هذا «الشيء ما»، خلال هذا اللقاء الذى استغرق عشر دقائق، بدستويڤسكى من خلال أرملته. إن مائة كتاب عن دستويڤسكى لم تكن لتعطينى ما أعطاه لى هذا اللقاء. لقد أحسست بأنفاسه قريبة منى. وإننى لعلى يقين أن هذا الجو موجود دائمًا لديه مع زوجه... »(*). إن كلمات ليونيدوف هذه يمكن تطبيقها تمامًا على مذكرات أنّا جريجوريڤنا، تلك المذكرات التى تشغل مكانة خاصة فى أدب المذكرات الهائل والمتناقض الخاص بدستويڤسكى. إن هذه المذكرات هى أكثرها صدقًا، وهى تعتمد على حقائق اختيرت وحققت بدقة، إنها حديث حى عن دستويڤسكى فى أكثر فترات إبداعه خصوصية (١٨٦٦ ــ ١٨٨١)، تلك الفترة التي وضع الكاتب فيها الروايات ــ المآسى من «الجريمة والعقاب» وحتى «الإخوة كارامازوف».

(*) ل.م. ليونيدوف، مذكرات، ومقالات، ومناقشات، ومراسلات، ومقالات وذكريات عن ل.م. ليونيدوف دار نشر إيسكوستڤو (الفن)، موسكو، ١٩٦٠ الصفحات ١٢٦ ــ ١٢٧

ولدت أنّا جريجوريڤنا فى الثلاثين من أغسطس عام ١٨٤٦ فى أسرة الموظف البسيط من بطرسبورج جريجورى إيڤانوڤيتش سنيتكين. كان أبوها ودودًا ذا طبيعة محبة للحياة وكان فى شبابه مولعًا بالمسرح والأدب، إلى جانب أنه كان من أشد المعجبين بأعمال دستويڤسكى، وقد استمعت أنَّا جريجوريڤنا إلى هذا الاسم للمرة الأولى فى حياتها منه، وفى السادسة عشرة من عمرها أدت امتحانًا فى قصة «نيتوتشكا نيزڤانوفا» (كانت الأسرة تطلق عليها آنذاك اسم «نيتوتشكا») وكم من الدموع الساخنة ذرفتها أنَّا إبان قراءتها لمذكرات من البيت الميت»(*) وهكذا أصبح دستويڤسكى هو كاتبها المفضل منذ الطفولة.

أنَّا نيكولايفنا ميلتوبيوس والدة أنَّا جريجوريڤنا من أصل سويدي فنلندى، امرأة تختلف تمامًا عن زوجها المتحمس غير العملى، فهى حيوية، مسيطرة، كانت هى ربة البيت الفعلية. لقد أضفت طبيعة الأب المرحة والصريحة إلى جانب الأم المتحفظة الدقيقة جوًا من الهدوء والسعادة النادرة على أسرة سنيتكين حتى أن أنَّا عاشت صباها دونما كـدر يذكر.

لم تكن أنَّا تفكر فى المستقبل إلا قليلاً، ولم تكن تحمل الاختزال الذى كانت تتلقى دروسه على يد أستاذها الشهير آنذاك البروفيسور أولخين محمل الجد غير أن حماس الشباب كان مقدرًا له أن يلعب دورًا حاسمًا فى حياة أنَّا جريجوريڤنا. فى عام ١٨٦٦ توفى أبوها وتغيرت على أثر ذلك أحوال الأسرة. هنا أصبح لزامًا على أنَّا جريجوريڤنا، التى لم تكن ترغب فى أن تظل فى وضع التبعية المادية لوالدتها أن تضع ما اكتسبته من معرفة بالاختزال موضعًا عمليًا، آنذاك أوصى أحدهم دستويڤسكى بأن تعمل لديه هذه المختزلة المبتدئة وفى الرابع من أكتوبر ١٨٦٦ تم التعارف بينهما. وعن هذا اللقاء يحكي دستويڤسكى فى أحد خطـاباته قائلاً: «أرســل إلىَّ أولخين، أستاذ الاختزال، أفضل تلميذاته، كانت أنَّا جريجوريڤنا سنيتكينا فتاة فى ريعان الصبا، تبلغ من العمر عشرين

(*) «مذكرات من البيت الميت «هى اسم الرواية التي نشرها دستويڤسكي كاملة عام (١٨٦١) وتعرف فى العربية باسم «ذكريات من منزل الأموات «والمقصود بالبيت الميت هو سيبيريا التى نفى إليها الكاتب بعد اتهامه بالاشتراك فى مؤامرة ضد القيصر. (المترجم).

عامًا، جميلة، من أسرة طيبة، أنهت المدرسة الثانوية بتفوق. تتمتع بشخصية واضحة وديعة للغاية، وقد سار عملنا معًا على نحو رائع».

دفع العمل المستقل والمتوتر المليء بالمتعة والطرافة بالحماس الشديد لهذه الفتاة الشابة. وكان لاعتراف دستويفسكى عن حياته الصعبة المأساوية أثره فى خلق شعور الإعجاب بالطبيعة الشاعرية للكاتب وولّد إحساسًا عميقًا لديها بالعطف على هذا الإنسان الوحيد سيء الحظ الذى عانى الكثير، وشيئًا فشيئًا أصبح دستويفسكى مسيطرًا على أفكارها جمعــاء. يذكر دستويفسكى تلك الظروف غير العادية التى صاحبت زواجه قائلاً: «عندما أخذت الرواية تقترب من نهايتها لاحظت أن المختزلة تحبنى بإخلاص، على الرغم من أنها لم تذكر لى كلمة واحدة عن هذا الأمر. أما أنا فقد كان إعجابى بها يزداد يومًا بعد الآخر، ومنذ مــــات أخى وجـدتنى أشعر بوحشة رهيبة وأصبحت حياتى صعبة، عندئذ بادرتها بطلب الزواج ... إن الفارق بيننا فى العمر شاسع (عشرون وأربع وأربعون)، ولكن قناعتى تزداد أكثر فأكثر أنها سوف تكون سعيدة. إن لديها قلبًا وإنها لقادرة على الحب»(*)

لم يكن طلب دستويفسكى لها أمرًا غير متوقع، فقد كانت منذ فترة بعيدة مستعدة نفسيًا لهذا الأمر ودون تردد أعطت ردها بإيجاب كله إصرار، الأمر الذى لم يبعث بالسرور فى نفوس أقاربها (نفس ما حدث مع أقارب دستويفسكى). لقد قرر الجميع أن هذه الرابطة غير متكافئة ولا مفهومة وطائشة، على أن أنّا جريجوريفنا لم تولِ اهتمامًا للنصائح «الحكيمة» التى أسداها إليها أصدقاؤها وأقاربها، رافضة إياها بكل الحزم والشجاعة، التى تميز بها جيل الشباب فى تلك السنوات. فيما بعد أجابت على سؤال حول قرارها الزواج من رجــل عمــره ضعــف عمــرها، رجل سبق اعتقاله،

(*) فيودور دستويفسكى، الخطابات، الجزء الثانى، موسكو، لينينجراد، ١٩٣٠ ص ٣.

أرمل يحمل عبء أقـارب كثـيرين وديـونًا ثقيـلة بقـولها: «ألم أكن إحدى فتيات الستينيات». بالطبع فإن أنّا جريجوريڤنا لم تكن من فتيات «الستينيات «بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، فقد كان تدينها ووجهات نظرها المختلفة واضحة تمامًا. على أن جو الستينيات المنعش، سنوات الآمال المتفتحة، كانا قد تركا آثارهما على أنَّا جريجوريڤنا. إن قرار دراسة الاختزال والشجاعة التى اتخذت روح العصر فى الموافقة على الزواج من دستويڤسكى والجدل الحاد معه بشأن «العدميين» ورسالة المرأة، وأخيرًا حياتها المؤثرة مع هذا الزوج، والنشـاط الذى لم ينقطع بعـد وفاته، كلها أمور تضرب بجذورها إلى الستينيات، إلى خلق «مفكر البروليتاريا» وإلى طباع ذلك الشباب الذى رفض بجرأة لا مثيل لها أن يخضع للمعتقدات الاستبدادية البالية.

كانت الشهور الأولى بعد الزفاف المتواضع الهادئ هى على ما يبدو أصعب الأوقات التى مرت بأنّا جريجوريڤنا: كان من العسير التعود والتأقلم مع شخصية غير عادية على الإطلاق، شخصية «مريضة» تعانى من داء الصرع الذى لا براء منه، إلى جانب هذا فقد كانت علاقة أنّا بأسرة الكاتب قد تكونت على نحو بالغ التعقيد. كان لنمط الحياة العصبى القلق الفوضوى لدى آل دستويڤسكى الذى يختلف تمام الاختلاف عن ذلك النمط المشبع بالروح الأبوية لدى آل سنيتكين وكذلك ما أصاب أنّا جريجوريڤنا من صغائر الأذى الظالم على يدى ابن زوجها الأنانى الشرير، فضلاً عن زوج بعيد غريب الأطوار فى أمور كثيرة، كان لهذا كله، باختصار، أثره فى بث مشاعر الخوف والاضطهاد فى نفس هذه المرأة الشابة حتى بدا لها أن الانفصال أمر لا مندوحة عنه.

عن شكوكها ومعاناتها فى تلك الفترة كتبت أنّا جريجوريڤنا بصراحة تقول: «كان حبى عقليًا خالصًا، مثاليًا، كان على الأصح عبادة، انحناء أمام إنسان موهوب إلى أبعد حد، إنسان يمتلك هذه الخصال النفسية الرفيعة. كانت روحى تتملكها الشفقة نحو هذا الرجل الذى عانى الكثير ولم يعرف السعادة والسرور قط <... > على أن هذا كله لم يكن سوى المشاعر السامية والأحلام التي كان باستطاعة الواقع القاسى أن يحطمها.

لقد حل بى شيئًا فشيئًا زمن الشك وسوء الفهم بفضل تلك الظروف التى أحاطت بى. لقد أحببته حقًّا بحرارة، على أن كبريائى لم يكن ليسمح لى أن أبقى معه لو تأكد لى أنه لم يعد يحبنى، بل لقد تصورت أيضًا أن علىَّ أن أضحِّى من أجله، أن أتركه ما دامت حياتنا معًا، كما يبدو صعبة عليه».

على أنه لا الانفصال ولا الكارثة قد وقعا، وهو أمر يرجع بالدرجة الأولى لما تمتعت به أنّا جريجوريڤنا من حزم وطاقة (ناهيك عن أنه من العجيب أنها، كما اعترفت هى نفسها فيما بعد، كانت آنذاك مجرد طفلة)، وسرعان ما بذلت أنَّا كل ما فى وسعها لتغيير الوضع من أجل السفر للخارج، بعيدًا عن الاضطرابات المنزلية وفوضى الحياة فى بطرسبورج.

الحقيقة أن أنّا جريجوريڤنا فى معرض تفسيرها للأسباب التى كانت وراء السفر إلى الخارج - كما ذكرت هى نفسها فيما بعد، وإن كان بصورة ذاتية من جانب واحد - كانت الرغبة فقط فى إنقاذ الأسرة.

فى خطابه لمايكوف يصف دستويڤسكى نفسه هذه الرحلة بأنها كانت ضرورة ملحَّة وإن اعتبرها خطوة صعبة. يقول دستويڤسكى لصديقه: «هناك سببان رئيسيان، الأول:

إنقاذ صحتى فضلاً عن حياتى ذاتها (...) والثاني ما يحيط بى من ظروف: لم يعد الدائنون يطيقون صبرًا»(*). لم تذكر أنّا جريجوريڤنا أى شىء هنا عن حالتى الاضطراب والاكتئاب التى كان عليها دستويڤسكى هذه المرة لدى مغادرته روسيا. كانت الهواجس تمزق الكاتب تمزيقًا. كان الرعب يتملكه بتأثير وسواس المقامرة ثم الخوف من العجز عن الكتابة بعيدًا عن الوطن والقلق على أنّا جريجوريڤنا التى تمر بتجربة السفر إلى الخارج للمرة الأولى.

(*) فيودور دستويڤسكى، الخطابات، الجزء الثانى، ص٢٥.

«سافرت، ولكن هذه المرة كان الموت يخيم على قلبي: لم أكن أؤمن بالخارج، بمعنى أنني كنت أومن أن الأثر المعنوى للخارج سيكون غاية فى السوء علىّ وحيدًا مع مخلوق فى ريعان الشباب يسعى جاهدًا بفرح ساذج أن يقاسمنى حياة غريبة الأطوار؛ وإذا بى أنظر فلا أرى فى هذا الفرح الساذج سوى قدر كبير من افتقاد التجربة والاضطراب، الأمر الذى كدَّر من صفوى وزاد فى تعذيبى <...> إننى شخص مريض، وقد أدركت سلفًا أنها سوف تعانى الكثير معى (ملحوظة هامة: فى الحقيقة لقد اتضح أن أنّا جريجوريفنا أقوى وأعمق مما كنت أعرفه عنها..)(*)». على هذا النحو يصف دستويفسكى لصديقه مايكوف هواجسه الثقيلة.

فى الوقت نفسه فقد قام التقارب الحقيقى بين دستويڤسكى وزوجه هنا فى ربوع درزدن وبادن وچينيف وفلورنسا، بعيدًا عن الحياة الرتيبة فى بطرسبورج، وتحولت مشاعر المودة الهشة «العقلية»، التى كانت تنذر من كل الجهات بوقوع كارثة أكيدة، إلى عاطفة جادة. استطاعت أنَّا جريجوريڤنا، بعد أن رسخ إيمانها إلى الأبد بحب دستويڤسكى المخلص لها، أن تتحمل بشجاعة فائقة ورباطة جأش نادرة كل المصائب التى اختصهما بها القدر وعلى نحو سخى. أشرك دستويڤسكى أنّا في كل متعة وعذاباته: إن كونها زوجًا له كان يعنى الاستمتاع بالسعادة والعيش فى كنف عبقرى؛ فضلاً عن تحملها المسؤولية بصفتها ربة البيت والأم والصدر الرؤوم و«السكرتيرة». كان دستويڤسكى بحاجة إلى من يحيطه باهتمام وعناية شديدين. كتب م. ألكسندروف، الذى كان يعمل فى تنسيق الصحف والذى كان يتردد كثيرًا على أسرة دستويڤسكى يقول:

«استطاعت أنّا جريجوريڤنا، على وجه العموم، أن تحيط صحة زوجها المعتلة بالرعاية التامة وأن تضعه، حسب تعبيره، على أكف الراحة كما لو كان طفلاً، كما أظهرت كثيرًا من اللين والتساهل فى معاملتها إياه ممزوجا باللباقة المهذبة، وأستطيع أن أقول بكل ثقة أن فيودور ميخايلوڤيتش وأسرته، وعلى نفس الدرجة أيضًا كثيرًا من المعجبين به، مدينون جميعًا بعدد من سنوات عمره لها(**)

(*) المرجع السابق.

(**) دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الثانى، خودچستفينايا ليتيراتورا، موسكو، ١٩٦٤، ص ٢٤٦

كتبت أنّا جريجوريڤنا بتقتير وتحفظ عن مرض دستويڤسكى، ورغم هذا فإننا نشعر أكثر بالألم المكبوت والخوف المستمر على حياة زوجها. عبرت أنّا فى حديث لها مع أ. إسماعيلوف عن أشياء كان مجرد التفكير فيها لا كتابتها أمرًا لا يحتمل. تقول أنّا: « إننى أتذكر حياتنا الأسرية بوصفها أيامًا من السعادة العظيمة التى لا نستحقها. على أننى كثيرًا ما كنت أكفر عن هذه السعادة بالألم العظيم. كان مرض دستويڤسكي الرهيب يهدد بتدمير هنائنا فى أى لحظة، الأمر الذى كان يعكر، بداهة، صفو سعادتى بالقرب منه... كان وقف هذا المرض والشفاء منه، كما تعلم، أمرًا مستحيلاً. كل ما كان باستطاعتى أن أفعله هو أن أفك أزرار ياقته وأن أضم رأسه بين يدىَّ. أما أن ترى وجه محبوبك وقد أخذ في الزرقة والتشوُّه، وقد احتقنت عروقه، أن تعى أنه يتألم وأنك عاجز عن أن تقدم له أى قدر من العون، فقد كان ذلك صنفًا من صنوف العذاب، الذى كان علىَّ، بداهةً أن أدفعه كفارة سعادتى بالقرب منه. لقد تمتع دستويڤسكى فى الفترة التى عاشها معي بصحة أفضل نسبيًا. كانت النوبات التى تعتريه قبل ذلك أكثر بكثير. كان فيودور ميخايلوفيتش يبدو خلالها وكأنه يفارق الحياة»(*)

إبان فترة التعارف الأولى كان دستويڤسكى يملى على مختزلته الشابة رواية «المقامر» التى انعكست على صفحاتها ملامح من السيرة الذاتية للكاتب: الهوى العنيف الجامح بالمقامرة، وهو هوًى بدا أن لا سبيل إلى مقاومته حتى نهاية العمر ثم الحب والكراهية نحو أبولويناريا سوسلوفا «الجهنمية »(**) لم يكن محض صدفة أن دستويڤسكى قد أولى اهتمامًا لرأى سنيتكينا(***) بشأن بطل الرواية. أدانت أنّا جريجوريڤنا بكل ما فى الشباب من حزم ألكسي إيڤانوڤيتش (بطل المقامر) لضعف شخصيته، لكن سرعان ما تحول الموقف الأدبى إلى واقع، ومرة أخرى تجد أنّا جريجوريڤنا، الزوجة الشابة وقد وضعت الحياة نفسها فى طريقها نفس المشكلة.

(*) أ. إسماعيلوف. فى ضيافة آنا دستويفسكايا (فى ذكرى خمسة وثلاثين عامًا على وفاة فيودور دستويفسكى). صحيفة «بيرچيڤى ڤيدوموستى»، ٢٨ يناير ١٩١٦ العدد ١٥٣٥٠

(**) أبولويناريا سوسلوفا: صديقة الكاتب، سافرت معه إلى الخارج (المترجم).

(***) اسم عائلة أنّا قبل الزواج. (المترجم).

كان سوء الأحوال المادية المستمر إلى جانب الديون والدائنين يعذب أنّا جريجوريڤنا. لكن الأمر الأكثر مرارة كان إدراكها مدى القسوة التى كانت المقامرة تستحوذ بها على دستويفسكي. تقول أنّا: «على أننى سرعان ما أدركت أن الأمر ليس مجرد مسألة «ضعف إرادة» بسيطة، وإنما شهوة فرضت كامل سيطرتها على إنسان، قوة طبيعية تعجز حتى أقوى الشخصيات عن التصدى لها ومقاومتها، يجب التسليم بذلك واعتبار الأمر... مرضًا لا تملك حياله حولاً أو قوة».

غير أن ما اعتبرته أنّا جريجوريڤنا وسواسًا ومرضًا كان دستويفسكى يعى أنه احتياج مُلحٌّ ينبع من خاصية طبيعته، لقد انعكس عدم الاتزان والطبع الحاد للفنان، بطريقته، في هذا الواقع الطويل اليائس بالمقامرة، ويمكن أن نلمس هذه الحمية وهذا الجموح في رواياته. أما أنّا جريجوريڤنا فقد كفت هي نفسها منذ زمن بعيد عن تصديق القسم والوعود التى قطعها زوجها على نفسه أن يهجر اللعب، كما لم تصدق خطاب التوبة الذى وصلها من فيسبادن والمؤرخ ٢٨ أبريل ١٨٧١ والواقع أن هذا الخطاب كان وداعًا «للوهم».

إن دستويفسكى يدين بخلاصه من سلطان المقامرة، أولاً وقبل كل شىء لأنّا جريجوريڤنا ولما تحلت به من صبر جميل وشجاعة ونبل، كتب لها دستويفسكى قائلاً: «سأظل ما حييت أذكر لك هذا، وفى كل مرة سوف أدعو لك يا ملاكى بالتوفيق. كلا، أنا الآن لك كلية، لك تمامًا. أما قبل ذلك فقد كان نصفى ملكًا لهذا الوهم الملعون»(*) لقد اكتملت عملية «الالتئام» هذه فقط بعد تلك الخطوة الحاسمة، وسوف يكرر دستويفسكي في خطابات السنوات اللاحقة أنه يشعر «بالتصاقه» بالأسرة وأنه لم يعد يستطيع تحمل الفراق ولو كان قصيرًا.

وإذا كان الشىء بالشيء يذكر، فإن العديد من خطابات دستويفسكي لأنّا جريجوريڤنا تؤكد مدى الإخلاص العميق في مذكراتها؛ فضلاً عن أنها ترسم صورة لزوجة

(*) ف.م. دستويفسكى، الخطابات، الجزء الثانى. ص ٣٤٩.

الكاتب بوصفها شخصية إنسانية غير عادية وطرازًا خاصًا للمرأة الروسية المتنورة في النصف الثانى من القرن الماضى. إن جو الحب المشرق والاحترام المتبادل والحنان هى المشاعر السائدة هنا سواء فى الخطابات أو المذكرات. بعيدًا عن أنّا جريجوريڤنا يشعر دستويڤسكى «بالكـــآبة المؤلمـــة». «وها أنا مقتنع يا أنيا أننى بعد اثنى عشر عامًا لا أحبك فقط وإنما أنا متيم بك وأنك سيدتى الوحيدة. «(من خطابات عام ١٨٧٩). إن خطابات دستويڤسكى التى أرسلها لأنّا جريجوريڤنا على امتداد حياتهما الزوجية التى دامت أربعة عشر عامًا تمتلئ جميعها دون استثناء بمشاعر المودة الفتية الجياشة.

هذا الاستمرار وامتلاء المشاعر يفسره أيضًا أن أنّا جريجوريڤنا لم تكن بالنسبة إلى دستويڤسكى مجرد زوجة محبوبة، امرأة جذابة، وإنما شخصية إنسانية واضحة، متفردة، تبعث على الاحترام، «شخصية ضرورية»، «لا غنى عنها» كان دستويڤسكي يقدر «طبيعتها القوية الحساسة»، «كمالها ووضوحها». إن أنّا جريجوريڤنا هى «مساعدتى المخلصة وهى سلواى»، كم من مرة كرر دستويڤسكى هذه الكلمات فى خطاباته وعلى مسامع أصدقائه. وقد كتب دستويڤسكى لزوجته بكل ما يملك من إعجاب قائلاً: «لو أنك ملكة ولديك مملكة بأسرها أقسم لك لَتحكمينها كما لايستطيع أحد سواك، يا لذكائك وحكمتك وياله من قلب وحسن تدبير لديك»(*) لقد راقت لدستويڤسكى هذه الهبة الطبيعية لدى أنّا جريجوريڤنا، معرفتها باللغات، ما تملكه من ذوق نحو الرحلات وحب للمعرفة والقدر على «النظر والتعلم»، وأخيرًا تخصصها في الاختزال هذا «الفن الرفيع»(**) من وجهة نظر الكاتب الذي جعل منها «رفيقة» فن بكل معنى الكلمة، أهدى دستويڤسكى روايته الأخيرة «الإخوة كارامازوف»، اعترافه، بالتحديد لهذه المرأة، لهـــذا المساعد الذى لا يكل، للإنسان الذى ضحى بأن قاسمه حزنه وفشله، وهمومه ومخاوفه، كمـــا شاركه أيام السرور والسعادة، وإن إهداء واحدة من أعظم

(*) ف. م. دستويڤسكى خطابات إلى زوجته، موسكو، ١٩٢٦، ص ٢٠٨.

(**) «إن الاختزال لفن رفيع» ... هذا ما كتبه دستويڤسكى إلى صوفيا إيڤانوڤنا (ابنة أخته)، موصيًا إياها بامتلاك ناصية هذا التخصص.

روائع الأدب العالمى لأنّا جريجوريفنا لا يمثل علامة حب دستويفسكى المخلص واحترامه العميق فقط، إنما هو اعتراف بفضلها الذى لا ينكر على الأدب الروسى. من يدرى لعل هذه العناية الدؤوبة والحب الفعال لهذه الزوجة قد وهبا الكاتب تلك السنوات من العمر، والتى كانت ضرورية له لينجز هذه الرواية العظيمة.

لقد عادت أنّا جريجوريفنا بعد رحلة السنوات الأربع خارج روسيا شخصًا مختلفًا تمامًا، فلم تعد تلك الشابة الساذجة عديمة الحيلة التى كانت من قبل، وإنما امرأة صاحبة إرادة قوية لا تسمح بتدخل الغرباء ولا بنصائحهم الطفيلية لمن هى ربة المنزل، امرأة خبرت الحزن الممض (كانت وفاة ابنتها البكر سونيا مصيبة قاربت بين الزوجين بشدة)، كما عاشت السعادة الكبرى فى الحياة في كنف فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكى. تلخص أنّا جريجوريفنا محصلة سنوات الهجرة وهى تتذكر بكل العرفان بالجميل هـــذا الزمن القاسى والرائع بقولها «بارك الله هذه السنوات الرائعة التى قُيض لي أن أقضيها فى الخارج وحيدة تقريبًا إلا من هذا الإنسان الرائع بما يحمله من خصال نفسية رفيعة!». لقد أصبحت أنّا جريجوريفنا الآن معدة إعدادًا جيدًا للحياة فى بطرسبورج كما أصبحت تفرض حمايتها بصورة منظمة وحازمة على زوجها من كل ما ينغصه، سواء من هموم الحياة اليومية المرهقة أو ادعاءات أقاربه التى لا تنتهى.

لم يقف أمر رعاية الأطفال أو الاستقرار المادى حائلاً بين أنّا جريجوريفنا وأهم ما فى حياتها، ألا وهو العمل الأدبى لدستويفسكى. كانت أنّا تعمل بحماس بالغ ناسية نومها وراحتها، قامت بكتابة روايات زوجها اختزالاً وكانت القارئة والناقدة الأولى لها ثم أعادت كتابة المسودات بخط يدها بشكل واضح، كما كانت تقرأ النصوص بعد تصحيحها وتقوم على تنظيم تنسيق الكتب ثم تسويقها. وفي أوقات الفراغ، التى نادرًا ما كانت تسنح لها، كانت أنّا تعيد قراءة، أو على الأصح، كانت تقرأ للمرة الأولى، كما يجب، نفس هذه المؤلفات التى قامت باختزالها وتصحيحها منذ أمد غير بعيد: «كنت دائمًا ما أصطحب فى رحلاتى مجلدًا أو اثنين من مؤلفات زوجى ثم أشرع في قراءتها لا بصفتى مصححًا (كما حدث وقرأتها إبان إصدارها) يتحرى دقة النص، وإنما كأى

قارئ عادى بسيط. كم من المتعة وجدت عند قراءتى التى لم تعد تشوبها العجلة، كم من جديد مفاجئ تكشف لي في رواياته. وكلما سارت بي الحياة قدمًا للأمام، كلما تسنَّت لى معاناة السرور والحزن فى طريقى وكلما أصبحت أعمال زوجى خالد الذكر بالنسبة إلىَّ، أكثر عمقًا عن ذى قبل»(*)

لقد ملأ الفخار قلب أنّا جريجوريڤنا بعد أن تعاظمت فى السنوات الأخيرة من حياة دستويڤسكى شعبيته ككاتب وروائى ودان المجد لمؤلف «الإخوة كارامازوف» و «خطاب عن بوشكـــين». لقد رأت أنّا فى نجاح زوجها واعتراف جمهور القراء بموهبته جزءًا ولو يسيرًا مما بذلته من جهد، لكن للمجد وجهه الآخر: إصابة الحياة بالاضطراب، المعجبين والمعجـبات الذين حاصـــروا الكاتـــب، الزيارات التى لا تنقطع والدعوات لقراءة أعماله فى الأمسيات الأدبية. أمور اقتطعت جزءًا كبيرًا من وقت دستويڤسكى وجذبت أنّا جريجوريڤنا عنوة نحو دائرة الأمسيات التي تؤمها الصفوة، ثم التعارف بهذا وذاك، أشياء كانت أنّا تشعر فيها بالغربة وكانت تفضل عليها أى نقاش بصحبة زوجها فى جو عائلى هادئ سّوىّ. لقد كان مقدرًا على أنّا جريجوريڤنا أن تنوء بهذا الحمل البغيض كونها زوجًا لرجل ذائع الصيت وبخاصة إبان تلك الأيام المريرة، أيام وفاة ودفن دستويڤسكى، وكانت قد ظنت أنها لن تعانى فى يوم من الأيام مرارة فقده. ودَّت أنّا آنذاك لو أُخلى بينها وبين حزنها، ودَّت لو عاشت تلك اللحظات بين أحبائها والقريبين من نفسها، لقد عذبتها الاجتماعات التى لا تنتهى وأرهقتها الخطب القاسية المكررة التى تذكرها «بالرجل الذي فقدته روسيا».

ظلت أنّا جريجوريڤنا فترة طويلة محجمة عن كتابة مذكراتها كما ظلت أيضًا راغبة عن نشر خطابات دستويڤسكى التي كتبها إليها. تقول أنّا فى حديث لها إلى الصحفى ك. ي. أتينجر: «لست أديبة، ناهيك عن إحساسى بالخوف أن يعد الناس هذا العمل نوعًا

(*) أ. ج. دستويڤسكايا، المذكرات ــ مكتبة الدولة بالاتحاد السوڤييتى باسم لينين ف ٩٣، المجلد الثالث.

من الزهو والغرور»؛ فضلاً عن ذلك فأنا أرى أنه من المستحيل أن أقوم بنشر خطابات فيودور ميخايلوڤيتش لى قبل وفاتي. ليس لدي أى قدر من الغرور. إن الناس يولوننى قدرًا كبيرًا من مشاعر الحب والتقدير بصفتى أرملة دستويڤسكى، الأمر الذى يجعل من الرغبة فى تحقيق مجد شخصى أمرًا غريبًا عنى تمامًا»(*).

قليلون هم أولئك الذين تسنى لهم، من بين معاصرى الكاتب، أن يفطنوا إلى المكنون داخل دستويڤسكي الإنسان. إن معظم المذكرات الشيقة الموهوبة التى كتبت عن دستويڤسكى (ن. ستراخوف، أ. سوسلوفا، فسيفولد سولوڤيوف، م. ألكسندروف، أ. بوتشينكوفسكايا) تدهشنا بما تحويه من اختلافات عجيبة وبما تضمه بين ثناياها من أحكام متناقضة مما يجعلنا نخرج بعد قراءتها بانطباعات تشى ــ شئنا أم أبينا ــ بالازدواجية فى شخصية دستويڤسكى واستحالة الإحاطة بكل جوانبها.

إن الرجل العبقرى عندما يغادر الحياة يترك أهم ما لديه ــ أعماله التى تسجل حكمته وعاطفته وسمو روحه، ولكنه يظل فى جانب منه دائمًا لغزًا. لقد كان دستويڤسكى محقًا تمامًا عندما قال عن بوشكين إن على معاصريه ومن يجيئون من بعده أن يكشفوا لغزه. على أى الأحوال فإننا ندرك بوشكين ونفهمه على نحو أكمل، وأوضح مما ندركه ونفهمه عن دستويڤسكى، بل إننا نملك القدرة على فهم ورسم صورة أوضح لعملاق آخر هو ليف تولستوى، وإن كانت خطوطها خشنة، إلا أنها تبين لنا ملامحه أكثر حدة وجلاء. مثل هذا الأمر لا ينطبق على دستويڤسكى مطلقًا. فعندما يبدو لنا أننا وضعنا أيدينا على جانب بارز هنا من جوانب شخصية أو ملمح ما جوهرى فيها، نعثر هناك على ما يحجب ما قد وجدناه، وما يقال بشأنه من أساطير، تدحضه على الجانب الآخر تمامًا تفسيرات مختلفة اختلاف الليل والنهار. إن دستويڤسكى فى ضوء ما كتب معاصروه ــ متقلب الأهواء، متعدد الأوجه، يعد أحيانًا شخصًا منفرًا يثير الشعور بالكراهية الشديدة، وفى الوقت نفسه نجد صورة المثالى الرومانسى التقى تفيض ألقًا على صفحات مذكرات أخرى.

(*) ك. أتينجر: فى ضيافة أرملة دستويڤسكى، صحيفة «بيرجيڤى ڤيدوموستى»، ٣٠ يناير ١٩٠٦، العدد ٩١٧٨.

من دستويفسكى الحقيقى؟ ما طبيعته المتفردة، التى انتقلت مباشرة إلى إبداعه بعدما انصهرت فى خلق خيال عظيم؟ ما مدى ارتباط شخصية دستويفسكى بمأثرة الفنان؟ إن كل من تناول عالم دستويفسكى الفنى وحياته الشخصية لا يمكنه إلا أن يطرح على نفسه مثل هذه الأسئلة مثلما طرحتها على نفسها زوجة الكاتب.

على أن ظهور مذكرات معاصرى الكاتب التى كثيرًا ما شوّهت بفظاظة شخصيته الكاتب واعتبارها شخصية قدرية، ثنائية مريضة، عابسة، متجهمة، مُعذَّبة، يعد أهم الأسباب التى دفعت أنّا جريجوريڤنا لإعادة الحقيقة والحديث عن دستويفسكى الحقيقى. إن النجاح الكامل فوق وسع أى كاتب مذكرات. من المعروف أن دستويفسكى فى نوبة من نوبات الصراحة القاسية قال: «إن أسوأ ما فى الأمر أن طبيعتى سافلة وشهوانية للغاية، إننى اندفع إلى أقصى حد فى كل شىء، لقد قضيت عمرى كله منطلقًا وراء الشيطان»(*) عن دستويفسكى «الذى تجاوز الحدود وراء الشيطان» لم تذكر لنا أنّا جريجوريڤنا كلمة واحدة تقريبًا، لم تجسر أنّا (ولم يكن بنيتها) أن تنغمس فى أعماق الحياة الروحية والإبداعية المعقدة للكاتب. إن دستويفسكى المفكر والفنان، الذى عبر من خلال روحه وقلبه ووعيه عن الألم والأمل والشك واليأس عند راسكولنيكوف وإيفان كارامازوف وستافروجين والأمير ميشكين ظل دائمًا خارج حدود المذكرات. إن مذكرات أنّا جريجوريڤنا ليست سوى جزء من حقيقة فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكى، ولكن المهم هو الحقيقة.

تقول أنّا جريجوريڤنا للكاتب والناقد أ. اسماعيلوف: «إن هذه الخطابات ومذكراتى ضروريتان ليرى الناس فى النهاية هذا الشخص على نحو حقيقى. إن المذكرات التى كتبت عنه قد شوهت مرارًا صورته تمامًا»(**).

(*) ف. دستويفسكى، الخطابات، الجزء الثانى، موسكو، لينينجراد. ١٩٣٠ ص ٢٩.

(**) أ. إسماعيلوف، فى ضيافة أ. ج. دستويفسكايا (بمناسبة ٣٥ سنة على وفاة ف. م. دستويفسكى) ـ صحيفة بيرجيفى فيدوموستى، ٢٨ يناير ١٩١٦، العدد ١٥٣٥٠

أحـــيانًا تقـــوم زوجة دستويفسكى بالإشارة إلى ما تثيره مذكراتها من جدل بقولها «كثيرًا ما أشعر بالحيرة من أين جاءت هذه الأسطورة التى تتحدث عنه على أنه شخص عبوس كئيب، هذه الأسطورة التى تسنَّى لى أن أقرأ عنها وأن أسمع بها من معارفى».

وضعت أنّا جريجوريڤنا مذكراتها فى الفترة من عام ١٩١١ وحتى عام ١٩١٦ وتطلبت منها جهدًا فائقًا. وقد وفرت أنّا لمذكراتها كل ما يستلزمه هذا النوع من دقة متناهية. يمكننا أن نشكر سعى الكاتبة ـــ فى شروحها وتناولها لكل الحقائق المتنوعة من حياة دستويفسكى ـــ للدقة والموضوعية، وهذا فقط ما يمكن أن يفسر اعتمادها ولجوءها مرارًا إلى الخطابات ومسودات دستويفسكى وإلى خطابات أصدقائه وأقوال معاصريه.

تتسم مذكرات زوجة دستويفسكى بالعمق والمحاجاة والبساطة والطَبيعية، مستهدفة بذلك، بالدرجة الأولى، أن تقدم لقراء دستويفسكى كاتبهم بكل جوانبه المضيئة وأخطائه على نحو ما كانت عليه تمامًا «فى حياته العائلية والشخصية».

فى قصة «قلب ضعيف» يقترح دستويفسكى على القارئ ـــ فى معرض شرحه أسلوب القص «الفانتازى» الذى اختاره هنا ـــ أن يتخيل كيف يقوم رجل بتسجيل التيار المضطرب لأفكار زوج امرأة منتحرة يشرف على الجنون من جراء المصيبة التى حلت به وذلك بطريقة الاختزال. لا شك فى أن هذه المقارنة تحتوى فى جزء منها على ملاحظات الكاتب الشخصية المباشرة، فقد عاشت فى كنف دستويفسكى وعلى مدى أربعة عشر عامًا مختزلته العائلية التى سجلت أشياء عنه، والتى كانت لها انطباعاتها وآراؤها عمّا رأته وسمعته فى رفقتها له. كان دستويفسكى يمعن النظر بكل فضول فى هذه الرسوم الملغزة التى تشبه صنانير الصيد وقد تملكته الرغبة فى النفاذ إلى المغزى الكامن فى هذه الكتابات المسمارية التى كانت ذات صلة مباشرة به: «كان زوجى مهتمًا بيومياتى، وكثيرًا ما قال لى: «أدفـــع أغلى ما عندى لأعرف يا أنيتشكا ما الذى تعنيه بصنانيرك هذه التى تخطينها: لعلك تشتمينني؟»».

تمثل اليوميات «الغامضة» وأحاديث أنّا مع زوجها وكلاهما كتب بالاختزال، أساس هذه المذكرات. كتبت أنّا فى مقدمة مذكراتها أن جهودها أساسًا كانت (منصبَّة) على «الترجمة» من لغة الاختزال إلى لغة «قريبة المنال». على أن هذا العمل لم يكن مجرد تغيير ميكانيكى يؤدى فى النهاية إلى إعادة تنظيم المادة المسجلة بالاختزال بشكلها المشوش ثم تصحيحها أسلوبيًا. كانت أنّا جريجوريڤنا تأخذ من اليوميات الجانب الواقعى الخالص ومن هذه الانطباعات الغابرة التى تمثل ــ فى رأيها ــ أهمية كبرى فقط ؛ كانت تقوم من جديد بإعادة تصور كل شىء. مقارنةً انطباعات وعواطف الشباب مع معرفة وخبرة الحاضر. مع الزمن راحت الذكريات المريرة الثقيلة تضطرب فى الذاكرة لتهبط إلى القاع وتعلوها الذكريات السارة البهيجة. لقد بدت المشاعر الخاصة وشتى أنواع المعاناة لصاحبة الذكريات أمورًا طفولية ساذجة لا يستحق إلا القليل منها أن يذكر.

إن مقارنة «يوميات» عام ١٨٦٧ التى حُلَّت شفرتها والصفحات المقابلة لها عن نفس الفترة من الذكريات، تسمح لنا أن نحكم على أى نحو كانت أنَّا جريجوريڤنا تعيد صياغة التسجيل المباشر دون إبطاء. إن يوميات فتاة فى العشرينيات من عمرها هى يوميات مشوشة تشوبها المباشرة الطفولية، إنها تسجيل لأحداث وأفكار ذاتية وثيقة، شديدة الخصوصية والعاطفية، حيث يضع المرء كل شىء تقريبًا دون ترتيب ودون رقابة من العقل، ولكن لعل هذا بالضبط هو الذى يجعل «اليوميات»، فى جانب من جوانبها، أكثر وثائق الذكريات صدقًا لما تحويه من صورة التوتر الدرامى فى حياة آل دستويڤسكى فى عامهما الأول بعد الزواج، وقد رسمت بحدة خاصة. وعلى العكس من ذلك نجد أن المذكرات هى حصيلة الخبرة الواعية لحياة طويلة صعبة عاشتها امرأة تدرك تمامًا واجبها تجاه ذكرى زوجها ثم مسؤوليتها أمام جمهور القراء.

فى المذكرات نجد اقتباسًا مسهبًا من يوميات ١٨٦٧ . فى الوقت نفسه أُسقطت كثير من المقاطع والتفاصيل، إما لأنها غير ذات علاقة مباشرة بدستويڤسكى،وإمَّا لأنها تتكرر بعضها مع بعض، الأمر الذى نتج عنه أن القص اكتسب (بعد أن تجنب كثيرًا من الأجزاء المكررة فى اليوميات والأشياء ذات الصلة الحميمة التى تخص أنَّا جريجوريڤنا وحدها) عددًا من الصفحات، لكن أنَّا اكتفت فقط بإزاحة «الأمور التافهة» وذات

الحميمية القصوى من المذكرات، ولم تخفِ العديد من المشاهد الدرامية فى حياتها مع زوجها خارج روسيا وإنما راحت دون مواربة «تخفف» من وطأتها ومن اليأس والهزات العصبية، التى شابت هذه الحياة المضطربة الجنونية فى بادن بادن، وهكذا لم تنقل أنّا جريجوريڤنا ما امتلأ به دفتر يومياتها من أحداث إلى مذكراتها إلا القليل. لم تأت أنَّا جريجوريڤنا إطلاقًا على ذكر أبوليناريا سوسلوفا، التى عاشت مع دستويڤسكى قصة غرامية عاصفة قبيل لقائه بأنَّا، وفى مذكراتها رسمت لفيودور ميخايلوڤيتش صورة أكثر نعومة «ومثالية» (خلافًا لصورة «فيديتشكا»(*) المضطرب، الذى كان يفاجئها دومًا بتصرفاته غير المتوقعة، كما وردت قبل ذلك فى دفتر «يومياتها»).

لقد توصلت أنَّا جريجوريڤنا للنبرة الموضوعية لقصِّها «التسجيلى» دون أن تسقط إطلاقًا فى التزييف. لقد حافظت صاحبة المذكرات بلا حدود على مشاعرها الذاتية من حب وكراهية (وإن لم تنجح دائمًا فى إخفاء الأخير، فعلى سبيل المثال: لم تستطع أن تخفى نفورها الحاد الذى انفجر تجاه ابن زوجة دستويڤسكى الأولى، والذى كان يستحقه كثيرًا فى الحقيقة)؛ كما لم تحاول أن تخفى حبها الذى لا حدود له تجاه دستويڤسكى، على أنها كثيرًا ما كانت، مع ذلك، تفقد إحساسها بهذه الحدود لتصل إلى فرط الحماس والتضرع؛ فها هى تتحدث إلى ليڤ تولستوى وهى على حال من العصبيــة والحمــاس الزائد قائلة: «قال زوجى إنه يشعر بالفرح لأنه المثل الأعلى للإنسان! إن كل الخصال الأخلاقية والروحية التى تضفى على الإنسان جمالاً وبهاء قد تمثلت فيه فى أعلى درجاتها. كان طيبًا، وخيِّرًا، ورؤوفًا، وعادلاً، وكريمًا، ورقيقًا، ودمثًا، وشفوقًا، لامثيل له!». على أن كل هذا «التشويش» إنما يمثل حالات نادرة للغاية، يمكن تفسيرها على الأكثر بتضارب الجدلية الداخلية للمذكرات. وقد جاء فى شهادة أحد المعاصرين أن أنّا جريجوريڤنا «كانت تولى جل اهتمامها لمراجعة كل ما كتب عن دستويڤسكى وأنها كانت تشعر بالحزن العميق إذا ما صادفت نقدًا لاذعًا له كإنسان!(**).

(*) فيديتشكا: اسم التدليل لفيودور (المترجم).

(**) ن. سلونيمسكى، زوجة دستويڤسكى. صحيفة «نوڤيى فيدوموستى»، المسائية براج، ١٩١٨، الثالث من أغسطس، العدد ١٢٧

فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى هو الموضوع الرئيسى لهذه المذكرات، أما قصة دستويڤسكى، رب الأسرة والزوج الذى يهيم عشقًا برفيقة عمره والأب الرؤوم، فهى محور هذا الكتاب؛ «إنه الشخصية الرئيسية والأهم تقريبا فيها»؛ بينما تأتى أنَّا جريجوريڤنا نفسها فى المرتبة الثانية، إذ تبقى فى الظل، حيث تقوم هناك بدور الزوجة المتواضعة كاتبة السيرة، مهمتها إبراز السمات الشخصية الفريدة لزوجها، وحتى وهى تقص ذكرى الأيام الحزينة من صيف عام ١٨٦٨، المجللة بموت الابنة البكر سونيا، تتحدث أنَّا جريجوريڤنا عن مشاعر الأمومة وعن معاناتها آنذاك بتحفظ تام. وسوف نعرف فيما بعد من ابنتها الأخرى لوبوف فيودوروڤنا مدى اللوعة التى كانت عليها أمها، وكيف كانت تترك بيتها فى ڤيڤى(*) لتزور قبر طفلتها الراحلة فى جبانة چنيف، وبالإضافة إلى ذلك تكتب أنّا فى مذكراتها عن أحزان زوجها، أكثر مما تكتب عن معاناتها هى، كما تسجل «خوفها» عليه فى تلك الفترة العصيبة. كانت أنَّا على اقتناع تام «أن المرء لا يظهر معدنه، مثلما يظهر فى حياته العادية وبين أفراد عائلته، وقد سعت أنّا جهد استطاعتها أن تصف هذه الحياة تفصيلاً، وألاَّ تترك شاردة أو واردة إلا أحصتها، وأن تبرز السمات المميزة لدستويڤسكى وأن تحكى عن عادات وميول وغرائب وولع هذا «الإنسان الخاص». ومن جديد تعيد أنّا جريجوريڤنا «بناء» نمط وظروف الحياة والنظام اليومى الذى كان يحياه الكاتب.

يقول أبوللون مايكوف(**)، أحد أقرب الأصدقاء إلى قلب دستويڤسكى، فى الكلمة التى ألقاها فى الوداع الأخير للكاتب، إن أحدًا ليس باستطاعته أن يجيب عن سؤال: من هو دستويڤسكى، إلا أصدقاؤه وأقاربه. يقول مايكوف: اسألوا أنّا جريجوريڤنا عن

(*) ڤيڤى Vevey: مدينة فى سويسرا، تقع على بحيرة ليمان (المترجم)

(**) مايكوف، أبوللون نيكولايڤيتش (١٨٢١ ـ١٨٩٧): شاعر، تعرف عليه دستويڤسكى عام ١٨٤٦ فى بيت الناقد الروسى الكبير ڤيساريون بيلينسكى، وامتدت صداقتهما طوال العمر، كان مايكوف محط ثقة دستويڤسكى، عمل فى صحيفتى الأخوين دستويڤسكى «الزمن» و«العصر» (المترجم).

فيودور دستويفسكى، ستقول لكم: أوه، كم كان زوجًا رائعًا! كم أحبنى، وكم أحببته!»، وماذا سيقول عنه أصدقاؤه، ستتناول إجاباتهم، ربما، كثيرًا من التفاصيل، وكثيرًا من المواقف المتناثرة، وأيضًا كثيرًا من النوادر والطرائف، لكنها لن تجيب بأى حال على الأسئلة الملحَّة. باختصار، لن تشفى غليلنا <...> لايهمنى أن أعرف عن عظماء الناس وعن كبار الكُتَّاب، بصفة خاصة، أى بيوت سكنوا، أو أى ملابس ارتدوا، لايهمنى أن أرى الأشياء التى كانوا يملكونها قديمًا، عُلب النشوق القيِّمة، القبعات، المحابر وريش الكتابة وهلمجرا. إن كل هذه الأشياء الصغيرة التى كانت لديهم إبان حياتهم، ليست سوى ألوان، ولمسات، وتفاصيل تافهة»(*)

كانت أنَّا جريجوريفنا تعرف جيدًا، على الأرجح، هذه المقولة المليئة بالتشكيك فى المذكرات، التى ترسم صورة للبيئة التى يعيش فيها المبرزون من الناس وحياتهم فى محيط أسرهم، إنها، رغم ذلك، أقدمت فى شجاعة على كتابة مذكرات فى مخطط متواضع «شخصى». على أن «الألوان واللمسات والتفاصيل التافهة»، التى تحدث عنها مايكوف باستهانة واضحة قد أضفت على قصة أنَّا جريجوريفنا مغزًى وجاذبية لاينقطع أثرهما.

لاتولى أنّا جريجوريفنا أهمية فائقة للأسماء (المهمة فى حد ذاتها) بقدر ما توليها للكتابة عن المثل الجمالية ولذائقة دستويفسكى الفنية ونقلها، بحرص بالغ، لتقديرات الكاتب ومعاناته. إن القصة التى أوردتها صاحبة المذكرات بشأن الصدمة التى أصابت دستويفسكى فى بازل لدى مشاهدته للمرة الأولى للوحة الأصلية الشهيرة للرسام هانز هولباين الابن(**) والمعروفة باسم «المسيح الميت»، لايمكن إلا أن تجذب اهتمام القارئ

(*) السـيرة الذاتيـة، خطابات، ملاحظات من مفكرة دستويفسكى، سان بطرسبورج ١٨٨٣،٥٥ (الملحق).

(**) هانز هولباين الابن، أو هانز هولباين الصغير(بالألمانية Hanz Holbein der Jüngere) (١٤٩٧ أو ١٤٩٨ ــ ١٥٤٣)، فنان ألمانى من عصر النهضة، ويعتبر من أكبر رسامى البورتريهات فى عصره. والده هو الرسام هانز هولباين الكبير. استقر فى إنجلترا تمامًا منذ عام ١٥٣٢، وكان قد نال حظوة كبيرة عند ملوك إنجلترا وأصبح رسام البلاط (المترجم).

بشدة. ومن المعروف أن لوحة هولباين اكتسبت مغزًى رمزيًا فريدًا فى رواية «الأبله»، كما أنها مثلت أهمية فائقة فى فهم الفكرة الرئيسية للرواية.

انتقلت كاتبة المذكرات من وصف الحياة العاصفة فى العاصمة بطرسبورج، الهادئة فى ريف ستاريا روسا، إلى وصف الصور الأخَّاذة لأوروبا الغربية عشية اندلاع كل من الحرب الفرنسية البروسية وأحداث كومونة باريس. هنا تظهر أمام القارئ مشاهد من الحياة السياسية فى ألمانيا والمجر النمسوية وسويسرا وإيطاليا. وربما كانت المشاهد الخاصة بحياتها فى «المهجر»من أكثر أجزاء المذكرات أهمية، حيث حكت أنّا إلى أى درجة كان دستويفسكى مولعًا بفنون أوروبا القديمة العظيمة وبفنانيها وموسيقييها ومعمارييها.

ربما لم يلتفت أحد من الباحثين، الذين درسوا إبداع دستويفسكى، إلى بعض الصفحات القليلة من المذكرات، وإن كانت على قدر كبير من الأهمية، حيث يدور الحديث عن علاقة الكاتب بمعاصريه من الكُتَّاب والصحفيين والعلماء والشخصيات العامة، تلك العلاقة التى شابها التعقيد تارة، والالتباس والتناقض تارة أخرى، مثل نكراسوف وتورجبينيف وأوجاريف ومايكوف وستراخوف وجونتشاروف وسولوڤيوف وكاتكوف وبوبيَّدونوستسيف وغيرهم.

إن الشهادات المقتضبة والشحيحة التى أوردتها أنّا جريجوريڤنا عن لقاءات دستويڤسكى ونكراسوف تمثل أهمية فائقة لمؤرخى الأدب، فضلاً عن أنها تمثل أيضًا أهمية من وجهة نظر سيكولوچية العلاقات الإنسانية، وعلى حد قول كاتبة المذكرات، فإن مبدع «الفقراء»كان «سعيدًا للغاية بتجديد علاقات الود والصداقة مع نِكراسوف، صاحب الموهبة الفذة، التى كان دستويڤسكى يقدرها تقديرًا رفيعًا». «كان دستويڤسكى يعوده أحيانًا ليطمئن على صحته، وقد طلب ذات مرة ألا يوقظوا المريض، وأن يبلغوه تحياته القلبية فقط».

نِكراسوف يترك «أغنياته الأخيرة» أمانة لدى الرجل الذى كان خصمه الفكرى منذ زمن غير بعيد، ودستويڤسكى، وقد صدمته وفاة نِكراسوف(*)، يروح يقرأ بصوت مرتفع طوال الليل قصائد «شاعر الانتقام والحزن»، «دُرَر الشعر الروسى الحقيقية»، كما وصفها هو نفسه، وأخيرًا، دستويڤسكى يمشى إلى قبر صديق شبابه ليلقى خطابه الحماسى عند قبره، كما يلقى خطبًا أخرى على الملأ مستشهدًا بأشعار من نِكراسوف، تلك الأشعار التى لاقت نجاحًا كبيرًا لدى الشباب الروسى، كل هذه التفاصيل المهمة لاتكتمل دونها لا سيرة دستويڤسكى ولا تصورنا للعصر الذى عاش فيه.

فى مذكرات أنّا جريجوريڤنا يرد ذكر اللقاءات القصيرة، التى جرت فى چينيف عام ١٨٦٧ بين دستويڤسكى وأوجاريف: «كثير من قصائد هذا الشاعر المخلص ــ كما جاء فى المذكرات ــ كانت تلقى من الكاتب تقديرًا رفيعًا». ولكن ها هى التفاصيل المعبرة والبارزة تصور لنا مرة أخرى المعايير الأخلاقية لحياة المثقفين الإبداعية فى روسيا. ها هو شاعر مريض بلغ من العمر أرذله، يقضى سنوات عمره الأخيرة بعيدًا عن الوطن، يحاول جاهدًا أن يجعل من وجود دستويڤسكى فى چينيف أمرًا سارًا، فيروح يُعيره الكتب والمجلات، بل ويصل الأمر به فى بعض الأحيان أن يقرضه بعض المبالغ المالية البسيطة.

إن القصة التى ترويها صاحبة المذكرات عن اللقاء، الذى ظل مرتقبًا ومأمولاً بين تولستوى ودستويڤسكى، وكذلك وصف الأمسيات الثقافية التى شارك فيها الكاتب، ثم قصة الانفصال بين دستويڤسكى وميشيرسكى، رئيس تحرير مجلة «جراچدانين» (المواطن)(**)، التى عمل فيها صاحب «مذكرة الكاتب» (دستويڤسكى ــ المترجم)

(*) نكراسوف، نيكولاى ألكسيڤيتش (١٨٢١ ــ ١٨٧٧): شاعر، نشر عددًا من الدواوين وأصدر تقاويم أدبية منها «منتخب بطرسبورج» (١٨٤٦). أصدر مجلتى «سوڤريمينيك» (المعاصر) (١٨٤٧ ــ ١٨٦٦) «أوتيتشيستڤينى زابيسكى» (حوليات الوطن) ١٨٦٦ ــ ١٨٧٧) والأخيرة نشرت رواية دستويڤسكى الأولى «الفقراء» (المترجم).

(**) جراچدانين (١٨٧٢ ــ ١٩١٤): صحيفة ومجلة سياسية وأدبية ذات اتجاه ملكى محافظ. أصدرها فى بطرسبورج ف. ميشيرسكى. عمل دستويڤسكى رئيسًا لتحريرها بعد عودته من الخارج. (المترجم)

بهمة وحماس، بالإضافة إلى «التفاصيل الصغيرة» التى تبرز سمات حياة واحد من أكثر فنانى العالم عبقرية وإبداعًا، تكتسب أيضًا أهمية بالغة. ولعل من أكثر الأمور أهمية بشكل خاص ما أوردته أنّا جريجوريڤنا فى مذكراتها بشأن الأفكار الأولية لدستويڤسكى التى لم تخرج إلى النور، وكذلك المشروعات الجديدة وإعادة صياغة المؤلفات اعتمادًا على المسوّدات التى دُمِّرت أو فُقدت. وللأسف فإن «المذكرات» لا تترك شكوكًا حول قيام دستويڤسكى بإحراق مسودات روايات «الأبله» و «الزوج الأبدى» و«الشياطين».

كتبت أنّا جريجوريڤنا فى مقدمة لها لواحد من الأعمال الكاملة لدستويڤسكى تقول: «كثيرًا ما كنت أقابل، وأنا أعيد قراءة أعمال زوجى خالد الذكر، ملامح من حياته الشخصية، وعاداته وقد وُصفت من خلال أبطال الرواية، الظروف التى وقعت له ولأسرته، وهو الأمر الرئيسى هنا، وآراؤه الشخصية عن أمور كثيرة تم التعبير عنها بنفس العبارات التى تسنى لى سماعها منه. وقد بدا لى أنه قد يكون من الضرورى أن أشير إلى تلك الصفحات التى انعكست فيها صورة فيودور ميخايلوڤيتش»(*)

هذه النية من جانب زوجة دستويڤسكى، والتى كانت تعنى فى هذه الحالة كتابة عمل آخر،(**) تحققت بدرجة معلومة فى مذكراتها.

وفى معرض حديثها عن شجرة عائلتها، وعن شجرة عائلة زوجها، وعن اضطراب وكدر دستويڤسكى (وهى الأمور التى تحدثت عنها أنّا جريجوريڤنا بكل عطف نبيل فى مذكراتها) لم تلبث أن لفتت الانتباه إلى أنها كانت تقدم أحداث حياتها العائلية الحميمة، ولو بين سطور الهوامش. تلك الأحداث التى انعكست فيما بعد فى رواية «الشياطين» (فى وصف زوجة شاتوف، وهو من أفضل المشاهد الدرامية فى الرواية). وفى تذكرها لوفاة ابنهما أليوشا وعن حزنها الذى لم يخمد أواره. وسوف تقدم لنا أنّا جريجوريڤنا،

(*) ل. ب. جروسمان سمينارات حول دستويڤسكى، مواد، ببليوجرافيا وتعليقات. براج، ١٩٢٢. ص ٥٤.

(**) سعت أنّا جريجوريڤنا أن تضع نظامًا لبعض الأفكار والملاحظات التى من شأنها أن تساعد على رؤية الحقائق المعيشية والواقعية فى أعمال دستويڤسكى، وعلى رأسها تلك الحقائق التى انعكست من خلالها شخصية الكاتب (المصدر السابق).

عن عمد، ملاحظتها حول أن «شكوكها وأفكارها وما قالته» كان لها صداها فى فصل «النساء المؤمنات» («الإخوة كارامازوف»). مثل هذه الملاحظات السريعة، العابرة اكتسبت قيمة كبيرة فى فهم طبيعة الأسلوب الإبداعى لدستويفسكى من حيث «اللمسات والألوان والتفاصيل» وقد قدمت المذكرات العديد منها. إن مذكرات أنّا جريجوريڤنا تنفى ببساطة نزعة الشك لدى مايكوف، بل إنها، على العكس من ذلك، تُعد تأكيدًا معبرًا عن أفكار دستويڤسكى الذى كان يذكر دائمًا، فى سياق وضعه تصورًا عن الإنسان، أنه لا ينبغى، بأى حال من الأحوال، إهمال التفاصيل الصغيرة؛ إذ إنها تأتى من خلال رؤية ثاقبة، وأنها تساعد فى فهم جوهر الشخصية وروح الإنسان وفى اكتشاف صورته الحقيقية. إن «التفاصيل الصغيرة» المعبرة، التى اكتشفتها بحس رهيف زوجة دستويڤسكى، تكشف، أفضل من أية أحكام مسهبة أخرى، عن سمات شخصيته، سواء باعتباره إنسانًا أو باعتباره فنانًا.

على أنه من الضرورى أن نلحظ هنا أمرًا آخر، ألا وهو أننا مهما ذكرنا من هذه التفاصيل أو غيرها، ومن وقائع مَن حياة دستويڤسكى وردت على لسان أنّا جريجوريڤنا فى مذكراتها، فإن أيًا منها، إذا ما أخذ بمفرده، لايمثل أمرًا مثيرًا، أو يكشف، من ناحية المبدأ، عن شىء جديد لم يكن معروفًا من قبل بفضل خطابات أو مذكرات معاصرين آخرين وأصدقاء ومقربين.

وفى واحد من خطاباته المبكرة إبان الزمن الصعب (١٨٦٧) كتب دستويڤسكى إلى زوجته يقول: «عادة ما تشاهديننى يا آنيا عبوسًا، كئيبًا ونزقًا؛ ليس هذا سوى أمر ظاهرى؛ ولعلى دائمًا ما كنت أبدو على هذا النحو، خائر العزم، سيىء الحظ، أما باطنى فشىء آخر، صدقينى، صدقينى!»(*) إن هذا «الشىء الآخر»، «الباطنى»، «الحقيقى»، هو ما كانت أنّا جريجوريڤنا تقدره وتحبه على نحو خاص فى دستويڤسكى، وهو ما أحست به منذ لقاءاتهما الأولى، وهو ما تسنى أيضًا لأنّا وحدها أن تدركه

(*) ف.م. دستويڤسكى، الخطابات، المجلد الثانى، ص٧.

وقــد عرضت أنّا «معرفتها» بكل هذا عبر مذكراتها كلها. إن مذكرات أنّا جريجوريڤنا تمثل فى مجملها شيئًا متميزًا وثمينًا، فقد صححت هذه المذكرات رؤيتنا للكاتب وفتحت الباب أمامنا للمرة الأولى لندلف إلى داخل بيت دستويڤسكى، وأخذت بيد القارئ إليه، بعد أن قدمت له رجلاً آخر لم يعرفه أحد سواها، وعلى هذا النحو سوف تقدم لنا أنّا، على سبيل المثال، دستويڤسكى فى لحظة من لحظات اعترافه. أو وهو يرتجل أمام زوجة المستقبل موضوع الرواية التى هو بصدد كتابتها، فيصف لها الحبكة التى سينسج من خلالها «الحالة النفسية لفتاة شابة». إنه يؤلف الرواية ويحكى، فى الوقت نفسه، سيرته الذاتية دون أن يزيل الحد الفاصل بين الفن والحياة، وإنما يُفسِّر بشكل واضح كيف يمكن عبور هذا الحد. لم يكن دستويڤسكى ينتظر من مستمعته أن تفهم ما يقول بدقة ورهافة وأن تبدى رأيها فيه فحسب، وإنما كان يتلهف على أن تتخذ قرارها الحيوى الحاسم (على الرغم من أنه كان يعلم منذ زمن بعيد الشعور الذى تولّد لدى أنّا جريجوريڤنا). لقد كان رفضها يمثل لدستويڤسكى هزيمة وكارثة. إن كتابات أنّا جريجوريڤنا بكل ما فيها من سلامة الطوية تنقل لنا بشكل رائع ما اعتمل فى نفس دستويڤسكى من مشاعر غريبة اختلطت فيها عزة النفس بالكبرياء والشك وافتقاد الثقة. إنها فى واقع الأمر حالة درامية مؤلمة.

فى هذه المذكرات تتكشف أمامنا بصورة تلقائية ودون أى ضغط، بطبيعة الحال، السمات الرفيعة للصورة الأخلاقية لدستويڤسكى: بساطة الأمير ميشكين(*) وكماله، عبقرية مميزة مع ابتعاد عن الوجاهة، وكلها سمات تجمعه ببوشكين وليف تولستوى. تأكيدًا لهذا المعنى يعبر ذلك «المشهد من مشاهد الحياة» والذى تحكيه أنّا جريجوريڤنا عن مبدع «الجريمة والعقاب» و «الأبله» تعبيرًا عميقًا عن الكاتب المجيد، الفيلسوف والمفكر، صاحب الشخصيات التراجيدية فى «الإخوة كارامازوف» وقد راح يمشى على غير هدى فى ستاريا روسا وقد أخذ به القلق والاضطراب كل مأخذ بحثًا عن، يعلم الله، أين اختفت الأبقار «المستأجرة» خوفًا من أن يبقى الأطفال بلا حليب...

(*) الأمير ميشكين: بطل رواية «الأبله» (المترجم).

ولم يكن هناك سوى دستويفسكى الذى استطاع أن يكتب إلى زوجته أيام الاحتفال ببوشكين(*) (الذى تحول أيضًا إلى انتصار لمؤلف «الإخوة كارامازوف» وخطاب عن بوشكين أنه فى حالة من الإحباط الهائل؛ إذ إن غرفته الباهظة السعر فى الفندق يتم سداد إيجارها من خزينة المدينة، وهو على استعداد للهروب منها، بسبب شعوره بالحرج البالغ من جراء ذلك...

أمامنا الآن دستويفسكى فى نهاية الستينيات، فى أسوأ أيام هزائمه وفاقته وبؤسه، وإن لم يفقد فيها أناقته أو شعوره بكرامته الشخصية، هذا هو دستويفسكى، الرجل صاحب الذوق الرفيع فى تقدير الأشياء الجميلة، يملؤه الشعور بالمتعة إذا ما أتيحت له أدنى فرصة لإسعاد المقربين منه، أمامنا إنسان اختصه القدر بحياة مفعمة بالتقلبات المأسوية، إنسان تأرجح أكثر من مرة على الهاوية، ومع ذلك راح يحتفى بالحياة على نحو أشد قوة. وها هو، باعتباره رب الأسرة، يمرح فى سعادة بكل خلجات قلبه مثل طفل، حول شجرة عيد الميلاد. يرقص الفالس بنكران للذات، ثم ها هو يسهر الليل بطوله مسهدًا إلى جوار ابنه النزق بسبب إطفاء أنوار شجرة عيد الميلاد منذ فترة طويلة...

عندما يطالع المرء المذكرات يدرك على الفور أنه لم يكن بمقدور أحد سوى دستويفسكى أن يكتب إلى أصدقائه متحدثًا عن الأطفال على هذا النحو: «إننى أدرسهم، وهو ما كنت أفعله وأحبه للغاية طوال حياتى»؛ «... إلى أى حد يضفون على الوجود طابعًا إنسانيًا بكل ما فى هذه الكلمة من معان... هؤلاء تصبح الحياة دونهم بلا غاية(**)، ذلكم دستويفسكى وحده القادر على وصف جنازة إيليوشيتشيكا(***) بمثل هذه القدرة الدرامية الهائلة، أو أن يحكى بمثل هذا الحنان الأبوى الذى يمس شغاف

(*) الاحتفال ببوشكين: بدأ بإزاحة الستار عن تمثاله فى موسكو فى السادس من يونيو ١٨٨٠ وانتهى فى الثامن من نفس الشهر بخطاب دستويفسكى الشهير عن بوشكين وقراءته لبعض من أشعاره ثم وضعه لأكليل من الزهور عند تمثاله. (المترجم)

(**) ف.م. دستويفسكى، الخطابات، المجلد الرابع، ص٧، ٦٧

(***) للاطلاع على هذا الوصف، انظر «أعمال دستويفسكى الأدبية» المجلد ١٨، الإخوة كارامازوف، الجزء ٣، ص ٥٦٣، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، ترجمة سامى الدروبى (المترجم).

القلب عن أطفال مارميلادوف(*) التعساء... إن كل ما خطه يراع أنّا جريجوريڤنا عن حب دستويڤسكى لأطفالهما، هو «تعليق» له قيمته الكبرى للعديد من مؤلفات الكاتب، الذى غالبًا ما نجد فيها البطل الصغير، مع إحساس عميق بالأسى والتعاطف من جانب المؤلف المبدع.

لقد جانب أنّا جريجوريڤنا التوفيق فى عدد من التعميمات والاستنتاجات التى وردت فى مذكراتها، حيث فضَّلت الانحياز إلى آراء غيرها من أصحاب المذكرات الأخرى بعد أن غلبها شعور بعدم الرضا عن ملاحظاتها الشخصية أو، ببساطة، نتيجة لفقدان الثقة فى ذاتها. ففى معرض تلميحها لمحصلة السنوات التى قضياها خارج روسيا تستشهد أنّا جريجوريڤنا بما كتبه ن.ن. ستراخوف(**) حيث يقول: «أصبح دستويڤسكى ينحو بالحديث دون توقف نحو موضوعات ذات صبغة دينية، زد على ذلك أن طريقته فى التعامل مع الآخرين قد طرأ عليها تغيير، فاكتسبت قدرًا من الرقة والدماثة، بل وصلت فى بعض الأحيان إلى الوداعة الشديدة». «وحتى ملامح وجهه حملت أثرًا من هذا المزاج، وظهرت على شفتيه ابتسامة حنونة... لقد استقرت بداخله، بداهة، أفضل المشاعر المسيحية، تلك المشاعر التى راحت تعبر عن نفسها أكثر فأكثر وعلى نحو أشد وضوحًا فى مؤلفاته. وعلى هذا النحو عاد من الخارج». لقد رأت أنّا جريجوريڤنا أن الوصف الذى قدمه ستراخوف تميز بالعمق والإخلاص (دون أن ينتابها شك فى الضربة التى ستحيق بها لاحقًا من هذا الصديق المخلص العليم بكل شىء) والذى زعموا أنه رسم صورة حقيقية للتحول الروحى لدستويڤسكى فى الخارج ولصورته المسيحية الجديدة. لحسن الحظ أن كلمات ستراخوف ظلت غريبة وخارج سياق المذكرات؛ إن ما حكته أنّا جريجوريڤنا نفسها لا يقدم ما يعزز هذه الآراء والاستنتاجات التى قدمها الناقد

(*) انظر، المرجع السابق، المجلد٨، الجريمة والعقاب، الجزء ١، الفصل١ (المترجم).

(**) ستراخوف، نيكولاى نيكولايڤيتش (١٨٢٨ ــ ١٨٩٦): كاتب ناقد، فيلسوف، مؤلف «مذكرات عن فيودور دستويڤسكى». عمل فى مجلتى الأخوين دستويڤسكى «الزمن» و «العصر». تميزت علاقته بدستويڤسكى بالصفاء تارة وبالجفاء تارة أخرى (المترجم).

(ستراخوف)، والتى كثيرًا ما نفتها أنّا نفسها، بل إنها رسمت دستويڤسكى فى صورة المتمرد أكثر منه فى صورة المسالم.

بطبيعة الحال فإن آراء أنّا جريجوريڤنا المحافظة فى معظمها كان لها أكبر الأثر فى تعاطفها وتقديراتها، يكشف عن هذا، ربما، وعلى نحو مقنع، وصفها المفعم بالحماس تجاه شخصية بوبيدونوستسيف، ثم حديثها المستفيض عن علاقات دستويڤسكى «الرفيعة»، كما كانت تفخر بما تبديه الشخصيات البارزة فى البلاط القيصرى من تقدير لدستويڤسكى وأسرته، وكثيرًا ما كان تعاطفهما مع البلاط يصل إلى حد كبير من المغالاة التى تتنافى وخصال دستويڤسكى. فبينما كان دستويڤسكى، على الرغم من إدانته لڤيرا زاسوليتش(*)، يؤيد العفو عنها، أبدت أنّا جريجوريڤنا، تبعًا لما ورد فى مذكرات م. ن. ستويونينا(**)، استياءها لما أظهره فسيڤولد سولوڤيوف من تعاطف مع قتلة القيصر ألكسندر الثانى. وهكذا يظهر دستويڤسكى، على ضوء ما ذكرته أنّا جريجوريڤنا، ملكيًا راسخ العقيدة، ومحافظًا شديدًا، عميق الإخلاص والتفانى للقيصر وللمذهب الأرثوذوكسى، على أن كل هذه التصنيفات المباشرة القاطعة من شأنها أن تؤدى إلى تناقض لا حل له مع الأمر الأكثر أهمية ونعنى به الإبداع الفنى لدستويڤسكى.

من السخف، بطبيعة الحال، أن ننفى الموضوعات ذات الصبغة الرجعية فى إبداع دستويڤسكى وتعاون الكاتب مع صحيفة «جرچدانين» (المواطن)، التى كان يصدرها ميشيرسكى، وعلاقة الصداقة التى كانت تربط دستويڤسكى وبوبيدونوستسيف «مراسله الفاضل المحترم». إذًا لم تكن هذه الأمور مجرد مظاهر «عفوية» عابرة فى

(*) ڤيرا إيڤانوڤنا زاسوليتش (١٨٤٩ ــ ١٩١٩): عضو فى حركة روسيا الثورية. عضو فى حركة الشعب. قامت باغتيال عمدة مدينة بطرسبورج، ف. تريبوف. عملت بصحيفتى «إيسكرا» و«زاريا» انضمت لحركة المناشفة منذ عام ١٩٠٣ (المترجم).

(**) ماريا نيكولايڤنا ستويونينا (١٨٤٦ ــ ١٩٤٠): معلمة، صديقة زوجة دستويڤسكى فى المدرسة الثانوية. صاحبة «مذكرات عن دستويڤسكى» التى نشرت فى دور النشر المهجرية، تحدثت فيها عن الحياة اليومية لأسرة دستويڤسكى، التى زارتها مرات عديدة (المترجم).

سيرة دستويفسكي، هى صفحات تزخر بالتحيز، وبخاصة إبان عمله فى كتابة رواية «الشياطين»، إن الصفحات المليئة بالهجاء فى روايات دستويفسكى، وفى مقالاته بشأن المسألة الشرقية(*)، وجميعها تتحدث عن النزعات الملكية والسلافية الأصيلة، بل والراسخة فى إبداع الكاتب.

كل هذا لايمثل سوى جانب واحد، وليس الجانب الرئيسى من نشاط دستويفسكى، سواء الروائى، أو الكاتب الاجتماعى. إن الموضوعات التى حملت سمة التمرد فى روايات دستويفسكى فى السنوات الأخيرة من حياته لم تفقد أوارها وإنما على العكس من ذلك، قد اكتسبت قوة كونية حقيقية. كذلك لم تختفِ على الإطلاق الأفكار الاجتماعية فى قصة «حلم رجل مضحك» على سبيل المثال، هنا تظهر كل المثل العظيمة للطوباويين الاجتماعيين الأفذاذ: فورييه، لامينيه وكونسيديران، الذين آمن بهم دستويفسكى فى مقتبل حياته.

لم يستطع دستويفسكى أن يدرك أن حلم الجمع بين «القيصر المحرر» والشعب هو حلم هش للغاية فى جوهر الأمر وشديد الطوباوية، وهو ما تعكسه على وجه الخصوص الكلمات التالية الواردة فى مذكرة دستويفسكى: «إننى، شأنى فى ذلك شأن بوشكين، خادم للقيصر، فشعبه هم أبناؤه الذين لا يترددون فى أن يكونوا خدمًا له. وسوف أكون أكثر من ذلك خادمًا له، عندما يؤمن هو حقًا أن شعبه هم أبناؤه، وإن ظل طويلاً لايؤمن بذلك(**) أما كراهية دستويفسكى لبورجوازية الحضارة «الغربية» فقد راحت تزداد أوارًا كلما ازدادت «نجاحاتها» فى روسيا.

وقد قادت النزعة الإنسانية «المتعطشة» لدى دستويفسكى والساعية إلى تحقيق مثل الحرية والمساواة والأخوة الحقيقية فى روسيا، قادت دستويفسكى دون هوادة إلى

(*) المقصود بالهجاء هنا هو هجوم دستويفسكى على الاشتراكية فى هذه الأعمال (المترجم).

(**) سيرة حياة دستويفسكى، خطابات وملاحظات من دفاتر مذكراته. سان بطرسبورج ١٨٨٣، ص ٣٦٦.

نزاعات، وإلى حالات من «سوء الفهم» مع «رفاق فكره» و»أصدقائه» و «حلفائه». وقد تركز حلمه الأخـــير فى أصحاب «المعاطف الرمادية»، وهم وفد أقيم على غرار الجمعية الوطنية، كان من المفترض أن يقدم حلاً لكل المشكلات المُلحّة والمتراكمة، فى الوقت الذى كان فيه كاتكوف(*) وميشيرسكى(**) وليونتيف(***) وبوبيدونوستسيڤ يتطلعون إلى أمر آخر مختلف تمامًا، فهؤلاء كانوا يسعون لكبح جماح حركة التحرير، التى بدأت فى أعقاب إلغاء قانون القنانة والطبقات (١٨٦١)، والتى كانت تهدد بتغييرات غير مسبوقة، وحماية مصالح طبقة النبلاء من تطاولات «أصحاب المعاطف» و«السترات»، كما كانوا يريدون أن يجعلوا من كل الإصلاحات «الليبرالية» المستقبلية أمرًا مستحيلاً، مهاجمين المؤسسات الديمقراطية الجديدة، مثل المحكمة العلنية والمجلس المحلى المنتخب فى الريف (الزيمستڤو).

لم تذكر أنّا جريجوريڤنا كلمة واحدة تقريبًا عن البلبلة الفكرية التى عاناها الكاتب، ولا عن تقلباته بين الإيمان تارة والكفر تارة أخرى، وعن الشكوك التى ما فتئت تنتابه، الأمر الذى بدا ملموسًا على نحو واضح وجلى فى رواياته ومقالاته، وقد وصف ليڤ تولستوى دستويڤسكى بأنه «كتلة من الصراع»، وأنه «مات وهو فى قمة صراعه الداخلى بين الخير والشر(****) لعل هذه الكلمات هى أكثر الكلمات التى قيلت عن الكاتب دقة وعدلاً إن القارئ الذى يطلع على مذكرات زوجة الكاتب سوف يتعرف قليلاً على هذا «الصراع الداخلى المشتعل»، فقد دأبت أنّا جريجوريڤنا على تخفيف صورة

(*) كاتكوف، ميخائيل نيكيفوروف (١٨١٨ ــ ١٨٨٧): ناشر رجعى، مترجم، صحفى، صاحب ورئيس تحرير مجلة «روسكى ڤيستنيك (البشير الروسى) وصحيفة «موسكوڤسكى ڤيدوموستى» (الوقائع الموسكوڤية).

(**) ميشيرسكى، ڤلاديمير بتروڤيتش (الأمير) (١٨٣٩ ــ ١٩١٤): ناشر وكاتب رجعى. أصدر فى عام ١٨٧٢ مجلة «جرچدانين» (المواطن).

(***) ليونتيف، يفتيخى إيڤانوڤيتش: ضابط برتبة لواء، كان ينزل بالبيت الصيفى الذى عاش فيه دستويڤسكى فى قرية ستاريا روسا فى الفترة من ١٨٧٤ إلى ١٨٧٥

(****) ليڤ نيكولايڤيتش تولستوى، الأعمال الكاملة، المجلد ٦٣، ص ١٤٢

هذا التناقض بدقة، وحرصت على تجنب التعقيدات وتقديم الطريق الصعب والمتشعب الذى قطعه الفنان دون اعوجاج، وقد كانت أنّا جريجوريڤنا على معرفة جيدة بكل أعمال دستويڤسكى المنشورة؛ فضلاً عن دفاتر مذكرات الكاتب، وكلاهما عكس التناقض بين مشاعره ورؤاه ونظراته السياسية بكل إخلاص وقوة ودون اعتبار للرقابة والقارئ. إن مذكرات أنّا جريجوريڤنا فى هذا الصدد ترسم دستويڤسكى على نحو رتيب و«ساذج» مقارنة بمذكرات معاصرين آخرين للكاتب، ل.سيمونوڤا، أ.س. سوڤورين(*)، أ. بوتشينكوڤسكايا.

لا شك أن أنّا جريجوريڤنا قد تناولت أيضًا طابع العلاقات الشخصية مع بوبيدونوستسيڤ ومايكوف وستراخوف بقدر كبير من التبسيط. فمن المستبعد أن تكون المحاورات بين دستويڤسكى وبوبيدونوستسيڤ قد جرت على هذا النحو من الشاعرية والسلاسة، فالأخير، كما يتضح من خطاباته كان يتابع بمزيد من القلق الأجزاء التى كانت تنشر تباعًا من «الإخوة كارامازوف» فى مجلة «البشير الروسى»، وقد حاول أن يدفع بالفنان نحو الطريق القويم، بعد أن عبر عن غضبه من «قصيدة» إيڤان كارامازوف المسماة «أسطورة المفتش الأعظم»، ومن المعروف جيدًا كراهية الكاتب لميشيرسكى (رئيس تحرير المواطن ــ المترجم). ها هو يسجل فى دفتر مذكراته، إبان إعداده لإصدار العدد الدورى من «مذكرة الكاتب»، كلماته الغاضبة والعادلة حول مفاهيم ق. ليونتيف «المحافظة». ومن المعروف أيضًا أن «أصدقاءه المحافظين»، مايكوف وستراخوف، عبروا كذلك عن سخطهم البالغ بسبب نشر رواية «المراهق» فى مجلة «حوليات الوطن»، معتبرين أن هذا «العمل الاستعراضى» يمثل خيانة للمصالح «المشتركة» وغدرًا بالحزب السلاڤى.

(*) سوڤورين، ألكسى سيرجيڤيتش (١٨٣٤ ــ ١٩١٢): صحفى وناشر كتب، أصدر فى عام ١٨٧٥ مجلة «نوڤوى ڤريميا» (العصر الحديث)، تعرف على دستويڤسكى فى عام ١٨٧٥ ومن يومها توطدت بينهما أواصر الصداقة (المترجم).

من الواضح أن أنّا جريجوريڤنا قد أضفت على المحيطين بدستويڤسكى والمقربين منه قدرًا غير قليل من المثالية، ومن ثم يصبح من المستحيل ألا نلفت الانتباه هنا إلى تلك الحقيقة الساطعة المتمثلة فى الاختلاف الهائل بين صورة ستراخوف فى المتن الأساسى للمذكرات وما ورد فى الرد الملحق الخاص بها.

تفتقد أنّا جريجوريڤنا إلى الثقة الذاتية، عندما تحكى عن الأحداث السياسية والأدبية. إنها تتحدث هنا على لسان آخرين، بينما يخفت صوتها هى وتفتقد قوة التعبير، وما إن تعود لتحكى عن أمور الحياة اليومية، التى تعرفها على نحو جيد، حتى يكتسب أسلوب كاتبة المذكرات حيويته من جديد.

لم تكن أنّا جريجوريڤنا أديبة محترفة، ولعل الحديث عن موهبتها الأدبية يمكن أن يدخل فى إطار المبالغة الصارخة، لكن سنوات العمر مع دستويڤسكى ومشاركتها إياه فى أعماله ومناخ الفن الرفيع نفسه قد ترك أثره فى تشكيل العالم الروحى لأنّا، فإذا كانت الشكوك قد ساورت دستويڤسكى(*) فى بادئ الأمر حول قدرة زوجته على فهم وتقدير هذا العمل أو ذاك («لدىّ قارئ واحد هو أنّا جريجوريڤنا، وهى شديدة الإعجاب بأعمالى، لكنها لا تملك القدرة على الحكم عليها»)، فقد راح الكاتب، فيما بعد، يشيد بحساسيتها الفنية فى أكثر من مناسبة، وكذلك عبّر عن اعتزازه الكامل بآراء قارئته الأولى»(**)

لقد كتبت أنّا جريجوريڤنا مذكراتها بشكل شديد الجاذبية. لاجدال أنها امرأة تمتلك المقومات الفنية الفريدة لدى الحكّاء، وهو ما يذكره لها العديد من معاصريها. تقول

(*) ف. م. دستويڤسكى، الخطابات، المجلد ٢، ص٢٦.

(**) تكتب أنّا فى مذكراتها قائلة: «لاحظت أن لدى محدِّثىَّ من الأدباء عادةً شك فى أننى، لسبب ما، لا أفهم حقيقة أعمال زوجى وأننى لا أدرك عمق موهبته بشكل كاف، ومن ثم فقد راحوا يحاولون أن يفسروها وأن يشرحوها وأن يرفعوا من شأنها فى عينى وفى رأيى أنهم كانوا يضيعون جهدهم سدى، لأنه لم يكن هناك أحد على وجه الأرض تقريبًا بقادر على تقدير موهبته مثلما كنت أقدرها. أ.ج. دستويڤسكايا، المذكرات. مكتبة الدولة باسم لينين، الملف ٩٣، الجزء الثالث، ص ٧٠٧.

عنها ماريا ستويونينا(*): «إن لديها موهبة تمكنها من تصوير كل ما رأته ولاحظته من الحياة حولها وكأنها ترسم لوحة. ما إن تخرج إلى الشارع، أو تذهب إلى السوق لقضاء حاجة من حوائجها اليومية، حتى يسترعى انتباهها كل شىء بدءًا من الأحداث الكبيرة والمشاهد المثيرة، وانتهاء بالتفاصيل الصغيرة والدقائق المميزة، وما إن تعود إلى بيتها حتى تشرع فى تسجيل كل ما رأته وكأنها ترسم لوحة أو تصور مشهدًا بكل ما فيه من وجوه. إن فى أعماقها، لا شك فى ذلك، جذوة لفنانة كامنة...» معاصرة أخرى هى ز. س. كوفريجينا تعيد على مسامعنا نفس القول بشأن موهبة أنّا جريجوريفنا فتقول: «... كانت تحكى عن الحقائق والأحداث البسيطة بهذا القدر من الوضوح والحيوية بحيث يتصور المستمع أن بإمكانه رؤية هذه الأحداث رؤية العين»(**). إن المهارة الفنية وموهبة الحكى تظهر بكل اكتمالها فى هذه المذكرات. إن اللقاء الأول بالكاتب، وتقدم دستويفسكى لخطبتها وموت الابنة سونيتشكا وجنازة الزوج، مشاهد تقف جميعها فى مصاف أفضل نماذج أدب المذكرات الروسى، وهى بطبيعة الحال، الأقرب إلى المذكرات النسائية لكل من صوفيا تولستايا، ن. أ توتشكوفا ـ أوجاريفا، ت.ب. باسيك.

وقد أضفت الدعابة الرقيقة والدافئة رونقًا خاصًا على مذكرات أنّا جريجوريفنا لايمكن للقارئ إلا أن يفترَّ ثغره عن ابتسامة وهو يطالع كيف أحس دستويفسكى بالغيرة على زوجته من جريجوروفيتش وكيف نجحت هى فى أن تحذر «المذنب» الذى أثار غيرة زوجها: «فقط هذه الكلمات المهينة: «انظروا، هذه الفرنسية، تتصرف مثل شيطان صغير»، جعلتنى أدرك أن العجوز جريجوروفيتش...»، (وهو المقصود بهذه الدعابة البسيطة). هكذا تحكى أنّا جريجوريفنا عن حالة النسيان وتشتت الفكر عند زوجها.

(*) ستويونينا، ماريا نيكولايفنا (١٨٤٦ ـ ١٩٤٠): معلمة، صديقة أنّا جريجوريفنا فى المدرسة الثانوية. مؤلفة كتاب «ذكريات عن دستويفسكى» الذى نشر فى المهجر (المترجم).

(**) م. فولوتسكوى، شجرة عائلة دستويفسكى، موسكو، ١٩٣٣، ص ٢٢ أ، ٢٤٢ أ.

إن أحداث الحياة العائلية وما تحكيه أنّا عن دستويڤسكى هو أفضل أجزاء المذكرات، أما الفصول الأولى التى تسبق لقاء أنّا جريجوريڤنا بالكاتب ثم الفصول الأخيرة التى تلت جنازة الكاتب فيشوبها بعض الضعف؛ فباختفاء بطل المذكرات تخمد دينامية السرد لتتحول إلى عدد من المقالات المتنوعة، ولعل أكثر المواضع أهمية هنا هى ما حكته أنّا جريجوريڤنا عن زيارتها لليڤ تولستوى وردها على ستراخوف.

إن خطاب ستراخوف المؤرخ ٢٨ يناير ١٨٨٣ والمنشور عام ١٩١٣، والذى «فضح» فيه المثل الأخلاقية والجمالية عند دستويڤسكى، مثَّل لأنّا جريجوريڤنا ضربة قاصمة ومفاجئة. تقول أنّا لليونيد جروسمان(*): «لقد أظلمت الدنيا فى وجهى من الفظاعة والاستياء»، «يا له من إفتراء لا مثيل له! وممن؟ من أفضل أصدقائنا، من ضيفنا الدائم، الذى كان شاهدًا على زواجنا من نيكولاى نيكولايڤيتش ستراخوف، الذى طلب منى فور وفاة فيودور ميخايلوڤيتش أن أفوضه فى كتابة سيرة حياة دستويڤسكى ضمن طبعة الأعمال الكاملة التى ستصدر بعد الوفاة(**)

لقد كان لدى أنّا جريجوريڤنا من رباطة الجأش ما جعلها تمسك عن نشر ردها على ستراخوف إبان حياتها فضمنته نص مذكراتها. اختارت أنّا جريجوريڤنا أن تفند بصرامة اتهامات ستراخوف على نحو يتسم بالواقعية والمنطق، وسعت لأن يبلغ ردها عليه أقصى درجات الإقناع والإحكام. لم تكن زوجة دستويڤسكى على علم بخطاب تولستوى الذى رفض فيه، بلطف وسخرية، «البحوث النفسية» التى طرحها ستراخوف. لقد قام الناقد، كما هو معروف، فى معرض إثباته لوجهة نظره، بدعم اتهامه لدستويڤسكى بالضعف الأخلاقى بواسطة خلق توازيات مع إبداع الكاتب، يقول ستراخوف: «إن أكثر الشخصيات شبهًا به (دستويڤسكى) هو بطل مذكرات من العالم

(*) جروسمان، ليونيد بتروڤيتش (١٨٨٨ ــ ١٩٦٥): عالم فى الدراسات الأدبية السوڤييتية، كاتب، له عدد من المؤلفات عن حياة دستويڤسكى وبوشكين وليسكوف (المترجم).

(**) أ.ج. دستويڤسكايا، المذكرات، المحرر ل.ب.جروسمان، موسكو، ١٩٢٥، ص ١٥

السفلى»، سفيدريجايلوف فى «الجريمة والعقاب» وستافروجين فى «الشياطين»(*) وفى خطاب آخر يسوق ستراخوف نفس الفكرة وعلى نحو أشد حدة حيث يقول: «بينما كان دستويفسكى يبدع شخوصه على شاكلته وصورته، كان يصور فى الوقت نفسه العديد من المرضى وأشباه المجانين وكان على يقين تام أنه يأتى بهم من الواقع، وأن هذه هى روح الإنسان بالضبط»(**)

وقد اعترض تولستوى على ستراخوف ملاحظًا «أنه حتى فى هذه الشخصيات الاستثنائية فإننا، معارفه؛ فضلاً عن الأجانب، يمكن أن نتعرف منهم على روحنا»(***). بعبارة أخرى: فقد رأى ستراخوف، فجأة، فى موهبة دستويفسكى الفذة ودستويفسكى الكاتب فى إعادة تجسيد الإنسان وفى التعاطف معه والنفاذ إلى عمق نفسيته، عيبًا جوهريًا، بينما بدت هذه الموهبة بالنسبة لتولستوى شرطًا أساسيًا لإبداع فن أصيل. وفى هذا السياق أعلن تولستوى للكاتب المتميز مباشرة أنه «كلما توغل الفنان أعمق، أصبح أكثر قربًا ووضوحًا للجميع»(****)، وكان يعنى هنا دستويفسكى ونفسه، بل وكل الفنانين الحقيقيين على وجه العموم. إن قضية «فضح» دستويفسكى، الكاتب والإنسان، قد انقلبت على ستراخوف نفسه، فى الوقت نفسه راح تولستوى يدافع عن دستويفسكى فقد كذَّب وأدان «اكتشافات» ستراخوف، غير أن عدالة القدر تمثلت فى أن هذا الأمر جعل من ليڤ تولستوى تحديدًا الوحيد فى العالم، فى رأى ستراخوف، الذى استطاع أن يحكم بكل عدالة ونزاهة على جدله الأخير مع الراحل دستويفسكى(*****)

(*) مراسلات ليف تولستوى مع نيكولاى ستراخوف، المجلد الثانى، سان بطرسبورج، ١٩١٤، ص٣٠٨.

(**) ليف نيكولايفيتش تولستوى، الأعمال الكاملة، المجلد ٦٦، موسكو، ١٩٥٣، ص ٢٥٣،٢٥٤.

(***) المرجع السابق.

(****) ل.ن. تولستوى، الأعمال الكاملة، المجلد ٦٦، ١٩٥٣، ص ٢٥٤

(*****) انظر فى هذا السياق مقال بوريس بورسوف «عند قبر دستويفسكى» (مراسلات ل.تولستوى ون. ستراخوف)» مجلة «حوليات علماء معهد لينينجراد التربوى باسم أ. إ. جيرتسين». المجلد ٣٢٠، «مشكلة النوع الأدبى فى تاريخ الأدب الروسى»، لينينجراد، ١٩٦٩، ص٢٥٤ ــ ٢٧٣.

إن الاعتراضات التى أبدتها أنّا جريجوريڤنا هى، خلافًا للتعميمات الفلسفية والجمالية التى أبداها تولستوى، اعتراضات محددة وعاطفية للغاية، إنها بالدرجة الأولى، شهادة لزوجة كاتب غاضبة من إطلاق فرية فى حقه، ولكنها لم تكن بحاجة إلى إعداد رد متخصص؛ إذ إن شخصية دستويڤسكى وصورته ككاتب تظهر فى مذكرات أنّا جريجوريڤنا فى حد ذاتها على نحو يناقض تمامًا افتراءات ستراخوف.

ظلت أنّا جريجوريڤنا زمنًا طويلاً ترفض التسليم بموت دستويڤسكى. وقد أرسلها أصدقاؤها وأقاربها إلى القرم بصحبة أطفالها على أمل أن يخفف تغيير الوضع والركون إلى الوحدة التى كانت تبتغيها ولو قدرًا قليلاً من أحزانها، ولكن الذكريات أبت أن تفارقها هناك أيضًا، وإنما راحت تملأ قلبها على نحو لا يصلح معه العزاء. تقول أنّا جريجوريڤنا فى خطابها إلى صوفيا أڤيركييڤا: «كل شىء يبدو جيدًا وهادئًا فوق ما يتمنى المرء، ولايبقى ربما سوى أن تنزل بى السكينة، وإلا سقطت فى هوة الكآبة. لقد بلغ بى الحزن منتهاه حتى وصلت إلى درجة اليأس. أعود بذكرياتى إلى السنوات السعيدة التى مضت، ولا أستطيع أن أصدق أنها لن تعود ثانية، لا أستطيع أن أسلم بفكرة أننى لن أراه ولن أستمع إلى صوته مرة أخرى. لقد أتيت إلى هنا يحدونى الأمل فى الخلود إلى الوحدة التامة، وكنت على يقين أنها ربما ستجلب لى بعض الفائدة. ماذا أقول؟ لقد ساعدتنى الوحدة: فضلاً عن أنها وفرت لى مكانًا للذكريات الثقيلة والحزينة، للأسى واليأس، لا أعرف كيف أتصرف!»(*)

كان يوم جنازة دستويڤسكى هو اليوم الذى بذلت فيه أنّا جريجوريڤنا وعدها بأن تكرس «ما بقى لها» من عمر فى سبيل نشر أعماله. راحت أنّا تواصل العيش فى الماضى بصحبة ذكريات السنين المنصرمة. تقول أنّا: «إننى لا أحيا الآن فى القرن العشرين، أنا باقية هناك فى سبعينيات القرن التاسع عشر. والذين يحيطون بى هم رفاق فيودور ميخايلوڤيتش وأصدقاؤه، هم حلقة المقربين من دستويڤسكى الذين رحلوا عن عالمنا،

(*) مكتبة الدولة العامة باسم سالتيكوف ــ شيدرين، ملف ٦، أرشيف٣٣.

إننى أعيش معهم. إن كل من يعمل فى دراسة حياة ومؤلفات دستويفسكى هو بالنسبة إلىَّ شخص عزيز»(*) يذكر الكاتب والناقد ن.سلونيمسكى، الذى كان على معرفة جيدة بأنّا جريجوريفنا أنها كانت تعتز بشخصيتها، حيث إنها كانت تعكس شخصية زوجها، ولكونها «زوجة دستويفسكى»(**)

كان الجهد الذى بذلته أنّا جريجوريفنا، زوجة الكاتب، بعد وفاة دستويفسكى، جهدًا عظيمًا متنوعًا، فقد أصدرت سبع طبعات من أعماله الكاملة، صدرت الطبعة الأخيرة منها فى عام ١٩٠٦؛ ويدين بالفضل الكبير لها كل من أوريست ميللر(***) و ن. ن. ستراخوف، اللذين أعدًّا للمرة الأولى «المواد الخاصة بسيرة حياة دستويفسكى». وفى عام ١٩٠٦ ظهر العمل الفريد لأنّا جريجوريفنا وهو «الدليل الببليوجرافى للأعمال والمؤلفات الفنية التى أبدعها دستويفسكى إبان حياته. وطوال هذه السنوات كانت أنّا جريجوريفنا تعمل على فك شفرة «مذكرة الكاتب» لعام ١٨٦٧، وكذلك على إعداد ونشر كتاب خاص يضم خطابات دستويفسكى إليها، ناهيك عن كتابة مذكراتها. وإلى جانب هذه الأعمال الأدبية الكبرى أسست أنّا فى ستاريا روسا مدرسة للحرف الشعبية، إلى جانب تأسيس شقة ـ متحف ف.م. دستويفسكى وإنشاء غرفة خاصة بدستويفسكى ملحقة بمتحف التاريخ، والتى تعتبر نواة لشقة ـ متحف دستويفسكى فى موسكو.

شاركت أنّا جريجوريفنا فى الأمسيات الأدبية والمعارض، وكتبت عددًا كبيرًا من المراسلات مع جمهور كبير من المعجبين بموهبة دستويفسكى، وكان من بين من راسلوها م.ن. يرمولوڤا، أ.ف. كونى، ف.إ. نيميروڤيتش ـ دانتشينكو، ڤ.س. سولوڤيوڤ،

(*) أ. ج. دستويفسكايا، المذكرات، تحرير ل.ب. جروسمان، موسكو، ١٩٢٥، ص١٤

(**) ن. سلونيمسكى، زوجة دستويفسكى، صحيفة «نوڤوى ڤيدوموستى»، المسائية، براج ١٩١٨، العدد ١٢٧

(***) ميللر، أوريست فيدوروڤيتش (١٨٣٣ ـ ١٨٩٩): متخصص فى علم الفلكلور، مؤرخ للأدب وناقد، ذو نزعة سلاڤية، أستاذ بجامعة بطرسبورج منذ عام ١٨٥٨، صديق لدستويفسكى (المترجم).

أوريست ميللر، ى. ف. تارلى، ك. إ. تشوكوڤسكى. يذكر أن أنّا جريجوريڤنا ألقت كلمة تقدير وجهتها لكل أعضاء فرقة المسرح الفنى بعد انتهاء عرض مسرحية «الإخوة كارامازوف» جاء فيها: «كان حلمى دائمًا أن أرى عملاً من أعمال زوجى العزيز على خشبة المسرح. وللأسف فإن تحويل رواياته إلى مسرحيات كان يصيبنى بالحزن أكثر مما كان يجلب لى السعادة، فلم تكن المسرحيات تعكس قيمة أعمال دستويڤسكى، كما لم تكن تجسد الشخصيات التى أبدعها وإنما كانت تزيفها، وقد جاء أداء هذه الأعمال على المسرح أداءً عاديًا، باستثناء عدد قليل منها، وقد كنت دائمًا ما أفكر أن مسألة شرح دستويڤسكى للجمهور أمر لا يمكن أن يتحمل مسرح موسكو الفنى مسؤوليته وحده، هذا المسرح الذى قدم الكثير من أجل رفعة الفن الروسى...»(*) ومع كل ما بذلته أنّا جريجوريڤنا من جهد، لم تتمكن من أن تحقق الكثير مما كانت تفكر فى عمله، فقد حال الموت بينها وبين عملها فى إنجاز المجلد الثانى من سيرة الكاتب، وبقى جزء من الدفاتر التى تحتوى على تسجيلات كتبت بطريقة الاختزال تضم أحاديثها مع دستويڤسكى دون أن تفك شفرتها. تذكر أنّا جريجوريڤنا فى حديثها مع أ. إسماعيلوف: «للأسف لم أتمكن مطلقًا طوال عملى المكرس مرة أخرى لقضية زوجى، من الوصول إلى استعادة النص المختزل، كذلك فلم يكن فك شفرته بالأمر الهين، وشأن أى مختزل ذى خبرة، فقد استخدمت اختصاراتى الخاصة، وهى اختصارات لايمكن لأحد غيرى فهمها...»(**)! آنذاك لم تكن أنّا قد انتهت أيضًا من كتابة مذكراتها. وقبيل وفاتها بفترة قصيرة تحدثت أنّا جريجوريڤنا إلى ل. جروسمان بقولها: «أبلغ من العمر الآن اثنين وسبعين عامًا، ولكننى لا أريد أن أموت، وأحيانًا ما يملؤنى الأمل فى أن يمتد بى العمر كما امتد بالمرحومة أمى التى عاشت تسعين عامًا. أمامى الكثير من العمل، مسائل لم تنته بعد، أمامى عمل عمرى كله»(***)

(*) خطاب أرملة ف. م. دستويڤسكى ــ أ. ج. دستويڤسكايا صحيفة «ريتش»، سان بطرسبورج، ١٩١٠، ١٢/ ٢٥ أكتوبر، العدد ٢٨٠.

(**) أ. أ. إسماعيلوف، فى ضيافة أ. ج. دستويڤسكايا (بمناسبة مرور ٣٥ عامًا على وفاة ف. م. دستويڤسكى)ــ صحيفة «بيرچيڤى ڤيدوموستى»، ١٩١٦، ٢٨ يناير، العدد ١٥٣٥٠

(***) أ. ج. دستويڤسكايا، المذكرات، تحرير ل. ب. جروسمان، موسكو ١٩٢٥، ص ١٤

فى عام ١٩١٧ تصاب أنّا جريجوريڤنا فى أثناء وجودها فى الجنوب بنوع حاد من الملاريا، ولم تنجح محاولة عودتها إلى بتروجراد، الأمر الذى كان له أثر بالغ فى تدهور حالتها الصحية، فضلاً عن الفاقة التى عاشتها. وقد تحملت أنّا هذه المعاناة بشجاعة فائقة. كتبت الطبيبة ز.س. كوڤريجينا فى معرض ذكرياتها عن أنّا جريجوريڤنا أنها كانت «فى هذه الفترة، فى تلك الأشهر الأخيرة من حياتها مثارًا للدهشة بما امتلكته من خصال روحية فريدة، ولم تكن تثير الاهتمام والغرابة باعتبارها زوجة لدستويڤسكى، وإنما لشخصها، بطاقتها التى لا تنفد، بعقلها الراجح المستنير، وفوق ذلك باهتمامها الدؤوب بكل ما حولها. كانت تضفى على ما حولها من الحماس والحمية ما لا يتناسب وعمرها. وأحيانًا لم يكن من الممكن أن تصدق أنك أمام امرأة عجوز <...>، امرأة ذات طبيعة نادرة فى كمالها، امرأة ظلت حتى النهاية قادرة على أن تحب وأن تكره...»(*).

توفيت أنّا جريجوريڤنا فى التاسع من يونيو ١٩١٨ فى يالطا ودفنت فى جبانة أوتسكى بعيدًا عن بطرسبورج، عن أحبائها، عن قبر دستويڤسكى. طلبت أنّا فى «دفتر وصيتها» ألا تدفن إلى جوار زوجها فى كنيسة ألكسندر نيڤسكى، وألا يقام لها نصب خاص، وأن يكتبوا بضعة سطور فقط على قبرها إن أرادوا. وبسبب عدد من الظروف تم تنفيذ إرادتها الأخيرة فقط فى عام ١٩٦٨، وذلك بمناسبة مرور خمسين عامًا على وفاتها، ويرجع الفضل فى ذلك إلى إصرار حفيدها وحده، أندريه فيودوروڤيتش، الذى ورثه عن جدته، بعد أن نشر عددًا من المقالات والدراسات عن أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا. ومن بين معاصريها الذين ودعوها بكلمات تفيض بكثير من مشاعر الإجلال والتقدير: ى. أ. شتا كينشنايدر، وأوريست ميللر، ز. س. كوڤريجينا، وغيرهم. وقد خصها الشاعر ف. كورنيل برسالة شعرية مليئة بالتبجيل والاحترام لم يبخل عليها فيها بأوصاف من قبيل («الملاك»، «الهادئة»، الشمعة المضيئة أمام الأيقونة»)، على أنه لا ينبغى علينا أن نستسلم أمام هذا الإغراء، فنرى فى أنّا جريجوريڤنا تجسيدًا لدماثة الخلق

(*) «دستويڤسكى». مقالات ومواد. تحرير أ. س. دولينينا، المجلد الثانى، لينينجراد، ص ٥٨٧.

والرصانة والصحة، خلافًا لطباع زوجها دستويفسكى المضطرب، شديد الانفعال والعصبية. لم تكن أنّا جريجوريفنا «ملاكًا» ولا «يمامة» وديعة، ولا «شمعة مضيئة أمام الأيقونة». ذات يوم كتب دستويفسكى متعجبًا إلى صديقه مايكوف يقول: «أتعرف، إنها امرأة متكبرة، متعجرفة»(*) وتتجاوب شهادات بنات دستويفسكى أيضًا مع رأى الزوج. تقول لوبوف فيودوروفنا: «كان لديها دائمًا قدر كبير من عزة النفس يصل إلى حد المرض، فكانت تغضب لأتفه الأسباب...»، وتصف الابنة ما تتميز به أمها من سرعة التأذى والحساسية المفرطة بقولها: «كانت معتلة الصحة دائمًا، شاحبة الوجه، عصبية، ينتابها القلق...»(**).

ليس ما أوردناه هنا من أقوال أقرباء أنّا جريجوريفنا هو من قبيل اللوم، فإنما لفت الأنظار إلى سماتها الأرضية، لا السمات الملائكية والرقة. وهذه السمات هى الكبرياء وعزة النفس والإحساس بالكرامة وقد جعلت من هذه المرأة الهشة ذات الجسد الضعيف، التى تحمل على كاهلها أعباء ثقيلة، امرأة أكثر قوة على نحو ما، لقد أضفت هذه الخصال عليها لباقة داخلية كبيرة، ورباطة جأش واستقلالية، وهى الخصال التى كان دستويفسكى يقدرها فى زوجته. وفى خطاباته إلى أصدقائه أشار دستويفسكى مرات عديدة إلى الاختلاف القائم فى الطباع بينه وبين أنّا جريجوريفنا: «... هناك اختلافات عديدة فى طباعنا»(***)، هذا ما كتبه فى خطاب له إلى أبوللون مايكوف فى عام ١٨٦٧، لكن هذا التباين فى الطباع بينهما تحول إلى وحدة نادرة للأضداد، تقول أنّا جريجوريفنا فى ختام مذكراتها: «إن لديه بناءً مختلفًا فى شخصيته، وطبعًا مختلفًا وآراء مختلفة، لكن كلاً منا «ظـــل على طباعه»، فلم يكن أحدنا إطلاقًا ليكون صدى للآخر، أو يزيف من صـــورته، أو يدس أنفه فى شؤونه. فلا هو تلصَّص على ما فى نفسى ولا أنا فعلت

(*) ف. م. دستويفسكى، الخطابات، المجلد، ص٢٦٥.

(**) لوبوف دستويفسكايا. دستويفسكى كما وصفته بناته، ترجمة عن الألمانية ل. ى. كروكوفسكايا. مقدمة وتحرير ج. جوسيفيلد، موسكو ـ براج، ١٩٢٢، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(***) ف. م. دستويفسكى، الخطابات، المجلد ٢، ص٦٣

ذلك تجاهه. وعلى هذا النحو شعر كل منا أن روحه طليقة، وهكذا كان يفكر كثيرًا وحيدًا حول القضايا العميقة للنفس الإنسانية، أغلب الظن أنه كان يقدر عدم تدخلي في حياته الروحية والفكرية، ولهذا فقد كان كثيرًا ما يقول لي: «أنت المرأة الوحيدة التي تفهمني!».

ترى هل كان هذا هو التناقض الوحيد بين أنّا جريجوريڤنا ودستويڤسكي؟ لقد كان هناك شيء ما مشترك في رؤيتهما للعالم، شيء قرّب بينهما. تقول ماريا ستويونينا، أقرب صديقات أنّا، في مذكراتها إن «أنّا جريجوريڤنا كان لديها أمور مأسوية كثيرة، وهو ما كان من الممكن الإحساس به حتى في أكثر لحظات الحياة عادية»(*) «كان هناك ثمة شيء خفي في وجه أنّا جريجوريڤنا لا يمكن الإمساك به، الأمر الذي كان يثير في ذاكرة المعاصرين صورة دستويڤسكي. وعندما شاهد ليڤ تولستوي أنّا جريجوريڤنا للمرة الأولى رآها تشبه زوجها على نحو مدهش. لعل كلمات المجاملة التي صدرت عنه عن قصد بلباقة علية القوم لم تكن لتصدر إلا عن رجل دقيق الملاحظة، وهو ما أدركته أنّا جريجوريڤنا جيدًا على الفور»(**) على أنه ليس من قبيل المصادفة أيضًا أن تولستوي بدا لأنّا جريجوريڤنا في لحظة ما شبيهًا على هذا النحو أو ذاك بدستويڤسكي. وعندما حانت ساعة الانصراف قال تولستوي: «لعل كثيرًا من الكتاب الروس كانوا سيشعرون أن حياتهم كان من الممكن أن تصبح أفضل، لو أن زوجاتهن كن مثل زوجة دستويڤسكي».

في أثناء حياة أنّا جريجوريڤنا وبعد وفاتها خصوصًا ظهرت في صحف العاصمة مقالات وإشارات دأب صحفيو بطرسبورج فيها على لفت الانتباه إلى الحس العملي

(*) م. ڤولوتسكوي، شجرة عائلة دستويڤسكي، موسكو، ١٩٣٣، ص ١٢٢

(**) قال لي تولستوي: «لقد تخيلته هو أيضًا»، وكان يقصد أنه وجد أيضًا تشابهًا بيني وبين المرحوم زوجي، وذلك حتى يدخل السرور إلى نفسي». أ. أ. إسماعيلوف. في ضيافة أ. ج. دستويڤسكايا (بمناسبة مرور ٣٥ عامًا على وفاة ف. م. دستويڤسكي) «بيرچيڤي ڤيدوموستي»، ١٩١٦، ٢٨ يناير، العدد ١٥٣٥٠

لدى أنّا جريجـوريڤنا ويتهمـونها فيها «بالتقتير والبخل». وهنا علينا ألا ننسى، دون أن ننفى أو نتجاهل هذه السمة، التى كانت معروفة فى طبع زوجة دستويڤسكى، أنها بفضل هذا الحس العملى وبفضل «بخلها» استطاعت أن توفر فى الأزمان العصيبة التى مرت بها شيئًا من الرخاء واليسر المادى لأسرتها، كما أنها نجحت فى أن تجنب دستويڤسكى شديد السذاجة وقليل الحيلة فى أمور الحياة العملية الكثير من الدناءات الكريهة التى أحاطت به من كل جانب. لم تكن أنّا جريجوريڤنا بحاجة إلا إلى ما هو ضرورى، لقد بذلت جل اهتمامها لتوفر لأطفالها وأحفادها الهدوء والسكينة، كما واصلت حياتها بعد وفاة الكاتب بنفس البساطة التى كانت تحيا بها من قبل، فاستأجرت لنفسها غرفة صغيرة ولم تغير عاداتها وحافظت على ذكريات الماضى العزيزة مع زوجها وأبقت على نفس المناخ. أخيرًا فإننا مدينون لزوجة دستويڤسكى صاحبة «الحس العملى» بالحفاظ على جزء كبير من تراثه الأدبى وخطاباته ومخطوطاته ودفاتر مذكراته. أما القارئ فلا يمكنه أن يقف غير مكترث بكاتبة هذه المذكرات الرائعة، التى سجلت فيها، على حد قول أحد الباحثين السوڤييت، «أكثر السمات الإنسانية» لكاتب عبقرى.

س. ف. بيلوف

ف. أ. تونيمانوف

مدخـــــل
(إلى «المذكرات»)

لم ترد بخاطرى من قبل مطلقًا فكرة كتابة مذكراتى، ولماّ كنت أدرك افتقارى التام إلى الموهبة الأدبية، فقد ظللت طوال حياتى مشغولة بشدة بإصدار مؤلفات زوجى خالد الذكر، ومن ثم لم يكن لدىّ وقت يكفى للاهتمام بأى شىء آخر يتعلق من قريب أو بعيد بذكراه.

وفى عام ١٩١٠، ونظرًا إلى سوء حالتى الصحية وتدهور قواى، فقد أصبح لزامًا علىّ أن أضع أمانة إصدار مؤلفات زوجى شديدة الأهمية بالنسبة إلىَّ فى أيدى آخرين، وعندما اضطررت، بسبب إصرار الأطباء، على العيش بعيدًا عن العاصمة، شعرت بفراغ كبير فى حياتى كان من الضرورى أن أملأه بعمل ما يكون شيقًا بالنسبة إلىَّ، بعبارة أخرى: فقد شعرت أن هذا العمل لن يستغرق وقتًا طويلاً.

كنت أعيش فى وحدة تامة، لا أشارك، اللهم إلا فى القليل من الأحداث الجارية، وشيئًا فشيئًا رحت أستغرق بروحى وفكرى فى الماضى الذى كان سعيدًا، وهو ما ساعدنى على نسيان الفراغ وافتقاد حياتى التى أعيشها إلى غاية أصبو إليها.

عندما رحت أعيد قراءة دفاتر مذكرات زوجى وكذلك دفاترى الشخصية وجدت فيهمـا من التفاصيـل المهمة ما جعلنى، دون إرادة منى، أرغب فى إعادة كتابتها من

جديد لا اختزالاً، على النحو الذى كانت عليه، وإنما بلغة يفهمها الجميع، وخاصة أننى كنت على يقين أن أبنائى وأحفادى سوف يقبلون على قراءتها باهتمام بالغ، وربما اهتم بها أيضًا محبو موهبة زوجى خالد الذكر، وكذلك من لديهم الرغبة فى أن يتعرفوا على حياة فيودور ميخايلوفيتش العائلية.

ومن هذه المذكرات التى دونتُها فى أوقات متفرقة على مدى فصول الشتاء الخمسة الأخيرة (١٩١١ ــ ١٩١٦) تجمع لدىَّ عدد من الدفاتر التى سعيت جاهدة أن أضعها مرتبة قدر الإمكان.

لا أتعهد لأحد أن تكون مذكراتى شيقة، ولكننى أستطيع أن أضمن صحتها وحيادها الكاملين، من حيث وصف مواقف بعض الشخصيات، فهذه المذكرات بنيت أساسًا على مُدونات مؤيدة بخطابات ومقالات من الصحف والمجلات.

وأعترف صراحة أن مذكراتى تحتوى على أخطاء أدبية كالإطالة فى السرد، والتباين فى حجم الفصول، والأسلوب القديم وهلمجرا. على أن المرء، وقد بلغ السبعين من العمر، يصعب عليه أن يتعلم أشياء جديدة، وإنما يغفر لى هذه الزلاّت إخلاصى ورغبتى القلبية فى أن أقدم للقارئ فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكى بكل ما له وما عليه، وأن أضع أمامه الصورة التى كان عليها فى حياته الشخصية والعائلية.

المذكرات

الجزء الأول

الطفولة والشبــاب

(١)

مجيئى إلى الدنيا

كثير من ذكرياتى المهمة مرتبط أشد الارتباط بدير ألكسندر نيفسكى فى بطرسبورج، ففى الأبرشية الوحيدة، الموجودة بالقرب من بوابة الدخول الرئيسية (أصبحت الآن ديرًا) جرى تعميد أبوىّ. أما أنا فقد ولدت فى الثلاثين من أغسطس، يوم الاحتفال بموكب القديس ألكسندر نيفسكى، فى بيت ترجع ملكيته للدير، وقد أقام الصلاة وعمّدنى راهب الدير. وقد دُفن زوجى خالد الذكر فى جبانة تيخيفينسكى بدير ألكسندر نيفسكى، وإذا شاء القدر، فلعلِّى أجد راحتى الأبدية فى جواره، وكأن الظروف جميعها تضافرت لتجعل من دير ألكسندر نيفسكى الموضع الأعز إلى نفسى فى هذا العالم بأسره.

وُلدت فى الثلاثين من أغسطس عام ١٨٤٦، فى يوم من أيام الربيع الرائعة، التى اشتهرت باسم أيام «بابى ليتا»(*). وحتى عيد القديس ألكسندر نيفسكى يعتبر العيد

(*) «بابى ليتا»: فترة يكون الجو بها دافئًا مشمسًا وجافًا، تعرف فى أوروبا وشمال أمريكا بالصيف الهندى، وتستمر لمدة من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع شهرى سبتمبر وأكتوبر (المترجم).

الرئيسى للعاصمة، وفى هذا اليوم يقام موكب دينى مسيحى ترفع فيه الأيقونات والصلبان يبدأ من كنيسة كازان وحتى الدير ثم العودة ويرافق الموكب جمهور عريض يحصل على إجازة من العمل فى هذا اليـــوم. على أن الناس كانوا فى الماضى، فى الزمن البعيد، يحتفلون بالثلاثين من أغسطس بشكل أكثر حيوية، ففى منتصف شارع نيفسكى، وعلى امتداد ما يزيـد على ثلاثة فراسخ(*) كانوا يقيمون منصة خشبية عريضة مرتفعة، تفصل بين الجمهور والموكب الذى يسير ببطء وقد تلألأت فوقه الصلبان الذهبية والرايات، ومن خلفها رتل من رجال الدين وقد ارتدوا ملابس الرهبان الموشاة بالذهب، كما سار عليه القوم والعسكريون فى أوشحتهم ونياشينهم، ومن خلفهم جميعًا انطلقت بضع عربات استعراضية مذهبة تجرها الخيول، تقل على متنها أعضاء الأسرة الملكية. يمثل الموكب الدينى كله لوحة نادرة، حيث تجتمع المدينة كلها فى هذا اليوم لمشاهدة هذا الموكب.

كان والداى يعيشان فى الطابق الثانى من بيت ما تزال ملكيته تؤول حتى الآن إلى الدير. كانت الشقة رحبة (إحدى عشرة غرفة)، وكانت نوافذه تطل على الشارع المسمى الآن شليسيلبورجسكى، وعلى جزء من الميدان الواقع أمام الدير(**)

كانت عائلتنا كبيرة العدد، جدتى لأمى وأربعة أبناء، اثنان منهما كانا متزوجين ولديهما أبناء. عشنا جميعنا متحابين، محافظين على تقاليد الحفاوة، حتى أن أفراد الأسرة كلها، البعيدين والقريبين، كانوا يجتمعون فى بيت جدتى فى أعياد ميلاد أفراد الأسرة وفى عيد الميلاد المجيد وأعياد القديسين لنقضى وقتنا منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل فى جو يسوده المرح والبهجة، لكن العدد الأكبر من الضيوف كان كثيرًا ما يلتئم شمله وبخاصة يوم الثلاثين من أغسطس؛ إذ كان اعتدال الجو وروعته يسمحان لنا بفتح النوافذ ومشاهدة الموكب فى يسر، وكان الجميع يشعرون أنهم فى جو من المرح

(*) الفرسخ يساوى ١٠٦٠ مترًا. (المترجم)

(**) لا يزال هذا البيت قائمًا على هيئته حتى الآن (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا).

والتآلف. وقد جرى الأمر على هذا النحو تمامًا يوم ٣٠ أغسطس ١٨٤٦ كانت أمى ومعها باقى أفراد العائلة تستقبل ضيوفها بكل الترحاب وقد بدت مليئة بالصحة والمرح، وإذا بها تختفى عن الأنظار، بينما كان الجميع على ثقة أن ربة البيت الشابة تقوم على تدبير أمور ضيوفها فى الغرف الداخلية للبيت، وفى الوقت نفسه لم تكن أمى تتوقع أن يقع لها هذا «الحدث» بهذه السرعة، والأرجح أنه أتى نتيجة ما بذلته من جهد وما انتابها من قلق، الأمر أنها شعرت فجأة بوعكة فاعتزلت فى فراشها، بعد أن أرسلت فى طلب المرأة الضرورية فى مثل هذه الحالات. كانت أمى تتمتع دائمًا بصحة جيدة، وقد مرت بتجربة الولادة من قبل، ومن ثم فقد مر الأمر دون أن يُحدث جلبة أو اضطرابًا فى البيت.

وفى حوالى الساعة الثانية ظهرًا انتهى الغداء الاحتفالى فى الكنيسة وراحت أجراس الدير تقرع، وفى أثناء الموكب الدينى القادم من البوابة الرئيسية للدير انطلقت أصوات الموسيقى النحاسية العسكرية الموجودة فى الميدان. راح الجالسون عند النوافذ ينادون باقى الضيوف صائحين: «يتحرك، يتحرك، لقد بدأ الموكب يتحرك»، وفى خضم هذه الصيحات، وعلى صوت الأجراس ودوى الموسيقى، التى كانت تصل إلى مسامع أمى، بدأت أنا أيضًا فى التحرك نحو طريق الحياة الطويل(*)

انتهى الموكب الاحتفالى، وراح الضيوف يتجمعون داخل البيت تحدوهم الرغبة فى الاعتذار لربة البيت التى، كما قيل لهم، ذهبت للرقاد قليلاً طلبًا للراحة. وفى حوالى الساعة الثالثة، دخل أبى متوجهًا نحو الصالة التى اجتمع فيها الضيوف، متأبطًا ذراع جدتى، وبعد أن توقف فى وسط الحجرة أعلن فى فرح يشوبه الانفعال من أثر الحدث الذى وقع قائلاً: «أقاربنا وضيوفنا الأعزاء، هنئونى بالسعادة الكبيرة، لقد أهدانى الله ابنتى أنّا». كان أبى رجلاً ذا شخصية مرحة للغاية يميل إلى المزاح وإلقاء النكات

(*) عن هذه المواقف التى صاحبت مجيئى إلى الحياة، استمعت فيما بعد من أعمامى وخالاتى، الذين كانوا فى ضيافتنا فى هذا اليوم، الكثير من الحكايات بطرق وتعليقات مختلفة (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

حتى أنهم كانوا يسمونه «روح الصحبة». لم يصدق أحد من الحضور خبر ولادتى، ظنًا منهم أنها دعابة من دعابات العيد، وهنا تعالت الصيحات: «مستحيل: جريجورى إيڤانوڤيتش، أنت تمزح! كيف يمكن أن يحدث هذا؟ لقد كانت أنّا نيكولايڤنا معنا طول الوقت»، وما إلى ذلك من تعليقات. وهنا توجهت جدتى بنفسها إلى الضيوف بقولها: «لا، جريشا(*) على حق: منذ ساعة مضت جاءت إلى الدنيا حفيدتى نيوتوتشكا!».

هنا انهالت التهانى، ومن أحد الأبواب جاءت فتاة تحمل كؤوسًا مليئة بالشمبانيا. شرب الجميع نخب المولودة الجديدة ونخب والديها وجدتها. وهرعت السيدات يهنئن الوالدة (لم يكن هذا الزمن يعرف تحذيرات الأطباء) ويقبّلن «الصغيرة»، وانتهز الرجال فرصة غياب السيدات فأجهزوا على ما تبقى من زجاجات الشمبانيا، رافعين الأنخاب على شرف «المولودة الجديدة». على هذا النحو جاء الاحتفال بمجيئى إلى الدنيا، كما قال الجميع، تيمنًا بفأل حسن لمستقبلى. وقد تحققت النبؤة لاحقًا؛ وعلى الرغم من أنه قُدِّر لى أن أتحمل الكثير من المصاعب المادية والعذابات المعنوية، فإننى أحسب أن حياتى كانت سعيدة للغاية، وإننى لم أكن لأعتنى أن يتغير شىء فى هذه الحياة كما عشتها. كان جدى الأكبر يحمل اسم سينيتكو، وبعد أن باع جدى ضيعته فى محافظة بولتاڤسكايا(**)، وكان اسمه قد أصبح سنيتكين، أرسل أبى ليتعلم فى مدرسة الچيزويت فى بطرسبورج، لكنه لم يصبح من الچيزويت، ظل طوال حياته يتميز بالطيبة ونقاء السريرة(***) كان أبى

(*) جريشا: اسم التدليل لجيورجى (المترجم).

(**) مالاراسيا (روسيا الصغرى): اسم أوكرانيا (منذ منتصف القرن السابع عشر الميلادى) فى الوثائق الرسمية لروسيا القيصرية وفى الكتابات التاريخية الإقطاعية والبورجوازية (المترجم).

(***) يحكى أبى هذا المشهد من طفولته، فعندما كان عمره عشر سنوات، كان يسير ذات يوم من أيام الشتاء فى الصباح الباكر (فى حوالى الساعة السابعة) متجهًا إلى مدرسته متخذًا طريق كورنيس فونتانكا. وبالقرب من قصر أنيتشكوف اقترب منه سيد ما طويل القامة يرتدى ملابس قشيبة، وإلى جواره وقفت امرأة رثة الثياب. أوقف السيد الطفل وقال له: «ألا ترغب فى عمل خير، تعالَ معى لتصبح إشبينًا لابنى، وهذه المرأة ستكون إشبينته»، ـ أضاف الرجل مشيرًا إلى العجوز. كان أبى طفلًا شجاعًا، ودون أن يتردد لحظة واحدة راح يتبع السيد والعجوز. وصل الجميع إلى أحد البيوت الفاخرة حيث كان بانتظارهم قس، وعلى الفور بدأت مراسم تعميد الطفل، وبعد أن تم تعميده قدموا للإشبين والإشبينة الشاى والحلوى، ثم أعطيا لكل منهما عشرة روبلات، وحيث إن أبى قد تأخر عن المدرسة فقد عاد إلى البيت وقص ما حدث له. وفى البيت

يعمل فى أحد المجالس البلدية أو الإدارات. أما أمى فتعود أصولها إلى إحدى العائلات السويدية الكريمة وتدعى عائلة ميلتوبيوس، وكان أحد أجدادها يدين بمذهب لوثر، أما أعمامى فكانوا من العلماء، وهو ما تؤكده إضافة النهاية يوس والتى كانت تخص العلماء، كنوع من التكريم، مثل المقطع دى أو فون. عاش أجدادى الكبار فى أبو(*) ودفنوا داخل أسوار كاتدرائيتها الشهيرة. وبعدما زرت أبو حاولت، وأنا فى طريقى إلى السويد، أن أجد قبر جدىّ فى الكاتدرائية ولكنى لم أستطع أن أحصل على أى معلومات من الحارس إذ لم أكن أعرف شيئًا من اللغتين الفنلندية أو السويدية.

كان والد أمى، نيكولاى ميلتوبيوس، مالكًا لقطعة أرض تقع فى محافظة سان ميخيلسكى، وكانت الأسرة كلها تعيش فى ضيعته ما عدا الابن رومان نيكولايفيتش، الذى كان يدرس فى معهد موسكو للمساحة، وعندما أنهى دراسته حصل على وظيفة فى بطرسبورج. وما إن توفى والده حتى باع الضيعة وانتقل هو والأسرة إلى بطرسبورج، وسرعان ما توفيت هناك جدتى أنّا ــ ماريا ميلتوبيوس، وبقيت أمى وابنتاها ليعشن فى كنف أخيها. كانت أمى رائعة الجمال، طويلة، نحيلة، ممشوقة القوام، ذات وجه واضح القسمات، كما كانت تتمتع بصوت حسن من طبقة السوبرانو ظلت تحتفظ به نقيًا تقريبًا حتى تقدم بها العمر. وُلدت أمى عام ١٨١٢، وعندما بلغت من العمر اثنى عشر عامًا تمت خطبتها إلى أحد الضباط، لكن القدر لم يمهلهما حتى الزفاف، إذ ذهب للمشاركة فى الحملة المجرية حيث لقى حتفه. كان حزن أمى عليه عظيمًا حتى أنها قررت ألا تتزوج من بعده، لكن الأعوام ما لبثت أن توالت عامًا بعد الآخر وراحت صدمة

شرحوا له أن هناك اعتقادًا بأن الأسرة التى يموت أطفالها ينبغى أن تعمد المولود من قبل أول من يقابلهم الأب فى طريقه، حتى تكتب لهذا المولود الحياة. وهكذا تصادف أن يكون إشبين هذا المولود هو أبى وأن تكون العجوز هى إشبينته. فيما بعد تلقى أبى هدية من ابنه فى العماد فى عيد الميلاد المجيد، ومرة أخرى تمت دعوته ليبارك الابن، الذى كان يعانى من المرض بشدة. وهناك اعتقاد آخر أيضًا أن دعاء وبركة الإشبين والإشبينة قادران على إنقاذ المولود من الموت. وقد شفى الابن بالفعل. فيما بعد فرقت الأيام بين أبى وابن العماد، وكان قد ذكر لى اسمه ولكنه ضاع من ذاكرتى (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

(*) أبو Abo: الاسم السويدى لمدينة توركو Turko الفنلندية (المترجم).

المصيبة تتلاشى شيئًا فشيئًا، وفى هذا المجتمع الروسى الذى نشأت فيه أمى، كان هناك من يهوين العمل كخاطبات (كان عملاً يدخل فى نطاق العرف المقبول آنذاك) وها هن يدعون ذات يوم شابين يرغبان فى الزواج لحضور أحد اللقاءات العائلية، وقد أعجبا بأمى كثيرًا، لكنها أجابت بالرفض عندما سألوها إذا ما كان أحد الخاطبين قد حظى بإعجابها قائلة: «كلا، إنما أعجبنى أكثر هذا «العجوز» الذى يتحدث كثيرًا ويبتسم طوال الوقت». كانت تتحدث عن أبى، وقديمًا كانوا يعتبرون الرجل الذى بلغ من العمر أربعين عامًا «عجوزًا»، وكان والدى يبلغ من العمر آنذاك اثنين وأربعين عامًا (وُلد فى عام ١٧٩٩). وكان أبى يقضى شبابه فى مرح وبهجة، لكنه، وبتأثير أم صارمة، كان متحفظًا فى سلوكه، ولهذا كان يبدو، وهو فى الثانية والأربعين من عمـــره، متمتعًا بكامل الصحة، قويًا، متورد الوجه. كانت له عينان زرقاوان جميلتان وأسنان سليمة وإن كان خفيف شعر الرأس مع انتظام فيه، وإلى أن وافت المنية أمه لم يفكـــر فى أن تكون له عائلة، ولهذا كان يتردد على المجتمعات باعتباره جارًا محببًا، لا باعتباره خاطبًا على الإطلاق، وقد قدموه إلى أمى أيضًا فأعجب بها، ولكن ولأن أمـــى كانـت تتحدث الروسية بصعوبة، وكان هو يتحدث الفرنسية على نحو سيئ، فلم يكن الحديث بينهما يطول كثيرًا، وعندما أبلغوه بما قالته أمى بشأنه، راقه ما أبدته هذه الآنسة الجميلة نحوه من اهتمام، وراح يكثر من زيارته لهذا البيت حيث يمكن أن يلتقى بها. وانتهى الأمر بأن وقع كل منهما فى هوى الآخر، ولكن بقيت أمامهما عقبة كؤود تمثلت فى أن أمى كانت تدين بالمذهب اللوثرى، بينما، ووفقًا لمفاهيم أسرة أبى الأرثوذوكسية، ينبغى أن تكون الزوجة على مذهب زوجها. وقد وصل الأمر بأبى أنه قرر الوقوف فى وجه أسرته. وعندما علمت أمى بذلك خشيت أن تكون سببًا فى بذر الخلاف بين أفراد هذه الأسرة المتحابة، وظلت طويلاً فى حرج بالغ: هل تتحول إلى الأرثوذوكسية أم ترفض الرجل الذى أحبته. شىء واحد ترك أثره على قرارها. ففى وقت من الليلة، التى كان عليها فى اليوم التالى أن تبلغ قرارها الحاسم إلى أبى، راحت تصلى طويلاً راكعة أمام الصليب

ترجو من الله أن يساعدها، فجأة وبعد أن رفعت رأسها، إذا بها ترى هالة ساطعة فوق الصليب غمرت الغرفة كلها بالضوء ثم ما لبثت أن اختفت. وقد تكررت هذه الظاهرة مرتين. وقد فهمت أمى ما حدث باعتباره بشارة سماوية لحل مسألة أبى الصعبة. وفى هذه الليلة ذاتها رأت أمى فى منامها أنها تدخل كنيسة أرثوذوكسية وأنها راحت تصلى عند الحاجب. وقد عدَّت هذا الحلم أيضًا بشارة من السماء. يمكن أن تتصور مدى الدهشة التى أصابتها عندما ذهبت بعد مرور أسبوعين إلى كنيسة (سيميونوفسكايا) (فى شارع سوخوڤايا) لعمل طقس المسح بالزيت، فإذا بها ترى أنها قد وقفت عند الحاجب وأن المشهد المحيط بها هو نفس المشهد الذى رأته فى منامها، وقد هدَّأ هذا من خاطرها. وبعد تحولها للأرثوذوكسية دأبت أمى على الصلاة فى الكنيسة وأداء الصوم والمشاركة فى العشاء الربانى، ولكنها كانت تجد صعوبة فى إقامة الصلوات باللغة السلاڤية، ومن ثم كانت تؤديها من كتاب الصلوات باللغة السويدية، ولم تندم إطلاقًا على أنها غيرت دينها «وإلا لشعُرت ــ كما قالت ــ أننى بعيدة عن زوجى وأطفالى، وهو أمر مشين يشق علىَّ».

عاش والداى معًا فى وفاق حوالى خمسة وعشرين عامًا، فقد كانت طباعهما متآلفة. كانت أمى رأس البيت، امرأة ذات إرادة قوية، وقد رضخ أبى لهذه الإرادة عن طيب خاطر واكتفى بشىء واحد، هو التنقيب والبحث وشراء الأشياء النادرة والتحف من سوق أبراكسين وغيره من الأسواق (كانت العاديات آنذاك تملأ الأسواق)، وكان مهتمًا على وجه الخصوص بالخزف الثمين وكان على دراية كبيرة فى هذا المضمار.

قضى والداى سنوات زواجهما الأولى فى كنف جدتى وكذلك عدد كبير آخر من أفراد العائلة، وعندما ماتت جدتى بعد خمس سنوات وتفرق شمل الأسرة، أقنعت أمى أبى بأن يشترى البيت الواقع بالقرب من مستشفى نيكولايڤسكى سوخوبوتنى، وهو بيت ملحق به حديقة كبيرة (تبلغ مساحتها هكتارين)، مكانها الآن شارعا ياروسلاڤسكايا وكوسترومسكايا، وكان يطل على شارع مالايا بولوتنايا وحتى مصنع شتيجليتس.

من الأحداث الأولى التى تفتحت عليها ذاكرتى هذه الحادثة التى وقعت فى شهر أبريل ١٨٤٩، أى عندما كنت أبلغ من العمر عامين وثمانية أشهر، كانت هناك سقيفة قديمة فى فناء بيتنا، قررت أمى أن تزيلها وأن تبنى سقيفة جديدة. اجتمع العمال وأقاموا البناء المطلوب، ولم يتبقَّ سوى تسوية السقيفة القديمة بالأرض. خرجت أمى إلى الشرفة لكى تشاهد من بعيد كيف سيتم الأمر، وقد سارت من خلفها مربيتى الفضولية وقد حملتنى على يديها. ولسوء الحظ تباطأ الحوذية، الذين كانوا يعيشون فى عمق الفناء، عن الخروج فصاح بهم الحضور أن يسرعوا فى مغادرة المكان، فراحوا يخرجون فى طابور طويل. بدا أنهم جميعًا قد غادروا المكان، ولكن ما إن بدأ العمال فى جمع قواهم لهدم السقيفة حتى ظهر أحد الحوذية كان قد تأخر هناك، أدرك الجميع أنه إذا لم يسارع بالخروج فإن السقيفة المنهارة سوف تقتله هو وحصانه. وهنا دوى صوت فرقعة شديد ناتج عن انهيار السقيفة صاحبه صراخ رعب من الموجودين وتصاعدت أعمدة الغبار، وفى بادئ الأمر كان من المستحيل تبين الأمور، هل وقعت المصيبة يا ترى؟ لحسن الحظ خرج الجميع سالمين، لكن صرخات أمى ومربيتى الملتاعتين، تركتا أثرًا كبيرًا علىَّ، فرحت أصيح بأعلى صوتى. وعندما استفسرت فيما بعد متى حدث ذلك، أكد لى أبى، بعد أن راجع دفاتر الحسابات، أن بناء السقيفة الجديدة تم فى ربيع عام ١٨٤٩

الذكرى الثانية التى ما زلت أعيها تعود إلى مرض أَلَمَّ بى عندما كنت فى الثالثة من عمرى. لا أعرف اسم هذا المرض، لكن الطبيب أمر بوضع عدد من الديدان على صدرى. أتذكر جيدًا كم كانت هذه الديدان الماصة مقززة، وكيف أحسست بالخوف منها، وكيف حاولت أن أنزعها عن صدرى، أتذكر بوضوح أيضًا كيف اصطحبتنى أمى للعشاء الربانى والصلاة أمام الأيقونة العجيبة التى تصور أم الإله الملهوفة (فى شارع شباليرنايا). وعندما رأيت أمى والمربية يصليان ويبكيان رسمت علامة الصليب وذرفت دمعًا سخينًا. وفى اليوم التالى للصلاة التى تلت الأزمة، أخذت فى التعافى سريعًا. عمومًا فإن الأطفال فى عائلتنا نادرًا ما يمرضون. كانوا بطبيعة الحال يتعرضون للسعال ونزلات البرد، لكن كل أمراضهم كان يتم علاجها بالوسائل المنزلية، وكانت كثير من هذه الوعكات تمر سريعًا بسلام.

أتذكر طفولتى كلها وشبابى بمشاعر الرضا والسعادة الغامرة، كان والداى يغدقان علينا من حبهما ولم يعاقبانا إطلاقًا هباء. كانت الحياة داخل الأسرة تمضى فى جو من الطمأنينة والسكينة والاتزان، دون مشاجرات أو تقلبات أو كوارث. كانا يشبعاننا ويأخذاننا للتريض والنزهة يوميًا، كنا نجلس فى الحديقة صيفًا من الصباح إلى المساء؛ وفى الشتاء كنا نتزلج على الجليد فى أطباق كبيرة فى أماكن أعدت لذلك، لم يدللونا باللُعب، ولهذا كنا نقدر قيمتها ونحافظ عليها. لم يكن لدينا كتب للأطفال على الإطلاق، فلم يفكر أحد فى «تطويرنا» كان الجميع يحكون لنا الحكايات وبخاصة أبى؛ فبعد أن يعود من العمل ويتناول غداءه، يرقد على الأريكة ثم ينادى إليه الأطفال ويأخذ فى إطلاق الحكايات. كانت لديه حكاية وحيدة، حكاية إيڤان العبيط، لكن تنويعاته على هذه الحكاية كانت بلا حدود، وكنا أنا وأخى، دائمًا ما نعبر عن دهشتنا، ولماذا يسمون إيڤان بالعبيط ما دام قادرًا دائمًا على التخلص من كل هذه المصائب بهذا القدر من الذكاء. كانت مُتعنا قليلة: شجرة عيد الميلاد التى كانت تضاء كل مساء، استبدال الملابس المنزلية، دعوتنا للذهاب إلى السرادقات وركوب «الحلزونية» يوم عيد الصوم الكبير، ذهابنا إلى المسرح، وبخاصة الأوبرا أو الباليه مرتين فى العام قبيل عيد الميلاد وعيد القديسين، ولكننا كنا نثمن كل هذه المتع للغاية، وكنا نظل شهورًا طويلة مستمتعين بمسرحية شاهدناها.

(٢)

التعليم

سأحدثكم عن تعليمى فى إيجاز. من التاسعة إلى الثانية عشرة ذهبت إلى مدرسة القديسة أنّا (فى شارع كيروتشنايا). كان تدريس كافة المواد (عدا الكتاب المقدس) يتم باللغة الألمانية، وقد ساعدتنى معرفة هذه اللغة فيما بعد، عندما اضطررنا لقضاء بضع سنوات فى الخارج أنا وزوجى. فى عام ١٨٥٨ افتتحت فى العاصمة أول ثانوية للبنات

(ثانوية مارينسكايا)، وفى الخريف التحقت بالصف الثانى بها. كانت الدراسة بالنسبة إلىَّ يسيرة، وعندما انتقلت إلى الصف الثالث ثم الرابع كانت الجائزة عددًا من الكتب، وعند انتهائى من الدراسة فى عام ١٨٦٤ حصلت على ميدالية فضية كبيرة. قبل عام من ذلك افتتحت مدرسة المعلمين على يد ن. أ. فيشنجرادسكى(*)، التى كان يلتحق بها الراغبون فى مواصلة التعليم. وقد التحقت بها فى خريف عام ١٨٦٤. فى هذا الزمن ساد المجتمع الولع بالعلوم الطبيعية، وقد سرت مع التيار. كانت الفيزياء والكيمياء وعلم الحيوان تمثل لى «إلهامًا»، فالتحقت بقسم الفيزياء والرياضيات، على أننى سرعان ما اقتنعت أننى اخترت القسم الذى لا يتلاءم وميولى، وأن ما استمعت إليه فيه من محاضرات ذهبت سدى، فعند إجراء تجارب بلورة الأملاح، على سبيل المثال، كنت أنشغل بقراءة الروايات أكثر من مراقبة الدوارق والأنابيق وهى تعانى بشدة، وفى أثناء إلقاء محاضرات علم الحيوان، كنت أبدى اهتمامًا بها، ولكن ما إن ننتقل إلى المحاضرات العملية، ويصبح علىّ أن أقوم بتحنيط قطة ميتة، حتى أصاب بالإغماء من فرط ارتباكى واشمئزازى. لا أذكر من هذا العام الدراسى سوى محاضرات الأدب الروسى، التى كان يلقيها البروفيسور ف. ف. نيكولسكى، والتى كان يحضرها طلاب القسمين. فى صيف عام ١٨٦٥ اكتشفت أمرًا جللاً، وهو أن مرض والدى غير قابل للشفاء وأن ما تبقى له فى الحياة قليل. عندئذ آليت على نفسى ألا أترك هذا المريض العزيز على نفسى لحظة واحدة، فقررت أن أترك الدراسة إلى حين. ولمّا كان أبى يعانى من الأرق فقد رحت أقرأ عليه على مدى ساعات بأكملها روايات ديكنز، وكنت أشعر بالرضا إذا ما أخذته سنة من النوم من أثر قراءتى الرتيبة.

وفى مطلع عام ١٨٦٦ ظهر إعلان عن فصول فى الاختزال سوف يلقيها ب. م. أولخين(**) فى مبنى ثانوية البنين السادسة، ولما عرفت أن المحاضرات ليلية (وكان أبى

(*) فيشنجرادسكى، نيكولاى ألكسيفيتش (١٨٢١ ــ ١٨٧٢): تربوى روسى. مناصر للتعليم النسائى الثانوى العام. وضع أول منهج تربوى روسى. أسس صحيفة «البشير التربوى الروسى» (١٨٥٧ ــ ١٨٦١) (المترجم).

(**) أولخين، باڤل ماتڤيفيتش (١٨٣٠ ــ١٩١٥): مدرس الاختزال. مؤلف كتاب «الدليل إلى الاختزال الروسى» (١٨٦٦) وكان ضمن المؤلفات الموجودة بمكتبة دستويفسكى (المترجم).

الغالى قد أحيل إلى التقاعد)، فقد قررت الالتحاق بهذه الفصول وبخاصة أن أبى كان مصرًا على هذا الأمر بوجه خاص، إذ كان آسفًا على تركى فصول التربية بسبب مرضه. فى البداية لم أحقق تقدمًا ملموسًا فى الاختزال، وبعد المحاضرة الخامسة أو السادسة وصلت إلى اقتناع أن الأمر بالنسبة إلىَّ هو رطانة لن يكون بمقدورى التمكن منها، وعندما أخبرت أبى بذلك استاء بشدة وعاتبنى على نفاد صبرى وقلة مثابرتى وأخذ علىَّ عهدًا أننى سأواصل الدارسة، معبرًا عن ثقته أننى سوف أصبح مختزلة رائعة، وتنبأ لى أبى الطيب نبوءة صدقت صحتها تمامًا وهى أننى سأجد سعادتى بفضل الاختزال.

فى الثامن والعشرين من أبريل من عام ١٨٦٦ توفى والدى. وكان هذا هو أول حدث سيئ أمر به فى حياتى. وقد عبرت عن حزنى بانفعال شديد، فقد بكيت كثيرًا، وقضيت أيامًا بطولها عند قبر أبى فى بولشايا أوختا، ولم أستطع أن أتصالح مع هذه الخسارة الفادحة. كانت أمى شديدة القلق على حالتى الصحية ورجتنى أن أنشغل بعمل ما. وللأسف فقد كانت دروس الاختزال قد توقفت، لكن مدرسنا الطيب ب.م. أولخين، عندما سمع بمصابى وانقطاعى عن كثير من الدروس، اقترح علىَّ أن أعوض ما فاتنى من دروس الاختزال عن طريق المراسلة. كان علىَّ أن أرسل إليه مرتين فى الأسبوع صفحتين أو ثلاثًا من كتاب يحدده أرسلها إليها مكتوبة اختزالاً، وكان أولخين يعيد إلىَّ النصوص بعد أن يصحح ما بها من أخطاء، بالإضافة إلى ملاحظاته. وبفضل هذه المراسلات، التى استمرت طوال أشهر الصيف الثلاثة، نجحت فى الاختزال وبخاصة أن أخى، الذى حضر إلينا فى الإجازة الصيفية، راح يملى علىَّ يوميًا لمدة ساعة أو أكثر، وهكذا رحت شيئًا فشيئًا أمتلك ناصية الاختزال كتابة؛ فضلاً عن تقدمى فى السرعة كذلك. هذا هو السبب الذى حدا بألوخين أن يعهد إلىّ، عند افتتاح الدراسة فى سبتمبر عام ١٨٦٦ ، بالعمل الأدبى بعد أن أصبحت التلميذة الوحيدة لديه التى أولاها ثقته فأوصى بها لتقوم بهذا العمل <.....>.

الجــزء الثانى
التعرف على دستويفسكى والزواج منه

(١)

فى الثالث من أكتوبر عام ١٨٦٦ وفى حوالى الساعة السابعة مساء وصلت، كعادتى، إلى ثانوية البنين السادسة، حيث يلقى ب. م. أولخين، مدرس الاختزال، محاضرته. لم تكن المحاضرة قد بدأت بعد: كنا ننتظر الذين تأخروا. جلست فى مكانى المعتاد وما إن هممت بترتيب كراساتى حتى اقترب منى أولخين، وبعد أن جلس إلى جوارى على المقعد بادرنى قائلاً:

أنّا جريجوريڤنا، ألا ترغبين فى القيام بالعمل بالاختزال ؟ لقد عُهد إلىّ بالبحث عمـن يقوم بهـذا العمل، وقد فكرت أنه ربما توافقين على أن تأخذى على عاتقك هذا الأمــر.

أجبت قائلة: ــ أرغب بشدة، إننى أحلم منذ زمن بأن تتاح لى فرصة العمل. على أن لدىَّ شكًا فى كونى أعرف الاختزال بدرجة كافية تؤهلنى لتحمل هذه المسؤولية.

هـدَّأ أولخين من روعى، وكانت وجهة نظره أن العمل المعروض لن يتطلب سرعة كبيرة فى الكتابة تتجاوز السرعة التى أمتلكها.

سألت وقد أخذ بى الفضول: لدى من سأقوم بالاختزال؟

لدى الكاتب دستويفسكى. إنه مشغول الآن برواية جديدة [1]، وينوى كتابتها بمساعدة مختزل. ويعتقد دستويفسكى أن روايته ستصل فى حجمها إلى ما يقرب من سبع ملازم من القطع الكبير ويعرض مقابل العمل كله خمسين روبلاً.

أسرعت بالموافقة. كان اسم دستويفسكى معروفًا لى منذ طفولتى: كان الكاتب المفضل لأبى. وأنا نفسى كنت معجبة بأعماله وكثيرًا ما ذرفت الدموع وأنا أقرأ «مذكرات من البيت الميت». لم يكن الأمر مجرد التعرف على كاتب موهوب، وإنما مساعدته فى عمله هو ما أثارنى للغاية، فضلاً عن أنه غمرنى بالسرور.

أعطانى أولخين ورقة صغيرة مطوية كتب فيها: «حارة ستوليارنى، ناصية شارع مالايا ميشانسكايا، منزل ألونكين، شقة رقم ١٣، السؤال عن دستويفسكى»، ثم أضاف قائلاً:

أرجوك الوصول إلى دستويفسكى غدًا، فى الحادية عشرة والنصف، «لا قبل ذلك ولا بعده»، كما حدد لى هو نفسه هذا الموعد اليوم. وفى سياق حديثه عبرَّ لى أولخين عن رأيه فى دستويفسكى وهو ما سأتحدث عنه لاحقًا.

ألقى أولخين ببصره إلى ساعته ثم صعد إلى منصة الدرس. يجب أن أعترف أن المحاضرة فى هذا اليوم قد ذهبت بالنسبة إلىَّ سدى، كنت مضطربة أشد الاضطراب، كما كنت مغمورة بكاملى بإحساس لا يوصف بالسعادة. لقد تحقق حلمى المكنون، لقد حصلت على عمل! وإذا كان أولخين المتعنت الصارم رأى أننى أعرف الاختزال بدرجة كافية وأننى سأكتب بسرعة مُرضية، فإن هـــذا يعنى فى الحقيقة أنه لولا ذلك لما قدم لى هذا العمل. لقد أسعدنى ذلك بشكل كبير ورفع من قيمتى أمام نفسى. لقد شعرت أننى قد بدأت طريقًا جديدًا، أستطيع أن أحصل على النقود بجهدى وأن أصبح مستقلة. كانت فكرة الاستقلال، بالنسبة إلىّ، إبنة الستينيات، هى أغلى وأعز فكرة لدىّ، ولكن الأكثر بهجة وأهمية كان تلك الوظيفة التى قدمت لى، والتى أتاحت لى العمل لدى دستويفسكى والتعرف بهذا الكاتب شخصيًا.

بعدما عدت إلى البيت أخبرت أمى بكل ما حدث تفصيلاً. وقد أسعدها هذا التوفيق الذى حالفـــنى. لقد قضيـــت الليـــل كله تقريبًا مسهدة من جراء سعادتى واضطرابى

وبــتُّ لا أتخيل سوى دستويڤسكى. ولمَّا كنت أعتبر أبى معاصرًا لدستويڤسكى، فقد رحت أفترض أنه رجل عجوز جدًا، لقد رحت أتصوره تارة عجوزًا بدينًا أصلع، وتارة طويلاً نحيفًا، ولكنه حتمًا قاس عبوس كما رآه أوخين. أكثر ما كان يثير فىّ الاضطراب هو على أى نحو سأحدثه. كأن دستويڤسكى يبدو لى عالمًا، شديد الذكاء، الأمر الذى كان يثير فى الخوف عند كل كلمة أنطق بها. ولعل من الأمور التى كانت تثير كدرى أننى لم أكن أتذكر بدقة أسماء أبطال رواياته وآبائهم، وكنت على يقين أنه حتمًا سيأتى على ذكرهم. وحيث إننى لم ألتق فى حياتى مطلقًا، من بين من أحاطونى، بأدباء بارزين، لذا كنت أتصورهم كائنات من نوع مختلف على المرء أن يتحدث إليهم، إذا لزم الأمر، بأسلوب خاص. عندما أتذكر تلك الأوقات أرى كما كنت طفلة صغيرة آنذاك، على الرغم من سنوات عمرى العشرين.

(٢)

الرابع من أكتوبر، فى اليوم المشهود للقاء الأول مع زوج المستقبل، استيقظت نشطة يخامرنى اضطراب لذيذ من جراء فكرة أن اليوم سوف يتحقق حلمى الذى ظللت طويلاً أداعبه: أن أتحول من تلميذة ثم طالبة إلى العمل الذى اخترته.

غادرت البيت مبكرًا قبل الموعد، حتى أتمكن من المرور أولاً على محل جوستينى دفور[*] لأتزود هناك بكمية إضافية من أقلام الرصاص، ولأشترى كذلك حقيبة صغيرة كنت أرى أنها يمكن أن تضفى على هيئتى الشابة مظهرًا عمليًا أكثر. أنهيت مشترواتى فى نحو الحادية عشرة، وحتى أصل إلى دستويڤسكى «لا قبل ولا بعد»[**] الموعد المحدد، رحت أسير بخطى متمهلة عبر شارع بولشايا ميشانسكايا وحارة ستوليارنى دون أن

(*) جوستينى دفور: فى المدن الروسية القديمة مجمع معمارى تجارى مربع الشكل تحيطه بواكٍ ذات أعمدة ومحال ومخازن تطل عليها. وفى مدينة سان بطرسبورج يقع فى شارع نيڤسكى الشهير وما يزال قائمًا حتى الآن بنفس الاسم (المترجم).

(**) «لا قبل ولا بعد» هذا هو التعبير المعتاد لفيودور ميخايلوڤيتش كان يضيفه بعد أن يحدد موعدًا محددًا للقا[illegible] ما آملاً ألا يضيع وقته فى انتظاره (ملحوظة لأنّا جريجوريڤنا).

أتوقف عن النظر إلى ساعتى. وفى تمام الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة اقتربت من منزل ألونكين وسألت البواب أين تقع الشقة رقم ١٣ أشار إلى اليمين حيث البوابة المؤدية إلى مدخل السلم. كان بيتًا كبيرًا به العديد من الشقق الصغيرة يسكنها تجار وحرفيون. ذكَّرنى على الفور بالبيت الذى ورد ذكره فى رواية «الجريمة والعقاب»، والذى عاش فيه راسكولنيكوف بطل الرواية.

كانت الشقة رقم ١٣ تقع فى الدورالثانى. قرعت الجرس وعلى الفور فتحت لى الباب خادمة عجوز تضع على كتفيها شالاً أخضر ذا تربيعات. كنت قد أتممت منذ فترة غير بعيدة قراءة «الجريمة»، الأمر الذى دفعنى دون إرادة منى لأن أفكر: أليس هذا الشال هو أصل الشال الجوخ، الذى لعب هذا الدور الكبير فى عائلة مارميلادوف؟

وعلى سؤال الخادمة عمن أود مقابلته أجبت بأننى قادمة من طرف أولخين وأن سيدها على علم بزيارتى. وقبل أن أتمكن من خلع قلنسوتى، إذا بباب الدخول يفتح وإذا بشاب شديد سواد الشعر أشعثه، يقف مكشوف الصدر مرتديًا خفًا ومن ورائه غرفة ساطعة الإضاءة. وبعد أن شاهد أمامه وجهًا غريبًا أرسل صيحة وما لبث أن اختفى فى لمح البصر عبر باب جانبى[٢]

دعتنى الخادمة إلى غرفة تبين أنها غرفة الطعام. كانت مجهزة على نحو متواضع للغاية: وإلى الحائط كان هناك صندوقان مغطيان بالسجاجيد. وإلى جانب النافذة وضع صوان صغير عليه مفرش أبيض مطرز. وإلى جانب الحائط الآخر أريكة علقت فوقها ساعة حائط. لاحظت بسرور أنها تشير فى هذه اللحظة إلى الحادية عشرة والنصف تمامًا.

دعتنى الخادمة للجلوس بعد أن أخبرتنى بأن السيد قادم الآن. وبعد دقيقتين بالفعل ظهر فيودور ميخايلوڤيتش، الذى دعانى للدخول إلى غرفة المكتب، ثم غادرها، وكما عرفت فيما بعد، ليأمر بتقديم الشاى لنا.

غرفة مكتب دستويڤسكى هى غرفة كبيرة ذات نافذتين، بدت فى هذا اليوم المشمس وقد شملها ضوء ساطع، ولكنها فى الأوقات الأخرى تترك فى النفس انطباعًا ثقيلاً، فهى معتمة يخيم عليها الصمت، يشعر المرء فيها بالانقباض من جراء عتمتها وصمتها.

وفى الركن البعيد من الغرفة توجد أريكة وثيرة مغطاة بقماش بنى قديم وضعت أمامها منضدة مستديرة عليها مفرش من الجوخ الأحمر. وعلى المنضدة أباچورة وألبومان أو ثلاثة ؛ وحولها صفت بعض الكراسى وفوتيه. وفوق الأريكة علقت صورة لامرأة نحيفة للغاية، فى إطار من خشب الجوز، ترتدى ثوبًا أسود وعلى رأسها قلنسوة نسائية خفيفة من نفس اللون، خمنت أنها «ربما تكون زوجة دستويڤسكى» ولم أكن أعلم آنذاك أى شىء عن وضعه العائلى.

بين النافذتين علقت مرآة كبيرة ذات إطار أسود. ولما كانت المسافة بين النافذتين أكبر بشكل ملحوظ من المرآة، فقد وضعت أقرب إلى النافذة اليمنى لتظهر بشكل ملائم، ولكنها كانت تبدو قبيحة للغاية. كانت النوافذ مزينة بآنيتين صينيتين كبيرتين للزهور رائعتى الشكل. وبامتداد الحائط وضعت أريكة كبيرة من جلد الماعز باللون الأخضر، وبالقرب منها منضدة للكتابة، كنت فيها بعد أجلس إليها عندما كان فيودور ميخايلوڤيتش يملى علىّ روايته. كان أثاث غرفة المكتب متواضعًا للغاية يشبه الأثاث الذى كنت أراه فى بيوت العائلات رقيقة الحال.

جلست وقد أرهفت السمع. بدا لى أننى سوف أستمع الآن إلى صياح أطفال، أو ضجيج طبل يقرع عليه طفل، أو سينفتح الباب لتدخل إلى غرفة المكتب هذه المرأة النحيلة صاحبة الصورة التى رأيتها.

وأخيرًا دخل فيودور ميخايلوڤيتش وسألنى، بعد أن اعتذر عن تأخره، قائلاً:

ـ هل تعملين بالاختزال منذ فترة طويلة؟

ـ منذ نصف عام لا أكثر.

ـ وهل لدى معلمك كثير من التلاميذ؟

ـ فى البداية بلغ عدد الراغبين فى الدراسة ما يزيد عن مائة وخمسين شخصًا، والآن تبقى منهم حوالى خمسة وعشرين.

ـ ولماذا أصبح العدد قليلاً إلى هذا الحد؟

ـ يعتقد الكثيرون أن الاختزال عمل سهل التعلم، وعندما يرون أنهم بعد بضعة أيام لا يتحصلون على شيء، يتركون الدراسة.

ـ هذا ما يحدث عندنا فى كل أمر جديد، ـــ قال فيودور ميخايلوڤيتش، يبدؤون بكل حماس، ثم ما يلبث حماسهم أن يفتر بضعة أيام فيتركون الأمر برمته. ينتظرون فإذا بالعمل يتطلب منهم جهدًا، ومن يرغب الآن فى بذل الجهد؟

للوهلة الأولى بدا لى دستويڤسكى رجلاً تقدم به العمر كثيرًا، ولكن ما إن بدأ فى الحديث. حتى أصبح أصغر عمرًا، ورأيت أنه من المرجح أن يكون قد تجاوز الخامسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين. كان متوسط الطول، منتصب القامة للغاية، شعره كستنائى فاتح، حتى أنه يميل قليلاً للحمرة، مدهون بدهان عطرى وقد صُفف بعناية، لكن ما أدهشنى فيه هو عيناه، كانتا مختلفتين فإحداهما بنية اللون، والأخرى متسعة الحدقة بحيث لاتكاد القزحية أن ترى(*)

أضفت هذه الازدواجية على نظرة دستويڤسكى شيئًا من الغموض فى التعبير، بدا لى وجه دستويڤسكى الشاحب المريض مألوفًا للغاية، ولعل مرجع ذلك أننى شاهدت صورًا له من قبل. كان يرتدى معطفًا قديمًا للغاية من الجوخ الأزرق، ولكن قميصه كان ناصع البياض (الياقة والأساور).

دخلت الخادمة بعد خمس دقائق حاملة كوبين من الشاى الثقيل إلى درجة أن لونه كان أسود تقريبًا. وعلى الصينية وضعت قطعتان من الخبز. تناولت كوبًا، لم أكن أرغب فى احتساء الشاى؛ بالإضافة إلى أن الجو كان حارًا فى الغرفة، ولكنى بدأت فى تناوله حتى

(*) فى نوبة من نوبات الصرع سقط فيودور ميخايلوڤيتش على حافة جسم حاد فأصيبت عينه اليمنى بجرح شديد، وقد ذهب للعلاج لدى البروفيسور يونج، الذى وصف له استخدام قطرة الأتروبين، الأمر الذى نتج عنه اتساع شديد فى حدقة العين (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا.)

لا أبدو متكلفة، جلست ناحية الحائط المواجه للمنضدة الصغيرة، بينما راح دستويفسكى يجلس تارة إلى مكتبه، ثم ما يلبث أن يقوم ليذرع الغرفة وهو يدخن، وكثيرًا ما كان يطفئ سيجارته ليشرع فى إشعال أخرى، وقد عرض علىَّ التدخين فرفضت فقال لى:

ـ لعلك ترفضين تأدبًا؟

عندئذ سارعت بالتأكيد على أننى لا أدخن ؛ فضلاً عن أننى لا أحب رؤية السيدات وهن يدخن.

اتسم حديثنا بالصراحة، زد على ذلك أن دستويفسكى انتقل بالحديث إلى موضوع جديد. كان يبدو منكسرًا. افتتح حديثه بعبارة أعلن فيها أنه مريض بالصرع، وأنه أصيب بنوبة منذ عدة أيام، وقد أدهشتنى هذه الصراحة، ثم تحدث دستويفسكى عن عملنا المنتظر على نحو مبهم قائلاً:

ــ سنرى ماذا سنفعل فى هذا الشأن، سنجرب، سنرى، هل يمكن ذلك؟

بدأت أتصور أن عملنا معًا على الأرجح لن تقوم له قائمة، حتى أنه قد جال بخاطرى أن دستويفسكى يساوره الشك فى إمكانية وملاءمة هذه الطريقة لعمله، وربما بات مستعدًا للتخلى عن العمل برمته، ولكى أسهل عليه أمر اتخاذه هذا القرار قلت له:

حسنًا، لنجرب، ولكن، إذا رأيت أن مساعدتى لن تساعد على سير العمل على نحو ملائم لك فأخبرنى على الفور، وكن على يقين أننى لن أتذمر إذا لم أقم بالعمل.

أراد دستويفسكى أن يملى علىّ نصًّا من صحيفة «البشير الروسى» وطلب منى أن أكتب ما اختزلته بالطريقة المعتادة. بدأ فى الإملاء بسرعة كبيرة ولكننى استوقفته، وطلبت منه أن يقرأ بالسرعة التى نستخدمها فى الحديث العادى.

أخذت بعد ذلك فى ترجمة ما دونته اختزالاً إلى اللغة العادية وقد فعلت ذلك بسرعة فائقة، ولكن دستويفسكى تعجَّلنى وانزعج من إعادة الكتابة ببطء شديد.

هدَّأت من روعه قائلة: سوف أعيد كتابة ما أمليته علىّ لا هنا وإنما فى البيت. أليس أمر الوقت الذى استغرقه فى ذلك سيان بالنسبة إليك؟

عندما قام دستويفسكى بمراجعة ما كتبت وجد أننى أسقطت نقطة هنا، وأننى وضعت علامة تفخيم هناك بشكل غير واضح، وقد أبدى هذه الملاحظات بشكل جاد. كان واضحًا أنه مضطرب وغير قادر على جمع شتات أفكاره، فتارة كان يسألنى عن اسمى، ثم ينساه على الفور، ثم تارة يروح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا لمدة طويلة وكأنه قد نسى وجودى كلية. وكنت عندئذ أجلس دونما حراك خشية أن يقطع عليه ذلك استغراقه فى التفكير.

وأخيرًا أخبرنى دستويفسكى أن حالته لا تسمح إطلاقًا بأن يملى علىَّ شيئًا، وسألنى إن كان بإمكانى الحضور إليه اليوم فى الساعة الثامنة وعندئذ سيبدأ فى إملائى الرواية. لم يكن الحضور ثانية يناسبنى بالمرة، ولكنى وافقت حتى لايتأجل العمل.

قال لى دستويفسكى وهو يودعنى:

لقد أسعدنى أن أولخين اقترح علىَّ إرسال آنسة مختزلة وليس رجلاً، أتعرفين لماذا؟

: لماذا؟

لأن الرجال، فى الأغلب، يسرفون فى الشراب، وأنت آمل ألاتكونى ممن يشربون.

كان الأمر مضحكًا بالنسبة إلىَّ، ولكنى كتمت ضحكتى فأجبت بجدية.

أنا يقينًا ممن لا يشربون. كن على ثقـــة من ذلك.

(٣)

غادرت بيت دستويفسكى فى حالة من الحزن. لم يعجبنى، وترك لدىَّ انطباعًا ثقيلاً. فكرت أننى على الأرجح لن أنجح فى العمل معه، وشعرت أن أحلامى فى الاستقلال مهددة بأن تذهب أدراج الرياح... وكان أكثر ما آلمنى هو تلك السعادة التى غمرت أمى ليلة أمس عندما علمت بحصولى على أول عمل فى حياتى.

كانت الساعة حوالى الثانية، عندما تركت دستويڤسكى. كان بيته بعيدًا، فقد كنت أسكن بالقرب من سمولنى فى شارع كوسترومسكايا، فى بيت أمى أنّا نيكولايڤنا سنيتكينا. قررت الذهاب إلى بعض أقاربى، الذين يعيشون فى حارة فونارنى فأتناول معهم طعام الغداء ثم أعود إلى دستويڤسكى.

أبدى أقاربى اهتمامًا كبيرًا بمعارفى الجدد وراحوا يسألون عن كل كبيرة وصغيرة تخص دستويڤسكى. مر الوقت سريعًا فى الحديث، وما إن اقتربت الساعة الثامنة حتى كانت خطاى تقودنى إلى منزل آلونكين، وعندما فتحت لى الخادمة الباب سألتها عن الاسم الأول لسيدها، وكنت قد عرفت من توقيعه على رواياته أن اسمه فيودور، ولكن لم أعرف اسم والده. مرة أخرى طلبت منى فيدوسيا (وهذا هو اسم الخادمة) الانتظار فى غرفة الطعام ثم ذهبت لتبلغ عن وصولى، وعندما عادت دعتنى للدخول إلى غرفة المكتب تبادلت التحية مع فيودور ميخايلوڤيتش وجلست فى المكان السابق بالقرب من المنضدة الصغيرة، لكن ذلك لم يرق لدستويڤسكى ودعانى للانتقال للجلوس إلى مكتبه مؤكدًا أنه سيكون أكثر راحة لى للكتابة، وأعترف أننى شعرت بإغراء لاحدود له لدعوتى للعمل على المكتب الذى كُتِبَ عليه توًا عمل رائع مثل رواية «الجريمة والعقاب».

انتقلت للجلوس، بينما شغل فيودور ميخايلوڤيتش مكانى بالقرب من المنضدة الصغيرة، ومرة أخرى راح يستفسر عن اسمى وكنيتى ثم سألنى إن كنت أمتُّ بصلة قرابة لهذا الكاتب الشاب الموهوب سنيتكين الذى وافته المنية منذ زمن قريب، فذكرت له أن الأمر لا يعدو كونه تشابهًا فى الأسماء، فراح يسألنى عن أفراد أسرتى وأين تعلمت وما الذى دفعنى للعمل بالاختزال وهلمجرا.

أجبت عن كل أسئلته بوضوح وجدية وبخشونة أحيانًا، كما أكد لى ذلك فيودور ميخايلوڤيتش فيما بعد. كنت قد قررت أنه فى حالة ما إذا اضطررت للعمل بالاختزال فى بيوت خاصة، أن أحدد علاقتى منذ الدقيقة الأولى بينى وبين من لا أعرفهم جيدًا

على نحو عملى، مع تجنب رفع الكلفة حتى لا تدفع الرغبة أحد من الناس أن يوجه إلىَّ كلمة زائدة أو وقحة، حتى أننى لا أذكر أننى ابتسمت مرة واحدة وأنا أتحدث مع فيودور ميخايلوڤيتش، وقد أعجبته جديتى للغاية. وقد اعترف لى فيما بعد أنه كان يشعر بالسرور إلى حد الدهشة من قدرتى على التماسك، ولما كنت أتمتع به من رزانة. كان دستويڤسكى معتادًا على مقابلة العدميين فى المجتمع ورؤية سلوكهم الذى كان يبعث بالاستياء فى نفسه، وفى الوقت نفسه كان سعيدًا أن يجد فى شخصيتى تناقضًا تامًا مع النموذج السائد للفتيات الشابات آنذاك.

فى أثناء ذلك كانت فيدوسيا تعد الشاى فى غرفة المائدة ثم أحضرت لنا كوبين وكعكتين وليمونًا. مرة أخرى دعانى فيودور ميخايلوڤيتش للتدخين ثم قدم لى ثمار الكمثرى.

بعد تناول الشاى اكتسب حديثنا منحى أكثر صراحة وودًا، وقد خيِّل لى فجأة أننى أعرف دستويڤسكى منذ زمن بعيد مما جعلنى أشعر بالارتياح والسكينة.

ولسبب ما انحرف بنا الحديث إلى قضية جماعة بتراشيفسكى(*) وإلى الحكم بالإعدام، وقد تحمس فيودور ميخايلوڤيتش للحديث عن ذكرياته فقال:

أذكر كيف وقفت فى ساحة سميونوفسكى وسط رفاقى من المتهمين، وعندما رأيت الاستعدادات، عرفت أنه لم يتبقَّ لى فى هذه الحياة سوى خمس دقائق، ولكن هـذه الدقائق كانت تساوى عندى، سنينًا، بل عشـرات السنـين، هكذا خيل

(*) بتراشيڤسكى (بوتاشيڤيتش ـ بتراشيڤسكى) ميخائيل ڤاسيليڤيتش (١٨٢١ ـ ١٨٦٦) اشتراكى طوباوى. ولد فى أسرة جراح شهير كان يعالج مشاهير الشخصيات فى روسيا. كان له عديد من الأصدقاء والمعارف من شتى طبقات المجتمع. بداية من عام ١٨٤٥ راح ينظم اجتماعات «الجمعة» فى بيته وكان يحضرها طلاب ومدرسون وضباط وأدباء وموظفون وفنانون وغيرهم. تعرف عليه دستويڤسكى عام ١٨٤٦ وقرأ فى حلقته أجزاء من رواياته وكذلك خطاب بيلينسكى إلى جوجول، الذى كان السبب المباشر فى توجيه الاتهام له. فى عام ١٨٤٩ تم القبض على ٤٠ شخصًا من هذه الحلقة، حكم على ٢١ متهمًا بالإعدام، وبناء على مسرحية أعدها القيصر تم تعديل عقوبة الإعدام قبل تنفيذها بدقائق إلى الأشغال الشاقة. وقد صور دستويڤسكى بتراشيفسكى فى رواية «الشياطين» فى شخصية بيتر فيرخوڤينسكى (المترجم).

لى، أنها تمثل زمنًا طويلاً: ألبسونا قمصان الإعدام ثم قسمونا ثلاثًا، كنت الثامن فى الصف الثالث [٣]. قيدوا الثلاثة الأول إلى الأعمدة، وبعد دقيقتين أو ثلاث أطلق الرصاص على كلا الصفين، كان من المنتظر أن يحل دورنا. كم كنت أرغب فى الحياة، يا إلهى! كم بدت الحياة عزيزة، كم من الأشياء الطيبة والجميلة كان من الممكن صنعها! تذكرت ماضىّ كله الذى لم أستغله على الوجه الأمثل تمامًا، وكم كانت لدى الرغبة أن أعيشه وأن أستمتع به مرة أخرى. طويلاً، طويلاً... وفجأة سمعت نفير نوبة الرجوع فانتعشت روحى، لقد فكّوا وثاق رفاقى من الأعمدة ثم أعادونا وقرؤوا علينا حكمًا جديدًا، فحكم علىّ بأربع سنوات أعمال شاقة. لا أذكر يومًا آخر أكثر سعادة من هذا اليوم! رحت أسير فى زنزانتى فى سجن ألكسييڤسكى وأنا أغنى، كنت أغنى بصوت مرتفع، هكذا كنت سعيدًا بالحياة التى وهبت لى، ثم سمحوا لأخى بأن يودعنى قبل الفراق، ثم أرسلونى إلى الطريق الطويل عشية الاحتفال بعيد ميلاد المسيح. ما زلت أحتفظ بالخطاب الذى أرسلته للمرحوم أخى[*] يوم تلاوة الحكم، وقد أعاد لى ابن أخى الخطاب منذ فترة قريبة[٤]

لقد تركت حكاية ميخائيل ميخايلوڤيتش انطباعًا شديدًا فى نفسى، لقد اقشعرَّ بدنى، لكن ما أدهشنى بقوة هو هذه الصراحة التى تحدث بها معى أنا الفتاة التى يراها للمرة الأولى فى حياته. هذا الرجل الذى يشى مظهره بالكتمان والقسوة يقص علىَّ ماضى حياته بكل هذه التفاصيل، وعلى هذا النحو من الصراحة والإخلاص، فالأمر جعلنى دون إرادة منى فى حالة من الذهول. فقط فيما بعد، تعرفت على وضعه الأسرى، وعندها أدركت السبب فى هذه الثقة التى أولاها لى والصراحة التى تحدث بها، فى هذه الآونة من حياته، كان فيودور ميخايلوڤيتش وحيدًا تمامًا، محاطًا بشخصيات تكن له العداء [٥]

(*) ميخائيل ميخايلوڤيتش دستويڤسكى (١٨٢٠ ـ ١٨٦٤) الأخ الأكبر لفيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى، مترجم وكاتب ومؤلف مسرحى أصدر مجلتى «الزمن» و «العصر».

كان يشعر أنه فى أمَس الحاجة إلى أناس يشاركونه أفكاره، أناس يفترض فيهم الطيبة والاهتمام. لقد أعجبتنى الصراحة التى أبداها نحوى فى اليوم الأول لمعرفتى به وتركت لدىّ انطباعًا رائعًا.

كان الحديث ينتقل بنا من موضوع إلى آخر، ونحن لم نبدأ العمل بعد، وقد أثار هذا الأمر القلق فى نفسى، تأخر الوقت، وعلىَّ أن أقطع مسافة طويلة للعودة. كنت قد وعدت أمى أن أعود إلى البيت مباشرة من عند دستويڤسكى، والآن أحسست بالخوف لكونها ستشعر بالقلق نحوى. تصورت أنه قد يكون من غير المناسب أن أذكِّر فيودور ميخايلوڤيتش بالهدف الذى جئت من أجله، وكم كنت سعيدة عندما تذكر هو نفسه ذلك واقترح علىَّ أن نبدأ الإملاء. تأهبت للعمل، بينما راح فيودور ميخايلوڤيتش يذرع الغرفة بخطوات سريعة جدًا، بشكل عرضى من الباب إلى المدفأة! بالإضافة إلى ذلك فإنه ما إن يصل إلى المدفأة حتى يدق عليها مرتين، وكان فى أثناء ذلك يدخن، مستبدلاً سيجارة جديدة بسيجارته التى لم يكمل تدخينها، بعد أن يضعها فى المطفأة التى كانت موضوعة على طرف مكتبه.

وبعد فترة قليلة من الإملاء، طلب فيودور ميخايلوڤيتش منى أن أقرأ عليه ما كتبته، وعندما قرأت عليه الكلمات الأولى استوقفنى قائلاً:

ـ كيف «عادت من روليتنبورج»(*)؟ وهل تحدثت عن روليتنبورج[٦]؟

ـ نعم، فيودور ميخايلوڤيتش، لقد أمليت علىَّ هذه الكلمة.

ـ مستحيل.

ـ عفوًا، وهل هناك مدينة فى روايتك بهذا الاسم؟

ـ نعم، الحدث يدور فى مدينة للقمار أسميتها روليتنبورج.

ـ إذا كانت الكلمة موجودة فإنك لاشك أمليتها علىَّ، إذ من أين لى أن آتى بها؟

(*) فيما بعد جرى تعديل البداية بحيث جاءت على النحو التالى: «أخيرًا، ها أنا قد عدت من هذا الغياب الذى استمر أسبوعين. وقضينا ثلاثة أيام منها فى روليتنبورج». (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

هنا تدارك فيودور ميخايلوڤيتش الأمر قائلاً:

ـ أنت على حق، لقد اختلط الأمر علىَّ.

كنت فى غاية السرور أن سوء الفهم قد زال. أظن أن فيودور ميخايلوڤيتش كان غارقًا بشدة فى أفكاره، وأن هذا الخطأ قد وقع، ربما، نتيجة لإرهاقه الشديد لاستمراره فى العمل على مدى يوم كامل. بالإضافة إلى ذلك فقد أحس هو نفسه بذلك، ولهذا أسرع يقول إنه ليس بإمكانه أن يواصل الإملاء أكثر من ذلك، وطلب منى أن أحضر ما أملاه غدًا فى الثانية عشرة، وقد وعدته أن ألبى طلبه.

دقت الحادية عشرة وعندها تأهبت للذهاب، ولما علم فيودور ميخايلوڤيتش أننى أعيش فى بيسكى قال إنه لم يتسنَّ له الذهاب مرة واحدة إلى هذا الجزء من المدينة، وأنه لا يعلم أين يقع هذا الحى. فإذا كان بعيدًا فهو على استعداد أن يرسل خادمه لتوصيلى، وقد رفضت بالطبع فأوصلنى فيودور ميخايلوڤيتش إلى الباب ودعا فيدوسيا لتضىء لى السلم.

عندما عدت إلى المنزل أخبرت أمى وقد غمرتنى السعادة كيف كان دستويڤسكى صريحًا معى وفى غاية الطيبة، ولكننى، وحتى لا أسبب لها أى إحساس بالحزن، أخفيت عنها هذا الإحساس الثقيل بالهم والذى لم أشعر به فى حياتى من قبل، والذى ترك أثره فى نفسى من جرَّاء كل هذه الأمور التى مرت بى اليوم. لقد كان الانطباع الذى ترسخ لدىّ، انطباعًا مؤلمًا تمامًا. فللمرة الأولى فى حياتى أرى إنسانًا ذكيًا، دمثًا، ولكنه تعيس، إنسانًا هجره الجميع، ومن ثم تولدَّ فى قلبى هذا الإحساس بالتعاطف العميق والأسى البالغ...

كنت مرهقة للغاية فأسرعت على الفور إلى فراشى وطلبت أن يتم إيقاظى مبكرًا حتى أتمكن من إعــادة كل ما أُملى علىّ وتسليمه لفيودور ميخايلوڤيتش فى الموعد المحدد.

(٤)

استيقظت مبكرة فى اليوم التالى وعلى الفور جلست أعمل. كان ما لدىَّ من إملاء قليل نسبيًا، ولكننى أردت أن أعيد كتابته بوضوح وجمال أكثر، وقد استغرق منى هذا وقتًا أطول، وعلى الرغم من أننى أسرعت بعد ذلك فى الذهاب، فقد تأخرت عن موعدى نصف ساعة كاملة.

وجدت فيودور ميخايلوڤيتش فى حالة من الاضطراب الشديد.

قال لى مُرحِّبًا:

لقد بدأت أفكر فى أن العمل لدىَّ قد بدا لك صعبًا، وأنك لن تأتى بعد ذلك مطلقًا. وفى الوقت نفسه فأنا لم أسجل عنوانك وخشيت أن أفقد ما أمليته عليك أمس.

أعربت عن اعتذارى بقولى:

ـ أنا فى غاية الخجل لأننى تأخرت على هذا النحو، ولكننى أؤكد لك أنه لو اضطررت لرفض العمل لكنت قد أحطتك علمًا، بطبيعة الحال، ولكنت قد أعدت لك أصل ما أمليتنى.

وهنا راح فيودور ميخايلوڤيتش يشرح لى الأمر قائلاً:

ـ إن ما أثار قلقى هو أن علىَّ أن أنتهى من كتابة هذه الرواية الجديدة. ما أعرفه وحسب أنها يجب ألا تقل عن سبع ملازم لتقديمها لدار نشر ستيلوڤسكى[*]

رحت أستفسر منه عن كل شىء تفصيلاً، بينما راح فيودور ميخايلوڤيتش يشرح لى بكل صراحة كيف ساقوه إلى هذه الورطة الفظيعة.

بوفاة أخيه الأكبر ميخائيل، أخذ فيودور ميخايلوڤيتش على عاتقه سداد كل ديون مجلة «الزمن»[٧]، التى كان يصدرها أخوه. كانت الديون على صورة كمبيالات وقد راح

(*) ستيلوڤسكى، فيودور تيموفييڤيتش (؟ ــ ١٨٧٥): ناشر وبائع كتب من بطرسبورج. (المترجم)

الدائنون يطاردون دستويفسكى بقسوة مهددين إياه بالحجز على ممتلكاته وبحبسه هو شخصيًا فى قسم الديون. كان ذلك ممكنًا فى هذا الزمن.

بلغت الديون العاجلة ثلاثة الآف روبل، أخذ دستويفسكى فى البحث عن أموال هنا وهناك دون أن يصل إلى نتيجة مرضية. وعندما باءت كل محاولات إقناع الدائنين بالتريث فى الفشل، ووقع فيودور ميخايلوفيتش فى براثن اليأس. ظهر له فجأة فيودور ستيلوفسكى ومعه اقتراح بشراء حق نشر أعماله الكاملة فى ثلاثة مجلدات مقابل ثلاثة آلاف روبل؛ فضلاً عن ذلك، كان فيودور ميخايلوفيتش مُلزَمًا أن يكتب رواية جديدة أيضًا فى إطار هذا المبلغ.

كان موقف فيودور ميخايلوفيتش بالغ الحرج، ومن ثم وافق على كل شروط العقد، حتى يتجنب فحسب تهديده بالسجن.

تم التعاقد فى عام ١٨٦٥ (صيفًا) وقد سلم ستيلوفسكى المبلغ المتفق عليه لموثق العقود، الذى سلمه بدوره للدائنين فى اليوم التالى مباشرة، وهكذا عاد فيودور ميخايلوفيتش صفر اليدين. ولعل ما زاد من إحساس دستويفسكى بالضيم أن هذه الأموال قد عادت إلى ستيلوفسكى مرة أخرى، فقد تبين أنه اشترى كمبيالات فيودور ميخايلوفيتش بثمن بخس من خلال شخصين صوريين، ثم استعاد منهما نقوده. كان ستيلوفسكى يستغل أدباءنا وموسيقيينا بمكر ودهاء (بيسيمسكى، كريستوفسكى، جلينكا) [٨] كان باستطاعته التربص بالناس فى لحظات مصائبهم ثم يلقى عليهم شباكه. إن مبلغ ثلاثة آلاف روبل مقابل حق النشر هو مبلغ تافه للغاية إذا ما نظرنا إلى النجاح الذى حققته روايات دستويفسكى، لكن الشرط الأكثر قسـوة تمثل فى الالتزام بتسليم رواية جديدة قبيل الأول من نوفمبر ١٨٦٦ كان على فيودور ميخايلوفيتش أن يدفـع غـرامة باهظة، إذا لم يسلم الرواية فى الموعد المحدد فإذا تأخرعن الأول من ديسمبر من نفس العام، يسقط حقه فى مؤلفاته لتصبح ملكًا لستيلوفسكى إلى الأبد. وبطبيعة الحال فقد كان هذا هو ما يرمى إليه هذا الوحش.

فى عام ١٨٦٦ كان فيودور ميخايلوفيتش غارقًا فى العمل فى رواية «الجريمة والعقاب»، وكانت لديه الرغبة فى إنهائها بحيث تخرج فى صورة فنية رائعة. ترى من أين لهذا الرجل المريض القدرة على كتابة عدد آخر من الملازم لرواية جديدة؟

بعد أن عاد فيودور ميخايلوفيتش فى الخريف قادمًا من موسكو، إذا به يسقط فريسة لليأس لعدم استطاعته، على مدى شهرين ونصف، إنجاز الاتفاق الذى عقده مع ستيلوفسكى، وهنا اقترح أصدقاء فيودور ميخايلوفيتش ـ أ. ن. مايكوف، أ. ب. ميليوكوف، إ. ج. دولوجوموستيف [٩] وغيرهم، اقترحوا عليه، فى محاولة منهم إنقاذه من مصيبته، أن يبدأ فى وضع خطة لروايته، وكان كل منهم يود لو أخذ على عاتقه كتابة جزء من الرواية، فلو أن ثلاثة منهم أو الأربعة جميعهم عملوا معًا فربما نجحوا فى إنهاء العمل فى موعده؛ ولا يتبقى أمام فيودور ميخايلوفيتش سوى أن يملى الرواية ثم يقوم بعد ذلك بتهذيبها ويخلصها من أى اعوجاج. وقد رفض فيودور ميخايلوفيتش هذا الاقتراح مفضلاً أن يدفع الغرامة أو يفقد حقوقه الأدبية عن أن يضع اسمه على مُؤلَّف ليس له [*]

عندئذ راح أصدقاؤه ينصحونه بطلب العون من مختزل. وقد تذكر أ.ب. ميليوكوف أم من بين معارفه مدرس للاختزال اسمه ب. م. أولخين، ذهب إليه ميليوكوف وطلب منه مقابلة فيودور ميخايلوفيتش الذى على الرغم من الشكوك التى ساورته بشأن نجاح هذه الطريقة فى العمل معه، فقد قرر اللجوء إلى مساعدة مختزل نظرًا إلى اقتراب الموعد.

وعلى الرغم من قلة خبرتى آنذاك بالناس، فإن سلوك ستيلوفسكى قد آثار حفيظتى بشدة.

قدموا لنا الشاى، وشرع فيودور ميخايلوفيتش فى الإملاء. كان من الواضح أن من الصعب عليه الاندماج فى العمل، كان كثيرًا ما يتوقف، ويتأمل، ثم يطلب أن أقرأ

(*) عن هذا الأمر يتحدث أ.ب. ميليوكوف فى مذكراته فى صحيفة «إيستوريتشيسكى فيستنيك» (البشير التاريخى)، ١٨٨١ (ملاحظة لآنّا جريجوريفنا دستوفسكايا) [١٠].

عليه ما أملاه، وبعد ساعة من العمل أعلن أنه متعب وأنه يرغب فى أن ينال قدرًا من الراحة.

بدأنا فى تبادل الحديث، كما فعلنا بالأمس. كان فيودور ميخايلوفيتش قلقًا وراح ينتقل من موضوع إلى آخر، ثم سألنى من جديد عن اسمى لينساه بعد دقيقة. مرة أو مرتين عاد ليدعونى للتدخين على الرغم من أنه سمعنى أقول له أننى لا أدخن.

رحت أسأله عن كُتابنا فانتعش وراح يجيب عن أسئلتى وبدا كأنه ابتعد عن الأفكار التى كانت تُلح عليه بشدة. أخذ يتحدث فى هدوء بل وبلهجة يشوبها المرح. وإليكم بعضًا مما تذكرته من هذا الحديث.

كان دستويفسكى يعتبر نِكراسوف(*) صديق شبابه، وكان يقدر موهبته الشعرية تقديرًا رفيعًا، كما أحب مايكوف، لا باعتباره شاعرًا موهوبًا فحسب، ولكن باعتباره من أكثر الناس ذكاء وروعة. وعن تورجينيف تحدث فيودور ميخايلوفيتش باعتباره كاتبًا موهوبًا من الطراز الأول، ولكنه أعرب عن أسفه فقط لأن تورجينيف كان يقضى وقتًا طويلاً خارج روسيا، ومن ثم أصبحت معرفته بروسيا وبالشعب الروسى أقل[11]

عدنا للعمل بعد استراحة قصيرة وعاد دستويفسكى من جديد لقلقه واضطرابه. كان من الواضح أن العمل لا يسير معه سيرًا حسنًا. لعلى أفسر ذلك بعدم تعوده على إملاء عمله على شخص لا يعرفه بعد معرفة جيدة.

فى حوالى الساعة الرابعة عزمت على الذهاب بعد أن وعدت بالحضور غدًا فى الثانية عشرة بصحبة ما تمليته. ولدى مغادرتى سلمنى فيودور ميخايلوفيتش رزمة من ورق البريد السميك، سطوره تظهر بالكاد، كان هذا هو الورق الذى يستخدمه فيودور ميخايلوفيتش عادة فى الكتابة، وقد أشار إلى الأماكن التى ينبغى أن أحدد عندها الهوامش.

(*) نكراسوف، إيفان سيرجييفيتش (١٨١٨ ــ ١٨٨٣): كاتب، مؤلف «مذكرات صياد»، «مياه الربيع»، «آسيا»، «الحب الأول»، «رودين»، «عش النبلاء»، «آباء وأبناء»، «الدخان» وغيرها. (ترجمت جميعها للعربية ــ المترجم).

(٥)

على هذا النحو بدأ واستمر عملنا. كنت أحضر إلى فيودور ميخايلوڤيتش فى حوالى الثانية عشرة لأعمل حتى الرابعة. وفى خلال هذه الفترة من الزمن كان يملى علىّ ثلاث مرات، تصل المرة إلى ما يزيد قليلاً عن نصف الساعة، وبين الإملاء والآخر كنا نتناول الشاى ونتبادل الحديث. أصبحت ألاحظ بسرور أن فيودور ميخايلوڤيتش بدأ فى الاعتياد على الطريقة الجديدة فى العمل، وفى كل مرة كنت أحضر فيها كان يزداد هـدوءًا. أصبح ذلك ملحوظًا على وجه الخصوص منذ أصبح باستطاعتى أن أحدد بدقة عدد الصفحات التى أكتبها من الإملاء فى مقابل عدد الصفحات فى طبعة ستيلوڤسكى. كانت كمية الصفحات التى تضاف إلى العمل تجد استحسانًا كبيرًا من جانب فيودور ميخايلوڤيتش وتبعث فى نفسه السرور. كان كثيرًا ما يسألنى: كم صفحة كتبنا بالأمس؟ وكم عدد الصفحات التى كتبناها إجمالاً؟ ما رأيك؟ هل سننجح فى الانتهاء فى الموعد المحدد؟».

فى سياق حديثه الودى معى، كان، فيودور ميخايلوڤيتش يكشف أمامى صورة حزينة ما من صور حياته. كان الأسى الشديد يتسرب إلى قلبى دون إرادة منى، عندما كان يقص علىّ ظروفه الصعبة والتى لم يستطع، كما يبدو، الخلاص منها مطلقًا.

فى البداية بدا لى أمرًا غريبًا ألا أرى أحدًا من أهل بيته. لم أكن أعرف ممن تتكون عائلته وأين توجد الآن. فرد واحد من العائلة قابلته، ربما، فى اليوم الرابع من وصولى، فبعد أن أنهيت عملى غادرت البيت وإذا بفتى فى مقتبل العمر يستوقفنى، رأيت فيه نفس الفتى الذى قابلته فى بهو الشقة عند زيارتى الأولى لفيودور ميخايلوڤيتش. عندما أمعنت النظر إليه عن كثب وجدته أقل وسامة مما بدا عليه عن بعد. كان أسمر اللون، يميل وجهه إلى الشحوب. عيناه سوداوان، بياضهما أصفر، كما أن أسنانه كانت صفراء من أثر التدخين.

سألنى برعونة دون تكلف:

ــ ألا تعرفيننى ؟ لقد رأيتك عند بابا. لم أشأ الدخول فى أثناء عملك، يدفعنى الفضول أن أعرف حكاية الاختزال هذه، وبخاصة أننى سأبدأ فى تعلمه بعد أيام. اسمحى لى.

أخذ من يدى الحقيبة بوقاحة وفتحها وراح يتفحص ما بها من نصوص فى الشارع مباشرة. ارتبكت بسبب هذه الوقاحة، حتى أننى لم أتمكن من الاعتراض.

ــ شىء مضحك ــ مد يده بإهمال وهو يعيد الحقيبة. قلت فى نفسى: «هل يمكن لإنسان عطوف، دمث الخلق، مثل فيودور ميخايلوفيتش، أن يكون لديه مثل هذا الابن سيئ الخلق».

يومًا بعد الآخر راح دستويفسكى يعاملنى بلطف ومودة أكثر فأكثر، وكان كثيرًا ما يسمينى «باليامة» (أحب أسماء التدليل إليه)، «أنّا جريجوريڤنا الطيبة»، «عزيزتى»، أما أنا فكنت أرجع هذه الكلمات لروح التسامح التى كان يبديها تجاهى باعتبارى عذراء فى ميعة الصبا. وكان أكثر ما يسعدنى هو أننى أخفف من الجهد الذى يبذله، وكنت أرى كيف أن تأكيداتى أن العمل يسير بنجاح وأن باستطاعته إنهاء الرواية فى موعدها تدخل على قلبه السرور وترفع من روحه المعنوية. كنت فخورة للغاية، بينى وبين نفسى، أننى لا أساعد كاتبى المفضل فحسب، وإنما أؤثر إيجابًا على مزاجه. كل ذلك رفع من قدرى أمام نفسى.

لم أعد أخشى «الكاتب الشهير» ورحت أتحدث معه بحرية وصداقة وكأنى أتحدث مع أحد من أعمامى أو مع صديق قديم. استفسرت منه عن أحداث مختلفة وقعت له فى حياته، وكان يرضى فضولى عن طيب خاطر. حدثنى تفصيلاً عن الشهور الثمانية التى قضاها سجينًا فى قلعة بتروباڤلوسك(*)، وكيف كان يتبادل الحديث مع المساجين

(*) قلعة بتروباڤلوڤسك: تقع فى بطرسبورج فى جزيرة زاياتشى، أسسها بطرس الأول عام ١٧٠٣، وتتكون

الآخرين من خلال الدق على الحائط (١٢). حدثنى عن حياته فى المنفى، عن المجرمين الذين كان يقضى معهم عقوبة الحبس. تذكر الأيام التى قضاها فى الخارج، عن رحلاته ولقاءاته ؛ عن أقاربه الأعزاء فى موسكو الذين أَحَبهم بشدة (١٣) أخبرنى بطريقة ما أنه كان متزوجًا، وأن زوجته توفيت منذ سنوات ثلاث، ثم أطلعنى على صورتها (١٤)، لم تعجبنى صورتها، وقد أخبرنى فيودور ميخايلوڤيتش أنه قد جرى تصوير الراحلة وهى فى أشد حالات المرض قبل وفاتها بعام واحد. كان وجهها رهيبًا وكأنه وجه ميت تقريبًا. فى أثناء ذلك علمت أن الفتى الوقح الذى لم يعجبنى ليس ابنًا لفيودور ميخايلوڤيتش، وإنما هو ربيبه، ابن زوجته من زوجها الأول، ألكسندر إيڤانوڤيتش إيسايف، وقد سرنى ذلك للغاية كثيرًا ما كان دستويڤسكى يتشكى من الديون ومن نقص المال ومن وضعه المادى الصعب، وقد تسنى لى فيما بعد أن أكون شاهدة على المصاعب المالية التى عانى بشدة من وطأتها(*)

كانت كل حكايات فيودور ميخايلوڤيتش مطبوعة بطابع الحزن، حتى أننى لم أتمالك نفسى ذات مرة وسألته.

من ستة حصون. أضيف إليها بعد ذلك كنيسة بتروباڤلوڤسك (بطرس وبولص) ملحق بها مدفن للقياصرة الروس وحصن تروبيتسكوى وحدائق للزهور وسجون للسياسيين ذات نظام صارم. اعتقل فيها أشهر زعماء الحركات الثورية فى تاريخ روسيا (المترجم).

(*) ذات يوم وكنت قد حضرت للعمل، لاحظت اختفاء واحدة من آنيتى الزهور الصينيتين اللتين كان فيودور ميخايلوڤيتش قد تلقاهما هدية من أصدقائه السيبيريين. سألته: «معقول أن يكون أحدهم قد حطم الآنية؟» أجابنى فيودور ميخايلوڤيتش «لا، لم يحطمها أحد، وإنما ذهبوا بها لمحل الرهونات. لقد كنت فى حاجة ماسة إلى خمسة وعشرين روبلاً فاضطررت لرهنها». ومرة أخرى وبعد أن أنهيت الاختزال وفى أثناء مرورى بحجرة المائدة، لاحظت وجود ملعقة خشبية على المائدة المعدة لطعام الغداء. قلت لفيودور ميخايلوڤيتش وهو يقودنى للباب وأنا أبتسم: «أعلم أنك اليوم ستتناول عصيدة الحنطة السوداء». سألنى ـ «ما الذى دفعك إلى هذا الاستنتاج؟» ـ «رأيت الملعقة. يقال إن تناول عصيدة الحنطة السمراء بملعقة خشبية يجعلها أشهى». قال: «إذن فقد خانك التوفيق، لقد كنا بحاجة إلى النقود فأرسلت الملاعق الفضية لرهنها، وقد تبين أنهم يعطون مالاً أقل بكثير مقابل القطع المفردة، فأعطيتهم الطقم بأكمله». كان فيودور ميخايلوڤيتش يتعامل دائماً مع متاعبه المالية برضًا كامل (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا.)

ـ فيودور ميخايلوڤيتش، لماذا لا تتذكر سوى الأحداث التعيسة ؟ الأفضل أن تحكى لى عن الأوقات التى كنت فيها سعيدًا.

ـ سعيد ؟ أنا لم أذق طعم السعادة فى يوم من الأيام، على الأقل فإننى لم أستشعر تلك السعادة التى حلمت بها، والتى ما زلت أنتظرها. منذ أيام كتبت لصديقى البارون ڤرانجيل(*) أخبره أننى على الرغم من كل الأحزان التى نزلت بى ما زلت أحلم أن أبدأ حياة جديدة سعيدة(**) كم كان قاسيًا على نفسى أن أستمع إلى ذلك الحديث! بدا لى أمرًا غريبًا أن رجلاً موهوبًا، طيبًا، لا يجد، وقد تقدم به العمر، السعادة التى ينشدها، والتى ما يزال يحلم بها لا أكثر.

ذات مرة قص علىَّ فيودور ميخايلوڤيتش تفصيلاً كيف تقدم لخطبة أنّا ڤاسيليڤنا كورڤين ـ كروكوڤسكايا(***)، وكيف كانت سعادته عندما تلقى موافقة هذه الفتاة الذكية الموهوبة، اللطيفة، ثم كيف أحزنه أن يتراجع عن هذه الخطبة مضطرًا بعد أن أدرك أن سعادتيهما المشتركة أمر مستحيل بسبب التناقض بين أفكارهما(١٦)

ذات مرة، وكان فيودور ميخايلوڤيتش يمر بحالة نفسية سيئة، إذا به يطلعنى أنه قد بات عليه الآن أن يسافر إلى الخارج، وأن أمامه ثلاثة طرق: إما أن يتجه شرقًا، إلى القسطنطينية والقدس، وربما بقى هناك إلى الأبد؛ أو يذهب إلى الخارج لينغمس فى لعب القمار، الذى يمكن أن يستولى على مشاعره كلية، وأخيرًا، أن يتزوج ثانية وأن يبحث عن السعادة والسرور والأسرة. كان التوصل إلى قرار فى هذه القضايا، التى يجب أن تغير حياته الفاشلة رأسًا على عقب، هو الشغل الشاغل لفيودور ميخايلوڤيتش، وعندما وجدنى مهتمة بأمره على نحو ودى طلب منى أن أقدم له النصح.

(*) ڤرانجيل، ألكسندر يجوروڤيتش (١٨٣٨، ؟): محام، دبلوماسى وعالم آثار، صديق دستويفسكى، مؤلف كتاب «مذكرات عن دستويفسكى فى سيبيريا ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦» (سان بطرسبورج، ١٩١٢).

(**) الخطاب الموجه إلى أ. ى. ڤرانجيل ورد فى «السيرة الذاتية» ص ٢٨٨(ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا.)(١٥).

(***) أنّا ڤاسيليڤنا كورڤين ـ كروكوڤسكايا (١٨٤٣ ـ ١٨٨٧): كاتبة، كانت ترسل بأعمالها القصصية إلى مجلة «العصر» ومن هنا جاءت معرفة دستويفسكى بها.

أعترف أن هذه الثقة التى أولاها لشخصى قد صعبت الأمر علىّ، لأن رغبته فى الذهاب إلى الشرق(*)، ثم رغبته أن يصبح مقامرًا بدت لى غامضة وخيالية؛ ولمعرفتى أنه من بين معارفى وأقاربى هناك زيجات سعيدة، فقد نصحته أن يتزوج ثانية وأن يغتنم السعادة فى جو الأسرة.

وهنا سألنى فيودور ميخايلوڤيتش:

هل تظنين أن بامكانى الزواج ثانية؟ وأن هناك من تقبل الزواج منى؟ وأى زوجة علىّ أن أختار: الذكية أم الطيبة؟

الذكية بالطبع.

أبدأ، إذا كان على أن أختار. فسأختار الطيبة التى تحنو على وتحبنى.

وفى سياق حديثه عن زواجه المفترض، سألنى فيودور ميخايلوڤيتش لماذا لم أتزوج؟ أجبته بأن هناك اثنين قد تقدما لخطبتى، وأن كليهما رائعان، وأننى أكنّ لهما كل مشاعر الاحترام، ولكننى لا أشعر بعاطفة الحب نحو أى منهما، وأننى أود أن أتزوج عن حب.

حتمًا عن حب. أيّدنى فيودور ميخايلوڤيتش بحماس قائلاً:

الاحترام وحده لا يصنع زواجًا سعيدًا.

(٦)

ذات يوم فى منتصف شهر أكتوبر، وفى أثناء عملنا عند مدخل باب غرفة المكتب، إذا بأبوللون مايكوف يظهر فجأة. كنت قد رأيت صوره من قبل، ولهذا عرفته على الفور. داعب فيودور ميخايلوڤيتش بقوله:

(*) هناك ما يدل حقيقة على أن فيودور ميخايلوڤيتش كانت لديه نية جادة للسفر إلى الشرق، وهو خطاب التوصية الذى تم العثور عليه بين أوراقه والموجه إلى أ. س. إنجلجاردت (مندوب البعثة الروسية لدى القسطنطينية) والذى سلمه ى. ب. كوڤاليڤسكى، رئيس الصندوق الأدبى آنذاك، والخطاب مؤرخ ٣ يونيو ١٨٦٣ (الملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

ـ إذن فأنت تعيش وفقًا للتقاليد القديمة. باب الشقة مفتوح على السلم والخدم لا أثر لهم وكأنهم غادروا البيت!

كان من الواضح أن فيودور ميخايلوڤيتش قد سر لحضور مايكوف فسارع لتعريف كل منا بالآخر، مقدمًا إياى له باعتبارى «مساعدته الغيورة»، مما أدخل السعادة على قلبى، وما إن سمع أبوللون نيكولايڤيتش باسم عائلتى حتى استفسر منى إن كنت أمتُّ بصلة قرابة بالكاتب سنيتكين، الذى توفى منذ أمد قريب (وهو السؤال الذى اعتدت سماعه كلما قابلت أحدًا من الكُتَّاب). سرعان ما عبرَّ مايكوف عن رغبته فى الرحيل مشيرًا إلى أنه لا يريد أن يتسبب فى تعطيل عملنا. اقترحت أن نأخذ قسطًا من الراحة، وعندئذ قاده فيودور ميخايلوڤيتش إلى حجرة جانبية وراحا يتبادلان الحديث حوالى عشرين دقيقة، بينما رحت أعيد كتابة ما أملى علىَّ.

عاد مايكوف إلى غرفة المكتب ليودعنى ثم طلب من فيودور ميخايلوڤيتش أن يملى علىَّ شيئًا، فأجابه إلى طلبه وقام بإملائى نصف صفحة من الرواية، وبعدها مباشرة قمت بقراءة ما كتبته جهرًا! راح مايكوف يتفحص باهتمام النص المختزل مكررًا:

لا أكاد أفهم شيئًا هنا بالمرة!

أعجبنى أبوللون نيكولايڤيتش كثيرًا، وكنت قد أحببته قبل ذلك بصفته شاعرًا، أما مديح فيودور ميخايلوڤيتش ووصفه له دائمًا بالانسان الطيب الرائع فقد أكد على انطباعى الجيد عنه.

كلما مر الوقت، اندمج دستويفسكى فى العمل، لم يعد يملى علىّ شفاهة وهو يؤلف مباشرة، وإنما راح يعمل ليلاً ثم يملى علىّ من مخطوطته. كان كثيرًا ما ينجح فى كتابة العديد من الصفحات، إلى حد أننى كنت أضطر للجلوس إلى أن يتجاوز الوقت منتصف الليل فى إعادة كتابة ما أملاه، ثم أُعلن عليه فى اليوم التالى بنبرة الانتصار عدد الأوراق التى أضيفت! كم كانت سعادتى عندما كنت أرى ابتسامة السرور على وجه

فيودور ميخايلوڤيتش استجابة لتأكيداتى أن العمل يمضى بنجاح وأنه سينتهى، بلا أدنى شك، فى الموعد المحدد.

اندمجنا كلانا فى حياة أبطال الرواية الجديدة، وأصبح لى، مثلما أصبح لفيودور ميخايلوڤيتش، أصدقاء منهم وأعداء. حازت الجدة، التى خسرت ثروتها على إعجابى، كما حاز عليه أيضًا مستر أستلى، أما احتقارى فكان من نصيب بالينا وبطل الرواية نفسه والذى لم أستطع العفو عنه لقلة عزيمته وولعه الفائق بالمقامرة.

كان فيودور ميخايلوڤيتش فى صف «المقامر» كلية، وكان يقول لى إنه هو نفسه قد عانى كثيرًا من نفس هذه المشاعر والانطباعات(١٧) وأكد لى أن المرء يمكن أن يكون صاحب شخصية قوية وأن يثبت ذلك بحياته، وفى الوقت نفسه لا يمتلك القوة على أن يخمد فى نفسه الولع بالقمار.

أحيانًا ما كنت أعجب لنفسى على جرأتى فى التعبير عن وجهات نظرى فى الرواية، لكن أكثر ما كان يدهشنى هو هذا القدر الكبير من التسامح الذى كان يستمتع به كاتب موهوب إلى ملاحظاتى وآرائى الطفولية تقريبًا. بعد هذه الأسابيع الثلاثة من العمل المشترك تراجعت اهتماماتى القديمة كلها لتصبح اهتمامات ثانوية. لم أعد أتردَّد على محاضرات الاختزال، وكان ذلك بموافقة أولخين، ولم أعد أذهب لزيارة أو رؤية معارفى إلا نادرًا، وانصبَّ جلّ اهتمامى على العمل وعلى تلك المناقشات الرفيعة فى أعلى صورها، والتى كانت تدور فى أثناء أوقات الراحة التى كانت تتخلل الإملاء. رحت دون إرادة منى أعقد المقارنة بين فيودور ميخايلوڤيتش وغيره من الشباب الذين تصادف أن التقيت بهم فى المحيط الذى أعيش فيه. وكم بدت لى أحاديثهم عندئذ فارغة وتافهة مقارنة بتلك الأحاديث الجديدة والآراء الأصيلة لكاتبى المفضل.

كنت أتركه وقد طبعت أفكاره الجديدة أثرها علىَّ، كان وجودى فى البيت يبعث فى نفسى الملل، كنت أجلس به فى انتظار لقائى فى الغد بفيودور ميخايلوڤيتش وكانت

مشاعر الحزن تنتابنى كلما اقترب العمل من نهايته، واكتنفنى شعور بأن صداقتنا قد آن لها أن تنتهى، وكم أدهشنى وأسعدنى فى الوقت نفسه أن فيودور ميخايلوڤيتش قد عبَّر لى عن الفكرة التى جاش بها صدرى وكانت وراء قلقى.

ــ أتعلمين يا أنّا جريجوريڤنا(*) فيم أفكر ؟ ها قد جمعت الأقدار بيننا وأصبحنا نلتقى كل يوم فى وئام ومودة، وها قد تعودنا أن نتبادل الحديث فى حماس وحيوية؛ ترى هل سينتهى كل ذلك بانتهاء الرواية؟ فى الحقيقة إنه أمر مؤسف! لسوف أفتقدك كثيرًا. أخبرينى كيف يمكن أن أراك؟

أجبته وأنا فى حالة من الإحباط:

ــ حسنًا، فيودور ميخايلوڤيتش، مصير الحى يتلاقى. على أية حال فليس من الصعب أن يلتقى الناس بعضهم ببعض.

ــ ولكن أين ؟

ــ فى أى مكان، فى مجتمع، فى مسرح، فى حفل....

ــ تعرفين أننى لا أرتاد المجتمعات أو المسارح إلا نادرًا، ثم ما جدوى هذه اللقاءات إذا لم يستطع المرء أن يقول أحيانًا ما يريد. لماذا لا تدعيننى لزيارة أسرتك؟

ــ تفضل، سوف يسرنا حضورك، لكنى أخشى أن نكون أنا وأمى صحبة غير مسلية لك.

ــ متى أستطيع الحضور ؟

سوف نتفق على ذلك عندما ننهى العمل، الأمر الأساسى بالنسبة إلينا الآن هو إنهاء روايتك.

(*) بعد مرور شهر بدأ فيودور ميخايلوڤيتش يتذكر اسمى، وكان فى السابق يعيد سؤالى عنه كلما نسيه (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

اقترب الأول من نوفمبر، موعد تسليم الرواية لستيلوڤسكى، وهنا ظهر الخوف من أن يفكر هذا الرجل فى خدعة يستخدمها لرفض تسلم المخطوطة ليحصل على الغرامة. هدأت من روع فيودور ميخايلوڤيتش قدر استطاعتى ووعدته أن أستعلم عما يجب عليه أن يصنعه فى حالة إذا ما تحقَّقت شكوكه.

وفى مساء نفس اليوم طلبت من أمى أن تذهب إلى أحد معارفنا الذى يعمل بالمحاماة. وقد نصحنا المحامى أن نسلم المخطوطة إما إلى موثق العقود، أو إلى قسم شرطة المنطقة التى يقطن فيها ستيلوڤسكى، على أن يتم ذلك، بطبيعة الحال، مصحوبًا بتوقيع شخصية ذات صفة رسمية. نفس النصيحة قدمها له القاضى العالمى فريمان (شقيق رفيقه فى المدرسة) الذى كان فيودور ميخايلوڤيتش قد توجه إليه لاستشارته.

(٧)

كان التاسع والعشرون من أكتوبر موعدًا لآخر إملاء لنا. كانت رواية «المقامر» قد اكتملت. ستة وعشرون يومًا من الرابع إلى التاسع والعشرين من أكتوبر كتبت خلالها هذه الرواية. كتبها فيودور ميخايلوڤيتش فى سبع ملازم على عمودين من القطع الكبير، أى ما يعادل عشر ملازم من القطع العادى. كان فيودور ميخايلوڤيتش سعيدًا للغاية بذلك وأخبرنى أنه وبعد أن يُسلِّم المخطوطة بسلام، ينوى أن يقيم مأدبة غداء لأصدقائه (مايكوف، وميلبوكوف وغيرهم) وأنه يدعونى مقدمًا للمشاركة فى هذه المأدبة.

ـ هل ذهبت إلى أحد المطاعم من قبل ؟

ـ لا، مطلقًا.

ـ حسنًا، فستأتين إذن إلى غدائى! أود أن أشرب نخب صحة مساعدتى العزيزة! فدون دعمك لم أكن لأنهى الرواية فى موعدها. إذن ستأتين؟

أجبته بأننى سأستشير أمى، وكنت قد قرَّرت بينى وبين نفسى ألا أذهب. كنت أعلم أنه إذا تغلب علىَّ الحياء فسوف يبدو وجهى كئيبًا وقد أفسد عندئذٍ على الجمع بهجته.

فى اليوم التالى، الثلاثين من أكتوبر، أحضرت لفيودور ميخايلوڤيتش ما كتبناه بالأمس بعد صياغته. قابلنى بترحاب خاص، حتى أن حمرة ما اندفعت فى وجهه عندما دخلت. قرأنا معًا كالمعتاد الأوراق المكتوبة وفرحنا أنها بدت أكثر عددًا مما توقعناه. أخبرنى فيودور ميخايلوڤيتش أنه سيعيد اليوم قراءة الرواية فيصلح بها ما ينبغى إصلاحه ثم يذهب بها غدًا إلى ستيلوڤسكى، وهنا تحديدًا أعطانى الخمسين روبلاً وهو الأجر الذى تم تحديده. شدَّ على يدى بقوة وشكرنى بحرارة على تعاونى.

كنت أعلم أن الثلاثين من أكتوبر هو عيد ميلاد فيودور ميخايلوڤيتش، ولهذا قرَّرت أن أستبدل بثوبى الجوخ الأسود المعتاد ثوبًا من الحرير البنفسجى. كان فيودور ميخايلوڤيتش، الذى طالما رآنى فى ملابس الحداد، مسرورًا لما أبديته من اهتمام، وقد أثنى على ثوبى ووجد أن اللون البنفسجى ملائم تمامًا لى، وأننى أبدو أطول وأكثر رشاقة فى هذا الثوب الطويل. راقنى أن أسمع ثناءه، ولكن وصول أرملة أخ فيودور ميخايلوڤيتش، إيميليا فيدوروڤنا، التى جاءت لتهنئته، أفسدت متعتى. قام فيودور ميخايلوڤيتش بتعريف كل منا بالآخر وشرح لزوجة أخيه أنه بفضل مساعدتى فقد تمكن من إنهاء الرواية فى موعدها، وهو ما جنبه المصيبة التى كانت تهدِّده. وعلى الرغم من هذه الكلمات فقد عاملتنى بجفاء وتعالٍ، الأمر الذى أدهشنى وحزَّ فى نفسى. لم يرتح فيودور ميخايلوڤيتش لهذا الجفاء الذى أبدته زوجة أخيه، ومن ثم راح يعاملنى بود وترحاب زائدين، وبعد أن عرض عليها أوراقًا ما، دخل أبوللون نيكولايڤيتش مايكوف. انحنى مسلمًا ولكنه، كما يبدو، لم يتعرف علىّ. وبعد أن توجه إلى فيودور ميخايلوڤيتش سأله كيف تسير الأمور مع الرواية. لم يجبه فيودور ميخايلوڤيتش، الذى لم يسمعه على الأرجح، إذ كان منشغلاً بالحديث مع زوجة أخيه. عندئذ قررت أن أجيب نيابة عن فيودور ميخايلوڤيتش فأخبرته أن الرواية اكتملت بالأمس، وأننى أحضرت لتوى الفصل الأخير بعد إعادة كتابته. اقترب مايكوف ناحيتى على عجل مادًا يده إلىَّ معتذرًا لأنه لم يعرفنى للوهلة الأولى، وعزا ذلك إلى قصر نظره ولأننى كنت أبدو أقصر قامة فى ثوبى الأسود.

راح يستفسر عن الرواية وسألنى عن رأيى فيها. رحت أدلى بآرائى بفرح عن العمل الجديد الذى أصبح عزيزًا علىَّ، وأخبرته أنها تضم بين ثناياها عددًا من الشخصيات الناجحة، المليئة بالحياة (الجدة، مستر أستلى والجنرال العاشق). ذهبنا نثرثر حوالى عشرين دقيقة وكنت أتحدث على سجيتى مع هذا الإنسان الرقيق الودود. كانت إميليا فيروروفنا مندهشة بل مصدومة بعض الشىء من اهتمام مايكوف بى، ولكنها لم تغير من لهجتها الجافة معتبرة، على الأرجح، أنه من غير الجدير بها أن تبدى بعض الود تجاه... مُختزِلة.

سرعان ما غَادَرَنا مايكوف، فحذوت حذوه، رافضة تحمُّل الصلف الذى تعاملنى به إميليا فيدوروفنا، وقد حاول فيودور ميخايلوڤيتش بشدة أن يقنعنى بالبقاء محاولاً بكل الطرق أن يخفف من فظاظة زوجة أخيه. أوصلنى حتى المدخل وذكَّرنى بوعدى بدعوته لزيارتنا، فأكدت له الدعوة.

ـ متى أستطيع الحضور ؟ غدًا ؟

ـ لا، لن أكون بالبيت غدًا، أنا مدعوَّة لزيارة صديقة فى الثانوية.

ـ بعد غد ؟

ـ بعد غد لدىَّ محاضرة فى الاختزال.

ـ إذن، الثانى من نوفمبر؟

ـ يوم الأربعاء سأذهب، على الأرجح، إلى المسرح.

ـ يا إلهى! كل أيامك مشغولة! أتدرين يا أنَّا جريجوريڤنا، يخيل لى أنكِ تتعمدين ذلك. الأمر ببساطة أنك لا ترغبين فى زيارتى. أخبرينى بالحقيقة!

ـ إطلاقًا، أؤكد لك! سوف تسعدنا رؤيتك عندنا. تعالَ فى الثالث من نوفمبر، الخميس مساء، الساعة السابعة.

ـ الخميس فقط ؟ يا له من زمن طويل! سوف أفتقدك بشدة!

بالطبع لم آخذ هذه الكلمات على محمل الجد.

(٨)

وهكذا ذهبت سريعًا أيام الصفاء، وجاءت أيام الشقاء. كنت قد اعتدت طوال هذا الشهر أن أسرع الخطو بمرح وسعادة لنبدأ العمل، مسرورة بلقاء فيودور ميخايلوفيتش، أشعر بالحيوية والحماس فى الحديث معه، حتى أصبح هذا الأمر حاجة مُلحة بالنسبة إلىَّ. كل مشاغلى واهتماماتى العادية السابقة فقدت معناها وبدت لى أمورًا فارغة لاحاجة لى بها. حتى زيارة فيودور ميخايلوفيتش المرتقبة لم تعد تسعدنى؛ بل إنها أصبحت مصدرًا لتعاستى. كنت أدرك أنه لا أنا ولا أمى الطيبة يمكن أن نكون جليسين مؤنسين لهذا الإنسان الذكى الموهوب، وإذا كانت الأحاديث التى دارت بينى وبين فيودور ميخايلوفيتش أحاديث ممتعة (هكذا كنت أفكر)، فمرد ذلك فقط لأنها كانت تتناول موضوعًا مهمًا لكلينا. أما الآن فسيأتى فيودور ميخايلوفيتش إلى بيتنا باعتباره ضيفا، علينا أن «نسليه». رحت أفكر فى الموضوعات التى يمكن أن تكون محورًا لحديثنا، وعذبتنى فكرة الانطباع التى ستتركه الرحلة الطويلة الشاقة إلى البقعة النائية التى نسكن فيها، وعن الأمسية المملة التى سيقضيها والتى سوف تمحو لدى فيودور ميخايلوفيتش، باعتباره إنسانًا مرهف الشعور، ذكريات لقاءاتنا السابقة، وسوف يأسف على قبوله الدعوة إلى هذه الصحبة المملة.

وباعتبارى إنسانًا محبًا للحياة، حاولت أن أسلى نفسى وأن أزيل حَزَنى، أو خوفى، إن شئنا الدقة. ذهبت لزيارة صديقة لى، وفى اليوم التالى ذهبت لمحاضرة الاختزال. قابلنى أولخين مهنئًا بانتهاء عملى بنجاح. كان فيودور ميخايلوفيتش قد كتب إليه يخبره بذلك ويشكره على التوصية بمختزل، استطاع بفضله الوصول بروايته إلى نهاية موفقة. وأضاف فيودور ميخايلوفيتش أن الطريقة الجديدة فى العمل بدت له مناسبة، وأنه قد عقد العزم على استخدامها فى المستقبل.

وفى يوم الخميس، الثالث من نوفمبر، بدأت منذ الصباح فى الإعداد لاستقبال فيودور ميخايلوڤيتش. خرجت لشراء كمثرى من النوع الذى يحبه وبعض الهدايا الصغيرة مثل تلك التى كان أحيانًا ما يقدمها لى. كنت أشعر طوال اليوم بالقلق، وبحلول السابعة مساء كان قلقى قد بلغ ذروته. دقت السابعة والنصف، ثم الثامنة، ولم يصل. عندئذ قررت أنه قد عدل عن رأيه فى الحضور، أو ربما نسى وعده. وأخيرًا دق جرس الباب بعد طول انتظار وكانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف. أسرعت للقاء فيودور ميخايلوڤيتش وسألته:

ـ كيف استطعت العثور علىَّ، فيودور ميخايلوڤيتش؟

أجاب بلطف:

ـ حسنًا، نبرتك فى الحديث تشى بأنك غير سعيدة لعثورى عليك. أما أنا فأبحث عنك منذ السابعة، وقد طفت بالحى كله وسألت كل من قابلت. الجميع يعرف أن شارع كوسترومسكايا موجود هنا. ولكنهم لايعرفون كيف يدلونك عليه(*). شكرًا لله أن قيض لى رجلاً طيبًا صعد إلى جوار الحوذى وأرشده إلى الطريق.

دخلت أمى فأسرعت بتقديمها إلى فيودور ميخايلوڤيتش فقبَّل يدها بظرف وقال إنه مدين لى بالمساعدة فى العمل. شرعت أمى تصب الشاى، بينما راح فيودور ميخايلوڤيتش يحكى لى فى أثناء ذلك قدر الخوف الذى عاناه حتى سلَّم المخطوطة إلى ستيلوڤسكى، وكما تنبأنا فقد لجأ ستيلوڤسكى إلى أسلوب التحايل والمخاتلة. سافر إلى الريف وأعلنت خادمته أنها لا تعلم متى سيعود. عندئذ توجه فيودور ميخايلوڤيتش إلى مكتب دار نشر ستيلوڤسكى وحاول تسليم المخطوطة لرئيس المكتب، لكن هذا

(*) يقع شارع كوسترومسكايا خلف مستشفى نيكولايفسكى، ويمكن اختصار المسافة بالمرور عبر بوابة المستشفى، ولما كانت هذه البوابة تغلق فى المساء. عندئذ يمكن الوصول إلى هذا الشارع، إما عن طريق شارع سلونوڤايا (حاليًا شارع سوفروڤسكى)، أو عن طريق شارع مالايا بولوتنايا. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

رفض قبولها رفضًا باتًا قائلاً إنه غير مفوض بذلك من قبل رب العمل. تأخر فيودور ميخايلوفيتش فى الوصول إلى موثق العقود، فى الوقت نفسه لم يكن هناك أحد من رئاسة إدارة الحى موجودًا نهارًا فطلبوا منه المرور مساء. قضى فيودور ميخايلوفيتش النهار بأكمله فى خوف عظيم، وفى العاشرة مساء فقط نجح فى تسليم المخطوطة فى مكتب شرطة حى (نـ... سكى) وتسلم إيصالاً من المشرف.

جلسنا نتناول الشاى ونتبادل الحديث دون كلفة وفى جو تسوده البهجة والمرح، كما كنا دائمًا. واضطررت لتنحية الموضوعات التى كنت أفكر فى طرحها جانبًا، إذ ظهرت هناك موضوعات جديدة مشوقة. سلب فيودور ميخايلوفيتش لبّ أمى، وهى التى كانت مضطربة بعض الشىء لزيارة كاتب «كبير» لبيتنا. كانت لفيودور ميخايلوفيتش جاذبية آسرة، وكثيرًا ما تسنَّى لى فيما بعد أن ألاحظ كيف أن بعضًا من الناس، الذين كانت لديهم آراء مسبقة ضده، سرعان ما ينبهرون به.

أخبرنى فيودور ميخايلوفيتش، عرضًا، أنه يريد أن يستريح أسبوعًا ثم يبدأ فى العمل فى الجزء الأخير من «الجريمة والعقاب».

ــ أود يا أنّا جريجوريفنا الطيبة أن تساعدينى. لقد كان العمل معك يمضى فى يسر، وأود فى المستقبل أن أقوم بالإملاء وآمل ألا ترفضى أن تكونى زميلتى فى العمل.

أجبت بقولى:

ــ أود بكل سرور أن أساعدك، ولكنى لا أعرف رأى أولخين فى ذلك. ربما يعين لهذا العمل الجديد أحد تلاميذه أو إحدى تلميذاته.

ــ لقد اعتدت على طريقة العمل معك وأنا راضٍ عنها تمام الرضا. ربما كان الأمر سيصبح غريبًا، لو أن أولخين أوصى بمختزل آخر، كان من الممكن ألا يسير عملنا على نحو حسن. بالمناسبة، ربما لا تكونين أنتِ نفسك راغبة فى العمل معى أكثر من ذلك؟ فى هذه الحال، لن أكون لحوحًا بالطبع...

كان واضحًا أن كدرًا قد أصابه، حاولت أن أحفف عنه فقلت له إن الأرجح أن أولخين لن تكون لديه أسباب للاعتراض على العمل الجديد، وأن علىَّ، على أية حال، أن أراجعه فى ذلك.

فى حوالى الحادية عشرة مساءً اعتزم فيودور ميخايلوڤيتش الرحيل، ولدى مغادرته البيت، أخذ علىَّ عهدًا أن أتفاوض مع أولخين عند لقائى به فى أول محاضرة وأن أكتب له. افترقنا على نحو ودى خالص؛ وسارعت بالعودة إلى غرفة المائدة وقد شملتنى السعادة من أثر حديثنا الحماسى. وقبل أن تمضى عشر دقائق إذا بالخادمة تدخل لتقصَّ علينا كيف أن شخصًا ما قد سرق فى الظلام من الحوذى، الذى أحضر فيودور ميخايلوڤيتش، المخدة التى يضعها على مقعد العربة. كان الحوذى يائسًا ولم يهدئ من روعه سوى الوعد الذى بذله فيودور ميخايلوڤيتش له، بأن يجزل له العطاء تعويضًا عن الخسارة التى حاقت به.

كنت ما أزال فتاة غضَّة، وقد أصابنى هذا الموقف بالجزع الشديد، وتصوَّرت أن مثل هذا الحدث سوف يؤثر على علاقة فيودور ميخايلوڤيتش بنا، وأنه سوف يكف عن زيارتنا فى هذه البقعة النائية الموحشة، حيث يمكن أن يسطو عليه لص كما سطا على الحوذى. شعرت بالأسى حتى انهمرت الدموع من عينى من جراء إحساسى بأن هذا الحادث المؤسف قد أفسد الانطباع الذى تركته هذه الأمسية الرائعة التى قضيناها.

(٩)

فى اليوم التالى لزيارة فيودور ميخايلوڤيتش ذهبت إلى أختى ماريا جريجوريڤنا سڤاتكوڤسكايا وقضيت اليوم بطوله عندها، وهناك حكيت لها ولزوجها باڤل جريجوريڤيتش عن عملى لدى دستويڤسكى. ولمّا كنت أعمل نهارًا لدى فيودور ميخايلوڤيتش، ثم أقوم على إعادة كتابة ما تمليه مساء، فقد كانت زياراتى لأختى ماشا(*) زيارات خاطفة، ومن ثم فقد تجمعت لدىّ حكايات كثيرة. كانت أختى تستمع

(*) ماشا: اسم التدليل لماريا. (المترجم)

إلىّ باهتمام بالغ، وكانت تقاطعنى دائمًا لتستفسر عن التفاصيل كافة، ولما رأت حماسى الشديد قالت:

ـ لا جدوى، نيتوتشكا، أنت «مغرمة» بدستويفسكى، لكن أحلامك لا يمكن أن تتحقق، وأحمد الله أنها لن تتحقق ما دام هذا الإنسان مريضًا إلى هذا الحد ؛ فضلاً عن أعبائه الأسرية وديونه!

اعترضت بشدة وقلت إننى لست «معجبة» على الإطلاق بدستويفسكى، وأننى لا «أحلم» بشىء، كل ما فى الأمر أننى كنت سعيدة بتبادل الحديث مع شخص ذكى وموهوب، وإننى مدينة له لما أبداه نحوى من اهتمام ومودة دائمة.

على أن كلمات أختى قد كدَّرت صفوى وما إن عدت إلى المنزل حتى رحت أسأل نفسى: هل ماشا أختى على حق؟ وهل أنا «مغرمة» فعلاً بفيودور ميخايلوڤيتش ؟ أليست هذه فعلاً بداية الحب الذى لم أجربه بعد؟ يا له من حلم مجنون من جانبى! وهل هذا ممكن؟ وإذا كانت هذه بداية الحب، فما الذى علىَّ أن أفعله؟ أليس من الأفضل أن أرفض اقتراحه بالعمل بعذر لائق، وأن أنقطع عن التفكير فيه، وأن أحاول نسيانه شيئًا فشيئًا، وأن أعود إلى سكينتى السابقة التى كنت أنعم بها وأقدرها دائمًا بعد أن أنشغل عنه بعمل ما. ولكن، أليس من الجائز أن تكون ماشا مخطئة، وأن لا خوف هناك من أى تهديد لعواطفى. لماذا أفقد، فى ظروف مثل ظروفى، عملى بالاختزال، هذا العمل الذى كنت أحلم به، وأفقد معه هذه الأحاديث الودودة الشيقة التى كانت تصاحب هذا العمل.

بالإضافة إلى ذلك، فمن المؤسف بشدة أن أترك فيودور ميخايلوڤيتش دون عون من مختزل، إذ إنه تأقلم على هذا الأسلوب فى العمل، وخصوصًا أننى لا أعرف أحدًا، من بين تلاميذ أولخين أو تلميذاته (باستثناء اثنين يعملان بالفعل بانتظام) أستطيع أن أعهد إليه كلية بالعمل بدلاً منى، سواء من ناحية سرعة الكتابة، أو الدقة فى تسليم ما أملى عليه.

طافت كل هذه الأفكار برأسى وانتابنى هم شديد.

جاء يوم الأحد، السادس من نوفمبر، فى هذا اليوم كنت قد عقدت العزم على الذهاب لتهنئة إشبيتتى بعيد ميلادها، لم أكن على صلة حميمة بها، وإنما كنت أزورها فى أيام الأعياد فحسب. من المتوقع أن يكون لديها اليوم ضيوف كثيرون، وكنت أتطلع إلى إزالة هذا الشعور المضنى، الذى لم يفارقنى طيلة الأيام الماضية. كانت هذه السيدة تعيش بعيدًا، بالقرب من جسر الأرتشين، وكنت قد قرَّرت زيارتها فى ضوء النهار. جلست أعزف على البيانو، ريثما يرسلون أحدًا فى طلب حوذى. وبسبب صوت الموسيقى، لم أنتبه إلى جرس الباب، وإذا بوقع أقدام رجل، حانت منى التفاتة، ولدهشتى وسرورى، إذا بى أرى فيودور ميخايلوڤيتش مقبلاً ناحيتى.

صافحنى فيودور ميخايلوڤيتش ضاغطًا على يدى فى قوة، وهو يقول:

ـ انظرى يا أنّا جريجوريڤنا ماذا صنعت؟ لقد كنت أشعر بالوحشة طوال الأيام الماضية، ثم رحت أفكر اليوم منذ الصباح، هل آتى إليك أم لا؟ وهل سيكون هذا لائقًا؟ ألن تبدو لك ولوالدتك زيارة متعجلة، إذ كنت هنا لتوى يوم الخميس فإذا بى أظهر ثانية يوم الأحد! عندئذ قرَّرت ألا آتى مهما كلفنى الأمر، ثم ها أنا أمامك كما ترين!

ـ ما الذى تقول، فيودور ميخايلوڤيتش! إنه لمن دواعى سرورنا أن نراك بيننا!

وعلى الرغم من تأكيدى على الترحيب به، فإننا لم نتمكن من مباشرة الحديث على النحو الذى تعودناه. لم يكن بمقدورى التغلُّب على اضطرابى فاكتفيت بالإجابة عن أسئلة فيودور ميخايلوڤيتش، حتى أننى لم أتوجه تقريبًا بأى سؤال إليه. كان هناك أيضًا سبب آخر ظاهرى راح يؤرقنى، فلم نكن قد أعددنا العدة لتدفئة صالتنا الرحبة حيث كنا نجلس، ومن ثم كانت البرودة تسودها، وهو ما لاحظه فيودور ميخايلوڤيتش فقال:

ـ المكان لديكم بارد، وأنت نفسك باردة! وعندما لاحظ أننى أرتدى ثوبًا رماديًا فاتحًا سألنى إن كنت أعتزم الخروج.

عندما عرف أن علىَّ الذهاب الآن إلى إشبينتى، أعلن فيودور ميخايلوفيتش أنه لا يرغب فى تعطيلى واقترح توصيلى بعربته حيث إنه سيسلك نفس الطريق. وافقت وانطلقنا، وعند أحد المنعطفات الحادة أراد فيودور ميخايلوفيتش أن يمسكنى من خصرى، ولكننى، باعتبارى فتاة من فتيات الستينيات، كان لدىَّ تحذير من أى نوع من أنواع إبداء الاهتمام من قبيل تقبيل اليد وإمساك السيدات من خصورهن وهلمجرا. قلت له:

ـ من فضلك، لا تقلق، لن أسقط!

بدا أن فيودور ميخايلوفيتش قد أغضبته كلماتى فقال:

ـ كم أود الآن لو أنك سقطت خارج العربة!

انفجرت ضاحكة وسرعان ما ساد السلام بيننا، ورحنا نثرثر فى مرح ما تبقَّى من الطريق، وإذا بالهموم التى أثقلت روحى تنقشع بعيدًا. عند فراقنا شد فيودور ميخايلوفيتش على يدى وأخذ منى عهدًا أن أزوره بعد يوم للاتفاق على العمل فى رواية «الجريمة والعقاب».

(١٠)

الثامن من نوفمبر من عام ١٨٦٦ أحد أهم الأيام فى حياتى. فى هذا اليوم أخبرنى فيودور ميخايلوفيتش أنه يحبنى وطلب منى أن أكون زوجته. نصف قرن مر على هذا اليوم وما تزال تفاصيله واضحة فى ذاكرتى وكأنها حدثت منذ شهر مضى.

كان يومًا صافيًا قارس البرودة. ذهبت إلى فيودور ميخايلوفيتش سيرًا على الأقدام، ولهذا تأخَّرت نصف ساعة عن الموعد المحدد. كان من الواضح أن فيودور ميخايلوفيتش كان ينتظرنى منذ فترة طويلة، وما إن سمع وقع خطواتى حتى خرج مسرعًا إلى غرفة

الاستقبال، وقال بفرح وهو يساعدنى على خلع غطاء رأسى ومعطفى:
ـ أخيرًا جئت!

دخلنا معًا إلى غرفة المكتب. كانت الغرفة فى هذه المرة مضاءة أكثر من المعتاد. وقد لاحظت بدهشة أن فيودور ميخايلوڤيتش كان مضطربًا لأمر ما. كان هناك تعبير على وجهه يشى بالتوتر والحماس، مما جعله يبدو أكثر شبابًا.

بدأ فيودور ميخايلوڤيتش حديثه بقوله:

ـ كم أنا سعيد أنكِ جئت، كنت خائفًا أن تنسى موعدنا.

ـ ولماذا ظننت ذلك؟ عندما أَعِد فإننى دائمًا ما أفى بوعدى.

ـ سامحينى، أعلم أنك إذا عاهدت أوفيت. كم أنا سعيد لرؤيتك من جديد!

ـ وأنا أيضًا سعيدة لرؤيتك، فيودور ميخايلوڤيتش، وخصوصًا وأنت على هذا الحال من البهجة والسرور. لعل أمرًا مفرحًا قد حدث لك.

ـ نعم، حدث! لقد رأيت الليلة حلمًا رائعًا.

ضحكت قائلة:

ـ لهذا السبب فقط!

ـ من فضلك لا تضحكى. إن للأحلام أهمية كبرى لدىَّ. عندما أرى أخى المرحوم ميشا، وعندما أحلم بأبى على الأخص، أعلم أن مصيبة تتهدَّدنى.

ـ إذن اقصص رؤياك علىَّ!

ـ هل ترين هذا الصندوق الكبير المصنوع من خشب الورد؟ إنه هدية من صديقى ألسيبيرى تشوكان ڤاليخانوف(١٨)، وهذا الصندوق عزيز على نفسى، فأنا أحفظ فيه مخطوطاتى وأشيائى التى لها ذكريات غالية عندى. هكذا رأيت فيما يرى النائم أننى أجلس أمام هذا الصندوق أتفحَّص ما به من أوراق، وفجأة إذا بشىء ما يتلألأ بينها، أنظر فإذا هو نجم صغير يظهر ثم يختفى. شدنى الأمر فرحت أعيد تقليب الأوراق حتى عثرت على قطعة صغيرة من الماس ولكنها كانت تلمع بشدة.

ـ وماذا فعلت بها ؟

ـ ما يحزننى أننى لا أكاد أتذكر! لقد راحت الأحلام تترى، ولم أعد أتذكر ماذا حدث لها، لكنه كان حلمًا رائعًا!

ـ يبدو لى أن الأحلام عادة ما تفسر على العكس. أبديت ملاحظتى وندمت على ما قلت، وسرعان ما تبدل وجه فيودور ميخايلوڤيتش واعتراه الشحوب.

هنا علّق فيودور ميخايلوڤيتش على كلامى بنبرة حزينة قائلاً:

ـ إذن أنت تعتقدين أن السعادة لن تطرق بابى؟ وإن هو إلا أمل كاذب؟ أجبت:

ـ لا أستطيع أن أفسر الأحلام، كما أنى لاأؤمن بها إطلاقًا.

أسفت للغاية لضياع المزاج المرح لدى فيودور ميخايلوڤيتش، حاولت أن أعيد إليه مرحه فأجبت عن سؤاله عن أحلامى، كيف أراها، بأسلوب ساخر.

ـ أكثر ما أراه فى أحلامى هو مديرة المدرسة الثانوية، وهى امرأة بدينة، تعقص شعرها على فوديها على الطريقة القديمة، وكانت دائمًا ما تعاقبنى على أتفه الأمور. حلمت أيضًا أننى أرى قطًا أشقر، قفز فوقى فجأة ذات مرة من خلف سياج حديقتنا ليثير فى قلبى الرعب.

ـ يا لك من طفلة، طفلة! راح فيودور ميخايلوڤيتش يكرر هذه الكلمة مبتسمًا وهو ينظر إلىّ فى حنان، ويا لها من أحلام! ثم سألنى: حسنًا، وما الذى أسعدك فى عيد ميلاد إشبينتك؟

ـ قضينا وقتًا طيبًا للغاية. بعد الغداء راح الكبار يلعبون الورق، أما نحن، الشباب، فقد اجتمعنا فى غرفة مكتب رب البيت ورحنا نثرثر جميعًا بحماس، وكان هناك طالبان لطيفان مرحان.

من جديد اكفهر وجه فيودور ميخايلوڤيتش. أصابتنى الدهشة هذه المرة لسرعة تغير مزاج فيودور ميخايلوڤيتش. فكَّرت، ولم أكن على علم بخصائص الصرع، ترى هل تنبئ هذه التغيرات فى المزاج بقرب وقوع النوبة، عند ذلك شعرت بالرعب...

اعتدنا منذ زمن بعيد، أن يحكى لى فيودور ميخايلوڤيتش، عندما أحضر إليه للاختزال، عما فعله خلال الساعات التى لم نتقابل فيها. أسرعت عندئذ فسألته كيف قضى أيامه السابقة، فأجاب:

ـ كنت أفكر فى روايتى الجديدة.

ـ حقًا ؟ وهل هى رواية شيقة ؟

ـ شيقة للغاية بالنسبة إلىَّ! لكننى لا أستطيع أن أصل إلى نهاية لها. هنا تبدو نفسية الفتاة الشابة مشوشة. لو كنت فى موسكو لسألت ابنة أخى سونيتشكا [١٩]، حسنًا، أما هنا فسوف ألجأ إلى مساعدتك.

رحت بفخر أستعد لمساعدة الكاتب الموهوب.

ـ ومن هو بطل روايتك؟

ـ فنان، تجاوز مرحلة الشباب، حسنًا، باختصار، فى مثل عمرى.

ـ احكِ، احكِ، تفضل. سألته وقد ازداد اهتمامى بالرواية الجديدة.

واستجابة لطلبى بدأ الارتجال الرائع فى الانسياب، لم أسمع من فيودور ميخايلوڤيتش على الإطلاق، لا من قبل، ولا من بعد، هذا القص المفعم بالإلهام، مثلما سمعته فى هذه المرة. وكلما استمر فى حديثه، بدا لى على نحو أوضح أن فيودور ميخايلوڤيتش إنما يحكى حياته الشخصية، مغيِّرا، الشخصيات والظروف فحسب. كل ما حكاه هنا هو نفس ما حكاه لى من قبل على نحو عابر، أو مختصر. الآن فإن ما يقوله على نحو متصل ومفصل، إنما يفسر لى الكثير من علاقته بزوجه الراحلة وبأقاربه.

احتوت الرواية الجديدة أيضًا على طفولة قاسية، الفقد المبكر للأب، الظروف القهرية (المرض الشديد)، التى أقصت الفنان عشر سنوات عن الحياة وعن فنه المفضل. العودة إلى الحياة (شفاء الفنان)، اللقاء بالمرأة التى أحبها، الشقاء الذى أورثه هذا الحب للفنان، وفاة الزوجة والأقارب الأعزاء (الأخت الحبيبة)، الفقر، الديون..

الحالة النفسية للبطل، الإحساس بالوحدة، خيبة الأمل فى ذوى القربى، تعطشه لحياة جديدة، حاجة إلى الحب، رغبته الملحة فى العثور على السعادة، ثم تصويرها على هـذا النحو من الحيوية والموهبة، حتى بات واضحًا أنها أمور تعكس فى مجملها معاناة المؤلف ذاته، وأنها ليست ثمرة من ثمرات خياله الفنى فحسب.

عندما رأيت فيودور ميخايلوڤيتش متجسدًا أمامى فى بطله، لم أستطع أن أتمالك مشاعرى حتى لا أقاطعه بكلماتى:

ـ ولكن فيودور ميخايلوڤيتش، لماذا تهين بطلك على هذا النحو؟

ـ أرى أنه ليس شخصًا لطيفًا بالنسبة إليك؟

ـ بالعكس، إنه لطيف للغاية، إن لديه قلبًا رائعًا، انظر، كم من التعاسة خصَّه القدر بها، وكيف أنه احتملها راضيًا! ولو أن أحدًا غيره عانى فى حياته قدر هذا الحزن لقست مشاعره على الأقل، أما بطلك فما يزال يحب الناس ويساعدهم. أبدًا، لقد صمَّمت على ظلمه.

ـ نعم، موافق، لديه بالفعل قلب طيب محب، وكم أنا سعيد أنكِ فهمته.

واصل فيودور ميخايلوڤيتش قصَّه قائلاً:

ـ وهكذا، وفى هذه الفترة المصيرية الحاسمة من حياته، يلتقى الفنان فى طريقه فتاة شابة فى مثل سنك أو أكبر بعام أو عامين، سنسميها آنيا، بدلاً من أن نسميها البطلة، هذا الاسم أفضل...

أكدت هذه الكلمات الاعتقاد لدىّ أنه يعنى بهذه البطلة أنّا ڤاسيليڤنا كورڤين ــ كروكوڤسكايا، خطيبته السابقة، وفى هذه اللحظة نسيت تمامًا أن اسمى أنّا، آنذاك لم أفكر لحظة واحدة، أن هذه القصة يمكن أن تمت لى بأى صلة. فلعل موضوع الرواية الجديدة (هذا ما تصورته) قد ظهر بتأثير الخطاب الذى تلقَّاه فيودور ميخايلوڤيتش من أنّا ڤاسيليڤنا من الخارج والذى حدثنى عنه منذ عدة أيام مضت [٢٠]

لقد رُسِمت صورة البطلة هنا بحيث تختلف فى صفاتها عن سمات البطل، فعلى حد قول الكاتب، كانت أنّا وديعة، ذكية، طيبة، محبة للحياة، وكانت تمتلك القدرة على التعامل بلباقة مع الناس. ولمّا كنتُ أولى الجمال الأنثوى فى تلك السنوات قدرًا كبيرًا من الأهمية، فإننى لم أتمالك نفسى وسألته:

ـ وهل كانت بطلتك على درجة كبيرة من الجمال؟

ـ لم تكن بالطبع رائعة الجمال، ولكنها لم تكن قبيحة، وأنا أحب وجهها.

تصورت أن فيودور ميخايلوڤيتش قد باح بسر من أسراره، فانقبض قلبى. شعور بغيض راودنى تجاه كورڤين ــ كروكوڤسكايا فقلت:

ـ على أية حال، فيودور ميخايلوڤيتش، لقد جعلت من صاحبتك أنّا هذه نموذجًا مثاليًا للغاية. هل هى فعلاً كذلك؟

ـ هى بالضبط كذلك! لقد خبرتها جيدًا!

ثم واصل فيودور ميخايلوڤيتش قصته قائلاً:

ـ كان الفنان يلتقى بآنيا فى الحلقات الفنية، وكلما زادت رؤيته لها، ازداد إعجابًا بها، وكلما قوى إيمانه بأنه يمكن أن يجد سعادته بالقرب منها. على أن حلمه بدا له مستحيلاً. فى الواقع ما الذى يستطيع أن يقدمه رجل كهل مثله، مريض، مثقل بالديون لهذه الفتاة التى تفيض بالعافية والشباب وحب الحياة؟ ألا يُعد حبها للفنان تضحية فظيعة من جانب فتاة شابة، ألن تعض إصبع الندم بعد ذلك إن هى ربطت مصيرها به؟ هل من الممكن، عمومًا، أن تكون هناك فتاة شابة، مختلفة من حيث شخصيتها، فتاة فى مثل

عمرها، أن تحب الفنان الذى أبدعته قريحتى، أليس فى ذلك خطأ نفسى؟ هذا ما أردت أن أعرف رأيك بشأنه أنّا جريجوريڤنا.

ـ وما الذى يجعله مستحيلاً؟ إذا كانت أنيا التى أبدعتها كما تقول، ليست لعوبًا فارغة، وإنما تمتلك قلبًا طيبًا عطوفًا، فلماذا لا تحب فنانك؟ أما كونه مريضًا وفقيرًا، فهل يمكن أن يحب المرء لمجرد المظهر والثروة؟ ثم أين هى التضحية من جانبها، إذا كانت تحبه، فسوف تكون هى أيضًا سعيدة، ولن تندم أبدًا!

كنت أتحدث بحماس وحمية، بينما راح فيودور ميخايلوڤيتش ينظر إلىَّ بقلق.

ـ وهل تؤمنين بحق. إن باستطاعتها أن تحبه بإخلاص طول العمر؟

ثم صمت برهة وكأنه متردِّد، ثم نطق بصوت متهدِّج:

ـ ضعى نفسك دقيقة مكانها، تصورى أننى أنا هو هذا الفنان، وأننى اعترفت لك بحبى، وسألتك أن تكونى زوجتى. أخبرينى بماذا كنت تجيبين؟

علا وجه فيودور ميخايلوڤيتش تعبير يشى بالقلق وعذاب القلب، فأدركت أخيرًا أن حديثنا ليس بالحديث المتعلِّق بالأدب، وأننى سوف أهوى بضربة قاصمة تصيبه فى عزة نفسه وكبريائه، إذا ما جاءت إجابتى مراوغة. تأملت وجـه فيودور ميخايلوڤيتش العزيز إلى نفسى وقد غشيه الاضطراب ثم قلت له:

ـ كنت سأجيبك أننى أحبك وسوف أحبك مدى الحياة!

لن أنقل لكم هذه الكلمات الرقيقة المليئة بالحب، التى قالها لى فيودور ميخايلوڤيتش فى هذه اللحظات التى لا تنسى، كانت هذه الكلمات بالنسبة إلىَّ كلمات مقدسة...

كنت مذهولة، واقعة تحت ضغط سعادتى الهائلة، ولفترة طويلة لم يكن باستطاعتى أن أصدقها. أذكر أن فيودور ميخايلوڤيتش، بعد مرور ساعة، راح يخبرنى بخطط مستقبلنا ثم يطلب رأيى فيها، وقد أجبته:

ـ وهل باستطاعتى الآن أن أناقش أمرًا من الأمور! إننى الآن فى غاية السعادة!!

وحيث إننا لم نكن نعرف على أى نحو سوف تسير أمورنا، ومتى يمكن أن نعقد قراننا، فقد قررنا ألا نخبر أحدًا مؤقتًا، بهذا الأمر، باستثناء أمى، وعدنى فيودور ميخايلوڤيتش بالحضور منزلنا غدًا لقضاء السهرة معنا، وأخبرنى أنه سينتظر لقاءنا على أحر من الجمر.

صحبنى فيودور ميخايلوڤيتش حتى المدخل، ثم ألبسنى غطاء الرأس بعناية. كنت قد تهيأت للخروج، عندما استوقفنى بقوله:

ـ أنّا جريجوريڤنا، أعرف الآن إلى من ذهبت الماسة.

ـ أما زلت تتذكر الحلم؟

ـ كلا، أنا لا أتذكر الحلم، ولكننى وجدته فى النهاية، وقد عقدت النية على الاحتفاظ به طول العمر.

ابتسمت قائلة:

ـ أنت مخطئ، فيودور ميخايلوڤيتش! أنت لم تعثر على ماسة، وإنما على حصاة عادية.

ـ لا، أنا على يقين، أننى لم أخطئ هذه المرة، ــ أجابنى فيودور ميخايلوڤيتش بكل جدية وهو يودعنى.

(١١)

كان الفرح يملأ روحى، عندما عدت من عند فيودور ميخايلوڤيتش أذكر أننى كنت أهتف، تقريبًا بصوت مرتفع، طوال الطريق، غير عابئة بالمارة:

ـ يا إلهى، يا لها من سعادة! هل هى حقيقة ؟ هل هو حلم؟ معقول أنه سيصبح زوجى ؟!

لم يعيدنى إلى صوابى سوى ضجيج المارة فى الطريق، وتذكرت أننى كنت مدعوة على الغداء عند أقاربى، الذين كانوا يحتفلون بعيد ميلاد ابن عمى ميخائيل نيكولايڤيتش سنيتكين. عرجت على محل الخبز (كانت محال الحلوى قليلة آنذاك) لشراء كعكة للمحتفى به. كنت سعيدة للغاية، كل الناس بدوا لى طيبين، ودودين، كنت أود لو قلت لهم شيئًا ما سارًا. لم أتمالك نفسى فأبديت ملاحظة للسيد الألمانى، الذى باعنى الكعكة:

ـ يبدو لون بشرتك رائعًا، وكذلك تسريحة شعرك!

وجدت ضيوفًا كثيرين لدى أقاربى، ولم تكن أمى بينهم، على الرغم من أنها وعدت بحضور الغداء، وقد أحزننى عدم حضورها، كنت أود بشدة أن أخبرها على وجه السرعة بفرحتى.

كان الغداء يحيطه جو من المرح، ولكننى كنت أتصرف بشىء من الغرابة، كنت أبتسم للجميع، تارة أستغرق فى التفكير فلا أسمع شيئًا مما يقال لى، وتارة أجيب كيفما اتفق، بل إننى ناديت أحدهم باسم فيودور ميخايلوڤيتش. راح الجميع يسخرون منى، فتعللّت بأننى مصابة بصداع نصفى.

وأخيرًا وصلت أمى الرؤوم. انطلقت مسرعة نحوها عند المدخل، احتضنتها وهمست فى أذنها:

ـ هنأينى، أنا ـــ عروس!

لم أتمكن من أن أضيف شيئًا، حيث أسرع أهل البيت فى استقبالها. أذكر أن أمى ظلت طوال الأمسية تتطلَّع إلىّ فى فضول، دون أن تعلم، على الأرجح، أى من الحضور

المعجبين بى سوف يكون زوجى. عندما رجعنا إلى المنزل فقط، استطعت أن أشرح لها أننى سأتزوج من دستويفسكى. لا أدرى، هل كانت أمى سعيدة بذلك، لا أظن، وكإنسان خَبَرَ الحياة، عاش طويلاً فى هذه الدنيا، لم يكن من الممكن لأمى إلا أن تتنبأ بأننى بسبب هذه الزيجة، سوف يكون علىّ تحمل العديد من أشكال العذاب والحزن، سواء بسبب المرض اللعين الذى يعانى منه زوج المستقبل، أو بسبب نقص الموارد المالية، ولكنها لم تحاول أن تثنينى عن عزمى (وهو ما فعله كثيرون فيما بعد) وإننى لمدينة لها بذلك، ومن هو الذى كان بإمكانه أن يقنعنى برفض هذه السعادة الكبرى التى تنتظرنى، والتى بدت لى، فيما بعد، سعادة حقيقية واقعية، على الرغم من العديد من الصعوبات التى واجهناها فى حياتنا المشتركة (مرض زوجى وديونه).

اليوم التالى، التاسع من نوفمبر، كان يومًا طويلاً أصابنى بالضجر لم أستطع أن أشغل نفسى بشىء ورحت أتذكر كل تفاصيل حديث الأمس، بل إننى قمت بتسجيله فى دفتر اختزالى.

وصل فيودور ميخايلوڤيتش فى الساعة السادسة والنصف، بادر بالاعتذار لوصوله قبل الموعد المحدد بنصف ساعة.

ـ لكننى لم أطق صبرًا، لقد أردت أن ألتقى بكم بأسرع ما يمكن!

أجبت ضاحكة:

- Nous sommes logées à la meme enseigne(*)

ـ لم أفعل شيئًا طوال اليوم، ظللت أفكر فيك وكم أنا سعيدة لحضورك!

سرعان ما استرعى انتباه فيودور ميخايلوڤيتش أننى أرتدى ثوبًا فاتح اللون.

ـ كنت أفكر طوال الطريق، إذا ما كنت قد خلعت ثوب الحداد (٢١) أم أنك ما زلت ترتدين الثوب الأسود، وها أنت فى ملابس وردية!

(*) كلنا فى الهم شرك. (بالفرنسية)

ـ وهل يمكن أن يكون الأمر على نحو آخر وفى قلبى كل هذه السعادة! بطبيعة الحال سوف أظل أرتدى ملابس الحداد فى المجتمع إلى أن نعلن قراننا، أما فى البيت فسأرتدى لك الملابس الزاهية.

ـ قال فيودور ميخايلوڤيتش:

إن اللون الوردى مناسب لك تمامًا، إنك تبدين فيه أكثر شبابًا كما لو كنت صبية صغيرة.

كان من الواضح أن ملامح الشباب تثير قلق فيودور ميخايلوڤيتش. رحت أضحك مؤكدة له أننى سرعان ما أصبح عجوزًا، وعلى الرغم من أن هذا الوعد كان على سبيل المزاح، فسرعان ما تحقق فى حياتى على نحو كبير من السرعة، بفضل ظروف كثيرة، أى أننى، إن شئنا الدقة، لم أهرم، وإنما انعكست الأحداث على مظهرى، وصارت أحاديثى تتسم بالوقار الشديد، إلى حد أن الفارق بينى وبين زوجى بدا غير ملحوظ تقريبًا.

دخلت أمى، فقبّل فيودور ميخايلوڤيتش يدها قائلاً:

ـ تعلمين، بطبيعة الحال، أننى طلبت يد ابنتك، وقد وافقت أن تكون زوجة لى، وأنا سعيد للغاية بذلك، ولكننى أود لو أنك باركت هذا الاختيار. لقد حدثتنى أنّا جريجوريڤنا عنك كثيرًا، حتى أننى تعودت على احترامك. أعدك أننى سأفعل الممكن والمستحيل لكى تكونى سعيدة، وسوف أكون أكثر الناس لك إخلاصًا ومحبة.

وإحقاقًا للحق فعلى مدى أربعة عشر عامًا، هى عمر زواجنا، كان فيودور ميخايلوڤيتش على عهده ودودًا محترمًا فى علاقته بأمى، أحبها بإخلاص وتقدير.

ألقى فيودور ميخايلوڤيتش خطابه القصير بحماس ولكن على نحو متقطع قليلاً، وهو ما تحدث عنه فيما بعد. كانت أمى فى غاية التأثر، عانقته وطلبت منه أن يحبنى وأن يشملنى برعايته، حتى أنها انخرطت فى البكاء.

سارعت بوقف هذا المشهد، الذى ربما كان مربكًا لفيودور ميخايلوڤيتش قائلة:

ـ ماما الحبيبة، هيا أسرعى بتقديم الشاى! إن فيودور ميخايلوڤيتش يكاد يتجمد من البرد!

جىء لنا بالشاى، أخذنا مجلسنا على المقاعد اللينة القديمة، وقد أمسكنا بالأكواب ورحنا نتحدث بكل حماس وحيوية.

مرت حوالى ساعة، وإذا بجرس الباب يدق وتبلغنا الخادمة بوصول اثنين من الشباب، اعتادا زيارتنا. وفى هذه المرة أزعجتنى بشدة هذه الزيارة، التى جاءت دون موعد مسبق، فطلبت من أمى:

ـ من فضلك، اخرجى إليهم، وأخبريهم أننى أعتذر عن استقبالهم حيث أشكو من الصداع.

قاطعنى فيودور ميخايلوڤيتش قائلاً:

ـ من فضلك، أنّا نيكولايڤنا، لا ترفضى حضورهم، ثم توجه بالحديث إلىَّ بصوت منخفض: أود أن أراك وسط صحبة من الشباب، إذ إننى لم أرك حتى الآن إلا بصحبتنا، بصحبة الكبار.

ابتسمت وطلبت دعوة الضيوف، قدمتهم إلى فيودور ميخايلوڤيتش وذكرت له أسماءهم. أحس الشابان بشىء من الحرج لهذا التعارف المفاجئ مع الروائى الشهير، ولكى أشرح لهما سبب الاحتفال الذى وجداه لدينا، قلت للضيفين، إنهما جاءا فى مناسبة الاحتفال بانتهاء عملنا المشترك فى الرواية الجديدة. كنت أود لو لم أشارك فى الحديث المشترك، وأن أدفع إليه فيودور ميخايلوڤيتش.

انتهزت فرصة السؤال الذى وجهه إلىَّ أحد الشابين، بشأن ما إذا كان الصداع النصفى الذى انتابنى بالأمس قد زال فقلت له:

ـ أنت المذنب فى هذا الصداع، لقد كنت تدخن بشراهة، أليس صحيحًا، فيودور ميخايلوڤيتش، إنه لا ينبغى التمادى فى التدخين؟

ـ إن شهادتى مجروحة، فأنا نفسى أدخن كثيرًا.

ـ لكن هذا أمر ضار بالصحة، أليس كذلك؟

ـ بالطبع، ضار، لكنه عادة يصعب التخلص منها.

كانت هذه هى الكلمات الوحيدة التى قالها فيودور ميخايلوڤيتش لم أستطع بعدها أن أدفعه للمشاركة فى الحديث الذى دار بعد ذلك. راح يدخن وينظر إلىّ وإلى الضيوف بفضول. كان الشابان محرجين، بداهة فإن اسم دستويڤسكى كان له أثر شديد عليهما. قالا إن الجميع قد اتفقوا، بعد مغادرتى لأقاربى بالأمس، على الذهاب لمشاهدة أوبرا «يوديف» لسيروف(*)، وقد فوضوهما لسؤالى عن اليوم المناسب لى للذهاب، حتى يقوما بحجز شرفة بالمسرح.

شرحت لهما بلطف، ولكن بصورة حاسمة، أننى لن أذهب إلى الأوبرا، إذ إننى سوف أبدأ على الفور فى مذاكرة الاختزال، حتى ألحق برفاقى.

ـ حسنًا، وهل ستذهبين إلى الحفل الذى سيقام فى الخامس عشر من نوفمبر؟

ـ لن أذهب أيضًا إلى الحفل ولنفس السبب.

ـ لكنك كنت سعيدة للغاية فى هذا الحفل فى العام الماضى، قال الشابان.

ـ لقد حدث ذلك فى العام الماضى! ومنذ ذلك الحين جرت فى النهر مياه كثيره، قلت ذلك وكأنى ألقى موعظة.

أحس الشابان أنهما ضيفان غير مرغوب فيهما فنهضا للانصراف، فلم أعرض عليهما البقاء.

سألت فيودور ميخايلوڤيتش بعد ذهاب الضيوف.

ـ حسنًا، هل أنت راض عنى؟

ـ كنت تزقزقين كالعصفور. المؤسف فقط، أنك أسأتى إلى شعور معجبيك برفضك القاطع لكل ما كان محلاً لاهتمامك من قبل.

(*) سيروف، ألكسندر نيكولايڤيتش (١٨٢٠ ــ ١٨٧١) مؤلف وناقد موسيقى كان صديقًا لدستويڤسكى.

ـ ليكن! لست بحاجة إلى أحد منهم الآن! أنا بحاجة إلى شخص واحد فقط، الرائع، الحبيب، العزيز لدىّ، فيودور ميخايلوڤيتش!

ـ إذن فأنا الحبيب والعزيز عليك؟ ــ قالها فيودور ميخايلوڤيتش، ومن جديد بدأ حديثنا الودى الصريح، الذى استمر طوال المساء.

كان زمنًا سعيدًا وعــن هذا الزمن سوف أحكى ذكرياتى بامتنان عميق لمشيئة القدر.

(١٢)

لم يستمر قرار كتمان نبأ خطبتنا عن أقاربنا ومعارفنا أكثر من أسبوع. فقد انكشف سرنا على نحو مفاجئ تمامًا.

كان فيودور ميخايلوڤيتش قد استأجر حوذيًا بالساعة، من السابعة إلى العاشرة. ولمّا كان يحب البسطاء، فقد راح يتحدث مع الحوذى بشكل عادى إبان الطريق الطويل إلينا والعودة. ولشعوره بالحاجة إلى من يشاركه سعادته، فقد أخبره عن زواجه المرتقب. إلا أنه، وبعد عودته من عندنا إلى بيته، اكتشف أنه لا يحمل نقودًا فى جيبه، فأخبر الحوذى أنه سيرسل إليه بالنقود مع الخادمة. عندما خرجت الخادمة، وجدت ثلاثة من الحوذية يقفون لدى الباب، فلم تعرف لمن منهم عليها أن تدفع الأجرة، فسألت من منهم أحضر الآن «السيد الكبير»؟

ـ العريس ؟ أنا أحضرته.

ـ أى عريس! السيد الذى عندنا ليس عريسًا.

ـ لا، بل عريس! هو نفسه أخبرنى أنه عريس. وقد رأيت عروسه، عندما فتحوا له الباب. خرجت لتودعه وهى فتاة مرحة، كانت تبتسم طوال الوقت!

ـ وأنت من أين أحضرت السيد ؟

ـ أحضرته من سمولنى.

كانت فيدوسيا تعرف عنوانى، ومن ثم حزرت من هى عروس سيدها، فأسرعت بالخبر إلى باڤل ألكسندروڤيتش.

قصّ على فيودور ميخايلوڤيتش هذا المشهد بأكمله فى اليوم التالى (وكان قد استوضح الأمر بحذافيره من فيدوسيا)، وقد ظل هذا المشهد باقيًا فى ذاكرتى بتفاصيله إلى الأبد. وعندما سألته عن الانطباع الذى تركه خبر خطبتنا على ربيبه، اكفهر وجهه، وبدا أنه يريد أن يتجنب أسئلتى. صممت على معرفة التفاصيل، وهنا ضحك فيودور ميخايلوڤيتش وقصَّ علىَّ أن «پاشا»(*) دخل إلى حجرة مكتبه صباح اليوم، مرتديًا أبهى ملابسه وقد وضع على عينيه نظارة زرقاء، وهو لايرتدى هذه الأشياء إلا فى المناسبات الخاصة. أخبره أنه عرف بشأن زواجه المقبل؟ وأنه مذهول، ومندهش ومستاء لأنه لم يفكر فى أخذ نصيحة وموافقة «ابنه» عند اتخاذ هذا القرار الذى يمسه مباشرة.

وطلب من «أبيه» أن يتذكر أنه قد أصبح «عجوزًا»، وأن لا سنه ولا صحته يسمحان له بأن يبدأ حياة جديدة؛ وذكّره أن عليه التزامات أخرى وهلمجرا.

كان باڤل ألكسندروڤيتش يتحدث، على حد قول فيودور ميخايلوڤيتش «مزهوًا بنفسه، بتعال وبلهجة الواعظ». وقد أثار هذا الأسلوب حفيظة فيودور ميخايلوڤيتش فصاح فيه وطرده من غرفة المكتب.

عندما ذهبت إلى فيودور ميخايلوڤيتش بعد يومين (وكنت قد علمت أنه أصيب بنوبة من نوبات الصرع)، لم يأت ربيبه إلينا. كان ينقل شيئًا ما إلى غرفة الطعام محدثًا جلبة عالية، صارخًا بغضب فى الخادمة، حتى يشعرنى بوجوده فى البيت. وفى الزيارة التالية لى (بعد أسبوع) دخل باڤل ألكسندروڤيتش إلى غرفة المكتب فهنأنى بجفاء وبطريقة رسمية، نتيجة لعقاب زوج أمه له على الأرجح، ثم جلس صامتًا ما يقرب من عشر دقائق، وكانت الإهانة والغضب واضحتين على وجهه، لكن فيودور ميخايلوڤيتش

(*) پاشا: اسم التدليل لباڤل (المترجم).

كان يبدو فى هذا اليوم فى حالة نفسية رائعة، وكنت أنا أيضًا مسرورة، كلانا كان سعيدًا لأننا لم نعط أى اهتمام لأسلوب باڤل ألكسندروڤيتش الفظ المتحفِّظ. وعندما لاحظ، فيما بعد، أن مظهره القاسى لا أثر له علينا، وإنما يثير عليه غضب فيودور ميخايلوڤيتش، تحول سخطه إلى رقَّة وراح يتحدث معى بأدب ولطف، متحينًا الفرصة، مع ذلك، ليوجه إلىَّ قولاً ما لاذعًا.

(١٣)

سرعان ما ولَّت أيام خطبتنا السعيدة. ظاهريًا، فقد مرت هذه الأيام وكأنها يشبه بعضها بعضًا، فبسبب العمل المجهد بالاختزال، لم أعد أزور أحدًا، ولم أعد أدعو أحدًا لزيارتى، توقفت عن التردد على حفلات الموسيقى أو الذهاب إلى المسرح، باستثناء السهرة التى قضيتها فى مشاهدة مسرحية «موت إيڤان الرهيب» التى كتبها الأمير ألكسى تولستوى(*).

كان فيودور ميخايلوڤيتش يقدر المسرحية تقديرًا رفيعًا[٢٢]، وقد أراد أن يشاهدها معى. حجز لنا شرفة فى المسرح ودعانى أنا وإميليا فيدوروڤنا وابنتها وأبنائها، وكذلك دعا باڤل ألكسندروڤيتش. كان الأمر سيصبح أكثر إمتاعًا لو أننى تبادلت مع فيودور ميخايلوڤيتش انطباعاتنا عن المسرحية، لكن المزاج العدائى الموجه ناحيتى من جانب هؤلاء الناس قد أصابنى بالكدر. كانت إميليا فيدووروڤنا تبدى نفورها منى صراحة، حتى أصبت فى النهاية بحالة من الحزن الشديد، الأمر الذى لاحظه على الفور فيودور ميخايلوڤيتش، الذى راح يسألنى عما بى فتعلَّلت بالصداع.

وعلى الرغم من هذه الأمسية غير الموفقة فإنها لم تفسد سعادتى. كان إحساسًا بالبهجة يملأ روحى. فى السابق كان هناك دائمًا ما يشغلنى، والآن ليس لدى ما أفعله. أيام بطولها لا أفكر فى شىء سوى فيودور ميخايلوڤيتش، أتذكر أحاديثنا معًا وأظل

(*) ألكسى قنسطنطينوڤيتش تولستوى (١٨١٧ ــ ١٨٧٥): أمير، شاعر، كاتب، مؤلف مسرحى.

أنتظر على أحر من الجمر مجيئه اليوم. كان يأتى عادة فى الساعة السابعة، وأحيانًا فى السادسة والنصف. ولدى حضوره يكون السماور(*) معدًا بالماء المغلى. وعندما حل الشتاء، كنت أخشى أن يتعرض لنزلة برد فى أثناء رحلته الطويلة إلينا، وما إن يدخل إلى الغرفة، حتى أسرع إليه بكوب من الشاى الساخن.

كنت أرى أن حرصه على زيارتى يوميًا، فيه تضحية كبيرة، وإشفاقًا عليه، حاولت، على عكس رغبته، أن يأتى يومًا بعد يوم، لكن فيودور ميخايلوڤيتش أكد لى أن حضوره إلىّ هو متعة كبيرة بالنسبة إليه، وأنه يشعر بالحيوية والسكينة النفسية عندما يكون بصحبتى، ولكنه سوف يمتنع عن الحضور يوميًا إذا ما طلبت منه ذلك، ما دامت الزيارات تضجرنى. كان يقول ذلك من قبيل المزاح؛ إذ كان يعلم كم كانت تسعدنى دائمًا.

كنا نجلس بعد احتساء الشاى فى مقاعدنا القديمة، وعلى المائدة الصغيرة التى كانت تفصل بيننا أنواع مختلفة من الحلوى. كان فيودور ميخايلوڤيتش يأتى كل مساء بالحلوى من Ballet (محل الحلوى المفضل لديه). ولمّا كنت على علم بظروفه المادية، فقد حاولت إقناعه بألا يحضر معه أى حلوى، ولكنه كان يرى أن هدايا الخطيب إلى خطيبته هى عادة قديمة حسنة ينبغى الحفاظ عليها.

وبدورى كنت أحرص على توفير الأصناف التى كان فيودور ميخايلوڤيتش يحبها مثل الكمثرى والزبيب والتمر والمشمش المجفف والباستلا، وجميعها بكميات قليلة، ولكنها دائمًا طازجة وشهية. كنت أذهب بنفسى إلى المحلات بحثًا عن شىء أدخل به السرور على قلب فيودور ميخايلوڤيتش، فكان يعبر عن دهشته ويؤكد أن أحدًا لا يمكنه أن يعثر على مثل هذه الأشياء اللذيذة، إلا هذه الفتاة النهمة، وكنت أذكر أنه هو الشره، وهكذا لم نستطع أن نجزم من فينا فى هذا الشأن يتغلب على الآخر.

(*) السماور: إناء من المعدن لإعداد الماء الساخن له صنبور، بداخله ماسورة يوضع بها الفحم، الأنواع الحديثة منه تستخدم الكهرباء (المترجم).

عندما اقتربت الساعة من العاشرة بدأت أحث فيودور ميخايلوفيتش على العودة إلى منزله. كانت البقعة التى يوجد بها بيت أمى موحشة، وكنت أخشى أن يقع له مكروه. فى الأيام الأولى كنت أقترح على فيودور ميخايلوفيتش أن يقوم البواب بتوصيله، ولكنه كان يرفض الاستماع إلى ذلك، فكنت آمر البواب أن يتبعه سرًا على مسافة خمس عشرة، أو عشرين خطوة، حتى يصل إلى المنعطف المؤدى إلى شارع سلونوفايا حيث يزدحم بالحركة.

فى بعض الأحيان، لم يكن فيودور ميخايلوفيتش يتمكن من الحضور إلىّ، إما لأنه يشارك بالحديث فى الأمسيات الأدبية، أو يكون مدعوًّا على الغداء. وفى مثل هذه الحالات كنا نتفق ليلتها على أن أقوم أنا بزيارته فى حوالى الساعة الواحدة وحتى الخامسة. أتذكر بكل حنان كيف كان يسعى لإقناعى بالبقاء «عشر دقائق أخرى، ربع ساعة»، ثم يقول متشكيًا:

ـ فكرى يا آنيا، سوف يمر يوم وليلة لن أراك فيها!

أحيانًا ما كان يأتى إلينا فى التاسعة أو التاسعة والنصف من مساء نفس اليوم، بعد أن ينسل من بين الضيوف، أو بعد أن يقرأ محاضرته، ثم يقول لنا بفرح عارم:

ـ هربت، كما يهرب التلميذ! لنجلس معًا ولو نصف ساعة! بالطبع كنت أشعر بسعادة طاغية لرؤيته مرة أخرى فى نفس اليوم.

كان دستويفسكى يأتى لزيارتنا بشوشًا، وسعيدًا، ومرحًا. وكثيرًا ما كنت أشعر بالحيرة تجاه هذه الأسطورة التى شاعت حول كونه عبوسًا كئيبًا. وقد تسنى لى أن أقرأ وأن أستمع إلى هذه الأسطورة من معارفى[٢٣]. وبالمناسبة أتذكر الحادثة التالية:

ذات مرة قال لى فيودور ميخايلوفيتش فى معرض سؤاله عن ب. م. أولخين مدرس الاختزال:

يا له من رجل عبوس!

فابتسمت قائلة:

ـ حسنًا، تصور ماذا قال لى باڤل ماتتڤيڤيتش (أولخين) عنك؟ أعرض عليك العمل لدى الكاتب دستويڤسكى، لكنى لا أعرف كيف ستتعاملين معه، لقد بدا لى رجلاً كئيبًا عبوسًا! «وها أنت الآن تقول عنه نفس ما قاله عنك! والحقيقة أن كليكما بعيد كل البعد عن الكآبة والعبوس، وإن بدوتما فقط على هذا النحو».

ـ وبماذا أجبت على أولخين آنذاك؟ سألنى فيودور ميخايلوڤيتش بفضول شديد.

ـ قلت له: ولماذا ينبغى علىَّ التعامل مع دستويڤسكى؟ سوف أسعى جاهدة أن أقوم بالعمل الذى كلفنى به على خير وجه، أما دستويڤسكى نفسه فإننى أكن له احترامًا كبيرًا، بل إننى أخافه!

ـ إذن، وعلى الرغم من تحذير أولخين، فقد سارت أمورنا على أفضل وجه، وإلى أبد الدهر، أليس كذلك يا عزيزتى أنيتشكا؟ سألنى فيودور ميخايلوڤيتش وهو يربت علىَّ برقة.

وإذا كان فيودور ميخايلوڤيتش يأتى إلينا بنفس راضية، فقد كنت أستقبله بكثير من المرح والعبث والثرثرة. كان صوتى يصلصل كالجرس، أنفجر بالضحك لأبسط دعابة، وعندئذ كان فيودور ميخايلوڤيتش يضرب كفيه ثم يصيح متعجبًا بطريقة ساخرة:

حسنًا، كيف سأتصرف مع هذا الطفل، أخبرينى من فضلك؟ وأين ذهبت أنّا جريجوريڤنا الرزينة، الصارمة أحيانًا، حتى تكاد أن تكون قاسية، أنّا التى كانت تأتى إلىّ لنقوم بالاختزال؟ أكاد أجزم أنهم استبدلوها خلسة!

عندئذ اتخذت على الفور مظهر الأهمية، وبدأت أتحدث معه بلهجة شديدة الجدية. وسرعان ما انتهى الأمر بأن انفجرنا معًا بالضحك.

وبالمناسبة، فأنا لم أكن دائمًا مرحة. كان السخط الشديد ينتابنى، عندما يقوم فيودور ميخايلوڤيتش بدور «العجوز المتصابى». كان باستطاعته أن يتحدث ساعات طويلة بلسان وأفكار بطله، الأمير العجوز من قصة «حلم العم». كان يصرح بأفكار مبتكرة ومفاجئة للغاية، يتحدَّث بمرح وعبقرية، لكن

هــذه القصص، بلهجـة المتصابى، والتى لا تليق إطلاقًا بعجوز، صدمتنى، فرحـت أنتقل بالحديث إلى موضوع آخر.

ما الذى لم نتحدث فيه فى هذه الشهور السعيدة! لقد رحت أسأله تفصيلاً عن طفولته، عن شبابه، عن كلية الهندسة، عن نشاطه السياسى، عن المنفى فى سيبيريا، وعن عودته من هناك...

قلت له:

ـ أود أن أعرف كل شىء عنك، أن أرى ماضيك بوضوح، أن أدرك روحـــك بأسرهـــا!

راح فيودور ميخايلوڤيتش بكل رضًا يستعيد ذكريات طفولته الهادئة السعيدة وتحدث بحماس عن أمه [٢٤]. كان يحب أخاه الأكبر ميشا حبًا جمًا، وكذلك أخته الكبرى ڤارينكا[*]. أما إخوته وأخواته الصغار فلم يتركوا لديه انطباعًا قويًا. سألته عن الأشياء التى كان مولعًا بها، وقد بدا لى أمرًا غريبًا، بناء على ذكرياته، أنه لم يمر فى شبابه بتجربة عاطفية جادة تجاه امرأة ما، ولعلى أفسر ذلك أنه بدأ حياته الفكرية مبكرًا للغاية. لقد ملك الإبداع حواسه جميعًا، ومن ثم جاءت حياته الخاصة فى المرتبة التالية، وبعد ذلك اندمج بكل أفكاره فى التاريخ السياسى، الذى كلفه ثمنًا باهظًا[٢٥].

جربت أن أستفسر منه عن زوجته الراحلة، لكنه كان يفضل ألا يتحدث عنها، ومن المثير للفضول أنه على مدى سنوات زواجنا التالية، لم يتحدث إطلاقًا عن ماريا دميترييڤنا، باستثناء مرة واحدة تحدث فيها عن واقعة حدثت فى چينيف سآتى على ذكرها لاحقًا[٢٦].

أما ذكرياته عن خطيبته أنّا ڤاسيليڤنا كورڤين ـــ كروكوڤسكايا فقد تحدث عنها برضا أكثر نسبيًا، وعن سؤالى حول سبب فسخ خطبتهما أجاب:

(*) ڤارينكا: اسم التدليل لڤارڤارا (المترجم).

ـ أنّا ڤاسيليڤنا واحدة من أفضل النساء اللاتى قابلتهن فى حياتى. كانت شديدة الذكاء، ناضجة، تمتلك ثقافة أدبية واسعة، وكان لديها قلب طيب ورائع. كانت فتاة تمتلك خصالاً خُلقية رفيعة؛ على أن أفكارنا كانت على طرفى نقيض، وكان من المستحيل أن تتراجع عن أفكارها، بل كانت متمسكة بها بشدة، ولهذا كان من الأرجح ألا ينجح زواجنا. أحللتها من وعدها، وتمنيت لها مخلصًا أن تقابل الرجل الذى يشاركها أفكارها وأن تجد سعادتها معه!

ظل فيودور ميخايلوڤيتش طوال عمره على علاقة طيبة بأنّا ڤاسيليڤنا وكان يعتبرها صديقًا مخلصًا، وعندما تعرفت على أنّا ڤاسيليڤنا، بعد مرور ستة أعوام من زواجى، انعقدت أواصر الصداقة بيننا وأصبح كل منا يكن مشاعر الحب والمودة للآخر، وقد تبين لى أن ما قاله فيودور ميخايلوڤيتش عن عقلها النابه وقلبها الطيب وخصالها الأخلاقية الرفيعة صحيح تمامًا. وقد كان محقًا أيضًا، وبنفس القدر، فيما يتعلق باستحالة أن يعيشا معًا فى وئام. كانت أنّا ڤاسيليڤنا تفتقد إلى السماحة اللازمة لاستمرار الحياة الزوجية الهادئة، وبخاصة إذا ما قدر لها أن تتزوج من رجل مريض، سريع الغضب، على النحو الذى يكون عليه أحيانًا فيودور ميخايلوڤيتش نتيجة لمرضه. بالإضافة إلى ذلك كانت أنّا ڤاسيليڤنا منشغلة تمامًا آنذاك بصراع الأحزاب السياسية، بحيث لا يتبقى لديها وقت كبير لرعاية الأسرة، وقد تغيرت بمرور الزمن، وأذكر أننى رأيتها زوجة رائعة وأمًا رؤومًا.

كان مصير أنّا ڤاسيليڤنا كورڤين ــ كروكوڤسكايا (أخت صوفيا ڤاسيليڤنا كوڤاليڤسكايا الشهيرة)(*) مصيرًا محزنًا، فبعد انفصالها عن فيودور ميخايلوڤيتش سافرت للخارج والتفت بشاب فرنسى يدعى السيد چاكلار، مؤمن بنفس أفكارها السياسية، وقد أحبته وتزوجا. وفى أثناء كومونة باريس كان چاكلار من أنصار

(*) صوفيا ڤاسيليڤنا كوڤاليڤسكايا (قبل الزواج كورڤين ــ كروكوڤسكايا) (١٨٥٠ ــ ١٨٩١): عالمة رياضيات، دكتوراه فى الفلسفة، ماجستير فى الفنون الجميلة.

الكومونة المتحمسين، أدرج اسمه فى قائمة المحكوم عليهم بالإعدام، وقد تم القبض عليه وسجنه فى إحدى القلاع بالقرب من الحدود الألمانية، وهنا قام والد أنّا ڤاسيليڤنا بدفع رشوة قيمتها عشرون ألف فرنك للشخص المكلف برقابته فهيَّأ له الفرصة للهرب إلى ألمانيا[٢٧]

بعد ذلك قام چاكلار ـ كورڤين (بعد أن أضاف اسم عائلة زوجته إلى اسمه وفقًا للتقاليد الأجنبية) بالسفر مع أسرته إلى بطرسبورج، حيث عمل بتدريس الأدب الفرنسى فى ثانويات البنات. عاش چاكلار فى ود ووئام مع زوجته، لكنه شعر بالحنين إلى وطنه وهو ما أثار الخوف فى نفس أنّا ڤاسيليڤنا. وسرعان ما تدهورت أحوالهما المادية، وقد أنفق مبلغًا كبيرًا من الدوطة التى دفعتها أنّا ڤاسيليڤنا على عملية إجهاض، ولسوء الحظ، لم يبق لهما بعد مرور بضع سنوات سوى بيت فى جزيرة ڤاسيليڤسكى مرهون مقابل مبلغ كبير من المال. كان للإفلاس الذى حاق بهما أثره الشديد على أنّا ڤاسيليڤنا حتى أنها، وهى المعتلة الصحة، راحت تذبل بشدة، وهنا عاد بها زوجها، الذى كان ما يزال يمتلك الحق فى العودة للوطن، إلى باريس وكانا يعودان من حين إلى آخر إلى بطرسبورج لقضاء بعض الأعمـــال، وفى أثـــناء مرضها الأخير نجحت، ومن خلال قنسطنطين بوبيدونوستسيف، أن أقدم خدمة لأنّا ڤاسيليڤنا تمثلت فى تقديم التماس لزوجها، الذى أبعد عن العاصمة لمدة يومين للاشتباه السياسى، بحيث تتاح له بضعة أسابيع يتمكن خلالها من تدبير أموره ومصاحبة زوجته المريضة وطفلهما للسفر للخارج[٢٨]. توفيت أنّا ڤاسيليڤنا فى باريس عام١٨٨٧

(١٤)

فى واحد من أحاديث المساء سألنى فيودور ميخايلوڤيتش:

ـ آنيا، أخبرينى، هل تتذكرين هذا اليوم، عندما أدركت للمرة الأولى أنك تحبيننى؟

أجبت بقولى:

ـ هل تعلم يا عزيزى أننى أعرف اسم دستويفسكى منذ طفولتى، لقد أحببتك، وإن شئت الدقة، أحببت أحد أبطالك منذ أن كان عمرى خمسة عشر عامًا.

ابتسم فيودور ميخايلوفيتش دون أن يأخذ كلماتى على محمل الجد.

واصلت حديثى قائلة:

ـ بجد، أنا أتحدث بجد! كان أبى عاشقًا للقراءة، وعندما كان الحديث يدور عن الأدب الحديث كان يقول دائمًا: «حسنًا، وماذا عن الكُتَّاب اليوم؟ فى زمانى كان هناك بوشكين(*) وجوجول(**) وچوكوڤسكى(***)! ومن الشباب كان هناك الروائى دستويفسكى، مؤلف «الفقراء»، وكان موهبة حقيقية، لكنه انزلق، للأسف، فى السياسة فوقع فى سيبيريا، والآن لا حس ولا خبر!»

أذكر أننا ذهبنا فى صيف ١٨٦١ إلى بيترهوف(****). وفى كل مرة كانت أمى تذهب فيها

(*) بوشكين، ألكسندر سيرجييڤيتش (١٧٩٩ ــ ١٨٣٧): كاتب، مسرحى، مؤلف: «روسلان ولودميلا»، «أسير القوقاز»، «الفارس البرونزى»، «يفجينى أونيجن»، «بوريس جودونوف» وغيرها. دخل بوشكين حياة دستويفسكى فى فترة مبكرة من حياته وظل تأثيره عليه حتى نهاية حياته. تردد اسم بوشكين كثيرًا فى أعمال دستويفسكى الفنية، وفى مقالاته وخطاباته ومذكراته (المترجم).

(**) جوجول، نيكولاى ڤاسيلييڤيتش (١٨٠٩ ــ ١٨٥٢): كاتب، مؤلف: «أمسيات قرب قرية ديكانكا»، «الأنفس الميتة»، «الأنف»، «المعطف»، «المفتش العام». حمل دستويفسكى له تقديرًا رفيعًا منذ شبابه. وفى رواية دستويفسكى الأولى، «الفقراء» يظهر جوجول وإبداعه فى قلب اهتمام الكاتب وأبطاله. وفى خطابه إلى بيلينسكى بعد ظهور «الفقراء» كتب نكراسوڤ يقول: «لقد ظهر لدينا جوجول جديد...». وحتى نهاية حياته ظل دستويفسكى يردد أن جوجول هو واحد من مؤسسى الأدب الروسى (المترجم).

(***) چوكوڤسكى، ڤاسيلى أندرييڤيتش (١٧٨٣ ــ ١٨٥٢): شاعر، بدأ سنتيمينتاليا («المقبرة الريفية»)، ثم أصبح واحدًا من مؤسسى الرومانتيكية الروسية. ترجم «الأوديسا» لهوميروس، كما ترجم أعمال شيللر وبايرون (المترجم).

(****) بيترهوف (بترودڤوريتس حتى عام ١٩٤٤): مجموعة من الحدائق والقصور والنوافير فى بطرسبورج، تقع على الخليج الفنلندى، أسسها بطرس الأكبر عام ١٧٠٩ كانت مقرًا لإقامة القياصرة فى ضاحية العاصمة (المترجم).

للمدينة للتسوُّق، كنا نستعطفها أنا وأختى أن تعرج على مكتبة تشيركيسوف(*) لشراء العدد الجديد من مجلة «ڤريميا» (الزمن). كانت تركيبة أسرتنا على النسق الأبوى، ومن ثم تصبح المجلة فى حوزة أبى أولاً. ولما كانت صحة أبى المسكين ضعيفة آنذاك، وكثيرًا ما كان يغلبه النعاس وهو جالس يقرأ على كرسيه بعد الغداء، كتابًا أو صحيفة، فقد كنت أتسلَّل إليه ثم آخذ منه الكتاب بهدوء، وأهرع إلى الحديقة لأجلس تحت شجيرة ما حتى أستمتع بقراءة روايتك دون إزعاج. ولكن، هيهات، لم يكن دهائى ينجح! كانت أختى ماشا تأتى إلىَّ، وبحكم أنها الأكبر سنًا، كانت تأخذ منى الكتاب الجديد، مهما كانت توسلاتى بالسماح لى بأن أستكمل قراءة فصل من «المذلون». واصلت حديثى قائلة: إذن كنت حالمة مثالية، وكان أبطال الرواية بالنسبة إلىَّ شخوصًا حية. كنت أكره الأمير ڤالكوڤسكى، وأحتقر أليوشا لضعف إرادته، وأواسى العجوز إيخمينيف، كما كنت أشفق على نيللى و... لم أحب ناتاشا... انظر، حتى أسماء أبطالك ما تزال صحيحة فى ذاكرتى!

قال فيودور ميخايلوڤيتش ملاحظًا:

ـ لم أعد أتذكرهم، وعمومًا فإننى أتذكر موضوع الرواية بشكل غير واضح.

أجبت بذهول:

ـ هل حقًا نسيتهم؟! يا له من أمر مؤسف! لقد كنت مُتيَّمة بإيڤان بتروڤيتش، الذى كانت أحداث القصة تدور على لسانه. ورفضت أن أفهم، كيف استطاعت ناتاشا أن تفضل أليوشا التافه على ذلك الرجل الرائع، وكنت أقول فى نفسى وأنا أقرأ: «إنها تستحق ما هى فيه من تعاسة، لأنها رفضت حب إيڤان بتروڤيتش، الذى كنت أتعاطف معه، مع مؤلف الرواية. كنت أتصور أنه هو نفسه دستويڤسكى، الذى يحكى القصة

(*) تشيركيسوف، ألكسندر ألكسندروڤيتش (١٨٣٩ ــ ١٩٠٨): شخصية اجتماعية بارزة. صاحب مجموعة من المكتبات العامة ومحال لبيع الكتب فى بطرسبورج وموسكو (المترجم).

الحزينة لحبه الفاشل... إذا كنت قد نسيت، فإن عليك حتمًا أن تعيد قراءة هذه الرواية الرائعة. ثم واصلت القول:

ـ بالمناسبة، أتذكر أنك سألتنى، ذات مرة، فى بداية تعارفنا: هل وقعت فى الحب؟ فأجبتك: «لم أحب شخصًا بعينه، ولكنى أحببت أحد أبطال روايتك وكان عمرى خمسة عشر عامًا. فسألتنى: «أية رواية؟»، وهنا أسرعت بتغيير دفة الحديث: أحسست أنه من غير اللائق أن أسمى بطل روايتك. بإمكانك أن تأخذ ذلك باعتباره نوعًا من دلال الآنسات اللائى يرغبن فى الظهور بمظهر العليمات بالأدب. كنت أود أن أكون مستقلة تمامًا.

كم من الدموع ذرفت وأنا أقرأ «مذكرات من البيت الميت»! كان قلبى مليئًا بالتعاطف والأسف على دستويڤسكى، الذى تحمل هذه الحياة القاسية فى المعتقل. لقد جئت للعمل معك بدافع هذه الأحاسيس التى ذكرتها لك. كنت أود بشدة أن أقدم لك يد العون ولو بشىء ما يخفف عن إنسان متاعبه، إنسان أعجبت بأعماله إعجابًا كبيرًا وقد حمدت الله أن أولخين اختارنى للعمل معك ولم يختر أحدًا آخر.

عندما لاحظت أن تعليقاتى بشأن رواية «مذكرات من البيت الميت» قد أثارت الشجون لدى فيودور ميخايلوڤيتش، أسرعت بتغيير دفة الحديث وقلت له مازحة:

ـ أتعرف، لقد اختارنى القدر لأكون زوجة لك، فعندما كان عمرى ستة عشر عامًا، كانوا ينادوننى نيتوتشكا نيزڤانوڤا(*). فأنّا، وهو اسمى، هو نيتوتشكا تدليلاً، ولمّا كنت أذهب كثيرًا لزيارة أقاربى دون دعوة، فقد رأوا أن يسمونى نيتوتشكا نيزڤانوڤا تمييزًا لى عن أى نيتوتشكا أخرى ولمعرفتهم بولعى بروايات دستويڤسكى. وأنت فلتسمِّنى نيتوتشكا، توجهت بهذا الطلب إلى فيودور ميخايلوڤيتش فأجاب:

(*) إشارة إلى رواية دستويڤسكى، التى تحمل اسم بطلتها نيتوتشكا نيزڤانوڤا، وهو عمل بدأه دستويڤسكى فى عام ١٨٤٦، ولم يكتمل بسبب اعتقال الكاتب. والاسم نيزڤانوڤا مشتق من الصفة نيزڤانى، وتعنى بالروسية «الضيف القادم دون دعوة» (المترجم).

ـ لا! إن نيتوتشكا بطلة روايتى قد عانت كثيرًا من الأحزان فى حياتها، وأنا أريدك أن تكونى سعيدة. الأفضل أن أسميك آنيا، وهو الاسم الذى يروقنى!

فى مساء اليوم التالى، طرحت على فيودور ميخايلوڤيتش بدورى، السؤال الذى كان يشغلنى منذ فترة طويلة، والذى كنت أخجل من طرحه: متى أحس أنه يحبنى، ومتى قرر أن يخطبنى؟

راح فيودور ميخايلوڤيتش يستعيد ذكرياته، وقد أثار حزنى أنه اعترف لى، أنه لم يلاحظ إطلاقًا ملامح وجهى فى الأسبوع الأول لتعارفنا.

تعجبت قائلة:

ــ كيف لم تلاحظ ؟ ما معنى هـــذا ؟

ـ إذا قام أحدهم بتعريفك بشخص جديد، فقلت له بضع عبارات تقليدية، فهل من المعقول أن تتذكرى وجهه ؟ كلا بالطبع؟ وأنا بطبعى دائم النسيان. وهو ما حدث أيضًا فى هذه المرة: تحدثت معك، رأيت وجهك، وما إن خرجت حتى نسيته، ولم أكن لأتذكر إذا ما سألنى سائل إن كنت شقراء أو سمراء، ولم أنتبه إلى جمال عينيك الرماديتين وابتسامتك الطيبة الصافية إلا فى نهاية شهر أكتوبر، ثم رحت بعد ذلك أعجب بوجهك كله، وكلما مر الوقت، ازددت بك إعجابًا! أما الآن فلا أرى فى الدنيا وجهًا أجمل من وجهك! ثم أضاف بسذاجة: جميلة فى عيون الجميع. استمر فيودور ميخايلوڤيتش فى ذكرياته قائلاً:

ـ أذهلتنى، عند زيارتك الأولى، مدى اللباقة التى تتمتعين بها، وكذلك تعاملك الجاد، والذى يصل إلى حد الخشونة تقريبًا. قلت لنفسى: يا له من نموذج لفتاة رزينة وعملية! وكم كانت سعادتى أن لدينا فى مجتمعنا هذا النموذج. أذكر أننى ذات مرة قلت لفظًا أخرق دون قصد، فنظرت إلىَّ نظرة أصبحت بعدها أزن كلامى خوفًا من أن أغضبك، بعد ذلك أدهشنى وشد انتباهى سلامة النية التى تتدخلين بها فى شؤونى

الخاصة، وهذا التعاطف الذى تبدينه تجاه المصائب التى تتهددنى. كنت أظن أن أقاربى وأصدقائى يحبوننى، وأنهم متحمسون، يشتعلون غيظًا، لأننى يمكن أن أفقد حقوقى الأدبية، كانوا ساخطين على ستيلوڤسكى، مستائين، يلوموننى لأننى وقعت على هذا العقد (كما لو كان بإمكانى ألاَّ أوقع عليه!)، ينهالون علىَّ بالنصائح، يواسوننى، أما أنا فكنت أشعر أن كل ذلك ما هو إلا «كلام، كلام، كلام»، وأن لا أحدًا منهم أعطى الأمر أذنًا صاغية، وأننى إذا فقدت حقوقى، فإننى أفقد بذلك آخر ما أملك... وهذه الفتاة الغريبة، التى عرفتها للتو، راحت، منذ اللحظة الأولى التى اطلعت فيها على أوضاعى، تساعدنى بالعمل لا بالكلام، دون أن تتنهد أسفًا، أو تصرخ، أو تبدى أساها. وعندما استقر عملنا بعد عدة أيام. انتعشت الآمال فى روحى، التى كانت مسكونة باليأس التام تقريبًا، وقلت لنفسى: «لعلَّنى أستطيع أن أسلم العمل فى موعده، إذا ما استمر العمل على هذا النحو!» كانت تأكيداتك، أننا حتمًا سننجح (تذكرين؛ كيف كنا نحسب معًا عدد الأوراق التى كتبتيها)، مؤكدة هذا الأمل، واهبة لى القوة على مواصلة العمل، وكثيرًا ما كنت أحدث نفسى، متحدثًا معك: «يا له من قلب طيب لدى هذه الفتاة! إنها لا تكتفى بالحديث، وإنما تشعر فعلاً بالأسى تجاهى، وتود أن تخرجنى من الكرب الذى أنا فيه». كنت أشعر بوحدة موحشة، حتى أننى ما إن وجدت إنسانًا يتعاطف معى بإخلاص حتى شعرت بالسعادة الكبرى.

ثم واصل فيودور ميخايلوڤيتش حديثه قائلاً:

ـ أظن أن حبى لك بدأ منذ هذه اللحظة، بعد ذلك أعجبنى وجهك الحبيب. أحيانًا كنت أضبطنى متلبسًا بالتفكير فيك؛ ولكن عندما انتهينا فقط من «المقامر»، وتنبهت إلى أننا لن نلتقى يوميًا، وأدركت أننى لا أستطيع العيش دونك، عندئذ قرَّرت أن أتقدَّم لخطبتك.

سألته باهتمام:

ـ ولكن لماذا لم تتقدم لخطبى ببساطة كما يفعل الآخرون، وإنما اخترعت هذه الرواية المثيرة؟

أجاب فيودور ميخايلوڤيتش، وقد أخذه التأثر:

ـ تعلمين يا يهامتى آنيا، أننى عندما أدركت مكانتك عندى، انتابنى إحساس عميق باليأس، وبدت لى نيتى الزواج منك جنونًا مطبقًا! انظرى كم نحن مختلفان! يكفى الفارق فى العمر! فأنا فى الواقع لست سوى عجوز، وأنت لست سوى طفلة. أنا مريض ومرضى لا براء منه، عبوس وعصبى؛ وأنت مليئة بالصحة والعافية، نشيطة ومحبة للحياة. أنا عشت زمنى تقريبًا، عانيت فى حياتى الكثير من الحزن، وأنت عشت دائمًا حياة رغدة، وما يزال المستقبل أمامك، وأخيرًا، فأنا فقير ومثقل بالديون. ما الذى تنتظرينه من جراء عدم التكافؤ هذا؟ إما أن نكون تعساء، أو ننفصل بعد أن نمضى معًا بضع سنوات من العذاب، أو نتآلف ما تبقى لنا من العمر ونصبح سعداء.

كنت أشعر بالألم وأنا أستمع إلى فيودور ميخايلوڤيتش وهو يحط من قدر نفسه، فانبريت معترضه بحدة:

ـ يا عزيزى، إنك تهوِّل الأمور! إن عدم التكافؤ الذى تفترضه بيننا غير موجود. إذا أحب كل منا الآخر بقوة، فسنصبح أصدقاء وسوف نكون سعداء أبد الدهر. إن ما يخيفنى شىء آخر، حسنًا، كيف لمن هو مثلك، موهوب، ذكى، مثقف، أن يتخذ لنفسه فتاة بلهاء رفيقًا فى الحياة، فتاة تمتلك قدرًا متواضعًا من العلم مقارنة بك، على الرغم من أننى حصلت فى الثانوية على الميدالية الفضية الكبرى (كنت أفتخر كثيرًا بهذه الميدالية آنذاك)، وعلى أى حال فأنا لم أبلغ هذا القدر من الثقافة، الذى يؤهلنى أن أقف إلى جانبك على قدم المساواة. أخشى ما أخشاه أن تكتشف سريعًا ما بى من نقص، فتشعر بالملل ثم تأسف على أننى غير قادرة على فهم أفكارك. هذا هو عدم التكافؤ، الذى هو أسوأ من كل تعاسة!

أسرع فيودور ميخايلوڤيتش فى تهدئة خاطرى. ظل يمدحنى كثيرًا. ثم عدنا إلى الحديث المفضل لدىّ، الحديث عن الخطوبة.

قال فيودور ميخايلوڤيتش:

ـ ترددت كثيرًا كيف أخبرك. عجوز يفتقد إلى الوسامة يتقدم لخطبة فتاة شابة فلا يجد قبولاً. أمر يمكن أن يثير الضحك، ولم أكن أرغب فى أن أكون مضحكًا فى نظرك. قد تقولين لى فجأة إنك مغرمة بشخص آخر، فيخلق رفضك فتورًا بيننا، وإذا بعلاقة الود السابقة تصبح أمرًا لا يحتمل، وعندئذ أفقدك كصديق، ويضيع منى الشخص الوحيد الذى عاملنى بإخلاص طوال العامين الآخيرين. أقول لك مرة أخرى إننى كنت أشعر بوحدة موحشة، ولو أننى فقدت صداقتك ومساعدتك، لأصبح الأمر قاسيًا على نفسى، ومن ثم فكرت أن أعرف مشاعرك، بعد أن أقص عليك خطة رواية جديدة. كان من الأسهل علىّ أن أتحمل رفضك، إذ كنت سأعتبر أن الحديث يدور هنا حول أبطال الرواية وليس عنَّا.

وبدورى رحت أحكى له كم عانيت كثيرًا، فى أثناء هذه الخطوبة الأدبية، بسبب عدم فهمى، وغيرتى، وحسدى لأنّا ڤاسيليڤنا وهلمجرا.

أخذت الدهشة فيودور ميخايلوڤيتش الذى قال:

ـ إذًا فقد أخذتك بغتة وحصلت على موافقتك قسرًا! بالمناسبة، فى رأيى أن الرواية التى قصصتها عليك آنذاك، هى من أفضل القصص التى كتبتها على الإطلاق، إذ حققت على الفور نجاحًا كبيرًا وحققت التأثير المطلوب!

(١٥)

فى نشوة انطباعتنا السعيدة الجديدة نسينا، أنا وفيودور ميخايلوڤيتش، العمل على إنهاء «الجريمة والعقاب»، فى الوقت الذى كان قد تبقى كتابة الجزء الثالث من الرواية بأكمله. تذكر فيودور ميخايلوڤيتش هذا الأمر فى نهاية نوفمبر، عندما طلبت هيئة تحرير مجلة «البشير الروسى» تكملة الرواية. ولحسن الحظ، فإن المجلات فى تلك السنوات كانت نادرًا ما تصدر فى موعدها، بل إن «البشير الروسى» ذاتها كانت مشهورة بتأخرها

فى الصدور، فعدد نوفمبر يصدر فى نهاية ديسمبر، وعدد ديسمبر يصدر فى مطلع فبراير وهلمجرا، ولهذا كان أمامنا متسع من الوقت.

أحضر إلى فيودور ميخايلوفيتش خطاب هيئة التحرير وطلب منى النصيحة. اقترحت عليه أن يغلق عليه بابه أمام الضيوف، وأن يعمل نهارًا من الثانية وحتى الخامسة، وبعدها يقوم بإملائى من مخطوطته عندما يحضر إلينا.

هكذا قمنا بتنظيم عملنا، فبعد أن نتحدث حوالى ساعة فى شتى المواضيع، أجلس إلى المكتب، بينما يجلس فيودور ميخايلوفيتش إلى جوارى ويبدأ فى الإملاء، الذى يقطعه أحيانًا بعض الحديث وإطلاق النكات والضحك. سار عملنا على أكمل وجه، وتمت كتابة الجزء الثالث من «الجريمة والعقاب» والمكون من سبع ملازم فى خلال أربعة أسابيع. وقد أكد لى فيودور ميخايلوفيتش أنه لم يحدث له إطلاقًا أن عمل على هذا النحو من السهولة، وعزا هذا النجاح إلى مساعِدته.

انعكس المزاج النشيط والمرح لفيودور ميخايلوفيتش فى تلك الفترة إيجابيًا أيضًا على صحته، فقبيل زفافنا بثلاثة أشهر لم تهاجمه نوبات الصرع سوى ثلاث أو أربع مرات، وقد أسعدنى هذا الأمر كثيرًا وبث فى روحى الأمل فى أنه كلما كانت الحياة أكثر هدوءًا وسعادة، كلما خفّت حدة المرض، راحت النوبات الأسبوعية تقل عامًا بعد الآخر مع انخفاض حدتها. بالطبع فإن الشفاء التام من الصرع كان أمرًا مستبعدًا، وبخاصة أن فيودور ميخايلوفيتش لم يسـع للعـلاج معتـبرًا أن مرضـه لا براء منه، ولكننا اعتبرنا أن تراجع عدد النوبات وانخفاض حدتها هو هبة إلهية، فقد جنـبه ذلك فى الحقيقة المزاج الردىء والاكتئاب، اللذين كانا يستمران أحيانًا أسبوعًا كاملاً كنتيجة حتمية للنوبة؛ فضلاً عن الدموع والمعاناة التى كنت أعيشها فى أثناء وجودى عند ظهور نوبات هذا المرض الفظيع.

كانت أمسياتنا تمضى دائمًا فى سكينة ومرح، لكن إحـداها مرت بنا، فجأة، على نحو عاصف.

حدث ذلك فى نهاية شهر نوفمبر. جاء فيودور ميخايلوڤيتش، كعادته، فى الساعة السابعة، وفى هذه المرة كان يرتجف بشدة من البرد. وبعد أن تناول كوبًا من الشاى الساخن، سألنى إن كان لدينا كونياك أجبت بالنفى، ولكننى أخبرته بوجود خمر الشيرى الجيد، وعلى الفور قمت بإحضاره فعبّ منه ثلاث أو أربع كؤوس كبيرة دفعة واحدة، شرب بعدها كوبًا من الشاى الساخن، وعندئذ فقط سرى فى جسده الدفء. تعجبت كيف نال البرد القارس من فيودور ميخايلوڤيتش على هذا النحو، ولم أعرف تفسيرًا لذلك، على أننى سرعان ما أدركت السبب. فعند مرورى بمدخل البيت لقضاء أمر ما، لاحظت أن فيودور ميخايلوڤيتش يضع على المشجب بالطو خريفى من القطن، بدلاً من البالطو الشتوى ذى الفراء، الذى اعتاد أن يرتديه. عدت أدراجى على الفور إلى غرفة الاستقبال وسألته:

ـ ألم تكن ترتدى البالطو الفراء عند مجيئك اليوم؟

ـ لا... بالطو الخريف. أجاب فيودور ميخايلوڤيتش محاولاً التهوين من الأمر.

ـ الآن فهمت لماذا كنت ترتجف من البرد. سأرسل سيميون الآن بهذا البالطو ليحضر لك الفراء.

ـ لا داعى! من فضلك، لا داعى! سارع فيودور ميخايلوڤيتش بالإجابة.

ـ كيف لا داعى، عزيزى؟ سوف تصاب بنزلة برد فى طريق العودة، سوف يكون الجو أكثر برودة بحلول الليل.

صمت فيودور ميخايلوڤيتش، بينما واصلت الإصرار، وفى النهاية اعترف قائلاً:

ـ ليس لدىّ بالطو فرو...

ـ كيف ؟ هل سُرقت ؟

ـ لا، لم يسرقنى أحد، ولكن اضطررت لرهنه.

اندهشت، ومن ثم رحت أتحرى منه الحقيقة بشدة، حتى راح فيودور ميخايلوڤيتش يحكى لى، كُرها، ربما، أن إميليا ڤيدوروڤنا حضرت إليه هذا الصباح وطلبت منه أن ينقذها من المصيبة، بأن يدفع عنها دينًا عاجلاً مقداره خمسين روبلاً. وكذلك طلب ربيبه مبلغًا من المال يحتاجه أخوه نيكولاى ميخايلوڤيتش، الذى أرسل خطابًا إليه بهذا الشأن. لم يكن لدى فيودور ميخايلوڤيتش نقود، فقرروا أن يرهنوا البالطو الفرو عند أقرب محل رهونات مؤكَدين لفيودور ميخايلوڤيتش أن ذوبان الثلوج مستمر وأن الجو دافئ وأنه يستطيع أن يقضى بضعة أيام مرتديًا بالطو الخريف حتى يحصل على نقود من مجلة «البشير الروسى».

كنت فى حالة شديدة من الإحباط والاستياء من جراء قسوة المشاعر لدى أقارب فيودور ميخايلوڤيتش. قلت له إننى أقدر رغبته فى مساعدة أقاربه، ولكننى أرى أن من المستحيل أن يضحوّا بصحته وربما بحياته أيضًا.

بدأت حديثى بهدوء، لكن غضبى وحزنى راحا يتصاعدان مع كل كلمة من كلامى؛ فقدت السيطرة على مشاعرى ورحت أتحدث كمن فقد عقله، دون أن أتخيَّر تعبيراتى رحت أؤكد له أن عليه التزامات نحوى، فأنا عروسه، وأننى لن أتحمل صدمة موته، أجهشت بالبكاء، وأخذتنى حالة هيستيرية من النحيب والصراخ. كان فيودور ميخايلوڤيتش حزينًا للغاية، عانقنى وقبّل يدىَّ ورجانى أن أهدأ. سمعت أمى بكائى. شعرت بالخجل فاعتذرت لفيودور ميخايلوڤيتش. وفى معرض شرحه لما حدث، أخبرنى أنه اضطر فى الشتاء الماضى لرهن البالطو الفرو خمس أو ست مرات، وكان يسير مرتديًا بالطو الخريف.

أكد لى فيودور ميخايلوڤيتش وهـــو فى حالة شديدة من الخجـــل والارتباك قائلاً:

ـ لقد تعودت على مثل هـذه الرهونات، ولهذا لم أولى أى أهمية لهذا الأمر هذه المرة أيضًا. لو كنت أعلم أنك ستأخذين هذا الأمر على نحو مأسوى، لما كنت قد سمحت لپاشا، مهما حدث، أن يأخذ البالطو لرهنه.

انتهزت فرصة ندم فيودور ميخايلوڤيتش وأخذت عهدًا عليه ألا يتكرر هذا الأمر مرة أخرى. وهنا عرضت عليه ثمانين روبلاً لاستعادة البالطو، ولكنه رفض رفضًا باتًا.

عندئذ رحت أتوسل إليه أن يبقى فى البيت وألا يغادره إلى أن تصل النقود من موسكو. وافق فيودور ميخايلوڤيتش على «الحبس المنزلى» بعد أن أخذ عهدًا علىَّ أن أزوره كل يوم فى الواحدة وأبقى لديه حتى موعد الغداء.

لدى وداعى لفيودور ميخايلوڤيتش، طلبت منه مجددًا أن يصفح عنى على هذا «المشهد المسرحى» الذى قمت به أمامه اليوم.

أجاب فيودور ميخايلوڤيتش قائـــلاً:

ـ رب ضارة نافعة! الآن تأكد لى إلى أى حـد تحبيننى، لم يكن باستطاعتك البكاء على هذا النحو، لو لم أكن عزيزًا عليك!

أحطت رقبة فيودور ميخايلوڤيتش بشالى الأبيض وأرغمته أن يطلقه على كتفيه. قضيت بقية المساء تعذبنى فكرة أن فيودور ميخايلوڤيتش قد يهجرنى، إذا ما عرف أننى قادرة على أداء مثل هـذه «المشاهد» أو أفزع من أن يصاب بنزلة برد فى الطريق، أو يصاب بمرض خطير، لم أنم تقريبًا، استيقظت مبكرًا وفى الساعة العاشرة هاتفت منزل فيودور ميخايلوڤيتش تليفونيًا. طمأنتنى الخادمة وأخبرتنى أن السيد قد استيقظ من نومه وأنه لم يشتكى من أى مرض بالليل.

أستطيـع القول إن هذه الأمسية، كانت الوحيدة «العاصفة» قبيل زفافنا بثلاثة أشهـــر.

استمــــر «الحبــس المنزلى» لفيودور ميخايلوڤيتش أسبوعًا، وكنت أذهب لمقابلته وكتابة ما يمليه علىَّ من «الجريمة». وفى إحدى تلك الزيارات أدهشنى تصرفه للغاية، ففى غمرة عملنا ارتفعت أصوات قادمة من أرغن الشارع اليدوى، كان يصدح بموسيقى أغنية «La donna est mobile» من أوبرا «ريجوليتو». توقف فيودور

ميخايلوفيتش عن الإملاء وراح يصيخ السمع وإذا به فجأة يأخذ فى ترديد هذه الأغنية مستبدلاً اسمى بالكلمات الإيطالية.

«أنّا جريجوريفنا!»كان يغنى بصوت حسن من طبقة ألتينور خافت بعض الشىء. بعد أن انتهت الأغنية، اقترب فيودور ميخايلوفيتش من كوة النافذة وقذف بعملة من خلالها، وسرعـــان ما اختفـى عازف الأرغن. أجاب فيودور ميخايلوفيتش على استفسارى بقوله إن عـــازف الأرغـــن لاحظ، بداهة، بعد أى أغنية تحديدًا يلقون عليه بالنقود، وها هو يأتى كل يوم ليقف أسفل النافذة ليعزف فقط هذه الأغنية من «ريجوليتو»، ثم أردف قائلاً:

ـ أما أنا فأسير دائمـًا وأنا أترنـّم باسمـــك العـــزيز على موسيقـــى هـــذه الأغنيـــة!

ضحكت وتظاهرت بالغضب لأن فيودور ميخايلوفيتش وضع اسمى مكان الكلمات الساذجة، ولكنى رحت أؤكد أن الاستقرار والثبات من طباعى، فإذا ما أحببت، فإننى أحب إلى الأبد. ضحك فيودور ميخايلوفيتش وقال: سنرى، سنرى!

استمعت إلى هذه الأغنية من الأرغـن ومن فيودور ميخايلوفيتش فى اليومين التاليين واندهشت لدقة التطابق بين غنائه وبين اللحن، بداهـة فقد كانت لديه أذن موسيقية جيدة.

بقدر تنوع مضمون أحاديثنا اليومية طوال هذه الفترة، فإنها لم تتطرق أبدًا إلى موضوعات فاحشة أو بذيئة. ولعله كان من الصعب على أى شخص أن يتعامل مع تواضعى العذرى وخجلى، على نحو أكثر تحفظًا ورقة، على النحو الذى تعامل به معى خطيبى. ويمكن وصف تعامله معى من خلال الكلمات التى وردت فى خطابه الذى كتبه إلىَّ بعد زفافنا(*).

(*) الخطاب المؤرخ ١٧ مايو ١٨٦٧ (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا)[٢٩].

«لقد وهبك الله إياى، حتى لا يضيع سُدى شيء من فطرتك وثراء روحك وقلبك، وإنما على العكس من ذلك، ليزداد ثراءً وبهاءً؛ وهبنى إياك لكى أتطهر بك من خطاياى العظيمة، بعد أن أقدمك إلى الله وقد أصبحت ناضجة، تعرفين طريقك، طاهرة مصانة من كل دناءة من شأنها أن تميت الروح».

وفى جميع الأحوال فقد وضع فيودور ميخايلوفيتش نصب عينيه أن يحمينى من كل الانطباعات المسيئة. أذكر ذات مرة، وكنت فى إحدى زياراتى له أننى رحت أتصفح رواية باللغة الفرنسية، كانت موضوعة على مكتبه. اقترب منى وسحب الرواية بهدوء من بين يدىَّ. قلت له:

ـ إننى أفهم اللغة الفرنسية. دع لى هذه الرواية لأقرأها.

فأجاب: ليست هذه الرواية! ما الداعى لتلويث مخيلتك؟

وحتى بعد زفافنا، كان فيودور ميخايلوفيتش يتخير لى بنفسه الكتب، ولم يكن يسمح مطلقًا أن أقرأ الروايات العابثة، تحدوه الرغبة أن يأخذ بيدى فى طريق تطويرى أدبيًا. كان هذا التحكُّم يغضبنى أحيانًا، وكنت أحتج عليه بقولى:

ـ ولماذا تقرؤها أنت نفسك؟ ولماذا تلوِّث مخيلتك؟ فكان يجيب:

ـ أنا رجل لدىّ مناعة. هذه الكتب ضرورية لى باعتبارها مادة لعملى. على الكاتب أن يعرف كل شيء وأن يفحص كل شيء. ولكننى أؤكد لك أننى لا أتلذذ بالمشاهد الماجنة، بل إنها كثيرًا ما تثير فى نفسى النفور.

لم تكن هذه عبارات إنشائية يقولها، وإنما كانت الحقيقة.

بهذا الشعور بالنفور كان فيودور ميخايلوفيتش ينظر إلى الأوبيرتات التى كانت سائدة فى هذا العصر. لم يكن يذهب إلى المسرحيات الهزلية، ولم يكن يسمح لى بمشاهدتها. كان يقول لى: إذا الظروف سمحت لنا ذهب إلى المسرح، فينبغى علينا أن نتخيَّر المسرحية، التى يمكن أن تترك لدى المشاهد انطباعًا راقيًا نبيلاً، وإلا فإنها ستلوث روحه بالتفاهات!

وخلال حياتى معه والتى امتدت أربعة عشر عامًا، ترسخ لدىّ إيمان عميق أنه كان واحدًا من أكثر الناس حكمة، وكم أحزننى أن أقرأ أن إيڤان تورجينيف، الكاتب الذى أحبه، قد رأى فى فيودور ميخايلوڤيتش شخصًا ماجنًا، وسمح لنفسه أن يسميه «الماركيز دى ساد الروسى» [٣٠]

(١٦)

كان الموضوع الرئيسى والأعز علينا، أنا وفيودور ميخايلوڤيتش، بطبيعة الحال، هو مستقبل حياتنا الزوجية.

أصبحت فكرة أننى لن أفترق عن زوجى، وأننى سوف أشاركه عمله، وأن تتاح لى الفرصة للعناية بصحته، وأن أتمكن من حمايته من أولئك المتطفلين الذين يثيرون قلقه واضطرابه، صارت بالنسبة إلىَّ هى الفكرة المسيطرة، إلى حد أننى كنت مستعدة أحيانًا أن أنخرط فى البكاء لو تبيَّن لى أن هذه الفكرة لن تتحقّق على وجه السرعة. كان زواجنا متوقفًا بصورة رئيسية على ما إذا كان موضوعنا مع «البشير الروسى» سينجح أم لا، وقد قرر فيودور ميخايلوڤيتش أن يسافر مع أعياد الميلاد إلى موسكو وأن يعرض على كاتكوف روايته الجديدة. لم يكن لديه شك فى أن هيئة تحرير «البشير الروسى» لديها الرغبة فى أن يصبح من العاملين بها، إذ إن رواية «الجريمة والعقاب» التى نشرت بها عام ١٨٦٦، قد تركت انطباعًا كبيرًا فى الحياة الأدبية وجذبت إلى المجلة العديد من المشتركين الجدد[٣١] كان السؤال المطروح هو: هل سيتوفر لدى المجلة أموال فائضة لإقراضنا مبلغًا فى حدود بضعة آلاف، فإذا لم نتسلم هذا القرض يصبح تدبير أمورنا المالية المستجدة أمرًا مستحيلاً، وقد افترض فيودور ميخايلوڤيتش أنه فى حالة ما إذا فشلنا مع «البشير الروسى» فإن عليه، بمجرد إنهائه «للجريمة والعقاب»، الشروع فى كتابة رواية جـــديدة، وأنه سيكـــون لزامًا عليه، بعد أن ينتهى من الجزء الأكبر منها، أن يعرضها على مجلة أخرى. كان الفشل فى موسكو يهددنا بتأجيل زواجنا لمدة طويلة قد تصل إلى عام بأكمله، وقد تملكنى حزن عميق عندما باغتتنى هذه الفكرة.

كان فيودور ميخايلوفيتش يشاركنى دائمًا همومه. ولم يكن يرغب فى أن يخفى عنى أى شىء، حتى لا تفاجئنى بشدة صروف الحياة القاسية، التى تنتظر كلينا فى المستقبل. كنت ممتنة له لصراحته، ورحت أفكر فى كافة الوسائل، من أجل تخفيف الديون التى كانت تعذبه، وسرعان ما أدركت أن سداد الديون على الوضع الذى نحن فيه الآن أمر مستحيل تمامًا. وعلى الرغم من قلة خبرتى بالحياة العملية، وأننى كنت أعيش فى أسرة ميسورة، استطعت أن ألاحظ على مدى الشهور الثلاثة التى سبقت زواجنا أمرًا كدَّرنى للغاية. لقد لاحظت أنه ما إن تظهر لدى فيودور ميخايلوفيتش نقود، حتى تظهر فى الوقت نفسه لدى جميع أقاربه، أخيه، زوجة أخيه، ربيبه، أبناء أشقائه، احتياجات، ليست مفاجئة فحسب، وإنما عاجلة أيضًا، وهكذا لم يتبق من الثلاثة آلاف والأربعمائة روبل، التى تسلمها من موسكو مقابل «الجريمة والعقاب»، سوى ما لا يزيد عن ثلاثين، أو أربعين روبلاً؛ فضلاً عن أنه لم يسدد كمبيالة واحدة من ديونه، وإنما سدد فوائدها فقط. ومن جديد تبدأ هموم فيودور ميخايلوفيتش. من أين يحصل على نقود لتسديد فوائد الديون، ومن أين له أن يعيش وأن يسد مطالب أقاربه العديدين. هذا الوضع راح يعذبنى عذابًا حقيقيًا. كنت أهدئ نفسى بفكرة أننى بعد الزواج سوف أتسلم مقادير إدارة البيت فى يدى، وأننى سوف أنظم مسألة إعطاء الأقارب النقود، بعد أن أحدد لكل منهم مبلغًا محددًا سنويًا. كان لدى إميليا فيدوروفنا أبناء بالغون كان بإمكانهم مساعدتها[٣٢] أما نيكولاى ميخايلوفيتش(*)، الأخ الأصغر لفيودور ميخايلوفيتش، فكان معماريًا موهوبًا، وكان باستطاعته، إن اراد، أن يعمل. وكان ربيبه يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا، وقد حان الوقت أن يتخذ لنفسه عملاً جادًا بدلاً من اعتماده الكامل على زوج أمه المريض والمثقل بالديون.

كنت أفكر فى غضب فى هؤلاء العاطلين، إذ أرى أن هموم فيودور ميخايلوفيتش الدائمة بشأن النقود كانت تفسد مزاجه الطيب وتؤثر تأثيرًا ضارًا فى صحته. كانت

(*) دستويفسكى، نيكولاى ميخايلوفيتش (١٨٣١ ــ ١٨٨٣): الأخ الأصغر للكاتب؛ مهندس مدنى. أنهى فى عام ١٨٥٤ كلية الهندسة والبناء. كان معماريًا موهوبًا واعدًا ولكنه اضطر لترك الخدمة بسبب إدمانه للكحول وعاش فى فقر مدقع حتى وفاته.

أعصابه تتوتر بشدة من جراء الضغوط المستمرة ومن ثم كانت نوبات الصرع تزداد. كان ذلك قبل ظهورى فى حياته، بعدها تغير الأمر بعض الوقت، لكنى كنت أحلم أن يتعافى تمامًا عندما نعيش حياتنا معًا فى المستقبل، وأن يظل محتفظًا بنشاط ومزاج حسن.

بالإضافة إلى كل ذلك، كان فيودور ميخايلوڤيتش، المكبل بالديون، مضطرًا إلى عرض عمله بنفسه على المجلات، وبطبيعة الحال، كان يتقاضى مقابل أعماله على مبالغ أقل بكثير مما كان يتقاضاه كتاب آخرون يعيشون فى رغد، مثل تورجينيف وجونتشاروف(*). فبينما كانوا يدفعون لفيودور ميخايلوڤيتش مائة وخمسين روبلاً مقابل الملزمة الواحدة فى رواية «الجريمة والعقاب»، كان تورجينيف يتقاضى من مجلة «البشير الروسى» ذاتها خمسمائة روبل على الملزمة لرواياته(٣٣).

أما أكثر ما كان يُشعر فيودور ميخايلوڤيتش بالضيم فكان اضطراره، بسبب الديون التى لاتنتهى، للإسراع فى عمله. لم يكن لديه الوقت أو القدرة على تنقيح أعماله، وكان ذلك يصيبه بحزن عظيم. كثيرًا ما كان النقاد الغلاظ يوجهون له سهام انتقاداتهم للقصور الشديد فى شكل رواياته، ولأن الرواية الواحدة تضم بين ثناياها عدة روايات، وأن الكثير من هذه الأحداث غير مكتمل(٣٤). الأرجح أن النقاد لم يكونوا يعرفون، الظروف التى كان فيودور ميخايلوڤيتش مضطرًا للعمل تحت وطأتها. كان يحدث أن يتم طبع الفصول الثلاثة من الرواية، ويجرى العمل فى جمع الفصل الرابع، وننتهى من كتابة الفصل الخامس، بينما تكون باقى الفصول فى طور التفكير. كم مرة رأيت فيها فيودور ميخايلوڤيتش قد سقط فريسة لليأس، عندما أدرك، فجأة أنه «أفسد الفكرة التى كان يعتز بها كثيرًا، وأن إصلاح الخطأ قد بات مستحيلاً»(٣٥).

(*) جونتشاروف، إيڤان ألكسندروڤيتش (١٨١٢ ــ ١٨٩١): كاتب، مؤلف روايات «أوبلوموف» و «الجرف». تعرف عليه دستويفسكى فى منزل أبوللون مايكوف عام ١٨٤٦، لكنهما لم يصبحا أصدقاء، وقد شغل جونشاروف بعد ذلك مناصب عليا فى لجنة الرقابة مما زاد من حدة الخصومة بينهما (المترجم).

كنت أشعر بالأسف على الوضع المالى الصعب الذى يعانى منه خطيبى، فرحت أطمئن نفسى بفكرة أننى فى المستقبل القريب، بعد عام، سوف يصبح بامكانى مساعدته بشكل جذرى، وذلك بعد أن أتسلم يوم بلوغى سن الرشد، البيت الذى تركه لى والدى حسب وصيته.

كان والداى يمتلكان، منذ نهاية الأربعينيات، قطعتى أرض كبيرتين. (حوالى هكتارين)، يقعان فى شارعى ياروسلاڤسكايا وكوسترومسكايا، يوجد فى قطعة منهما بيتان من الحجر، كل منهما من طابقين، نقيم فيهما، وثلاثة بيوت خشبية ملحقة بهما. وفى قطعة الأرض الأخرى بيتان من الخشب، أحدهما أعطى لأختى ضمن جهاز زفافها، والآخر خصص لى. يمكن بعد بيعه أن نحصل على ما يزيد على عشرة آلاف روبل، كنت أريد أن أسدد منها جزءًا من ديون فيودور ميخايلوڤيتش، لكن وللأسف الشديد، لم يكن بإمكانى أن أفعل ذلك قبيل بلوغى سن الرشد، حاولت أمى إقناع فيودور ميخايلوڤيتش أن يصبح وصيًا علىَّ، ولكنه رفض ذلك الأمر بإصرار قائلاً:

ـ هـــذا البيت بيت أنّا، لتأخذه فى الخريف عندما تبلغ الحادية والعشرين، لا أريد أن أتدخل فى شؤونها المالية.

كان خطيبى فيودور ميخايلوڤيتش يرفض دائمًا مساعداتى المالية، وكنت أقول له إننا ما دمنا متحابين، فإن كل شىء ينبغى أن يكون مشتركًا بيننا فكان يجيب:

ـ بالطبع، هذا ما سيكون عندما نتزوج، أما الآن فأنا لا أريد أنا آخذ منك روبلاً واحدًا.

أعتقد أن فيودور ميخايلوڤيتش كان يدرك جيدًا زيف مطالب أقاربه فى بعض الأحيان، ولكنه، على الرغم من أنه لم يكن قادرًا على رفض طلباتهم، لم يكن يوافق إطلاقًا على تلبية هذه المطالب من مالى الخاص. وحتى الألفى روبل اللذين خصصهما والداى لتجهيزى رفض المساس بها وأقنعنى بشراء كل ما أرغب فى شرائه لبيت المستقبل. أتذكر

بكل الحنين كيف راح فيودور ميخايلوڤيتش ينظر إلى السكاكين والملاعق الفضية التى اشتريتها لتوى ثم راح يرصها فى عُلَبِها ودائمًا ما كان يثنى على اختيارى، كان يعلم أن مديحه يجعلنى أتهلل وأنتشى من السعادة.

كان يحب النظر إلى ثيابى الجديدة بصفة خاصة، وعندما كانوا يحضرونها من عند الخياطة كان يرغمنى على قياسها وأن أستعرضها أمامه، وكان يعجب ببعض الفساتين (على سبيل المثال ذات اللون الأحمر الداكن) إلى حد أنه كان يطلب منى أن أظل بها طوال السهرة.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يصر أيضًا على أن أجرب ارتداء قبعاتى، وكان يرى أنها تلائمنى تمامًا. كان يحاول دائمًا أن يقول كلامًا طيبًا ودودًا وكان ذلك يبعث فى نفسى السرور. كم كان قلبه المحب مفعمًا بالحنان والإخلاص!

(١٧)

سرعان ما دارت الأيام واقتربت أعياد الميلاد. كان فيودور ميخايلوڤيتش فى الأعوام الأخيرة يقضى الأعياد دائمًا وسط أسرة أخته الحبيبة ڤارڤارا ميخايلوڤنا إيڤانوڤا، وفى هذا العام أيضًا قرر السفر إلى موسكو. كان الهدف الرئيسى من السفر، بطبيعة الحال، نيته أن يعرض على كاتكوف روايته الجديدة وأن يأخذ النقود اللازمة لزفافنا.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يشعر بالحزن الشديد قبيل سفره، كان يحبنى وكان فراقه عنى أمرًا صعبًا، وأنا أيضًا كنت حزينة للغاية، ولا أعرف لماذا تصورت أننى لن أراه بعد ذلك. حاولت أن أبدو مبتهجة وأن أخفى حزنى، حتى لا أزيد من قلقه. كان حزينًا بوجه خاص فى محطة القطارات عندما وصلت لتوديعه. نظر إلىَّ بحنان بالغ وشد على يدى وهو يصافحنى وراح يكرر القول:

ـ سأسافر إلى موسكو ومعى آمال كبيرة، وسوف نلتقى ثانية على أى حال يا عزيزتى آنيتشكا، سنلتقى على أى حال!

وقد ازدادت حالته النفسية سوءًا بسبب التصرفات الصبيانية السخيفة لباڤل ألكسندروڤيتش، الذى جاء إلى المحطة أيضًا بصحبة أبناء شقيق فيودور ميخايلوڤيتش. صعدنا جميعًا إلى عربة القطار لنرى كيف سيجلس فيودور ميخايلوڤيتش، وإذا بباڤل ألكسندروڤيتش يعبر عن «اهتمامه» نحو أبيه على غير انتظار ليقول بأعلى صوته:

ـ بابا، لا تفكر فى النوم فى السرير العلوى، حتى لا تسقط على الأرض إذا ما هاجمتك النوبة، فعندئذ لن تستطيع أن تلملم عظامك!

لكم أن تتخيلوا أثر هذه الكلمات على فيودور ميخايلوڤيتش وعلينا، وعلى جميع الحضور. عندئذ طلبت إحدى المسافرات، يبدو أنها شديدة العصبية، من أحد الحمّالين، كان يمر داخل العربة، أن ينقل أمتعتها إلى غرفة السيدات بدعوى أنهم «على ما يبدو سوف يدخنون هنا». (كانت العربة مخصصة لغير المدخنين).

لقد كدّرت هذه الحادثة من صفو فيودور ميخايلوڤيتش، الذى كان يكره الحديث عن مرضه الفظيع وسط الناس. ونحن أيضًا، الذين ذهبنا لتوديعه كنا فى حالة شديدة من الحرج والاضطراب، عاجزين عن الحديث، وقد سررنا عندما دق الجرس الثانى مؤذنًا بضرورة مغادرة العربة. لم أتمالك نفسى من جراء التصرف الصبيانى لباڤل ألكسندروڤيتش وقد شعرت بالاستياء فقلت له:

ـ لماذا أغضبت فيودور ميخايلوڤيتش المسكين؟ فأجاب:

لا يهمنى إطلاقًا، إن كان قد غضب أم لا، إننى أهتم بصحته، وعليه أن يشكرنى لذلك!

على هذا النحو دائمًا كان «اهتمام» باڤل ألكسندروڤيتش، وبطبيعة الحال، لم يكن هذا الاهتمام إلا ليثير اضطراب زوج أمه.

من موسكو أرسل لى فيودور ميخايلوڤيتش خطابين أسعدانى للغاية[٣٦] قرأتهما عشرات المرات ورحت أنتظره على أحر من الجمر.

قضى فيودور ميخايلوڤيتش اثنى عشر يومًا فى موسكو نجح خلالها فى إنهاء مباحثاته مع هيئة تحرير «البشير الروسى». وعندما علم كاتكوف بنية فيودور ميخايلوڤيتش فى الزواج، هنأه بحرارة وتمنى له السعادة ووعده بإرسال الألفى روبل التى طلبها كدفعة مقدمًا على دفعتين أو ثلاث خلال شهر يناير القادم. وهكذا جاءتنا الفرصة لإتمام زواجنا قبيل الصوم الكبير.

سرعان ما تم توزيع السبعمائة روبل التى أرسلت من موسكو على الأقارب والدائنين. كان فيودور ميخايلوڤيتش يتحدث كل مساء بأسى عن أن النقود التى يحصل عليها «تذوب» على الفور. وقد بدأ هذا الأمر يثير القلق فى نفسى، وعندما تسلم السبعمائة روبل الثانية رجوته أن يستبقى شيئًا منها لنفقات زواجنا.

أمسك فيودور ميخايلوڤيتش فى يده بقلم رصاص وراح يحسب مصروفات الكنيسة وإعداد الحفل الذى يلى الإكليل (وقد رفض رفضًا باتًا أن تتحمل أمى أى نفقات) كان الأمر يتطلب حوالى ربعمائة روبل أو خمسمائة، ولكن كيف لنا أن نحافظ على هذا المبلغ، فى الوقت الذى تظهر فيه كل يوم طلبات جديدة لدى أقاربه الذين لا حصر لهم؟

ـ آنيا، هلا احتفظت به لديك، قال لى فيودور ميخايلوڤيتش، وقد سرّه أن وجد هذا العذر المناسب أمام أقاربه، عندما يبدؤون فى طلب النقود، وفى اليوم الثانى أحضر لى خمسمائة روبل. قال لى بلهجة ساخرة منتصرة.

ـ حسنًا، آنيا، حافظى عليها بقوة، فعليها يتوقف زواجنا!

كنا متعجلين فى عقد قراننا، ولكننا لم نستطع أن ننجح فى ذلك قبيل نصف فبراير. كان علينا أن نعثر على شقة جديدة، إذ إن الغرف الأربع القديمة لم تعد تكفينا، وقد تنازل فيودور ميخايلوڤيتش عن شقته السابقة لإميليا فيدورفنا وأسرتها، والتزم أن يدفع عنها إيجارها البالغ خمسين روبلاً. كان من مميزات هذه الشقة أن صاحب البيت، التاجر الثرى ألونكين، الذى كان يقدِّر فيودور ميخايلوڤيتش تقديرًا رفيعًا باعتباره «محبًا

عظيمًا للعمل»، وهو ما كان يذكره عنه(*)، ولم يحدث إطلاقًا أن أزعجه بتذكيره بموعد سداد الإيجار، فقد كان يعرف أنه بمجرد توافر المال لدى فيودور ميخايلوڤيتش فسوف يحضره بنفسه، وكان فيودور ميخايلوڤيتش يحب الحديث مع هذا العجوز المحترم(**).

وجد لنا فيودور ميخايلوڤيتش شقة فى شارع فوزنيسينسكى فى بيت توليا (حاليًا المنزل رقم ٢٧)، ويقع أمام كنيسة الصعود. كان المدخل داخل الفناء، وكانت النوافذ تطل على حارة فوزنيسينسكى. كانت الشقة تقع فى الطابق الثانى وتتكون من خمس غرف:

غرفة الاستقبال وغرفة المكتب وغرفتين للطعام والنوم وغرفة لباڤل ألكسندروڤيتش. كان علينا الانتظار حتى يتم تشطيب الشقة، ثم نقل أشياء فيودور ميخايلوڤيتش إليها وكذلك جهازى وهلمجرا. عندما أصبح كل شىء معدًا، حددنا موعد الزفاف يوم الأربعاء قبيل أحد الرماد، الخامس عشر من فبراير، وقمنا بتوزيع الدعوات على الأصدقاء والمعارف.

(١٨)

عشية الزفاف ذهبت إلى فيودور ميخايلوڤيتش ظهرًا لأراه ولأخبره أن أختى ماريا جيورجيڤنا سڤاتكوڤسكايا ستحضر إليه فى السابعة مساء لكى تضع أشيائى فى أماكنها وهى موضوعة فى صناديق وأدراج وكراتين وتنظم كل الأشياء المنزلية من أجل استقبال الضيوف غدًا. قصت علىّ أختى بعد ذلك كيف استقبلها فيودور ميخايلوڤيتش بترحاب بالغ، كيف ساعدها فى فتح الصناديق وترتيب الأشياء، وقام بواجب الضيافة وأدخل

(*) يقول ألونكين: «عندما أذهب لصلاة الصبح، أجد غرفته مضاءة، وهذا يعنى أنه يعمل».(ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(**) فى رأيى أن فيودور ميخايلوڤيتش قد صور التاجر سمسونوف، راعى جروشنكا فى «الإخوة كارامازوف» على هيئة التاجر ألونكين. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

على قلبها السرور، وقد أخبرتنى أنها تتفق معى فى الرأى أن زوج المستقبل إنسان شديد الرقة واللطف.

كنت قد عزمت على قضاء المساء كله على انفراد مع أمى. كنت مشفقة من كل قلبى على هذه الأم المسكينة، التى عاشت طوال حياتها محاطة بالأسرة، والآن توفى أبى، وسافر أخى إلى موسكو وأنا أيضًا سوف أترك البيت، وكنت أدرك مدى الحزن الذى سينتابها من جراء بقائها وحيدة.

رحنا طوال المساء نتذكر كم كانت حياتنا معًا سعيدة، وطلبت منها وأنا معها الآن وحدى، أن تبارك حياتى الجديدة. فقد لاحظت من تجارب صديقاتى أن مباركة العرائس قبيل الذهاب إلى الكنيسة، أمام الشهود وفى ضجيج حفل الزفاف تكون رسمية إلى حد كبير أكثر منها قلبية. باركتنى أمى ورحنا معًا فى بكاء طويل، على أننا تعاهدنا ألا نبكى غدًا عندما تحين لحظة الفراق، إذ لا حاجة بى أن أذهب إلى الكنيسة بوجه منتفخ من الدموع وعيون احمرت بسببه.

فى الخامس عشر من فبراير استيقظت عند أول ضوء وتوجهت إلى كنيسة سمولنى لألحق بأول صلاة، وبمجرد انتهائها مررت على رجل الدين، القمص الأب فيليب سبيرانسكى، الذى يعرفنى منذ طفولتى، فباركنى وتمنى لى السعادة. بعدها ذهبت للصلاة عند قبر والدى فى مقبرة بولشوى أوختينسكى.

مر اليوم سريعًا، وعندما اقتربت الساعة من الخامسة كنت قد أتممت تصفيف شعرى وارتديت ثوب الزفاف المصنوع من الحرير الأبيض وله ذيل طويل. كان الفستان وتصفيفة الشعر ملائمين لوجهى، وكنت أشعر بالرضا التام عنهما.

كان موعد الزفاف فى السابعة، وكان على ابن شقيق فيودور ميخايلوفيتش — فيودور ميخايلوفيتش الصغير، الذى اختاره عريسى وكيلاً عنه، أن يمر علىَّ فى السادسة.

فى السادسة تجمع أقاربى، كان الجمع مستعدًا، لكن الوكيل لم يصل، كما لم يحضر أيضًا ابن ب. م. أولخين، الذى عليه أن يحمل أمامى الأيقونة. بدأت أشعر بالقلق بشدة،

تصورت أن فيودور ميخايلوڤيتش قد تعرض لوعكة صحية، وشعرت بالأسف أننى لم أبعث بأحد إليه نهارًا لأطمئن عليه.

وأخيرًا، وفى السابعة وصل فيودور ميخايلوڤيتش الصغير، دخل إلى الغرفة مسرعًا وتعجلنى بقوله:

ـ أنّا جريجوريڤنا، مستعدة، هيا بنا! أرجوك أسرعى! عمى فى الكنيسة قلق للغاية على حضورك. لقد استغرق حضورنا إليك ما يزيد عن ساعة، وسوف نحتاج لا أقل من ذلك فى العودة. تصورى كم من العذاب سيعانى فيودور ميخايلوڤيتش على مدى هاتين الساعتين. قلت له:

ـ لكنهم لم يحضروا الصبى بعد.

ـ لنذهب دونه، لنسرع لطمأنة فيودور ميخايلوڤيتش فحسب.

باركنى الجمع، تعانقنا أنا وأمى، وضعوا على كتفى بالطو الفراء. وفى الدقيقة الأخيرة وصل الطفل الرائع كوستيا، مرتديًا الملابس الروسية.

خرجنا على السلم تجمع العديد من الناس. كلهم من سكان البيوت حولنا جاؤوا ليودعونى. بعضهم قبّلنى، والبعض الآخر صافحنى، وجميعهم تمنى لى السعادة، ومن أعلى راح أحدهم ينثر علىّ حشيشة الدينار تيمنًا «بحياة ثرية» لى. كنت متأثرة للغاية من هذه المشاعر القلبية الفياضة. جلسنا فى العربة وانطلقنا مسرعين. وبعد عدة دقائق فقط لاحظنا أنا وأختى، أن الصبى كوستيا يجلس دون بالطو فرو ودون غطاء رأس. خفنا أن يصاب الصبى بالبرد. فغطيته بسترتى الواسعة وبعد فترة قصيرة استغرق فى نوم عميق.

عندما أصبحنا على مقربة من كنيسة إسماعيلوفسكى، لفّ وكيل العريس كوستيا النائم بمعطفه الثقيل وحمله صاعدًا به السلم المؤدى إلى الكنيسة. نزلت من العربة

بمساعدة الخادم بعد أن غطيت صورة الأيقونة بطرحة الزفاف ودخلت إلى الكنيسة. ما إن رآنى فيودور ميخايلوڤيتش حتى اقترب منى مسرعًا وأمسك بيدى بقوة وقال لى:

ـ أخـــيرًا، وجـــدتك بعد طول انتظار! من الآن فصاعدًا لن أتركك تذهبين بعيدًا عنى!

أردت أن أجيبه بأننى لم أكن لأتركه، ولكننى أحسست بالخوف عندما نظرت إلى وجهه وقد كساه الشحوب. لم يترك لى فرصة الحديث وأسرع يقودنى إلى المنصة، حيث بدأت مراسم عقد القرآن.

كانت الكنيسة مضاءة على نحو باهر، وراحت الجوقة الرائعة تترنم بأغان صداحة، اجتمع عدد كبير من الضيوف فى أبهى حلة، كل هذا عرفته بعد ذلك من الحكايات التى قصوها علىّ، إذ كنت أسبح وقتها وحتى انقضاء النصف الأول من الطقوس فى ضباب ما، رسمت علامة الصليب بشكل آلى، وكنت أجيب عن أسئلة القس وأنا أسمعها بالكاد، وبعد تناول القربان فقط بدأت أعى ما حولى فرحت أصلى بحرارة. بعد الإكليل وصلاة الشكر بدأت التهانى وأخذنى زوجى لنوقع فى دفتر ما.

وفى هذه المرة ألبس «الطفل حامل الأيقونة» جيدًا وانطلقنا إلى شقتنا الجديدة. لم ينم كوستيا طوال الطريق، ولكنه حكى فيما بعد فى غضب أن «عمى وعمتى كانا يتبادلان القبلات طوال الطريق».

عندما وصلنا كان الضيوف كلهم مجتمعين. باركتنى أمى هى وأبى الروحى بفرح عظيم. وهنا بدأت التهانى بكؤوس الشمبانيا، وقد تعجَّب كل الذين حضروا الزفاف، وحتى الذين لا يعرفوننى، عندما رأوا فتاة شابة متوردة الوجه مقبلة على الحياة تفيض بالسعادة، بدلاً من تلك الفتاة الصارمة الشاحبة التى رأوها لتوهم فى الكنيسة، وكذلك كان فيودور ميخايلوڤيتش يتهلل فرحًا وقد راح يقدم لى أصدقاءه وعرفنى بهم قائلاً:

ـ انظروا كم هى رائعة! إنها بالنسبة إلىَّ كائن بديع! إن لديها قلبًا من ذهب! وراح يكيل لى ألوانا من الثناء الذى أربكنى بشدة، ثم قدم إلى السيدات، وكان فى غاية الرضا عندما كنت أقول لكل منهن بضع كلمات لطيفة، الأمر الذى أعجبن به.

رحت بدورى أقدم زوجى إلى أصدقائى وأقاربى وكنت سعيدة وأنا ألاحظ الانتباه الأخاذ الذى تركه زوجى عليهم.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يحب أن يظهر كرم الضيافة، ولهذا كانت الشمبانيا والحلوى والفاكهة متوافرة بشكل كبير.

فى الثانية عشرة فقط تفرق الضيوف وجلسنا معًا نتذكر كل تفاصيل هذا اليوم الرائع فى حياتنا.

الجزء الثالث

الأيام الأولى فى حياتنا الزوجيـــــة

(١)

عام ١٨٦٧

بعد مرور أسبوعين على زواجنا أخبرنا أحد معارفنا أن مقالاً عن فيودور ميخايلوفيتش ظهر فى صحيفة «صين أوتشيستڤا» («ابن الوطن») (العدد ٣٤، فبراير ١٨٦٧ بعنوان «زواج روائى». حصلنا على هذا العدد من الصحيفة وقرأنا ما جاء فيه على النحو التالى:

«يقول مراسل صحيفة «Nord» البطرسبورجية: «يتردد الحديث بكثرة عن زواج جرى فى عالمنا الأدبى على نحو غريب تمامًا. واحد من أشهر روائيينا، شارد الفكر بعض الشىء، يتميز بعدم الدقة فى الوفاء بالتزاماته المعقودة بينه وبين ناشرى أعماله، تذكر فى نهاية نوفمبر أن عليه أن ينتهى من كتابة رواية، تقع فى مائتى صفحة، على الأقل، بحلول الأول من ديسمبر، وإلا تعرض، إذا خالف ذلك، لدفع غرامة كبيرة، فما الذى عليه أن يفعل؟ صحيح أنه عثر على الموضوع، واختمرت فى رأسه المشاهد الرئيسية، ولكنه على الرغم من ذلك لم يخط سطرًا واحدًا فيها، وها قد تبقى على الموعد المحتم أسبوعًا واحدًا

فقط، وبناء على نصيحة من أحد أصدقائه، دعا كاتبنا مختزلاً حتى يسهل عليه عمله، وراح يملى عليه روايته وهو يذرع غرفته جيئة وذهابًا، وقد أخذ يسوى شعره الطويل دون توقف، كما لو كان يأمل أن يلهمه هذا الشعر أفكارًا جديدة. نسيت أن أخبركم أن المختزل الذى دعاه المؤلف للعمل معه كان فتاة شابة تشبَّعت بالأفكار المعاصرة، على الرغم من كونها ليست عدمية، وكانت كذلك قادرة على أن توفر لنفسها وضعًا مستقلاً استنادًا إلى عملها، وفى غمرة معاناته من أجل الحصول على أفكار جديدة، لم يلحظ السيد X (ونعنى بهذا الحرف اسم الروائى)، أن مساعدته كانت فتاة رائعة الجمال فى ريعان الشباب. كان العمل فى الأيام الأولى يسير على أفضل نحو، على أنه كلما اقتربت الرواية من نهايتها، ظهرت بعض الصعوبات. كان بطل الرواية أرمل، تعدى مرحلة الشباب، يفتقد إلى الوسامة، وها هو يقع فى حب امرأة شابة جميلة.

كان من الضرورى إنهاء الرواية نهاية طبيعية على نحو ما، دون انتحار أو مشاهد مبتذلة. الكاتب لم تسعفه الأفكار، وراح شعره الطويل يعانى من ذلك، زد على ذلك أنه قد تبقى يومان فقط على إنهاء الرواية. هنا اقتنع الروائى أن من الأفضل أن يدفع الغرامة وفجأة إذا بالمختزلة، التى كانت تؤدى عملها طوال الوقت فى صمت، تقرر أن تنصح الروائى أن يجعل بطلته تصل إلى درجة الوعى بأنها تشارك البطل مشاعره.

لكن المؤلف صاح: لكن هذا أمر غير طبيعى! تذكرى فقط أن البطل عجوز أعزب، يشبهنى، بينما البطلة فى قمة الجمال والشباب... مثلك، على سبيل المثال.

اعترضت المختزلة على ذلك قائلة إن الرجل يأسر المرأة لا بمظهره، وإنما بعقله وموهبته وهلمجرا. وفى النهاية قبل اقتراحها بشأن النهاية، وتم إنجاز الرواية فى موعدها. وفى اليوم الأخير للعمل طلب السيد X، بصوت مضطرب، من المختزلة الرائعة السماح له بالحضور إلى بيتها ليعبر لها عن شكره، وقد وافقت.

قال السيد X: إذن سوف آتى اليكم غدًا؟

فأجابت: كلا، لو أمكن، تعال بعد غد. جاء الروائى فى الموعد المحدد وبعد أن احتسى الفنجان الثانى من القهوة جازف بالتعبير عن حبه. وقد لقى تعبيره قبولاً

واستحسانًا. وهنا سأل السيد X: ولماذا لم ترغبى فى استقبالى أمس؟ لو حدث لكنت أسعدتنى يومًا قبل ذلك.

أجابت المختزلة فى خجل: لأننى كنت على موعد مع صديقة بالأمس، وهى تفوقنى جمالاً فخشيت أن تؤثر فى قرارك. شعر الروائى بفرحة عارمة لهذا الاعتراف الساذج، الذى يؤكد أنها تحبه بالفعل.

لاتظنوا، بالمناسبة، أن هذه الرواية انتهت على هذا النحو الذى يسمونه فى روسيا بالزواج المدنى. على العكس، فقد عقد قران هذا الزوج خلال أيام فى كنيسة الحى.

ضحكنا أنا وزوجى بشدة على هذا المقال الصغير، وعبر فيودور ميخايلوڤيتش عن فكرة مفادها أنه، بناء على تفاهة أسلوب الحكاية بأن الأمر لن يخرج عن كونه تدبير ميليوكوف، الذى كان على علم جيد بعادات زوجى [٣٧] (الواقع كان فيودور ميخايلوڤيتش يحب أن يتجول فى الغرفة وهو يملى روايته وعندما تتعقد الأمور يأخذ فى شد شعره الطويل).

(٢)

سرعان ما مرت الأيام التى سبقت الصوم الكبير فى مرح صاخب: قمنا «بزيارات الزفاف» سواء إلى أقاربى، أو إلى أقارب ومعارف فيودور ميخايلوڤيتش. دعانا أقاربنا على الغداء والأمسيات، وفى كل مكان ذهبنا إليه قدم الجميع الشمبانيا تعبيرًا عن تهانيهم للأزواج «الشبان». على هذا النحو كانت التقاليد فى تلك الأيام. يخيل إلىّ أننى لم أحتس فى حياتى بعد ذلك هذا القدر من كؤوس الشمبانيا، مثلما احتسيت من كؤوس فى هذه الأيام العشرة. كان لهذه التهانى عواقب محزنة، فقد كانت سببًا لأول مصيبة ثقيلة أواجهها فى حياتى الزوجية. الأمر تحديدًا أن فيودور ميخايلوڤيتش أصيب بنوبتين من نوبات الصرع، والمهم أنهما لم يقعا فى أثناء نومه، كما كان يحدث دائمًا تقريبًا، وإنما وقعتا نهارًا وهو مستيقظ، وإليكم ما حدث.

فى اليوم الأخير من أيام أعياد الصوم الكبير تناولنا طعام الغداء عند أقاربنا، وفى المساء توجهنا لقضاء السهرة عند أختى. تناولنا عشاءنا فى جو يسوده المرح (صاحب العشاء بعض من كؤوس الشمبانيا أيضًا، كما حدث فى الفترة الأخيرة)، ثم انصرف الضيوف وبقينا جالسين. كان فيودور ميخايلوفيتش ممتلئًا حماسًا وهو يقص على أختى أمرًا ما شيقًا، وفجأة أرتج عليه القول، واعتراه الشحوب وقام من مقعده نصف قيام، ثم راح يميل باتجاهى. نظرت إلى وجهه فى ذهول وقد تغيرت ملامحه. وفجأة دوت صرخة مرعبة وكأنها غير صادرة عن بشر، هى الأرجح عواء، وأخذ فيودور ميخايلوفيتش يميل إلى الأمام. وفى نفس الوقت صرخت أختى عاليًا، وكانت تجلس إلى جوار زوجى. قفزت من مقعدها وفرت من الغرفة وقد انتابها بكاء هيستيرى، واندفع وراءها صهرى.

فيما بعد تسنى لى عشرات المرات أن استمع إلى هذا العواء «غير البشرى» المعتاد لدى مرضى الصرع فى بداية النوبة، ودائمًا ما كنت أرتجف من الخوف عند سماعه، غير أننى لم أشعر فى هذه اللحظة آنذاك، ولدهشتى، بالخوف إطلاقًا، على الرغم من أنها كانت المرة الأولى فى حياتى التى أرى فيها نوبة الصرع. أمسكت فيودور ميخايلوفيتش من كتفه وأجلسته بقوة على الأريكة، وكم شعرت بالرعب، عندما رأيت أن جسد زوجى الذى فقد القدرة على الإحساس، قد بدأ ينزلق من الأريكة ولم تكن بى القدرة على إيقافه. سمحت لفيودور ميخايلوفيتش بالهبوط إلى الأرض، بعد أن أبعدت الكرسى وعليه مصباح مضىء، ورحت أهبط معه بدورى، وطوال الوقت كان التشنج يهز رأسه فوق ركبتى. لم يأت أحد لمساعدتى: كانت أختى تعانى من حالة هيستيرية، بينما صهرى والخادمة منشغلان بالقرب منى.

شيئًا فشيئًا أخذ التشنج فى التوقف وبدأ فيودور ميخايلوفيتش فى استعادة وعيه؛ ولكنه لم يكن يدرك بادئ الأمر أين يوجد، كما أنه فقد كذلك القدرة على النطق. كان يجدُّ فى أن يقول شيئًا ما، ولكنه كان ينطق بكلمة بدلاً من أخرى وكان من المستحيل أَن نتبين ما يقول. ربما بعد نصف ساعة فقط نجحنا فى إنهاض فيودور ميخايلوفيتش

ووضعه على الأريكة. قررنا أن ندعه يستريح قبل أن نعود إلى البيت. ولكن للأسف الشديد عاودته نوبة أخرى بعد ساعة وكانت فى هذه المرة من القوة بحيث إنه ظل يصرخ من الألم ما يزيد على ساعتين بعد أن استرد وعيه. كان شيئًا فظيعًا! فيما بعد كانت النوبات المزدوجة تصيبه بشكل نادر نسبيًا. وفى هذه المرة شرح لنا الأطباء سبب هذا التوتر الشديد بأنه جاء نتيجة احتساء فيودور ميخايلوڤيتش للشمبانيا فى أثناء زيارات الزفاف وولائم الغداء والأمسيات التى أقيمت لتكريم الزوجين «الشابين» كانت الخمر تؤثر تأثيرًا بالغ السوء على فيودور ميخايلوڤيتش ولهذا لم يكن يتناولها إطلاقًا.

اضطررنا للمبيت عند أختى، إذ إن فيودور ميخايلوڤيتش كان خائر القوى، كما أننا خشينا من وقوع نوبة جديدة. ويا لها من ليلة فظيعة قضيناها آنذاك! لقد رأيت هنا وللمرة الأولى أى مرض مروع يعانى منه فيودور ميخايلوڤيتش. كنت مقتنعة تمامًا، وأنا أستمع إلى صياحه وأنينه الذى لا ينقطع على مدى ساعات طويلة، وأرى وجهه وقد شوهه الألم بحيث يصبح غير الوجه الذى أعرفه، وأعجز عن فهم كلامه غير المترابط، وكأن زوجى العزيز فيودور ميخايلوڤيتش سوف يصاب بالجنون، وكانت هذه الفكرة كفيلة بأن تبث الرعب فى أوصالى!

ولكن، حمدًا لله، ها هو فيودور ميخايلوڤيتش وقد تعافى بعد أن نام بضع ساعات، بحيث استطعنا أن نعود إلى منزلنا، على أن حالة من الغم والاكتئاب كانت تنتابه بعد النوبة لتستمر معه ما يزيد عن أسبوع. وكان فيودور ميخايلوڤيتش يصف حالته بعد النوبة دائمًا بقوله: «كأننى فقدت أعز إنسان لدى فى هذا العالم، كما لو كنت قد واريته الثرى. على هذا النحو تكون حالتى». ظلت هذه النوبة المزدوجة ذكرى مؤلمة إلى الأبد بالنسبة إلىّ. وعلى مدى هذا الأسبوع الحزين بدأ أيضًا سوء الفهم والمنغصات التى عكرت صفو الأسابيع الأولى من زواجنا ودفعتنى لأتذكر بكل الحزن والأسى «شهر العسل» الذى انقضى.

ولكى يكون الأمر أكثر وضوحًا سوف أصف نظام حياتى الجديدة: لم يكن باستطاعة فيودور ميخايلوڤيتش، الذى اعتاد العمل والقراءة ليلاً، أن ينام مبكرًا، ومن ثم كان

يستيقظ فى ساعة متأخرة. أما أنا فأكون مستعدة للذهاب فى التاسعة إلى ميدان سينايا(*) بصحبة الطاهية لشراء ما يلزم البيت.

هناك حقيقة ينبغى ذكرها، فعندما تزوجت كنت ربة بيت بالغة السوء ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أننى قضيت سبع سنوات فى الثانوية ثم فى التعليم العالى، ثم فى دروس الاختزال. من أين لى إذن أن أتعلم شؤون البيت؟ ولكننى بمجرد أن أصبحت زوجة لفيودور ميخايلوڤيتش ولعلمى بأحواله المادية عاهدته ونفسى على أن أتعلم الشؤون المنزلية، وأكدت لزوجى، وأنا أضحك، أننى سوف أعد له بنفسى الفطائر التى يحبها، بل إننى أقنعته باستئجار طاهية «باهظة» الأجر، بأسعار ذلك الزمان، تتقاضى اثنى عشر روبلاً مقابل أن تعلمنى فن الطهى.

كنت أعود من السوق فى الحادية عشرة تقريبًا، ودائمًا ما كنت أجد كاتيا دستويڤسكايا، ابنة شقيق فيودور ميخايلوڤيتش عندنا، كانت فتاة رائعة تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، ذات عينين سوداوين جميلتين وضفيرتين شقراوتين طويلتان تنسدلان على ظهرها. كانت أمها إميليا فيدوروڤنا قد حدثتنى عدة مرات أن كاتيا تحبنى وأعربت عن رغبتها فى أن يكون لى تأثير عليها.

واستجابة لهذا الإطراء وافقت على دعوتها للحضور إلينا كلما أمكنها ذلك، ولما كانت كاتيا غير مرتبطة بأى نوع من الدراسة وكانت تمل البقاء فى البيت فقد كانت تأتى إلينا مباشرة بعد انتهائها من نزهتها الصباحية: كان هذا مناسبًا لها، فقد كانت تعيش مع أسرتها على مسافة خمس دقائق. وفى الثانية عشرة يأتى إلىَّ پاڤل ألكسندروڤيتش ميشا دستويڤسكى، لبن شقيق فيودور ميخايلوڤيتش، وهو شاب يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، كان يدرس آنذاك العزف على الكمان وكان يمر علينا فى طريق عودته من

(*) ميدان سينايا هو ميدان العلف، ورد ذكره كثيرًا فى روايات دستويڤسكى وبخاصة رواية «الجريمة والعقاب» (المترجم).

الكونسرڤتوار إلى بيته، وبالطبع كنت أستبقيه ليتناول طعام الإفطار. وكذلك كان يمر بنا فيودور ميخايلوڤيتش الصغير، عازف البيانو الماهر. ثم يبدأ توافد أصدقاء ومعارف فيودور ميخايلوڤيتش. كانوا يرون أن من الممكن أن يزوروه أكثر، وكثيرًا ما كانت إميليا فيدوروڤنا تحضر للغداء ومعها أخ زوجى، نيكولاى ميخايلوڤيتش وأخته ألكسندرا ميخايلوڤنا جولينو ڤسكايا(*) وزوجها الطيب نيكولاى إيڤانوڤيتش. وبعد أن يتناول الجميع طعام الغداء يبقون لدينا طوال المساء حتى العاشرة والحادية عشرة. على هذا النحو انتظم الأمر يومًا بعد الآخر. لا ينقطع سيل الغرباء والأقارب.

لقد نشأت أنا نفسى وترعرت فى أسرة أبوية مضيافة، لكن الضيوف كانوا يأتون إلينا أيام الآحاد وفى الأعياد، لكن حضور الضيوف بهذه «الكثافة» بحيث أصبح مضطرة «للضيافة» و«التسلية» منذ الصباح وحتى المساء فكان أمرًا شاقًا، وبخاصة أن آل دستويڤسكى الشباب وربيبه لم يكونوا يقاربوننى سنًا [٣٨]، كما لم تكن لديهم آنذاك ما لدىَّ من طموحات. وعلى العكس من ذلك، كان أصدقاء فيودور ميخايلوڤيتش ومعارفه من الأدباء: مايكوف، أڤيركييف(**)، ستراخوف، ميليوكوف، دولجوموستييف[٣٩] وغيرهم، كانوا أكثر إمتاعًا وتشويقًا بالنسبة إلىَّ. لم أكن على دراية بعالم الأدب حتى الآن، وكنت متشوقة بشدة لولوج هذا العالم، كنت أود أن أتحدث مع هؤلاء الأدباء، أن أجادلهم، ولعل الأهم بالنسبة إلىَّ كان فى أن أظل أستمع وأستمع إليهم... وللأسف لم أستطع الحصول على هذه المتعة إلا نادرًا: وعندما كان فيودور ميخايلوڤيتش ينظر فيرى الوجوه المللولة لشبابنا، كان يهمس لى قائلاً:» يامتى، آنيتشكا، لعلك ترين كم يشعر هؤلاء بالملل، خذيهم، اشغليهم بشىء ما»، وكنت أجد ذريعة لكى أقودهم خارج الغرفة وأبدأ فى تسليتهم» على مضض.

(*) دستويڤسكايا (جولينوڤسكايا بعد الزواج الأول)، ألكسندرا ميخايلوڤنا (١٨٣٥ ــ ١٨٩٨): الأخت الصغرى لفيودور ميخايلوڤيتش.

(**) أڤيركييف، ديمترى ڤاسيليڤيتش (١٨٣٦ ــ ١٩٠٥): كاتب مسرحى، قصاص وناقد، عمل بمجلتى «الزمن» و «العصر». أصدر عامى ١٨٨٥ ــ ١٨٨٦ «مذكرة الكاتب» ليواصل أفكار دستويڤسكى.

كان أكثر ما يثير اضطرابى أيضًا، هو أنه بفضل الوجود المستمر للضيوف لم أعد أملك الوقت للانشغال بالأعمال التى أحبها، وكان هذا الأمر يمثل خسارة فادحة بالنسبة إلىَّ؛ كنت أتذكر بأسًى أننى على مدى شهر بأكمله لم أتمكن من قراءة كتاب واحد، ولم أستذكر دروس الاختزال الذى كنت أرغب فى إجادة كل تفاصيله الدقيقة.

لكن أكثر ما كان يكدرنى هو أننى وبسبب الضيوف الدائمين لم أكن أجد وقتًا إطلاقًا لكى أنفرد بزوجى العزيز، فإذا ما سنحت الفرصة لى فى أثناء النهار لكى أقتطع دقيقة للدخول عليه فى غرفة المكتب والجلوس معه، إذا بشخص ما يدخل عليه أو يدعوننى فى شأن من شؤون المنزل. كان علينا أن ننسى أحاديث المساء الغالية، إذ إننا بحلول الليل، وبسبب أحداث اليوم بما فيها من ارتباك وزيارات عديدة وأحاديث شارك فيها فيودور ميخايلوڤيتش، يكون التعب قد أصابنا أنا وهو، فأخلد إلى النوم، بينما يلجأ هو إلى كتاب شيق يجد راحته بين دفتيه.

(٣)

أعداء فى البيت

كان من الممكن أن أتصالح، بمرور الوقت، مع نظام حياتنا، لو أننى نجحت فى الحصول على بعض الحرية وبعض الوقت لممارسة هواياتى المفضلة، لو لم تتكاتف المنغصات من جانب أقارب فيودور ميخايلوڤيتش. كانت زوجة أخيه، إميليا فيدوروڤنا دستويڤسكايا امرأة طيبة، لكنها ضيقة الأفق. عندما رأت أن فيودور ميخايلوڤيتش يشملها برعايته بعد وفاة زوجها، اعتبرت أن هذه الرعاية هى التزام علَيه أن يؤديه نحوها وقد بهتت بشدة بعدما عرفت أن فيودور ميخايلوڤيتش يرغب فى الزواج. من هنا كان أسلوبها العدائى تجاهى عندما أصبحت خطيبته، لكن إميليا فيدوروڤنا استسلمت للواقع بعد زواجنا وأصبحت معاملتها لى لطيفة وبخاصة عندما لاحظت أننى أولى أطفالها اهتمامًا كبيرًا. كانت تأتى لزيارتنا كل يوم، وكانت تعتبر نفسها ربة بيت متميزة،

ومن ثم راحت تكيل لى النصائح فى الشؤون المنزلية. كان يمكن أن يحدث ذلك بنية حسنة وبدافع الرغبة فى إفادتى، على أن توجيهاتها دائمًا كانت فى حضور زوجى، وهو أمر لم يكن يسرنى بالمــرة، إذ كان يجعلنى أبــدو أمــام زوجى مبذرة لا تحسن إدارة البيت. لكن الأمر الأكثر إزعاجًا بالنسبة إلىَّ فضلاً عن كل ذلك، أنها راحت تضعنى فى كل موقف فى مقارنة مع زوجة فيودور ميخايلوڤيتش الأولى، وهو ما كان يفتقد تمامًا إلى اللياقة من جانبها.

على أنه إذا كانت التوجيهات المستمرة وبعض الشىء من أسلوب فرض الوصاية أشياء سخيفة من جانب إميليا فيدوروڤنا، فقد كانت الوقاحة والفظاظة اللتان تجرأ باڤل ألكسندروڤيتش أن يعاملنى بهما أمورًا لا تحتمل.

كنت أعلم، بطبيعة الحال، عندما تزوجت، أن ربيب فيودور ميخايلوڤيتش سوف يعيش معنا، فبالإضافة إلى أن موارده المالية لم تكن تسمح بتوفير مسكن مستقل له، كان فيودور ميخايلوڤيتش يود أن يجعله تحت رعايته، إلى أن تتشكل شخصيته. ونتيجة لصغر سنى، لم أتصور أن يكون وجود شخص غريب تمامًا بالنسبة إلىَّ فى حياتى العائلية الجديدة مزعجًا إلى هذا الحد. فضلاً عن أننى كنت أظن أن فيودور ميخايلوڤيتش يحب ربيبه وأنه اعتاد وجوده معه وأنه سيكون من الصعب عليه أن يفترق عنه، ولهذا لم أشأ أن أصر على أن يكون لى مسكن مستقل. بل بدا لى، على العكس من ذلك أن وجود شخص يقاربنى فى السن(*) سوف يبعث بالحيوية فى البيت وأنه سوف يُعرِّفنى بعادات فيودور ميخايلوڤيتش (وكنت على علم بالكثير منها)، وهكذا سوف لا أضطر أن أخل بحياته المعتادة إلا قليلاً.

لن أتحدث هنا عن أن باڤل ألكسندروڤيتش إيسايف كان غبيًا أو شريرًا. فمصيبته الكبرى تتلخص فى أنه لم يستطع أن يدرك مطلقًا مكانته، فبعد أن اعتاد منذ طفولته أن يعامله كل أقارب وأصدقاء فيودور ميخايلوڤيتش بطيبة ولطف، إذا به يرى ذلك

(*) كان باڤل ألكسندروڤيتش يصغرنى ببضعة أشهر (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

باعتباره أمرًا لازمًا ولم يفهم مطلقًا أن هذه المعاملة الودية تجاهه ليست من أجل سواد عينيه بقدر ما هى مجاملة لفيودور ميخايلوڤيتش. وبدلاً من أن يقـــدر ذلك ويكـــون جـــديرًا بحب مـــن يظهرون عطفهـــم تجاهه راح يتصرف على نحو أخرق، ويتعامل مع الجميع بإهمال وصلافة، الأمر الذى لم ينتج عنه سوى أنه أغضب هؤلاء الناس وأثار حفيظتهم(*) وقـــد تحمل أبوللون نيكولايڤيتش مايكوف الكثير من الأذى من جانب باڤل ألكسندروڤيتش، بعد أن حاول أن يوجه أفكاره وتصرفاته نحو الاتجاه الصحيح، ولكن للأسف، دون جدوى.

وبنفس القدر من الإهمال والتعالى كان باڤل ألكسندروڤيتش يتعامل مع زوج أمه، على الرغم من أنه كان يناديه دائمًا «بالأب» ويسمى نفسه «ابن» دستويڤسكى، ولكن باڤل لم يكن باستطاعته أن يكون ابنًا لفيودور ميخايلوڤيتش إذ إنه ولد عام ١٨٤٥ (٤٠). فى استراخان، بينما لم يغادر فيودور ميخايلوڤيتش بطرسبورج حتى عام ١٨٤٩ (٤١).

منذ أن بلغ باڤل ألكسندروڤيتش من العمر إثنى عشر عامًا وهو يعيش فى كنف فيودور ميخايلوڤيتش، وقد ظل مقتنعًا أشد الاقتناع أن «والده» ينبغى أن يعيش من

(*) سأورد هنا حدثًا مميزًا لباڤل ألكسندروڤيتش، فعندما عدنا من خارج البلاد، راح يطلب من فيودور ميخايلوڤيتش أن يوظفه فى ڤولچسكو ــ كامنسكى. وقد طلب فيودور ميخايلوڤيتش ذلك من يفجينى إيڤانوڤيتش لامانسكى، وقد تسلم باڤل ألكسندروڤيتش وظيفة فى بطرسبورج أولاً، ثم موسكو بعد ذلك. وهنا راح يشيع بين الكثيرين فى البنك أن «والده» دستويڤسكى صديق لامانسكى وأنه عمومًا لديه علاقات كبيرة. وذات يوم كان لامانسكى فى زيارة لموسكو فقرر المرور على ڤولچسكو كامنسكى بنك وباعتباره مديرًا لبنك الدولة. كان للامانسكى نفوذ مالى كبير، ولذلك قوبل بترحاب شديد فى البنك. وعندما علم ألكسندروڤيتش بمجيئه ذهب لمقابلته فى الصالة، حيث تجمع المديرون. اقترب من لامانسكى ومد إليه يده قائلاً: «مرحبًا يفجينى إيڤانوڤيتش. كيف حالك؟ يخيل لى أنك لم تعرفنى؟ أنا ابن دستويڤسكى. لقد قابلتنى عند بابا». أجاب لامانسكى ــ «عفوًا، لم أعرفك، لقد تغيرت كثيرًا». فضحك باڤل ألكسندروڤيتش قائلاً: «الأمر يرجع إلى الشيخوخة، أما أنت يا والدى فقد تغيرت بشكل لابأس به!» وعندئذ بشكل بالغ اللطف ربت على كتف لامانسكى، تعوج لامانسكى، ولكنه، باعتباره رجلاً مهذبًا. سأله عن صحة فيودور ميخايلوڤيتش. فأجاب باڤل ألكسندروڤيتش «لابأس، إن العجوز يعيش بالكاد. هنا لم يتمالك لامانسكى نفسه واستدار مغادرًا المكان. يمكن أن تتخيل كيف ترك التصرف الوقح من جانب باڤل ألكسندروڤيتش أثره على رأى رؤسائه.

أجله فقط، وأن يعمل ويحصل على النقود لصالحه هو، بينما لم يساعده إطلاقًا فى أمر من الأمور، وإنما على العكس من ذلك، راح يعذبه بأفعاله الطائشة وتصرفاته الحمقاء، بل كان يدفعه، كما ذكر المقربون، إلى نوبة الصرع؛ فضلاً عن ذلك فقد كان باڤل ألكسندروڤيتش يرى أن فيودور ميخايلوڤيتش إن هو إلا «عجوز عفا عليه الزمن». وبدت له رغبته فى السعادة الشخصية «سخافة»، وهو ما فتئ يردده صراحة على مسامع أقاربه. لقد تكونت لـــدى باڤل ألكسندروڤيتش رؤيـــة عـــنى باعتبارى المرأة المغتصبة التى دخلت عنوة إلى أسرتهم، بعد أن كان هو صاحب الأمر والنهى، حيث إن فيودور ميخايلوڤيتش بات مشغولاً بعمله الأدبى، ومن ثم فهو لا يستطيع، بطبيعة الحال، أن يدير شؤون البيت. يمكن إذن فهم كراهيته لى انطلاقًا من هذه النظرة. ولمَّا لم ينجح فى إفشال زواجنا فقد قرر أن يجعله بالنسبة إلىَّ أمرًا لايطاق. وربما كان يعول عن طريق الأذى الدائم والمشاجرات ووشايته بى عند فيودور ميخايلوڤيتش أن يجعلنا نتشاجر ليدفعنا للطلاق. لم تكن أعماله الدنيئة كبيرة فى حد ذاتها، ولكنها كانت كثيرة للغاية، ولمَّا كنت أعلم أنه كان يقصد بها دفعى للغضب وإهانتى فإننى لم أكن أستطيع، بطبيعة الحال، أن أتجاوز عنها وكنت أشعر بالغيظ والحنق. على سبيل المثال: اعتاد باڤل ألكسندروڤيتش أن يرسل بالخادمة كل صباح إلى مكان ما، تارة لشراء السجائر، وتارة أخرى لتسليم خطاب إلى صديق له وانتظار الرد منه، وثالثة إلى الخياط وهلمجرا. ولسبب ما، كان يحدث أن يرسل بها إلى مكان بعيد تمامًا عن شقتنا، حتى أن فيدوسيا المسكينة(*)

(*) كانت فيدوسيا امرأة يسهل ترويعها. كانت أرملة لكاتب بسيط فى إحدى الدوائر كان يشرب الخمر حتى الهذيان، ثم يروح يضربها دون رحمة. وبعد موته عاشت وحيدة مع ثلاثة أطفال فى فقر مدقع. وقد قص أحد الأقارب حكايتها على فيودور ميخايلوڤيتش الذى أخذها لتعمل لديه ومعها أطفالها الثلاثة، كان الابن الأكبر يبلغ من العمر أحد عشر عامًا، والابنة سبع سنوات، والأصغر خمس سنوات. كانت فيدوسيا تحكى لى وقد امتلأت عيناها بالدموع، وكنت ما أزال مخطوبة، عن طيبة فيودور ميخايلوڤيتش. كان إذا سمع، على حد قولها، أحدًا من أطفالها يبكى أو يسعل، فى أثناء عمله فى الليل، فإنه يأتى ليغطى الطفل بالملاءة ويهدهده، فإذا لم يستجب، فإنه يذهب إليها ليوقظها. وقد رأيت هذا الاهتمام عندما تزوجنا. وعندما رأت فيدوسيا فيودور ميخايلوڤيتش وقد سقط عدة مرات فريسة لنوبة الصرع، فقد انتابها الخوف من الصرع بل ومن فيودور ميخايلوڤيتش نفسه. واقع الأمر أنها كانت تخاف من الجميع بمن فيهم باڤل

كانت، على الرغم من نشاطها تتأخر فى إيقاظ فيودور ميخايلوڤيتش وفى القيام بترتيب غرفته. كان فيودور ميخايلوڤيتش عاشقًا للنظافة والنظام، فكان يغضب بشدة إذا ما وجد غرفته على حالة من الفوضى. لم يكن أمامى عندئذ سوى أن أمسك بالمكنسة وأقوم بنفسى بتنظيفها. ذات يوم وجدنى فيودور ميخايلوڤيتش وأنا فى هذا الوضع فوبخنى قائلاً إن هذا ليس شأنى وإنما هو عمل ينبغى أن تقوم به فيدوسيا، وعندما رفضت فيدوسيا أن تذهب إلى أى مكان بعيد فى شأن من شؤون باڤل ألكسندروڤيتش، قائلة له إن عليها أن تنظف الغرف وإلا «عاتبتنى السيدة»، قال لها دون حياء وهو يعلم أننى أجلس فى الغرفة المجاورة:

ـ فيدوسيا! من السيد هنا: أنا أم أنّا جريجوريڤنا ؟ أتفهمين؟ حسنًا، اذهبى إلى حيث يرسلونك!

كان لدى باڤل ألكسندروڤيتش ألعاب شيطانية صغيرة لاتنفد، فتارة يشرب اللبن عن آخره قبل خروج فيودور ميخايلوڤيتش إلى غرفة الطعام، فنضطر لشراء غيره على عجل من المحل وبالطبع لا يكون جيدًا، بينما يجلس فيودور ميخايلوڤيتش فى انتظار قهوته، وتارة قبيل الغداء مباشرة يأكل ثمار العليق، وبدلاً من أن يترك ثلاث ثمرات، يترك ثمرتين وهى لا تكفى. ومرة أخرى يختفى الثقاب من كل أنحاء البيت، على الرغم من أنه كانت هناك بالأمس عدة علب منه. كانت كل هذه الصغائر كفيلة بأن تثير غضب فيودور ميخايلوڤيتش فيروح يصرخ فى فيدوسيا، أما باڤل ألكسندروڤيتش الذى تسبَّب فى كل هذه الفوضى، فيهز كتفيه ويقول: «حسنًا، بابا، عندما كنت أنا الذى يدير شؤون البيت، لم تكن هناك هذه الفوضى!»

ألكسندروڤيتش، الذى كان يصرخ فيها، بل إنها كانت تخاف حتى منى، أنا التى لم أكن أحد يخشاها على الإطلاق. كانت فيدوسيا تضع شالاً من الصوف الخفيف عندما تخرج إلى الشارع، وهو نفس الشال الذى ورد ذكره فى رواية «الجريمة والعقاب» باعتباره الشال الذى يرتديه آل مارميلادوف (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

وهكذا يبدو الأمر وكأننى أنا المسؤولة عن تلك الفوضى، أو، بتعبير أكثر دقة، أن المسؤولية تقع على عدم صلاحيتى لإدارة البيت.

كان لباڤل ألكسندروڤيتش تكتيكه، ففى وجود فيودور ميخايلوڤيتش كان يتصرف على نحو شديد المجاملة ناحيتى، يناولنى الأطباق، يهرع لنداء الخادمة، يلتقط مفرش المائدة إذا سقط منى وهلمجرا. وحتى أن فيودور ميخايلوڤيتش قد لاحظ أكثر من مرة أو مرتين، أن وجود عنصر نسائى، وبخاصة فى وجودى (مع آل دستويڤسكى: كاتيا وإميليا فيودوروڤنا كان يعاملنى معاملة الند للند) يؤثر إيجابًا على باڤل ألكسندروڤيتش، ويأخذ أسلوبه فى الاعتدال شيئًا فشيئًا. ولكن ما إن يخرج فيودور ميخايلوڤيتش حتى تتغير معاملة باڤل ألكسندروڤيتش تجاهى، فتارة يبدأ فى عمل ملاحظات وقحة بشأن إدارتى للبيت ويأخذ فى التأكيد أن الأمر كان أفضل فى السابق، وتارة يقول إننى أنفق كثيرًا من النقود، وكأن النقود «مشتركة» بيننا، وتارة يصور نفسه على أنه ضحية الاستبداد العائلى، كان يبدأ حديثه بالوضع الصعب «لليتيم» الذى كان يعيش سعيدًا فى الأسرة وكانوا يعتبرونه الشخصية الرئيسية. فإذا بشخص غريب (يعنينى أنا الزوجة) يدخل إلى البيت، ويخطط للحصول على التأثير واحتلال المكانة الأولى فى الأسرة. لقد بدأت ربة البيت الجديدة تتعقب «الابن»، وتسبِّب له المشاكل، وتضيق عليه حياته حتى أنه لا يتمكن من تناول غدائه بهدوء، إذ إنه يعلم، أن وراء كل لقمة يأكلها تتابعه نظرة ربة البيت الشكاكة الساخطة، وأنه يتذكر الأعوام السعيدة الماضية ويأمل أن تعود، وأنه لن يتخلى عن تأثيره على «والده» وهلمجرا. لم يستطع آل دستويڤسكى الشباب الدفاع عنى، أما الكبار منهم فقد علت ضحكاتهم، واقتصر دفاعهم عنى على هذا الضحك.

وحتى لا يتخلى عن تأثيره على «والده» ضدى، كان باڤل ألكسندروڤيتش يدخل كل صباح تقريبًا إلى غرفة مكتب فيودور ميخايلوڤيتش عندما يشرع فى قراءة صحيفة. كان يحدث أحيانًا أن يسمع على الفور صياح فيودور ميخايلوڤيتش، فيخرج باڤل ألكسندروڤيتش من الغرفة، مرتبكًا قليلاً قائلاً، إن «الوالد» مشغول وأنه لا يريد أن يضايقه أحد. وفى أحيان أخرى كان يجلس لديه طويلاً، ثم يعود بوجه منتصر

وعندئذ يبدأ على الفور فى إلقاء أوامر ما على فيدوسيا التى ملأها الرعب. وبعد هذه المناقشات كان فيودور ميخايلوڤيتش يقول لى: «كفاك شجارًا مع پاشا، لاتغضبيه، إنه شاب طيب!» وعندما سألته كيف أغضبت «پاشا» ومم كان يشكو، أجاب فيودور ميخايلوڤيتش قائلاً: «إنها تلك التفاهات التى إذا استمع المرء لها أحس بالخجل»، وأنه يرجونى أن أتسامح مع «پاشا».

أحيانًا ما كان البعض يسألنى، هل صحيح أننى أستمع كل يوم إلى سفالات ووقاحات پاڤل ألكسندروڤيتش، وأرى معاملته الفظة تجاهى، وأعلم أنه يكيل لى الافتراءات والوشايات عند فيودور ميخايلوڤيتش، ومع ذلك فإننى ألتزم الصمت تمامًا ولا أستطيع أن أوقفه عند حده؟ نعم، كنت أصمت ولا أستطيع فعل شىء! يجب ألا ننسى أننى كنت قد تخطيت آنذاك أعوامى العشرين بقليل، ولكننى كنت طفلة تمامًا قياسًا بخبرتى بالحياة. كنت قد قضيت سنواتى القليلة من العمر فى أسرة طيبة متحابة، لم تكن تعانى من أية مشكلات وليس بين أفرادها أى صراع من أى نوع. ولهذا كانت تصرفات پاڤل ألكسندروڤيتش المنحرفة تصيبنى بالدهشة، كانت تغضبنى وتحزننى، ولكننى، فى البداية، لم أكن أستطيع أن أفعل أى شىء لتلافيها، وكنت أظن أنه سوف يمل من مضايقتى، وأنه سوف يدرك سوء معاملته لى، وإذا لم يفهم بنفسه فسوف ينبهه إلى ذلك أقارب فيودور ميخايلوڤيتش.

وهكذا مرت الأسابيع الأولى من زواجنا فى هذه الظروف السيئة التى تمثلت فى وقاحة پاڤل ألكسندروڤيتش وسفالته وفى تعليمات إميليا فيدوروفنا، والوجود الدائم الممل لأناس يفتقدون إلى الكياسة، كانوا يحولون بينى وبين زوجى؛ بالإضافة إلى القلق الدائم بسبب أحوالنا المضطربة، ناهيك عن هذا الشعور بالاغتراب، كما بدا لى، بينى وبين فيودور ميخايلوڤيتش، بسبب ظروف حياتنا. كل ذلك كان يرهقنى ويعذبنى بشدة، وكنت أسأل نفسى: متى ينتهى كل ذلك؟ عندما أتذكر طبيعتى آنذاك، أرى أن الأمر كان من الممكن أن ينتهى بكارثة. الحقيقة أننى كنت أحب فيودور ميخايلوڤيتش حبًا لا حدود له، ولكنه لم يكن حبًا جسديًا، لم يكن شهوة، مثل تلك التى يمكن أن

توجد لدى هؤلاء الناس الذين هم فى مثل سنى. كان حبى عقليًا خالصًا، مثاليًا، كان على الأصح عبادة، انحناء أمام إنسان موهوب إلى أبعد حد، إنسان يمتلك هذه الخصال النفسية الرفيعة، كانت روحى تتملكها الشفقة نحو هذا الرجل الذى عانى الكثير ولم يعرف السعادة والسرور قط، الرجل الذى أهمله أقرباؤه، الذين كانوا ملزمين أن يولوه حبهم ورعايتهم لقاء ما قدمه لهم طوال حياته. لقد استولى على خيالى حلم أن أكون رفيقة حياته، أن أشاركه أعماله، أن أخفف من وطأة الحياة عليه وأن أهبه السعادة. لقد أصبح فيودور ميخايلوفيتش هو إلهى ومعبودى، وقد كنت على استعداد أن أجثو على ركبتى أمامه طوال العمر. لكن كل ذلك لم يكن سوى مشاعر سامية وأحلام كان من الممكن أن يحطمها الواقع القاسى الذى حل بنا. لقد حل بى شيئًا فشيئًا زمن الشك وسوء الفهم بفضل تلك الظروف التى أحاطت بى. لقد أحببته حقًا بحرارة، على أن كبريائى لم يكن ليسمح أن أبقى معه لو تأكد لى أنه لم يعد يحبنى، بل لقد تصورت أيضًا أن علىّ أن أضحى من أجله، أن أتركه ما دامت حياتنا معًا، كما يبدو، صعبة عليه».

تارة كنت أعرب بحزن مفعم بالإخلاص عن سخطى على فيودور ميخايلوفيتش، فلماذا، وهو «الخبير العظيم بالقلوب» لا يرى مدى العذاب الذى أعانيه، ولماذا لا يحاول أن يخفف من هذا العذاب، بدلاً من أن يفرض علىّ أقاربه المملين ويدافع عن باقل ألكسندروفيتش الذى يتعامل معى بكراهية سافرة.

وتارة كنت أشعر بالحزن على هذه الأمسيات الرائعة الفاتنة التى قضيناها معًا قبيل زواجنا، ولأن هذه الحياة السعيدة التى حلمنا بها لم تتحقق، ويبدو أنها لن تتحقق.

أحيانًا كنت أشعر بالندم على أيامى الخوالى المليئة بالسكينة فى بيت أسرتى، عندما لم يكن هناك أسى يعكر صفو حياتى، ولم يتسن لى أن أعرف الحزن أو القلق. خلاصة القول: آنذاك لم يكن يهزنى سوى العديد من مشاعر الخوف الطفولى والأحزان الساذجة والشكوك التى لا تفسير لها، والتى كانت تراود عقلى البكر. لم تكن لدىّ آراء صحيحة عن الحياة، ولم تكن شخصيتى قد استقامت بعد، وكان هذا ينذر بوقوع كارثة.

كان من الممكن ألا أتحمل تلك السخافات المنزلية، أن أغضب وأن أثور على فيودور ميخايلوڤيتش مستندة إلى حجج وشكوك واهية، وأن أثير غضبه. كان من الممكن أن يقع بيننا نزاع حقيقى أتركه بعده حفاظًا على كرامتى. جدير بالذكر أننى كنت أنتمى إلى جيل الستينيات، وكنت مثلى مثل جميع النساء آنذاك أضع الاستقلال فوق كل شىء. ولم أكن لأقدر على الأرجح على اتخاذ خطوة للتصالح، على الرغم من كل حبى لفيودور ميخايلوڤيتش. كنت لا أزال معجبة بنفسى على نحو طفولى، ولم أكن أحب أن أتحمل سخرية باڤل ألكسندروڤيتش على خطأ ارتكبته. ولعل فيودور ميخايلوڤيتش لم يكن يحب أن يتخذ الخطوة الأولى فى مصالحتى، لكنه كان يحبنى آنذاك بنفس القوة التى ظل يحبنى بها بعد ذلك. لعل كبرياءه الجريحة وعزة نفسه؛ فضلاً عن افتراءات باڤل ألكسندروڤيتش كانت من الممكن أن تمنعه عن المصالحة. كان من الممكن، بطبيعة الحال، أن يتصاعد سوء الفهم بيننا، وأن يصبح الصلح أمرًا مستحيلاً. وعندما أعود بذاكرتى إلى هذه الحقبة من الزمن، أفكر والخوف يخيم على قلبى، ترى ما الذى كان يمكن أن يحدث آنذاك، ففيودور ميخايلوڤيتش لم يكن باستطاعته أن يطلقنى، فالطلاق فى هذا الزمن كان من شأنه أن يكلفه أموالاً باهظة. ولو حدث لما استطاع أن يبنى مستقبله، ولا أن تكون لديه أسرة وأطفال كما كان يحلم طوال حياته، ولأصبحت حياتى أنا أيضًا تعيسة. كل آمالى فى السعادة كانت معقودة على الاتحاد بفيودور ميخايلوڤيتش، وكم من المرارة كنت سأتجرعها لو أن هذا الحلم الذهبى لم يتحقق!

(٤)

الخـــــــــلاص

لم يشأ القدر أن يحرمنى أنا وفيودور ميخايلوڤيتش هذه السعادة الكبيرة على مدى الأربعة عشر عامًا التالية. ما زلت أذكر هذا اليوم، الثلاثاء، من الأسبوع الخامس من أيام الصوم الكبير، عندما وقع هذا التحول الكبير بالنسبة إلىَّ على غير انتظار ليأخذ حياتى

فى اتجاه آخر مبشر بالخير. بدأ هذا اليوم بالمنغصات المعتادة، فقد تم اكتشاف خلل ما فى أسلوب إدارتى للبيت، جرى الترتيب لحدوثه بخبث بالغ على يد باقل ألكسندروڤيتش (اختفت الأقلام الرصاص وعلب الثقاب تمامًا من كل أنحاء البيت) فأثار ذلك غضب فيودور ميخايلوڤيتش الذى راح يصرخ فى فيدوسيا المسكينة. وفى اليوم نفسه حضر إلينا الضيوف الثقلاء وكان لزامًا علىّ أن «أضايفهم» و «أسليهم»؛ وكالمعتاد وجَّه إلىّ باقل ألكسندروڤيتش بعضًا من صغائره، بينما كان فيودور ميخايلوڤيتش غارقًا فى التفكير مكتئبًا ولم يبادلنى الحديث إطلاقًا مما أحزننى بشدة.

وفى مساء ذات اليوم دعانا مايكوف لقضاء السهرة فى بيته. ولما عرف الضيوف بذلك سارعوا بمغادرة البيت بعد الغداء مباشرة. على أننى وبسبب ما لحق بى من أذى، ظللت طوال اليوم أعانى من صداع شديد، وكانت أعصابى متوترة إلى حد أننى خشيت أن أنفجر فى البكاء إذا ما تطرق الحديث فى بيت مايكوف إلى حياتنا العائلية، ومن ثم فقد قررت أن أبقى فى البيت. حاول فيودور ميخايلوڤيتش إقناعى بالذهاب ويبدو أنه لم يكن راضيًا بسبب رفضى. وما إن غادر فيودور ميخايلوڤيتش البيت حتى انشقت الأرض عن باقل ألكسندروڤيتش الذى راح يلقى باللوم علىَّ معتبرًا أننى أثير اضطراب «والده» بأفعالى الطائشة، وأنه لا يصدق أننى أعانى من الصداع وإنما فعلت ذلك بهدف إثارة غضب فيودور ميخايلوڤيتش، وقال إن «والده» قد ارتكب «حماقة هائلة» عندما تزوجنى، وأننى «ربة بيت» سيئة، وأننى أسرف فى إنفاق «أموالنا المشتركة». وفى الختام أعلن أنه لاحظ أن نوبات الصرع قد زادت عند فيودور ميخايلوڤيتش على مدى زواجنا وأننى المسؤولة عن ذلك، ثم راح يكيل لى الافتراءات، ثم اندفع بعدها مباشرة مغادرًا البيت.

كانت الوقاحة فى هذه المرة هى القشة التى قصمت ظهر البعير. لم يسبق له إطلاقًا أن أهاننى على هذا النحو من القسوة بعد أن ألصق بى حتى تهمة اشتداد وطأة المرض على زوجى، وقد أشعرنى ذلك بالإهانة والحزن إلى أقصى درجة. ازدادت آلام رأسى فارتميت على فراشى ورحت فى بكاء مرير. مرت، ربما، حوالى ساعة ونصف وإذا

بفيودور ميخايلوڤيتش يعود إلى البيت. يبدو أنه، بعد أن أمضى بعض الوقت لدى مايكوف شعر بالقلق تجاهى فعاد مسرعًا. وعندما لاحظ أن البيت معتم سأل فيدوسيا عنى، فأخبرته سرًا أننى فى فراشى أبكى!

انزعج فيودور ميخايلوڤيتش وسألنى ما بى؟ أردت أن أخفى عليه ما حدث، لكنه راح يستعطفنى ويتحدث معى بود شديد حتى لان قلبى فرحت أقص عليه ما حدث وأنا أبكى وأنتحب، حدثته عن صعوبة الحياة وكيف يهينوننى هنا فى بيته، قلت له إننى أشعر أنه لم يعد يحبنى، وأنه لم يعد يشاورنى فى أموره كما كان يفعل من قبل، ووصفت له شعورى بالحزن والمعاناة من كل ذلك وهلمجرا. نادرًا ما بكيت على هذا النحو وكلما هدَّأ فيودور ميخايلوڤيتش من روعى، انهمرت دموعى على نحو أشد. أفضت له فى الحديث عن كل ما أثقل قلبى وأعربت له عن شكوكى وحيرتى بكل صراحة. راح زوجى المسكين يستمع إلىّ وهو ينظر إلىّ بذهول بالغ، وعندما رأى الوقاحة المتناهية لباڤل ألكسندروڤيتش تجاهى، لم ينتَبْه أى شك فى إمكانية قيامه بإهانتى على هذا النحو. لامنى فيودور ميخايلوڤيتش بشكل ودى لأننى لم أكن صريحة معه ولم أشتكِ له ربيبه، ولأنى لم أتخذ موقفًا حازمًا تجاهه حتى لايجرؤ على توجيه أى إهانة لى بعد ذلك. أكد لى حبه الشديد وتعجب كيف تسنى لى أن أفكر أنه كفّ عن حبى. وأخيرًا اعترف لى بدوره أن حياتنا المضطربة الآن شديدة الصعوبة، وأن أقاربه الشباب كانوا نادرًا ما يزورونه إذ إنهم كانوا يشعرون لديه بالكآبة؛ أما الآن فإنه يفسر زياراتهم المتكررة بحسن معاملتى لهم وأنهم يشعرون لدينا بالفرح والسرور، وأنه كان يظن أن مجتمع الشباب بأحاديثهم المرحة وجدلهم سوف يكون أمرًا شيقًا بالنسبة إلىَّ. وقال لى فيودور ميخايلوڤيتش أنه متشوق هو أيضًا إلى أحاديثنا السابقة وأنه آسف لأننا لم نعد نعقد هذه الأحاديث بسبب الضيوف الدائمين.

وقال لى أيضًا إنه كان مشغولاً فى الأيام الأخيرة بفكرة السفر إلى موسكو، والآن، وبعد حديثنا هذا، قرر تنفيذها بشكل نهائى. وعقّب قائلاً: «سنذهب معًا بطبيعة الحال، أود أن أعرفك على أقاربى فى موسكو. ڤيروتشكا (أختى) وسونيا (ابنة أختى) اللتان تعرفانك من حديثى لهما عنك، كما أود أن تعرفيهم وأن تبادليهم حبًا بحب. بالإضافة

إلى ذلك فقد خطرت لى فكرة أن أطلب من كاتكوف قرضًا يمكِّننا من السفر معًا إلى الخارج. هل تذكرين. كان هذا ما حلمنا به معًا! والآن، ترى هل سيتحقق هذا الحلم؟ وبالإضافة إلى ذلك فقد أردت أن أتحدث مع كاتكوف بشأن روايتى الجديدة. من الصعب أن نتباحث من خلال الرسائل حول هذا الموضوع، الأفضل أن أطرحه عليه عند لقائى به شخصيًا. أما إذا لم ننجح فى السفر للخارج، فسوف يكون من السهل علينا على أية حال، أن نضع نظامًا جديدًا لحياتنا بعد عودتنا من موسكو، بحيث لا يسمح بوجود ما يعكر صفونا. إذن، إلى موسكو! موافقة يا عزيزتى أنتيتشكا؟

لم تكن هناك حاجة إلى السؤال عن موافقتى. كان فيودور ميخايلوفيتش رقيقًا، طيبًا، ودودًا كعهده أيام الخطوبة، وتبدَّدت كل مخاوفى وشكوكى فى حبه كما يتبدد الدخان. والآن تسنى لنا أن نقضى المساء بطوله وحدنا فى حديث ودى حميمى كما لو كنا نلتقى للمرة الأولى بعد زواجنا. وقررنا ألا نؤجل سفرنا وأن نرحل غدًا على الفور.

وفى اليوم التالى قوبل خبر سفرنا بكثير من الامتعاض من جانب الأقارب، وبخاصة باڤل ألكسندروڤيتش. ولكن، لمّا كانوا يعرفون أن نقود فيودور ميخايلوڤيتش أوشكت على النفاد، فقد افترضوا أنه ذاهب إلى هناك من أجل المال، ومن ثم لم يحاولوا أن يثنونا عن عزمنا. عندما حانت لحظة الوداع لم يبخل علىَ باڤل ألكسندروڤيتش ببعض كلماته اللاذعة معلنا أنه «سوف يتولى بنفسه شؤون البيت المُهملة، وأنه سوف يديرها على أفضل ما يكون». لم أغضب ولم أعترض، كنت فى غاية السعادة أن أتيحت لى الفرصة ولو مؤقتًا أن أتخلص من ملاحقاته.

شهر العسل
(٥)
السفر إلى موسكو

وصلنا إلى موسكو فى الصباح الباكر من يوم الخميس من الأسبوع الخامس من أيام الصيام الكبير ونزلنا فى فندق ديوسو، الفندق المفضل لفيودور ميخايلوڤيتش،

وحيث إننا كنا مرهقين من السفر فقد قررنا ألا نقوم بأى عمل وأن نكتفى بالذهاب لزيارة آل إيڤانوڤ. كانت هذه الزيارة تبعث فى نفسى الخوف، إذ كان فيودور ميخايلوڤيتش يكن لأخته ڤيرا ميخايلوڤنا إيڤانوڤنا ولأسرتها حبًا خاصًا من بين أقاربه جميعًا. وقد أخبرنى ونحن ما نزال فى بطرسبورج أنه سوف يكون سعيدًا إذا ما أعجب بى آل إيڤانوڤ وانعقدت بينى وبينهم أواصر الصداقة. كان ذلك تمامًا ما كنت أود أن يحدث، ولكنى كنت أتوجس خيفة ألا يكون الانطباع الأول من جانبهم لصالحى. سعيت أن أرتدى أزهى ملابسى فاخترت ثوبًا أنيقًا بلون البنفسج الفاتح. كان فيودور ميخايلوڤيتش معجبًا بزينتى وأكد لى أننى اليوم أبدو رائعة الجمال، كان ثناءً مبالغًا فيه بالطبع، لكنه أعجبنى وأثار فى نفسى الحماس.

كان آل إيڤانوڤ يعيشون فى معهد تخطيط الأراضى، وحتى نصل إليهم كان علينا أن نقطع المدينة من طرفها إلى طرفها الآخر، بداية بشارع مياسنيتسكايا ثم بوكروفكا، مارين بالقرب من كنيسة العذراء (فى بوكروفكا) وهنا قال فيودور ميخايلوڤيتش إننا فى المرة القادمة، سوف نغادر العربة ونقف غير بعيد عنها لنتأملها كاملة. كان فيودور ميخايلوڤيتش يقدر عمارة هذه الكنيسة تقديرًا رفيعًا. وعندما يأتى إلى موسكو كان يأتى حتمًا لزيارتها، وبعد يومين تقريبًا، وكنا مارين بالقرب منها، ذهبنا لرؤيتها من الخارج ودخلنا لنشاهدها أيضًا من الداخل.

كلما اقتربنا من بيت آل إيڤانوڤ، ازداد شعورى بالقلق. كنت أسأل نفسى وقد تملكنى الخوف: «ماذا لو أننى تركت لديهم انطباعًا سيئًا، ألن يثير ذلك حزن فيودور ميخايلوڤيتش!»

أخبرتنا الخادمة، بعد أن فتحت لنا الباب، أن ألكسندر باڤلوڤيتش، (زوج الأخت) وصوفيا ألكسندروڤنا (ابنة الأخت) ليسا بالمنزل، وسوف تخبر ڤيرا ميخايلوڤنا بحضورنا.

دخلنا إلى صالة فسيحة مفروشة بأثاث عتيق من خشب الماهوجنى. تناول فيودور ميخايلوڤيتش صحيفة «وقائع موسكو» من على الطاولة، بينما رحت أتصفح ألبومًا

وضع على نفس الطاولة يضم صورًا. انتظرنا خروج ڤيرا ميخايلوڤنا طويلاً. لعلها رأت أن من غير المناسب الخروج لمقابلة قريبة لا تعرفها بملابس البيت ومن ثم راحت تستبدل ملابسها، الأمر الذى استغرق وقتًا طويلاً. مرت حوالى نصف ساعة إلى أن فتح الباب المؤدى إلى الصالة فجأة بصوت مرتفع واندفع عبر الغرفة طفل يبلغ من العمر حوالى عشر سنوات محدثًا جلبة.

صاح فيودور ميخايلوڤيتش: ڤيتيا، ڤيتيا!، لكن الطفل لم يتوقف وإنما هرع إلى الغرفة الثانية صائحًا: شابة، مهندمة لا تضع نظارات!

ارتفعت بعض الهمهمة ثم صمت الصبى. وعلى الفور أدرك فيودور ميخايلوڤيتش، الذى يعرف عادات الأسرة، ما وراء ذلك. فابتسم قائلاً: لم يطيقوا صبرًا! أرسلوا ڤيتيا لينظر ويخبرهم كيف تبدو زوجتى.

وأخيرًا خرجت إلينا ڤيرا ميخايلوڤنا وقد تعاملت معى بكثير من الود. وبعد أن عانقتنى وقبّلتنى رجتنى أن أحب أخاها وأن أحيطه بالرعاية والاهتمام، ثم ما لبث أن خرج إلينا زوجها وابنتها الكبرى سونيتشكا. هنأنا ألكسندر باڤلوڤيتش بعبارات رسمية متمنيًا لنا السعادة. مدت سونيتشكا يدها إلىّ، ابتسمت ابتسامة لطيفة ولكنها التزمت الصمت وراحت تتأملنى بشدة.

فتح ألكسندر باڤلوڤيتش باب الغرفة المجاورة وقال:

تعالوا يا أطفال لتهنِّئوا عمكم وتتعرفوا على عمتكم الجديدة. بدأ آل إيڤانوڤ من الشباب يدخلون الواحد وراء الآخر. كانوا سبعة: سونيتشكا (٢٠ عامًا)، ماشينكا (١٩)، ساشا (١٧)، يولينكا (١٥)، ڤيتيا وأطفالاً آخرين. توجهوا جميعًا بالتحية الحارة إلى فيودور ميخايلوڤيتش، ولكنهم عاملونى بجفاء. انحنوا مُسلِّمين، جلسوا، ثم راحو ينظرون إلىَّ بكل اهتمام. وعلى الفور أدركت بغريزتى أن الشباب يتخذ موقفًا معاديًا منى، لم يخب ظنى كما تبين لى بعد ذلك. لقد شكلوا ضدى حلفًا. كان آل إيڤانوڤ يحبون عمتهم لأبيهم. يلينا باڤلوڤنا،حبًا شديدًا، ولمّا كان زوجها مريضًا لسنوات طويلة دون

أمل فى الشفاء، فقد قررت الأسرة أن تتزوج يلينا باڤلوڤنا من فيودور ميخايلوڤيتش فور وفاة زوجها وأن يعيشا معًا إلى الأبد فى موسكو. لم يكن من العجيب إذن أن هؤلاء الشباب قد نفروا منى باعتبار أننى أنا التى أفسدت عليهم. حلمهم المكنون. وكذلك لم يسرهم إسرافه فى مديحى عندما كان فى زيارتهم فى موسكو إبان أعياد الميلاد، وعندما علموا أننى أعمل بالاختزال، قرروا أننى بلا شك عجوز، عدمية ذات شعر قصير وأضع نظارات، وما إن علموا بوصولنا حتى اتفقوا على السخرية منى وأن يحاصرونى وبذلك يثبتون استقلاليتهم. وعندما لم يروا أمامهم عجوزًا، أو مختزلة عالمة «عدمية»، وإنما رأوا بدلاً من ذلك امرأة شابة، بل صبية تقريبًا، معتدة بنفسها، اندهشوا ولم يخفضوا بصرهم عنى. وقد أربكنى هذا الاهتمام الفائق. وبعد أن كنت قد اعتدت التحدث ببساطة دون تنميق، أصبحت الآن أتحدث بلغة فصحى، مستخدمة عبارات جميلة، ومن ثم افتقد حديثى إلى اللغة العادية المألوفة، حاولت أن أشارك قريباتى حديثهن، لكنهن كن يجبن باقتضاب، وكان واضحًا أنهن لا يردن مواصلة الحديث.

فى الساعة الخامسة جلسنا لتناول الغداء. قدموا لنا الشمبانيا وراحوا يهنئوننا. عمَّ المكان الضجيج، لكننى لم أكن أشعر بالبهجة، على الرغم من أننى حاولت أن أكون منتعشة وكنت ألقى بالدعابات وأضحك. أما بعد الغداء فقد سارت أمورى على نحو أكثر سوءًا، فقد حضر إلى منزل آل إيڤانوف عدد من الرفاق والصديقات. معظمهم كان يحب فيودور ميخايلوڤيتش الذى قضى الصيف الماضى فى ضاحية ليوبلينا بالقرب من موسكو، فى المنزل الصيفى الذى يمتلكه آل إيڤانوف (٤٢)(*)، حيث عاش هؤلاء الشباب من أصدقاء آل إيڤانوف فى ضيافتهم، وجميعهم كانوا يودون رؤية زوجة فيودور ميخايلوڤيتش. نظموا Petits –Juex،(**)، شديدة التعقيد، تحتاج إلى ذكاء وقوة ملاحظة. كانت ماريا سيرجييڤنا إيڤانتشينا ـ بيساريڤا، صديقة بنات ڤيرا ميخايلوڤنا،

(*) عن هذه الفترة تفصيلاً انظر إلى ترجمتنا لمقال إيجور ڤولجين «اختفاء دستويڤسكى»، المنشور بمجلة «ضاد» التى يصدرها اتحاد كتاب مصر، العدد الرابع، السنة الأولى، يوليو ٢٠٠٦، ص ٦٣ ــ ٧٠ (المترجم).
(**) Petits –Juex ألعاب صغيرة (بالفرنسية).

تتميز بذكاء شديد فى هـــذا المجال، كانت فتاة تبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، لا تتميز بالجمال، وإنما بالذكاء والحيوية، لمّاحة، على استعداد دائمًا لدفع الناس إلى الضحك. (وصف فيودور ميخايلوڤيتش عائلة إيڤانوڤ فى رواية «الزوج الأبدى»، تحت اسم «آل زاخليبين». وتظهر ماريا سيرجييڤنا إيڤانتشينا بشكل بارز فى شخصية الصديقة الذكية «ماريا نيكيتيشنا»).

وقد فوضها الشباب مهمة إخراجى عن وقارى ووضعى فى موقف مثير للضحك أمام زوجى. بدؤوا اللعب. كان على كل لاعب أن يشكل (بالكلمات بطبيعة الحال) باقة تصف مواقف مختلفة من مواقف الحياة: العجوز ــ فى عيد ميلاده الثمانين، الآنسة ــ فى أول حفل لها. كان علىّ أن أشكل باقة من كلمات عن أزهار الحقول، لم أذكر سوى زهرة الخشخاش والعنبر وسن الأسد وغيرها، ولهذا رفض الجميع بالإجماع، وهم على حق، باقتى.

اقترحوا علىّ أن أكوِّن باقة أخرى، ولكننى شعرت أن التوفيق لن يحالفنى فرفضت بقولى:

لا داع، اسمحوا لى بالانسحاب! ابتسمت وأضفت: أرى أنه ليست لدىّ أى مهارة. ليس لدينا شك فى ذلك، هكذا أجابت ماريا سيرجييڤنا، لقد أثبتِّ ذلك بشكل رائع منذ زمن طويل!

وفى أثناء ذلك نظرت نظرة ذات مغزى إلى الجهة التى كان يجلس فيها إلى جوارى فيودور ميخايلوڤيتش، الذى كان يستمع إلى الألعاب الصغيرة. قالت هذه الكلمات بطريقة لاذعة وفى الوقت نفسه بذكاء شديد، الأمر الذى جعل الجميع دون استثناء، بما فيهم أنا وفيودور ميخايلوڤيتش، ينفجرون فى الضحك. أذاب الضحك العام جليد النفور وانتهت السهرة فى جو من السرور أفضل مما بدأت عليه.

فى طريق عودتنا للبيت، سألنى فيودور ميخايلوڤيتش عن انطباعاتى. قلت له إن ڤيرا ميخايلوڤنا وسونيتشكا أعجبانى للغاية، أما باقى أفراد العائلة فإننى لم أتعرف عليهم بعد. وعندما رأى فيودور ميخايلوڤيتش الحزن مرتسمًا على وجهى قال لى مواسيًا:

عزيزتى آنيا، لقد مزقوك إربًا يا مسكينة! لكنك أنت المذنبة، كان عليك أن تدرئى عنك ضرباتهم، عندئذ كانوا سيلجمون ألسنتهم عنك! يجب أن تكونى أكثر شجاعة يا صديقتى! لقد أعجبت بك أختى وكذلك سونيتشكا، كما كنت متألقة طوال اليوم حتى أننى لم أستطع إلا أن أظل أحملق فيك!

هدأت هذه الكلمات من روعى كثيرًا، على أننى على أية حال لم أستطع الخلود إلى النوم فى تلك الليلة، فتارة رحت ألوم نفسى لعدم قدرتى على التواؤم مع الحياة، وتارة كنت أفكر لماذا عاملنى هؤلاء الشباب والشابات على لطفهم ورقتهم بمثل هذا العداء. بخصوص خيبة أملهم فى الجمع بين عمهم المحبوب وعمتهم المحبوبة بسببى فقد عرفت ذلك فيما بعد.

اعتاد آل إيڤانوف دعوتنا لزيارتهم لقضاء اليوم بطوله، لكننا قررنا زيارتهم فى اليوم التالى، الجمعة، فى المساء فقط. توجه فيودور ميخايلوڤيتش ظهرًا إلى كاتكوف، ولكنه لم يجده فى البيت. تناولنا طعام الغداء معًا فى الفندق ثم توجهنا إلى آل إيڤانوف. كان الجمعة هو اليوم المحدد لاستقبال الضيوف، ومن ثم كان المنزل يغص بهم. انقسم الحضور إلى جماعات، فالكبار احتلوا غرفة الاستقبال والمكتب وجلسوا يلعبون الورق، بينما بقى الشباب، وكنت بينهم. فى الصالة، حيث راحوا يلعبون لعبة مثيرة من ألعاب الورق الحديثة. جلس إلى جوارى أحد الرفاق من الشباب هو ساشا إيڤانوف. وعندما وجدت أنه لايشارك الآخرين تحاملهم علىّ رحت أثرثر معه وأنا أضحك، وبخاصة أنه بدا شابًا ذكيًا مرحًا.

فى أثناء لعب الورق وقع حادث مضحك. فى الستينيات لم تكن العملات الفضية منتشرة، وإنما كان التعامل يتم أكثر بالعملات النحاسية. أرسل آل إيڤانوف من يستبدل عشرة أو اثنى عشر روبلاً، وقد حصلوا فى المقابل على كمية ثقيلة من العملات من فئة الخمسة كوبيكات. من بين اللاعبين كانت هناك سيدة شابة تبلغ من العمر أربعين عامًا، ترتدى ثوبًا من قماش رقيق بلون وردى فاتح ذا عقد على الرأس والأكتاف والصدر.

بعد عدد من الأدوار بدأت تشتكى من الخسائر، كما اشتكى أيضًا آخرون، أما نحن فقد بقينا طويلًا عاجزين عن أن نخمن من منا الذى كسب؟ وفى الساعة الحادية عشرة دعونا لتناول طعام العشاء. قمنا من مقاعدنا وفجأة إذا بنا نسمع صوت رنين العملات وهى تتساقط على الأرض، ثم صراخ صاحبة الثوب الوردى: بداهة فإن جيبها لم يتحمل ثقل النقود. اندفعنا نلتقط النقود التى راحت تتناثر على الأرض هنا وهناك، وهنا انحنت السيدة الشابة على الأرض، بعد أن ضمت ثوبها الواسع على ما كسبته ثم صرخت:

ـ لا، لا، لا تمسوها! أنا سأجمعها بنفسى!

كان مظهرها مضحكًا للغاية، رعبها من أن نأخذ لأنفسنا هذه العملات، كان أمرًا سخيفًا حتى أننا رحنا نضحك من قلوبنا، وكنت أنا، على ما أظن، أكثرهم ضحكًا.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يلعب الورق فى غرفة المكتب، وكان يخرج بين الحين والآخر ليلقى بنظرة علينا، وقد خيل لى أنه أصبح أكثر جدية وحزنًا، وقد عزوت ذلك للإرهاق. تناولت عشائى وقد جلس إلى جوارى شريكى فى لعب الورق، بينما جلس فيودور ميخايلوڤيتش قبالتنا وظل ينظر إلىّ دون أن يحول بصره عنى وكان يحاول أن ينصت لحديثنا. كنت فى حالة من المرح والسرور البالغ. تبادلت الحديث عدة مرات مع زوجى محاولة إشراكه فى حديثنا لكننى لم أنجح فى ذلك.

غادرنا المكان بعد العشاء مباشرة إلى بيتنا. التزم فيودور ميخايلوڤيتش الصمت طوال الطريق الطويل ولم يجب عن أسئلتى، وبعد أن وصلنا إلى شقتنا، راح يذرع الغرفة ذهابا وجيئة وكان من الواضح أن شيئًا ما يقلقه بشدة. أزعجنى الأمر فاقتربت منه ورحت ألاطفه وأسرى عنه. أعرض فيودور ميخايلوڤيتش بجانبه وأشاح يدى عنه ونظر إلىّ نظرة تخلو من الطيبة وتمتلئ بالقسوة والغضب، هذه النظرة التى جمدّت الدم فى عروقى.

سألته فى وجل:

ـ فيديا، هل أنت غاضب منى؟ ما الذى أغضبك؟

عنـــدما ألقيت عليه هذا السؤال، ثارت ثورته وأغلظ لى فى القول. ومن بين ما قاله أننى كنت لعـوبًا لا إحساس لديها، وأننى قضيت المساء كله أتصرف بدلال مع جارى بهدف تعذيب زوجى. رحت أختلق الأعذار وأسوق المبرْرات، لكن هذا كان كمن يصب الزيت على النار. اشتاط فيودور ميخايلوڤيتش غضبًا وراح يصيح بأعلى صوته، وقد نسى تماما أننا فى فنــدق. أحسست بالإهـــانة لما تعرضــت له من ظلــم فـادح، لمعرفتى بأن هذه الاتهامات محض افتراءات طائشة لا أساس لها. أخافنى صراخه والتعبيرات التى ارتسمت على وجهــه، وخُيل لـى أن فيودور ميخايلوڤيتش سوف يصاب الآن بنوبة من نوبات الصرع، أو أنه سيقتلنى. فجأة يثوب فيودور ميخايلوڤيتش إلى رشده ويروح يهدئ من روعى ويطلب منى العفـو. أخذ يقبل يدىَّ ويبكى وهو يسب نفسه على المشهد الذى حدث، ثم قال:

لقد عانيت بشدة طوال الليل، وأنا أراك مبتهجة بالحديث مع هذا الشاب. خيل إلىّ أنك قد وقعت فى حبه، وقد شعرت بالغيرة تحتدم فى نفسى تجاهه وكنت على استعداد أن أوجِّه أقذع الشتائم والآن أرى كم كنت ظالمًا!

كـــان فيودور ميخايلوڤيتش مخلصًا فى ندمــه ورجانى أن أنسى إساءاته ووعدنى ألا يقع فى براثن الغيرة بعد ذلك إطلاقًا. كان الألم الشديد يكسو وجهه. أصبحت أشعر بالأسى العميق تجاه زوجى المسكين، فقضيت ما تبقى من الليل جالسة إلى جواره أواسيه وأهدئ خاطره. وضع صليل أجراس الكنيسة معلنًا الساعة الأولى من الصباح حدًا لنقاشنا. خلدنا للنوم، ولكننا لم نستطع النوم قبل مرور وقت طويل.

استيقظت فى الساعة الواحدة ظهر اليوم التالى. كان فيودور ميخايلوڤيتش قد استيقظ قبلى وظل جالسًا ساعتين دون أن تصدر عنه أى جلبة مخافة أن يوقظنى. اشتكى بطريقة ساخرة أننى أوشكت أن أميته جوعًا، فقد كان خائفًا أن يوقظنى ومن ثم لم يرن الجرس ولم يطلب لنفسه قهوة. كان شديد الرقة آنذاك فى معاملته لى.

لقد ترك هذا المشهد الليلى انطباعًا عميقًا فى نفسى إلى الأبد، مما دفعنى أن أطيل التفكير فى النحو الذى ينبغى أن تكون عليه علاقتنا فى المستقبل. لقد أدركت مدى الألم

العميق الذى تتركه الغيرة على فيودور ميخايلوڤيتش. ومن يومها أخذت عهدًا على نفسى أن أحافظ على زوجى وأن أجنبه مثل هذه المؤثرات الثقيلة.

(٦)

زيارة إلى أخى

ما زلت أذكر جيدًا، إبان وجودنا الطويل فى موسكو، تلك الزيارة التى قمت بها إلى منطقة بتروفسكويه رازوموفسكويه، حيث يقيم أخى إيڤان جريجوريڤيتش(*) الطالب بأكاديمية بتروفسكايا الزراعية. كان أخى قد تجاوز السابعة عشرة من عمره بقليل، وسيمًا، متورد الوجه، ذا شعر أشقر متجعد، شديد الحياء مثل فتاة عذراء، طيبًا، ميالاً إلى المرح. كان يعد أصغر طالب فى الأكاديمية وكان محبوبا من الجميع.

ما إن وصلت إلى موسكو حتى كتبت إليه أطلب منه زيارتنا فى أى يوم يراه، على أن يكون مبكرًا فى الحادية عشرة صباحًا، فإذا لم يجدنا فإن عليه انتظارنا فى قاعة المطالعة بالفندق. تلقى أخى الخطاب يوم الجمعة وفى الساعة الحادية عشرة من اليوم التالى حضر إلينا. ولما عرف من عامل الفندق أننا لم نستيقظ بعد، ذهب ليعود مريضًا من أصدقائه، وإذ طالت زيارته له فقد عاد ليجدنا قد غادرنا المكان. ظن أخى أننا سرعان ما نعود فأخذ ينتظرنا حتى الغروب فى الفندق، وعند مغادرته ترك لنا خطابًا يخبرنا فيه أنه سيعود إلينا يوم الإثنين. كنا قد قررنا أنا وزوجى أن نسافر إلى بطرسبورج مساء الأحد إذا لم تنجح مساعينا لدى كاتكوف، وبهذا أكون قد خاطرت بالا أرى أخى. رحت أرجو فيودور ميخايلوڤيتش أن يسمح لى أن أقوم بنفسى بزيارة أخى، ومن ثم فقد استأجر لى حوذيًا ليوصلنى إلى أكاديمية بتروفسكايا وكتب له رقم المبنى. غادرت الفندق قرب الواحدة ظهرًا بعد أن وعدته أن أعود حوالى الرابعة ومعى أخى.

(*) سنيتكين، إيڤان جريجوريڤيتش (١٨٤٩ ــ ١٨٨٧): الأخ الأصغر لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا، أنهى أكاديمية بتروفسكايا الزراعية فى موسكو. (المترجم)

كنت فى حالة نفسية رائعة: كان فيودور ميخايلوفيتش طوال الصباح رقيقًا ودودًا معى للغاية؛ كان من الواضح أن خلافنا السابق قد مر دون أن يترك فى أعماقه أى انطباع كريه. كان الجو بديعًا رائقًا، وكان الطريق رائعًا وكنت أشعر بالسعادة لأننى سألتقى بأخى الحبيب.

كان يوم أحد، ولم يكن بالأكاديمية سوى قليل من الطلاب نسبيًا، هم فى الأغلب الطلاب الذين يقيمون بها بصفة دائمة. دلفت عبر مدخل رحب وسألت أول طالب قابلنى إن كان باستطاعتى أن أرى أخى، الطالب سينتكين. كان جميع من يعيشون فى الأكاديمية يعرفون أن أخت سنيتكين قد تزوجت قريبًا، ففى يوم زفافى، شارك أخى للمرة الأولى فى حياته فى حفل تبادل الجميع فيه الأنخاب، وظل يحتسى الخمر حتى سَكِر، وراح يبكى طوال السهرة بينما راح أصدقاؤه يهدئونه وهو يقول:

انتهى كل شىء بالطبع! لن تكون لى أخت بعد الآن. لقد ماتت، بالنسبة إلىّ!

على الفور قام الطالب بتوصيلى إلى غرفة أخى. استقبلنى ڤانيا(*) بفرح غامر حتى أنه بكى وهو يحتضننى. جلسنا نتحدث وما هى إلا خمس دقائق حتى جاء عامل الدور يحمل سماورًا وصينية وبراد الشاى وكوبين وفطائر فرنسية، وفى نفس اللحظة إذا بعامل آخر يحضر سماورًا آخر ومعه براد للقهوة ولبن وسكر. على هذا النحو تصرف رفاق أخى لاعتقادهم أن ضيفته الغالية لاشك وأنها ترتعد من البرد. كلٌّ أرسل إلى غرفة ڤانيا شيئًا مما لديه على مائدته.

شيئًا فشيئًا بدأ زملاء ڤانيا يتوافدون إليه (ومن بينهم بعض المعجبين بزوجى) على أمل أن يروا زوجة كاتبهم المفضل دستويفسكى. تجمع فى الغرفة ما يقرب من تسعة أشخاص، منهم من جلس على كرسى ومنهم من جلس على السرير أو على حافة النافذة.

(*) ڤانيا: اسم التدليل لإيڤان (المترجم).

قدمت لهم الشاى. وهنا سارع خادم الدور فى إحضار سماور ثالث، لعله شعر أن السماور الأول قد فترت مياهه. هذا العدد من السماورات على مائدتنا أثار ضحك الجميع وأتاح الفرصة أمام الطلاب لتبادل الحديث والدعابة بعد أن كانوا يشعرون بالخجل فى وجودى.

تطرق الحديث إلى الأدب، وهنا انقسم الطلاب إلى فريقين: محبى فيودور ميخايلوڤيتش وخصومه. أحد الخصوم راح يثبت بحماس أن دستويفسكى باختياره راسكولنيكوف بطلاً «للجريمة والعقاب» فقد ألقى بافتراءته على جيل الشباب، وإذا بالجدل بين الشباب يحتدم، عندما لم يوافق أحد على ما قاله هذا الطالب وراح كل من الحضور يدلى برأيه فى هذه المسألة. وفى سورة النقاش لم ينتبه أحد منا لمرور الوقت، وبدلاً من أن أقضى ساعة واحدة فى ضيافة أخى قضيت ما يزيد على ساعتين. تعجلت العودة وعلى الفور قام الشباب من الفريقين لتوصيلى حتى مدخل البناية. هيهات، لقد اختفى الحوذى الذى أحضرنى حتى دون أن أدفع له أجره.اندفع الطلاب كل فى اتجاه بحثًا عنه ثم عادوا ليخبرونى أن السائق انتظرنى ما يزيد عن ساعة ثم ذهب بأحد الأساتذة إلى المدينة.

ما العمل ؟ أحد الطلاب أخذ على عاتقه السير بنا عبر أقصر الطرق باتجاه بوتيركا حيث يمكن دائمًا العثور على حوذى. سرنا جماعة، لكن تبين، كما يحدث دائمًا، أن أقصر الطرق هو أطولها. اضطررنا للسير عبر ركام من الثلج ساخت أقدامنا فيه. راح الجميع يضحكون، بينما كان قلبى يقرصنى كلما خطر ببالى القلق الذى لابد أن يكون عليه الآن زوجى المسكين.

وصلنا أخيرًا بعد ساعة تقريبًا إلى بوتيركا لنبحث طويلاً عن حوذى. ثم ها نحن نصل، أنا وأخى، إلى فندق ديوسو فى السادسة والنصف. كان الظلام قد حل. أسرعت نحو المدخل وسألت البواب إن كان السيد فى الداخل؟ فأجاب:

إنهم يقفون عند تقاطع الطرق منذ ثلاث ساعات بأكملها، وقدتردَّدوا أكثر من مرة على الفندق يسألون إن كنت قد عدتِ أم لا.

خرجت إلى الطريق وشاهدت فيودور ميخايلوفيتش، الذى كان بالفعل يقف عند زاوية الشارع يحملق فى المارة. انتابنى الخوف وقد رأيت كم كان شاحبًا، قلقًا.

يا عزيزى فيديا، لقد عدت، هيا إلى البيت ـ نطقـت بهذه الكلمات وأنا أقترب منه.

فرح فيودور ميخايلوفيتش بشدة وأمسك بيدى وقد بدت على وجهه علامات من كان يائسًا أن يرانى ثانية. أخذته نحو مدخل الفندق وقدمت له أخى. أعترف أننى كنت خائفة للغاية من أن يصب فيودور ميخايلوفيتش جام غضبه على ڤانيا الذى لا ذنب له وأن ينهار حلمى أن يحب أخى، ولحسن الحظ لم يحدث ذلك: لقد عامله زوجى بمودة شديدة.

تناولنا غداءنا فى جو من البهجة. قصّ علىّ فيودور ميخايلوفيتش كل ما حدث له، أما أنا فوصفت له ضاحكة مغامراتى. ونظرًا إلى تأخر الوقت فقد انصرف أخى بعد الغداء مباشرة لنقضى أنا وزوجى معًا أمسية رائعة ذكرتنى بأمسياتنا المدهشة التى قضيناها قبل الزواج. سألته وقد خلت نفوسنا من كل كدر:

ـ حسنًا، قل لى بصراحة، هل راودتك الظنون أننى قد أكون قد هربت اليوم مع شخص ما؟

ـ إذن هـذه واحدة من اختراعاتك! أجاب فيودور ميخايلوفيتش، لكن عينيه نظرتا إلىّ معبرتين عن إحساس بالذنب، فأدركت عندئذ أن حدسى كان صحيحًا بعض الشىء.

(٧)

انطباعات موسكوڤية

ما زلت أتذكـر بكـل سـرور وغبطـة مـا تبقى لنا من أيام فى موسكو. كنا نذهب كـل صباح لمشاهـدة ما فى المدينة من آثار: كنائس الكرملين، قاعة الأسلحة،

بيت نبلاء آل رومانوف. وذات صباح صافٍ أخذنى إلى جبانة لازاريڤسكى، حيث دفنت أمه ماريا ڤيدوروڤنا دستويڤسكايا(*)، التى كان يحتفظ لها فى ذاكرته دائمًا بمشاعر ودودة طيبة. كنا فى غاية السرور أن وجدنا هناك أحد قساوسة الكنيسة استطاع أن يقيم لها قداسًا عند قبرها، وقد ذهبنا أيضًا إلى ڤوروبيوڤى جورى. كان فيودور ميخايلوڤيتش، المولود فى مدينة موسكو، دليلاً رائعًا راح يشرح لى العديد من الأشياء المسلية عن خصائص مدينة القياصرة الأوائل.

كان التعب والجوع قد بلغا بنا أشدهما، وكنا قد اعتدنا الذهاب، بعد جولاتنا، إلى مطعم تيستوڤو. كان زوجى يحب المطبخ الروسى فاختار لى خصيصًا، ابنة بطرسبورج، الأطباق المحلية مثل السوليانكا(**) على طريقة أهل موسكو والفطائر المحشوة والكعك، وقد أبدى دهشته، على نحو متصنع، من شهيتى الهائلة الشابة للطعام. عدنا بعد ذلك إلى الفندق فاسترحنا قليلاً ثم ذهبنا إلى آل إيڤانوڤ لتناول طعام الغداء. وهناك حرصت على ألا أبتعد عن فيودور ميخايلوڤيتش خطوة واحدة تجنبًا لوقوعه ثانية فى نوبة من نوبات الغيرة، وبمساعدته نجحت فى عقد أواصر الصداقة والمودة مع ڤيرا مخايلوڤنا وسونيا وبقية الشباب. كما نجحت فى عقدها مع ماريا سيرجييڤنا الماكرة. وقد قصّ علىّ الجميع بكثير من التفاصيل كيفية وظروف كراهيتهم لى غيابيًا والوسائل التى أرادوا من خلالها إثارة غضبى وحفيظتى باعتبارى قريبة جديدة لهم غير مرغوب فيها. عدنا قرب الحادية عشرة إلى الفندق ولم نخلد إلى النوم إلا فى الثانية بعد منتصف الليل، بعد أن أخذنا نتبادل باستمتاع انطباعاتنا عن اليوم الرائع الذى قضيناه. وفى موسكو اختفى من داخلى تمامًا هذا الإحساس بالغربة فى علاقتى بزوجى، والذى شعرت به على مدى الأسابيع الأخيرة الماضية من حياتى فى بطرسبورج، وهكذا أصبحت إنسانًا عطوفًا محبًا للحياة على النحو الذى كنت عليه وأنا مخطوبة. وقد أكد لى فيودور ميخايلوڤيتش أنه وجد هنا

(*) م. ف. دستويڤسكايا (نيتشايڤا قبل الزواج) (١٨٠٠ ـ ١٨٣٧): والدة ف. م. دستويڤسكى، ابنة تاجر من موسكو يدعى فيودور تيموڤيڤيتش نيتشايف.

(**) السوليانكا: حساء كثيف من السمك أو اللحم تضاف إليه توابل حارة (المترجم).

«آنيا التى أحبها» والتى كاد أن يفقدها فى بطرسبورج، وقال لى إن «شهر العسل» قد بدأ لتوه بالنسبة إليه. فى هذه اللحظة أدركت تمامًا مدى السعادة التى يمكن أن تكتنف حياتنا الزوجية، لو أن هذه المنغصات التى تحول بينى وبين زوجى والتى يثيرها ضدى أقاربه قد زالت. لقد ظلت ذكرياتى السعيدة عن رحلتى إلى موسكو راسخة فى أعماقى إلى الأبد، وعندما كنت أعود لزيارتها بعد ذلك كنت أشعر أننى أكثر سعادة وسكينة ورضا فيها عنها فى أى مكان آخر.

أخيرًا وافقت مجلة «البشير الروسى» على تقديم قرض جديد مقدمًا إلى فيودور ميخايلوفيتش قدره ألف روبل، وقد علمنا بالأمر يوم الجمعة، وفى اليوم التالى مباشرة سافرنا إلى بطرسبورج. أذكر أن قطارنا قد توقف لسبب ما لمدة ساعة فى محطة كلين. كانت الساعة حوالى السابعة مساء وكانت صلاة الليل تقام بمناسبة سبت السعف فى القاعة العامة. كان الجميع يقفون وقد أمسكوا بالشموع المضاءة وبأغصان الصفصاف. انضممنا إلى المصلين، وما زلت أذكر كيف رحت أصلى بحرارة وأنا أقف إلى جوار زوجى العزيز، وكيف توجهت إلى الله بالشكر الخالص للسعادة التى وهبها إياى! كانت لحظات من العمر لا تنسى!

(٨)

السفر إلى الخارج

عدنا إلى بطرسبورج، ومن جديد عادت الحياة المملة مسيرتها الأولى. على مائدة الإفطار ظهر ضيوفنا المعتادون، تلاهم تجمع باقى الأقارب. الذين بلغهم نبأ وصولنا يوم الأحد عن طريق ربيب زوجى. كان من نصيبى مرة أخرى واجب «رعاية» و«ضيافة» الأقارب. وقد فعلت ذلك بكل رضا واقتناع، على أمل أن كل شىء سوف يتغير قريبًا. كان فيودور ميخايلوفيتش قد غادر البيت لأمر ما، أما أنا فقد حزمت أمرى على ألا أتحدث لأحد بشأن سفرنا المحتمل إلى الخارج تجنبًا لأية مشاحنات. لم يأت ذكر السفر

إلا ونحن جلوس نتحدث على الغداء، الذى تجمع حوله جميع الأقارب بمن فيهم أمى. تحدث الجمع عن الطقس الربيعى الرائع الذى استمر طوال الأسبوع، وهنا اقترحت إميليا فيدوروڤنا فكرة أنه ربما أصبح من الضرورى استغلال صفاء الجو للبحث عن «داتشا» (بيت صيفى) وإلا فإن البيوت الجيدة سوف يتم شراؤها، وأضافت قائلة إنها تعرف بيتًا ذا حديقة واسعة، وهو كبير بحيث يمكن أن يضم، بخلافنا، آل دستويڤسكى جميعهم.

ـ لا حاجة بنا لداتشا، سوف نسافر أنا وأنّا للخارج.

استقبل الأقارب كلهم هذه الكلمات باعتبارها نكتة، ولكنهم بدؤوا يؤمنون أنها حقيقة عندما بدأ زوجى يطرح عليهم خطة السفر بالتفصيل. بداهة كانوا ساخطين وفجأة التزموا الصمت على نحو ما. حاولت أن أبث الحيوية فى الحديث، فأخذت أتحدث عن آل إيڤانوف وعن جولاتنا فى موسكو، لكن أحدًا لم يعرنى اهتمامًا.

قدمت القهوة بعدما قام فيودور ميخايلوڤيتش إلى غرفة مكتبه غاضبًا من هذا الاحتجاج الصامت. تبعته بعد برهة إميليا فيدوروڤنا، أما باقى الأقارب فقد انتقلوا إلى غرفة الاستقبال ولم يبق فى غرفة الطعام سواى وباڤل ألكسندروڤيتش الذى بادأنى بالقول وقد احتدم غضبه:

ـ أرى جيدًا أن هذا الأمر من ألاعيبك، أنّا جريجوريڤنا!

ــ أية ألاعيب؟

ــ أحقًا لا تفهمين؟! هذه الرحلة السخيفة إلى الخارج! لكن، فلتعلمى أن حساباتك خاطئة تمامًا. إذا كنت قد «سمحت» لكما بالسفر إلى موسكو، فقد كان ذلك فقط لأن بابا سافر ليتسلم نقودًا، لكن السفر إلى الخارج إنما هو نزوة من نزواتك، أنّا جريجوريڤنا، ولن أسمح بها بأى حال من الأحوال.

شعرت بالغضب الشديد من لهجته، لكننى لم أرغب فى الدخول معه فى شجار فقلت له ساخرة:

ـــ ربما تشعر بالشفقة نحونا؟

ـــ لاتعتمدى على ذلك. إن هذه النزوة باهظة التكاليف، ولست وحدك التى تحتاجين إلى نقود، وإنما الأسرة كلها؛ النقود هنا ملك الجميع...

هذا الكلام يصدر عن شخص مدين بكل شىء لزوج أمه الطيب. شخص لا يعرف كيف يكسب قرشًا واحدًا! وعلى الفور غادرت المكان حتى لا أوبخه على وقاحته.

مضت نصف ساعة، خرجت بعدها إميليا فيدوروڤنا من غرفة المكتب غاضبة، أمرت بناتها بالتأهب للعودة إلى البيت، ثم غادرت البيت بعد أن ودعتنى بجفاء. بعدها دخل نيكولاى ميخايلوڤيتش، الأخ الأصغر لفيودور ميخايلوڤيتش، ثم بدأ باقى الأقارب فى المغادرة، وبعد أن غادر الجميع، جاء دور باڤل ألكسندروڤيتش فى الدخول. وكعادته بدأ يتحدث بانفعال حاد وبأسلوب وعظى، عندئذ لم يتمالك فيودور ميخايلوڤيتش نفسه وطرده من غرفة المكتب وعلى الفور خرج متجها إلى مكان ما.

بعد أن انصرف الجميع دخلت إلى المكتب لأجد زوجى وقد اشتد به الغضب والاستياء. قال إن جميع الأقارب يعارضون السفر للخارج، وفى حالة إذا ما تم فإنهم «يطلبون» أن يترك لهم مالاً يكفيهم لعدة أشهر مقدمًا. سألته:

ـــ ما مقدار هذا المبلغ؟

ـــ لقد وعدت إميليا فيدوروڤنا أن تتحدث مع الأولاد وأن ترد على غدًا. أجاب فيودور ميخايلوڤيتش.

بعثت كلماته الرعب فى قلبى. كان فيودور ميخايلوڤيتش ينوى أن يعطى إميليا فيدروڤنا مائتى روبل من مجموع ألف روبل تقاضاها من «البشير الروسى»، ثم مائة لباشا لمصروفه الشخصى، ومائة لنيكولاى ميخايلوڤيتش ومائة لمعاشنا حتى موعد السفر. وهكذا يتبقى لنا للسفر خمسمائة روبل. كنا نضع فى حسباننا أن يشرع فى كتابة مقالة بيلينسكى»[*]، بعد أن يستجم لمدة شهر فى الخارج. كان من المفترض أن تتكون

(*) بيلينسكى، ڤيساريون جريجوريڤيتش (١٨١١ ـــ ١٨٤٨): ناقد، تعرف عليه دستويڤسكى فى مطلع صيف

هذه المقالة من ثلاث أو أربع ملازم، وعندئذ يصبح من الممكن أن يتقاضى فيودور ميخايلوڤيتش مقابلها حوالى ثلاثمائة أو أربعمائة روبل خلال فترة قصيرة، وقد خصص هذا المبلغ لاحتياجات أقاربه إبان أشهر الصيف. كنا قد أعددنا العدة أن نعود إلى بطرسبورج فى مطلع أغسطس.

وها هى هواجسى الكئيبة تتحقق. فى صباح اليوم التالى حضرت إميليا فيدوروڤنا وأعلنت أنها بحاجة إلى خمسمائة روبل لأسرتها ومائتين لمعاش ربيبه إبان غيابنا. حاول فيودور ميخايلوڤيتش أن يقنعها بأن توافق على قبول ثلاثمائة روبل (لأسرتها ولربيبه)، أما باقى المبلغ فوعد أن يعطيها إياه بعد شهرين، لكن إميليا فيدوروڤنا رفضت هذا العرض، ولم يكن فيودور ميخايلوڤيتش يمتلك القوة على الرفض: لقد اعتاد تحقيق كل مطالب أسرته منذ وفاة أخيه.

وخلال النهار كان على فيودور ميخايلوڤيتش أن يتعرض لمحنة جديدة، فقد حضر إليه دون سابق موعد، شاب، وهو ابن السيدة رايسمان(*) كانت تحتفظ لديها بعدد من وثائق تنفيذ أحكام ضد فيودور ميخايلوڤيتش، تبلغ قيمتها حوالى ألفى روبل، ولكن ولأن زوجى اعتاد أن يدفع لها فوائد كبيرة فلم تكن تزعجه. والآن جاء ابنها ليعلنه أن أمه تطلب منه أن يسدد خمسمائة روبل مقابل كل وثيقة، وفى حالة رفضه فهى تعتزم اللجوء إلى مُحضر المحكمة ليحجز على منقولاتنا.

كان فيودور ميخايلوڤيتش مذهولاً من هذا الطلب الذى جاء على غير موعد، ولكنه وعد، أمام إلحاح رايسمان، أن يدفع لها غدًا ثلاثمائة روبل.

عام ١٨٤٥، وكان يحظى آنذاك بشهرة كبيرة باعتباره أكبر ناقد فى روسيا. أعطاه الشاعر نكراسوف مخطوطة رواية «الفقراء» ليقرأها. وقد رسم دستويڤسكى شخصية بيلينسكى فى رواية «مذلون مهانون» تحت اسم الناقد الشهير «ب» (المترجم).

(*) رايسمان (رايسلر) أنا إيڤانوڤنا (١٨١٤ ــ ١٨٨٢): مرابية من بطرسبورج، يعتقد أن دستويڤسكى استلهم شخصيتها فى رسم نموذج المرابية أليونا إيڤانوڤنا فى رواية «الجريمة والعقاب» (المترجم).

فى نفس اليوم تسلمنا خطابات من الأقارب أتضح من خلالها أن على فيودور ميخايلوفيتش أن يدفع لهم ألفًا ومائة روبل، إلى جانب الثلاثمائة التى سيدفعها إلى رايسمان، بينما كان كل ما فى أيدينا هو ألف روبل!

بصراحة، فقد بدا لى أن هذا الطلب المفاجئ فيه شىء من شبهة التواطؤ بين الدائنين، لكننى لم أفصح عن فكرتى لزوجى.

فى وقت متأخر من المساء قال لى فيودور ميخايلوفيتش، بعد أن أحصى نفقاتنا المنتظرة:

ـ إن القدر يعاندنا يا عزيزتى أنيتشكا، ها أنت ترين بنفسك: إذا سافرنا للخارج الآن، فى الربيع، فلسوف نحتاج إلى ألفى روبل، وليس لدينا حتى ألفًا واحدة، وإذا ما بقينا فى روسيا فإننا نستطيع العيش بما لدينا فى هدوء شهرين كاملين، وربما استأجرنا الداتشا التى اقترحتها إميليا فيدوروفنا. وهناك سوف أشرع فى العمل، وعندئذ يصبح من الممكن أن نحصل فى الخريف على قدر من المال، وعندها نسافر إلى الخارج لمدة شهرين. لو تعلمين يا يمامتى الغالية مقدار أسفى لأن هذا الأمر لن يتحقق الآن! كم حلمت بهذه الرحلة، وكم هى ضرورية لكلينا!

حاولت أن أخفى حزنى عن زوجى وأنا أرى مقدار الإحباط الذى أصابه فقلت له بحماس:

ـ حسنًا يا عزيزى، فلتطب نفسًا. سننتظر حتى الخريف! لعل وعسى أن يكون لنا نصيب من السعادة!

تعللت بالصداع وأسرعت فى مغادرة غرفة المكتب خشية أن أنفجر فى البكاء فأزيد من حزن زوجى. كان الألم يعتصر قلبى. راودتنى الأفكار الكئيبة وراحت الشكوك والهواجس تنشب مخالبها فى صدرى، كنت قد تخلصت من كل ذلك فى أثناء رحلتنا إلى موسكو، والآن ها أنا أسقط فى مهاوى اليأس وأنا أشاهد الحلم الذى أخذ ينأى عن أن يصير واقعًا.

رحت أفكر فى أن هذه العلاقة الروحية الدائمة مع زوجى، والتى أدركت قيمتها فى أسابيع الصفاء التى سبقت زواجنا، والتى أضفت الجمال على حياتنا فى موسكو، هى وحدها التى بإمكانها أن تبنى الأسرة القوية المتحابة التى حلمت بها أنا وفيودور ميخايلوفيتش، وأننا إذا كنا نرغب فى إنقاذ حبنا، فإن من الضرورى لنا أن نخلو لأنفسنا ولو لمدة شهرين أو ثلاثة، وأن أستشعر الهدوء والسكينة بعيدًا عن الاضطراب والأذى الذى عانيته. كنت على يقين لا يتزعزع أننا عندئذ سوف نتآلف أنا وزوجى إلى الأبد، وأن أحدًا أيًا كان لن يكون بإمكانه أن يفصم ما بيننا من عُرى. رحت أفكر: من أين لنا المال الضرورى الذى نحتاجه لرحلتنا هذه؟ وبغتة خطرت ببالى فكرة: «ولماذا لا أضحى بجهاز العروس الذى أملكه من أجل هذه الرحلة، وبهذا أكون قد أنقذت سعادتى؟». راحت هذه الفكرة شيئًا فشيئًا تستحوذ على مشاعرى، على الرغم من أن تنفيذها كانت تكتنفه صعوبات كثيرة، وعلى رأسها أننى أنا نفسى لم أكن لأجسر على الإقدام على تقديم هذه التضحية بمثل هذه السهولة. وقد ذكرت من قبل أننى، على الرغم من سنواتى العشرين، فقد كنت طفلة فى جوانب كثيرة من شخصيتى، وفى مرحلة الشباب تكون أشياء، مثل الأثاث والملابس، ذات قيمة كبيرة. كنت معجبة أشد الإعجاب بالبيانو الذى أملكه وبالمائدة والمناضد الصغيرة والدواليب ذات الأرفف؛ بالإضافة إلى الأدوات واللوازم الأخرى التى اشتريتها. كان من المؤسف أن أفقد كل هذا وأن أخاطر بألا أسترجعه أبدًا مرة أخرى وقد اشترت أمى جزءًا كبيرًا من جهاز العروس من مالها. أخذت أفكر: «ماذا لو أن أمى اتهمت زوجى بتحيزه الزائد لأقاربه وبدأت تشك فى مدى حبه لى؟ كم من العذاب ستقاسى، وهى التى كانت كثيرًا ما تضع دومًا سعادة أطفالها فوق سعادتها الشخصية!»

على هذه الحال من التردد والشك قضيت ليلتى مسهدة. وفى الساعة الخامسة صباحًا دقت الأجراس معلنة عن قداس الصباح، فقررت الذهاب للصلاة فى كنيسة الصعود القائمة قبالة بيتنا. كانت الصلاة دائمًا ما تؤثر فىّ بقوة: رحت أصلى لله وأبكى بكل خشوع وحمية، ثم غادرت الكنيسة وقد ترسَّخ فى نفسى القرار. لم أرجع من الكنيسة إلى البيت، وإنما توجهت مباشرة إلى أمى. انزعجت أمى المسكينة لهذه الزيارة فى هذه

الساعة المبكرة، ناهيك عن أثر البكاء فى عيونى. كانت الوحيدة من بين كل القريبين منى التى كانت تعرف أن حياتى العائلية تفتقد إلى التوفيق. كانت كثيرًا ما تزجرنى لعدم قدرتى على إجبار پاڤل ألكسندروڤيتش على احترامى وتغيير المناخ المحيط بى. وأعربت أمى أيضًا عن استيائها من أننى أقضى أيامًا بطولها لا أفعل شيئًا ذا قيمة، سوى ضيافة أناس مملين بينما كنت فى الماضى مشغولة دائمًا، أبحث فى العمل عن متعتى الروحية. كانت أمى امرأة سويدية، تنظر إلى الحياة بنظرة غربية أكثر ثقافة، وكانت تخشى من تبدل العادات الطيبة التى غرستها فى نفسى بسبب حياتى على الطريقة الروسية وما فيها من كرم الضيافة الفوضوى. ولأنها كانت تدرك أننى لا أملك الشكيمة ولا الذكاء الاجتماعى لكى أضع كل شىء فى نصابه، فقد كانت تعول بشدة على سفرنا إلى الخارج. رأت أمى أن تقترح على فيودور ميخايلوڤيتش أن يأتى ليسكن فى بيتها، بعد عودتنا، وسوف نعطيه شقة جيدة بلا مقابل، وعندئذ لن يعود بإمكان أقاربنا أن يأتوا لزيارتنا كل يوم بسبب بعد المسافة. كما أن باڤل ألكسندروڤيتش لن تراوده الرغبة فى السكن فى «الأدغال» كما كان يسمى منطقتنا باحتقار، وسوف يفضل بالطبع البقاء لدى إميليا فيدوروڤنا. وعلى هذا النحو فإن الانفصال عن باڤل ألكسندروڤيتش لن يبدو نوعًا من الخصام العائلى، بقدر ما سيقع بناء على رغبته الشخصية.

بعد أن عرفت أمى أن رحلتنا إلى الخارج قد آلت إلى الفشل، وأنه سيتحتم علىّ قضاء الصيف فى داتشا تضم آل دستويڤسكى جميعهم أصابها الذعر. كانت تعلم طبيعتى المستقلة وصلابة الطبع التى تميز الشباب، وكان أكثر ما تخشاه أن تنفلت أعصابى فتقع الكارثة.

كانت خطتى تتمثل فى أن أرهن كل أشيائى، وكم كانت سعادتى عظيمة، عندما استحسنت أمى هذه الخطة. وعندما سألتها إن كانت آسفة على ما اشترته من أثاث وأشياء أخرى أجابت:

بالطبع آسفة، ولكن ما العمل، أليست سعادتك فى خطر؟ أنت وفيودور ميخايلوڤيتش شخصان مختلفان إلى حد كبير، فإذا لم تتآلفا، الأمر الذى ينبغى حدوثه

الآن، فإنكما، بطبيعة الحال، لن تتآلفا أبدًا. عليكما أن تسافرا، وبأقصى سرعة، قبل الأعياد، وقبل أن تظهر مشكلات جديدة. سألتها:

- ولكن، هل سيكون باستطاعتنا أن نرهن أشياءنا ونحصل على النقود قبل الأعياد.

لحسن الحظ كانت أمى تعرف أحد مديرى شركة «المنقولات الكبرى» ووعدتنى بسرعة الذهاب لمقابلته لكى يرسل إلينا بالمُثمِّن غدًا. كان موعد إيجار شقتنا يحين فى الأول من مايو، وكان من الممكن نقل الأثاث إلى المخازن بعد العيد. سعت، أمى جاهدة أن تعطى أقارب فيودور ميخايلوڤيتش المبالغ التى حددها لكل شخص منهم. أما فيما يتعلق بالأشياء الذهبية والفضية وأوراق اليانصيب والبلاطى الفرو، فكان من الممكن رهنها قبيل سفرنا.

كنت سعيدة أن وصلت إلى البيت قبل أن يستيقظ فيودور ميخايلوڤيتش من نومه. كان باڤل ألكسندروڤيتش مهتمًا بشدة أن يعرف أين كنت طوال الصباح. جاء مسرعًا إلى غرفة الطعام، حيث كنت أقوم بإعداد القهوة لزوجى، وكعادته راح فى إلقاء التلميحات اللاذعة. بدأ بقوله:

- يسعدنى أن أقرر أنك، أنّا جريجوريڤنا، امرأة متدينة، إلى حد أنك تحرصين ليس فقط على أداء قداس الصباح، كما علمت بذلك من فيدوسيا، بل وعلى قداس الظهر أيضًا.

- نعم كنت فى الكنيسة، أجبته باقتضاب.

- ولكن، لماذا أنتِ شاردة اليوم! اسمحى لى أن أعرف إلى أى أجواء بعيدة يحلق بك خيالك؟

- بعيدًا، ما دمنا، كما تعلم، لن نسافر إلى الخارج.

- ألم أقل لكِ؟ لديك من الخبرة الآن، أن تعرفى أن باستطاعتى ذلك، وأننى لن أسمح بالسفر إلى الخارج!

ـــ حسنًا، حقًا، أعرف، أعرف! أنك قلت ذلك؟ أجبته راغبة عن الدخول فى جدل معه، على الرغم من أننى كنت فى حالة شديدة من الاستياء لوقاحته.

لم تبق سوى مهمة واحدة كبيرة. أن أقنع فيودور ميخايلوڤيتش بالموافقة على الخطة التى وضعتها. كان الحديث معه حول هذا الأمر فى البيت مستحيلاً: كان من الممكن أن يقاطعنا أحد ما فى كل دقيقة، وقد تشبث باڤل ألكسندروڤيتش بالبقاء فى البيت منتظرًا وصول آل دستويڤسكى الشباب، ضيوفنا الصباحيين المعتادين. ولحسن الحظ، كان على زوجى الخروج لشأن ما. دعوته لأن أذهب برفقته إلى أقرب صيدلية. ما إن خرجنا من البيت حتى اقترحت عليه أن نذهب إلى كنيسة الصعود. صلينا معًا أمام أيقونة العذراء، ثم مشينا معًا عبر شارع فوزنيسينسكايا ثم عبر كورنيش مويكا. كنت فى أشد حالات الاضطراب ولم أكن أعرف كيف أبدأ الحديث. ساعدنى فيودور ميخايلوڤيتش على الكلام، عندما لاحظ ما أنا عليه من نشاط قائلاً:

ـــ كما أنا سعيد يا آنيا أنكِ قبلت، بصدر رحب، قرار إلغاء السفر للخارج الذى حلمنا به.

ـــ يمكننا أن نسافر إذا وافقت على خطتى، التى سأقترحها عليك، أجبته ثم رحت على الفور أعرضها عليه. وكما توقعت رفض زوجى خطتى على الفور، لأنه لم يكن يرغب فى أن أضحى بأشيائى. رحنا نتجادل ودون أن نلحظ الطريق تجاوزنا (عبر كورنيش مويكا) طريقنا لنجد أنفسنا فى مكان غير مأهول وغير معلوم لى من المدينة. للمرة الثانية على مدى حياتنا الزوجية أعترف لزوجى بمعاناتى وأتوسل إليه أن يعطينى ولو شهرين أو ثلاثة أشهر أعيشها معه فى سعادة وهدوء. أكدت له أننا فى ظروف مثل التى نعيشها الآن لن نكون أصدقاء، كما حلمنا من قبل، بل وربما ننفصل إلى الأبد. توسلت إلى زوجى أن ينقذ حبنا، وسعادتنا، وهنا لم أتمالك نفسى من البكاء؛ مما جعل فيودور ميخايلوڤيتش يتأثر بشدة ولم يكن يعرف كيف يتصرف. أسرع بالموافقة. فشعرت، بالفرح كما لم أشعر من قبل حتى أننى اندفعت أقبله دون أن أعير المارة اهتمامًا (كان المكان هنا يتميز بقلة المشاة). وتجنبًا لضياع الوقت، اقترحت على زوجى التوجه إلى

مكتب الحاكم العام لمعرفة متى يمكن تسلم جواز السفر. كان زوجى يتعرض لمشكلات كثيرة بسبب هذا الجواز. فباعتباره مجرمًا سياسيًا سابقًا، كان فيودور ميخايلوڤيتش تحت رقابة الشرطة[٤٣]، وكان عليه، إلى جانب الإجراءات الرسمية الأخرى، أن يحصل على تصريح مقدمًا من الحاكم العام العسكرى. وفى المكتب، اقترح عليه الموظف المسؤول، والذى كان يكن تقديرًا كبيرا لموهبة فيودور ميخايلوڤيتش، أن يكتب طلبًا على الفور، ووعده بأن يقدمه غدًا لرئاسته، كما وعده أن يكون جواز السفر جاهزًا يوم الجمعة.

أذكر مدى السعادة التى غمرتنى فى هذا اليوم! وحتى مضايقات باڤل ألكسندروڤيتش السخيفة لم تغضبنى: كنت أعلم أن نهايتها قد اقتربت. فى هذا اليوم لم نخبر أحدًا عن سفرنا، باستثناء أمى التى حضرت إلينا فى المساء وأحضرت معها الأشياء الذهبية والفضية وأوراق اليانصيب لترسل بها فى الغد لرهنها.

فى اليوم التالى، الأربعاء، حضر إلينا مُثمِّن الشركة وحدد المبلغ الذى نستطيع أن نتقاضاه مقابل الأثاث. وفى نفس اليوم، بعد الظهر، عندما اجتمعنا على الغداء، كان جميع الأقارب موجودين، عندما أعلن فيودور ميخايلوڤيتش أننا سنسافر إلى الخارج بعد غد. هنا قاطعه باڤل ألكسندروڤيتش الذى كان يحتدم غيظًا بقوله:

ـ اسمح لى بابا أن أبدى لك ملاحظة.

ـ لا ملاحظات! صاح فيودور ميخايلوڤيتش غضبًا، كل «منكم سيأخذ ما حددناه، لا قرش واحد زيادة.

ـ لكن هذا غير معقول! لقد نسيت أن أخبرك أن معطفى الصيفى لم يعد على المودة من فترة طويلة، ويلزمنى معطف جديد، إلى جانب مصروفاتى الأخرى... ـ هكذا بدأ باڤل ألكسندروڤيتش حديثه.

ـ زيادة على ما تحدد، لن تأخذ شيئًا. سنسافر إلى الخارج بنقود أنّا جريجوريڤنا، وهى نقود لا أملك التصرف فيها.

حاول باڤل ألكسندروڤيتش أن يقدم طلبات أخرى مرة واثنين وثلاثًا، لكن فيودور ميخايلوڤيتش لم يعره اهتمامًا.

بعد الغداء راح الأقارب يدلفون إلى غرفة مكتب زوجى واحدًا بعد الآخر. وهناك أخذ فيودور ميخايلوفيتش يعطى كل واحد منهم جزءًا من المال. واستبقى الإيصالات المؤجلة إلى الأول من مايو التى ستدفع أمى قيمتها من النقود التى تسلمناها مقابل الأشياء المرهونة.

حاولت إقناع فيودور ميخايلوفيتش أن يعطى باڤل ألكسندروفيتش نقودا ليشترى بها معطفًا صيفيًا حتى لا يسبب لنا مشاكل. لكن هذه التضحية لم تلن قلب پاشا، الذى قال لى عند الوداع، إن هذه الفعلة الخبيثة (يقصد سفرنا إلى الخارج) لن تمر مرور الكرام، وأنه عندما يحل الخريف «سوف نتصارع، ومن يدرى، لمن تكون الغلبة».

كنت سعيدة، حتى إننى لم ألق انتباهًا لكلماته اللاذعة التى كان ينهال بها علىّ من كل جانب.

رتبنا أمتعتنا على عجل، ولما كنا نظن أننا لن نبقى فى الخارج سوى فترة قصيرة، فإننا لم نأخذ معنا سوى الأشياء الضرورية بعد أن تركنا رهن أثاثنا لدى أمى، كما تركنا باقى أدواتنا لتحتفظ بها عندها. وثب باڤل ألكسندروفيتش ناحيتها ليساعدها، ولكنه، أعاق عملها بدلاً من يخفف عنها. جزء كبير من محتويات غرفة فيودور ميخايلوفيتش ومكتبته نقلها باڤل ألكسندروفيتش إلى غرفته بدعوى أنه يريد أن يطالع الكتب ليزيد من تعليمه.

سافرنا إلى الخارج لمدة ثلاثة شهور، لكننا عدنا إلى روسيا بعد أربعة أعوام وبضعة شهور. خلال هذه الفترة وقعت أحداث كثيرة سارة فى حياتنا، وسوف أظل أتوجه بالشكر لله الذى أمدنى بالقوة فى اتخاذ قرار السفر إلى الخارج. هناك بدأت حياتنا الجديدة والسعيدة معًا، وازدادت صداقتنا وحبنا قوة، هذه الصداقة وهذا الحب اللذان استمرا حتى اليوم الأخير من حياة زوجى.

الجزء الرابع
الإقامـــــة فى الخـــــــارج [٤٤]

(١)
الخلاف الزوجى الأول
(نقلاً عن دفتر الاختزال)

«مطـر خفيف تساقـــط اليوم (١٨ أبريل)، ولكـــن، يبـــدو أنه سيستمر طوال النهار. أهالى برلين نوافذهم مشرعة؛ أسفل نافذتنا شجـــرة زيزفـــون، ما يــزال المـطر يهطل، لكننا قررنا الخروج لكـى نشـاهد المـدينـة. خـرجـنـا باتـجـاه Unter den Linden شـاهـدنـا، Schloβ Bauakademie, Zeughaus, Opernhaus [*]، الجامعة وLudvigskirche [**]. نبهنى فيديا الغالى إلى أننى أرتدى ملابس شتوية (قبعة بيضاء ذات وبر) وأن قفازاتى قبيحة. غضبت من قوله وأجبته بأنه إذا كان يظن أننى أرتدى ملابس قبيحة فالأفضل ألا نسير معًا. وما إن أتممت عبارتى حتى سارعت متجهة إلى الجانب الآخر للطريق. نادانى فيديا عدة مرات ثم أراد أن يلحق بى، لكنه

(*) القصر، أكاديمية العمارة، دار الأسلحة، مسرح الأوبرا (بالألمانية).
(**) كنيسة لودفيك (بالألمانية).

راجع نفسه وعاد للسير فى طريقه السابق. كنت غاضبة بشدة وقد اعتقدت أن ملاحظة فيودور ميخايلوڤيتش خالية من الرقة بدرجة فظيعة. عبرت بسرعة عدة شوارع وإذا بى أجد نفسى عند Brandenburger Thor. كان المطر ما يزال ينهمر؛ وكان الألمان ينظرون إلىّ بدهشة. فتاة تسير تحت المطر دون مظلة ودون أن تولى أدنى اهتمام لأى شيء حولها. شيئًا فشيئًا استعدت رباطة جأشى وأدركت أن فيودور ميخايلوڤيتش لم يقصد بملاحظته إغضابى بأى شكل من ألأشكال وأننى قد فقدت أعصابى بلا أى مبرر. هيج هذا الخـــــلاف بينى وبين فيديا مشاعرى وأثار قلقى بشدة، وراحت الأفكار، يعلم الله على أى نحو، تتلاعب فى رأسى. قررت العودة على وجه السرعة إلى الفندق معتقدة أن فيديا قد سبقنى إلى العودة وأن بامكانى التصالح معه. ولكن كم كان حزنى عندما علمت بعد وصولى أن فيديا قد مر سريعًا ليبقى بضع دقائق فى الغرفة ثم يغادر المكان مرة أخرى. يا إلهى، كم من المشاعر والأحاسيس راحت تضطرم فى نفسى! تصورت أنه هجرنى، وبعد أن اقتنع تمامًا أننى امرأة سيئة متقلبة الأطوار، وجد نفسه تعيسًا للغاية فألقى بنفسه فى نهر شبيريه، ثم تصورت بعد ذلك أنه توجه إلى سفارتنا لكى يطلقنى وأن يستخرج لى جواز سفر مستقلاً ليعيدنى إلى روسيا. وقد أخذت هذه الفكرة تشتد داخلى عندما لاحظت أن فيديا فتح إحدى الحقائب (التى بدت فى غير المكان التى كانت فيه وكان حزامها مفكوكًا). بداهة فقد حصل فيديا على وثائقنا لكى يذهب بها إلى السفارة. راحت كل هذه الأفكار البائسة تعذبنى حتى أننى بدأت أبكى بكاء مريرًا وألوم نفسى على نزواتى وتهورى. عاهدت نفسى ألا أعود إلى روسيا بأى حال إذا ما هجرنى فيودور ميخايلوڤيتش، وأن أختبئ فى مكان ما فى إحدى القرى البعيدة خارج البلاد لأظل أندب حظى إلى الأبد على خسارتى الفادحة. مرت ساعتان وأنا على هذه الحال. كنت أقفز كل دقيقة من مكانى وأقترب من النافذة لأنظر إن كان فيديا قد أتى أم لم يأت بعد ؟ وعندما قارب صبرى على النفاد، شاهدت فيودور ميخايلوڤيتش، وأنا أنظر من النافذة، وهو يسير فى الطريق منطلقًا وقد وضع يديه فى جيوبه. فرحت بشدة، وعندما دخل إلى الغرفة اندفعت إليه أعانقه من رقبته وأنا أبكى وقد فاضت

الدموع من عينَّى. أصيب بالفزع وقد رأى عينىَّ مخضلة بالدموع فسألنى عما حدث لى. عندما حكيت له عن مخاوفى راح يضحك بشدة وقال لى: «إن من يلقى بنفسه ليغرق فى نهير تافه مثل شبيريه لا بد أن يكون أمرًا شديد التواضع». وقد زاد ضحكه عندما أخبرته عن فكرة الطلاق التى راودتنى قائلاً: «إننى لا أعرف بعد مقدار عشقه لزوجته الحبيبة». أخبرنى أنه رجع إلى هنا وفتح الحقيبة لكى يحصل على بعض النقود لشراء بالطو لى. اتضح كل شىء أمامى وتصالحنا وكنت فى أشد حالات السعادة.

(٢)

غادرنا برلين إلى درزدن بعد أن قضينا فيها يومين. وقد قررنا أن نعيش فيها شهرًا بعد المجهود الشاق الذى بذله زوجى فى عمله الأدبى. كان فيودور ميخايلوفيتش يحب مدينة درزدن أساسًا لوجود متحف الفنون الجميلة الشهير بها ولحدائقها الرائعة وضواحيها الخلابة، وكان دائمًا ما يمر بها إبان رحلاته إلى هنا، إذ إن هذه المدينة كانت تمتلك عددًا كبيرًا من المتاحف والكنوز، وحيث إن فيودور ميخايلوفيتش كان يعلم مدى ما لدىّ من حب استطلاع فقد أحس أننى سوف أستمتع بالمكان ولن أشعر بالوحشة تجاه روسيا، الأمر الذى كان يخشاه فى الأيام الأولى لوصولنا.

توقفنا فى Neumarkt، فى واحد من أفضل فنادقها «Stadt Berlin»، وبعد أن استبدلنا ملابسنا، توجهنا على الفور إلى متحف الفنون الجميلة، حيث كان زوجى يود أن يعرفنى أولاً على كنوز المدينة. أكد لى فيودور ميخايلوفيتش أنه يذكر جيدًا طريقًا مختصرًا يؤدى إلى متحف تسفينجر، ولكننا سرعان ما ضللنا الطريق فى الشوارع الضيقة، وهنا وقعت لنا هذه الحادثة الطريفة التى سيوردها زوجى فى أحد خطاباته إلىّ كمثال على ميل التفكير الألمانى إلى الإتقان والتعقيد بعض الشىء. توجه فيودور ميخايلوفيتش بسؤال إلى سيد، يبدو أنه مثقف قائلا(*):

(*) الخطاب مؤرخ (...) (ملاحظة أ.ج. دستويفسكايا.) (٤٥)

Bitte, gnädiger Herr, wo ist Gemälde- Gallerie?

Gemälde – Gallerie?

Ja, Gemälde – Gallerie.

Königliche Gemälde – Gallerie

Ja, Königliche Gemälde - Gallerie

Ich weiβ nicht(*)

تعجبنا من استجوابه لنا ما دام لا يعرف أين يقع المتحف.

على أية حال فقد وصلنا إلى المتحف سريعًا، وعلى الرغم من أنه قد بقيت ساعة واحدة على موعد إغلاقه، فقد قررنا الدخول. عبر زوجى كل القاعات وهو يقودنى إلى المادونا السيستينية، وهى اللوحة التى كان يعتبرها الظهور الأسمى للعبقرية الإنسانية. رأيت بعد ذلك أن باستطاعة زوجى الوقوف أمام جمال هذه اللوحة الفاتنة ساعات طويلة متأثرًا حتى تكاد الدموع تطفر من عينيه(٤٦). أود أن أذكر هنا أن المادونا ألسيستينيه قد تركت فى نفسى انطباعًا هائلاً لدى رؤيتى لها للمرة الأولى: خيل لى أن العذراء وهى تحمل وليدها على يديها كما لو كانت تحلق فى الفضاء قادمة لاستقبالنا. وقد عشت هذا الانطباع مرة أخرى فيما بعد، عندما ذهبت لأداء صلاة الليل يوم الأول من أكتوبر. دخلت إلى الكنيسة وقد راحت تموج بالضوء (كنيسة القديس ڤلاديمير فى كييف)، وهناك رأيت العمل العبقرى للفنان ڤاسنيتسوف (٤٧). نفس تأثير العذراء وقد اكتسى وجهها الربانى ابتسامة رؤومًا قادمة لاستقبالى لتهز وجدانى هزًا من الأعماق.

(*) ـ من فضلك، سيدى العزيز، أين يقع متحف الفنون الجميلة؟
ـ متحف الفنون الجميلة؟
ـ نعم متحف الفنون الجميلة الملكى
ـ متحف الفنون الجميلة الملكى؟
ـ نعم، متحف الفنون الجميلة الملكى.
ـ لا أعرف (بالألمانية).

فى نفس اليوم استأجرنا شقة فى Johannis – Straße. كانت مكونة من ثلاث غرف: استقبال ومكتب ونوم، كانت تؤجرها سيدة فرنسية ترملت منذ فترة غير بعيدة. فى اليوم التالى ذهبنا لشراء بالطو مطر لى، بدلاً من البالطو البطرسبورجى الذى كنت أرتديه، وقد أصر زوجى على قيامى بتجربة عدد من القبعات بلغ عددها عشرًا، حتى استقر أخيرًا على إحداها رأى أنها ـ على حد تعبيره ـ «تلائمنى بشكل رائع». ما زلت أذكرها حتى الآن: كانت مصنوعة من القش الإيطالى، مزدانة بزهور وشرائط طويلة من المخمل الأسود تنسدل على كتفىّ، تسمى حسب الموضة «Suives – moi».

رحنا نطوف بعد ذلك يومين أو ثلاثة لشراء ملابس صيفية لى. وكنت مندهشة كيف أن فيودور ميخايلوڤيتش لم يشعر بالسأم من اختيار وفحص الأشياء التى كنا بصدد شرائها، من ناحية جودتها ورسومها وطرازها. كانت كل الأشياء التى اختارها لى ذات جودة عالية، بسيطة وجميلة، بعد ذلك اعتدت أن أضع ثقتى كاملة فى ذوقه.

ما إن استقرت أمورنا حتى هبت علينا رياح السعادة الآمنة: لم تكن لدينا أعباء مالية (لم تظهر هذه الأعباء إلا مع قدوم الخريف)، لم يكن هناك من يحول بينى وبين زوجى. كانت الفرصة مهيأة تمامًا أمامى لأستمتع بصحبته. إن ذكرياتى عن هذا الزمن، على الرغم من مرور عشر سنوات، ما تزال حية فى أعماقى.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يحب النظام فى كل شىء، بما فى ذلك تقسيمه لوقته، ولهذا فسرعان ما انتظمت حياتنا بحيث بات فى استطاعتنا أن نستغل وقتنا كما نشاء دون أن يتعرض أى منا للمضايقة، وحيث إن زوجى كان يعمل ليلاً، فلم يكن يستيقظ قبل الحادية عشرة صباحًا. كنت أتناول معه طعام الإفطار ثم أتوجه على الفور لمشاهدة Sammlung ما(*)، وفى هذه الحالة كنت أصل بفضل ما لدى من حب استطلاع شاب إلى حالة من الرضا والسرور. أتذكر أننى لم أكن أترك مجموعة واحدة من المجموعات التى

(*) مجموعة (بالألمانية).

لا حصر لها: botanische mineralgische, geologische(*) وغيرها، إلا شاهدتها بدقة متناهية. بحلول الساعة الثانية ظهرًا كان علىّ أن أوجد حتمًا فى قاعة اللوحات (وهى موجودة فى متحف تسفينجر ذاته إلى جانب المجموعات العلمية). كنت أعرف أنه بحلول هذا الوقت يصل زوجى إلى المتحف فنبدأ معًا فى مشاهدة اللوحات التى يحبها أيضًا.

فيودور ميخايلوڤيتش يضع أعمال رفاييل على قمة فن التصوير وكان يرى أن المادونا السيستينية هى رائعة أعماله. كما كان يقدر موهبة تيتسيان تقديرًا رفيعًا وخاصة لوحته الشهيرة «Der Zinsgroschen»، «المسيح والقطعة النقدية»، وكان يقف طويلاً دون أن يحول بصره عن هذا التصوير العبقرى للمخلِّص[٤٨] ومن بين الأعمال الفنية الأخرى التى كان فيودور ميخايلوڤيتش يجد فيها متعة رفيعة عند مشاهدتها، والتى كان حريصًا على رؤيتها حتمًا فى كل زيارة يأتى فيها إلى هنا، متخطيًا الكنوز الأخرى:

«Maria mit den Kind» («العذراء والطفل») لموريلو، «Die heilige Nacht» (الليلة المقدسة) لكوريدچو، «المسيح» لأنيبالى كاراتشى، «die büssende magdlena» (ماجدلينا التائبة) لباتونى، «Die Jagd» (الصيد) لرويسدال، «Küstenlandschaft - Morgen und Abend» (منظر طبيعى ـ الصباح والمساء) لكلود لوران (وقد أطلق زوجى على هذه الأعمال اسم «العصر الذهبى» وكتب عنها فى «مذكرة الكاتب»[49]، «Rembrandt und seine Frau» (رامبرانت وزوجته) لرامبرانت ڤان راين، «Köning Karl I von England» (الملك كارل الأول ـ ملك إنجلترا) لأنطون ڤان ـ ديك؛ ومن بين الأعمال المرسومة بالألوان والباستيل كان يقدر تقديرًا عظيمًا «Das Schokolandenmädchen» (فتاة الشيكولاتة) لچان ليوتار.

فى الساعة الثالثة ظهرًا أغلقت قاعة الصور الفنية، ذهبنا بعدها للغداء فى أقرب مطعم وكان يسمى «Italinesh es Dörfchen» (القرية الإيطالية). المطعم عبارة عن

(*) المعدنية، الچيولوچية، النباتية (بالألمانية).

قاعة مسقوفة تقع فوق النهر مباشرة. كانت للمطعم نوافذ كبيرة تطل على نهر إبا من الجانبين، وعندما يكون الجو صافيًا يطيب تناول الغداء فيه ومراقبة ما يحدث على صفحة النهر. كان الطعام هنا رخيصًا نسبيًا ولكنه كان جيدًا. كان فيودور ميخايلوڤيتش يواظب يوميًا على طلب طبق من «Blaus Aal» («سمك الثعبان الأزرق») وكان يحبه للغاية، وكان يعرف أن هذا المطعم يقدمه بعد اصطياد السمك مباشرة. كان زوجى يحب أيضًا أن يحتسى نبيذ الراين، وكان ثمن نصف زجاجة منه آنذاك زهيدًا للغاية. وفى المطعم كانت هناك صحف عديدة، كان يقرأ من بينها الصحف الفرنسية.

بعد أن استرحنا بالفندق ذهبنا للنزهة فى الحديقة الكبيرة Grossen Garden، كان فيودور ميخايلوڤيتش مولعًا بهذه الحديقة وبخاصة بهذا المرج الرائع على الطراز الإنجليزى، وبهذه النباتات والزهور الفاخرة. تبلغ المسافة بين الفندق والحديقة، ذهابًا وإيابًا، أقل من ست ــ سبع فراسخ، وكان زوجى يحب السير على قدميه، ويقدر هذه النزهة تقديرًا كبيرًا ويحرص على القيام بها حتى فى الجو الممطر ويقول عنها إنها تترك لدينا أثرًا طيبًا.

فى ذلك الزمن كان هناك مطعم فى هذه الحديقة يسمى «Zum grossen» «Wirtschaft»، كانت تعزف فيه الموسيقى، تارة إحدى الفرق النحاسية العسكرية، وتارة فرقة موسيقية للآلات المختلفة. أحيانًا ما يكون البرنامج معتبرًا. وكان زوجى، ولم يكن آنذاك قد أصبح عليمًا بالموسيقى، يحب مولفات موتسارت و«Fidelio» وبيتهوفن و«Hochzeitsmarsch» («مارش الزفاف«) و«Air du Stabat Noter» لروسينى، وكان يشعر بالسعادة الحقيقية وهو يستمع إلى الأشياء المحببة لنفسه، ولم يكن فيودور ميخايلوڤيتش يحب ريتشارد ڤاجنر (٥٠).

كان زوجى كثيرًا ما يجد فى هذه النزهات راحته من عناء التفكير فى الأدب وغيره من الأمور، فخلالها يكون دائمًا فى أفضل حالاته النفسية، فيروح يضحك ويلقى بالنكات.

أذكر أن برنامج الحفلات كان يضم تنويعات وألحانًا خليطًا pot – pourry من أوبرا «Dichter und Bauer» («الشاعر والفلاحة») لفرانتس فون زوبى[*]. أحبَّ فيودور ميخايلوڤيتش هذه المنوعات بفضل حادثة وقعت لنا: ففى أثناء إحدى نزهاتنا فى Grossen Garten اختلفنا فى الرأى، وقد عبرت عن رأيى بشكل حاد. أنهى فيودور ميخايلوڤيتش الحديث وسرنا بعده صامتَين حتى بلغنا المطعم. كنت أشعر بالكدر وأتساءل لماذا أفسدت المزاج الطيب الذى كان عليه زوجى. ولكى أعيد إليه هذا المزاج قلت له، عندما بدأوا فى أداء اللحن الخليط من أوبرا زوبى، إن هذه الأوبرا قد كتبت خصيصًا لنا، وأنه يمثل Dichter، بينما أمثل أنا Bauer، وهكذا رحت شيئًا فشيئًا أغنى دور Bauer، وقد أعجب فيودور ميخايلوڤيتش بأدائى وراح بدوره يغنى آريا[**] Dichter، وهكذا أصلح زوبى بيننا. ومنذ ذلك الحين أصبح من عادتنا أن نصاحب الموسيقى بصوت خافت ونحن نؤدى دور الثنائى: فزوجي يؤدى دور Dichter وأنا أؤدى دور Bauer. لم يكن أحد ليلحظ غناءنا، إذ كنا دائمًا نغنى ونحن جلوس إلى «شجرة البلوط» الخاصة بنا. كنا ننعم بقدر كبير من الضحك والمرح، وأكد لى زوجى أنه قد عاد، بفضل وجوده معى، عدة سنوات إلى الوراء تعادل الفارق فى العمر بيننا. كانت هناك مواقف طريفة أيضًا وقعت لنا.

فذات مرة سقط غصين من «شجرة البلوط»عليه خنفساء فى كوب البيرة الكبير الخاص بفيودور ميخايلوڤيتش، عفت نفسه عن أن يشرب منه وكان سريع الشعور بالاشمئزاز، فأعطاه للنادل وأمره أن يحضر كوبًا آخر من البيرة. انصرف النادل ولكن زوجى ندم أنه لم تخطر بباله وقتها أن يطلب منه أولاً كوبًا جديدًا، الآن ربما يكتفى النادل بإخراج الخنفساء فقط من الكوب ويحضره هو نفسه مرة أخرى. عندما عاد النادل سأله فيودور ميخايلوڤيتش: «هل أفرغت ما فى الكوب؟» «كيف أفرغته، لقد شربته!» هكذا أجاب النادل وقد بدت على وجهه علامات الرضا حتى أننا تأكدنا أنه لم يكن ليضيع الفرصة لأن يشرب كوبًا زائدًا من البيرة.

(*) زوبى (Suppe) فرانتس (١٨٢٠ ــ ١٨٩٥): مؤلف موسيقى نمسوى.
(**) أغنية أوبرالية منفردة (المترجم).

أعادت إلينا هذه النزهات اليومية ذكرى أمسيات خطوبتنا الرائعة وعوضتنا عنها. كانت نزهات مليئة بالمرح والصراحة وصفاء النفس.

عدنا فى التاسعة والنصف. شربنا شايًا ثم جلسنا: شرع فيودور ميخايلوفيتش فى قراءة أعمال جيرتسين[٥١] التى اشتراها، بينما رحت أسجل يومياتى. ظللت أكتب هذه اليوميات على مدى عام ونصف ــ عامين من الأعوام الأولى لزواجنا بطريقة الاختزال مع بعض فترات التوقف فى أثناء مرضى.

فكرت فى كتابة يومياتى لأسباب عديدة: فمع كثرة الانطباعات الجديدة خشيت أن أنسى التفاصيل. وبالإضافة إلى ذلك كانت الممارسة اليومية للاختزال هى الوسيلة المضمونة لكى لا أنسى هذا الفن، بل ولأبلغ فيه مبلغ الإجادة. لكن السبب الرئيسى فى الحقيقة كان أمرًا آخر: لقد بدا لى زوجى شخصًا مثيرًا للاهتمام، شخصًا غامضًا للغاية، وقد تصورت أنه سيكون من الأسهل بالنسبة لى، لكى أعرفه وأكشف مكنونه، أن أبدأ فى تسجيل أفكاره وما يبديه من ملاحظات. وبالإضافة إلى ذلك فقد كنت أشعر بأننى وحيدة تمامًا فى الخارج، ليس هناك من أحد أشاركه آرائى، وأحيانًا ما تنتابنى الشكوك والهواجس، فلا أجد صديقًا أستأمنه على أفكارى وآمالى ومخاوفى كلها سوى يومياتى.

أثارت يومياتى اهتمام زوجى وكثيرًا ما قال لى:

أدفع أغلى ما عندى لأعرف يا أنيتشكا ما الذى تعنيه بصنانيرك هذه التى تخطينها: لعلك تشتميننى؟»

ـ الأمر يتوقف عليك: إما مدح، وإما ذم، ــ هكذا كنت أجيب، ستأخذ ما تستحقه. وعلى أية حال، كيف لى أن أذمك؟ وهل من كانت له نفس مثل نفسك يمكن أن تلحق به أى مذمة؟ بمثل هذا السؤال الممازح كنت أنهى حديثى، وكان عندئذ يرجونى ألا أعاتبه.

كان من أسباب خلافاتنا الفكرية ما كان يعرف «بقضية المرأة»، ولمّا كنت معاصرة للستينيات، فقد كنت منافحة عن حقوق واستقلال النساء وكنت أغضب من زوجى

لموقفه غير العادل تجاههن. بل كنت أرى فى مثل هذا الموقف إهانة شخصية لى، وأحيانًا ما كنت أعبر عن ذلك لزوجى. أذكر بالمناسبة أنه سألنى وقد رآنى غاضبة:

ـ آنيتشكا، ماذا دهاك؟ أننى لم أوجه إليك أى إهانة؟

ـ بل فعلت، لقد كنا نتحدث منذ قليل عن العدميات، وقد رحت تشتمهن بقسوة.

صحيح، بيد أنك لست عدمية، فما الذى أغضبك؟

ـ لست عدمية حقًا، ولكنى امرأة، ويؤسفنى أن أراك تشتم امرأة!

ـ أى امرأة أنت إذن ؟ ـ قال زوجى.

ـ كيف أى امرأة ؟ ـ قلت غاضبة.

ـ أنت أنيتشكا الرائعة المدهشة، التى لا مثيل لها فى العالم، والتى لا تشبه أى امرأة!

ـ ونظرًا إلى أننى كنت ما أزال فى سنوات الشباب فقد كنت أرفض أحيانًا ثناءه اللطيف علىّ وأغضب لأنه لا يعتبرنى امرأة على النحو الذى كنت أتصوره عن نفسى آنذاك.

بالمناسبة، لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش يحب عدميات ذلك الزمن. كان رفضهن لكل مظاهر الأنوثة وميلهن للإهمال والقذارة، والخشونة المتعمدة فى السلوك تثير انزعاجه. وكان يقدر فىّ تحديدًا صفاتى المخالفة. لكن موقف فيودور ميخايلوڤيتش اختلف بعد ذلك فى السبعينيات عندما خرج من بينهن نساء ذكيات متعلمات، ينظرن إلى الحياة نظرة جادة. عندئذ كتب زوجى فى «مذكرة الكاتب» أنه يتوقع الكثير من المرأة الروسية(*)

(*) «مذكرة الكاتب» (مجلة «جراچدانين» («المواطن»)،١٨٧٣، العدد٣٥) (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا.)(٥٢).

العام ١٨٦٧. الجدل يتواصل

كان أكثر ما يثير غضبى من زوجى أنه كان فى جدله معى، ينكر امتلاك النساء من جيلى الهمة والسعى الدؤوب نحو تحقيق الهدف المنشود. على سبيل المثال، قال لى ذات مرة:

إليك هذا الأمر البسيط، حسنًا، أيها أختار؟ لنقل جمع طوابع البريد (كنا بالصدفة نمر أمام نافذة أحد المحال كان يعرض مجموعة كبيرة منها فى مكان بارز). إن الرجل إذا اتخذ من هذا الأمر هواية له بشكل منظم فسوف يجمع ويحفظ، فإذا لم يجد لهذه الهواية وقتًا كبيرًا كافيًا، وإذا ما فترت رغبته فى الجمع، فإنه على أية حال لن يلقى بها وإنما سيحتفظ بما جمعه زمنًا طويلاً، ربما إلى نهاية حياته باعتبارها ذكريات ولع الشباب. أما المرأة! فإنها تشتعل أولاً بالرغبة فى جمع الطوابع. فتشترى ألبومًا فاخرًا وتروح تضجر أقاربها ومعارفها بطلب الطوابع، كما أنها تنفق على شرائها أموالاً كثيرًا، ثم إذا بهذه الرغبة تذوى ويتمزق الألبوم الفاخر وتتفرق صفحاته فوق الأرفف هنا وهناك، وفى النهاية يتم الإلقاء به باعتباره شيئًا مملاً لا نفع من وراءه. وهكذا يتكرر الشىء نفسه مع أمور أخرى بعضها تافه والآخر جاد. فى كل الأحوال لن تجدى سوى عزيمة واهنة، هو حماس ملتهب فى البداية لكنه لا يجد إطلاقًا القوة والجهد القادرين على استمراره والإصرار على تحقيق نتائج ملموسة للهدف المرجو.

لا أعرف لماذا أثار هذا الجدل حميتى فأعلنت زوجى أننى سأثبت له، ضاربة المثل بنفسى، أن المرأة تستطيع أن تحافظ لأعوام طويلة على الفكرة التى جذبت اهتمامها. قلت له: «وحيث إننى فى اللحظة الراهنة لا أرانى مشغولة بأى مهام، فسوف أبدأ ولو بهواية تافهة، هى نفسها التى أشرت أنت إليها لتوك، ومنذ اليوم سأبدأ فى جمع طوابع البريد».

أسرعت بتحويل القول إلى فعل فاصطحبت فيودور ميخايلوڤيتش على الفور إلى أول محل صادفنا للأدوات المكتبية حيث اشتريت (من مالى الخاص) ألبومًا رخيصًا

لألصق فيه الطوابع. وعندما عدنا رحت على الفور ألصق فيه الطوابع الموجودة على الخطابات التى تسلمناها من روسيا وبذلك وضعت اللبنة الأولى لمجموعتى. وعندما علمت صاحبة النزل بنيتى راحت تفتش فى خطابات قديمة لديها وأعطتنى عددًا منها لم يستدل على عنوان أصحابها وعلى بعض من طوابع مملكة سكسونيا. هكذا بدأت فى جمع مجموعة الطوابع الخاصة بى، وقد استمر الأمر معى زهاء تسعة وأربعين عامًا. بالطبع لم أبذل على الإطلاق أى جهد لترتيبها فى مجموعات، وإنما كنت أراكمها فقط، وفى الوقت الحالى فإننى أمتلك منها(*) (...) من بينها أعداد تمثل مجموعة نادرة. وأؤكد هنا أننى لم أشتر واحدًا منها، فهى إما كانت على خطابات تسلمتها، وإما أهديت لى، وقد أدرك المقربون منى هذا الضعف، فكانت ابنتى، على سبيل المثال، ترسل إلىّ خطابات عليها طوابع من فئات مالية مختلفة. ومن حين إلى آخر كنت أتباهى أمام زوجى بكمية الطوابع التى تجمعت لدىّ. فكان يضحك أحيانًا من ضعفى.

وخلال وجودنا فى درزدن إبان تلك الأسابيع وقعت حادثة ذكَّرتنى بسمة لم تكن تروقنى فى شخصية فيودور ميخايلوڤيتش، وهى بالتحديد غيرته التى كانت تشتعل على نحو لا مبرر له. المسألة أن الأستاذ أولخين، أستاذ الاختزال، عندما علم بنيتنا البقاء بعض الوقت فى درزدن، أرسل معى خطابًا لأسلمه إلى البروفيسور تسايبج Zeibig، نائب رئيس حلقة أتباع مدرسة هابلسبرجر للاختزال، التى تتبنى نفس نظام الاختزال الذى تعلمت على أساسه [٥٣]. وقد أكد لى أولخين أن تسايبج شخص ممتاز يمكننا الاعتماد عليه فى رؤية المتاحف وغيرها. عند وصولنا لم أذهب مباشرة لتسايبج، وبعد مرور فترة طويلة من الوقت رأيت أنه من غير اللائق ألا أسلمه الخطاب فقررت، أخيرًا، أن أذهب إليه. لم يكن تسايبج فى منزله فتركت له الخطاب؛ وفى اليوم التالى أرسل بطاقته، وحيث إن كلينا كنا بالبيت فقد اقترح علينا أن نحضر الاجتماع التالى لحلقتهم.

وافقنا، لكن زوجى قرر مؤخرًا أن أذهب وحدى مع تسايبج بعد أن أحس أنه سوف يكون أمرًا مملاً له أن يحضر اجتماعًا متخصصًا.

(*) فقرة مفقودة فى المخطوطة.

على هذا النحو سار الأمر. كانت حلقة المختزلين تعقد اجتماعاتها فى Hotel (*) فى Wildrüfer straβe. بدأ الاجتماع وراح أحد الأساتذة القدامى فى قراءة أحد التقارير. ومع أن تسايبج دعانى للجلوس بالقرب منه، إلا أننى فضلت الجلوس بعيدًا، نصف ساعة مرت فى ضجر شديد، وحين حل موعد الاستراحة قادنى الأستاذ نحو الرئيس وأعلن للجميع أننى حضرت من روسيا بخطاب من شخصية متخصصة فى الاختزال هناك. حيانى رئيس الجلسة وقد شعرت بالارتباك فى بادئ الأمر حتى أننى لم أنتبه لرد تحيته وإنما اكتفيت بالانحناء. انتهت قراءة التقارير والتف جميع أعضاء الحلقة حول طاولة طويلة، راحوا يشربون البيرة ويتحدثون. وقد جاء الأعضاء ليتعرفوا علىّ ويعرفونى بأنفسهم واحدًا وراء الآخر. تمالكت نفسى بل ورحت أثرثر على سجيتى. كنت أتحدث بالألمانية مع بعض الأخطاء وبشىء من الحماس. وسرعان «ما استملت بحديثى المعجبين» من أعضاء الحلقة كبارهم وشبابهم (وهو ما عاتبنى عليه زوجى فيما بعد). رفع الجميع نخب صحتى، قدموا لى فاكهة وفطائر. وفى التاسعة اقترح علىّ تسايبج أن يوصلنى للبيت، نجحت فى أن ألقى خطابا قصيرًا بالألمانية توجهت فيه للجميع بالشكر على الاستقبال الطيب ودعوت من لديه الرغبة فى السفر إلى بطرسبورج. مؤكدة أن أتباع مدرسة هابلسبرجر سوف يلقون نفس الترحيب الحار من جانب الروس. خلاصة القول أننى كنت فى حالة من السعادة من جراء انتصارى، وخصوصًا أننى قرأت بعد يوم فى صحيفة «Dresdener Nachrichen» «أنباء درزدن» خبرًا تضمن ما يلى... (**) (٥٤).

لكن فيودور ميخايلوڤيتش تعامل مع «انتصارى» على نحو مختلف. فعندما قصصت عليه كل تفاصيل حفل الاستقبال، لاحظت فى وجه زوجى تعبيرًا لا ينم عن الرضا. وظل باقى المساء حزينا للغاية؛ وبعد مرور يومين ــ ثلاثة قابلنا فى إحدى نزهاتنا واحدًا من أعضاء الحلقة، شابًا متورد الوجه ممتلئ البدن مثل خنزير، انحنى مسلمًا، بعدها قدم

(*) فقرة مفقودة فى المخطوطة.

(**) فقرة مفقودة فى المخطوطة.

فيودور ميخايلوڤيتش لى «مشهدًا» أقام فيه الدنيا ولم يقعدها، لم أرغب بعدها فى التردد على تلك النزهات الاجتماعية فى أطراف المدينة التى دعانا إليها وزوجى السيد تسايبيج. هذه الخصلة القاسية والمهينة التى ظهرت مرة أخرى فى طباع زوجى دفعتنى أن أكون أكثر حذرًا وأن أتجنب مثل هذه المشكلات.

وقد وقعت لنا إبان وجودنا فى درزدن حادثة أثارت اضطرابنا إلى حد بعيد. فقد نما إلى علم زوجى من شخص ما أن هناك شائعة تنتشر فى المدينة مفادها أنه قد جرى إطلاق الرصاص على إمبراطورنا الذى يزور باريس فى الوقت الحالى (محاولة بيريزوڤسكى)(*) وأن هذا العمل الشرير قد حقق الغرض منه(٥٥) يمكن أن نتصور مدى الاضطراب الذى كان عليه زوجى! كان زوجى شديد الإعجاب بالإمبراطور ألكسندر الثانى الذى قام بتحرير الفلاحين وللإصلاحات التى قام بها لاحقًا (٥٦). وبالإضافة إلى ذلك كان فيودور ميخايلوڤيتش يرى أن الامبراطور صاحب فضل عليه: فقد تم إعادة النبالة الوراثية، التى كان يعتز بها أشد الاعتزاز، إلى زوجى بمناسبة تتويج ألكسندر الثانى. كما سمح له أيضًا بالعودة من سيبيريا إلى بطرسبورج (٥٧) ومن ثم فقد أعطى ذلك له الفرصة من جديد ليعود للعمل بالأدب، أقرب الأمور إلى قلبه.

قررنا التوجه على الفور إلى قنصليتنا. كان وجه فيودور ميخايلوڤيتش، كما يقولون، «مخطوفًا»، كان فى شدة القلق والاضطراب وكان ينهب الطريق نهبًا، أما أنا فقد كنت أفرق خوفًا أن تداهمه النوبة سريعًا (وهو ما وقع له فى نفس الليلة). وكم كانت سعادتنا بالغة أن قلقنا كان مبالغًا فيه، فقد هدأ من روعنا الخبر الذى أحاطونا به علمًا فى القنصلية من أن هذه الجريمة لم تنجح. وعندئذ سارعنا بطلب السماح لنا بأن نسجل أسماءنا فى عداد الشخصيات التى حضرت إلى القنصلية لتعبر عن استيائها من هذا الاعتداء الأثيم. ظل زوجى طوال اليوم حزينًا مكتئبًا، لقد أظهرت محاولة الاغتيال الجديدة،

(*) أنطون بيريزوڤسكى (١٨٤٧ ـ ١٨٦٩): ثورى بولندى، شارك فى الانتفاضة البولندية التى جرت فى عام ١٨٦٣

التى أعقبت المحاولة الأولى مباشرة والتى قام بها كاراكوزوف(*)، أظهرت لزوجى على نحو واضح أن شباك المؤامرات السياسية تمتد بجذورها عميقًا، وأن حياة الأمبراطور الذى يقدره عظيم التقدير تحيق بها الأخطار من كل جانب.

مر ما يقرب من ثلاثة أسابيع على حياتنا فى درزدن وإذا بزوجى ذات يوم يتحدث على نحو عابر عن لعبة الروليت (كنا أحيانًا ما نتذكر عملنا معًا فى كتابة رواية المقامر)، وقد عبر عن فكرة أنه لو كان وحيدًا الآن فى درزدن لذهب حتمًا ليلعب. وقد عاد زوجى إلى هذه الفكرة مرتين ثلاثًا، وعندئذ سألته، وقد أردت ألا أقف حجر عثرة أمام رغبته، وما الذى يمنعه الآن ألا يفعل؟ تعلل فيودور ميخايلوفيتش بأنه لا يستطيع أن يتركنى وحيدة وأن ذهابنا معًا سيكون مكلفًا. رحت أقناع زوجى أن يذهب إلى هامبورج لعدة أيام وأنا أؤكد له أنه لن يقع لى أى مكروه فى غيابه، ولكنه حاول التذرع فى البداية، وحيث إنه كان يرغب بشدة فى أن «يجرب حظه»، فقد وافق على السفر إلى هامبورج تاركًا إياى فى رعاية صاحبة النزل. وعلى الرغم من أننى كنت أشعر بالانتعاش فإننى سرعان ما شعرت بالوحدة عندما إبتعد القطار. لم أستطع أن أملك مشاعرى فانفجرت فى البكاء. مر يومان أو ثلاثة وبدأت أتلقى خطابات من هامبورج يخبرنى زوجى فيها أنه تعرض للخسارة ويطلب منى أن أرسل إليه نقودًا؛[٥٨] وقد أجبت طلبه، ولكن تبين لى أنه خسر أيضًا النقود التى أرسلتها إليه وطلب منى مرة أخرى أن أرسل إليه غيرها وبالطبع فقد أرسلتها إليه. وحيث إننى لم أكن أدرك آنذاك قلق «المقامر» إطلاقًا، فقد بالغت فى أثره على صحة زوجى. لقد تصورت استنادًا إلى خطاباته أنه، وقد أقام فى هامبورج، يشعر بالقلق والتوتر. خشيت أن تداهمه نوبة جديدة وسقطت فى براثن اليأس وأنا أفكر لماذا تركته وحيدًا، ولماذا أبقى هنا دونه بدلاً من أن أهدئ من روعه وأعيد إلى نفسه السكينة. تصورت أننى بلغت مبلغًا فظيعًا من الأنانية شعرت معه بأننى اقترفت جرمًا لكونى عاجزة، فى هذه الدقائق العصبية التى يعيشها، أن أقدم له يد العون.

(*) دميترى فلاديميروفيتش كاراكوزوف (١٨٤٠ ــ ١٨٦٦): ثورى إرهابى. قام فى عام ١٨٦٦ بمحاولة اغتيال القيصر ألكسندر الثانى.

مرت ثمانية أيام عاد بعدها فيودور ميخايلوفيتش إلى درزدن [٥٩] وكان سعيدًا للغاية ومسرورًا لكونى لم أعاتبه قط ولم آسف على ما خسرناه من نقود؛ بل لأننى رحت فوق ذلك أهدئه وأدفعه للابتعاد عن السقوط فى مهاوى اليأس.

لقد تركت الرحلة الفاشلة التى قام بها فيودور ميخايلوفيتش أثرًا سيئًا على مزاجه النفسى. راح يعود للحديث عن الروليت، معربًا عن أسفه على الأموال التى أهدرها. وأنه لا يلومن إلا نفسه. وأكد أن فرصًا كثيرة قد واتته ولكنه لم يحسن التصرف إزاءها، إما لأنه تسرع وإما لأنه غيَّر الرهان، أو جرَّب أساليب مختلفة فى المقامرة، وكانت الخسارة هى النتيجة. لقد حدث ذلك لأنه تسرع، لأنه جاء إلى هامبورج وحيدًا ولأنه كان قلقًا بشأنى طـــــوال الوقت. وحتى فى سفراته السابقة إلى الروليت فقد كان مضطرًا للبقاء لا أكثر من يومين أو ثلاثة، ودائمًا ما يذهب إلى هناك وفى حوزته قليل من المال من الصعب أن يحول بواسطتها الظروف غير المواتية للمقامرة. فلو أنه تمكن من الذهاب إلى مدينة القمار ليستقر فيها أسبوعين أو ثلاثة، ومعه احتياطى مناسب من المال لحالفه، على الأرجح، التوفيق والنجاح: عندئذ لن تكون هناك ضرورة للتسرع ولاستخدام أسلوب هادئ فى اللعب لا يسمح بالخسارة مثلما يحدث مع المبالغ الصغيرة، فعلى أى حال المبلغ الكبير يضمن لك تغطية الخسارة. على هذا النحو راح فيودور ميخايلوفيتش يتحدث بثقة، ضاربًا العديد من الأمثلة ليثبت رأيه، الأمر الذى أقنعنى أنا نفسى، وعندما طرح سؤال ما إذا كنا سنمر فى طريقنا إلى سويسرا (حيث كانت وجهتنا) بمدينة بادن ـــ بادن لنمضى بها أسبوعين، وافقت برضا تام على زيارتها. كنت أرى أن وجودى إلى جواره سيكون عاملاً مهمًا فى كبح جماحه. كان أمر مكان الإقامة بالنسبة إلىَّ سيان فالمهم عندى ألا أفترق عن زوجى.

عندما قررنا فى النهاية أن نقضى أسبوعين فى بادن ـــ بادن فور تسلمنا للنقود، اطمأن فيودور ميخايلوفيتش وراح يعمل فى تنقيح وإنهاء عمله الذى تأخر كثيرًا. كانت مقالة عن بيلينسكى أراد زوجى أن يضع فيها كل ما استقر فى نفسه عن هذا الناقد ذائع الصيت.

كان بيلينسكى إنسانًا عزيزًا على قلب فيودور ميخايلوڤيتش، وكان يضع موهبته فى مكانة عالية حتى قبل أن يعرفه معرفة شخصية، وقد تحدث عن ذلك فى «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٧ [٦٠].

وعلى الرغم من أن فيودور ميخايلوڤيتش قدر موهبة بيلينسكى تقديرًا رفيعًا وأثنى بإخلاص على مشاعره النبيلة لتشجيعه لموهبته الأدبية، فإنه لم يستطع أن يغفر لهذا الناقد تجديفه وسخريته من آرائه ومعتقداته الدينية[*][٦١].

من الجائز أن تكون معظم الانطباعات المريرة التى عانى منها فيودور ميخايلوڤيتش فى علاقته ببيلينسكى بسبب الفتن والوشايات التى أطلقها هؤلاء ـ الأصدقاء ـ الذين اعترفوا فى البداية بموهبة دستويڤسكى وراحوا يروجون لها، ثم، ولأسباب ما لا أفهمها، إلا قليلًا، بدأوا فى ملاحقة صاحب رواية «الفقراء» الخجول وتلفيق الأكاذيب له وكتابة أشعار هجائية[**] تحط من قدرة ؛ فضلًا عن اقتراف كل شىء من شأنه أن يخرجه عن شعوره[٦٢].

وعندما طلبوا من فيودور ميخايلوڤيتش الكتابة «عن بيلينسكى» تولى القيام بهذا الموضوع المهم بكل ترحاب، واضعًا فى اعتباره أن يكتب مقالًا يعبر فيه بإخلاص وموضوعية، بجدية وليس على نحو عابر، يضمنه رأيه فى هذا الكاتب الذى كان يعتزي بدستويفسكى فى البداية، ثم إذا به فى النهاية يحمل له كل هذا القدر من البغضاء.

بداهة فقد كان هناك الكثير من الأمور لم تختمر بعد فى عقل فيودور ميخايلوڤيتش، الكثير مما ينبغى تمحيصه، فإما أن يقره أو يشك فى صحته، وقد كان على زوجى أن يعيد كتابة مقاله عن بيلينسكى خمس مرات، والنتيجة أنه ظل غير راض عنها تمامًا. فى خطابه ـ إلى أبوللون مايكوف المؤرخ الخامس عشر من سبتمبر عام ١٨٦١ كتب فيودور

(*) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر مقالنا المنشور بمجلة ألف، مجلة البلاغة المقارنة، العدد الثالث والعشرون ٢٠٠٣ تحت عنوان «دستويڤسكى: جدلية الشك والإيمان»، ص ٣١ ـ ٤٤ (المترجم)

(**) مجلة «نيڤا»، العدد ٤، عام ١٨٨٤، مقال ى. ب. بولونسكى: «مذكرات أ. ى. جولوڤوتشيڤا بانايڤا»، ١٨٩٠. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويسكايا).

ميخايلوڤيتش(*): «المسألة أننى أنهيت هذه المقالة اللعينة: «معرفتى ببيلينسكى». لم يكن هناك من سبيل للتأجيل أو المماطلة. بالمناسبة فقد كتبتها صيفًا، ورغم ذلك فقد عذبتنى عذابًا هائلاً وكانت كتابتها أمرًا بالغ الصعوبة حتى أننى لم أنته منها إلا مؤخرًا وبشق الأنفس. المشكلة أننى اندفعت بغباوة لكتابة هذه المقالة منذ اللحظة الأولى لكتابتها، والآن أرى أنه كان من المستحيل أن أكتبها وفقًا لمطالب الرقابة (لأننى أردت أن أقول كل شىء). إن كتابة عشر ملازم فى رواية أسهل من هاتين الملزمتين! لقد كتبت هذه المقالة المزعجة، إذا حسبنا الأمر إجمالاً، خمس مرات، ثم عدت لأشطب، ثم راجعت كل ما كتبت مرة أخرى. وفى النهاية وصلت بشكل ما إلى المقالة، ولكنها مقالة سيئة، لدرجة أن نفسى قد عافتها. كم من الحقائق الثمينة اضطررت لحذفها! وكما توقعت، لم يبق إلا الأسوأ وما هو بين بين. يا لها من سفالة!»

أما مصير هذه المقالة فكان محزنًا. كان قنسطنطين بابيكوف(**) قد طلب من فيودور ميخايلوڤيتش كتابتها لإدراجها ضمن أحد المنتخبات، وقد دفع الرجل مائتى روبل على سبيل العربون. كان من الضرورى الانتهاء من كتابة المقالة بحلول الخريف وإرسالها إلى موسكو إلى فندق «روما». وتحسبًا لانتقال بابيكوف إلى شقة أخرى طلب فيودور ميخايلوڤيتش من أبوللون مايكوف أن يسدى إليه خدمة بأن يعيد إرسال المخطوطة إلى إيڤان سولوڤيوف(***)، بائع الكتب فى موسكو ليسلمها بدوره إلى بابيكوف. وقد تصرف أبوللون مايكـــوف وفق ما طلب منه زوجى، وهو ما أخبرنا به(****)، وحيث إننا كنا نعيش بالخارج، فلم نعلم شيئًا عما إذا كانت المقالة قد نشرت أم لا. وفى عام ١٨٧٢ تسلم فيودور ميخايلوڤيتش رسالة من بائع كتب ما، طلب منه فيها أن يسلمه

(*) «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ١٧٨ (ملاحظة لآنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا)(٦٣)

(**) قنسطنطين إيڤانوڤيتش بابيكوف (١٨٤١ ـ ١٨٧٣): شاعر وقصاص، عمل بصحيفتى «الزمن» و«العصر».

(***) إيڤان جريجوريڤيتش سولوڤيوف: تاجر كتب فى موسكو، شريك دستويڤسكى لسنوات طويلة فى بيع مؤلفاته. يرد ذكره كثيرًا فى مراسلات دستويڤسكى وزوجته. أعطيت له فى عام ١٨٦٠ مقالة دستويڤسكى عن بيلينسكى.

(****) خطاب أبوللون مايكوف مؤرخ الثالث من نوفمبر ١٨٦٧ (ملاحظة لآنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)(٦٤)

المقالة التى كان بابيكوف قد اتفق معه على كتابتها، وأخبره بالمناسبة أن المنتخب لم يطبع بعد[٦٥]. شعر زوجى بالقلق الشديد لضياع المقالة، وخصوصًا أنه بذل فيها جهدًا فائقًا، وعلى الرغم من أنه لم يكن راضيًا عنها، ولكنه كان يعتز بها. رحنا نجد فى البحث عن المقالة لنعرف أين عساها أن تختفى، وطلبنا المساعدة من بائع الكتب الموسكوفى، لكن نتيجة البحث كانت محزنة: اختفت المقالة دون أثر. وقد أسفت شخصيًا على ذلك، لأنه استنادًا على انطباعى عنها آنذاك، ووفقًا للملاحظات التى سجلتها بشأنها فى دفتر اختزالى، كانت مقالة مهمة للغاية وعبقرية[٦٦].

(٣)

تلقينا فى نهاية شهر يونيو نقودًا من هيئة تحرير مجلة «البشير الروسى» وعلى الفور قررنا أن نسافر. غادرت، وكلى أسف، مدينة درزدن حيث قضيت أيامًا جميلة وسعيدة، لكن شعورًا ما مبهمًا كان يكتنفنى وينبئنى بأن أحوالنا الجديدة سوف يطرأ عليها تغيير كثير. وقد تحققت نبؤوتى؛ عندما أعود بذكرياتى إلى الأسابيع الخمسة التى قضيناها فى بادن ـــ بادن، وأقرأ ما سجلته بالاختزال فى يومياتى، أصل إلى اقتناع مفاده أن ما حدث هناك كأن كابوسًا ثقيلاً استولى تمامًا على زوجى ولم يفلته من قيوده الثقيلة.

كانت نظريات فيودور ميخايلوفيتش بشأن إمكانية الفوز فى القمار باستخدام طريقته فى اللعب صحيحة تمامًا، وكان من الممكن أن يصبح النجاح حليفه، بشرط أن يكون من يستخدم هذه الطريقة رجلاً رابط الجأش، مثل إنجليزى أو ألمانى، وألا يكون شخصًا عصبى المزاج ينغمس كلية فى الأمر حتى المدى الأخير، وهو ما لم يكن عليه زوجى. على أنه بالإضافة إلى الرزانة ورباطة الجأش. فإن على المقامر أن يمتلك أموالاً طائلة حتى يتمكن من تحمل سوء الحظ الذى يصادفه إبان اللعب. وفى هذا الشأن كان لدى دستويفسكى نقطة ضعف: كان لدينا قليل من المال، مقارنة بالآخرين، ولم تكن لدينا أى فرصة على الإطلاق لتعويضه من أى مصدر فى حـــال خسارته. وما هو إلا

أسبوع واحـد يمضي وإذا بفيودور ميخايلوڤيتش يخسر ما لديه كله، وإذا بالقلق يجتاحه وهو يبحث عن طريقة يحصل بها على نقود ليواصل اللعب. اضطررنا للجوء إلى رهن أشيائنا، ولكن زوجى أحيانًا ما كان يفقد القدرة على السيطرة على نفسه بمجرد رهن الأشياء، فكان كثيرًا ما يخسر كل ما حصل عليه مقابل الأشياء المرهونة، وكان أحيانًا ما يخسر آخر طالر يملكه تقريبًا، وفجأة إذا بالحظ يحالفه فيعود للبيت حاملاً عشرات من العملات الذهبية (تساوى الواحدة منها عشرين طالر) أى ما يبلغ قيمته حوالى أربعة آلاف وثلثمائة طالر، ولكن سرعان ما يختفى كل هذا المال من أيدينا. لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش يطيق صبرًا: فقبل أن يهدأ من سورة القمار أخذ عشرين عملة ذهبية ليخسرها، ثم يعود ليأخذ عشرين غيرها فيخسرها أيضًا، وعلى مدى ساعتين أو ثلاث عاد عدة مرات وفى النهاية خسرها كلها. ومرة أخرى نعـــود لرهـــن أشيـــائنا، وحيث إن هذه الأشياء لم تكن ذات قيمة كبيرة فسرعان ما اختفت هذه المصادر، وفى الوقت نفسه راحت ديوننا تتراكم. كنا نشعر بحرج موقفنا؛ إذ اضطررنا أن نستدين حتى من صاحبة الشقة، وكانت امرأة ميالة للشجار، لم تخجل من أن تتعامل معنا بإهمال وتحرمنا من مختلف وسائل الراحة، التى كان لنا الحق فى استخدامها بناء على اتفاقنا معها. كتبت خطابًا إلى أمى ورحنا ننتظر النقود بكثير من القلق، ولكنها كانت تذهب أدراج الرياح فى المقامرة يوم وصولها أو فى اليوم الذى يليه، ولم نكن ننجح إلا فى سداد بعض الديون العاجلة (إيجار الشقة، الطعام وغيرها من أمور) ثم نعود من جديد لنجلس دون نقود نفكر كيف سنتصرف لكى نحصل على مبلغ محترم يخلصنا من ديوننا، دون أن نفكر فى المكسب الأكبر وهو أن نخرج فى نهاية الأمر من هذا الجحيم.

عن نفسى فقد كنت أتلقى، بكل رباطة جأش، «ضربات القدر» هذه والتى كنا نوجهها لأنفسنا بإرادتنا. لقد تكون لدى اقتناع تام، بعد مرور وقت قليل من خسائرنا الأولى واضطراب حياتنا، أن فيودور ميخايلوڤيتش لن يربح شيئًا من وراء اللعب، وأنه قد يربح، ربما مبلغًا ضخمًا، ولكنه سيخسر هذا المبلغ نفسه فى نفس اليوم (أو اليوم التالى على الأكثر) وأن توسلاتى ومحاولاتى إقناعه وإغراءه بعدم الذهاب إلى مائدة القمار والتوقف عن اللعب لن يؤثر فى زوجى فتيلاً.

لقد بدا لى أمرًا غريبًا كيف أن شخصًا مثل فيودور ميخايلوڤيتش تحمل فى حياته من العذاب صنوفًا وألوانًا (الحبس فى القلعة، الصعود إلى منصة الإعدام، وفاة أخيه الحبيب وزوجته)، لا يملك مقدارًا من الإرادة يجعله يتمالك ويتوقف عند قدر معلوم من الخسارة، دون أن يجازف بآخر طالر يملكه. وقد تصورت أن ما يحدث فيه قدر من الإذلال لا يليق بطبيعته السامية، وكنت أشعر بالحسرة والألم أن أعترف بهذا الضعف فى زوجى العزيز. على أننى سرعان ما أدركت أن الأمر ليس مجرد مسألة «ضعف إرادة» بسيطة، وإنما شهوة فرضت كامل سيطرتها على إنسان، قوة طبيعية تعجز حتى أقوى الشخصيات عن التصدى لها ومقاومتها، يجب التسليم بذلك والنظر إلى الولع بالمقامرة باعتباره مرضًا لا تملك حياله حولاً أو قوة. لم تكن هناك سوى وسيلة وحيدة للمقاومة ألا وهى الهروب. ولم نكن نستطيع الهروب من بادن قبل أن نحصل على مبلغ كبير من المال من روسيا.

ينبغى هنا أن أكون منصفة لنفسى. فأنا لم أعاتب زوجى مطلقًا على خسارته، ولم أتشاجر معه لهذا السبب فى أى وقت من الأوقات (وقد قدّر لى زوجى هذه الخاصية فى شخصيتى)(*) ودون تذمر رحت أعطيه آخر ما أملكه من أشياء لن تعود إلىّ على الأرجح إذا لم يسدد رهنها فى موعده (وهو ما حدث بالفعل)(**)؛ فضلاً عن معاناة السخافات من جانب صاحبة النزل وصغار الدائنين.

لكن أكثر ما كان يؤلمنى ويعتصر قلبى مقدار المعاناة التى عاشها فيودور ميخايلوڤيتش نفسه. كان دائمًا ما يعود من الروليت (لم يأخذنى بالمناسبة معه مرة واحدة، إذ كان يرى أنه لا مكان لامرأة شابة مهذبة فى صالة للقمار)، شاحبًا هزيلاً، تكاد ساقاه تحملانه. كان يطلب منى نقودًا (كان قد أعطانى مسبقًا كل النقود)، ثم يخرج ليعود بعد نصف ساعة أكثر طلبًا للمال من جديد، إلى أن يخسر كل ما لدينا.

(*) «السيرة الذاتية والخطابات». خطاب دستويفسكى إلى مايكوف، ص١٧٣ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا.) (٦٧)

(**) لم تكن الرهونات تقبل فى أماكن القمار لشهور وإنما لأسابيع وربما لأيام فقط. فإذا لم تسدد فى الموعد المحدد فلا يمكن استردادها حيث يعلن عن بيعها (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا.)

عندما كانت الرغبة فى الذهاب إلى الروليت تستولى على فيودور ميخايلوڤيتش، ولم يكن لدينا مال ولا نتوقع الحصول عليه من أى مكان، إذ به يصبح شديد الاكتئاب، منقبض النفس حتى ليكاد يبكى. يجلس أمامى على ركبتيه يرجونى أن أسامحه على ما يسببه لى من عذاب بسبب تصرفاته، ثم ما يلبث أن يهوى فريسة اليأس. كان الأمر يتطلب منى عندئذ جهدًا فائقًا لإقناعه وتهدئته وتصوير وضعنا بأنه ليس يائسًا إلى هذا الحد، وأن علينا أن نفكر فى مخرج من هذا المأزق ولفت انتباهه وأفكاره إلى شىء آخر. وكم كنت راضية وسعيدة، عندما كنت أنجح فى عمل ذلك بأن آخذه إلى قاعة القراءة ليتصفح الصحف، أو نذهب معًا لنواصل نزهاتنا، الأمر الذى كان يترك تأثيرًا إيجابيًا دائمًا على زوجى. عشرات الفراسخ قطعناها أنا وزوجى فى ضواحى بادن فى فترات التوقف الطويلة لحين استلامنا نقودًا. عندئذ كان مزاجه الطيب السمح ينتعش، وكنا نتبادل الأحاديث لساعات طويلة فى شتى الموضوعات. كانت نزهتنا المحببة إلى Neues Shloβ (القلعة الجديدة)، ومنها، عبر ممرات الغابات الرائعة، إلى القلعة القديمة، حيث كنا نتناول حتمًا هناك اللبن أو القهوة. وقد ذهبنا أيضًا إلى القلعة البعيدة المعروفة باسم قلعة إيرينبريتشتاين (على مسافة ثمانية فراسخ تقريبًا من بادن) وهناك تناولنا طعام الغداء لنعود مع غروب الشمس. كانت نزهاتنا جيدة وأحاديثنا شيقة حتى أننى (على الرغم من غياب المال ومضايقات صاحبة النزل) كنت على استعداد أن أحلم ألا يرسلوا إلينا لمدة أطول نقودًا من بطرسبورج، ولكن ها هى النقود تصل وإذا بحياتنا الهانئة تتحول إلى كابوس.

لم يكن لدينا معارف فى بادن. الصدفة وحدها قادتنا لنلتقى فى المنتزه بالكاتب إيڤان ألكسندروڤيتش جونتشاروف(*)، الذى عرفنى به زوجى. كان مظهره أشبه بموظفى

(*) إيڤان ألكسندروڤيتش جونتشاروف (١٨١٢ ـ ١٨٩١): كاتب، مؤلف روايات «قصة عادية»، «أوبلوموف»، «الجرُف» وغيرها. تعرف عليه دستويڤسكى فى عام ١٨٤٦ فى بيت أبوللون مايكوف ولكنهما لم يتصادقا وإن راح كل منهما يتابع إبداع الآخر. وقد شغل جونشاروف مناصب رفيعة، كان من أبرزها عمله مستشارًا للرقابة.

بطرسبورج، كما بدا لى حديثه عاديًا، حتى أننى أحبطت بعض الشىء من هذه المعرّفة الجديدة، ولم أكن راغبة فيها، بل إننى لم أصدق أن هذا الرجل هو نفسه صاحب رواية «أوبلوموف»، وهى الرواية التى كنت شديدة الإعجاب بها (٦٨).

وقد قام فيودور ميخايلوفيتش بزيارة إيڤان تورجينيف الذى كان يعيش فى هذا الوقت فى بادن بادن، ولدى عودته من هذه الزيارة غاضبًا قصّ علىَّ تفصيلا ما جرى بينه وبين تورجينيف من حديث (٦٩)

(٤)

العام ١٨٦٧ . چينيڤ

ما إن غادرنا بادن بادن حتى انتهت فترة عاصفة من حياتنا قضيناها بالخارج. وكالعادة، انتشلتنا من مصيبتنا هيئة تحرير «البشير الروسى» الطيبة العبقرية. على أن كل ما تسلمناه من «البشير» من نقود ذهبت فى سداد العديد من الديون والرهونات التى تراكمت على كاهلنا فى فترة اليأس، لكن الأمر الذى آلمنى بشدة كان عجزى عن استرداد هدية زواجى العزيزة على قلبى: البروش والأقراط المطعَّمة بالماس والياقوت، والتى ذهبت بلا عودة.

كنا نحلم أنا وزوجى أن نذهب لزيارة باريس فور مغادرتنا لبادن بادن، أو نمر بإيطاليا، ولكن عندما قمنا بحساب ما نملك قررنا أن نستقر بعض الوقت فى چينيڤ، آخذين فى الاعتبار أننا سوف نسافر إلى الجنوب عندما تتحسن أحوالنا المادية. وفى طريقنا إلى چينيڤ توقفنا لليلة فى بازل بهدف مشاهدة إحدى اللوحات فى متحفها سمع عنها زوجى من صديق له. هذه اللوحة رسمها بريشته هانز هولباين (Hans Holbien) وتصور عيسى المسيح، الذى عانى عذابًا فوق طاقة البشر، بعد إنزاله من على الصليب وقد أخذ جسده فى التفسُّخ. كان وجهه المتورم مغطى بالجروح المدماة، وكان منظره بشعًا. لقد تركت هذه اللوحة على فيودور ميخايلوفيتش تأثيرًا بالغًا وظل

واقفًا أمامها ذاهلاً(*)، لم يكن باستطاعتى النظر إلى اللوحة: كانت تترك فى النفس انطباعًا ثقيل الوطء، بخاصة وقد كنت أعانى من المرض، خرجت لأشاهد القاعات الأخرى لأعود بعد حوالى خمس عشرة ــ عشرين دقيقة لأجد فيودور ميخايلوڤيتش ما يزال واقفًا مسمرًا فى مكانه وعلى وجهه المضطرب تعبير ما مخيف، تعبير سبق لى مرارًا أن لاحظته فى الدقائق الأولى لنوبة الصرع التى كانت تنتابه، تأبطت ذراع زوجى ثم اقتدته فى هدوء إلى قاعة أخرى وأجلسته على أريكة ورحت أترقب دقيقة بعد الأخرى حلول النوبة، لكن الأمر لحسن الحظ مر بسلام، وسرعان ما استعاد فيودور ميخايلوڤيتش رباطة جأشه، ولدى مغادرتنا للمتحف عبّر زوجى عن رغبته الملحة فى أن يعود مرة أخرى ليشاهد هذه اللوحة التى أثارته إلى هذا الحد [٧١]

بمجرد وصولنا إلى چينيف سارعنا فى اليوم نفسه للبحث عن غرفة مفروشة. طفنا بكل الشوارع الرئيسية وشاهدنا العديد من الغرف المفروشة دون جدوى: كانت الغرف إما غير مناسبة لقدراتنا المالية، وإما تقع فى أماكن شديدة الازدحام، الأمر الذى لم يكن يناسبنى. وأخيرًا وعند حلول المساء نجحنا أن نجد شقة مناسبة لنا تمامًا. كانت تقع على ناصية شارعى Guillaume وBertellier فى الطابق الثانى، فسيحة للغاية، ومن نافذتها الوسطى يمكن رؤية أحد الجسور الممتدة على نهر الرون وجزيرة چان چاك روسو. كما أعجبنا أيضًا بصاحبتى الشقة الآنستين Raymondin، كلتاهما تخطت سن الزواج بأعوام طويلة. قابلاتانا بترحاب شديد وراحتا تمتدحاننى ومن ثم قررنا، بلا تردد، أن نسكن لديهن.

بدأت حياتنا فى چينيف بما لدينا من أموال زهيدة: تكفى لسداد شهر مقدمًا لصاحبتى الشقة، وفى اليوم الرابع لوصولنا تبين أن كل ما لدينا هو ثمانية عشر فرنكًا، مع اعتبار أننا كنا نضع فى حسباننا أننا سنتسلم خمسين روبلاً(**)، لكننا كنا قد تعودنا أن نقنع بما لدينا

(*) تعكس رواية «الأبله» مشاعر دستويفسكى تجاه هذه اللوحة. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا. [٧٠])

(**) «السيرة الذاتية والخطابات». فيودور ميخايلوڤيتش دستويفسكى، ص١٦٧ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا). [٧٢]

من مبالغ ضئيلة، وعندما يتم صرفها كنا نفتش على رهن أشيائنا، وقد بدت الحياة لنا، وبخاصة بعد الاضطرابات التى عانينا منها منذ زمن غير بعيد، فى البداية جيدة للغاية.

وهنا، كما فى درزدن، ساد النظام حياتنا اليومية: فيودور ميخايلوڤيتش يعمل ليلاً فلا يستيقظ قبيل الحادية عشرة صباحًا؛ أتناول إفطارى معه ثم أذهب بعد ذلك للتنزه بناء على تعليمات الطبيب، أما فيودور ميخايلوڤيتش فيواصل عمله. فى الثالثة ظهرًا نتوجه إلى المطعم لتناول طعام الغداء، بعدها أخلد إلى الراحة، فيعود بى زوجى إلى المنزل ليذهب بعدها إلى أحد المقاهى فى شارع Mont – Blanc حيث يتلقون هناك الصحف الروسية، وعلى مدى ساعتين يستمر زوجى فى قراءة «جولوس»(«الصوت») والوقائع «الموسكوفية» و«البطرسبورجية»، كما يطالع بعض الصحف الأجنبية. وفى المساء، فى حوالى السابعة، نواصل نزهتنا، وحتى أتجنب الإرهاق، كنا نتوقف أمام نوافذ المحلات الفاخرة ذات الإضاءة الباهرة، وكان فيودور ميخايلوڤيتش يشير إلى تلك الحلى الثمينة التى كان يتمنى لو يهديها لى لو كانت لديه ثروة. وللإنصاف فقد كان لدى زوجى ذوق فنى رفيع وكانت الحلى التى يشير إليها رائعة الجمال حقًا.

كنا نمضى المساء إما فى إملاء الرواية الجديدة، أو فى قراءة الكتب الفرنسية، وكان زوجى حريصًا على أن أقرأ وأن أدرس بشكل منهجى عملاً لأحد الكتاب دون أن يبتعد باهتمامه عن باقى الكُتاب. كان فيودور ميخايلوڤيتش يضع موهبتى كل من بلزاك[٧٣] وچورچ صاند [٧٤] فى مكانة رفيعة، وقد رحت تدريجيًا أعيد قراءة رواياتهما. كنا نتحدث فى أثناء نزهاتنا عن قراءاتى، وكان زوجى يفسر لى جوانب العظمة فيما قرأت من أعمال، وكنت كثيرًا ما أشعر بالدهشة من أن فيودور ميخايلوڤيتش، الذى كان ينسى ما حدث منذ زمن غير بعيد، يتذكر بوضوح تام موضوع وأسماء أبطال روايات هذين الكاتبين المفضلين لديه. أذكر أن زوجى كان يَقدّر على وجه الخصوص «Pére Goriot» («الأب جوريو»)، والجزء الأول من ملحمة «Les parents Pauvres» («الأقارب الفقراء»)[٧٥]. وقد عاد فيودور ميخايلوڤيتش نفسه شتاء عامى ١٨٦٧ / ١٨٦٨ لقراءة رواية ڤيكتور هوجو «Les humiliés et les offenses» («مذلون مهانون»)[٧٦].

لم يكن لدينا أى معارف تقريبًا فى چينيڤ. كان فيودور ميخايلوڤيتش صعب المراس فى عقد صداقات جديدة. فمن بين أصدقائه القدامى قابل فى چينيڤن. ب. أوجاريف(*) فقط، الشاعر الشهير وصديق جيرتسين، وكانا قد تعارفا عنده يومًا ما. كان أوجاريف يأتى لزيارتنا أحيانًا حاملاً معه كتبًا وصحفًا، بل إنه كان يقرضنا أحيانًا عشرة فرنكات، أعدناها إليه فور تسلمنا أول نقود وصلتنا. كان دستويفسكى يقدر العديد من أشعار هذا الشاعر الصادق (٧٧)، وكنا نسعد دائمًا بزيارته. كان أوجاريف آنذاك قد بلغ أرزل العمر، وكان يكن لى قدرًا كبيرًا من الصداقة والمودة. وكان يتعامل معى باعتبارى فتاة شابة. وهو ما كنت عليه بالفعل آنذاك. وللأسف الشديد فبعد ثلاثة أشهر من زياراته هذا الرجل الطيب الصالح لنا، انقطع تمامًا عن الحضور إلينا، فقد وقع له حادث مؤسف، فعند عودته إلى ڤيلاه فى الضواحى، أصيب أوجاريف بنوبة من نوبات الصرع سقط على أثرها على حافة طريق يحد إحدى القنوات، وقد كسرت ساقه من أثر هذا السقوط. ولأن هذا الحادث قد وقع له وقت الغروب وكان الطريق خاليًا من المارة، فقد ظل راقدًا فى هذه القناة حتى الصباح وأصيب بنزلة برد حادة. أخذه أصدقاؤه للعلاج فى إيطاليا، وهكذا فقدنا الصديق الوحيد فى چينيڤ، الذى كنا نسعد بلقائه والتحدث معه.

فى مطلع شهر سبتمبر من عام ١٨٦٧ عقد فى چينيڤ مؤتمر السلام (٧٨)، الذى وصل لحضور افتتاحه جوزيب غاريبالدى(**) وقد أولى القائمون على الأمر اهتمامًا فائقًا بحضوره وأعدت المدينة له استقبالاً رائعًا. وقد ذهبنا أنا وزوجى أيضًا إلى شارع Mont-Blanc، حيث كان من المنتظر أن يمر به بالقطار. كانت البيوت مزدانة بالزهور والأعلام واحتشدت الجموع فى الطريق الذى سيسلكه. إخترق غاريبا الطريق راكبًا عربة تجرها الخيل مرتديًا بدلته المميزة، واقفًا فى العربة وهو يلوح بقبعته ردًا على الحفاوة

(*) نيكولاى بلاتونوڤيتش أوجاريف (١٨١٣ ــ ١٨٧٧): شاعر وكاتب، ناشط ثورى من أنصار جيرتسين. تعرف عليه دستويفسكى فى چينيڤ. وصفه دستويفسكى فى رواية «الشياطين».

(**) چوزيبى غاريبالدى (١٨٠٧ ــ ١٨٨٢): البطل القومى لإيطاليا. أحد قادة الجناح الثورى الديموقراطى المعروف باسم ويسورد چيينتو. شارك فى الثورة الإيطالية (١٨٤٨ ــ ١٨٤٩). منظم الدفاع عن جمهورية روما، ١٨٤٩

الشديدة للجماهير. نجحنا أن نرى غاريبالدى من مسافة قريبة، وقد رأى زوجى أن هذا البطل الإيطالى يتمتع بوجه لطيف وابتسامة بشوش.

كنا مهتمين بمؤتمر السلام فذهبنا لحضور جلسته الثانية ورحنا لمدة ساعة ــ ساعتين نستمع إلى كلمات الخطباء. خرج فيودور ميخايلوڤيتش بانطباع ثقيل من جراء هذه الخطب فكتب عنها خطابًا إلى إيڤانوڤا ــ خميروڤا(*) جاء فيه ما يلى(**): «لقد بدؤوا بقولهم إنه لتحقيق السلام على الأرض ينبغى تحطيم العقيدة المسيحية، وكذلك تدمير الدول الكبرى وتحويلها إلى دويلات؛ وكذلك الأمر مع رؤوس الأموال... ليصبح كل شىء للمصلحة العامة.... كل ذلك دون تقديم أدنى إثبات، كل ذلك محفوظ عن ظهر قلب منذ عشرين عاما، وما يزال على حاله. والأمر الرئيسى عندهم هو النار والسيف، وبعد أن يتم هدم كلٍ شىء، ى زعمهم، يحل السلام». للأسف سرعان ما ندمنا لاختيارنا چينيف محلا دائما لإقامتنا. فى الخريف بدأت العواصف الشديدة التى يسمونها bisesـ وراح الجو فى التقلب مرتين وثلاثًا فى اليوم الواحد. راحت هذه التقلبات المقبضة للنفس تؤثر على أعصاب زوجى، ومن ثم راحت نوبات الصرع تتكرر بشكل ملحوظ. وقد أثارت هذه الأحوال قلقى، بينما راحت تثير غم فيودور ميخايلوڤيتش وكربه، والسبب الرئيسى فى ذلك يعود إلى أن أوان العمل قد حان، وها هى نوبات المرض المتكررة تعوقه بشدة عن الشروع فيه.

فى خريف عام ١٨٦٧ كان فيودور ميخايلوڤيتش مشغولاً بإعداد خطة وكتابة رواية «الأبله»، التى خصصها للأعداد الأولى من مجلة «البشير الروسى» المزمع إصدارها عام ١٨٦٨ . فكرة الرواية «قديمة ومحببة ــ وصف الإنسان الإيجابى الرائع(***) لكن هذه المهمة بدت لفيودور ميخايلوڤيتش مهمة «لاحدود لها». كل هذه الأمور كانت تثير قلق زوجى واضطرابه.

(*) إيڤانوڤا (خميروڤا) صوفيا ألكسندروڤنا (١٨٤٦ ــ ١٩٠٧) ابنة أخت دستويفسكى. مترجمة.

(**) مجلة «روسكايا ستارينا» (الماضى الروسى)، ١٨٧٧، الكتاب الثانى عشر. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا) (٧٩)

(***) مجلة (الماضى الروسى)، ١٨٧٧، الكتاب السابع. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا) (٨٠).

لا بأس، ولكن إلى جانب كل ذلك فقد اجتمع عليه هم آخر لا أساس له فى الواقع إطلاقًا، وهو كيف أنى لا أشعر بالملل، رغم أنى أعيش معه فى وحدة تامة، «فى جزيرة غير مأهولة»، هذا ما كتبه فى خطابه إلى أبوللون مايكوف(*). كيف لم أحاول أن أقنعه، أو أذكر له أننى سعيدة تمامًا، لاينقصنى شىء، وأنه يكفينى أن أعيش معه وأن يظل يحبنى، لكن تأكيداتى قليلاً ما كانت تترك أثرها لديه. كان يجأر بالشكوى من قلة المال الذى يمكننا من الذهاب إلى باريس فيوفر لى إمكانية الاستمتاع بأشياء مثل زيارة المسارح ومتحف اللوفر(**). لم يكن زوجى يعرفنى آنذاك حق المعرفة.

باختصار، سرعان ما أصاب الاكتئاب فيودور ميخايلوڤيتش بقوة، وعندئذ أوحيت له فكرة السفر إلى Saxon les Bains «ليجرب حظه»فى الروليت، سعيًا منى لإبعاده عن الأفكار الحزينة (كانت Saxon les Bains على مسافة خمس ساعات بالقطار من چينيف، وقد أغلقت صالات القمار التى كانت موجودة بها آنذاك منذ فترة بعيدة) استحسن فيودور ميخايلوڤيتش فكرتى. وفى أكتوبر ــ نوفمبر ١٨٦٧ سافر زوجى إلى Saxon لبضعة أيام. وكما توقعت فهو لم يربح أى نقود من الروليت، وإن أثمر الأمر نتيجة أخرى إيجابية: لقد كان لتغيير المكان، والسفر ومعاناة المشاعر العاصفة من جديد(***)، أثر عميق على مزاجـــه. فبعد أن عاد فيودور ميخايلوڤيتش من چينيڤ راح فى حماس شديد فى مواصلة ما انقطع من عمل وخلال ثلاثة وعشرين يومًا كتب حوالى ست ملازم (٩٣ صفحة) لعدد يناير من «البشير الروسى».

لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش راضيًا عن الجزء الذى كتبه من رواية «الأبله» وأخـبرنى أنه لم يوفق فى كتابة الجزء الأول(٨٤). أود أن أذكر هنا بالمناسبة أن زوجى كان دائمًا شـديد الصرامة تجـاه نفسه ونادرًا ما أثنى على عمل من أعمـاله.

(*) «السـيرة الذاتيـة والخطابات»، ص١٨٠ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا(٨١).

(**) المرجع السابق، ص١٨١ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا) (٨٢).

(***) خطابه إلى المؤرخ ١٧ نوفمبر ١٨٦٧ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسـكايا) (٨٣).

كان فيودور ميخايلوڤيتش فى بعض الأحيان يبدى أعجابه وحبه لأفكاره، التى تظل تدور فى رأسه، ولكنه كان غير راضٍ دائمًا تقريبًا عن تجسيدها فى أعماله مع بعض الاستثناءات النادرة.

أذكـــر أن فيودور ميخايلوڤيتش اهـتم بشدة فى شتاء عام ١٨٦٧ بتفاصيل قضية آل أوميتسكى التى أثارت ضجة كبيرة آنذاك. وقد بلغ به الاهتمام أنه كان عازمًا على أن يجعل من أولجا أوميتسكايا بطلة هذه القضية بطلة روايته الجديدة (فى الخطة المبدئية)، حتى أنها كانت تحمل نفس الاسم فى مسوداته. كان زوجى شديد الأسف أنه ليس فى بطرسبورج، إذ كان حتمًا سيدلى برأيه فى هذه القضية [٨٥].

أذكر أيضًا أن فيودور ميخايلوڤيتش فى شتاء عام ١٨٦٧ كان مهتمًا بشدة بنشاط محكمة المحلفين قبل توقيع الأحكام بفترة قصيرة. وأحيانًا ما كان يبلغ به الفرح والتعاطف مع الأحكام المنطقية والعادلة، وكان دائمًا ما يخبرنى بأبرز ما قرأه فى الصحف فيما يخص الحياة القضائية [٨٦].

يمر الزمن وتتزايد همومنا حول ما إذا كان الحدث الهام المنتظر فى حياتنا ــ ميلاد طفلنا البكر، سوف يمر بسلام. وحول هذا الحادث المنتظر تركزت بشكل رئيسى أفكارنا وأحلامنا، ورحنا أنا وزوجى نحب هذا المولود القادم بكل حنان. اتخذنا قرارًا مشتركًا أن نسميها، إذا كانت إبنة، صوفيا (رفضت أن أسميها أنّا كما كان يود زوجى)، على شرف صوفيا ألكسندروڤنا إيڤانوڤا، ابنة أخته المفضلة لديه، وكذلك فى ذكرى «سونيتشكا مارميلادوڤا»(*)، سيئة الحظ التى بكيت من أجلها كثيرًا. أما إذا كان صبيًا، فقد قررنا أن نسميه ميخائيل على شرف أخ زوجى الحبيب ميخائيل ميخايلوڤيتش.

أتذكر بكل العرفان بالجميل، كيف راح فيودور ميخايلوڤيتش يعاملنى بعناية فائقة ورهافة نظرًا إلى حالتى الصحية السيئة. لا أنسى كيف كان يهتم بى بكل حذر، متابعًا كل خطوة من خطواتى محذرًا إياى من القيام بأى حركة متعجلة كنت، لقلة خبرتى،

(*) بطلة رواية «الجريمة والعقاب» (المترجم).

لا أوليها اهتمامًا. إن أكثر الأمهات عطفًا وحنانًا، لم يكن باستطاعتها أن تحافظ علىّ كما فعل زوجى الغالى.

منذ اللحظة الأولى لوصولنا چينيف، سارع فيودور ميخايلوڤيتش بعد تسلمه للدفعة الأولى من النقود، لزيارة أفضل طبيب ولادة وطلب منه التوصية بوضعى تحت رعاية قابلة تقوم بزيارتى أسبوعيًا. وقبل الولادة بشهر ظهرت لى حقيقة مست شغاف قلبى، إذ رأيت إلى أى حد من رهافة الإحساس امتد اهتمام زوجى بى ليشمل أدق التفاصيل. ففى إحدى زيارات مدام Barraud (القابلة)، سألتنى مَن مِن معارفنا يعيش فى الشارع الذى تقطن فيه، إذ إنها كثيرًا ما تقابل زوجى هناك. اندهشت، ولكنى فكرت أنها قد تكون مخطئة. رحت ألاحق زوجى بالأسئلة: كانت مدام Barraud تسكن فى أحد الشوارع العديدة المؤدية إلى الجبل من ناحية شارع Basses، وهو الشارع التجارى الرئيسى فى چينيف. ولمّا كان فيودور ميخايلوڤيتش يخشى أن تخونه ذاكرته البصرية، فقد وضع هذا الشارع هدفًا لجولاته، ومن ثم كان يذهب يوميًا، بعد الانتهاء من القراءة، للمرور ببيت مدام Barraud، مارًا بخمسة أو ستة بيوت بعده ثم يعود راجعًا إلى المنزل. وقد ظل زوجى يقوم بهذه الجولة على مدى الأسابيع الثلاثة الأخيرة، فى الوقت الذى كان صعود هذا المنحدر الصعب يكلفه تضحية كبيرة وقد بدأ مرض الربو يهاجمه. توسلت إلى زوجى ألا يرهق نفسه بهذه المسيرة، لكنه واصل جولاته. وقد حالفه النصر بعد ذلك، إذ أفادته معرفته بالشارع وببيت مدام Barraud أن يعثر بسرعة فى اللحظات العصيبة للحدث المتوقع، على البيت وقت السحر وقد لف الظلام المكان وأن يأتى بها إلىّ.

قلقًا على حالتى، ورغبة منه فى إسعادى، قرر فيودور ميخايلوڤيتش أن يطلب من أمى أن تحضر إلينا وأن تنزل فى ضيافتنا من شهر إلى ثلاثة. وافقت أمى عن طيب خاطر على الحضور وكان شوقها إلىّ وقلقها بشأنى يهزانها هزًا، ولكنها طلبت أن نمهلها فسحة من الوقت، حتى تتمكن من تدبير شؤون البيوت التى تمتلكها، وقد واجهت بعض الصعوبات فى ذلك.

فى منتصف شهر ديسمبر من عام ١٨٦٧، وكنا بانتظار الوضع، انتقلنا إلى شقة أخرى تقع فى شارع Mont – Blanc بالقرب من الكنيسة الأنجليكانية. وفى هذه المرة استأجرنا غرفتين إحداهما فسيحة للغاية، ذات نوافذ أربع تطل على الكنيسة. كانت هذه الشقة تفضل شقتنا القديمة، ولكن كان علينا أن نأسف كثيرًا على العجوزين الطيبتيـــن، أصحاب الشقة القديمة. كان أصحاب الشقة الجديدة دائمى الغياب فلا يتركان لنا سوى الخادمة، وهى فتاة سويسرية من أصل ألمانى، لا تعرف الفرنسية إلا قليلاً ولا قدرة لديها على مساعدتى. ولهذا قرر فيودور ميخايلوفيتش أن يحضر لى garde – malad [*]لرعاية الطفل والعناية بى فى وقت المرض.

انقضى فصل الشتاء ما بين عملنا المشترك فى كتابة الرواية وبين اهتماماتنا الأخرى، وجاء شهر فبراير من عام 1868 ومعه هذا الحدث المأمول والذى طالما أثار مخاوفى.

كان الجو فى چينيف رائعًا فى مطلع العام، ولكنه بحلول منتصف فبراير انقلب إلى النقيض بفعل العواصف اليومية. كان لتغير الجو المفاجئ، كالعادة، أثره السيئ على أعصاب فيودور ميخايلوفيتش، وخلال هذه الفترة القصيرة أصابته نوبتان من نوبات الصرع. كانت الثانية غاية فى القوة، فاجأته فى منتصف ليلة العشرين من فبراير، وقد أنهكته حتى أنه بعد استيقاظه فى الصباح كان يقف على قدميه بالكاد. ظل طوال اليوم متكدرًا، وعندما وجدت أنه على هذا الحال من الضعف أقنعته أن يخلد إلى النوم مبكرًا، وقد استسلم له فى السابعة مساء، ولكن ما إن مرت ساعة واحدة على استغراقه فى النوم، حتى شعرت ببعض الألم، بدأ خفيفًا، ولكنه راح يزداد ساعة بعد الأخرى. كان ألمًا مميزًا وعندها أدركت أنه ألم المخاض وأن ساعة الوضع قد حلت. وتحملت الألم حوالى ثلاث ساعات، ولكننى خشيت فى النهاية أن أظل هكذا دون أن يقدم لى أحد المساعدة، وكم كنت آسفة أن أضطر لإزعاج زوجى المريض، ولكننى قررت أن أوقظه. بدأت أربت على كتفيه بهدوء. رفع على الفور رأسه من على الوسادة وسألنى:

(*) جليسة (بالفرنسية).

ـ ماذ بك يا آنيتشكا ؟ أجبت بقولى:

ـ يبدو أن الأمر قد بدأ. إننى أتألم بشدة!

تحدث إلىَّ زوجى بصوت يفيض بالشفقة قائلاً:

ـ كم أنا آسف من أجلك يا عزيزتى!

وفجأة مالت رأسه على الوسادة ثم راح على الفور فى نوم عميق. هزنى حنانه المخلص بشدة، وفى الوقت نفسه شعرت بعجزه التام. أدركت أن فيودور ميخايلوفيتش فى حالة لن تسمح له بالذهاب وإحضار القابلة وأن عدم إعطائه فرصة لمواصلة النوم لتهدئة أعصابه المنهارة قد يستدعى وقوع نوبة جديدة. كان أصحاب البيت، كعادتهم، بالخارج (كانوا يسهرون كل ليلة وحتى الصباح فى مكان ما)، وكان اللجوء إلى الخادمة أمر لا طائل من وراءه. لحسن الحظ هدأ الألم بعض الشىء فقررت التماسك قدر استطاعتى. ولكن، يا لها من ليلة مروعة قضيتها: كانت الأشجار المحيطة بالكنيسة تهتز بشدة، والريح والمطر يضربان النوافذ، بينما ساد الظلام الحالك الطريق. كان إحساسًا خانقًا بالوحدة التامة والعجز يسيطر على وعيى. وكم كنت أشعر بالمرارة والأسى لأننى فى هذه الساعات الصعبة من حياتى لا أجد أحدًا من أقربائى الأعزاء بقربى، وأن زوجى، الإنسان الوحيد الذى يرعانى ويحمينى هو نفسه فى أمس الحاجة إلى من يقدم له المساعدة. رحت أصلى بحرارة، وقد أعانتنى الصلاة على أن أستعيد قواى الخائرة.

عند انبلاج الصبح ازداد الألم وطأة، وفى حوالى الساعة السابعة قررت أن أوقظ فيودور ميخايلوفيتش. استيقظ وقد تمالك قواه بشكل ملحوظ. وعندما علم بما عانيته طوال الليل، انزعج بشدة وعاتبنى لأننى لم أوقظه قبل ذلك. وفى لمح البصر ارتدى ملابسه وهرع إلى مدام Barraud، وهناك ظل يقرع الجرس، لكن الخادمة لم ترغب فى إيقاظ سيدتها مدعية أنها قد عادت لتوها من سهرة لدى أصدقائها. وهنا هددها فيودور ميخايلوفيتش بأنه سيظل يقرع الجرس أو يحطم الزجاج. أيقظوا السيدة وبعد ساعة حَضَرتْ بصحبة زوجى. اضطررت أن أصغى إليها وهى توبخنى على أشياء

كثيرة فعلتها عن جهل، وأكدت لى أن إهمالى سوف يؤخر عملية الولادة. وأكدت لى أن المخاض لن يأتينى قبل سبع ــ ثمانى ساعات، ووعدت أن تحضر فى هذا الوقت. ذهب فيودور ميخايلوڤيتش لإحضار الجليسة، جلسنا بعدها أنا وهو ننتظر ما سيحدث لنا وقد بلغ بنا الخوف والقلق مبلغًا شديدًا. لم تحضر مدام Barraud، فى الموعد الذى ضربته، ومن جديد ينطلق زوجى لإحضارها، وقد تبين أنها خرجت لتناول طعام الغداء لدى أصدقائها فى مكان ما بالقرب من محطة القطار. ذهب زوجى إلى العنوان المحدد وأصر على أن تأتى للاطمئنان على حالتى. قررت القابلة أن الأمر يسير على نحو سيئ وأن الوضع ربما يأتى فى وقت متأخر من المساء. وبعد أن أعطتنى بعض النصائح ذهبتْ لتناول طعام الغداء؛ واصلت آلامى، بينما راح فيودور ميخايلوڤيتش يتعذب وهو ينظر إلىّ. وعندما بلغت الساعة التاسعة لم يعد بمقدوره أن يتحمل فتوجه إلى أصدقاء مدام Barraud فوجدهم ملتفين حول ورق اللعب فأخبرها أننى أعانى بشدة من الألم، وأنها إذا لم تأت وتلازم بجوار فراشى، فسوف يطلب من الطبيب أن يكلف قابلة أخرى أكثر التزامًا بواجباتها، وقد أثمر هذا التهديد. كان من الواضح أن مدام Barraud غير سعيدة على الإطلاق بسبب صرفها عن مواصلة اللعب الشيق وراحت تقول لى: (*)«Oh, ces ruses, ces russes!!» مكررة هذه العبارة عدة مرات.

وحتى يهدئ من روعها، أعد لها فيودور ميخايلوڤيتش عشاء فاخرًا، فاشترى عددًا كبيرًا ومتنوعًا من المقبلات والحلوى والنبيذ. كنت سعيدة للغاية أن ذهاب زوجى لإحضار القابلة وركضه من دكان إلى آخر وانشغاله بعض الوقت فى القيام بواجبات الضيافة، سوف يصرف انتباهه وقلقه عما أنا فيه. وإلى جانب الآلام التى تصاحب عملية الولادة، كنت أتألم أيضًا لأن رؤية هذه الآلام كانت تؤثر فى فيودور ميخايلوڤيتش، الذى لم يبرأ بعد من الكدر الذى أصابه من جرّاء نوبتين متتاليتين من

(*) آه من هؤلاء الروس، هؤلاء الروس!! (بالفرنسية).

الصرع، كان وجهه يطفح بالعذاب واليأس، وكنت أراه يبكى فى بعض الأوقات، حتى أننى أنا نفسى أصبت بالرعب من أن أكون على وشك الموت. وعندما أعود بذاكرتى إلى هذه الأفكار والمشاعر أقول إننى لم أكن أشعر بالأسى على نفسى، بقدر ما كنت أشعر به تجاه زوجى المسكين، الذى كان موتى يمثل بالنسبة إليه مصيبة كبرى. لقد أدركت آنذاك أن أكثر آمالنا وأحلامنا توهجًا هى التى كانت توحد بينى وبين زوجى الغالى وبين طفلنا المنتظر، ومن ثم كان الانهيار المفاجئ لهذه الآمال يعد أمرًا قاتلاً بالنسبة إلى فيودور ميخايلوڤيتش نظرًا إلى ما له من شخصية تتميز بالاندفاع وعدم القدرة على التماسك. وقد يكون لقلقى الشديد على زوجى واضطرابى أثر فى تأخر الولادة، وقد شعرت مدام Barraud بذلك، فمنعت، أخيرًا زوجى من الدخول إلى غرفتى، مؤكدة له أن مظهره اليائس يثير الجزع فى نفسى. أذعن فيودور ميخايلوڤيتش للأمر، لكن قلقى راح يزداد، وفى فترات الراحة من الألم، كنت أطلب من القابلة تارة، ومن الجليسة تارة أخرى، أن ينظرا ماذا يفعل زوجى. كانا يخبراننى أنه راكع على ركبتيه يصلى، أو أنه جالس وقد استغرق فى التفكير العميق وقد غطى وجهه بكفيه. كان ألمى يزداد ساعة بعد أخرى؛ وكنت أغيب أحيانًا عن الوعى، وعندما أعود إلى وعيى، كنت أنظر إلى هاتين العينين السوداوين الغريبتين المحدقتين بى، عينى الجليسة، فكنت أشعر بالخوف ولا أدرك أين أنا وماذا يحدث لى. وأخيرًا وفى حوالى الخامسة فجر الثانى والعشرين من فبراير توقفت الآمى وخرجت ابنتنا سونيا إلى النور. فيما بعد أخبرنى فيودور ميخايلوڤيتش أنه كان يصلى من أجلى طوال الوقت وأنه سمع فجأة، من خلال أنينى، صوتًا غريبًا يشبه صراخ طفل. لم يصدق أذنيه، ولكنه، عندما تكرر الصراخ، أدرك أن الطفل قد وُلد، ولم يشعر من فرط سعادته إلا وهو يهب على قدميه ليهرع إلى الغرفة الممنوعة فيمسك بمقبض الباب ويدفعه بقوة ثم يقعى على ركبتيه قرب فراشى ويروح يقبل يدىّ. كنت فرحة للغاية أن آلامى توقفت. اندهشنا كلانا لأننا طوال الدقائق الخمس عشرة الأولى لم نعرف من الذى ولد لنا، سمعنا أن أحد

الحضور من السيدات قالت: «Un garcon, n'est – ce pas?»(*)، بينما أجابت أخرى «Fillette, une adorable fillette»(**) أما أنا وزوجى فكان الأمر بالنسبة إلينا سارًا على كل الوجوه، سواء أكان صبيًا أم صبية. كان أكثر ما يملأ نفوسنا سعادة أن حلمنا قد تحقق، فقد جاء إلى الدنيا هذا المخلوق، الذى هو مولودنا البكر!

فى أثناء ذلك قامت مدام Barraud بحمل المولود من فراشه وهنأتنا بميلاد ابنتنا ثم حملتها إلينا وكأنها تحمل لفافة كبيرة بيضاء. وبإجلال شديد راح فيودور ميخايلوفيتش يرسم علامة الصليب على سونيا ثم قبّل وجهها المتغضن وقال: «آنيا، انظرى، أى جمال لدينا!». رسمتُ عليها أنا أيضًا علامة الصليب وقبّلتها. فرحت لزوجى وأنا أرى وجهه سعيدًا متهللاً بهذا الفيض من الفرح، والذى لم يتسنَّ لى أن أراه على هذا النحو بعد ذلك.

وفى نشوة الفرح عانق فيودور ميخايلوفيتش مدام Barraud وشدّ على يد الجليسة عدة مرات بقوة. وقد أخبرتنى القابلة أنها لم تشاهد على مدى حياتها العملية الطويلة أبًا لمولود على هذا الحال من القلق و«الاضطراب» على النحو الذى كان عليه زوجى طوال الوقت، ثم عادت مرة أخرة لتكرر عبارة: «أوه، هؤلاء الروس. هؤلاء الروس!» ثم أرسلت القابلة لشراء شىء ما من الصيدلية حتى لا يداهمنى النعاس(***).

أخبرتْ مدام Barraud فيودور ميخايلوفيتش أن على والد الطفل أن يقوم بنفسه، بموجب القانون السويسرى، بإعلان الأمر للشرطة، وأن يتسلم منها شهادة رسمية، ونبهته إلى ضرورة الإسراع بذلك وإلا تعرض لدفع غرامة وقد يتم القبض عليه، وفى اليوم التالى توجه فيودور ميخايلوفيتش إلى الجهة المعنية وتأخر هناك حوالى أربع ساعات، الأمر الذى أخافــنى بشدة. ولعلمى بحالته الصحية فقد دارت برأسى شتى

(*) «صبى، أليس كذلك؟» (بالفرنسية).

(**) صبية، صبية رائعة! (بالفرنسية).

(***) فى رواية «الشياطين» يصف فيودور ميخايلوفيتش فى مشهد ولادة زوجة شاتوف كثيرًا من مشاعره فى أثناء ولادة ابنتنا (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

الهواجس حول ما يمكن أن يكون قد وقع له. وأخيرًا عاد فيودور ميخايلوڤيتش ليحكى لى عما وقع له من أحداث وقد ساد المرح روحه. لقد تبين أن الوالد الذى يأتى للشرطة لهذا الغرض عليه أن يصطحب معه شاهدين باستطاعتهما إثبات شخصية الوالدين، وتأكيد صحة الواقعة. راح فيودور ميخايلوڤيتش يشرح للموظف أنه أجنبى وأنه لا يملك معارف فى چينيڤ، لكن الرجل لم يستمع إلى ما قاله وبدأ فى التعامل مع صاحب الطلب التالى. ولما احتدم سوء الفهم خرج فيودور ميخايلوڤيتش من الإدارة وتوجه إلى الرقيب ــ النوبتجى عند الباب طالبًا نصحه، وعلى الفور أخرج الرجل زوجى من مأزقه مقترحًا عليه أن يكون هو نفسه أحد الشهود، على أنه لن يستطيع أن يقدم له هذه الخدمة إلا بعد حضور الرقيب الآخر الذى سيتسلم منه الوردية، وأن هذا لن يحدث قبل مرور ساعة ونصف. وعندما سأله فيودور ميخايلوڤيتش من أين سنحصل على الشاهد الثانى، اقترح الرقيب قائلاً: «un comarade a moi»(*). سارت الأمور على ما يرام، ولكن كان على فيودور ميخايلوڤيتش الانتظار فذهب للجلوس، بناء على نصيحة الرقيب، على أحد الأرائك فى الشارع وقد استبد به القلق وهو يفكر كم سيستغرق الأمر من وقت حتى يعود إلى المنزل. وفى الموعد المحدد تغيرت الوردية وحضر الرقيب الثانى، وها هم ثلاثتهم: زوجى واثنان من الرقباء يتوجهون إلى مكتب الموظف القائم بالطلبات، وقت طويل انقضى ما بين تسجيل طلب الوالد والشهود، ثم تسجيل الطلب فى الدفاتر، ثم استخراج الشهادة(**). بعد أن أنهى فيودور ميخايلوڤيتش أعماله سأل الرقيب صاحب الفضل بكم هو مدين له هو ورفيقه على هذا الوقت الذى أنفقاه من أجله. فأجاب الرجل: «Mais rien, monsieur, rien!»(***) عندئذ فكر زوجى فى دعوة الرقيبين إلى أحد المقاهى لتناول شىء من النبيذ نخب المولود الجديد. وافق الرقيبان بكل سرور على هذه الدعوة واصطحبا فيودور

(*) «رفيق لى» (بالفرنسية).

(**) كان من المفترض هنا إرفاق نسخة من الوثيقة المستخرجة (ملاحظة لآنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(***) «لا شىء يا سيدى، لا شىء» (بالفرنسية).

ميخايلوڤيتش إلى أحد المطاعم القريبة حيث جلسوا فى غرفة منفصلة وأمر بإحضار ثلاث زجاجات من النبيذ الأحمر المحلى. أطلق النبيذ لسان الضيفين فراحا يقصان على مضيفهما أحداثًا متنوعة من وقائع خدمتهما. حكى لى فيودور ميخايلوڤيتش أنه كان يجلس على أحر من الجمر وهو يفكر فى قلقى بسبب غيابه الطويل. كان من غير اللائق أن يترك ضيفيه وبخاصة أنه أتبع الزجاجات الثلاث بزجاجتين أخريين دخل بعدها الرقيبان فى حالة من المرح فراحا يرفعان الأنخاب تارة فى صحتى، وتارة أخرى فى صحة Petite Sophie (صوفيا الصغيرة) وفى صحة المتسبب فى ظهورها فى هذا العالم.

طلب فيودور ميخايلوڤيتش أن يكون صديقه الشاعر أبوللون مايكوف هو الأب الروحى لابنتنا سونيا، وأن تكون أمى، أنّا نيكولايڤنا سنيتكينا، الأم الروحية لها. وكانت أمى قد عزمت على الحضور إلينا للاحتفال بمولد الطفلة، ولكنها أصيبت بوعكة صحية ولم يسمح لها الطبيب بالسفر بعيدًا حتى حلول الربيع. وقد حضرت أمى إلى چينيڤ فى أوائل شهر مايو بعد إجراءات مراسم تعميد سونيا.

وعلى الرغم من أننى كنت مسرورة للغاية للتعافى من المرض. فإننى كنت أعانى بشدة من الضعف الذى ألم بى نتيجة ثلاث وثلاثين ساعة مضنية مرت بى فى أثناء الوضع.

وعلى الرغم من سعادتى بإرضاع الطفلة، فسريعًا ما اقتنعت بأن الأمر لن يستقيم دون إرضاعها لبنًا خارجيًا، فقد كانت طفلة ممتلئة البدن، تتمتع بصحة وافرة، وكانت بحاجة إلى مزيد من الغذاء. لم يكن من السهل إحضار مرضعة لسونيا، ففى سويسرا يرضعون الأطفال رضاعة اصطناعية فى زجاجات؛ بالإضافة إلى المساحيق المغذية. كانت هناك أمهات أخريات يرسلن أطفالهن إلى الجبل على مسافة تقرب من ستين فرسخًا ليرضعن من الفلاحات. كان ابتعاد سونيا عنى وإعطائها لأيد غريبة أمرًا سخيفًا، كما أن الأطباء نصحونى ألا أفعل ذلك، إذ إن عددًا من المواليد توفوا بعد أن أخذتهن الفلاحات ولم يوفرن لهن الرعاية الكافية.

عندما استقر النظام فى بيتنا بدأت الحياة التى بقى منها للأبد أغلى ذكرياتى. وكم كانت سعادتى عندما تبين لى أن فيودور ميخايلوڤيتش أكثر الآباء حنانًا وعطفًا، كان يحرص على أن يكون موجودًا فى أثناء استحمام الطفلة ويقدم لى المساعدة، ويقوم بنفسه بوضعها فى لفتها المصنوعة من قماش البيكة ويشبكها بالدبابيس الانجليزية، ثم يحملها ويهدهدها على يديه، ويهرع إليها، تاركًا عمله، ما إن يصل إلى سمعه صوتها. كان سؤاله الأول لى فور استيقاظه أو لدى عودته من الخارج: «ماذا عن سونيا؟ بصحة جيدة؟ هل نامت جيدًا، هل أكلت؟» كان فيودور ميخايلوڤيتش يجلس ساعات طوال إلى جوار مهدها، تارة يدندن لها بأغنيات، وتاره يتحدث إليها؛ حتى أنه كان واثقًا، عندما بلغت شهرها الثالث، أن سونيتشكا بإمكانها التعرف عليه، وها هو يكتب خطابًا إلى أبوللون مايكوف مؤرخًا الثامن عشر من مايو ١٨٦٨ يقول فيه: «هذا المخلوق الصغير، الضئيل، المسكين، الذى يبلغ من العمر ثلاثة أشهر، يمثل بالنسبة إلىَّ كيانًا وشخصية. لقد بدأتْ تتعرف علىّ وتحبنى وتبتسم لى عندما أقترب منها. وعندما أغنى لها بصوتى المضحك أغنية فإنها تحب الاستماع إليها. إنها لا تبكى ولا تقطب وجهها عندما أقبلها، وهى تتوقف عن البكاء عندما أقبل عليها» [٨٧].

ولكن لم يكن مقدرًا لنا أن نستمتع بالسعادة دون كدر مدة طويلة. كان الجو فى الأيام الأولى من شهر مايو رائعًا، وبناء على نصيحة الطبيب الملحة. كنا نأخذ ابنتنا الصغيرة إلى الحديقة الإنجليزية، حيث كانت تنام ما بين ساعة إلى ساعتين تقريبًا. وفى يوم تعيس وإبان جولتنا اكفهر الجو فجأة وبدأت ريح البيز(*) تهب بشدة، وبالطبع فقد أصيبت الطفلة بنزلة برد، وكانت حرارتها فى الليلة التالية قد ارتفعت مصحوبة بسعال. توجهنا على الفور إلى أفضل طبيب للأطفال والذى بدأ فى زيارتنا يوميًا مؤكدًا أن ابنتنا سوف تتعافى، حتى أنه قال لى، قبيل وفاتها بثلاث ساعات، إنها قد تحسنت كثيرًا. وعلى الرغم من هذه التأكيدات فإن فيودور ميخايلوڤيتش لم يستطع أن يعود إلى عمله وظل

(*) ريح البيز Bise: ريح شمالية باردة جافة فى فرنسا وسويسرا (المترجم).

جالسًا إلى جوار مهدها لا يغادره تقريبًا. كنا فى حالة من الخوف والجزع الشديدين، وقد تحققت هواجسنا الكئيبة بالفعل، ففى صباح الثانى عشر من مايو توفيت ابنتنا العزيزة سونيا. ليس بمقدورى أن أصف حالة اليأس التى خيمت علينا عندما رحنا ننظر إلى ابنتنا الغالية وقد اختطفها الموت. كنت، وأنا أشعر بهول الصدمة ومرارة الحزن لفراقها، أخشى بشدة على ما يمكن أن يقع لزوجى سيئ الحظ. كان يأسه عاصفًا، أخذ يبكى وينتحب مثل امرأة وهو يقـــف عند الجسد المسجى لابنته الحبيبة وقد راحت دموعه الساخنة الأسيانة تغمر وجهها الشاحـــب ويديهـــا الصغيرتين. لم أر فى حيـــاتى مثل هذا القنوط الجارف. لقد تصورنا أننا لن نتحمل هذا الحـــزن. يومين لم يترك أحدنا الآخر لحظة واحدة، نطوف بشتى الإدارات لنحصل على تصريح بدفن صغيرتنا ونقوم بكل الإجراءات الخاصة بالجنازة. قمنا معًا بلفها فى كفـــن حريرى أبيض، ثم وضعناها فى نعش صغير مغطى بالحرير الأبيض وأجهشنا بالبكاء، ولم يكن بمقدورنا أن نتماسك عنده. كان النظر إلى فيودور ميخايلوفيتش أمرًا مخيفًا، أصبح وجهه ضامرًا شاحبًا بعد أسبوع من مرض سونيا. وفى اليوم الثالث بعد الوفـــاة حملنا كنزنا إلى الكنيسة الروسية لإقامة القداس الجنائزى، ومنها إلى جبانة Plain Palais حيث تم دفنها فى مكان خصص للأطفال. وبعد عدة أيام زُرعت فيه شجيرات السرو وأقيم وسطها صليب من المرمر الأبيض. كنا نذهب إلى قبرها يوميًا نحمل زهورًا ونبكيها. كان فراق طفلتنا الصغيرة صعبًا علينا، لقد أحببناها بإخلاص وحب عظيمين، وكم من الآمال والأحلام جمعت بيننا فى وجودها!

(٥)

كان البقاء فى چينيف، حيث كل شىء يذكرنا بسونيا، أمرًا مستحيلاً، ومن ثم قررنا أن ننفذ ما كنا قد عزمنا على عمله من قبل دون إبطاء بالانتقال إلى Vevey الواقعة على بحيرة چينيف. كنا نشعر بالأسف الشديد أنه لم يكن باستطاعتنا على الإطلاق أن نغادر سويسرا لضيق ذات اليد، وقد بات فيودور ميخايلوفيتش لا يطيقها كان يلقى باللوم

فى موت سونيتشكا على المناخ السيئ المتقلب لچينيڤ، وعلى غطرسة الطبيب وافتقاد الممرضة إلى الخبرة. كان فيودور ميخايلوڤيتش يحمل دائمًا للسويسريين بعض الكراهية، ولكن الغلظة والفظاظة التى أبداها الكثيرون منهم فى لحظات حزننا الجارف زادت لديه هذه الكراهية. وكمثال على هذه الفظاظة، فقد أرسل جيراننا وهم على علم تام بمصيبتنا، يطلبون منى ألا أبكى بصوت مرتفع لأن ذلك يثير أعصابهم.

لن أنسى مطلقًا هذا اليوم الحزين، عندما ذهبنا للمرة الأخيرة لوداع ابنتنا العزيزة ووضع إكليل من الزهور عند قبرها، بعد أن أرسلنا حاجياتنا لشحنها على السفينة. جلسنا نبكى ساعة بأكملها عند النصب المقام ونحن نتذكر سونيا، ثم غادرنا المكان وقد شملنا شعور باليتم ونحن نلقى بنظرنا على مرقدها الأخير.

كانت السفينة التى اضطررنا لركوبها سفينة بضائع، وكان الركاب على متنها قليلين. كان يومًا حارًا، ولكنه كان ملبدًا بالغيوم مثلما كانت حالتنا النفسية. كان فيودور ميخايلوڤيتش شديد التأثر، كان ذاهلاً منذ أن ودعنا قبر سونيتشكا. وهنا، وللمرة الأولى فى حياتى، أستمع إلى شكوى زوجى المريرة من القدر الذى يلاحقه بضرباته (وهو الذى كان نادرًا ما يتذمر). راح فيودور ميخايلوڤيتش يحكى لى ذكرياته عن شبابه الذى قضاه حزينًا وحيدًا بعد وفاة أمه الحبيبة الرؤوم، وكيف راح رفاقه فى مجال الأدب يسخرون منه، بعد أن اعترفوا بموهبته، ثم إذا بهم ينقلبون عليه ويوجهون إليه الإهانات. حكى لى ذكرياته عن المعتقل وعن المعاناة التى عاشها على مدى أربع سنوات قضاها هناك. تحدث عن أحلامه فى أن يجد فى زواجه من ماريا ديمترييڤنا ما افتقده من سعادة أسرية لم تتحقق للأسف؛ لم ينجب من ماريا ديمترييڤـــنا، التى كانت «شخصية ارتيابية غريبة، ذات خيال مريض»(*) مما جعل حياته معها بؤسًا خالصًا. والآن وبعد أن

(*) استخدم فيودور ميخايلوڤيتش نفس هذه الكلمات فى تعريف شخصية زوجته الأولى فى خطابه إلى البارون ألكسندر فرانجيل المؤرخ ٣١ مارس ١٨٦٥ «السيرة الذاتية والخطابات»، المواد، ص٢٧٨.(ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا)[٨٨]

زارته «السعادة الوحيدة العظيمة ــ يقصد ابنتنا الغالية»(*)[٨٩] وأصبحت لديه الفرصة أن يدرك ويقدر معنى السعادة، إذا بالقدر الشرير ينتزع منه، دون رحمة، هذا الكائن الحبيب!

كانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى انطلق فيها فيودور ميخايلوڤيتش معبرًا بكل هذه التفاصيل الدقيقة بل والمؤثرة عن كل ما لحق به فى حياته من أذى ناله من أقرب الناس وأعزهم على قلبه.

حاولت أن أهدئ من روعه ورجوته أن يتقبل ما قُدِّر علينا من ابتلاء، ولكن، بداهة، كان الألم يعتصر فؤاده، وكان من الضرورى له أن ينفس عن آلامه وأن يجأر بالشكوى من ضربات القدر التى ما زالت تلاحقه طوال حياته. كنت متعاطفة من أعماق قلبى مع زوجى سيئ الحظ فأخذت أشاركه البكاء على هذه الحياة الحزينة التى عاشها. وقد وحدت أحزاننا المشتركة العميقة وأحاديثنا الصادقة، التى انكشفت لى من خلالها أسرار روحه المعذبة، وحدت بيننا أكثر فأكثر.

على مدى الأعوام الأربعة عشر من حياتنا الزوجية، لا أذكر صيفًا حزينًا مثل هذا الصيف الذى قضيته وزوجى فى ڤيڤى عام ١٨٦٨. بدا كما لو أن الحياة قد توقفت بالنسبة إلينا، كل أفكارنا، كل أحاديثنا تركزت حول ذكرياتنا عن سونيا. وعن تلك الأوقات السعيدة التى أضاءت حياتنا بوجودها. وكلما التقينا طفلاً هاجت ذكرياتنا عن خسارتنا الفاجعة، وحتى لا ينفطر قلبانا كنا نذهب للنزهة فى أى مكان فى الجبل، حيث يمكننا أن نتجنب اللقاءات التى تهز نفوسنا. لقد عانيت أنا أيضًا الأحزان الثقيلة وذرفتُ دمعًا هتونًا على ابنتنا، ولكن أملاً كبيرًا استقر فى أعماق روحى فى أن رحمة الله سوف ترفع عنا معاناتنا وأنه سيرسل لنا طفلاً من جديد فَرُحتُ أصلى من أجل ذلك بحرارة بدأ الأمل فى الأمومة مرة أخرى فى تهدئتى أنا وأمى التى كانت متشوقة إلى حفيد. وبفضل الصلاة والأمل راح الحزن الشديد يخفـــت شيئًا فشيئًا، لكن الأمر لم يكن على هذا

(*) «السيرة الذاتية والخطابات» المواد، ص٢٨٨. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

النحو بالنسبة إلى فيـــودور ميخايلوڤيتش؛ فضـــلاً عن أن حالته النفسية بدأت تخيفنى بصورة جادة. إليكم ما قرأته فى خطابه إلى مايكوف والمؤرخ ٢٢يونيو، عندما أتيحت إمكانية إضافة بضع كلمات تحية لزوجته: «... كلما مر الوقت، (كلما تأججت ذكرياتى وكلما بدت لى صورة الراحلة سونيا أكثر وضوحًا. هناك دقائق لا يمكن للمرء أن يتحملها. كانت قد بدأت فى التعرف علىّ، وفى يوم وفاتها غادرت المنزل متوجهًا إلى لقراءة الصحف دون أن أدرك أنها ستموت بعد ساعتين، كانت تتبعنى بعينيها مودعة إياى، إلى حد أننى ما زلت أستعيد، حتى هذه اللحظة، نظرتها أوضح فأوضح. لن أنساها مطلقًا، ولن يتوقف عذابى للأبد! وحـتى لو رزقـــت بطفـــل آخر، فلا أدرى كيف سأحبه، ومن أين هـــذا الحب؟ أنا بحاجة إلى سونيا. لا أصدق أنها غير موجودة و أننى لن أراها أبدًا)[٩٠].

وبهذه الكلمات أجاب فيودور ميخايلوڤيتش على عزاء أمى. كان مزاجه المحبط يخيفنى بشدة فرحت أفكر، هل من الممكن أن فيودور ميخايلوڤيتش، إذا ما وهبنا الله مولودًا آخر، لن يكون قادرًا على أن يحبه، ولن يكون سعيدًا به كما كان سعيدًا عند ولادة سونيا. ومثل سواد كالح يمتد أمامنا، كان الحزن والجزع يخيمان على أسرتنا.

بدأ فيودور ميخايلوڤيتش فى مواصلة العمل فى كتابة روايته، لكن العمل لم يهدئ من روعه. وإلى جانب مزاجنا الحزين، أضيف إلى همنا هم آخر وهو ضياع الخطابات التى كانت ترد إلينا، وهكذا ازدادت صعوبة تواصلنا مع أهلنا ومعارفنا، وهو التواصل الذى كان يمثل السلوى الوحيدة بالنسبة إلينا. وكان من المؤسف على وجه الخصوص انقطاع خطابات أبوللون مايكوف التى كانت زاخرة دائمًا بالحيوية. راح الشك فى أسباب ضياع الخطابات يزداد لدينا يومًا بعد الآخر، وبخاصة عندما تلقينا خطابًا من مجهول(*). يفيد أن الشكوك تحوم حول فيودور ميخايلوڤيتش، وأن أوامر قد صدرت بفتح خطاباته وتفتيشه تفتيشًا دقيقًا على الحدود لدى عودته إلى الوطن [٩٢]. ولسوء الحظ وقع فى يد

(*) «السيرة الذاتية والخطابات» المواد، ص١٩٢. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)[٩١].

فيودور ميخايلوڤيتش أحد الكتب المحظورة بعنوان «Les secrets du Palais des Tzars» (أسرار قصر القياصرة) منذ عهد الإمبراطور نيكولاى باڤلوڤيتش[٩٣]. وقد وضع المؤلف دستويڤسكى وزوجته ضمن أبطال الكتاب، زد على ذلك أمورًا كثيرة سخيفة وردت به، ومن بينها أن دستويڤسكى يلقى حتفه، بينما تذهب زوجته إلى الدير. وقد أثارت هذه القصة حنق فيودور ميخايلوڤيتش، حتى أنه فكر أن يكتب ردًا يكذب فيه ما ورد بها من وقائع (ما زلت أحتفظ بمسودة الخطاب)، غير أنه قرر فيما بعد أن كتابًا غبيًا مثل هذا لا يستحق عناء الاهتمام به[٩٤].

(٦)

بحلول الخريف أصبح من الواضح لنا أن من الضرورى أن نروح عن أنفسنا، وقد فاض الكيل بنا مهما كلفنا الأمر، فقررنا السفر فى مطلع شهر سبتمبر إلى إيطاليا وأن نزور مدينة ميلان عند أول فرصة. كان مضيق سمبلون Simplon(*)، هو أقرب مضيق جبلى لنا. قطعنا جزءًا منه سيرًا على الأقدام، وفى أثناء سيرنا أنا وزوجى إلى جوار عربات نقل المسافرين الكبيرة المغلقة، التى تجرها الخيول، والصاعدة عبر المضيق الجبلى، رحنا نجمع الزهور الجبلية، ثم هبطنا إلى إيطاليا فى الجانب الآخر راكبين عربة مكشوفة. وقد وقع لنا حادث مضحك، ما زلت أذكره، عند قرية Domo d' Ossola عندما ذهبت لشراء بعض الفاكهة وأختبر فى الوقت نفسه ما اكتسبته من اللغة الإيطالية التى تعلمتها خلال الصيف، وعندما لاحظت أن فيودور ميخايلوڤيتش عرج على أحد المحلات، جال بخاطرى فكرة أنه قد يحتاج إلى المساعدة فى التحدث فأسرعت للحاق به. وقد اتضح أنه أراد أن يدخل السرور إلى قلبى بشراء هدية ما، فراح يستفسر عن سعر سلسلة رآها فى نافذة المحل. وقد غالى البائع فى السعر غلوًا كبيرًا ظنًا منه أننا من «الأجانب

(*) Simplon: مضيق جبلى فى جبال الألب يصل بين سويسرا وإيطاليا ويقع على ارتفاع ٢٠٥٥ متر (المترجم).

الوجهاء» فطلب ثلاثة الآف فرنك ثمنًا لها، مؤكدًا أنها ترجع إلى زمن الإمبراطور ڤيسبا سيان(*). ولما كان السعر المطلوب يزيد كثيرًا على كل ما نملكه من مال فقد دفع ذلك فيودور ميخايلوڤيتش للضحك، ولعله كان الانطباع المرح الأول له منذ المصيبة التى حلت بنا.

كان لتغيير ظروف معيشتنا ورؤية أماكن جديدة وأناس جدد (رأى فيودور ميخايلوڤيتش أن فلاحى إقليم لومبارديا يشبهون كثيرًا الفلاحين الروس) أثر حسن على مزاج زوجى، وقد شعر بحالة من الحيوية والنشاط منذ أيامنا الأولى فى ميلان، فاصطحبنى لمشاهدة كنيستها «الدومو»، التى كانت دائمًا محل إعجابه الشديد. كان فيودور ميخايلوڤيتش حزينًا فقط لوجود عدد من البيوت التى لا يفصل بينها وبين الكنيسة سوى ميدان صغير (وقد تم توسيع الميدان فى الوقت الحالى)، وأخبرنى أن عمارة «الدومو» تفقد عظمتها بسبب ذلك. وفى يوم صحو صعدنا أنا وزوجى إلى سطح الكنيسة حتى نتمكن من إلقاء نظرة على المكان حولها ولنشاهد على نحو أفضل التماثيل التى تزينها. اتخذنا لنا مسكنًا بالقرب من حى Corso فى أحد الشوارع الضيقة، حيث يستطيع الجيران تبادل الحديث عبر النوافذ.

بدأت أشعر بالسعادة عندما وجدت زوجى فى حالة نفسية رائعة، ولكن، وآسفاه، لم تستمر هذه الحالة طويلاً وإذا به يعود مرة أخرى إلى حالة الحنين إلى الوطن. الأمر الوحيد الذى كان يذهب عن زوجى بعض الحزن، هو مراسلاته مع أبوللون مايكوف ونيكولاى ستراخوف. وقد أخبرنا الأخير بظهور مجلة جديدة تسمى «زاريا» («الفجر») يصدرها ڤاسيلى كاشبيريف(**) أكثر ما اهتم به فيودور ميخايلوڤيتش فى هذا الخبر أن

(*) ڤيسباسيان Vespasien (٩ ـ ٧٩): إمبراطور رومانى (٦٩ـ ٧٩)(المترجم).

(**) ڤاسيلى فلاديميروڤيتش كاشبيريف (١٨٣٦ ـ ١٨٧٥): أديب وناشر والمحرر الرسمى لمجلة «زاريا»(١٨٦٩ ـ ١٨٧٢). تعرف عليه دستويفسكى عن بعد فى عام ١٨٦٩ من خلال ستراخوف، ثم نشر عنده فى «زاريا» قصة «الزوج الأبدى»(١٨٧٠). وتوطدت أواصر الصداقة بين عائلتى كاشبيريف ودستويفسكى بعد عودة الأخير من الخارج.

نيكولاى ستراخوف سيصبح هو رئيس تحرير هذه المجلة، وهو الذى عمل، من قبل محررًا فى مجلتى «الزمن» و«العصر»، وقد كتب زوجى يقول إنه بفضل ذلك «لن يموت توجهنا ولا عملنا المشترك»، لقد أتت «الزمن» و«العصر» على أية حال ثمارهما، وسوف يكون على هذه المجلة الجديدة أن تبدأ من حيث انتهينا، وهو أمر سار للغاية(*)(٩٦).

ألحَّ ستراخوف على دعوة زوجى للعمل فى «الفجر». وقد رحب فيودور ميخايلوڤيتش بهذه الدعوة بكل سرور، على أن ينتهى أولاً من رواية «الأبله» التى كانت مستعصية عليه، ولم يكن راضيًا بعد عن أدائه فيها. وقد أكد فيودور ميخايلوڤيتش مرارًا أنه لم تكن لديه فى أى وقت فكرة إبداعية أفضل وأكثر من هذه الفكرة، التى انعكست فى هذه الرواية، وأنه لم يعبر فيها إلا عن معشار ما أراد أن يعبر عنه فيها (٩٧).

اتسم خريف عام ١٨٦٨ فى ميلان بشدة المطر والبرد القارس، الأمر الذى منع زوجى من القيام بنزهاته الطويلة (التى كان يحبها بشدة). لم تكن مكتبات القراءة فى هذه المدينة تمتلك صحفًا أو كتبًا باللغة الروسية، ومن ثم كان زوجى يشعر بالملل بعيدًا عن الوطن دون أن تصله أية أنباء عنه. ونتيجة لذلك قررنا، بعد أن قضينا شهرين فى ميلان، أن نسافر إلى فلورنسا فى الشتاء. كان فيودور ميخايلوڤيتش قد سبق له زيارة فلورنسا وما يزال يحتفظ بذكريات طيبة عن هذه المدينة، وخصوصًا عن كنوزها الفنية.

وهكذا رحلنا فى نهاية نوفمبر من عام ١٨٦٨ إلى عاصمة إيطاليا آنذاك ونزلنا بالقرب من Palazzo Pitti، ومرة أخرى يترك تغيير المكان أثرًا حسنًا على زوجى، وسرعان ما بدأنا فى مشاهدة الكنائس والمتاحف والقصور. أتذكر جيدًا كيف كان فيودور ميخايلوڤيتش يذهب إلى الكاتدرائية وإلى كنيسة Santa Maria del Fiore وقد بلغ به الإعجاب أشده، بل إنه كان معجبًا للغاية بكنيسة del Battistero، الصغيرة التى يتم فيها تعميد الأطفال، كان فيودور ميخايلوڤيتش مبهورًا بالأبواب البرونزية

(*) «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ٢٦١. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)(٩٥)

لكنيسة باتيستيرو (وبخاصة delta del Paradiso) (باب الفردوس) وهى من أعمال الفنان الشهير Ghiberti (*) وكثيرًا ما كان فيودور ميخايلوفيتش يتوقف عند مروره بها ويتأملها فى إعجاب. وكان يقول لى إنه لو أصاب ثروة كبيرة فى يوم ما، فسوف يشترى صورة فوتوغرافية لهذه الأبواب، إن أمكن، بحجمها الطبيعى وسوف يعلقها فى غرفته ليستمتع بالنظر إليها.

أحيانًا ما كنا نذهب أنا وزوجى لزيارة Palazzo Pitti، وكان يعبر لى عن إعجـــابه الشديد بلوحة رفاييل «Madonna della Sedia» وكذلك لوحته الأخرى «S. Giovan Battista nel deserto» (القديس يوحنا المعمـــدان فى الصحراء)، الموجــــودة فى جاليرى Uiffizi، التى كان يقف دائمًا طويلاً أمامها. وبعد أن يفرغ من مشاهدة قاعة الصور، كان حتمًا يتوجه إلى مشاهدة تمثال Venere de Medici (ڤينوس ميديتشى) من أعمال النحات اليونانى العظيم كليومين Cleomene(٩٨). كان زوجى يعتبر هذا التمثال عملاً عبقريًا.

ولحسن الحظ فقد وجدنا فى فلورنسا مكتبة ممتازة وقاعة للقراءة تتوفر فيها صحيفتان روسيتان. اعتاد زوجى أن يذهب إلى هناك للقراءة بعد الغذاء. وقد استعار منها مؤلفات كل من ڤولتير وديدرو(٩٩) بالفرنسية، التى كان يجيدها إجادة تامة، ليقرأها فى البيت طوال الشتاء.

حمل إلينا عام ١٨٦٩ نبأ سارًا: لقد تأكد لنا أن الله قد بارك زواجنا وأنه بات بإمكاننا أن نأمل فى أن يكون لنا طفل. كانت سعادتنا غامرة، وراح زوجى العزيز يهتم بى مثلما كان يفعل إبان حملى الأول. وقد بلغ اهتمامه بى درجة كبيرة، حتى أنه بعد أن فرغ من قراءة كل أجزاء رواية الكونت ليف تولستوى «الحرب والسلام» التى أرسلها إليه ستراخوف فور صدورها، أخفى عنى جزءًا من الرواية حيث يجرى وصف احتضار زوجة الأمير أندريه بولكونسكى وهى تلد. لقد خشى فيودور ميخايلوفيتش أن يكون لمشهد الموت

(*) جبيبرتى (لورينزو) (١٣٧٨ أو ١٣٨١ ــ ١٤٥٥): صائغ ومعمارى ونحات إيطالى (المترجم).

أثر قوى وقاس على. وقد بحثت طويلاً عن الجزء الضائع حتى أننى عاتبت زوجى لفقده كتابًا هامًا. راح يختلق الأعذار وأكد لى أنه سوف يجده، ولكنه لم يفعل إلا بعد أن تحقق لنا الحدث الموعود. وفى أثناء انتظارنا لمولد الطفل، كتب فيودور ميخايلوڤيتش خطابًا إلى نيكولاى ستراخوف يقول فيه: «أنتظر بقلق بالغ وخوف ورجاء ووجل»(*) كلانا كان يحلم أن يأتى المولود صبية، وحيث إننا أحببناها بوله شديد فى أحلامنا، فقد أسميناها لوبوف(**) وهو اسم لم يكن يحمله أحد لا فى عائلتى ولا فى عائلة زوجى.

أوصانى الطبيب بكثرة التنزه، فكنت أذهب يوميًا بصحبة فيودور ميخايلوڤيتش إلى Giardino Boboli (وهى حديقة تحيط قصر بِيتى)، حيث كانت الزهور تزدهر على الرغم من أننا كنا فى شهر يناير. هنا كنا نستمتع بدفء الشمس ونحلم بسعادتنا القادمة.

فى عام ١٨٦٩ ساءت أحوالنا المادية، كما حدث معنا مرارًا من قبل، وأصبحنا فى حاجة ماسة إلى المال. كان فيودور ميخايلوڤيتش يتقاضى مائة وخمسين روبلاً مقابل الملزمة الواحدة، وهو ما يعنى حوالى سبعة الآف روبل مقابل رواية «الأبله» تسلمنا منها ثلاثة آلاف روبل ذهبت لمصروفات زواجنا قبل سفرنا إلى الخارج. واضطررنا لدفع الأربعة آلاف الباقية نظير الفوائد على منقولاتنا الموجودة فى بطرسبورج، ناهيك عن المساعدات التى كانت تذهب لربيب زوجى وعائلة أخيه المتوفى، ومن ثم فإن ما تبقى لنا من المبلغ كان ضئيلاً نسبيًا. وقد تحملنا رغم ذلك فقرنا النسبى دون خوف، بل تعاملنا معــه أحيانًا بشىء من اللامبالاة، حتى أن فيودور ميخايلوڤيتش أطلق على نفسه اسم السيد ميكوبرن وعلىّ السيـــدة ميكـــوبرن[١٠١]، لقد امتزجت روحانا، والآن، وبعد أن لاح الأمل فى سعـــادة جديدة، كان من الممكن أن تسير الأمور على خير ما يرام، لكن ابتـــلاءً آخـــر كان يتهددنا: فعلى مدى العامين المنصرمين عـــاش

(*) «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ٢٨٢. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)[١٠٠]

(**) لوبوف: تعنى بالروسية حب (المترجم).

فيودور ميخايلوفيتش معزولاً عن روسيا وأصبح يتعذب بهذه العزلة، وفى خطابه إلى ابنة أخته صوفيا ألكسندروفنا إيفانوفا (خميروفا)(*) المؤرخ الثامن من مارس ١٨٦٩ فى معرض حديثه لها عن روايته القادمة «الإلحاد»(١٠٢) كتب يقول: «لا أستطيع كتابتها هنا؛ وحتى يتسنى لى ذلك يجب أن أكون موجودًا فى روسيا حتمًا، أرى وأسمع وأشارك فى الحياة الروسية مباشرة... أنا هنا لا أملك حتى القدرة على الكتابة، لا أملك بين يدى المادة الضرورية للكتابة وأعنى بها الواقع الروسى (الذى يمدنى بالأفكار) والناس الروس(١٠٣). ليس الروس فقط وإنما البشر على وجه العموم، ليس لنا صديق واحد هنا فى فلورنسا يمكن أن نتبادل معه الحديث، نجادله، نمازحه، نتبادل معه انطباعاتنا وكل من حولنا غرباء، وأحيانًا ما نراهم يكنون لنا الكراهية، وإنه لأمر شاق على النفس أن يعيش المرء فى عزلة تامة عن الناس. أذكر أن فكرة خطرت برأسى أن الناس الذين يعيشون فى هذه الوحدة المطلقة والاغتراب، يمكن أن يصلوا فى النهاية لكراهية بعضهم بعضًا، أو يندمجوا معًا ما تبقى لهم من عمر. ولحسن حظنا أن الأمر الأخير هو الذى تحقق بينى وبين زوجى، لقد أجبرتنا هذه العزلة الإجبارية على أن ننصهر معًا قلبًا وقالبًا وجعلت كلًا منا يعتز بالآخر اعتزازًا أكبر.

بعد تسعة أشهر من إقامتى فى إيطاليا تعلمت الحديث قليلاً باللغة الإيطالية، أى بالقدر الذى يمكننى من الحديث مع الخادمة أو فى المحال، بل والاطلاع على صحيفتى «Piccola» و«Secola» وكنت أفهم ما يرد بهما. أما فيودور ميخايلوفيتش، المشغول دومًا بعمله، فلم يتمكن، بطبيعة الحال، من التعلم، ومن ثم أصبحت أنا مترجمته. والآن، وقد اقترب الحدث العائلى المنتظر، فقد كان من الضرورى أن ننتقل إلى بلد يتحدثون فيه بالفرنسية أو الألمانية، حيث يمكن لزوجى التفاهم بحرية مع الطبيب والقابلة وفى المحلات وهلمجرا. رحنا نتدارس أمر البلد الذى سنسافر إليه والذى يمكن لفيودور ميخايلوفيتش أن يجد مجتمعًا مثقفًا. أوحيت لزوجى بفكرة الإقامة

(*) «الماضى الروسى»، ١٨٨٥، رقم ٧٠ (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

فى الشتاء فى براج، باعتبارها بلدًا متقاربًا مع روسيا. وهناك يستطيع أن يتعرف على الشخصيات السياسية البارزة وأن ينفذ من خلالهم إلى الأوساط الفنية والأدبية هناك. استحسن فيودور ميخايلوفيتش فكرتى، نظرًا إلى أنه عبّر أكثر من مرة عن أسفه لعدم حضوره المؤتمر السلافى الذى عقد هناك فى عام ١٨٦٧، مبديًا تعاطفه مع التقارب الذى بدأ فى روسيا مع الأوطان السلافية، معبرًا عن رغبته فى التعرف عن قرب بها. وهكذا استقر أمرنا على أن نسافر إلى براج وأن نقضى الشتاء كله فيها. كان السفر فى مثل حالتى الصحية أمرًا تكتنفه المصاعب، فقررنا أن ننزل للراحة فى عدد من المدن فى طريقنا إلى براج. فكانت ڤينيسيا، هى أول هذه المدن، لكننا توقفنا عند انتقالنا من قطار إلى قطار فى بولون وذهبنا إلى متحفها لنشاهد لوحة رفاييل «القديسة سيسيليا»، التى كان فيودور ميخايلوڤيتش يقدرها تقديرًا رفيعًا، ولكنه لم يكن رأى حتى ذلك الحين سوى مستنسخ منها، والآن غمرته السعادة بعد أن رأى اللوحة الأصلية. بمشقة بالغة استطعت أن أنتزع زوجى من تأمل هذا العمل الرائع، ولكننى كنت خائفة فى الوقت نفسه أن نفقد قطارنا.

نزلنا فى ڤينيسيا بضعة أيام. كان فيودور ميخايلوڤيتش فى أوج سعادته لرؤيته كنيسة القديس مرقص (Chiesa San Marco) وراح يقضى ساعات طوالاً فى تأمل الفسيفساء التى تزين الحوائط. زرنا معًا Pallazzo Ducale (قصر الدوق) وقد أعجب زوجى بشدة بعمارته المدهشة، كما أعجب أيضًا بالجمال الآخاذ لأسقف القصر، التى رسمها أفضل فنانى القرن الخامس عشر. يمكن القول إننا لم نبرح ميدان San Marco طيلة أربعة أيام فقد كان يترك فى نفوسنا، سواء بالليل أو النهار، انطباعًا باهرًا.

(٧)

واجهت السفينة التى انتقلنا عليها من ڤينيسيا إلى تريست موجات عاصفة؛ وقد أحس فيودور ميخايلوڤيتش بالخوف من أجلى ولم يبتعد عنى خطوة واحدة، ولكن

الأمور انتهت جميعها، لحسن الحظ، على نحو جيد. توقفنا بعد ذلك لمدة يومين فى ڤيينا ومنها سافرنا إلى براج لنصلها بعد رحلة استغرقت عشرة أيام. واجهنا هنا إحباطًا كبيرًا ؛ فقد تبين لنا أن الغرف المفروشة فى مثل هذه الأوقات هى غرف مفردة فقط وأن الغرف المفروشة للعائلات غير متاحة إطلاقًا، وهى الغرف الأكثر هدوءًا وراحة. وحتى نتمكن من البقاء فى براج لم يكن أمامنا سوى أن نستأجر شقة وأن ندفع إيجارها لمدة ستة أشهر مقدمًا؛ فضلاً عن شراء الأثاث والأدوات المنزلية جميعها. لم يكن لدينا من المال ما يكفى لذلك، وبعد ثلاثة أيام من البحث اضطررنا للأسف أن نترك براج الذهبية، التى استطاعت أن تحوز إعجابنا الشديد. وهكذا انهارت أحلام زوجى فى أن يعقد صلاته مع نشطاء العالم السلاڤى. لم يبق أمامنا إلا العودة والاستقرار فى درزدن، التى كنا على علم تام بظروف الحياة فيها. وهكذا وصلنا فى مطلع أغسطس إلى درزدن حيث استأجرنا فيها ثلاث غرف مفروشة فى الجزء الإنجليزى من المدينة (Englischer Viertel) فى شارع Victoriasraβe، رقم 5، وفى هذا البيت كان الحدث العائلى السعيد فى اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر من عام ١٨٦٩ ــ ميلاد ابنتنا الثانية لوبوف[١٠٤]، وقد وصلت أمى إلى هنا مرة أخرى فى موعد الوضع.

وها هو فيودور ميخايلوڤيتش وقد بلغ ذروة السعادة يبلغ أبوللون مايكوف بهذا الحدث ويدعوه أن يكون الأب الروحى لابنته بقوله: «ثلاثة أيام مرت على ميلاد ابنتى لوبوف. جرى كل شىء فى سلام، طفلة جميلة ممتلئة تنعم بالصحة(*). بالطبع، فإن عيون أب متيم بالحب، مفعم بالسعادة هى وحدها القادرة على أن ترى فى كومة من اللحم بلون الورد «فتاة حسناء».

بظهور هذا المولود إلى الدنيا أقبلت السعادة على أسرتنا من جديد. كان فيودور ميخايلوڤيتش بالغ الحنان على ابنته، يلاعبها، يحميها بنفسه، يحملها على يديه، يهدهدها ويرى أنه إنسان سعيد للغاية، حتى أنه كتب إلى نيكولاى ستراخوف يقول: «وأسفاه

(*) «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ٢٠٦. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا[١٠٥])

عليك يا عزيزى نيكولاى نيكولايڤيتش. لماذا لم تتزوج، ولماذا لا يكون لك طفل؟ أقسم لك أن فى هذا الأمر ثلاثة أرباع السعادة فى هذه الحياة، ولعل فى الربع الآخر ما تبقى من أشياء»(*).

وفى هذه المرة أيضًا كان أبوللون مايكوف هو الإشبين وقد اختار فيودور ميخايلوڤيتش أخته الحبيبة ڤيرا إيڤانوڤا(**) إشبينة لابنتنا. بينما كانت أمى وكيلة. لم تتم مراسم العماد إلا فى شهر ديسمبر، ففى البداية كنت مريضة، كما أن قسيس كنيسة درزدن كان قد سافر إلى بطرسبورج لقضاء بعض الأمور.

فى درزدن عثرنا على مكتبة عامة رائعة تضم العديد من الكتب والصحف باللغات الروسية والأجنبية. وفى درزدن أيضًا أصبح لنا بعض المعارف من بين الروس المقيمين فيها بصفة دائمة، وهؤلاء كانوا يذهبون بعد الغداء إلى أسرة القس المضيافة. ومن بين أصدقائنا الجدد اكتشفنا عددًا من الشخصيات المثقفة شديدة الذكاء، وكان زوجى يسعد بالحديث إليهم وكان ذلك هو الجانب المشرق من الحياة فى درزدن.

ما إن انتهى فيودور ميخايلوڤيتش من قصة «الزوج الأبدى» حتى أرسل بها إلى مجلة «زاريا»، حيث ظهرت فى العددين الأولين منها فى عام ١٨٧٠ وتحمل هذه القصة ملامح من السيرة الذاتية، وتعكس الفترة التى قضاها زوجى فى ضاحية ليوبلينا بالقرب من موسكو عام ١٨٦٦، حيث أقام فى «داتشا» بالقرب من «داتشا» أخته ڤيرا ميخايلوڤنا إيڤانوڤا. ويعد آل إيڤانوف هم النموذج الأصلى لآل زاخليبين فى القصة. الأب المندمج فى عمله، الشباب المرح، وهم أبناء وبنات أخته وأصدقائهم، فقد صور م.س. إيڤانتشينا ــ بيساريڤا، صديقة العائلة، فى شخصية ماريا نيكيتشينا، كما صور ربيبه، باڤل إيسايف، فى شخصية ألكسندر لوبوف، بالطبع فى صورة مثالية للغاية. وفى

(*) المرجع السابق، ص ٢٨٧. (ملاحظة لآنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)[١٠٦]

(**) ڤيرا ميخايلوڤنا دستويڤسكايا (إيڤانوڤا بعد الزواج) (١٨٢٩ ــ ١٨٩٦) أخت فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى.

الوقت نفسه فإن شخصية ڤيلتشانينوف تحمل بعضًا من سمات فيودور ميخايلوڤيتش نفسه. عندما يصف، على سبيل المثال، مختلف أشكال الألعاب التى اخترعها عندما وصل إلى الداتشا. وعن هذه الأمسيات الصيفية والعروض التى كانت تقام فى الداتشا فى صحبة شباب ذكى ومرح يكتب ن. ن. فوخت، أحد المشاركين فيها، فى مذكراته(*).

فى شتاء عامى ١٨٦٩ ــ ١٨٧٠ كان فيودور ميخايلوڤيتش مشغولاً بكتابة رواية جديدة أراد أن يسميها «سيرة خاطئ كبير» كان من المفترض، وفقًا لفكرة زوجى، أن يتكون هذا العمل من خمس قصص طويلة (تقع كل قصة منها فى حوالى خمس عشرة ملزمة)؛ فضلا عن أن كل قصة يمكن أن تشكل عملاً مستقلاً، يمكن نشره فى المجلة أو طبعه مستقلاً فى كتاب. كان فيودور ميخايلوڤيتش عازمًا على طرح هذه القضية الهامة والملحة فى القصص الخمس كافة، والتى تعذب بها طوال حياته، وهى تحديدًا قضية وجود الله [١٠٧]. كان من المفترض أن تدور الأحداث فى القصة الأولى فى فترة الأربعينيات من القرن الماضى (التاسع عشر ــ المترجم)، وكانت المادة الخاصة بالعمل ونماذج تلك الفترة معروفة وشديدة الوضوح بالنسبة إلى فيودور ميخايلوڤيتش حتى إنه كان باستطاعته كتابة القصة وهو مقيم بالخارج. كان زوجى يرغب فى نشر هذه القصة فى مجلة «زاريا». أما بالنسبة إلى القصة الثانية، والتى تجرى أحداثها فى كنيسة، فكان لزامًا على فيودور ميخايلوڤيتش أن يعود إلى روسيا لكتابتها. كان زوجى عازمًا أن يجعل من الأسقف تيخون زادونسكى بطلاً رئيسيًا للقصة الثانية [١٠٨]، بالطبع تحت اسم آخر. كان فيودور ميخايلوڤيتش يعول آمالاً كبارًا على القصة التى هو بصدد كتابتها، وكان يرى فيها ختامًا لنشاطه الأدبى. وقد تحققت نبوءته بالفعل، فالعديد من الأبطال الذين أبدعهم لروايته دخلوا فيما بعد فى رواية «الإخوة كارامازوف»، وذلك عندما لم

(*) ن. ن. فون ــ فوخت (١٨٥١ ــ ١٩٠١): خريج معهد قنسطنطين ميجيفسكى للمساحة والذى كان يعمل به ألكسندر باڤلوڤيتش إيڤانوف، زوج أخت دستويڤسكى أستاذا للفيزياء والتاريخ الطبيعى. وكان فون ــ فوخت من بين الشباب الذين أحاطوا بالكاتب إبان استجمامه فى صيف عام ١٨٦٦ فى ليوبلينا. انظر مذكراته فى مجلة «البشير التاريخى»، ١٩٠١، العدد ١٢. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)

ينجح زوجى أن يحقق عزمه[١٠٩]، إذ جذبه موضوع آخر، وهو الموضوع الذى كتب بشأنه إلى نيكولاى ستراخوف قائلاً: «أعمل بقوة فى الموضوع الذى أنا بصدد كتابته لنشره فى «البشير الروسى»، ولكن لا من الناحية الفنية، وإنما من ناحية التوجه: أود أن أعبر عن بعض الأفكار، حتى ولو ضاعت فى ذلك مهارتى الفنية، ما يجذبنى الآن هو ما تراكم فى عقلى وفى قلبى حتى ولو خرجت جميعها فى كتيب، المهم أن أفصح عما يجيش فى صدرى»(*).

كانت هذه رواية «الشياطين» التى ظهرت فى عام ١٨٧١[١١١]. وقد كان لوصول أخى أثره على ظهور هذا الموضوع الجديد[١١٢]. المسألة أن فيودور ميخايلوڤيتش، الذى كان يقرأ شتى الصحف الأجنبية (وكانت تنشر الكثير مما لا يظهر فى الصحف الروسية) وصل إلى استنتاج مفاده أن أكاديمية بتروڤسكى للعلوم الزراعية سوف تظهر فيها خلال وقت قصير اضطرابات سياسية[١١٣]. وخوفًا من أن يشارك فيها أخى نظرًا إلى صغر سنه وقلة خبرته، أقنع زوجى أمى بأن تستدعيه لقضاء بعض الوقت فى ضيافتنا فى درزدن. كان فيودور ميخايلوڤيتش يضع فى حسبانه أن مجىء أخى سوف يبعث بالاطمئنان فى نفسى، وقد بدأتُ بالفعل أعانى مشاعر الحنين إلى الوطن، وكذلك أمى، التى قضت حتى الآن عامين فى الخارج (تارة مع أبناء أختى، وتارة معنا هنا) وكانت فى أشد الشوق إلى ابنها. كان أخى يحلم دائمًا بالسفر إلى الخارج؛ وقد انتهز فرصة الإجازات وسافر إلينا. أبدى فيودور ميخايلوڤيتش تعاطفًا كبيرًا تجاه أخى، وكان مهتمًا بالمواد التى يدرسها وبأصدقائه وبالوسط والمزاج الطلابى بوجه عام. وقد قصَّ أخى عليه تفصيلاً وبحماس بالغ عن هذا الأمر. وهنا ظهرت لدى فيودور ميخايلوڤيتش فكرة أن يصور فى واحدة من قصصه الحركة السياسية فى ذلك الوقت، واتخذ من الطالب إيڤانوڤ (الذى أسماه شاتوف فى القصة) واحدًا من أبطاله الأساسيين، والذى قتل فيما بعد على يد نيتشايف[١١٤]. تحدث أخى عن الطالب إيڤانوڤ باعتباره طالبًا ذكيًا

(*) «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ٢٨٨. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا[١١٠])

وإنسانًا صاحب شخصية قوية بارزة. تخلى عن قناعاته القديمة بشكل جذرى، وكم كانت صدمته شديدة، عندما عرف من الصحف نبأ مصرع إيڤانوف، وكان أخى يكن له مشاعر ودية عميقة! وقد وصف فيودور ميخايلوڤيتش حديقة أكاديمية بتروڤسكى وجبلايتها، حيث قتل إيڤانوف، حرفيًا من كلمات أخى(١١٥).

أضيف هنا أن وصول أخى إلى درزدن كان حدثًا هامًا فى حياته: فقد التقى بين أعضاء الجالية الروسية فتاة أصبحت زوجته بعد عام. وعلى الرغم من أن مادة الرواية الجديدة مستقاة من الواقع، فإن زوجى عانى صعوبة كبيرة فى كتابتها، وكالمعتاد لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش راضيًا عن عمله، فقد أعاد كتابتها عدة مرات مزَّق خلالها خمس عشرة ملزمة(١١٦). فالرواية الموجهة كانت، بداهة، لا تتفق ومزاجه الإبداعى.

ونظرًا إلى نمو ابنتنا ليوباتشكا وعدم حاجتى لملازمتها طوال الوقت، فقد سنحت لى الفرصة أن نطوف أنا و فيودور ميخايلوڤيتش فى قاعات معرض الصور، وأن نذهب إلى حفلات الموسيقى الرخيصة فى شارع بريولوف وأن نواصل نزهاتنا، وفى إحدى هذه النزهـــات وقع لنا حادث يرسم شخصية زوجى آنذاك. وقد حدث الأمر على النحو التالى: فى شتاء عام ١٨٧٠ أقيم أوكازيون لبيع مفروشات ومتعلقات إحدى الدوقات الألمان. كانوا يعرضون قطعًا من الماس وفساتين وبياضات وفراء وما إلى ذلك، وكانت قاعة الفندق مكتظة بالجمهور. وفى أحد آخر أيام الأوكازيون كنا نمر بالقرب من بيتها فاقترحت على زوجى أن ندخل لنلقى نظرة، حيث إن البيع عند الألمان يتم علنًا. وقد وافق فيودور ميخايلوڤيتش، وعلى الفور صعدنا إلى القاعة. كانت الأشياء المتبقية قليلة، وكان أغلبها من المعروضات الفاخرة، التى لا تجد لها هواة كثيرين بين الألمان المقتصدين. وفجأة انتبه فيودور ميخايلوڤيتش إلى قطع من البللور البوهيمى من طراز رائع بلون الكرز الداكن ذات نقوش مذهبة. كان عددها ثمانى عشرة قطعة: مزهريتان كبيرتان، واثنتان متوسطتان، وست أصغر، وأربع مزهريات للمربى وأربعة أطباق، عليها جميعًا نفس الرسوم. راح فيودور ميخايلوڤيتش، هاوى القطع الفنية الرفيعة، يتأمل المزهريات وهو يقول «كم أود لو اقتنينا هذه المزهريات الرائعة. هل

تريدين أن نشتريها يا آنيتشكا؟» ابتسمت، ومع علمى بأن لدينا بعض النقود فى هذه اللحظة، ولكنها لم تكن لتكفى لشراء هذه الأشياء. إلى جوارنا وقفت امرأة فرنسية كانت معجبة بشدة بهذه الأوانى البللورية؛ كانت تتحدث إلى رفيقها معبرة عن أسفها قائلة إن هناك الكثير من الأشياء وكانت تود لو أنها اشترت جزءًا منها. استمع فيودور ميخايلوفيتش لما قالته فتوجه إليها قائلاً: «مدام، هل نشترى هذه الأشياء مناصفة؟»، لم تمر خمس دقائق إلا وقد عرضت الأشياء أمام الجمهور بسعر ثمانية عشر طالر، كل قطعة منها بطالر واحد. حتى الألمان الحريصين أظهروا رغبتهم فى الشراء عندما وجدوا أن هذه المجموعة الكبيرة تباع بمثل هذا السعر المنخفض، فراحوا يزايدون بمعدل Fünf Groschen (خمسة جروشات). فيودور ميخايلوفيتش وحده الذى كان يزايد فى كل مرة بمعدل طالر. كان حماسه يزداد دقيقة بعد الأخرى، وكنت أرى أن السعر يرتفع بشدة فأخذت أفكر: ماذا لو أن الفرنسية تراجعت عن الشراء، هل ستكون كل هذه الأشياء من نصيبنا؟ عندما وصل السعر إلى واحد وأربعين طالر، أوقف مدير المزاد المزايدة خوفًا من انصراف المشترين، وأصبحت الأشياء ملكًا خالصًا لنا. لم تتراجع الفرنسية عن الشراء فتقاسمنا الأشياء بالعدل. والآن أصبح علينا أن ننقل مشتريات إلى البيت. انتظر فيودور ميخايلوفيتش إلى جانب الأشياء، بينما حملنا أنا واثنان من الحمالين مزهرية فى كل يد وتوجهنا إلى البيت كان على الحمالين أن يعودا مرتين لحمل الأشياء. يمكن أن تتخيل دهشة أمى عندما رأت هذه المجموعة من المزهريات فى غرفة زوجى، وكان أن سارعت بالسؤال: «وكيف ستحملون كل هذه الأشياء إلى روسيا؟ ليست لديكم صناديق وإنما حقائب فقط، وهذه الأشياء معرضة جميعها لأن تتحطم فى الطريق». لم يخطر ببال أحدنا مطلقًا هذا الأمر، وحتى لو حدث لما تراجع فيودور ميخايلوفيتش على أية حال عن الشراء بعد أن تملكه هوس امتلاك هذه الأشياء، ومع ذلك فقد سارت الأمور على ما يرام: كان كثير من الروس يسافرون أحيانًا من درزدن إلى بطرسبورج، فكنت أطلب من معارفى بينهم أن يحملوا مزهرية لتوصيلها إلى أختى. ما تزال هذه الأشياء سليمة حتى الآن وتشكل بعضًا من ثروتنا العائلية.

وكما ذكرت من قبل، فقد كنا نذهب أنا وزوجى لزيارة القس نيكولاى فيودورڤيتش روزانوف(*)، الذى لم يكن زوجى يقدره على نحو خاص، إذ كان يرى أن حماسه المتعجل وما يميز شخصيته من الرعونة فى إصدار الأحكام والآراء يجعله لا يمثل نموذجًا لخادم المذبح على النحو الذى يراه فيودور ميخايلوڤيتش. كانت لديه زوجة مضيافة، وكان لديهما أطفال لطفاء، كانوا يضفون البهجة على بيتهما، وكان من بين السيدات الروسيات اللائى كن يعشن فى تلك السنوات فى درزدن، عدد من المعجبات المتحمسات لموهبة زوجى: هؤلاء كن يقدمن له الزهور والكتب، والأهم أنهن كن يدللن ابنتنا لوباتشكا باللُعب، فضلًا عن أنهن استرعين انتباه فيودور ميخايلوڤيتش.

فى نهاية شهر أكتوبر ١٨٧٠ اجتمعت الجالية الروسية فى درزدن فى بيت القس، وتم اتخاذ مبادرة لإرسال خطاب إلى القنصل الروسى آنذاك ردًا على رسالته العاجلة المؤرخة ١٩ أكتوبر والموجهة إلى ممثلى روسيا هنا[١١٧]. وعلى الفور راح الجميع يطلب من فيودور ميخايلوڤيتش أن يكتب ردًا على هذا الخطاب، وعلى الرغم من أنه كان مشغولاً للغاية فى هذا الوقت بعمل عاجل، فإنه وافق وقام بكتابة الخطاب على النحو التالى:

«علمنا نحن الروس المقيمين مؤقتًا فى الخارج، فى درزدن، ببالغ الفرح والامتنان بما خلصت إليه إرادتكم السامية، التى عبرتم عنها فى رسالتكم المؤرخة ١٩ أكتوبر، والتى وجهتموها إلى كل ممثلى روسيا المقيمين فى الدول الموقعة على معاهدة باريس. وإننا لفى غاية السعادة ونحن نعبر لسيادتكم من موقعنا هذا، وقد اجتمعنا معًا بصورة أخوية أن نعلن بالإجماع عن مشاعرنا الطيبة، وهى المشاعر التى تراود كل فرد فينا بعد أن قرأ رسالتكم. لقد شعرنا عند ذلك كما لو كنا نستمع لصوت روسيا العظيمة والمجيدة بأسرها. إن كل واحد فينا فخور بأن يحمل اسم روسيا وهو يقرأ هذه الكلمات المفعمة بالحقيقة والتقدير الرفيع.

(*) نيكولاى فيودورڤيتش روزانوف: قس روسى عاش فى برلين، وقد خلطت أنّا جريجوريڤنا هنا بينه وبين أخيه ألكسندر فيودورڤيتش روزانوف (١٨٣٩ ــ ١٨٨٣) وهو القس الروسى الذى عاش فى درزدن إبان إقامة دستويڤسكى وزوجته فيها (المترجم).

ندعو الله أن يهب وطننا المحبوب السعادة ونرجوه أن يحفظه دائمًا من كل سوء. ونتضرع إليه أن يحفظ مليكنا المحرر المحبوب عمرًا طويلاً، وأن يكون خدمه من الشجعان من أمثالكم».

وقد امتلأ هذا الخطاب بالعديد من التوقيعات (بلغت ما يزيد على المائة) وأرسلت إلى القنصل.

على الرغم من أننى عانيت من الحنين إلى روسيا طوال السنوات الثلاث الأولى من وجودى فى الخارج، فإننى عايشت انطباعات جديدة منها الحسن ومنها الردىء، الأمر الذى جعل هذا الإحساس يتبدد، ولكننى فى العام الرابع لم أعد أتحمل مقاومته، وعلى الرغم من وجود أحباء وأعزاء بالقرب منى: زوجى وطفلتى، أمى وأخى، لكن شيئًا هامًا بتُ أفتقده، كنت أفتقد الوطن، روسيا، شيئًا فشيئًا راح حنينى يزداد ليصل إلى درجة المرض وليتحول إلى نوستالجيا، وتصورت المستقبل أمامى بلا أمل تمامًا. اعتقدت أننا لن نرجع مطلقًا إلى روسيا، وأن عقبات كؤود ما ستظل واقفة فى طريقنا تمنعنا من العودة: تارة لا نقود لدينا، وتارة لدينا ولكننى لا أستطيع العودة بسبب حملى أو خشية على مولودى من أن يصاب بالمرض وهلمجرا. تصورت أن الخارج ليس سوى سجن دُفعت إليه وأننى لن أتمكن من الخلاص منه إلى الأبد. ورغم مواساة أقاربى لى، فإنهم لم ينجحوا فى إغرائى بالأمل فى أن الأحوال ستتغير وأننا سنعود إلى الوطن، كانت كل هذه المواساة تذهب أدراج الرياح: كنت قد فقدت الثقة فى هذه الوعود وأصبحت على اقتناع تام أن قدرى هو أن أظل فى الغربة إلى الأبد، ولعلمى التام أن حنينى كان سببًا فى عذاب زوجى، الذى كان هو نفسه يعانى من الحياة بعيدًا عن الوطن على نحو لا يوصف، كنت أحاول التماسك فى وجوده فلا أبكى أو أجأر بالشكوى، لكن مظهرى الحزين كان يشى دائمًا بما أكنه. كنت أقول لنفسى إننى على أتم استعداد لتقبل كل أنواع المصائب وتحمل الفقر بل وحتى العوز، على أن أعيش فقط فى وطنى الغالى، الذى أفتخر به دائمًا. عندما أتذكر حالتى النفسية آنذاك أقول إنها كانت حالة صعبة لا تحتمل، وأننى لم أكن لأتمناها حتى لأشد أعدائى ضراوة.

فى نهاية عام ١٨٧٠ اتضح لنا أمر من الأمور استطعنا بفضله أن نتمكن من الحصول على مبلغ كبير من المال. المسألة تحديدًا أن ستيلوفسكى الذى اشترى من فيودور ميخايلوفيتش حق نشر أعماله الكاملة عام ١٨٦٥، قام بإصدار طبعة مستقلة من رواية «الجريمة والعقاب»، وبموجب هذا الاتفاق كان ستيلوفسكى مُلزمًا بدفع ما يزيد عن ألف روبل لزوجى. ها هى الرواية قد خرجت للنور والناشر لا يريد أن يدفع شيئًا، على الرغم من أن ربيب زوجى أعلنه أنه يملك توكيلاً باستلام المبلغ. ولمّا كان فيودور ميخايلوفيتش لا يثق فى خبرة ربيبه، فقد طلب من أبوللون مايكوف أن يأخذ على عاتقه مسؤولية الحصول على هذه الأموال، لا بصفته الشخصية، وإنما أن يقوم بتوكيل الأمر إلى محام ذى خبرة أهل للثقة[118]. أتذكر بامتنان عميق أبوللون مايكوف لما تمتع به من طيبة كبيرة وسمو فى الأخلاق تجليًا فى علاقته بنا على مدى السنوات الأربع التى عشناها فى الخارج. وقد بذل أبوللون نيكولايفيتش (مايكوف) أقصى ما فى وسعه فى قضيتنا هذه، ولم يكتف بأن يعهد بها إلى محام واسع الخبرة وإنما سعى لأن يتفاوض مع ستيلوفسكى، لكن هذا الناشر كان معروفًا بالدهاء والاحتيال، ومن ثم خشى أبوللون مايكوف أن يخدعه فقرر أن يستدعى فيودور ميخايلوفيتش ليحضر بنفسه إلى بطرسبورج، ولعلمه أننا نعانى دائمًا من قلة المال فقد أرسل لنا برقية نصح فيها زوجى أن يتقدم بطلب إلى الصندوق الأدبى لإقراضه مبلغًا فى حدود مائة روبل[119] يمكن بواسطتها أن يسافر إلى بطرسبورج وحده دون أن يصطحب العائلة. ولسوء الحظ وصلتنا البرقية فى اليوم الأول من أبريل (وهو اليوم الذى اعتاد الناس فيه فى روسيا على إطلاق الأكاذيب)، وفى البداية تصورنا أنا وزوجى هذه الدعوة للسفر إلى بطرسبورج دعابة أو مكيدة من أحد الدائنين، لعله ستيلوفسكى نفسه يرغب فى دعوة فيودور ميخايلوفيتش للحضور إلى بطرسبورج حيث يهدده بالسجن فى قسم الديون، حيث يجعلنا نتنازل عن الكمبيالات التافهة التى لدينا مقابل مستحقاتنا فى «الجريمة والعقاب». أما أبوللون مايكوف الطيب فلم يكتف بإرسال البرقية، وإنما راح يلتمس رأى لجنة الصندوق الأدبى بشأن إرسال قرض قيمته مائة روبل إلى الكاتب دستويفسكى، لكن الصندوق تعامل فى هذه المرة

أيضًا(*) مع هذا الطلب بصلف وعدوانية، وهو ما ذكره أبولّلون مايكوف فى خطابه المؤرخ الحادى والعشرين من أبريل ١٨٧١ (١٢١).

كان فيودور ميخايلوڤيتش يشعر بالاستياء الشديد بعد أن تلقى هذا الخطاب وكتب فى رده عليه يقول(**) {«لعلكم ترون، على أية حال، كيف يتعامل الصندوق بصلف تجاه طلبى (أى تجاه الطلب المقدم إليكم بشأنى) بشأن القرض، والضمانات التى طلبتموها وما إلى ذلك، وبأى لهجة متعالية كان ردكم. لو أن أحد العدميين هو من تقدم إليكم بهذا الطلب، ما كانت إجابتكم على هذا النحو»}(١٢٢).

زمن مضى، وها نحن فى أبريل من عام ١٨٧١ وقد أتممنا أربع سنوات فى الخارج، وها هو الأمل فى عودتنا إلى روسيا يتجدد تارة، ويختفى تارة أخرى. وأخيرًا قررنا أنا وزوجى بكل حزم أن عودتنا إلى بطرسبورج أمر حتمى مهما كانت عواقب هذه العودة. لكن حساباتنا كلها كانت معلقة بشعرة: كنا نتوقع مجىء ضيف جديد فى شهر يوليو أو مطلع شهر أغسطس ليضاف إلى أسرتنا. فإذا لم نتمكن قبل شهر من الحدث المنتظر من العودة إلى روسيا لأصبح من المحتم علينا أن نبقى فى الخارج عامًا آخر بأكمله، أى حتى حلول الربيع، إذ إن الرحيل فى نهاية الخريف بصحبة مولود أمر مستحيل. وعندما افترضنا أنه لن يكون باستطاعتنا أن نرى روسيا لمدة عام آخر، وقعنا فى حبائل اليأس: لقد أصبحت حياتنا فى الغربة أمرًا لا يحتمل. وكثيرًا ما كان فيودور ميخايلوڤيتش يردد على مسامعى أنه إن ظل فى الخارج فإنه «سيحتضر» وأنه لن يكون بمقدوره الكتابة بعد ذلك، إنه هنا لا يملك مادة للكتابة، وهو يشعر أنه لم يعد يفهم أو يتذكر روسيا والروس، إذ إن الروس فى درزدن من معارفنا هم ليسوا، فى رأيه، روسًا، وإنما هم مهاجرون جاؤوا إلى هنا بمحض اختيارهم، وهم لا يحبون روسيا وقد تخلوا عنها إلى الأبد. وقد كانت هذه هى الحقيقة الساطعة: فهؤلاء جميعًا كانوا ينحدرون من عائلات

(*) أعتزم أن أوضح لاحقًا الموقف الودى من جانب زوجى تجاه الصندوق الأدبى، وموافقته المستمرة للمشاركة كمحاضر فى الأمسيات الخيرية التى يقيمها، والعلاقة العدوانية من جانب الصندوق تجاهه. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)(١٢٠).

(**) فقرة مفقودة فى المخطوطة.

أرستقراطية، ولم يكن باستطاعتها التصالح مع إلغاء قوانين الرق ولا قبول المجتمع بعد أن تغيرت ظروفه. هؤلاء لفظوا الوطن لكى يستمتعوا بحضارة أوروبا الغربية. هؤلاء كانوا فى غالبهم كارهين للنظم الجديدة، أناس اهتزت رفاهيتهم فباتوا يشعرون أن من الأسهل عليهم أن يعيشوا فى الغربة.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يتحدث كثيرًا عن «احتضار» موهبته المؤكد، وكيف أنه يتعذب بفكرة كيف سيتمكن من إطعام عائلته الغالية عليه والتى يزداد عددها يومًا بعد الآخر، الأمر الذى كان يدفعنى أحيانًا إلى اليأس وأنا أستمع إليه. وحتى أهدئ من روعه وأبعد عنه أفكاره السوداء والتى تعوقه عن التركيز فى عمله، لجأت إلى تلك الوسيلة التى كانت تذهب عنه الحَـزَنْ وتسرى عنه، فانتهزت فرصة امتلاكنا لبعض المال (ثلاثمائة طالر) وانحرفت بحديثنا معًا بطريقة ما نحو الروليت، ولماذا لا يجرب حظه مرة أخرى وأنه قد آن الآوان ليفوز، ولِمَ لا يكون لديه شىء من الأمل فى أن الحظ سيكون حليفه هذه المرة وهلمجرا. لم أكنَ أعوِّل على الفوز وكنت آسفة بشدة على التضحية بمائة طالر، لكننى، استنادًا إلى خبرة الأسفار السابقة إلى الروليت، كنت أعلم أنه بعد أن يعانى مشاعر عاصفة ويُرضى حاجته للمخاطرة فى اللعب، ويقتنع بخيبة أمله فى الربح، يعود وقد تجددت قواه لكتابة روايته وسرعان ما يعوض خلال أسبوعين ثلاثة ما خسره. جاءت فكرتى عن الروليت على هوى زوجى تمامًا فلم يرفضها. سافر فيودور ميخايلوڤيتش إلى ڤيسبادن، حيث قضى هناك أسبوعًا، ومعه مائة وعشرين طالر بعد أن اشترط علىّ أن أرسل إليه نفقات العودة فى حالة خسارته. وكما توقعت كانت نتيجة اللعب محزنة للغاية، وقد كلفتنا هذه الرحلة مائة وثمانين طالر، وهو مبلغ كبير بالنسبة إلينا آنذاك. لكن تلك العذابات القاسية التى عاناها فيودور ميخايلوڤيتش فى هذا الأسبوع، عندما راح يلوم نفسه على أنه اقتطع مالاً يخص أسرته ويخصنى ويخص الطفل، كان لها أثر بالغ عليه، حتى أنه قرر ألا يذهب مطلقًا بعد ذلك للعب القمار. إليكم ما كتبه زوجى لى فى خطابه المؤرخ الثامن والعشرين من أبريل ١٨٧١: «لقد وقع لى أمر جلل، لقد اختفى الوهم الفظيع، الذى عذبنى طيلة عشر سنوات (أو، الأفضل

أن أقول، منذ وفاة أخى، عندما وقعت فجأة تحت وطأة الديون)، كنت أحلم دائمًا بالكسب؛ أحلم بولع وجدية. الآن انتهى كل شيء! كانت هذه هي المرة الأخيرة. هل تصدقين يا آنيا أن يدىَّ الآن طليقتان، لقد كنت أسيرًا للقمار. سوف أبدأ الآن فى التفكير فى عملى، ولن أحلم بعد ذلك ليالى بطولها بالقمار، كما كان يحدث لى من قبل» (١٢٣).

لم يكن بمقدورى، بطبيعة الحال، أن أصدق أن أعيش سعادة كبرى مثل أن يخمد أوار فيودور ميخايلوڤيتش تجاه المقامرة. فلطالما وعدنى بالابتعاد عن اللعب، ولم يكن باستطاعته أن يفى بوعده. لكن هذه السعادة تحققت. وكانت هذه، فى واقع الأمر، هى المرة الأخيرة التى يلعب فيها الروليت. وفى رحلاته التالية إلى الخارج (١٧٧٤، ١٨٧٥، ١٨١٦، ١٨٧٩) لم يفكر فيودور ميخايلوڤيتش فى الذهاب ولو مرة واحدة إلى مدينة القمار. والحقيقة أنه سرعان ما أغلقت صالات القمار فى ألمانيا، وإن ظلت مفتوحة فى سبا وساكسون وفى مونت كارلو. لم تكن المسافة لتقف حائلاً أمام زوجى للذهاب إلى أى منها، لكنه كان قد فقد الرغبة تمامًا فى اللعب. لقد بدا أن هذا «الوهم» الذى عايش فيودور ميخايلوڤيتش فى أن يربح فى القمار ليس سوى وسواس أو داء عضال شُفى منه فجأة.

عاد فيودور ميخايلوڤيتش من ڤيسبادن هادئًا مفعمًا بالحيوية والنشاط، وسرعان ما انكب على مواصلة العمل فى رواية «الشياطين»، إذ كان يتوقع أن السفر إلى روسيا وتدبير مكان جديد للسكنى، ثم انتظار الحدث العائلى أمور لن تمكنه من العمل الدؤوب. كانت أفكار زوجى كلها موجهة إلى الجانب الجديد من الحياة، التى راحت تتكشف أمامنا، ومن ثم راح يحزر أنه سوف يلتقى بشكل ما بأقاربه وأصدقائه القدامى، وكيف أنهم لا بد وأن يكونوا، فى رأيه، قد تغيروا تمامًا على مدى السنوات الأربع التى مرت، وكان يدرك أن التغيير قد أصاب آراءه ونظراته هو نفسه.

وفى الأيام الأخيرة من شهر يونيو من عام ١٨٧١ تلقينا من هيئة تحرير «البشير الروسى» مستحقاتنا من أموال أتعاب الرواية، ودون أن نضيع يومًا واحدًا، بدأنا

فى تدبير إنهاء أمورنا فى درزدن (إن شئنا الدقة، فك متاعنا المرهون وسداد ديوننا) وحزم حقائبنا. وقبيل سفرنا بيومين دعانى فيودور ميخايلوڤيتش إلى غرفة مكتبه وسلمنى عددًا من الرزم الورقية السميكة المليئة بالكتابة وكلها من القطع الكبير وطلب منى أن أحرقها. وعلى الرغم من أننا كنا قد تحدثنا معًا فى هذا الأمر، لكننى أصبحت أشعر بالأسف على ضياع هذه المخطوطات، الأمر الذى دفعنى لأن أبدأ فى التوسل إلى زوجى أن يسمح لى بأن آخذها معى. لكن فيودور ميخايلوڤيتش ذكّرنى بأنهم سوف يفتشونه دون أدنى شك عند الحدود الروسية وسوف يصادرون كل ما معه من أوراق، وسوف تضيع هذه الأوراق كما ضاعت قبلها أوراقه عند اعتقاله فى عام ١٨٤٩ كما كان من المحتمل أن يتم احتجازنا فى ڤيرجيبولوفو(*) حتى يراجعوا الأوراق، وهو ما يشكل خطرًا على الحدث العائلى المنتظر. كم كنت شديدة الأسف أن أفترق عن هذه المخطوطات، لكنى اضطررت أن أخضع لحجج فيودور ميخايلوڤيتش اللحوحة. أضرمنا النار فى المدفأة وأحرقنا الأوراق. وهكذا هلكت مخطوطات روايتى «الأبله» و «الزوج الأبدى». وقد أسفت على وجه الخصوص لفقدان هذا الجزء من رواية «الشياطين»، الذى كان يمثل الشكل الأصلى لهذا العمل ذى التوجه المحدد. وقد نجحت فقط فى الحفاظ على دفاتر الملاحظات الخاصة بالروايتين المذكورتين وأن أعطيها لأمى [١٢٤]، التى كان من المفترض أن تعود إلى روسيا مع نهاية الخريف. لم توافق أمى على حمل حقيبة مليئة بأكملها بالمخطوطات: فهذه الكمية الكبيرة كان من الممكن أن تثير الشكوك ولتمت مصادرة الأوراق منها.

وأخيرًا نجحنا فى الخامس من يوليو أن نغادر درزدن إلى برلين حيث استقللنا القطار المتجه إلى روسيا.

تعرضنا للكثير من الاضطراب فى رحلتنا بسبب كثرة الحركة والميل إلى اللعب من جانب لوباتشكا، التى بلغت من العمر تسعة أشهر كنا مسافرين دون أن نصطحب

(*) الاسم الرسمى لمدينة ڤيرباليس قبل ١٩١٧ وتقع فى جمهورية ليتوانيا (المترجم).

مربية، ونظرًا إلى حالتى الصحية، فقد أخذ زوجى على عاتقه مهمة المربية طوال الطريق: كان يأخذها للتجول على أرصفة المحطات ويحضر لها اللبن والطعام، يسليها بالألعاب، باختصار، كان يتصرف مثل مربية خبيرة وهو ما سهَّل علىّ هذه الرحلة الطويلة.

وقد حدث ما توقعناه: قلبوا حقائبنا وأمتعتنا رأسًا على عقب، أما أوراقنا وكتبنا فقد وضعوها جانبًا.

أُخرِجَ الجميع من صالة التفتيش وبقينا ثلاثتنا، إلى جانب عدد قليل من الموظفين الذين تَجمعوا بالقرب من الطاولة. حيث راحوا يفحصون الكتب التى وقع اختيارهم عليها وكذلك الرزمة الصغيرة من المخطوطات. أصابنا القلق خوفًا من أن يفوتنا القطار المتجه إلى بطرسبورج، وإذا بصغيرتنا لوباتشكا تنقذنا من هذه الورطة. لقد اشتد عليها الجوع فراحت تصيح بصوت مرتفع» «ماما، أريد فطيرة»، حتى أن الموظفين سرعان ما أصابهم الملل من جراء صياحها فقرروا أن يخلوا سبيلنا فى سلام بعد أن أعادوا لنا الكتب والمخطوطات دون ملاحظات.

كان علينا أن نعانى أسبوعًا آخر فى عربة القطار، لكن إحساسنا بأننا نسير على أرض روسية، وأن جميع من حولنا هم من أهلنا الروس كان يبعث فى نفوسنا الهدوء، مما جعلنا ننسى كل متاعب الطريق. كنت وزوجى سعيدين، مرحين نسأل بعضنا بعضًا: هل نحن حقًا أخيرًا فى روسيا؟ كنا فى حالة من الدهشة ونحن نرى حلمنا القديم وهو يتحقق.

(٨)

١٨٧١ . نهاية فترة حياتنا فى الخارج

أقول، وقد انتهت فترة حياتنا فى الخارج، إننى أتذكرها بامتنان عميق للقدر. صحيح أننا عانينا، على مدى ما يزيد عن أربع سنوات، مصائب ثقيلة: موت ابنتنا الكبرى، مرض فيودور ميخايلوڤيتش، افتقارنا الدائم إلى المال وحاجتنا إلى العمل، ولع فيودور ميخايلوڤيتش البائس بلعبة الروليت وعجزنا عن العودة إلى الوطن، لكن هذه المصائب

جميعها كان لها جانبها الخيِّر: فقد قاربت بيننا وجعلتنا نفهم ونقَدِّر بعضنا بعضًا، وخلقت تلك المودة المتبادلة المتينة، التى لولاها لما كنا سعداء على هذا النحو فى زواجنا.

إن استعادة ذكريات هذه السنوات تمثل بالنسبة إلىَّ شخصيًا لوحة صافية بديعة. لقد عشنا وزرنا العديد من المدن والأماكن الرائعة (درزدن، بادن ــ بادن، چينيڤ، ميلانو، فلورنسا، ڤينيسيا، براج)، وقد تفتح أمام عينىَّ المبهورتين عالم بأكمله لم أر مثيلاً له حتى الآن، عالم ما يزال غامضا حتى الآن، ولم يكن هناك شىء يشبع فضولى الشاب سوى زيارة الكنائس والمتاحف وقاعات العرض، وبخاصة وقد تسنى لى الاطلاع عليها بصحبة إنسان حبيب كان كل حديث معه يمثل بالنسبة إلىَّ كشفًا جديدًا فى الفن أو فى الحياة.

لم تكن كل هذه الأماكن التى زرناها تشكل جديدًا بالنسبة لفيودور ميخايلوڤيتش، ولكنه، وهو الذى يملك ذوقًا فنيًا راقيًا ونظرة عميقة، كان يدخل إلى قاعات عرض اللوحات فى درزدن وفلورنسا وقد اعترته لذة حقيقية ويظل ساعات طويلة يتأمل كنيسة القديس مرقص وقصور ڤينيسيا.

صحيح أنه لم يكن لدينا فى الخارج معارف على الإطلاق، اللهم إلا من كنا نلتقى بهم مصادفة أو على نحو عابر. إلا أن فيودور ميخايلوڤيتش كان سعيدًا بهذه العزلة عن الناس. كان منذ وفاة أخيه ميخائيل غارقًا فى الحسرة، يعيش صراعًا مع خيبة الأمل وسوء الحظ اللذين راحا يلاحقانه؛ فضلاً عن الإحباط الشديد الذى أصابه من جراء علاقته بالعاملين فى عالم الأدب. وإلى جانب ذلك فقد رأى فيودور ميخايلوڤيتش أن من المفيد للغاية أن يعيش المفكر أحيانًا فى حالة من العزلة بعيدًا عن الأحداث الجارية التى تثير فيه الاضطراب دائمًا، وأن ينطلق تمامًا مع أفكاره وأحلامه. فيما بعد، وبعد أن عاد إلى دوامة الحياة فى العاصمة، كان فيودور ميخايلوڤيتش كثيرًا ما يتذكر كم كان سعيدًا فى الخارج وهو يملك بين يديه وقت فراغ هائل مكَّنه من أن يضع مخطط روايته وأن يقرأ كتابًا مختارًا دون عجلة مستسلمًا تمامًا للانطباعات السعيدة والحنونة التى تسبغها عليه القراءة.

كم من أشكال السعادة الخالصة والعميقة وهبتنا الحياة فى الخارج إلى جانب الانطباعات الخارجية الرائعة: ميلاد الأطفال وبداية تكوين الأسرة التى كان فيودور ميخايلوڤيتش يحلم بها دائمًا، كلها أمور ملأت وأضاءت حياتنا، وإننى لأعبر عن امتنانى للقدر قائلة: «بارك الله هذه السنوات الرائعة التى قيض لى أن أقضيها فى الخارج وحيدة إلا من هذا الإنسان الرائع بما يحمله من خصال نفسية رفيعة!».

والآن وقد أنهيت هذا العرض لحياتنا فى الخارج والتى امتدت إلى ما يزيد على أربع سنوات، سوف أتحدث عن المغزى الداخلى لحياة العزلة الطويلة التى عشناها. وعلى الرغم من الهموم الكثيرة وقلة المال آنذاك، والشعور بالملل الممض أحيانًا، وحياة الوحدة الطويلة، فقد كان لهذه الحياة أثرها الإيجابى على ظهور أفكار زوجى وتطور مشاعره المسيحية. كل الأصدقاء والمعارف الذين قابلونا لدى عودتنا من الخارج، كانوا يقولون لنا إنهم لم يعرفوا فيودور ميخايلوڤيتش، فقد تغيرت طباعه إلى الأفضل على نحو كبير، إلى حد أنه أصبح أكثر طيبة وتسامحًا مع الناس. لقد اختفى عناده وضيق صدره تمامًا. أورد هنا بضع كلمات من مذكرات نيكولاى ستراخوف(*) حيث يقول: «إننى على يقين أن هذه السنوات الأربع، التى قضاها فيودور ميخايلوڤيتش فى الخارج، كانت أفضل سنى عمره، فهذه السنوات هى التى وفرت له أعمق الأفكار والمشاعر وأنقاها. لقد عمل فيها بدأب بالغ وكان يعانى أحيانًا من الحاجة والعوز، لكنه تمتع بقدر كبير من الهدوء والسعادة بفضل الحياة العائلية الهانئة. لقد عاش طيلة الوقت فى عزلة تامة تقريبًا، أى أنه كان بعيدًا عن كل الأسباب القوية التى كان من الممكن أن تبتعد به عن الطريق المباشر لتطوير أفكاره وعمله الروحى العميق. إن ميلاد الأطفال والعناية بهم ومشاركة كل منهما الآخر فى آلامه وحتى موت الطفل الأول، جميعها كانت انطباعات ومشاعر رفيعة وسامية. لا شك أن الحياة فى الخارج تحديدًا، وفى مثل هذه الظروف، وبفضل هذه التأملات الهادئة الطويلة، انبعثت هذه الكشوف الخاصة لهذه

(*) «السيرة الذاتية والخطابات»، ص ٢٤٩. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

الروح المسيحية التى عاشت بداخله دائمًا. وقد ظهر هذا التحول الجوهرى جليًا أمام كل معارفه بعد أن عاد فيودور ميخايلوڤيتش من الخارج. وها هو يتحدث بلا انقطاع فى شتى الموضوعات الدينية؛ وفضلاً عن ذلك فقد تغير سلوكه فأصبح أكثر رقة إلى حد الوداعة المتناهية فى بعض الأحيان، حتى ملامح وجهه باتت تحمل بعضًا من سمات مزاجه النفسى واستقرت على شفتيه ابتسامة ودودة... بداهة فقد كانت روحه عامرة بأفضل المشاعر المسيحية، تلك المشاعر التى ما فتئت تعبر عن نفسها أكثر فأكثر فى أعماله. على هذا النحو عاد فيودور ميخايلوڤيتش من الخارج».

وفى السنوات التالية كان فيودور ميخايلوڤيتش نفسه يتذكر بكل العرفان بالجميل هذه السنوات التى قضيناها معًا فى الخارج.

لاحظ الأقارب والمعارف أيضًا التغيير الذى طرأ علىّ: فتاة وديعة خجول تحولت إلى أمرأة حازمة لا يخيفها الصراع مع مصائب الحياة، إن شئت الدقة، الصراع مع الديون، التى بلغت عند وصولنا خمسة وعشرين ألف روبل. لقد احتفظت بمرحى وحبى للحياة، لكنها صفات كانت تظهر فقط بين أسرتى وفى محيط أقاربى وأصدقائى، أما فى وجود الغرباء، وبخاصة فى مجتمع الرجال، فقد كنت متحفظة لأبعد الحدود، التزم الصمت والبرود المهذب، وأستمع بانتباه أكثر مما أعبر عن أفكارى. وقد أكدت لى رفيقاتى أننى كبرت سريعًا خلال هذه الأعوام الأربعة، وعاتبونى على قلة اهتمامى بمظهرى فلا أرتدى فاخر الثياب ولا أولى اهتمامًا كبيرًا لتصفيف شعرى على الموضة. كنت أتفق معهم فى ذلك، لكننى لم أشأ أن أغير شيئًا من سلوكى. كنت على اقتناع تام أن فيودور ميخايلوڤيتش يحبنى لا لمظهرى وإنما لسماتى العقلية وخصالى الشخصية، ولأننا نجحنا خلال تلك السنوات أن «نندمج روحيًا» على حد قول فيودور ميخايلوڤيتش. كان لمظهرى المتحفظ وتجنبى لمجتمعات الرجال أثر طيب على زوجى، إذ لم يسمح ذلك بظهور أى أسباب لإثارة خصاله السيئة، مثل الغيرة التى لا مبرر لها.

الجزء الخامس
فى روسيا من جـــديد

(١)
العودة إلى الوطن

الثامن من عام ١٨٧١، فى يوم حار، سماؤه صافية، عدنا إلى بطرسبورج بعد سنوات أربع قضيناها فى الخارج.

خرجنا من محطة وارسو لنقطع شارع إسماعيلوفسكى مارين بالقرب من كنيسة الثالوث المقدس، حيث تمت مراسم زواجنا. دخلنا لنصلى أنا وزوجى فى الكنيسة، بينما راحت صغيرتنا تتأملنا وهى ترسم علامة الصليب.

إذن، آنيتشكا ــ قالها فيودور ميخايلوفيتش ثم أردف ــ لقد عشنا فى سعادة أربع سنوات فى الخارج، على الرغم من المصاعب التى واجهتنا أحيانًا.

ما الذى تخبئه لنا الحياة فى بطرسبورج؟ كل شىء غامض أمامنا... لست أرى سوى الكثير من المصاعب والمشكلات والاضطراب، قبيل أن ننهض على أقدامنا. لا رجاء أمامنا إلا الله!

ـ ولماذا الحزن مسبقًا ـ حاولت أن أخفف عنه ـ سوف نتوكل على الله وهو لن يخذلنا! المهم أن حلمنا القديم قد تحقق، وها نحن الآن معًا فى الوطن مرة أخرى.

نزلنا بأحد الفنادق فى شارع بولشايا كونيوشينايا، ولكننا لم نستقر به سوى يومين فقط. كان البقاء فيه وقد اقتربنا من استقبال فرد جديد يضاف إلى أسرتنا أمرًا غير ملائم، كما أنه فوق طاقتنا. استأجرنا غرفتين مفروشتين فى الطابق الثالث فى المنزل رقم ٣ فى شارع يكاتيرينجوفسكى. اخترنا هذا المكان بهدف أن تتمكن ابنتنا أن تتنزه فى حديقة يوسوبوف، الواقعة بالقرب من المنزل فى أيام يوليو وأغسطس الحارة.

زارنا فى الأيام الأولى لوصولنا أقارب فيودور ميخايلوڤيتش وقد استقبلناهم بكل حفاوة وترحاب. على مدى السنوات الأربع المنقضية تحسن وضع إميليا فيدوروفنا دستويڤسكايا إلى الأفضل: الابن الأكبر لها، فيودور ميخايلوڤيتش، أصبح موسيقيًا متميزًا وأصبح يربح كثيرا من دروس البيانو. الابن الثانى، ميخائيل ميخايلوڤيتش، يعمل فى أحد البنوك، الابنة يكاترينا ميخايلوفنا، تعمل هى أيضًا بالاختزال، أى أن الأسرة باتت تعيش فى بحبوحة. وبالإضافة إلى ذلك فقد اعتادت إميليا فيدوروفنا خلال هذه الفترة، ألا تلجأ لطلب المساعدة من فيودور ميخايلوڤيتش إلا فى الحالات الاستثنائية، وعيًا منها بأن لديه الآن أسرة.

وحده باڤل ألكسندروڤيتش لم يستطع أن يتخلى عن فكرة أن «والده»، كما كان يصر على نداء فيودور ميخايلوڤيتش، «مُلزم» بالإنفاق عليه؛ فضلاً عن الإنفاق على أسرته. بالمناسبة، فقد قابلته بكل مودة، أساسًا، لأن زوجته، ناديچدا ميخايلوفنا، أعجبتنى للغاية، وكان قد تزوجها فى أبريل من هذا العام. كانت امرأة حسناء متوسطة الطول، متواضعة وعلى قدر من الذكاء. ولم أكن أفهم كيف قررت أن تتزوج من شخص لا يحتمل مثل باڤل ألكسندروڤيتش. كنت مشفقة عليها بإخلاص: كنت أتنبأ أن حياتها معه سوف تكون صعبة.

بعد ثمانية أيام من وصولنا إلى بطرسبورج، وفى السادس عشر من يوليو، وضعت ابننا الأكبر فيودور فى الصباح المبكر[١٢٥]. كنت فى الليلة السابقة قد شعرت بوعكة، بينما راح فيودور ميخايلوڤيتش طوال النهار والليل يصلى من أجل أن يمر الأمر بسلام، وقد أخبرنى بعد ذلك، أنه قرر إذا كان المولود صبيًا، حتى ولو خرج إلى النور قبيل منتصف

الليل بعشر دقائق، أن يسميه ڤلاديمير، تيمنًا باسم الأمير ڤلاديمير، الذى يحمل هو أيضًا اسم القديس ڤلاديمير، والذى وافق الاحتفال بذكراه الخامس عشر من يوليو، لكن الصبى وُلد فى السادس عشر من الشهر ليحمل اسم فيودور، تيمنًا باسم والده، كما قررنا من قبل. كان فيودور ميخايلوڤيتش فى قمة السعادة لمولد صبى ولأن هذا «الحدث» العائلى الذى أقضَّ مضجعه قد مر بسلام.

ذهبنا لتعميد الطفل بعد أن تعافيت. وكان إشبينه هو الشاعر الشهير أبوللون نيكولايڤيتش مايكوف، صديق فيودور ميخايلوڤيتش (كما حدث مع ابنتينا قبل ذلك) واختار فيودور ميخايلوڤيتش ابنته لوباتشكا، التى لم تتجاوز العامين، لتكون هى الإشبينة له.

فى نهاية شهر أغسطس سافر زوجى إلى موسكو ليتقاضى أجره عن رواية «الشياطين» التى صدرت فى عام ١٨٧١ [١٢٦]. لم يكن مبلغًا كبيرًا على أية حال، لكنه أتاح لنا إمكانية الانتقال إلى شقة شتوية. وكانت مشكلتنا الكبرى أنه ليس لدينا أى أثاث أو لوازم منزلية. عندئذ خطرت ببالى فكرة الذهاب إلى سوق أبراكسين وسؤال تجار الأثاث هناك إن كانوا يوافقون على أن يبيعوا لنا أثاثًا بالتقسيط، بحيث يكون القسط الشهرى خمسة وعشرين روبلاً، على أن يظل هذا الأثاث ملكًا للبائع حتى بلوغ الأقساط أجلها. وقد وجدت تاجرًا وافق على هذه الشروط وسلمنا على الفور أثاثًا قيمته أربعمائة روبل. وياله من أثاث! كان جديدًا لكنه كان جميعه مصنوعًا من خشب الحور والصنوبر، سيئ الصنع، ناهيك عن طرازه السخيف، حتى أنه تفسخ كله فى غضون ثلاث سنوات وراح يتهاوى وكان علينا أن نستبدل به آخر جديدًا. ولكننى كنت سعيدة بهذا الأثاث: لقد ساعدنا فى تكوين شقتنا الخاصة. لقد كان من المستحيل أن نعيش فى غرف مفروشة: فضلاً عن المتاعب التى واجهتنا، كان صياح أطفال الجيران وبكاؤهم يمنع زوجى من النوم والعمل.

رحت أبحث عن شقة، بعد أن اتفقت على شراء أثاث جديد. وقد عرض باڤل ألكسندروڤيتش عليّ المساعدة. وفى نفس اليوم مساء أعلن أنه وجد شقة ممتازة من ثمانى غرف إيجارها زهيد ــ مائة روبل فى الشهر.

سألته بدهشة:

ــ وما حاجتنا إلى شقة كبيرة كهذه؟

ــ ليست كبيرة على الإطلاق: سيكون لكم غرفة استقبال، غرفة مكتب، غرفة للنوم وأخرى للأطفال؛ ولنا ــ غرفة استقبال وغرفة مكتب وغرفة للنوم، أما غرفة المائدة فمشتركة بيننا.

صدمتنى وقاحته فقلت له:

ــ وهل تعتزم أن تعيش معنا ؟

ــ وهل هناك حل آخر؟ هذا ما أخبرت به زوجتى: عندما يعود أبى سنعيش معًا.

هنـــا كان عليّ أن أتحـــدث معه بشدة وأن أثبت له أن الظروف الآن تغيرت، وأننى لا أوافق أن أعيش فى شقة مشتركة مهما كانت الظروف. وكعادته بدأ باڤل ألكسندروڤيتش يتحدث بوقاحة ويهددنى بأنه سيشكونى إلى فيودور ميخايلوڤيتش، ولكننى لم أصغ إلى كلامه. إن سنوات أربع من الاستقلال لم تذهب هباء. أما باڤل ألكسندروڤيتش فقد شرع فى تنفيذ تهديده وذهب إلى فيودور ميخايلوڤيتش، الذى أجابه بقوله:

ــ لقد سلمت كل شؤون المنزل إلى زوجتى، وما ستقرره هو الذى سينفذ.

ولزمن طويل لم يكن باستطاعة باڤل ألكسندروڤيتش أن يغفر لى انهيار خططه.

وبعد بحث طويل عثرت على شقة فى شارع صربوخوفسكايا بالقرب من معهد التكنولوجيا، فى منزل أرخانجلسكايا، وقد استأجرته باسمى حتى أوفر على زوجى عناء الأمور المنزلية. كانت الشقة مكونة من أربع غرف: المكتب، حيث كان فيودور ميخايلوڤيتش يعمل وينام، غرفة استقبال وواحدة للمائدة وأخرى رحبة للأطفال حيث أنام.

على الرغم من سوء حالة ما نملكه من أثاث، فقد كنت أطمئن نفسى بأننا لن نكون بحاجة إلى شراء أدوات منزلية أو أغطية للفراش، إذ إنها كانت موزعة على عدد من الأشخاص يحفظونها لنا. ولكن، يا للأسف، لقد كان بانتظارى هنا خيبة أمل.

كانت أدوات المطبخ والأوانى النحاسية لبيتنا محفوظة لدى إحدى معارفنا، وهى فتاة تخطت سن الزواج، وقد توفيت فى أثناء سفرنا وقد أخذت أختها معها ما تبقى من متاعها إلى الريف دون أن تنظر إلى ما لها وما هو لغيرها. كانت معاطفنا المصنوعة من الفراء مرهونة لدى إحدى السيدات، التى كانت تتولى دفع نسبة من المال مقابل الرهن وعلى الرغم من أننا كنا حريصين على إرسال المال اللازم لها، فإنها لم تلتزم بالسداد فضاعت. تهشَّمت الأوانى الزجاجية والصينية التى سلمناها لأختى ماريا جريجوريڤنا لتحفظها لديها على يد خادمتها التى انزلقت قدمها وهى تحملها على صينية كبيرة لغسلها. وهذه كانت تمثل لى خسارة كبرى: كان أبى خبيرًا ومُثمنًا للأوانى الصينية، وكان يعشق الذهاب إلى محلات الأشياء القديمة ويقتنى منها القطع الرائعة. وقد آل إلىّ بعد وفاته نصيبى من هذه الأشياء تمثل فى عدد من الأكواب صناعة Vieux – Saxe، وطقم من زمن القيصر نيكولاى، وكذلك إناء زجاجى مضلع قديم. وما زلت آسفة على فقدان تلك الأكواب الجميلة المزينة برسوم لرعاة، وهذا الكوب المرسوم عليه ذبابة بلغت من الدقة أن كل من شرب منه كان يهشها وكأن الحياة قد دبت فيها. لقد كنت على استعداد أن أدفع ما لدىَّ لأستعيد ذكريات الطفولة الغالية!

وقد تعرضت أشياء فيودور ميخايلوڤيتش لنفس المصير المحزن. كانت لديه مكتبة رائعة، كان يتحرَّق إليها شوقًا ونحن فى الخارج، وكانت تضم كتبًا بإهداء أصدقائه من الكُتاب؛ بالإضافة إلى العديد من الكتب فى فروع التاريخ والديانات القديمة التى كان فيودور ميخايلوڤيتش يهتم بها اهتمامًا شديدًا. ولدى رحيلنا طلب باڤل ألكسندروڤيتش من زوجى أن يترك له مكتبته فى رعايته مؤكدًا أنها ضرورية لتعلمه، ووعده أنه سيعيدها إليه سليمة، ولكن اتضح أنه كان يبيعها، كتابًا وراء الآخر لمحال الكتب، كلما احتاج إلى نقود. وعندما وبخته على ذلك أجاب بوقاحة قائلاً إننا السبب فى ذلك، إذ لم نرسل إليه نقودًا فى الموعد المناسب.

كان فيودور ميخايلوڤيتش حزينًا بشدة على فقدانه هذه المكتبة الثمينة. والآن لم يعد بإمكانه أن ينفق مالاً كثيرًا، كما كان يفعل من قبل، على شراء مثل هذه الكتب التى هو فى مسيس الحاجة إليها؛ وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت مكتبته تضم عددًا من الكتب النادرة، التى يصعب شراؤها (١٢٧)

كانت مفاجأة سارة لنا أن نعثر على سلة كبيرة مجدولة تحتوى على أوراق كانت محفوظة لدى بعض أقاربنا. وعندما فحصنا محتوياتها، وجدت بها عددًا من دفاتر مخطوطات فيودور ميخايلوڤيتش تخص رواية «الجريمة والعقاب» وبعض القصص وعددًا من الدفاتر الخاصة بإدارة مجلتى «الزمن» و«العصر» التى تركها ميخائيل ميخايلوڤيتش بعد وفاته، كما وجدنا عددًا هائلاً من المراسلات المختلفة (١٢٨) وقد أفادتنا هذه الأوراق والوثائق فائدة كبيرة فى مستقبل حياتنا، عندما تعين علينا إثبات أو نفى أى من الحقائق المتعلقة بحياة فيودور ميخايلوڤيتش.

(٢)

فى سبتمبر من عام ١٨٧١ نقلت إحدى الصحف لقرائها خبرًا حول عودة الكاتب دستويفسكى من الخارج، وهو خبر كان ظاهره الرحمة وباطنه العذاب. فسرعان ما انشقت الأرض عن الدائنين، الذين كانوا صامتين حتى الآن، جاؤوا يطالبون بسداد ديونهم. وكان أول المطالبين وأكثرهم وعيدًا هو جينترشتاين(*). لم يكن هذا السيد يستهدف فيودور ميخايلوڤيتش شخصيًا، ولم يكن يولى أدنى اهتمام بقضايا المجلات، وإنما كان هدفه الاستيلاء على مصنع التبغ الذى كان يملكه أخوه المتوفى.

كان ميخائيل ميخايلوڤيتش إنسانًا طموحًا، فبالإضافة إلى المجلة، كان يمتلك مصنعًا للتبغ، وحتى يضمن توزيعًا كبيرًا للتبغ خصص بعض الجوائز على هيئة مقصات

(*) جينترشتاين: تاجرة جملة فى بطرسبورج.

وأمواس حلاقة وبرّاءات وما إلى ذلك كان يضعها فى الصناديق مع السجائر. كانت هذه الهدايا تحوز إعجاب كثير من المشترين. كان ميخائيل ميخايلوڤيتش يشترى هذه الأشياء المعدنية من تاجر الجملة جينترشتاين، وكان هذا يبيعها بالدين ويتقاضى نسبة على ذلك لابأس بها. وعندما كان الإقبال على الاشتراك فى مجلة «الزمن» كبيرًا، كان ميخائيل ميخايلوڤيتش يُسوى حساباته تدريجيًا مع جينترشتاين، الذى كان يعتبر أكثر دائنيه تعنتًا. وقد أخبر ميخائيل ميخايلوڤيتش زوجته وأخيه فيودور ميخايلوڤيتش قبل وفاته بأيام أنه «قد تخلص أخيرًا من هذا العَلَقَة المدعو جينترشتاين».

ما إن توفى أخوه حتى انتقلت كل الديون إلى فيودور ميخايلوڤيتش، وهنا جاءته السيدة جينترشتاين وأخبرته أن ميخائيل ميخايلوڤيتش لا يزال مدينًا لها بحوالى ألفى روبل. تذكر فيودور ميخايلوڤيتش ما قاله أخوه له بشأن سداده كل ديون جينترشتاين وأخبرها بذلك، لكنها أجابت بأن هذا دين آخر وأنها أعطت ميخائيل ميخايلوڤيتش هذا المال دون أية وثائق. راحت السيدة جينترشتاين تتوسل إلى فيودور ميخايلوڤيتش وتسأله إما أن يعطيها المال أو يكتب لها كمبيالات به، راحت تنتحب وركعت على ركبتيها مؤكدة له أن زوجها سيكدر حياتها. كان فيودور ميخايلوڤيتش يثق دائمًا فى نزاهة الناس، صدَّقها وأعطاها كمبيالتين كل واحدة قيمتها ألف روبل. تم سداد الأولى قبل نهاية عام ١٨٦٧، أما الثانية والتى تصل قيمتها بالفوائد خلال خمس سنوات إلى ألف ومائتى روبل فقد طلب السيد جينترشتاين سدادها بعد عودتنا. وقد أرسل لنا خطاب تهديد، فذهب إليه فيودور ميخايلوڤيتش يطلب منه تأجيل السداد إلى رأس السنة بعد أن يتسلم أجره على روايته، لكنه عاد يائسًا: لقد أخبره جينترشتاين أنه ليس بنيته أن ينتظر أكثر من ذلك وأنه قرر أن يحجز على كل منقولاته، فإذا لم تغط هذه المنقولات قيمة الديون، فإنه سيحبسه فى قسم الديون(*).

(*) هكذا كان يسمى القسم الملحق بالسرية الأولى لفوج إسماعيلوفسكى، الكائن فى منزل تاراسوف حيث يحتجز الأشخاص المحبوسين على ذمة الديون (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا) (١٢٩).

وهل سيكون بإمكانى وأنا محبوس فى قسم الديون، بعيدًا عن أسرتى، مع غرباء من شتى الأنواع، أن أعمل بالأدب؟ ـ هكذا قال له فيودور ميخايلوڤيتش ـ وكيف سأدفع لك إذا ما أفقدتنى القدرة على العمل؟

أوه، إنك أديب مشهور، وأنا أعوِّل على أن الصندوق الأدبى سوف يفتديك على الفور من السجن ـ أجاب جينترشتاين.

لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش آنذاك يحب العاملين بالصندوق الأدبى. وقد عبر عن شكوكه حول إمكانية تقديم أى مساعدة له، وحتى لو كانوا سيفعلون فإنه (كما أخبر جينترشتاين) يفضل الحبس فى قسم الديون على أن يقبل هذه المساعدة.

قضينا وقتًا طويلاً نتباحث أنا وزوجى حول أفضل الوسائل لحل هذه المشكلة، وقررنا أن نقترح على جينترشتاين صفقة جديدة: أن نقدم له الآن مائة روبل وأن نقترح عليه سداد خمسمائة روبل كل شهر، ثم نسدد له المبلغ المتبقى بعد رأس السنة. مرة ثانية يذهب زوجى بهذا الاقتراح إلى جينترشتاين، لكنه يعود وقد استشاط غضبًا. وعلى حد قوله، فإن جينترشتاين قال له بعد حديث طويل:

ها أنت ذا أديب روسى موهوب، أما أنا فتاجر ألمانى صغير، وأريد أن أريك أن باستطاعتى أن أزج بأديب روسى مشهور فى سجن الديون. كن على ثقة أننى سأفعل ذلك.

حدث ذلك بعد الانتصار فى الحرب الفرنسية ـ البروسية(*)، عندما أصبح كل الألمان يشعرون بالفخر والتعالى.

كنت شديدة الاستياء بسبب معاملة فيودور ميخايلوڤيتش على هذا النحو، ولكننى كنت أدرك أننا وقعنا فى يد سافل وأننا لا نملك إمكانية للخلاص منه. كنت أستشعر

(*) الحرب الفرنسية ـ البروسية ١٨٧٠ ـ ١٨٧١: اندلعت هذه الحرب بين فرنسا الطموحة لفرض سيادتها على أوروبا وإعاقة وحدة ألمانيا، وبين بروسيا التى توحدت مع عدد من الدول الجرمانية الأخرى. فى سياق هذه الحرب سقطت الإمبراطورية الثانية فى فرنسا، وتم اتحاد ألمانيا برئاسة بروسيا (المترجم).

أن جينترشتاين لن يكتفى بالتهديد وحده، فقررت أن أحاول أن أسوى هذا الأمر دون أن أخبر زوجى عن نيتى (كـان على الأرجح سيمنعنى من تنفيذها) فى الذهاب بنفسى إلى جينترشتاين.

قابلنى بصلف قائلاً:

ــ إما النقود على المائدة، وإما سأقوم بالحجز على منقولاتكم لتباع فى مزاد علنى، وعندها سيسجن زوجك فى منزل تاراسوف(*)

ــ إن شقتنا مؤجرة باسمى لا باسم فيودور ميخايلوڤيتش ــ أجبته ببرود ــ كما أن الأثاث اشتريناه بالآجل، وهو ملك لتاجر الأثاث إلى أن يتم سداد ثمنه نهائيًا، ولذلك لايمكنك الحجز عليه، وحتى أثبت له ذلك، عرضت عليه عقد الشقة ونسخة من التعاقد مع تاجر الأثاث.

واصلت حديثى قائلة:

ــ أما بخصوص تهديدك بقسم الديون، فإننى أحذرك أنه إذا حدث ذلك فسوف أطلب من زوجى أن يبقى فيه حتى انقضاء موعد ديونك(**) وسأبقى إلى جواره، وسوف نزوره أنا والأطفال ونشد من أزره ونساعده على العمل، وهكذا لن تنال قرشًا واحـــــدًا، وعلاوة على هذا وذاك فسوف تكون مضطرًا أن تدفع ثمن «الجراية»!(***)

هنا راح جينترشتاين يشكو من نكران جميل فيودور ميخايلوڤيتش الرافض لدفع الديون، التى صبر عليها طويلاً.

كلا، بل أنت الذى عليه أن يقدر جميل زوجى الذى أعطى لزوجتك كمبيالات بالديون، التى ربما تكون قد دفعت منذ زمن بعيد ــ قلت له ذلك فى غضب ــ وإذا كان

(*) هكذا كانوا يسمون قسم الديون (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(**) بقــاء المدين فى قسم الديون يسقط الدين. وعلى المدين بمبلغ ١٢٠٠ روبل أن يقضى فيه من ٩ إلى ١٤ شهرًا (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(***) كان على الدائن أن يدفع نفقات المدين المسجون من جانبه (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

فيودور ميخايلوفيتش قد فعل ذلك، فقد فعله بشهامة وعطف. لقد راحت زوجتك تبكى أمامه وقالت إنك ستكدر حياتها. فإذا ما تجرأت على أن تنفذ تهديدك، فسوف أكتب كل ما حدث وأرسله إلى صحيفة «ابن الوطن» حتى يرى الجميع مواهب الألمان «الشرفاء»!

لم أكن فى وعيى وكنت أتحدث دون أن ألقى بالاً لما أقول. وقد ساعدنى حماسى هذه المرة. جَبُن الألمانى وسألنى ماذا أريد؟

ـ نفس ما طلبه منك زوجى بالأمس؟

ـ حسنًا، إذن، أعطنى النقود!

طلبت منه إيصالاً مفصلاً باتفاقنا، فقد خشيت أن يتراجع جينترشتاين فيما بعد ويبدأ مرة أخرى فى تعذيبنا. عدت إلى البيت منتصرة، وقد تأكدت أننى خلال فترة قصيرة سوف أعيد إلى زوجى السكينة والهدوء.

(٣)

قبل أن أتحدث عن صراعنا مع الدائنين، والذى استمر بعد ذلك لمدة عشر سنوات، وحتى وفاة فيودور ميخايلوفيتش، أود أن أشرح بصورة محددة كيف ظهرت هذه الديون التى عذبت كلينا.

كان أقل هذه الديون هى تلك التى تخص فيودور ميخايلوفيتش على نحو شخصى تبلغ ألفين أو ثلاثة آلاف. أما الجزء الأكبر من الديون فيرجع السبب فيه أساسًا إلى مصنع التبغ ومجلة «الزمن»[١٣٠] فبعد الوفاة المفاجئة لميخائيل ميخايلوفيتش (الذى مرض لا أكثر من ثلاثة أيام فقط) أصبحت أسرته، زوجته وأربعة أطفال، اعتادوا على حياة ميسورة، إن لم تكن مرفهة أحيانًا، دون أدنى مورد. كان فيودور ميخايلوفيتش آنذاك أرملاً ولم يكن لديه أطفال، فاعتبر أن من واجبه أن يسدد ديون

أخيه وأن يؤازر أسرته فى محنتها. كان بإمكانه أن ينجح فى تنفيذ نياته النبيلة، لو أنه كان يمتلك شخصية حذرة وعملية. لكنه للأسف كان يثق إلى حد كبير فى إخلاص الناس وأمانتهم. وقد تسنى لى فيما بعد أن أستمع إلى حكايات شهود عيان حول كيف راح فيودور ميخايلوڤيتش يحرر الكمبيالات، وقد علمت أيضًا من الخطابات القديمة تفاصيل العديد من الحقائق، هزنى بشدة فيها ما ينم عن سلوكه الطفولى البرىء المفتقد إلى أى خبرة عملية. كان الجميع، من الذين انعدمت ضمائرهم، يخدعونه ويأخذون منه الكمبيالات. لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش فى حياة أخيه يتدخل فى الجانب المالى ولم يكن يعرف إلى أين وصلت الأمور. وبعد أن توفى ميخائيل ميخايلوڤيتش اضطر زوجى إلى أن يتولى إصدار مجلة «العصر»، ومن ثم كان عليه أن يتولى أيضًا أمر تسوية الديون التى لم تسدد نتيجة إصدار مجلة «الزمن»، مثل الطباعة والورق والتجليد وما إلى ذلك. ولكن، وبالإضافة إلى موظفى مجلة «الزمن» الذين كان فيودور ميخايلوڤيتش يعرفهم، بدأ أناس آخرون فى الظهور، معظمعهم مجهولون تمامًا بالنسبة إليه، وهؤلاء كانوا يؤكدون أن المرحوم ميخائيل ميخايلوڤيتش مدين لهم. لم يكلف أحد منهم تقريبًا مشقة أن يقدم إثباتًا واحدًا، كما لم يطلب فيودور ميخايلوڤيتش من أحد أن يقدم ما يؤكد أن له دينًا. كان زوجى يضع ثقته التامة فى أمانتهم. كان عادة ما يقول للسائل (كما وصل إلى):

ـــ ليس لدىَّ مال إطلاقا فى الوقت الحالى، ولكن، إذا شئت، أستطيع أن أحرر لك كمبيالة. ولكنى أرجوك ألا تطالبنى بسدادها سريعًا. سوف أسددها عندما أستطيع.

كان الناس يأخذون الكمبيالات ويعدونه أنهم سينتظرون، لكنهم، بطبيعة الحال، لم يكونوا يوفون بعهدهم. وسرعان ما يطالبون بحقوقهم.

سأورد فى هذا السياق حادثة تسنى لى أن أتتبع صحتها استنادًا إلى الوثائق.

ذات يوم جاء إلى فيودور ميخايلوڤيتش كاتب متواضع الموهبة يدعى X، كان ينشر أعماله فى مجلة «الزمن»، يطلب منه أن يسدد له مائتين وخمسين روبلاً مقابل قصة نشرها

X فى المجلة فى حياة ميخائيل ميخايلوڤيتش. وكالعادة، لم يكن لدى زوجى نقود، فاقترح عليه أن يعطيه كمبيالة. شكره X بحرارة ووعد أن ينتظر حتى تتحسن أحوال فيودور ميخايلوڤيتش، وطلب منه أن يحرر الكمبيالة دون موعد محدد للسداد حتى لا تكون هناك ضرورة أن يبرزها للاعتراض عندما يحين موعد سدادها، وكم كانت دهشة فيودور ميخايلوڤيتش عندما طُلب منه سدادها وإلا حجز على منقولاته. ذهب فيودور ميخايلوڤيتش إلى X يستفسر منه عن الأمر. أبدى X امتعاضه وراح يبرر ويؤكد أن صاحبة البيت هددت بطرده من الشقة، فوجد نفسه مضطرًا أن يعطيها كمبيالة فيودور ميخايلوڤيتش، بعد أن انتزع منها وعدًا أن تصبر على طلب سدادها. وقد وعد أن يتحدث معها ليقنعها وهلمجرا. وبطبيعة الحال لم تسفر المفاوضات عن شىء، واضطر فيودور ميخايلوڤيتش، أن يقترض مبلغًا بفوائد كبيرة ليسدد دينه.

وبعد مرور ثمانية أعوام. كنت أراجع لسبب ما أوراق فيودور ميخايلوڤيتش، وإذا بى أعثر على دفتر من دفاتر إدارة هيئة تحرير «الزمن». وكم كانت دهشتى وغضبى، عندما وجدت فيه إيصالاً موقعًا من الكاتب X باستلامه مبلغًا من ميخائيل ميخايلوڤيتش مقابل قصته! عرضت الإيصال على زوجى لأسمع منه الجواب التالى:

ـــ لم أكن أظن أن X قادر على خداعى! ما الذى يدفع الإنسان إلى هذا الشطط!

أعتقد أن الجزء الأكبر من الديون التى تحمل أعباءها فيودور ميخايلوڤيتش كانت من هذا النوع. بلغت هذه الديون عشرين ألفًا [١٣١]، ووصلت بالفوائد لدى عودتنا من الخارج حوالى خمسة وعشرين ألفا كان علينا أن نسددها خلال ثلاثة عشر عاما. وقد استطعنا فى النهاية، وقبل عام واحد فقط من وفاة زوجى أن نسددها وأن يصبح بمقدورنا أن نتنفس الصعداء، دون خوف من تحذيرات أو مذكرات أو تهديدات بالحجز وبيع المنقولات وما إلى ذلك.

كان على فيودور ميخايلوڤيتش أن يعمل فوق طاقته، بل وأن يتخلى عن حاجاته الضرورية وعن راحته؛ فضلاً عن حاجات أسرته الضرورية وراحتها، من أجل سداد هذه الديون الوهمية.

لقد كان بمقدورنا أن نعيش هذه الأعوام الأربعة عشر من حياتنا الزوجية أكثر سعادة وأكثر رضا وسكينة، لو لم يظل أمر سداد هذه الديون شوكة فى جانبنا.

كم كنا سنجنى من أرباح من وراء أعمال زوجى الفنية، لو لم يأخذ على عاتقه سداد هذه الديون، لو استطاع كتابة رواياته دون تسرع، لو أتيح له الوقت لمراجعتها وتهذيبها قبل أن يدفع بها إلى المطبعة. كثيرًا ما تقارن المراجع والجمهور أيضًا أعمال دستويفسكى بأعمال غيره من الكتاب الموهوبين، فيأخذون عليه شدة تعقيد وتشوش رواياته وضخامتها، بينما يبدو إبداع الآخرين أكثر رصانة، كما نرى عند تورجينيف، على سبيل المثال، إتقانًا كإتقان صائغى المجوهرات. وهؤلاء نادرًا ما يخطر ببال أحدهم أن يتذكر وأن يقدر تلك الظروف التى عاشها وعمل فيها الكتاب الآخرون، وتلك التى عاش وعمل فيها زوجى. جميعهم تقريبًا (تولستوى، تورجينيف، جونتشاروف) كانوا أصحاء، يعيشون فى رغد، لديهم المقدرة على أن يفكروا وينقحوا أعمالهم. أما فيودور ميخايلوڤيتش فكان يعانى من مرضين عضال(*)، يحمل على كاهله عبء عائلة كبيرة وديون ثقيلة، مهمومًا بالتفكير فى قوت يومه وما يحمله له الغد من أحداث. كيف لرجل فى مثل هذه الظروف أن يتمكن من مراجعة أعماله؟ كم مرة على مدى الأربعة عشر عامًا الأخيرة من حياته أن ظهر له فصلان أو ثلاثة من رواية له فى المجلة، بينما كان الفصل الرابع يتم جمعه وصفه فى المطبعة، ويكون الفصل الخامس فى طريقه بالبريد إلى «البشير الروسى»، أما باقى الفصول التى لم تكتبٍ بعد فتكون ما تزال مجرد أفكار. وما أكثر ما اكتشف فيودور ميخايلوڤيتش فجأة خطأ واضحًا بعد قراءته فصلاً من فصول إحدى رواياته تم نشره بالفعل، فيسقط فى اليأس مدركًا أنه أفسد الفكرة التى كان يقصدها.

آه لو كان بإمكانى استرجاعه ــ على هذا النحو كان يتحدث أسفًا ــ لو كان بإمكانى تصحيحه! الآن أرى أين تكمن المشكلة، لماذا لم أنجح فى هذه الرواية. ربما بسبب هذا الخطأ قتلتُ «فكرتى» تمامًا.

(*) الصرع وتمدد أوعية الرئة (المترجم).

كان حزنه حقيقيًا، حزن فنان رأى بشكل واضح موضع خطئه، الذى لم يعد يملك إمكانية تصحيحه، ولن تتاح له للأسف هذه الإمكانية مطلقًا: كانت الحاجة إلى المال مُلحة لمواصلة الحياة ولسداد الديون، ومن ثم كان مضطرًا، على الرغم من مرضه، أن يتعجل فى مواصلة العمل، أحيانًا فى اليوم التالى لنوبة الصرع، فيراجع المخطوطة بالكاد، من أجل أن يرسلها فى الموعد ليتمكن من أن يتسلم المقابل المادى بأسرع ما يمكن. لم يتمكن فيودور ميخايلوڤيتش طوال حياته أن يكتب إطلاقًا عملاً واحدًا على مهل ودون تعجل (باستثناء قصته الأولى «الفقراء») أو أن يمعن التفكير فى خطة روايته وأن يمحص تفاصيلها كلها. لم يهب القدر فيودور ميخايلوڤيتش هذه السعادة الكبرى، التى كانت دائمًا حلمه الحميم الذى لم يحققه، وأسفاه أبدًا!

ألحقت الديون التى أثقل سدادها كاهل فيودور ميخايلوڤيتش ضررًا شديدًا به من الناحية الاقتصادية: ففى الوقت الذى كان فيه كُـتَّاب أثرياء (تورجينيف، تولستوى، جونتشاروف) يعلمون أن رواياتهم سوف تتنازع على نشرها المجلات، وأن كلاً منهم سيتقاضى خمسمائة روبل على الملزمة[١٣٢]، بينما على دستويفسكى المعوز أن يعرض عمله بنفسه على المجلات ولما كان العارض هو الخاسر دائمًا، فقد كان يتقاضى من المجلات مبالغ أقل بكثير. فقد أخذ على الملزمة مائة وخمسين روبلاً فى روايات «الجريمة والعقاب» و«الأبلة» و«الشياطين» ومائتين وخمسين روبلاً على الملزمة فى رواية «المراهق»، وكانت الرواية الوحيدة التى أخذ على الملزمة فيها ثلاثمائة روبل، هى روايته الأخيرة «الإخوة كارامازوف».

يا له من شعور مرير يتصاعد داخلى، كلما تذكرت كيف أفسدت ديون «الآخرين» حياتى الشخصية، ديون شخص لم أراه مطلقًا فى حياتى؛ بالإضافة إلى الديون الوهمية الممثلة فى كمبيالات أخذها على زوجى أناس لا أخلاق لهم. كانت حياتى كلها آنذاك تحيطها الكآبة من طول التفكير فى كيفية الحصول على هذا القدر الكبير من النقود، أين وبأى سعر يمكننى رهن هذا الشىء أو ذاك، على أى نحو أتصرف كى لا يعرف فيودور ميخايلوڤيتش شيئًا عن زيارتى للدائنين، أو عن شىء ما قمت برهنه. على هذا النحو انقضى شبابى وأُنهِكت صحتى وأُتلفت أعصابى.

ولعل من أكثر الأشياء مدعاة للأسف كان التفكير فى أن نصف هذه المصائب كان من الممكن تجنبها لو أننا وجدنا من بين أصدقاء زوجى أناسًا طيبين، لديهم الرغبة فى أن يأخذوا بيد فيودور ميخايلوفيتش، الذى تورط فى إصدار مجلة وهو شأن لا يعرفه. كنت أتصور دائمًا أنه من غير المفهوم، بل ومن القسوة، أن الأشخاص الذين كان دستويفسكى يعتبرهم أصدقاءه[١٣٣]، كانوا يعرفون افتقاده الطفولى البرىء للخبرة العملية، ثقته المفرطة فى الآخرين واعتلال صحته، يمكن أن يتركوه وحيدًا فى مواجهة كل هذه الادعاءات والديون التى خلّفها ميخائيل ميخايلوفيتش بعد وفاته. هل من المعقول أنهم لم يستطيعوا أن يساعدوه فى النظر فى هذه الادعاءات، وأن يطلبوا من أصحابها إثبات صحة الدين؟ كنت على يقين أن العديد من هذه الادعاءات لم تكن لتظهر إذا ما أصبح من المعروف أن فيودور ميخايلوفيتش، حسن النية، لن يقوم وحده بفحصها. واحسرتاه! لم يكن هناك بين أصدقاء زوجى ومعجبيه شخص واحد مخلص، توفرت لديه الرغبة أن يضحى بوقته وأن يقدم له خدمة حقيقية. جميعهم كانوا يشفقون على فيودور ميخايلوفيتش ويتعاطفون معه، لكن كل ذلك كان «كلام، كلام، كلام».

سيقولون، ربما، أن أصدقاء فيودور ميخايلوفيتش كانوا شعراء وروائيين، وأنهم لايفهمون فى شؤون الحياة العملية. وأجيب عن ذلك بأن كل هؤلاء الأشخاص كانوا ماهرين للغاية فى تدبير أمورهم الشخصية. وقد يعترضون، ربما، أن فيودور ميخايلوفيتش كان يرغب فى الاستقلال، ولم يسمح أن يتلقى تعليمات من غرباء. لكن هذا الاعتراض غير صحيح، لقد فوضنى فيودور ميخايلوفيتش عن طيب خاطر فى كل شؤونه، وكان يستمع إلى نصائحى ويعمل بها، على الرغم من أنه كان فى البداية غير قادر على التسليم بخبرتى العملية. بنفس هذه الثقة كان فيودور ميخايلوفيتش سيلجأ إلى تلقى العون من أصدقائه لو أن هذا العون قد عرض عليه. أفكر وأنا أشعر بالأسف المرير من أجل فيودور ميخايلوفيتش فى أصدقاء وعلاقات ودية من هذا القبيل.

(٤)

فى الأيام الأولى بعد عودتنا إلى روسيا كنت آمل أن أسدد جزءًا من الديون، بعد أن أبيع البيت الذى خصص لى كصداق. انتظرت بفارغ الصبر عودة أمى من درزدن، وكانت قد سافرت لحضور زفاف أخى، وعودة أختى من روما، وهى التى كانت تشرف، فى غياب أمى، على كل بيوتنا. وقد وعدت أن تعطينا كشوف حسابات إدارتها لهذه البيوت بمجرد عودتها فى الربيع، لكنها أصيبت بالتيفود فى الربيع وتوفيت فى الأول من مايو عام ١٨٧٢ فى روما. وقـد علمنا بعـد وفاتها أنها أعطت زوجها منذ فترة بعيدة توكيلاً عامًا لإدارة شؤونها، وقد قام زوجها بدوره، وكان كثيرًا ما يسافر بعيدًا عن بطرسبورج بصحبة زوجته، بتفويض أحد أصدقائه بالقيام بشؤون الإدارة، وقد راح هذا السيد يستغل الدخول التى تدرها هذه البيوت على مدى ثلاث أو أربع سنوات، دون أن يرى ضرورة لأن يسدد الضرائب المستحقة لخزانة الدولة. تراكمت الضرائب المتأخرة وتم عرض البيوت للبيع بالمزاد العلنى. وهكذا لم يتبق لدينا أى موارد لدفع الضرائب المتأخرة وإنقاذ البيوت من المزاد، لكننا كنا نأمل أن يتم شراؤها بسعر جيد فيتوفر لدى أمى مبلغ نعطيه لى عوضًا عن البيت الذى كانت قد وعدتنى به. للأسف الشديد فالسيد الذى تولى إدارة بيوتنا عقد اتفاقات شكلية مع أشخاص صوريين، زعم أنه أجّر لهم البيوت لمدة عشر سنوات، وأنه تسلم قيمة الإيجار منهم مقدمًا. وقد اكتشفنا معالم هذه الصفقة فقط فى أثناء المزادات، بداهة فإن البيوت لم تجد من يرغب فى شرائها. آنذاك قام هذا السافل بوضع يده عليها بعد أن دفع الضرائب المتأخرة للخزانة العامة، أى أنه استولى مقابل بضعة آلاف على ثلاثة بيوت وملحقين كبيرين وقطعة أرض كبيرة. وهكذا لم يتبق لنا، أنا وأمى وأخى، أى نصيب. كان باستطاعتنا، بطبيعة الحال، أن نرفع دعوى قضائية، لكن لم نكن نملك مالاً لذلك؛ فضلاً عن أن رفع الدعوى كان يعنى أن نلقى بالمسؤولية على زوج أختى، مما يعنى أن ندخل فى صدام معه لن يؤدى بنا إلا أن نفقد إمكانية رؤية أطفال يتامى نحبهم حبًا جمًا. كان من الصعب علىّ التخلى عن الأمل الوحيد لإصلاح ظروفنا المؤسفة!

فى البداية سمحت للدائنين بالتفاوض مع فيودور ميخايلوڤيتش، لكن نتائج هذه المفاوضات جاءت على أسوأ ما يكون: تحدث الدائنون مع زوجى بوقاحة وهددوه بالحجز على أثاثنا وإرساله إلى قسم الديون. أحس فيودور ميخايلوڤيتش بعد هذه الأحاديث باليأس الشديد، وراح يذرع الغرفة وهو يشد شعر فوديه (وهى الحركة التى اعتاد أن يأتى بها عندما يكون مضطربًا بقوة) وراح يكرر:

ـــ إذن ما العمل، ما الذى علينا أن نعمله الآن؟!

وفى اليوم التالى داهمته نوبة الصرع.

كنت مشفقة بشدة على زوجى المسكين، ودون أن أخبره، قررت التفاوض مع الدائنين بمفردى. يا له من صنف عجيب من الناس، أولئك الذين حضروا إلىّ خلال تلك الفترة! كانوا، بشكل رئيسى، سماسرة كمبيالات، أرامل موظفين يؤجرن غرفًا مفروشة، ضباطًا متقاعدين من أصحاب الرتب الدنيا. جميعهم أشتروا الكمبيالات بثمن بخس، وهم يريدون الآن استعادة قيمتها كاملة. هددونى بالحجز والسجن، ولكننى كنت قد عرفت كيف أتحدث معهم. كانت حججى هى نفسها التى استخدمتها فى مفاوضاتى مع جينترشتاين. وعندما رأى الدائنون أن التهديد لن يجدى، وافقوا على التوقيع معى على اتفاق مفصل بدلاً من الكمبيالات التى وقعها فيودور ميخايلوڤيتش، ولكن كم كان من الصعب علىّ سداد المبالغ فى الموعد المتفق عليه! وكم من الحيل لجأت إليها: الاقتراض من الأقارب، رهن الأشياء، وحرمانى والأسرة من كثير من الضروريات!

لم نكن نتلقى المال بشكل منتظم، وكان الأمر يتوقف كلية على نجاح عمل فيودور ميخايلوڤيتش. كنا نضطر أحيانًا أن نستدين لدفع إيجار الشقة والمحلات، وعندما نتسلم نقودًا، ربعمائة ـــ خمسمائة روبل دفعة واحدة (كان زوجى يعطيها لى دائمًا)، لم يكن يتبقى منها فى اليوم التالى سوى عشرين ـــ ثلاثين روبلاً.

لم يكن من الممكن ألاّ يدخل الدائنون إلى البيت أحيانًا، دون أن يلحظهم زوجى. كان يستجوبنى عن هذا أو ذاك ولأى غرض جاء، وعندما كان يلاحظ عدم رغبتى فى

الإجابة، كان يعاتبنى على كتمانى. وقد انعكست شكاواه فى عدد من خطاباته، على أنه لم يكن باستطاعتى أن أكون صريحة دومًا مع فيودور ميخايلوفيتش. كان بحاجة ماسة إلى الهدوء لإنجاز عمله، وكانت المصائب عادة ما تصيبه بنوبات الصرع، وهذه كانت تعوقه عن الاستمرار فى عمله. لقد اضطررت أن أخفى عنه كل شىء بإتقان، وأن أبعد عنه كل ما من شأنه أن يثير قلقه واضطرابه أو يسبب له الحزن، مخاطرة بذلك أن أبدو أمامه امرأة تخفى عنه أسرارًا. كم كان عملاً شاقًا! وقد كان علىَّ أن أعيش هذه الحياة ثلاثة عشر عامًا تقريبًا!

ينتابنى الحزن أيضًا عندما أتذكر طلبات أقارب زوجى الفظة. وعلى الرغم من قلة مواردنا، كان فيودور ميخايلوفيتش يرى أنه ليس من حقه أن يتخلى عن مساعدة أخيه نيكولاى ميخايلوفيتش (كوليا)، وربيبه، وأقارب آخرين فى بعض الحالات الاستثنائية. وإلى جانب تخصيصه مبلغًا ثابتًا (خمسين روبلاً شهريًا) «للأخ كوليا»، فقد كان هذا الأخ يأخذ خمسة روبلات فى كل زيارة لنا [١٣٤]. كان إنسانًا طيبًا وتعيسًا، أحببته لطيبته ورقته، ومع ذلك كنت أغضب كلما جاء لزيارتنا لأسباب واهية متنوعة: تهنئة الأطفال بأعياد ميلادهم، أو لقلقه على صحة زوجى وهلمجرا. لم يكن بخلاً منى، وإنما كان يؤرقنى أن البيت ليس فيه سوى عشرين روبلاً، وأن غدًا موعد سداد مبلغ لشخص ما، وأننى سأضطر عندئذ أن أرهن شيئًا من أشيائنا.

كـــان أكثر من يبعث فى نفسى الاضطــــراب هــــو باڤل ألكسندروڤيتش. كان يأتى لا ليطلب وإنما ليأمر وكان مقتنعًا أشد الاقتناع أنه يملك الحق فى ذلك.

وفى كل مرة يتسلم فيها فيودور ميخايلوفيتش مبلغًا كبيرًا، كان يعطى ربيبه حتمًا مبلغًا محترمًا. ولكن ما أكثر ما كانت تظهر لديه دائمًا احتياجات استثنائية فكان يأتى إلى زوج أمه طلبًا للنقود، على الرغم من علمه التام بصعوبة أحوالنا المادية.

ــ حسنًا، ماذا عـــن بابا؟ ماذا عن صحته؟ كان يسألنى وهو يدلف إلى الداخل، لا بد أن أتحدث معه: يلزمنى أربعون روبلاً على وجه السرعة.

ـ أنت تعرف أن كاتكوف لم يرسل شيئًا وليس لدينا نقود، هكذا أجبته، لقد رهنت اليوم بروشى مقابل خمسة وعشرين روبلاً. انظر، ها هو الإيصال!

ـ وماذا فى ذلك! ارهنى شيئًا آخر.

ـ كل ما لدىّ مرهون.

ـ لدى نفقات ضرورية. (تحدث الربيب بإصرار).

ـ انتظر حتى نتلقى نقودًا.

ـ لا أستطيع تأجيلها.

ـ ولكنى لا أملك نقودا الآن!!

ـ وما شأنى بذلك! ابحثى فى أى مكان.

رحت أحاول إقناع باڤل ألكسندروڤيتش أن يطلب من زوج أمه لا أربعين روبلاً، إذ إننا لا نملكها، وإنما خمسة عشر روبلاً، حتى يتبقى لنا ولو خمسة روبلات لنفقات الغد. وبعد توسلات طويلة تنازل باڤل ألكسندروڤيتش معتبرًا أنه بذلك قد قدَّم لى خدمة كبيرة. أعطيت زوجى خمسة عشر روبلاً لربيبه، وأنا أفكر فى حزن، أن هذه النقود كان يمكن أن تجعلنا نعيش ثلاثة أيام فى هدوء، أما الآن فينبغى علىّ الذهاب غدًا مرة أخرى لرهن شىء ما. لا أستطيع أن أنسى مقدار الحزن والأذى الذى سببه لى هذا الشخص عديم الذوق.

لعل البعض سيبدى تعجبه، لِمَ لَمْ أحتج على مثل هذا الطلب الفظ للنقود. لو أننى تشاجرت مع باڤلَ ألكسندروڤيتش، لسارع يشكونى إلى فيودور ميخايلوڤيتش، وقد يُحرِّف القول ليبدو مظلومًا. فيقع الشجار، وكل ذلك قد يؤثر على زوجى بصورة سيئة. وحتى أُجنِّبه الإزعاج، كنت أفضل أن ألتزم الصبر وأن أتحمل الأمر حتى يسود السلام أسرتنا.

على الرغم من إلحاح الدائنين السمج ونقص النقود المستمر، كنت على أى حال أتذكر بسعادة بالغة شتاء عامى ١٨٧١/ ١٨٧٢ شيء وحيد ترجع إليه هذه السعادة هو أننا عدنا من جديد إلى الوطن، لنصبح بين الروس، يحيط بنا كل شيء روسى. كان هذا بالنسبة إلىَّ مصدر سعادة عظيمة. وكان فيودور ميخايلوڤيتش مسرورًا أيضًا إلى حد كبير بعودته وتمكنه من رؤية أصدقائه، وأن تتاح له الفرصة أن يراقب عن كثب، وهو الشيء الأهم بالنسبة إليه، سريان الحياة الروسية، التى كان يشعر أنه ابتعد عنها بعض الشيء. جدد فيودور ميخايلوڤيتش معرفته بالكثيرين من أصدقائه القدامى، ووجد لدى قريبه البروفيسور م.إ. فلاديسلافليف(*) فرصة الالتقاء بالعديد من رجالات الوسط العلمى. وكان فيودور ميخايلوڤيتش يتحدث بشغف[١٣٥] واهتمام خاص مع أحد هؤلاء العلماء وهو ف. ف. جريجوربيف(**) (عالم الدراسات الشرقية)، كما تعرف لدى الأمير فلاديسلاف ميشيرسكى(***)، صاحب دار نشر «المواطن»[١٣٦]، على فيليبوف[١٣٧](****) ومع كل أفراد الحلقة، التى كانت تتناول طعام الغداء كل أربعاء فى بيت ميشيرسكى، وهنا التقى بالسيد بوبيدونستسيف(*****)، الذى توثقت صلته به بشكل كبير فيما بعد، واستمرت صداقتهما حتى وفاته[١٣٨].

(*) فلاديسلافليف، ميخائيل إيڤانوڤيتش (١٨٤٠ ــ ١٨٩٠): فيلسوف مثالى، أستاذ بجامعة بطرسبورج، عمل بمجلتى «الزمن» و«العصر»، زوج ماريا ميخايلوڤنا دستويڤسكايا، ابنة أخ فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى

(**) جريجوربيف ڤاسيليڤيتش (١٨١٦ ــ ١٨٨١): عالم فى الدراسات الشرقية، أستاذ بجامعة بطرسبورج، كاتب، من أصحاب النزعة السلاڤية، تعرف على دستويڤسكى بعد عودته من الخارج.

(***) ميشيرسكى، ڤلاديمير بتروڤيتش (أمير): (١٨٣٩ ــ ١٩١٤): كاتب، ناشر، أصدر جريدة ــ مجلة «المواطن».

(****) فيليبوف، تيرتى إيڤانوڤيتش (١٨٢٥ ــ ١٨٩٩): شخصية اجتماعية بارزة، أديب، من أنصار النزعة السلاڤية.

(*****) بوبيدونوستسيف، قنسطنطين بتروڤيتش (١٨٢٧ ــ ١٩٠٧): شخصية حكومية بارزة، كاتب، أستاذ بجامعة موسكو (١٨٦٠ ــ ١٨٦٩)، عضو مجلس الشيوخ (من ١٧٦٨)، عضو مجلس الدولة (من ١٨٧٢)، نائب المدعى العام (١٨٨٠ ــ ١٩٠٥).

أذكر أنه فى هذا الشتاء وصل إلى بطرسبورج دانيليفسكى، الذى كان يعيش فى القرم بشكل دائم. وكان فيودور ميخايلوفيتش يعرفه منذ شبابه المبكر، عندما كان ما يزال مولعًا بتعاليم فورييه، وكان آنذاك يقدر تقديرًا رفيعًا كتابه «روسيا وأوروبا». وقد أراد فيودور ميخايلوفيتش أن يصل ما أنقطع بينهما من معرفة [١٣٩]، فدعاه إلى مأدبة غداء لدينا هو وبضعة نفر آخرين ممن يتحلون بالذكاء والموهبة (أذكر منهم مايكوف ولامانسكى[*] وستراخوف). وقد امتد النقاش بينهم جميعًا حتى وقت متأخر من الليل.

وفى هذا الشتاء ذاته طلب ترياتيكوف[**]، صاحب أشهر قاعة عرض للوحات فى موسكو، من زوجى أن يمنحه الفرصة لعمل صورة شخصية (بورتريه) له [١٤٠]. ومن أجل هذا وصل إلى موسكو الفنان الشهير بيروف[***]. وقبل أن يبدأ فى عمله راح بيروف يتردد علينا يوميًا على مدى أسبوع؛ وكان يتأمل فيودور ميخايلوفيتش فى شتى أحواله المزاجية، يتحدث معه، يدخل معه فى جدل، حتى استطاع أن يلحظ أكثر التعبيرات المميزة لفيودور ميخايلوفيتش عندما يكون مستغرقًا فى أفكاره الفنية. ربما يمكن القول إن بيروف أمسك فى صورته «بلحظة الإبداع عند فيودور ميخايلوفيتش»، وقد لاحظت أنا نفسى مرات عديدة هذا التعبير على وجه زوجى، عندما كنت أدخل عليه فألحظ أنه كما لو كان «ينظر داخل نفسه» فأترك المكان دون أن أنبس ببنت شفة. ثم أعرف فيما بعد أنه كان مشغولاً بأفكاره، وأنه لم يلحظ دخولى ولم يصدق حتى أننى جئت للاطمئنان عليه.

كان بيروف رجلاً ذكيًا وودودًا، وكان زوجى يحب التحدث إليه[١٤١] كنت دائمة الوجود فى أثناء جلسات الرسم وما زلت أحتفظ لبيروف بأطيب الذكريات.

(*) لامانسكى، ڤلاديمير إيڤانوڤيتش (١٨٣٣ ــ ١٩١٤): مؤرخ، أستاذ بجامعة بطرسبورج، تعرف على دستويڤسكى فى أواخر السبعينيات.

(**) ترياتيكوف، باڤل ميخايلوڤيتش (١٨٣٢ ــ ١٨٤٤): مؤسس قاعة ترياتيكوف للأعمال الفنية فى موسكو.

(***) بيروف، ڤاسيلى جريجوريڤتش (١٨٣٣ ــ ١٨٢٢): رسام شهير، كتب عنه دستويڤسكى عددًا من المقالات فى مذكرة الكاتب.

سرعان ما انقضى الشتاء وحل ربيع عام ١٨٧٢، ومعه دخلت حياتنا أحزان ومصائب كثيرة تركت بعدها ولسنوات طويلة آثارًا لاتنسى.

(٥)

يقول المثل: «إن المصائب لاتأتى فرادى»، وفى حياة كل إنسان تقريبًا زمن يدهمه فيه، ربما لفترة طويلة، مسلسل من شتى المصائب والأرزاء التى لم يكن ليتوقعها. وهو نفس ما حدث لنا تمامًا. بدأت مصائبنا فى نهاية عام ١٨٧٢، عندما تعثرت ابنتنا ليليا (وكان عمرها آنذاك عامين ونصف العام) وهى تجرى فى الغرفة لتسقط أمام أعيننا، وعندما رأيناها تبكى بشدة، اندفعنا باتجاهها رفعناها ورحنا نهدِّئها. لكنها واصلت البكاء ولم تسمح لنا أن نلمس يدها. سارع فيودور ميخايلوڤيتش ومعه المربية والخادمة فى البحث عن طبيب. وبعد أن استعلم فيودور ميخايلوڤيتش من الصيدلية عن عنوان أقرب جراح، أحضره بعد نصف ساعة. وفى نفس الوقت تقريبًا أحضرت المربية طبيبًا آخر من مستشفى أوبوخوفسكايا. رأى الجَّراح، بعد أن فحص الذراع المصابة، أنه قد حدث خلع، وعلى الفور جبَّر العظم ولف الذراع فى ضمادة سميكة. وقد وافق الطبيب الثانى على رأى الجراح بشأن الخلع وأكد أنه ما دام العظم قد جُبِّر فإنه سرعان ما يلتئم. وقد اطمأننا لرأى الطبيبين المختصين ودعونا الجرَّاح لزيارة المريضة، وقد راح يزورنا على مدى أسبوعين كل صباح، فيزيل الضمادة عن ذراعها ويقول إن كل شىء يمضى على ما يرام. وقد نبهت الجرَّاح أنا و فيودور ميخايلوڤيتش إلى وجود بعض الورم على مسافة ما يقرب من عشرة سنتيمترات من الكف لونه أزرق قرمزى. وقد أكد الجرَّاح أن الذراع المصابة متورمة كلها وأن ذلك نزيف دموى عادى يحدث بسبب الكدْمة وأنه سيختفى بالتدريج. وبسبب اضطرارنا للسفر فقد اقترح علينا الجرَّاح ألا نفك الضمادة فى أثناء الطريق خشية حدوث أى مضاعفات إلى أن نصل إلى غايتنا. سافرنا فى الخامس عشر من مايو عام ١٨٧٢ إلى ستاريا روسا ونحن مطمئنون تمامًا من جهة الحادث المؤسف الذى وقع لنا.

تم اختيارنا لهذا المنتجع للإقامة الصيفية بناء على نصيحة البروفيسور ميخائيل فلاديسلاف، زوج ماريا ميخايلوفنا، ابنة أخ فيودور ميخايلوفيتش، وقد أكد لنا الزوجان أن الحياة فى روسا هادئة ورخيصة، وأن صحة أبنائهما قد تحسنت بشكل كبير فى الصيف الماضى بفضل حمامات الماء المالح. كان فيودور ميخايلوفيتش مهتمًا للغاية بصحة أطفالنا فأراد أن يصحبهم إلى روسا وأن يتيح لهم فرصة الاستفادة من الاستحمام فى مياهها.

لا تزال رحلتنا الأولى إلى ستاريا روسا عالقة فى ذاكرتى واضحة جلية باعتبارها واحدة من أسعد ذكريات حياتنا العائلية[١٤٢]. وعلى الرغم من أن شتاء عامى ١٨٧١/ ١٨٧٢ مر بسلام وبصورة ممتعة، ولكننا بدءًا من الصيام الكبير رحنا نحلم بالرحيل فى مطلع الربيع إلى أى مكان بعيد، إلى مكان ناء فى زوايا الريف، حيث يمكن أن نعيش ونعمل معًا بعيدًا عن الناس، لا كما نعيش فى بطرسبورج، وإنما على النحو الذى اعتدنا عليه فى الخارج، يستمتع كل منا بصحبة الآخر. وها هو حلمنا يتحقق.

غادرنا ستاريا روسا فى صباح يوم دافئ رائع وبعد ساعات أربع وصلنا إلى محطة سوسنينكا، حيث يمكن منها السفر بالبواخر إلى نوفجورود عبر نهر ڤولخوف. وهناك علمنا أن الباخرة تغادر فى الواحدة بعد منتصف الليل وأن علينا أن ننتظر هنا يومًا كاملاً. أقمنا فى نزل صغير، ولما كان الجو فى الغرفة خانقًا فقد ذهبنا للنزهة فى القرية بصحبة الأطفال ومعنا مربيتهم العجوز. وهنا وقع لنا حادث مضحك: لم نكن قد تجاوزنا السير حتى منتصف الشارع، حين التقينا امرأة تحمل طفلاً وقد غطت وجهه بقع حمراء وبثور. تجاوزناها لنقابل ثلاثة أو أربعة أطفال آخرين تغطى وجوههم أيضًا بقع حمراء وبثور، وقد أصابنا هذا المنظر بالإحباط وقادنا إلى فكرة إصابة أطفال القرية بالحصبة، وأن من الممكن أن يصاب أطفالنا بالعدوى. أمرنا فيودور ميخايلوفيتش بحمية بسرعة العودة إلى المنزل، وهناك سأل صاحبة النزل إن كانت القرية مصابة بالمرض ولماذا تنتشر البقع على وجوه الأطفال. غضبت المرأة وأجابت أن الأطفال ليسوا بمرضى وأن ذلك من أثر «قرصات الناموس». هدأت هذه الإجابة من روعنا بشأن مرض الحصبة، وقبل أن تمر

ساعة اقتنعنا أن «البعوض» هو السبب فى ذلك بالفعل، إذ راحت وجوه أطفالنا تتشوه بسبب قرصاته.

صعدنا إلى الباخرة فى منتصف الليل، وضعنا الأطفال فى فراشهم ليناموا، جلسنا بعدها على السطح حتى الساعة الثالثة ونحن نتأمل النهر والأشجار التى انتشرت على ضفاف نهر فولخوف. وقبيل الفجر أصبح الجو باردًا فعدت إلى القمرة، بينما بقى فيودور ميخايلوفيتش جالسًا فى الهواء الطلق: كان يحب الليالى البيضاء إلى حد كبير!

فى السادسة صباحًا أحسست أن أحدًا ما يربت على كتفى. نهضت وسمعت فيودور ميخايلوفيتش يقول:

ـ آنيا، اصعدى إلى السطح، انظرى كم هو بديع المنظر هناك!

ـ وبالفعل كان المنظر رائعًا، يستحق أن ينسى المرء النوم من أجله. وعندما كنت أستعيد ذكرياتى فيما بعد عن نوفجورود، كان هذا المنظر يتراءى أمام عينىّ.

كان صباحًا ربيعيًا مدهشًا، كانت الشمس تلقى بضوئها الباهر على الضفة المقابلة للنهر وقد ارتفعت فوقه حوائط الكرملين المسننة وتألقت قباب كاتدرائية صوفيا المذهبة، وفى هذا الهواء البارد دوَّى صليل أجراسها معلنًا عن صلاة الصبح.

كان فيودور ميخايلوفيتش محبًّا للطبيعة، عالمًا بأحوالها، وها هو يمر بفضلها بحالة مزاجية سامية، وقد انعكس هذا المزاج لا إراديًا علىّ أنا أيضًا. جلسنا جنبًا إلى جنب مدة طويلة صامتَين، كما لو كنا نخشى أن نفسد هذه اللحظات الساحرة، وقد استمر هذا المزاج الطيب معنا طوال اليوم. يا لها من أيام طويلة مضت لم تنعم فيها أرواحنا بمثل هذا الهدوء ولم تغشها هذه السكينة!

عندما استيقظ الأطفال انتقلنا إلى باخرة أخرى اتجهت بنا إلى ستاريا روسا. قليلون هم الركاب الذى كانوا على متنها مما أتاح لنا رحلة مريحة؛ فضلاً عن روعة ما شاهدناه: كانت بحيرة إيلمان ساكنة مثل مرآة، وقد بدت صافية الزرقة بفضل سماء خالية من

السحب، حتى أننا تصورنا أننا نسبح فى بحيرة من بحيرات سويسرا. وقد سارت بنا الباخرة فى الساعتين الأخيرتين عبر نهر بوليست، وهو نهر كثير التعرج، وكانت ستاريا روسا تتراءى من بعيد بكنائسها وقد راحت تقترب تارة وتبتعد تارة أخرى.

وأخـــيرًا اقـــتربت الباخـــرة فى الساعة الثالثة من رصيف الميناء. أخذنا متاعنا واستقلينا عربة متوجهين للبحث عن داتشا القس روميا نتسيف(*) التى استُؤجرت لنا (بواسطة أقارب ڤلاديسلاڤليڤ). بالمناسبة لم يستغرق البحث وقتًا طويلاً: ما إن انعطفنا من كورنيش نهر بيريريتيتسا إلى شارع بياشيتسكويا وإذا بالحوذى يقول لنا: «ها هو الأب يقف عند البوابة، من الواضح أنه ينتظركم منذ فترة طويلة». وبالفعل، ولعلمه بوصولنا فى الخامس عشر من مايو تقريبًا ذهب القس وعائلته لينتظرونا، وها هم وقد جلس بعضهم ووقف البعض الآخر عند البوابة. ألقوا علينا بالتحية وقد علت وجوههم السعادة لمقدمنا وقد شعرنا على الفور أننا جئنا أناسًا طيبين. بعد أن سلَّم الأب على زوجى فى العربة الأولى، اقترب من العربة الثانية حيث أجلس وقد وضعت فيديا على يدَىّ، وإذ بهذا الغلام الذى ما يزال يحبو يميل بجسده بمودة إلى الأب وينزع عنه قبعته ذات الحواف العريضة ويلقى بها إلى الأرض، ومنذ هذه اللحظة بدأت صداقة فيودور ميخايلوڤيتش وصداقتى مع الأب يوحنا رومیانتسيف وزوجته الفاضلة، يكاترينا بتروڤنا، وهى صداقة امتدت عشر سنوات ولم تنته إلا بوفاة هؤلاء الناس المحترمين (١٤٣).

كنا جميعًا متعبين من جراء السفر وقد أنهينا يومنا الأول من حياتنا فى ستاريا روسا بغبطة ومزاج حسن.

ولكن، يا إلهى! من أين للمرء أن يعرف ما الذى ينتظره فى غده القادم! وها هو الغد يأتى ومعه هذا الحادث: فى الحادية عشرة صباحًا، وبعد أن تناولنا إفطارنا، كنت أرغب أن أطلق الأطفال إلى الحديقة، ولكن خجلت أن يظهر رباط يد ابنتى على هذا النحو

(*) روميانتسيف يوهان (إيڤان إيڤانوڤيتش) (؟ ــ ١٩٠٤): قس، راعى الكنيسة فى ستاريا روسا. صديق عائلة دستويڤسكى.

من الاتساخ. قررت أن أشق الضمادة التى لفَّها الجرَّاح حول يدها المصابة ثم أفكها، وكان قد سمح لى بذلك. ويا لهول ما رأيت: لقد فشَّ الورم فى الذراع تقريبا خلال الأيام الماضية، ولكن ظهر واضحًا فى المقابل ورم أسفل الكف. فى المكان الذى أشرنا إليه أنا وزوجى للجرَّاح فى بطرسبورج. بدا أن الورم لم يعد ليِّنا كما كان فى أول الأمر وإنما يابسًا وقد ظهرت زرقة داكنة فى الأصابع، وظهر تقوس اليد واضحًا دون لبس، الأمر الذى أصابنى بالدهشة. انزعج فيودور ميخايلوڤيتش بشدة وتصور أن أمرًا بالغ السوء قد وقع ليد الصبية فى أثناء رحلتنا الطويلة. استدعينا الأب يوحنا وطلبنا منه أن يشير علينا بطبيب، وسرعان ما حضر طبيب كان يعيش على مقربة منَّا، وقد أخبرنا أن ما أصاب ذراع الصبية لم يكن مجرد كدمة، وإنما هو كسر فى العظم، وحيث إنهم لم يثبِّتوه على نحو صحيح ولم يجبِّروا الذراع فقد التأم الكسر على نحو خاطئ. أفزعنا حديثه. وقد أجاب الطبيب عن سؤالنا حول مصير اليد مستقبلاً بقوله أن التقوس سيزداد، وأن اليد سيصيبها التشوه، وبينما ستنمو اليد اليسرى على نحو طبيعى؛ فإن اليمنى ستتوقف عن النمو، باختصار، سوف تصاب يد الصبية بالشلل.

يعلم الله وحده ما الذى أصابنا عندما سمعنا أنا وزوجى أن ابنتنا الرقيقة، التى نحبها ونحنو عليها سوف تصبح معاقة! فى البداية لم نصدق ورحنا نبحث عن جرَّاح فى المدينة. أخبرنا الطبيب أن طبيبًا عسكريًا جرَّاحًا حضر إلى روسا بصحبة الجنود الذين يُرسَلون إلى هنا للعلاج بالمياه، غير أنه لايعرفه شخصيًا وأنه غير متأكد من كفاءته. قررنا استدعاء هذا الجرَّاح وطلبنا من الطبيب الانتظار لدينا. ذهب الأب الطيب للبحث عن الجرَّاح ليعود بعد نصف ساعة ومعه طبيبًا عسكريًا. كان منتشيا إلى حد كبير من أثر الخمر، وقد عثر الأب عليه فى الفندق يلعب البلياردو. ولمّا كان معتادًا على التعامل مع الجنود، لم يفكر فى أن يكون أكثر حرصًا مع مريضته الصغيرة فإذا به يضغط على العظْمة، التى كانت ما تزال مصابة، فى أثناء فحصها بطريقة جعلتها تصرخ بشدة وتروح فى بكاء مرير.

للأسف الشديد فقد أكد الطبيب العسكرى على رأى زميله [١٤٤]، فى كون ما حدث لم يكن كدمة، وإنما كسر أصاب العظم، وحيث إن الأمر قد مضى عليه ثلاثة أسابيع،

فقد التئم العظم وأخذ فى النمو على نحو خاطئ. وعندما سألنا الطبيبين ما الذى علينا أن نفعله الآن، اتفقا على أن من الضرورى كسر العظم الملتئم مرة أخرى وأن توضع الذراع فى جبس ثابت بعد تجميع الشظايا معًا، وعندئذ يلتئم العظم على نحو صحيح. وقد نبهونا إلى ضرورة إجراء هذه الجراحة على الفور وبأسرع ما يمكن، قبل أن يلتئم العظم بشكل تام. وعندما سألنا الطبيبين إن كانت هذه العملية مؤلمة، أجابا مؤكدين أنها كذلك، بل إن الجرَّاح أضاف أنه لا يمكنه تحمل مسؤولية إجرائها حيث إنه لا يعلم إن كان بمقدور ابنتنا التى تبدو شاحبة ضعيفة أن تتحمل ألم العملية.

أليس من الممكن إجراء العملية تحت تأثير البنج؟ ـــ سأل فيودور ميخايلوڤيتش، لكنهما أجاباه بأن من الخطر تخدير الأطفال فقد يتعرضون للدخول فى نوم أبدى.

أتذكر كيف اعتصر الألم قلوبنا أنا وزوجى لهول المفاجأة وإلى أى درجة أحسسنا بالبؤس. لم نكن نعرف ما الذى علينا أن نقرره، فطلبنا من الطبيبين اللذين راحا يتعجلاننا أن يمهلانا يومًا ننظر فيه فى الأمر من كل جوانبه. كان وضعنا مأسويا بكل معنى الكلمة: فمن ناحية، لم يكن من المعقول أن نترك ابنتنا معاقة، وألا نحاول أن نصلح يدها. ومن ناحية أخرى، كيف لنا أن نأتمن هذا الجرَّاح، الذى قد يكون، فوق ذلك كله، مفتقدًا إلى الخبرة، فى إجراء العملية (وقد دفعنا منذ فترة غير بعيدة ثمن ثقتنا!)، ناهيك عن أنه محب للشراب، ثم إنه هو نفسه، وهو الجرَّاح، غير واثق فى نجاح العملية (وقد قال حرفيًا: «لايمكن التأكيد أن اليد ستلتئم على نحو صحيح، وربما نضطر إلى إعادة العملية») ولديه شك فى قدرة صغيرتنا الحبيبة على تحمل هذه العملية المؤلمة ـــ كل ذلك دفع بنا للوقوع فى مهاوى اليأس. يا إلهى كم عانينا أنا وزوجى فى هذا اليوم الكئيب ونحن نفكر فى اتخاذ القرار! راح فيودور ميخايلوڤيتش يذرع بسرعة شرفة الحديقة جيئة وذهابًا فى ذهول من جراء وطأة الحزن والقلق، وقد أخذ يشد شعر فوديه وهى علامة من علامات شدة اضطرابه، بينما كنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن تداهمه نوبة الصرع، وأنا أنظر إليه تارة وتارة أخرى إلى ابنتنا المريضة التى لم تفارقنى لحظة وهى تبكى أيضًا. باختصار كان الفزع يحيط بنا من كل جانب! لم ينتشلنا من هذا الغم سوى القس الأب يوهان رومیانتسیف، الذى أصبح صديقنا الصدوق منذ هذه الفترة، بقوله:

دعكم وأطباءنا: إنهم لا يفهمون شيئًا، ولا يحسنون صنعًا: إنهم لايفعلون شيئا سوى أن يعذبوا ابنتكم. الأفضل أن تذهبوا بها إلى بطرسبورج، فإذا احتاجت عملية، فلتجروها لها هناك.

كان الأب يوهان يتحدث بثقة ويلقى بالحجة تلو الحجة، مما ساعدنا على أن نقرر السفر إلى بطرسبورج. على أن موانع كبيرة كانت تقف فى سبيل سفرنا. خذ مثلاً: كنا قد حزمنا أمرنا على قضاء الصيف فى عزلة وهدوء وأن ندخر بعض الصحة والعافية لمواجهة الشتاء، عثرنا على داتشا جيدة، قطعنا إليها طريقًا شاقًا، وفجأة نجدنا مضطرين جميعًا للعودة إلى بطرسبورج الخانقة، حيث لا نمتلك شقة بها (كنا قد أجَّرناها قبل سفرنا). وقد اضطررنا للبحث عن داتشا أخرى فى أى مكان من ضواحى العاصمة، بعد أن دفعنا مائة وخمسين روبلاً إيجارًا للداتشا فى روسا، حدث ذلك رغم قلة مواردنا المالية وفى الوقت الذى كنا مجبرين فيه على أن نقتصد فى نفقاتنا. وبالإضافة إلى ذلك كنا نشعر بالأسف لترك هذه الداتشا التى أعجبتنا، وأن نترك هؤلاء الناس الذين عاملونا بكل طيبة ومودة.

اقترح علينا الأب حلاً آخر: أن نسافر مع لوبا وأن نعود بها إلى روسا بعد إجراء العملية، وأن نترك الصبى فيديا مع مربيته. والطباخة فى الداتشا، وقد وعدنا الأب وزوجته، يكاترينا بتروفنا أن يقوما برعاية الطفل ومربيته طوال فترة غيابنا. وكلاهما، الأب وزوجته، تعاطفا بإخلاص مع مصيبتنا وأعربا عن استعدادهما لرعاية فيديا وأن بإمكاننا الاطمئنان أنهما سوف يهتمان بالصغير.

تبقى أمامنا أمر واحد كان يثير قلقنا وهو أن طفلنا كان يبلغ من العمر عشرة أشهر فقط، وكنت ما أزال أرضعه. كنا نتمتع كلانا بصحة جيدة، وكنت عازمة على فطامه عندما تبدأ أسنانه اللبنية فى الظهور. وها أنا أضطر فجأة أن أترك الطفل، الذى لا يعرف طعامًا آخر سوى الرضاعة. تصورت أن التغيير المفاجئ لنظام غذائه سوف يترك تأثيرًا سيئًا عليه. وأنه سيمرض نتيجة لذلك؛ وأن التأثير سيمتد حتمًا إلى صحتى أنا أيضًا عند

انقطاعى المفاجئ عن الرضاعة. كل ذلك أصابنا أنا وزوجى بالإحباط، لكننا تغلبنا على خوفنا وشفقتنا على صغيرنا وقررنا أن نرحل فى اليوم التالى إلى بطرسبورج.

كم كان سفرنا حزينًا! لم أفارق طفلى الغالى طوال الصباح؛ حضر فيودور ميخايلوڤيتش إلى غرفة الطفل، وبدا لى أنه لم يستطع أن يلقى بنظرة على ابنه. وأخيرًا، عندما حانت لحظة الوداع، أرضعت الطفل للمرة الأخيرة وضممته بشدة إلى صدرى. كنت أشعر أننى لن أراه مرة أخرى. جلست وزوجى بعدها نصلى أمام الأيقونة، باركنا طفلنا الذى ابتسم فى سعادة، ثم انطلقنا بعد ذلك إلى الباخرة بروح يملؤها القلق والهم.

لا بد أن أذكر هنا بكل الامتنان والعرفان عائلة رومیانتسیڤ فبفضل رعايتهم لنا مر الأمر بسلام. لقد أخبرونى فيما بعد أن طفلى وقد أصابه الجوع بعد مغادرتنا، راح يبحث عنى وهو يشير للمربية بأصبعه نحو الباب وهو يعنى «هناك». حملته العجوز من غرفته إلى الغرفة الأخرى؛ وعندما لم يجدنى بها انهمرت دموعه رافضًا ما قدموه له من غذاء ولم ينم ليلته إطلاقًا. ثم أخذ بعد ذلك فى التعود على شرب اللبن، وكانت صحته على ما يرام. لكن أكثر ما حـز فى نفسى وآلمنى عندما عدت إلى روسا بعد ثلاثة اسابيع، وقد أخذنى الشوق إلى فيديا بشدة، فإذا به لا يتعرف علىّ، أنا أمه، ولم يأت متلهفًا إلى ذراعَىّ. لقد استطاع أن ينسانى تمامًا.

كانت رحلتنا إلى بطرسبورج رحلة حزينة، ولم يسترع اهتمامنا طوال الطريق لا نهر إيلمين ولا نهر ڤولخوف. كان اهتمامنا كله منصبًا على رعاية ابنتنا. كنا نخشى أن ترقد ليلاً على ذراعها المريضة فتؤلمها. نظمنا وقتنا بينى وبين زوجى، فكنا نتبادل الجلوس إلى جوار فراشها كل ساعتين ونحن نتعجل بصبر نافد أن نصل إلى نهاية هذا الطريق الطويل.

وكما ذكرت من قبل، لم تكن لدينا شقة هناك، ومن ثم قررنا أن نقيم فى المدينة فى شقة أخى إيڤان سنيتكين، الذى توجه هو وأمى للسكنى فى داتشا فى الضواحى. كان يومًا خانقًا شديد الحرارة. وما إن فتحت الخادمة لنا الباب حتى بادرتنا قائلة:

ـ إن السيدة العجوز (أمى) مريضة.

ـ يا إلهى، ماذا بها ؟ أين هى؟ فى الداتشا؟

ـ لا، إنها هنا، فى الشقة.

دلفت إلى غرفتها لأراها. كانت نائمة، وهى جالسة على الأريكة وقد علا وجهها الشحوب، بينما كانت قدمها ملفوفة فى ضمادة. بدأت أستوضح الأمر فعلمت أن حادثًا وقع لها إبان نقل أثاثنا إلى مخازن كوكوريفسكى. لم تنتبه أمى عندما أسقط الحمَّال، الذى لا بد وأنه كان مخمورًا، صندوقًا ثقيلاً على قدمها. كان إصبع قدمها اليسرى مكسورًا. وقد أخبرها الطبيب الذى استدعيناه أن الإصبع متقيح ومنعها من الحركة ووعد بشفائه فى ظرف شهر لا أقل. كان لعودتنا المفاجئة ولهذا السبب المفزع أثرًا بالغ السوء على أمى، وقد أحزنها بشدة على حفيدتها الوحيدة، التى كانت تحبها حبًا جمًا. راحت أمى تبكى وقد أصابها الكدر، وإذا بحرارتها ترتفع بشدة، وعندما زارها الطبيب فى المساء، قرر أن تقيحُ الإصبع قد زاد إلى حد أنهم قد يضطرون لبتره. يمكن لأى إنسان أن يتصور مدى اليأس الذى وصلت إليه بعد أن علمت بهذه المصيبة الجديدة.

بمجرد وصوله إلى المنزل، توجه فيودور ميخايلوفيتش إلى إيفان مارتينوفيتش بارتش(*)، كبير الأطباء بمستشفى ماكسميليانوفسكايا، وكان يعد آنذاك واحدًا من أفضل جرَّاحى العاصمة. كان صديقًا قديمًا لفيودور ميخايلوفيتش، الذى لم يكن قد تمكن بعد من زيارته بعد عودتنا من الخارج. وعندما وقعت حادثة ذراع ابنتنا، أردنا أن نتوجه إلى بارتش، لكن زوجى كان يعلم أن بارتش لن يتقاضى نقودًا مقابل فحص الصبية، وهو أمر بدا محرجًا لنا، وفى الوقت نفسه لم يكن بإمكاننا أن نقدم له هدية مناسبة بدلاً من النقود. كان فيودور ميخايلوفيتش يرى أن الاستعانة بطبيب شهير مثل بارتش، بعد أن لجأنا إلى جرَّاح ظننا أنه خبير؛ هو ببساطة، أمر غير لائق.

(*) إيفان مارتينوفيتش بارتش (١٨٣١ ــ ١٨٩٠): كبير الأطباء بمستشفى ماكسميليانوفسكايا فى بطرسبورج.

استقبل بارتش فيودور ميخايلوڤيتش بحفاوة بالغة وعاتبه على عدم حضوره إليه منذ اللحظة الأولى لوقوع الأمر ووعده بزيارته فى المساء، وقد حضر بالفعل فى الوقت المحدد. وقد نجح فى جذب اهتمام ابنتنا بساعته ذات السلسلة، ثم راح ينزع برفق الضمادة عن يدها، حتى دون أن يمسها حتى لا يؤلمها. بعدها أعلن مباشرة أن الأطباء فى ستاريا روسا قد شخصوا الحالة تشخيصًا صحيحًا، وأن العظم قد التأم على نحو خاطئ. ورأى أن من المستحيل أن تصبح اليد اليمنى أقصر من اليسرى، لكنه حذر من أن تجويفًا من جانب وبروزًا من جانب الكف سوف يكونان واضحين على أية حال، ولكى يتم إصلاح العيب يجب إعادة كسر العظم وتركه يلتئم بعد عمل ضمادة من الجبس. بادره فيودور ميخايلوڤيتش بقوله إنه يعرف أن العملية مؤلمة للغاية ويخشى ألا تتحملها الطفلة.

لكنها لن تشعر بشىء، فسوف تجرى العملية تحت تأثير المخدر ــ أجاب بارتش.

ـ لقد أخبرنا الأطباء فى ستاريا روسا أن الأطفال الصغار لاينبغى أن يتعرضوا للتخدير لأنه يمثل خطرًا عليهم ــ قال زوجى.

ـ حسنًا، لأطباء ستاريا روسا أن يقولوا ما شاؤوا بشأن تخدير الأطفال ــ ابتسم الجراح لهذه الملاحظة، أما نحن فنخدر حتى الأطفال الرضع وسيمر كل شىء بسلام.

وبينما هو يستفسر عن كل التفاصيل، راح بارتش يحملق فى وجهى باهتمام. لم تغب عن نظرته الثاقبة حالة الحمى التى كانت تعترينى.

ـ هل صحتك على ما يرام؟ توجه إلىَّ سائلاً، لماذا يبدو وجهك ممتقعًا، لعلها الحمى!

هنا اضطررت للاعتراف بأننى كنت أعانى الحمى طوال الليل وأن رأسى كانت تؤلمنى فى أثناء النهار وأننى ما زلت أشعر بدوار، ثم شرحت له السبب.

انزعج فيودور ميخايلوڤيتش بشدة وراح يعاتبنى على إخفائى حالتى المرضية.

هدئى من روعك يا سيدتى، قال بارتش، أما ابنتك فسوف نعالجها، ولكننى لن أقوم بإجراء العملية قبل أن تتعافى أنتِ نفسك. لعل لبن الرضاعة يندفع إلى رأسك، وهو أمر

لاينبغى الاستهانة به. اذهبى إلى الصيدلية على الفور لإحضار الدواء الذى سأصفه لك، وعندما علم بارتش أننا نسكن فى شقة ليست لنا، وأن لدينا فوق هذا امرأة مريضة، اقترح علينا أن ننتقل لمدة ثلاثة أسابيع إلى مستشفى ماكسيميليانوفسكايا، حيث ستفرد لنا غرفة مستقلة. وقد أخبرنا أن العظم لن يلتئم قبل ثلاثة أسابيع وأنه لن يقوم بالعملية إلا أذا بقينا فى بطرسبورج طوال الفترة اللازمة للشفاء. كان واضحًا أنه، باعتباره جرَّاحا ماهرًا، لايرغب فى تحمل مسؤولية، ربما، فشل العملية بسبب خطأ يمكن أن يرتكبه طبيب ستاريا روسا إذا ما تابع العلاج هناك وقام بنزع الضمادة فيما بعد.

قررنا أنا وزوجى على الفور أن ننتقل فى اليوم التالى إلى المستشفى وقد وعدنا بارتش أن يجرى الجراحة غدًا إن أمكن.

كان يومًا عصيبًا مليئًا بالشكوك. وصلنا إلى المستشفى فى حوالى الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وسرعان ما انضم إلينا أبوللون نيكولايڤيتش مايكوف، إشبين ابنتنا. وكان بارتش قد طلب منا بالأمس أن يحضر أحد ما من أقاربنا أو معارفنا العملية، وقد طلب فيودور ميخايلوڤيتش من مايكوف أن يحضر هو العملية.

كان من المقرر أن يخدروا الفتاة فى أثناء نومها المعتاد بعد الإفطار. لكنها كانت مُثارة بسبب انتقالها عبر شوارع المدينة والأماكن والأشياء الجديدة عليها فلم تستطع أن تنام.

عندئذ قرروا تخديرها وهى مستيقظة. ظهر بارتش فى الغرفة ومعه مساعده الدكتور جلاما، وعندما علم بارتش أننى وزوجى ننوى حضور العملية اعترض بشدة.

عفوًا، قال بارتش، أحدكما سيصاب بإغماء، والآخر بالصرع، وعندئذ سنلتفت إليكما ونترك العملية! كلا، يجب عليكما أن تخرجا من هنا، وإذا ما تطلب الأمر وجودكما، سوف آتى لطلبكما.

رسمنا علامة الصليب على ابنتنا عدة مرات وقبّلناها، ولمّا بدأت فى النوم بتأثير المخدر، أخذها بارتش من يدىّ ووضعها بحرص فى السرير. خرجنا وزوجى من

الغرفة والرعب يملأ قلوبنا، وقد خامرنا شعور بأننا لن نراها حية مرة أخرى. أخذنا أحد العاملين إلى إحدى الغرف وتركنا وحدنا. كان وجه فيودور ميخايلوڤيتش شاحبًا كالموتى؛ وكنت من الاضطراب أقف على قدميَّ بالكاد.

ـ آنيا، لنصلِّ ولنسأل العون من الله، وسوف يعيننا! قالها زوجى بصوت متهدج. ركعنا كلانا ورحنا نصلى بحرارة، لعلنا لم نصلِّ فى حياتنا كلها بهذا الخشوع مثل صلاتنا هذه الدقائق! ما إن انتهينا حتى تناهى إلى أسماعنا صوت خطوات مسرعة، وإذا بمايكوف يدلف إلى الغرفة.

ـ اذهبا إلى هناك. بارتش يناديكما، قال مايكوف.

فكرة وحيدة خطرت ببال فيودور ميخايلوڤيتش مثلما خطرت ببالى تمامًا، أن ليليا لم تتحمل التخدير وأن بارتش يستدعينا لحضور الدقائق الأخيرة من حياتها. لم أعانِ فى حياتى وحتى الآن شعورًا بالرعب مثل هذا الشعور: تخيلت أمامى صورة موت ابنتنا الكبرى. لحظتها أخذنى زوجى من يدى ضاغطًا عليها بعصبية. أسرعنا السير إلى حد الهرولة عبر ممر المستشفى وما إن دخلنا الغرفة حتى رأينا بارتش (دون سترة وقد شمَّر أكمام قميصه)، وكان يبدو قلقًا. دعانا بإشارة من يده لنتقدم نحو السرير، التى كانت تنام عليه الفتاة فى هدوء. كانت يدها المكسورة مستقيمة الآن تمامًا، ليس فيها أى أثر لتورم، ملقاة إلى جانبها وقد وضعت على وسادة صغيرة.

ـ حسنًا، انظروا ــ قال بارتش ــ ترون أن اليد مستقيمة تمامًا، ويبدو لى أنكم غير مصدقين؟ والآن ابتعدوا، دعونى أكمل عملى.

وها هو بارتش، فى وجود ثلاثتنا، يقوم بربطُ الضمادة حول اليد وقد أحاطها بالجبس، وقد قام بذلك كله بسرعة كبيرة (سبع دقائق) إلى حد أننا لم نتمكن من إدراك أن العملية قد انتهت بالفعل. طوال الوقت كان جلاما يتابع نبض الفتاة. ثم أخذ بارتش فى إفاقتها وطلب منى أن أناديها باسمها بصوت مرتفع. لم تستطع أن تستيقظ لمدة طويلة، وعندما عادت لوعيها أبدت دهشتها وهى تنظر إلى يدها المربوطة بالضمادة وأعلنت أن لديها «شعاعًا» سكريًا (بلون الجبس).

يا إلهى، كم كنا سعيدين أنا وزوجى إلى حد الجنون. فبعد أن انتهى الأمر، خرج الطبيبان وتركانا وحدنا مع صغيرتنا الحبيبة. من الصعب أن أصف شعور السعادة والهدوء الذى اكتنفنا. لقد بدا أن كل المصائب والهموم قد انزاحت وأنها لن تعود ثانية، ولكن ذلك لم يحدث فى الواقع.

بقى فيودور ميخايلوڤيتش فى بطرسبورج يومًا آخر، حيث إن نتيجة العملية (أى معرفة ما إذا كان العظم سيلتئم على نحو صحيح فى هذه المرة) لم تكن لتتضح قبل ثلاثة أسابيع، قرر فيودور ميخايلوڤيتش ألا ينتظر أكثر من ذلك فسافر على الفور إلى روسا يدفعه الشوق الجارف إلى فيديا بعد فراق طويل عنه. أما فيما يتعلق بى فحدِّث ولا حرج: كنت أفكر والألم يعتصر قلبى كيف أنى تركت ابنى الغالى دون شفقة أو رحمة. ظلت الهواجس تتقاذفنى خشية أن يكون سوء قد أصابه. ولهذا كنت سعيدة أن زوجى أسرع عائدًا إلى هناك. كنت أعلم أنه أب رؤوم وكنت على يقين أنه سيرعى ابننا الحبيب.

أما ما لم أكن أتصوره أن يتحول بقائى مع ليليا فى بطرسبورج إلى عذاب مستمر، عذاب علىّ أن أتحمله. أولاً، كنت أشعر طوال الوقت بالقلق البالغ خشية أن تقع وهى تركض فى الغرفة على يدها المصابة، وقد تصطدم بشىء ما فينكسر الجبس، أو تتحرك الضمادة عن موضعها عند أى حركة خاطئة، وعندئذ يلتئم العظم مرة أخرى على نحو خاطئ. كنت أتابعها لحظة بلحظة، ولمّا كانت فتاتنا شديدة الحيوية والنشاط، فقد أصبحت بسبب خوفى الدائم وتوترى الزائد فى حالة عصبية مستمرة. وبالإضافة إلى ذلك فقد ساء نومى بالليل، فكنت أستيقظ كل دقيقة لكى أطمئن عليها وأتأكد أنها لا تنام فوق ذراعها المريضة. ناهيك عن أن ليليا اعتادت الحياة وسط أفراد الأسرة، تنظر فترى بجوارها أبها وأخها ومربيتها؛ أما هنا فقد كان مصيرها أن تعيش فى وحدة تامة، ولهذا كان من الطبيعى أن تشعر بالوحشة وأن تشاكس وأن تستسلم للبكاء؛ فضلاً عن ذلك كانت المدينة حارة والجو خانق، وكانت رائحة الدواء تنتشر فى أنحاء المستشفى. كان عدم الخروج إلى الهواء الطلق مستحيلاً، وكنت أرغب فى زيارة أمى، التى لم تبرأ بعد

من مرضها. كان الخروج إلى الشارع يعنى زيادة احتمالات السقوط على الأرض وإصابة الطفلة بالكدمات والرضوض. لم تكن لدىّ القوة لحملها على يدىّ، ولم يكن بإمكانها أن تمشى لمسافة طويلة، وكان استخدام الحنطور عذابًا حقيقيًا، فسواء عند ركوبه أو النزول منه كان من السهل للغاية أن تتعرض يد الفتاة للأذى.

وإلى جانب الخوف على ليليا، لم أستطع التخلص من التفكير فيما عساه يحدث الآن لزوجى، أليس من الجائز أن يكون قد أصيب بنوبة صرع؟ أحسست من خطاباته أنه يشعر بالوحشة والقلق بشأننا، بينما لم يكن بمقدورى أن أمد له يد المساعدة. لقد تعذبت أنا أيضًا بالحنين إلى صغيرى، وكنت فى غاية الانزعاج فى الوقت نفسه بخصوص الجرح القائم فى قدم أمى الذى لا يبرأ بل ويزداد ألمًا. لهذه الأسباب وغيرها أصبحت أعصابى متوترة، كنت أبكى وأنتحب عدة مرات فى اليوم.

لكن المصائب واصلت مطاردتنا. فبعد سفر فيودور ميخايلوفيتش بعدة أيام زارنى أخى إيفان جريجوريفتش (كان يتوقع زيارة أحد أقرباء زوجته فى القريب العاجل، ولهذا كان بإمكانه أن يغادر الداتشا لفترة قصيرة لزيارة أمى وزيارتى)، وكان يبدو حزينًا مكروبًا. رحت ألح عليه فى السؤال إن كان أمرًا ما قد وقع، فكان يجيب أن كل شىء على ما يرام، فزوجته بصحة جيدة، وأمى تحسنت بعض الشىء، إذن لماذا يبدو محبطًا على هذا النحو ولماذا يبدو أحيانًا وكأنه على وشك البكاء؟ هكذا رحت أفكر. لكنه سرعان ما خرج لتعاودنى من جديد فكرة أن يكون مكروهًا ما قد وقع لفيودور ميخايلوفيتش أو لابنى وأن أخى يخفى عنى ذلك. وصل قلقى إلى حده الأقصى، فبتُّ ليلى كله مسهدة تعبث بى شتى الهواجس المفزعة. وفى الصباح الباكر أرسلت برقية إلى أخى ليحضر إلىّ حتمًا. وها هو أخى قد جاء على نفس حالته من الحزن والإحباط التى كان عليها بالأمس. أخبرته بشكوكى حول وقوع مكروه ما لأهلى فى روسا وأضفت أننى لا أستطيع أن أتحمل قلقى عليهم أطول من ذلك، ولهذا سوف أرحل من هنا إليهم أنا وابنتى مجازِفة بإفساد كل ما فعلناه من أجل علاجها. راح أخى يؤكد لى أنه لم يتلق أية أنباء سيئة من روسا وأن لحزنه سببًا مختلفًا، وعندما رأى إلحاحى وخشية أن

أقرر السفر وخوفًا من أن يزيد حزنى، قرر أخى فى النعاية أن يخبرنى بمكروه جديد أصاب أسرتنا، وهو وفاة أختنا الوحيدة ماريا جريجوريڤنا شڤانكوڤسكايا(*). كنا وأخى نحب ماشا حبًا عظيمًا وقد صدمنا موتها المفاجئ ولم تزل بعد فى شرخ الشباب. كانت أختنا جميلة، تتمتع بصحة جيدة، امرأة محبة للحياة، بلغت الثلاثين منذ أشهر قليلة. وبالإضافة إلى الحزن الشديد الذى شعرنا به لفقدها. كنت وأخى نفكر بقلق بالغ فى مصير أربعة أطفال تركتهم وراءها وكانت لهم أمًا حنونًا. كنا نعانى يأسًا لاحدود له، وعندما رأتنا ابنتنا نبكى راحت تبكى هى الأخرى. لن يغيب عن ذاكرتى إلى الأبد هذا اليوم الحزين!

بعد انقضاء الدقائق الأولى للحزن، رحت أستفسر من أخى عن فداحة مصيبتنا التى لا تعوَّض. وقد اتضح أنه ذهب، بناء على طلب أمى، ليعود أطفال أختى، وهناك علم أن زوجها قد عاد لتوه هذا الصباح فقط من الخارج. ولعلمه أن وفاة أختى سوف تمثل لى ضربة قاصمة، خشى أخى أن أقع مريضة من الحزن وعندئذ لن يكون هناك من يرعى ابنتى، ومن ثم قرر ألا يخبرنى. وقد أكد لى أخى أنه الآن أصبح يشعر براحة أكبر بعد أن أصبح باستطاعتى أن أشاطره حزنه وأن يسترشد برأيى فيما يجب عمله. كانت أمامنا مهمة ثقيلة ـــ كيف نخبر أمنا بوفاة ماشا. كانت ابنتها الكبرى الأثيرة لديها، وكنت وأخى نخشى ألا تتحمل هذه المصيبة فقد تحدث لها صدمة أو تُجن.

فى البداية قررنا أنا وأخى أن نخفى عنها الخبر. وقد فكرت أن أقنعها بالسفر معى إلى روسا ثم أبلغها هناك بالمصيبة بعد أن أعُدها تدريجيًا لتلقى هذا النبأ الحزين. وكنت أعوّل فى هذا على مساعدة زوجى الذى كانت تربطه بأمى صداقة قوية، كما كان له

(*) فى عام ١٨٧١ سافرت ماريا شڤانكوڤسكايا مع زوجها وطفليها الكبيرين إلى الخارج تاركة طفليها الصغيرين فى بطرسبورج. وفى فبراير ١٨٧٢ استقر بهما المقام فى روما، حيث أصيبت بعدوى الملاريا فى أثناء تجولها وربما بالتيفود، كما يرى أطباء آخرون. ظلت مريضة شهرين ثم توفيت فى الأول من مايو، ولسبب ما لم يجد زوجها إمكانية لإبلاغ الأسرة عن وفاتها، وإنما أخبر أخته التى كانت ترعى طفليه بسرعة عودته (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

تأثير قوى عليها. لكن فيودور ميخايلوفيتش رفض رفضًا قاطعًا(*) هذه الخطة، ورأى أن ذلك سوف يعمق من حزنها وأقنعنا بضرورة أن نخبرها على الفور، حيث يمكنها أن تتقاسم حزنها مع أحفادها الذين تيتموا.

ازدادت مهمتنا صعوبة وبخاصة عندما علم الطبيب المعالج لها بالمصيبة الجديدة التى حلت بنا، فطلب منا أن نخفى عنها الخبر إلى أن يتم شفاء قدمها. وأكد الطبيب لى أن الالتهاب سوف يزداد بلاشك (نتيجة الاضطراب والدموع)، وعندئذ قد يضطر لبتر الإصبع. ما القرار الذى علينا أن نتخذه؟ كان هذا هو السؤال المفزع لى ولأخى. وفى الوقت نفسه كانت لدى أخى همومه الثقيلة: كانت زوجته تتوقع أن تلد خلال بضعة أيام؛ ولمّا كان ذلك هو مولودهما الأول، فقد كان أخى وزوجته فى حالة قاسية من الاضطراب، يأملان فى أن يمر الأمر بسلام.

أما أنا فكانت لدىّ أيضًا أوجاعى: زوجى وابنى الغالى، نجاح أو فشل عملية ابنتى ثم مرض أمى، والآن إذا بهذا الهم الكبير يداهمنا! لكن الله يهب الصبر على قدر المصيبة!

هكذا قررنا أن نخفى نبأ وفاة أختى عن أمى ولكن إلى حين! وكم كان صعبًا علينا أن نفعل ذلك! كانت أمى تتحدث عن أختى وكأنها بيننا، وتكتب لها الخطاب تلو الآخر وتعد من أجلها الهدايا لتعطيها لها عند حضورها. كم عانينا من سماع أحاديثها عن ماشا ونحن نتحدث بحرص بالغ خشية أن تفلت منا كلمة تشى بنا، وبخاصة عندما تذكّرنا هذه الأحاديث بالراحلة فيكاد الدمع عندئذ يطفر من أعيننا. كانت أمى تلاحظ أحيانًا أننى أبكى، ولكننى كنت أذكر لها أن ذلك من فرط قلقى على نجاح العملية وعلى أحبائى الموجودين فى روسا.

مضى الزمن وقررنا أن نكشف السر الذى كتمناه طويلاً. وإذا بأمى تقرر فجأة، وقد أحزنها أنها لم تتلق خطابات من أختى المريضة، أن تزور أطفالها الصغار. وعلى الرغم

(*) الخطاب المؤرخ ٣٠ مايو ١٨٧٢ (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا.)(١٤٥)

من أننا حاولنا إقناعها بأن سفرها يمكن أن يضر بقدمها، فقد أصرت على رأيها. وفى نفس الوقت تلقينا خطابات من فيودور ميخايلوفيتش اهتز على أثرها قرارنا. وأخيرًا حسمنا موعد السفر. اتفقت مع ممرضة المستشفى أن تجالس ليليا ساعتين ثلاثًا وأن تشغلها باللُعَب، ولكنها خافت لو تركتها لدقيقة واحدة أن يقع لها مكروه. وقد ترك أخى أيضًا زوجته المريضة وهو فى أشد حالات الخوف، وهكذا جلسنا جميعًا فى العربة وقد اصطحبنا أمنا العزيزة متجهين لزيارة أطفال أختى الراحلة. كم من الألم عانينا أنا وأخى فى هذا اليوم! سرنا ببطء حتى لانؤلم قدم أمى المصابة: كنت أشعر تمامًا كما لو كنت مُساقة إلى الإعدام. كنت أشعر أن كل دقيقة تمر، كل منعطف نمر به، هكذا كنت أفكر، ربما تأخذنا إلى مصيبة جديدة، بل وربما نصل حتى إلى موت أمى. يا له من رعب! إلى الآن، وبعد مرور سنوات عديدة، ما زلت أتصور هذا اليوم كما يتذكر الإنسان كابوسًا ثقيلاً!

وصلنا إلى بيت أختى (فى شارع مالايا إيتاليانسكايا). سارع كل من الحارس والبواب بحمل أمى إلى الطابق الثانى، بينما هرعت ابنتا أختى الكبيرتان، ليااليا وأوليا، إلى السلم لاستقبال أمى. أصابت الدهشة أمى المسكينة لعدم خروج أختى مع الطفلتين لاستقبالها، وهنا أحست فجأة باقتناع عميق أن ابنتها لم تعد على قيد الحياة (وهو ما أخبرتنى به بعد ذلك)

ماتت ماشا! عزيزتى ماشا ماتت! صاحت أمى فى هيستيرية وانخرطت فى بكاء حار. وكذلك أخذ الأطفال فى البكاء، بكينا أنا وأخى، ثم خرج باڤل جريجوريڤيتش(*) (زوج أختى) وهو فى حالة من الاضطراب الشديد. كان مشهدًا حزينًا بائسًا يقطع نياط القلوب لا يمكن لأى كلمات أن تصفه. مرت بنا حوالى ساعتين، قبل أن نستعيد رباطة جأشنا. كان علينا أن نفكر فى إعادة أمى إلى منزلها، إذ كان وجودها لدى آل

(*) باڤل سڤاتكوڤسكى زوج أخت أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا، ماريا جريجوريڤنا سڤاتكوڤسكايا (سنيتكينا قبل الزواج) (١٨٤١ ـ ١٨٧٢): موظف، عمل رقيبًا فى الفترة من ١٨٦٦ إلى ١٨٦٧

سڤانكوڤسكى أمرًا لا معنى له: فمن الذى يستطيع هنا أن يقوم على رعاية امرأة مريضة والجميع قد عادوا لتوهم من الخارج ولم يتمكنوا بعد من الراحة من عناء السفر وتهيئة أمورهم. فضلاً عن ذلك كانت أمى ترغب بشدة فى العودة إلى منزلها لتنفرد بنفسها (متفرغة لأحزانها). كما كان من الضرورى أن يعود أخى إلى زوجته المريضة على وجه السرعة وأعود أنا إلى ليليا فى المستشفى، وفى الوقت نفسه لم ينقطع أى منا عن البكاء والحزن.

وأخيرًا وافقت أمى على توسلاتنا ووعودنا بأن نعود بها ثانية بعد عدة أيام لزيارة الأطفال اليتامى. عدنا على مهل إلى بيتها ومنه توجهت إلى المستشفى، ولحسن الحظ وجدت كل شىء على ما يرام: ليليا والممرضة يغطان فى الفراش فى نوم عميق. وفى الحال ألبست ابنتى وذهبت بها لقضاء بقية اليوم عند أمى، بعد أن قررت ألا أتركها وحيدة مع حزنها البالغ. وقد بكينا معًا كثيرًا، وكان مما خفف من أحزانى أننى لم أضطر أن أخفى عنها طويلاً هذا الهم الذى ظل جاثمًا على صدرينا أنا وأخى.

بعد عودتى إلى روسا ومعى ليليا ساد الهدوء والسكينة حياتنا بعضًا من الوقت، لكنهما لم يستمرا طويلاً نتيجة إصابتى بنزلة برد حادة أصابتنى (كان صيفًا ممطرًا باردًا)، وقد أصبت بخُرَّاج فى حلقى مع ارتفاع فى الحرارة بلغت أربعين درجة خلال بضعة أيام. كان ن. أ. شينك(*)، كبير الأطباء العسكريين، وصل إلى ستاريا روسا لعمله الموسمى، قد حذر زوجى فى يوم من أسوأ أيام حياتى، من أنه إذا لم يُشف هذا الخراج خلال أربع وعشرين ساعة فإنه غير مسؤول عن حياتى، فصحتى منهارة وقلبى يعمل على نحو سيئ. ما إن استمع فيودور ميخايلوڤيتش إلى هذا الكلام حتى بلغ به اليأس أشده. وحتى لا يزعجنى ذهب بعيدًا ليبكى بين يدى الأب يوحنا. استند إلى المائدة

(*) ن. أ شينك (الصواب قنسطنطين ألكسندروڤيتش شينك) (١٨٢٩ ـ ١٩١٢): كبير الأطباء فى مستشفى سيميونوفسكايا العسكرى فى ستاريا روسا. تولى فى البداية علاج لوبا ابنة دستويفسكى، ثم علاج زوجته أنّا جريجوريڤنا (المترجم).

وغطى وجهه بيديه وراحت الدموع تنهمر من عينيه. اقتربت منه زوجة القس وسألته عما قاله الطبيب. قال لها فيودور ميخايلوڤيتش بصوت متقطع من البكاء:

ـ سوف تموت أنّا جريجوريڤنا. ماذا عساى أفعل دونها؟ وهل بمقدورى أن أعيش بعدها، إنها كل شىء بالنسبة إلىَّ!.

أمسكت السيدة الطيبة به من كتفه وقالت له:

ـ لا تبك، فيودور ميخايلوڤيتش، لا تجزع، إن الله رحيم ولن يترك أطفالك يتامى.

كان للمشاركة القلبية وإقناع الأم الطيبة أثره الطيب فى نفس زوجى وعملا على رفع معنوياته المنهارة. ظل فيودور ميخايلوڤيتش يتذكر بكل امتنان هذا التعاطف من جانب هذه السيدة وكان يكن لها احترامًا شديدًا.

يمكن تصور حالة اليأس التى كنت أمر بها إبان مرضى: كنت أرى أن وضعى الصحى يزداد سوءًا، وعلى مدى بضعة أيام لم أكن أستطيع أن أنطق ولو بكلمة واحدة، فكنت أكتب ما أريد على ورقة. كان الطبيب يسجل درجة حرارتى مرتين يوميًا (كان فيودور ميخايلوڤيتش يخفى دائمًا عنى هذه الورقة، لكن المربية كانت تحضرها لى بناء على طلبى لأنظر ما بها، دون أن تدرك لماذا أطلبها)، كنت أفهم بالطبع إلى أين يذهب بنا الأمر. كنت أشعر بالأسى لدنو الموت منى. كان أمرًا قاسيًا أن أترك زوجى وأطفالى الأحباء، وقد رحت أتصور على أى نحو من البؤس سوف يعيشون دون أم مع أب مريض فقير. أى مصير ينتظرهم؟ أما أمى فهى عجوز ومريضة وقد ماتت أختى. كان الأمل معقودًا على أخى الطيب فى أن يرعى أطفالى. كنت أشعر بالأسى الشديد على زوجى: من سيحبه، من سيرعاه ويشاركه عمله ويقاسمه أحزانه؟ ناديت زوجى وأطفالى بإشارة. قبَّلتهم وباركتهم وكتبت تعليماتى لزوجى فى حالة وفاتى. على أننى وقبل الأزمة بيومين أصبحت أشعر بقدر كبير من اللامبالاة: بدا كأننى لا أشعر بأى أسى على فيودور ميخايلوڤيتش ولا الأطفال وكأننى قد غادرت هذا العالم بالفعل.

ولحسن حظنا جميعًا، فقد حدثت الأزمة فى نفس الليلة: شُفى الخراج الموجود فى حلقى وبدأت فى التعافى. وبعد أسبوعين تكرر ظهوره وفى حلقى مرة أخرى ولكن بدرجة بسيطة. وإذا بسلسلة المصائب التى وقعت لنا طوال عام ١٨٧٢ تنتهى تمامًا.

لقد كان علىّ أن أعانى فى حياتى فيما بعد الكثير من الأحداث المريرة. كانت هناك خسائر فادحة: موت زوجى وابنى أليوشا، ولكن هذه المصائب لم تتكرر مرة أخرى.

الجزء السادس

العامان ١٨٧٢ / ١٨٧٣

(١)

العام ١٨٧٢

بحلول خريف عام ١٨٧٢ بدأنا فى التعافى بعض الشىء من الآثار الثقيلة لهذا الصيف التعيس الذى عشناه، وبعد أن عدنا من ستاريا روسا أقمنا فى السرية الثانية التابعة لفوج إسماعيلوفسكى فى منزل الچنرال ميڤيس(*). كانت شقتنا تقع فى الطابق الثانى للمنزل القائم فى عمق الفناء. كانت الشقة مكونة من خمس غرف غير فسيحة وإن كانت مريحة. غرفة استقبال ذات ثلاث نوافذ، مكتب لفيودور ميخايلوڤيتش مساحته متوسطة يقع بعيدًا عن غرف الأطفال بحيث لا يصل ضجيجهم وركضهم إلى مسامعه فيقطع عليه حبل أفكاره.

وعلى الرغم من أن زوجى ظل يعمل طوال الصيف على إتمام روايته، فإنه كان غير راض تمامًا عنها، حتى إنه تخلى عن الخطة التى سبق أن وضعها وأعاد كتابة الفصل الثالث منها من جديد.

(*) الچنرال ميڤيس: صاحب البيت الذى عاش فيه دستويفسكى عام ١٨٧٢

فى شهر أكتوبر سافر فيودور ميخايلوڤيتش إلى موسكو، واتفق مع هيئة التحرير على نشر الفصل الثالث من الرواية فى العددين الأخيرين من «البشير الروسى». جدير بالذكر أن رواية «الشياطين» لاقت نجاحًا كبيرًا فى أوساط القراء، لكنها خلقت لزوجى، مع ذلك، أعداء كثيرين فى عالم الأدب(١٤٦)

بانتهاء فصل الشتاء أتيحت الفرصة لفيودور ميخايلوڤيتش أن يلتقى لدى نيكولاى سيميونوف(*)(١٤٧) بنيكولاى دانيليڤيسكى وكان من أنصار فورييه، وذلك بعد مرور خمس وعشرين سنة لم يلتق خلالها زوجى به مرة واحدة. كان فيودور ميخايلوڤيتش فى أوج سعادته بهذا اللقاء. وكان قد قرأ لدانيليڤسكى كتابه «روسيا وأوروبا»، فأراد أن يتحدث معه بشأنه مرة أخرى. ولما كان الأخير يتهيأ لمغادرة المكان مسرعًا، فقد دعاه فيودور ميخايلوڤيتش لتناول طعام الغداء فى منزلنا فى اليوم التالى. وما إن علم أصدقاء دانيليڤيسكى ومحبوه بشأن هذا اللقاء حتى جاؤوا من أنفسهم إلينا للمشاركة فى هذا الغداء. لكم أن تتخيلوا الرعب الذى أصابنى عندما ذكر لى زوجى أن عدد الضيوف المتوقعين يبلغ، بالإضافة إلينا، حوالى عشرين شخصًا. وعلى الرغم من إمكانياتى المتواضعة فقد نجحت فى إعداد غداء لائق سادته الحيوية، حتى أن الضيوف ظلوا يتبادلون أحاديثهم الشيقة حتى منتصف الليل.

(٢)

توطئة إلى مذكرات عام ١٨٧٢

عندما كنت أفكر فى وضعنا المالى السيئ، كنت أحلم بطريقة لعلى أستطيع بها أن أساهم فى زيادة دخلنا. فكرت فى ممارسة الاختزال من جديد وبخاصة أننى حققت فيه نجاحًا ملحوظًا فى السنوات الأخيرة. طلبت من أقاربى ومعارفى أن يجدوا لى عملاً

(*) نيكولاى بتروڤيتش سيميونوف (١٨٢٣ ــ ؟): كاتب، رجل دولة، أخ ب. ب. سيميونوف تيان ــ شانسكى.

فى أى من المؤسسات. وقد وجد أستاذى فى الاختزال باقل أولخين عملاً عن طريق أحد معارفه فى مؤتمر اقتصاديات الغابات، وقد اقترح علىّ محرر مجلة الغابة، نيكولاى شافرانوف(*)، أن أسافر إلى موسكو فى الفترة من الثالث إلى الثالث عشر من أغسطس. لسوء الحظ كنت أشعر آنذاك بالإرهاق من جرَّاء الأحداث التى مرت بى ذلك الصيف فرفضت هذا العمل.

وفى شتاء عام ١٨٧٢ أخبرنى أخى، الذى انتقل مع زوجته الشابة إلى بطرسبورج، أن مؤتمرًا لا أذكر فى أى مجال، سيعقد قريبًا فى واحدة من مدن المنطقة الغربية(**) وأنهم يبحثون عن مختزل للعمل فيه. على الفور كتبت إلى المسؤول عن اختيار المختزلين، وقـد قمت بذلك بموافقة فيودور ميخايلوفيتش الذى على الرغم من تأكيده أننى أرعى الأطفال وأقوم على تصريف شؤون المنزل، بل وأساعده فوق هذا كله فى عمله، فإننى بذلك أؤدى كل ما فى وسعى تجاه الأسرة، فإنه لم يشأ أن يقف فى سبيلى عندما رأى رغبتى المتحمسة فى أن أكسب بعض النقود بجهدى، وقد اعترف لى بعد ذلك أنه كان يأمل أن يأتى الرفض من جانب رئيس المؤتمر، الذى رد بالإيجاب وأبلغنى بالشروط. لن أقول إن المكافأة كانت مغرية: رغم أن الجزء الأكبر منها سيذهب على السفر والإقامة فى الفندق. المهم أن النقود، بالمناسبة، لم تكن هى الهدف، بقدر ما كان البدء فى العمل، فلو أننى أنجزت عملى بشكل جيد، فلعلى أستطيع أن أحصل على توصية من رئيس المؤتمر للحصول على أعمال أخرى تدر دخلاً أكبر.

لم تكن هناك أية أسباب جادة حتى يعترض فيودور ميخايلوفيتش على سفرى، فقد بذلت أمى وعدًا بالحضور إلينا إبان غيابى لرعاية الأطفال والقيام بأعمال البيت. وفى الوقت نفسه لم يكن لدى زوجى فى هذا الوقت أى عمل لى : كان يعمل آنذاك فى تنقيح

(*) نيكولاى سميونوفيتش شافرانوف (١٨٤٤ ــ ١٩٠٣) : عالم غابات، أستاذ بمعهد بطرسبورج للغابات. انظر الخطاب المؤرخ ١٧ يوليو ١٨٧٢ (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

(**) المنطقة الغربية : جزء من الإمبراطورية الروسية فى القرنين ١٩ ــ ٢٠ تشمل محافظات بيلاروسيا وليتوانيا وأوكرانيا (المترجم).

خطة رواية «الشياطين». على أى حال، لم يلق سفرى أى ترحيب إطلاقًا من جانبه، فراح يختلق كل الأسباب حتى لا يسمح لى بالسفر. سألنى كيف، وأنا المرأة الشابة، أذهب وحدى إلى مدينة بولندية، لا معارف لى فيها، وكيف سأرتب أمورى وهلمجرا. بعد أن استمعت إلى هذه الاعتراضات تذكر أخى أن أحد رفاقه السابقين مسافر إلى المنطقة الغربية وهو على معرفة جيدة بها، ودعانى وزوجى لزيارته وتناول الشاى فى بيته للتعارف ومعرفة كل المعلومات التى يريدها منه.

ذهبنا لبيت أخى فى الموعد المحدد. كان فيودور ميخايلوڤيتش يتمتع بصحة جيدة وقد مضى عليه وقت طويل لم تداهمه النوبة وكان مزاجه رائعًا. تحدثنا بهدوء مع أخى وزوجته ونحن فى انتظار صديقه ولم أكن قد رأيته من قبل، ولكننى سمعت عنه كثيرًا من أخى. كان شخصًا طيبًا من القوقاز، لا يتمتع بذكاء خاص، كانوا يسمونه «الآسيوى الفظ» بسبب سرعة غضبه وتصرفه على نحو مفاجئ. كان هذا اللقب يثير حنقه، وحتى يثبت أنه «أوروبى» كان يعلن عن إعجابه بشوبان(*) فى الموسيقى وريبين(**) فى التصوير ودستويڤسكى فى الأدب. وقد استقبل أخى ضيوفه فى الصالة. وعندما علم صديقه أنه سوف يتعرف على فيودور ميخايلوڤيتش وربما يقدم له خدمة أيضًا، شعر بسعادة بالغة، على الرغم من أنه كان يبدو وجلاً. وما إن دخل إلى غرفة الاستقبال ورأى معبوده حتى شعر بالارتباك حتى أنه لم ينبس ببنت شفة، انحنى مسلِّمًا على زوجى وعلى ربة البيت. كان يبلغ من العمر عشرين عامًا، طويل القامة، أكرت الشعر، عيناه واسعتان وشفاهه شديدة الحمرة.

عندما رأى أخى ارتباك رفيقه سارع بتقديمه إلىّ. أمسك «الآسيوى» بيدى وقبَّلها. هزها عدة مرات بشدة ثم قال بلسان ألثغ:

ـ كم أنا مسرور لذهابك إلى المؤتمر وأن باستطاعتى أن أكون مفيدًا لك!

(*) فريدريك شوبان (١٨١٠ ــ ١٨٤٩) موسيقار بولندى وعازف بيانو (المترجم).

(**) إيليا يفيموڤيتش ريبين (١٨٤٤ ــ ١٩٣٠): رسام روسى شهير. من أهم أعماله «نوتية نهر الڤولجا» و«إيڤان الرهيب وابنه» (المترجم).

أضحكنى حماسه البالغ، لكن هذا الحماس أغضب زوجى. وعلى الرغم من أن فيودور ميخايلوڤيتش كان يقبّل أيدى السيدات، وإن حدث ذلك نادرًا، ولم يكن يعطى لهذا الأمر أى أهمية، فقد كان دائمًا ما يشعر بالغضب إذا ما قبَّل أحدهم يدى. عندما لاحظ أخى أن مزاج فيودور ميخايلوڤيتش قد تغير (وكان مزاج زوجى ينقلب من حال إلى نقيضه على نحو حاد) سارع بالدخول فى الحديث عن الجانب العملى للمؤتمر. مرة أخرى اضطرب «الآسيوى» بشدة وراح يجيب عن الأسئلة وهو ينظر إلىّ معظم الوقت دون أن يجرؤ على النظر إلى فيودور ميخايلوڤيتش. أذكر جيدًا إجاباته المهذبة وإن اتسمت بالسخافة.

- ألا تعتقد أن الوصول إلى الإسكندرية صعب؟ ـــ سألته، وهل هناك تغيير كثير للقطارات؟

- لا تقلقى، أنّا جريجوريڤنا، سوف أرافقك بنفسى، وإذا شئت أستطيع أن أسافر معك فى نفس عربة القطار.

- هل يوجد فى الإسكندرية فندق محترم بحيث يمكن لامرأة شابة الإقامة به ؟ سأله زوجى.

نظر الشاب إليه بفرح وصاح بحماس:

- إذا ارادت أنّا جريجوريڤنا، فباستطاعتى أن أقيم معها فى نفس الفندق، رغم أننى كنت أنوى الإقامة عند أحد رفاقى.

آنيا، هل سمعتى؟ الشاب موافق على الإقامة معك؟ يا للروعة!!! ـــ صاح فيودور ميخايلوڤيتش بصوت عالٍ وضرب المائدة بكل قوته. سقط كوب الشاى على الأرض وتهشم. هرعت ربة البيت لَتمسك بقوة المصباح المشتعل الذى راح يهتز من قوة الضربة، بينما انتفض فيودور ميخايلوڤيتش من مكانه واندفع صوب المدخل. ألقى معطفه على كتفيه وهرب.

ارتديت ملابسى على عجل وانطلقت فى أثره: عندما خرجت إلى الشارع شاهدت زوجى يسير مسرعًا متخذًا الاتجاه المعاكس لمنزلنا. هرولت خلفه حتى تمكنت من

اللحاق به بعد خمس دقائق. كنت ألتقط أنفاسى بصعوبة، ولكننى لم أفلح فى إيقافه على الرغم من توسلاتى له أن يتوقف، تخطيته مسرعة وأمسكت بيدىّ بياقتَىّ معطفه الذى كان مطروحًا على كتفيه:

فيديا، هل جننت! إلى أين تسرع؟ هذا ليس طريقنا ! قف، أدخل ذراعيك فى المعطف، لا يصح ذلك سوف تصاب بالبرد!

كان لمظهرى المضطرب أثره على زوجى فتوقف وارتدى معطفه. أغلقت الأزرار وتأبَّط ذراعه وأخذته فى الاتجاه المعاكس. التزم فيودور ميخايلوڤيتش الصمت وقد بدت عليه الحيرة والارتباك.

ما الأمر، لعلها الغيرة مرة أخرى. أليس كذلك؟ كنت أنا أيضًا مرتبكة وأنا أتحدث، هل تظن أننى نجحت خلال بضع دقائق أن أقع فى هوى «الآسيوى الفظ»، وهو أيضًا أغرم بى، وأننا عقدنا عزمنا على الهروب معًا. أهذه هى الحقيقة؟ ألا تشعر بالخجل؟ هل صحيح أنك لا تدرك أنك تسىء إلىّ بغيرتك هذه؟ إننا متزوجان منذ خمس سنوات وأنت تعلم كم أحبك، كم أقدر سعادتنا الزوجية، ومع ذلك فأنت حريص على الغيرة من أول من تقابله، وتضع نفسك بذلك وتضعنى فى موقف مضحك!

اعتذر زوجى وراح يبرر موقفه ووعدنى أنه لن يستسلم لغيرته بعد ذلك. لم أستطع أن أظل طويلاً غاضبة: كنت أعلم أنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه عندما تجتاحه سورة الغيرة. رحت أضحك وأنا أتذكر هذا الشاب المتحمس ثم غضب فيودور ميخايلوڤيتش المفاجئ وفراره. عندما رأى زوجى التحول فى مزاجى أخذ هو الآخر يسخر من نفسه متسائلاً كم من الأشياء حطمها فى بيت أخى، وكيف حطم بالمناسبة هذا المتحمس المعجب به.

قضينا مساءً رائعًا. قطعنا المسافة المتبقية إلى المنزل سيرًا على الأقدام. كان الطريق طويلاً استغرق منا ساعة أو يزيد. ألفينا أخى فى المنزل، فبعد أن رأى فرار زوجى استبد به الخوف، هرول إلينا وكان فى شدة القلق عندما لم يجدنا فى المنزل. ساعة بأكملها قضاها هنا مع هواجسه المرعبة، وقد اندهش بشدة عندما رآنا فى حالة طيبة. أبقيناه ليحتسى

معنا الشاى ورحنا جميعا فى الضحك ونحن نتذكر ما حدث، وعندما سألناه كيف شرح للقوقازى هروبنا المفاجئ أجاب:

عندما سألنى ما الذى يحدث هنا، قلت له: إذا لم تفهم ما حدث فلتذهب إلى الجحيم.

أدركت بعد الذى حدث أن علىّ أن أرفض السفر. كنت أستطيع بالطبع أن أقنع زوجى بالسفر، ولكننى كنت أعلم أنه سيظل قلقًا، مضطربًا. وقد لا يتمالك نفسه فيتبعنى إلى الإسكندرية، وقد تحدث فضيحة. وعلى أية حال كنا بذلك سننفق النقود القليلة التى سنحصل عليها عبثًا.

وهكذا انتهت محاولتى لكسب بعض المال بالعمل بالاختزال.

(٣)

العام ١٨٧٢. مرض فيديوشا عشية عيد الميلاد

وقعت لأسرتنا هذه الحادثة العجيبة عشية عيد ميلاد العام ١٨٧٢ كان فيودور ميخايلوفيتش، وهو الأب البالغ الحنـــان، يفكـــر باستمرار فى كيفية إدخال السرور على أطفاله. كان مهتمًا بشكل خاص بإعداد شجرة عيد الميلاد: ألح علىّ بضرورة شراء شجرة كبيرة كثيرة الفروع، وراح يزينها بنفسه (كانت الزينة لدينا تنتقل من عام إلى آخر)، ووقف على كرسى وراح يُثبِّت الشموع ثم وضع «النجمة» فى أعلاها.

كانت شجرة عيد الميلاد عام ١٨٧٢ شجرة شديدة التميز: فقد حضر إعدادها ابنى الأكبر فيديا «وهو مدرك لما يدور حوله». أوقدنا زينة الشجرة مبكرًا. اصطحب فيودور ميخايلوفيتش طفليه بشكل احتفالى إلى غرفة الاستقبال. كان الطفلان منبهرين، بطبيعة الحال، بالأضواء وبالزينة وبالألعاب المحيطة بالشجرة. وزع أبوهم عليهما الهدايا، الابنة كان من نصيبها عروسة رائعة وطاقم شاى من اللعب، بينما حصل الابن على مزمار

كبير، سرعان ما راح ينفخ فيه، وطبلة. لكن أكثر ما ترك أثرًا كبيرًا على الطفلين كان الحصانين وقد أخرجهما من صندوق ورقى كبيرًا. حصانان لهما عرفان وذيلان رائعان. وقد ثُبتت إليهما زحافتان كبيرتان. ألقى الطفلان ألعابهما وجلسا فى الزحافتين، بينما راح فيديا الصغير يمسك بالأعنَّة ويهزها وهو يستحث الحصانين. سرعان ما أحست الفتاة بالملل تجاه الزحافة لتعود إلى لعبها. أما الصبى فقد بلغ ذروة التأثر فراح يصيح بالحصانين، يضربهما بالعنان، لعله تذكر ما كان يفعله الفلاحون الذين كانوا يمرون بجوار بيتنا الصيفى فى ستاريا روسا. لم نفلح أن نبعده عن غرفة الاستقبال ونضعه فى فراشه إلا عن طريق الخداع.

جلسنا طويلاً أنا و فيودور ميخايلوڤيتش ورحنا نتذكر تفاصيل عيدنا الصغير، وكان فيودور ميخايلوڤيتش سعيدًا ربما أكثر من أطفاله. أخلدت إلى النوم فى الثانية عشر، بينما تباهى زوجى بشرائه كتابًا جديدًا اليوم من ڤولف(*) وكان يعتزم قراءته ليلاً. لكن هذا لم يحدث، ففى حوالى الساعة الواحدة، سمع زوجى بكاءً حادًا فى غرفة الأطفال، وعلى الفور أسرع إلى هناك ليجد طفلنا وقد احمر وجهه من البكاء وقد أفلت من بين يدى العجوز بروخوروڤنا وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة (كان عمره آنذاك أقل من عام ونصف، ولم يكن قد أجاد الكلام بعد) استيقظت أنا أيضًا على صراخه وهرعت إلى غرفته. عندما أحس فيودور ميخايلوڤيتش أن صراخ فيديا يمكن أن يوقظ أخته النائمة معه فى نفس الغرفة، قرر أن يحمله إلى غرفته. وعندما مررنا بغرفة الاستقبال شاهد فيديا الزحافة على ضوء الشموع، وهنا صمت للحظة ثم مدَّ جسده بكل ما يملك من قوة لأسفل ناحية الزحافة، حتى إن فيودور ميخايلوڤيتش لم يستطع الإمساك به فرأى أن من الضرورى أن يجلسه عليها. وعلى الرغم من أن دموعه استمرت فى الانهمار فوق خديه، فإنه بدأ فى الابتسام ممسكًا بالعنان وراح من جديد يهزه وهو يتلمظ وكأنه يقود حصانًا حقيقيًا. عندما بدا أن الطفل قد هدأ تمامًا، أراد فيودور ميخايلوڤيتش أن يحمله

(*) ماڤريكى أوسيبوڤيتش ڤولف (١٨٢٦ ــ ١٨٨٣): ناشر وبائع كتب وصاحب مطبعة فى بطرسبورج.

إلى حجرته، لكن فيديا انفجر فى بكاء مرتفع وظل على بكائه حتى أجلسه أبوه مرة أخرى فى الزحافة. هنا أدركت أنا وفيودور ميخايلوفيتش أن الرعب الذى انتابنا فى البداية خوفًا من أن يكون الطفل قد أصيب بمرض ما، مما جعلنا نقرر استدعاء طبيب، على الرغم من تأخر الوقت كان سببه أن خيال الطفل بداهة كان نشطًا مشغولاً بشجرة عيد الميلاد وباللُّعب، وبهذه المتعة التى عاشها وهو يجلس فى الزحافة. وها هو يستيقظ ليلاً ويتذكر الأحصنة فيرغب فى الحصول على لعبته، ولمّا لم يجد من يلبى له هذه الرغبة، رفع عقيرته بالصياح حتى يجد من يحقق له غايته. ما الذى كان علينا أن نفعله: أخيرًا. وكما يقال، «انتعش» الطفل ورفض العودة إلى النوم. وحتى لا يظل ثلاثتنا مستيقظين قررنا أن نذهب أنا والمربية للنوم، بينما يجلس فيودور ميخايلوفيتش مع الصبى، حتى إذا غلبه النعاس حمله إلى فراشه. وهو ما حدث. وفى اليوم التالى اشتكى لى زوجى بمرح ما حدث له البارحة:

أوه، كم عذبنى فيديا طوال الليل! لقد بقيت ساعتين أو ثلاثًا لم أخفض بصرى عنه، كنت خائفًا أن يقع خارج الزحافة فيصاب بمكروه. جاءت إليه المربية مرتين تشير له «باى باى» وهو يهز لها يده ثم يعود للبكاء مرة أخرى. وهكذا جلسنا معًا حوالى خمس ساعات، حتى بدا عليه التعب وراح يميل جانبًا. أمسكته فرأيت أنه قد غط فى نوم عميق، عندئذ حملته إلى غرفته. وهكذا لم يتسن لى أن أبدأ قراءة الكتاب الذى اشتريته، ابتسم فيودور ميخايلوفيتش وقد بدا عليه الرضا التام أن هذا الحادث الذى أخافنا فى البداية قد انتهى بسلام.

(٤)

العام ١٨٧٣ ـــ طبع رواية «الشياطين» وتحريرها. التعارف

بعد أن أنهى فيودور ميخايلوفيتش رواية «الشياطين» ظل لبعض الوقت مترددًا بشدة فيما عليه أن يفعله الآن. كان العمل فى رواية «الشياطين» قد استنفد كل جهده وتركه

مرهقًا إلى حد أنه كان يشعر باستحالة قيامه فى الوقت الحاضر بكتابة رواية جديدة. كان إنجاز الفكرة التى تولدت لديه فى الخارج، وهى إصدار «مذكرة الكاتب» فى صورة مجلة شهرية، أمرًا تكتنفه المصاعب[١٤٨] كان الإنفاق على طبع المجلة وعلى الأسرة (ناهيك عن سداد الديون) يتطلب موارد كبيرة للغاية، وبالنسبة إلينا فقد طرح علينا سؤالاً ملغزًا ــ هل ستلقى هذه المجلة نجاحًا كبيرًا، باعتبارها حدثًا لا مثيل له حتى الآن فى الأدب الروسى، سواء من ناحية الشكل أو المضمون، وفى حالة فشل «المذكرة» فسوف نجد أنفسنا فى وضع لا نحسد عليه.

كان فيودور ميخايلوفيتش فى حالة من الحيرة الشديدة، ولم أكن أعرف أى قرار سيتخذ، لو لم يقترح عليه الأمير ڤلاديمير بتروڤيتش ميشيرسكى فى هذا الوقت تحديدًا مهمة محرر مجلة «المواطن» الأسبوعية[١٤٩] وكانت هذه المجلة قد تأسست منذ عام فقط وصدرت بتحرير ج.ق. جرادوفسكى(*) وقد تجمعت حول هيئة تحرير هذه المجلة الجديدة مجموعة من الشخصيات المرموقة ذات الاتجاه الفكرى المشترك، من بينهم: ق.ب. بوبيدونوستسيف، أ. ن. مايكوف ت.إ. فيليبوف، ن. ن. ستراخوف وأ. أ. بوريتسكى(**)[١٥٠]، ى.أ. بيلوف(***)[١٥١]، وكانوا جميعهم متعاطفين مع فيودور ميخايلوڤيتش، الذى استمتع كثيرًا بالعمل معهم. كذلك لم تكن إمكانية مشاركة القراء بصورة أكبر فى الموضوعات التى تتناول قضيتى الآمال والشكوك، التى نضجت فى عقله، أقل متعة وجاذبية من العمل مع هؤلاء الرفاق. وعلى صفحات مجلة «المواطن» استطاع فيودور ميخايلوڤيتش أن يحقق أيضًا فكرة «مذكرة الكاتب» وإن لم تظهر بالشكل الذى قدمه فيها بعد.

(*) جريجورى قسطنطينوڤيتش جرادوڤسكى (١٨٤٢ ــ ١٩١٥): كاتب ومؤسس صحيفة مجلة «المواطن»

(**) ألكسندر أوستينوڤيتش بوريتسكى (١٨١٩ ــ١٨٧٩): كاتب ومحرر لمجلة «إجازة الأحد» عامى ١٨٦٤ ــ ١٨٦٥. المحرر الرسمى لمجلة «العصر».

(***) يفجينى ألكسندروڤيتش بيلوف (١٨٣٩ ــ ١٩٠٩): شاعر وصحفى ومترجم، عمل بمجلة «المواطن» التقى فى عامى ١٨٧٣ ــ ١٨٧٤ بدستويفسكى.

كانت الأمور تسير على ما يرام من الناحية المادية. كان المحرر يتقاضى نظير مسؤولياته ثلاثة آلاف روبل، علاوة على أجره مقابل مقالة من «مذكرة الكاتب»، وفيما بعد مقابل المقالات «السياسية». وقد بلغ إجمالى ما كنا نتقاضاه حوالى خمسة آلاف روبل فى العام. كما كان لحصولنا على مبلغ محدد شهريًا جانبه الإيجابى: فقد أتاح ذلك لفيودور ميخايلوفيتش ألا ينشغل عن مسؤولياته بالاهتمام بالحصول على النفقات اللازمة للحياة والتى كانت تؤثر بشكل مرهق على صحته ومزاجه.

بالإضافة إلى ذلك، لم يُخف فيودور ميخايلوفيتش، عندما وافق على العمل مع الأشخاص المعجبين به لتولى تحرير «المواطن»، أنه يتحمل هذه المسؤولية مؤقتًا باعتبار العمل هنا إجازة من العمل الفنى، وحتى يتسنى له التعرف على نحو أكثر قربًا من الواقع اليومى، وأنه سوف يترك هذا العمل الذى يخالف شخصيته عندما تظهر لديه من جديد الحاجة إلى عمل إبداعى.

يعد مطلع العام ١٨٧٣ ذكرى مشهودة بالنسبة إلى وذلك بفضل ظهور الطبعة الأولى من رواية «الشياطين» التى أصدرناها معًا. وتمثل هذه الطبعة أساسًا لعملنا المشترك أنا و فيودور ميخايلوفيتش، وبعد وفاته استمر عملى فى النشر ثمانية وثلاثين عامًا.

كان أحد آمالنا لإصلاح ظروفنا المالية (وربما كان أهمها) هو إمكانية بيع حق نشر رواية «الأبله» أولاً، ثم رواية «الشياطين» بعد ذلك. كان من العسير علينا أن ندبر هذا الأمر فى أثناء إقامتنا فى الخارج؛ ولم يكن سهلاً حتى بعدما عدنا إلى روسيا وأصبح بمقدورنا أن نتفاوض بأنفسنا مع الناشرين. فقد كان كل من توجهنا إليهم يعرض سعرًا بخسًا: فعلى سبيل المثال، فقد دفع لنا بائع الكتب أ. ف. بازونوف(*) مائة وخمسين روبلاً مقابل حق نشر رواية واحدة هى «الزوج الأبدى» (٢٠٠٠ نسخة)، بينما عرضوا خمسمائة روبـــــل فقط مقابل نشر رواية «الشياطين»، ناهيك عن أنهم اشترطوا الدفع على دفعات على مدى عامين.

(*) ألكسندر فيدوروفيتش بازونوف (١٨٢٥ ــ ١٨٩٩) ناشر وبائع كتب، صاحب عدد من المكتبات فى موسكو وبطرسبورج؛ كان يصدر أعمال دستويفسكى.

كان فيودور ميخايلوفيتش يحلم فى شبابه أن يُصدر أعماله بنفسه، وقد كتب عن ذلك خطابًا لأخيه (١٥٢)، كما حدثنى عن ذلك إبان إقامتنا فى الخارج. وقد جذبت هذه الفكرة اهتمامى أنا أيضًا، وقد حاولت أن أتعرف شيئًا فشيئًا على جميع شروط نشر الكتب وتوزيعها. وذات يوم، كنت أوصى بطبع بطاقات تعارف باسم زوجى، وتحدثت مع صاحب المطبعة وسألته عن شروط إصدار الكتب. فقال لى إن أغلب الكتب يتم دفع تكاليف طبعها نقدًا. إما إذا كان الكاتب ذائع الصيت، تلقى كتبه رواجًا عند بيعها، فإن أى مطبعة تعطيه عن طيب خاطر قرضًا لمدة نصف عام، فإذا لم يتمكن خلال هذه المدة من سداد النقود، فإنها تلزمه بدفع نسبة محددة من قيمة هذا القرض. وبنفس هذه الشروط يمكن للكاتب الحصول على الورق اللازم للطباعة. وقد أخبرنى أيضًا عن التكلفة الفعلية للطبعة التى اقترحتها عليه، أى تكلفة الورق والطباعة والتجليد. وبناء على حساباته فإن تكلفة طبع رواية «الشياطين» فى حدود ثلاثة آلاف وخمسمائة نسخة، يمكن أن تصل إلى حوالى أربعة آلاف روبل. وقد نصحنى صاحب المطبعة أن تباع نسخة الرواية (فى ثلاثة أجزاء) بعد طباعتها بخط واضح وعلى ورق مصقول بما لا يقل عن ثلاثة روبلات ونصف الروبل. ويتم خصم حوالى ثلاثين بالمائة من إجمالى ثمن البيع البالغة اثنى عشر ألفًا ومائتى وخمسين روبلاً لبائعى الكتب، آخذين فى الاعتبار فى هذه الحالة أيضًا بعض النفقات الأخرى. فإذا تم بيع الرواية بنجاح فإننا نحصل على صافى ربح مجز.

فى ذلك الزمن لم يكن هناك أحد من الكُتاب يتولى طبع مؤلفاته بنفسه، فإذا ما ظهر من لديه الشجاعة على ذلك، فعليه أن يتحمل الخسارة ثمنًا لهذه الشجاعة. كان هناك عدد من دور النشر : بازونوف، ڤولوف، إيساكوف(*) وغيرها، تشترى حق نشر الكتب وطبعها وتوزيعها فى كل أنحاء روسيا. أما الكتب التى تنشرها الهيئات العلمية أو الأفراد فيتولى باعة الكتب تخزينها أو بيعها مقابل نسبة تبلغ خمسين بالمائة بحجة أنهم يقومون

(*) ياكوف ألكسييفيتش إيساكوف (١٨١١ ــ ١٨٨١): ناشر فى بطرسبورج وبائع كتب.

بتخزينها والإعلان عنها (وهو ما كانوا يفعلونه بتقتير بالغ) وفى كثير من الأحيان يكون الجزء الذى يرد منها للناشر فى حالة سيئة.

لمّا كنت راغبة فى إصدار رواية «الشياطين»، فقد حاولت أن أسأل فى محال الكتب عن النسبة التى يحصلون عليها مقابل بيع الكتب، وهناك كنت أحصل على شتى الإجابات: البعض يقول إن العمولة تتوقف على الكتاب، وبعض الباعة يحصلون على من أربعين إلى خمسين بالمائة وأحيانًا أكثر. وذات مرة كنت أشترى لزوجى كتابًا ثمنه ثلاثة روبلات، وعندئذ رحت أختبر البائع فطلبت شراءه مقابل روبلين، بحجة أنهم أنفسهم يحصلون على خمسين بالمائة، وعليه فإن الكتاب لا يكلفهم سوى روبل ونصف. امتعض البائع من اقتراحى وقال إنه لا يحصل إلا على من عشرين إلى خمسة وعشرين بالمائة، وعلى ثلاثين بالمائة من بعض الكتب؛ بشرط أن تكون الكمية المشتراة من هذه الكتب كبيرة. وقد اكتشفت من خلال هذه الاستفسارات، ما هى النسبة التى ينبغى دفعها لبائع الكتب لعدد معين من النسخ.

وعندما أخبرنا عددًا من معارفنا وأصدقائنا برغبتنا فى نشر الرواية، سمعنا العديد من الاعتراضات والنصائح وتحذيرنا من التورط فى مشروع لا نعلم عنه شيئًا، وقد تؤدى قلة خبرتنا فيه إلى هلاكنا، وعندها سنضيف إلى ديوننا القديمة بضعة آلاف جديدة. لكن هذه الاعتراضات لم تفت فى عضدنا وقررنا أن نضع فكرتنا موضع التنفيذ.

حصلنا على ورق الطباعة من شركة فارجونين(*)، وكانت وما تزال تمتلك أفضل مصنع لإنتاج الورق الناعم، أعطيناه لمطبعة زاميسلوفسكى(**) للطباعة، التى انتقلت ملكيتها آنذاك إلى عائلة البارون بانتيلييف(***) مرت نهاية عام ١٨٧٢ وبداية العام

(*) آلكسندر إيفانوفيتش فارجونين (١٨٠٧ـ١٨٨٠): أحد مُلاَّك شركة الإخوة فارجونين الشهيرة بتجارة ورق الطباعة.

(**) الأمير زاميسلوفسكى: صاحب مطبعة فى بطرسبورج. قام فى السبعينيات بطبع أعمال دستويفسكى.

(***) الإخوة بانتيلييف: جريجورى فومين وبيوترفومين (؟ ـ ١٩٠٦): مُلاَّك مطبعة فى بطرسبورج كانت تطبع أعمالاً لدستويفسكى.

التالى وقد كرسنا فيها اهتمامنا بالكتاب: قرأت التصحيحين الأول والثانى، بعدها قام فيودور ميخايلوفيتش بمراجعة النص فى صورته النهائية.

فى الأيام العشرة الأخيرة تقريبًا من شهر يناير تم تجليد الكتاب وأرسل إلى بيتنا جزء منه. كان فيودور ميخايلوفيتش سعيدًا للغاية بمظهر الكتاب، وأنا أيضًا كنت معجبة به. عشية صدور الكتاب أخذه فيودور ميخايلوفيتش ليعرضه على واحد من أشهر بائعى الكتب (كان زبونًا دائمًا عنده) أملاً فى أن يبدى الرجل رغبته فى شراء عدد من النسخ. قلَّب بائع الكتب الكتاب بين يديه وقال:

ـ حسنًا، أرسل إلىَّ مائتى نسخة لأبيعها مقابل عمولة.

ـ وكم تبلغ ؟ ـ سأله زوجى.

ـ لا أقل من خمسين (بالمائة).

لم يجب فيودور ميخايلوفيتش وعاد حزينًا إلى المنزل ليقص على نبأ سوء الحظ الذى صادفه. كنت قلقة أنا أيضًا، أما اقتراح بائع الكتب أن يأخذ مائتى كتاب مقابل هذه العمولة فلم يرقنى إطلاقًا: كنت أعلم أنه حتى لو باع هذه الكتب فإننا لن نحصل على نقودنا منه إلا بعد مرور وقت طويل.

كان الثانى والعشرون من يناير عام ١٨٧٣ يومًا مشهودًا فى حياتنا. فى هذا اليوم ظهر إعلاننا فى صحيفة «جولوس»(*) («الصوت») حول صدور رواية «الشياطين». وفى العاشرة صباحًا وصلنا مندوب من محل كتب بوبوف(**) الواقع بالقرب من شارع الباساچ. خرجت من غرفتى إلى المدخل وسألته عما يريد.

(*) جولوس(«الصوت») (١٨٦٣ ـ ١٨٤٤): صحيفة يومية سياسية أدبية ذات توجه ليبرالى أصدرها فى بطرسبورج أ.أ. كرايفسكى. وقد دأب دستويفسكى على مطالعتها وكان يكتب تعليقات حادة على ما تنشره، وذلك فى مجلتى «الزمن» و «العصر» اللتين أصدرهما مع أخيه ميخائيل (المترجم).

(**) ميخائيل ڤاسيليڤيتش بوبوف (١٨٣٦ ـ ١٩٠٦): تاجر، ناشر، صاحب محل لبيع الكتب فى بطرسبورج. باع رواية «الشياطين» و «مذكرة الكاتب» لدستويفسكى.

ـ لقد ظهر إعلانكم فى الصحيفة ولذلك جئت لأطلب عشر نسخ. أحضرت الكتب وأنا أشعر ببعض القلق وقلت له:

ـ سعر النسخ العشر خمسة وثلاثون روبلاً، عمولتكم عشرون بالمائة، فيكون المطلوب منكم ثمانية وعشرين روبلاً.

ـ أليست قليلة؟ ألا يمكن جعلها ثلاثين بالمائة؟ قال المندوب.

ـ لا

ـ حسنًا، ولو خمسًا وعشرين بالمائة؟

الحقيقة، لايمكن، قلت له ذلك وأنا فى شدة الاضطراب ولو أنه انصرف لكنت قد أضعت بذلك أول مشتر.

ـ إذا لم يكن ممكنًا إذًا إليك النقود. وإذا به يعطينيها.

كنت فى غاية السعادة حتى أننى أعطيته ثلاثين كوبيكًا مقابل الانتقال. لم يمض وقت طويل حتى جاء صبى من أحد محال بيع الكتب فى مدينة أخرى وقد اشترى عشر نسخ أيضًا بعمولة عشرين بالمائة، بعد أن ساومنى هو الآخر. وقد أراد المندوب الذى أرسله محل كتب جلازونوف(*) أن يأخذ خمسًا وعشرين نسخة، إذا تنازلت عن نسبة خمس وعشرين بالمائة؛ ونظرًا رلى حجم الطلب فقد اضطررت للتنازل. وقد حضر عدد آخر من الناس، أخذ كل منهم عشر نسخ وقد لجؤوا جميعهم للمساومة، ولكننى لم أتنازل لأكثر من عشرين بالمائة. وفى حوالى الساعة الثانية عشرة وصل مندوب يرتدى ملابس مهندمة ويعمل لدى بائع كتب من معارف فيودور ميخايلوفيتش وأعلن أنه جاء للحصول على عشرين نسخة مقابل نسبة مئوية. أجبته، وقد امتلأت حماسًا من أثر النجاح الذى أحرزته فى البيع فى الصباح، أننى لا أبيع بالعمولة وإنما نقدًا.

(*) إيفان غيليتش جلازونوف (١٨٢٦ ــ ١٨٨٩): ناشر من بطرسبورج وبائع كتب. شغل منصب عمدة بطرسبورج فى الثمانينيات.

ـ كيف؟ لقد وعدنا فيودور ميخايلوفيتش أن نوفد له شخصًا ليحصل على الكتب مقابل عمولة وقد جئت بناء على ذلك.

أخبرته أن زوجى يصدر الكتب بينما أتولى أنا بيعها، وأن هذا وذاك من بائعى الكتب يدفعون لنا ثمن الكتب نقدًا.

ـ وهل بإمكانى أن أقابل فيودور ميخايلوفيتش «نفسه»، قالها المندوب وهو يعول، بداهة، على تنازل زوجى.

ـ فيودور ميخايلوفيتش يعمل ليلاً، وأنا لا أستطيع إيقاظه قبيل الثانية.

طلب منى المندوب أن أعطيه عشرين نسخة و «سوف ندفع لفيودور ميخايلوفيتش».

وبرغم ذلك ظللت على موقفى المتشدد بعد أن شرحت له أى نسبة نقدمها فى مقابل كمية معلومة، كما أخبرته أن ما تبقى لدينا من النسخ لا يتجاوز خمسمائة نسخة وسوف تباع اليوم وفقًا لحساباتى. وقف المندوب برهة مترددًا ثم عاد أدراجه بخفى حنين، وبعد ساعة جاء من عندهم مندوب آخر يرتدى ملابس أكثر بساطة واشترى خمسين نسخة نقدًا مع خصم ثلاثين بالمائة.

كنت متلهفة بشدة أن أشارك فيودور ميخايلوفيتش سعادتى، ولكن كان علىّ أن أنتظر حتى يخرج من غرفته.

بالمناسبة فقد كان هناك شىء غريب فى شخصية زوجى فعندما يستيقظ من النوم، يبدو وكأنه ما زال تحت تأثير الأحلام والكوابيس الليلية التى تعذبه أحيانًا فى نومه فيظل صامتًا تمامًا ولا يحب أن يتحدث معه أحد فى هذه الفترة. ولهذا اعتدت ألا أزعجه صباحًا (طالما لا توجد هناك أسباب قهرية للحديث)، وإنما أنتظر حتى يحتسى قدحين ساخنين للغاية من القهوة ثم ينتقل إلى حجرة مكتبه. وعندئذ أتبعه إلى هناك لأخبره بكل الأنباء السار منها والمحزن. فى هذا الوقت يكون فيودور ميخايلوفيتش قد وصل

لذروة مزاجه الحسن: فيبدى اهتمامًا بكل شىء، ويسأل عن كل شىء، ينادى الأطفال، يمازحهم ويلاعبهم وهو ما حدث صباح اليوم، أما أنا فجلست فى مكانى المعتاد بالقرب من مكتبه، بعد أن أرسلت بالأطفال إلى غرفتهم. ولما رآنى فيودور ميخايلوڤيتش صامتة نظر إلىَّ مبتسمًا ابتسامة ساخرة وسألنى:

ـ حسنًا. أخبرينى إذن يا آنيتشكا كيف تسير تجارتنا؟

ـ على نحو رائع، أجبته بنفس النبرة.

ـ لعلك نجحت فى بيع نسخة واحدة؟

ـ ليست نسخة واحدة، وإنما مائة وخمسين بعتها.

ـ معقول؟! حسنًا، أهنئك إذن! واصل فيودور ميخايلوڤيتش حديثه ساخرًا، متصورًا أننى أمزح.

ـ فلتعلم أنى أقول الحق، رحت أحاصره، ما قولك، ألا تصدقنى؟

ـ ثم أخرجت من جيبى قائمة سجلت فيها كمية النسخ المبيعة، وإلى جانب القائمة رزمة من الأوراق المالية قيمتها حوالى ثلاثمائة روبل. ولمّا كان فيودور ميخايلوڤيتش يعلم أن ما لدينا من نقود بالمنزل قليل، فإن المبلغ الذى عرضته عليه كان كفيلاً بإقناعه أننى لا أمزح. وبدءًا من الساعة الرابعة بعد الظهر توالى قرع جرس الباب لقد ظهر مشترون جدد، بالإضافة إلى الذين جاؤوا فى صباح نفس اليوم ليحصلوا على احتياطى جديد. كان واضحًا أن الكتاب قد لاقى نجاحًا كبيرًا، وقد شعرت ببهجة نادرًا ما تحدث لى. كنت سعيدة بطبيعة الحال لحصولى على المال، لكن الأهم أننى وجدت لنفسى عملاً شيقًا هو إصدار مؤلفات زوجى العزيز، كما كنت راضية أيضًا أن مشروعنا قد حقَّق هذا القدر من النجاح على عكس تحذيرات مستشارينا الأدبيين.

كان فيودور ميخايلوڤيتش أيضًا راضيًا للغاية وبخاصة عندما أخبرته بما قاله لى أحد المندوبين: «إن الجمهور يسأل عن الرواية منذ زمن بعيد». كان فيودور ميخايلوڤيتش

يقدر دائمًا تعاطف الجمهور تقديرًا رفيعًا، لأن الجمهور وحده هو الذى كان يدعمه باهتمامه وتعاطفه طوال زمن نشاطه الأدبى. وقد لعب النقد الأدبى (باستثناء بيلينسكى ودوبروليوبوف(*) وبورينين(**)) دورًا محدودًا للغاية فى ذلك الوقت إظهار موهبته: فهى إما تجاهلت أعماله، وإما تعاملت معها بعدوانية (١٥٣). والآن وقد مضى على وفاة فيودور ميخايلوڤيتش ما يزيد عن خمس وثلاثين سنة، ما نزال نعيد؛ باستغراب بالغ قراءة هذه الآراء النقدية لأعماله، لنرى إلى أى حد كانت بالغة السطحية، لاتتسم بالعمق، تافهة، تعكس كراهية شديدة للكاتب.

اكتملت سعادتى بزيارة بائع الكتب كوچانتشيكوف(***) لنا، وقد عرض علينا شراء ثلاثمائة نسخة فورًا بكمبيالات تستحق السداد خلال أربعة أشهر. كان عرضًا مغريًا وبخاصة أنه كان سيأخذ هذه الكتب لبيعها فى الأرياف، وبالتالى لن يضايق باعة كتبنا فى المدن. أكثر ما أحبطنى هو أنه سيأخذ الكتب ويعطينا كمبيالة، وهنا جاءنى فيودور ميخايلوڤيتش ليتشاور معى فى هذا الأمر. لم يكن لدىّ آنذاك فكرة عن الكمبيالات التجارية ولذلك اقترحت على زوجى أن يأخذ فى الحديث مع المشترى حتى أذهب إلى صاحب المطبعة، الذى يسكن بالقرب منا. ولحسن الحظ وجدت واحدًا من الإخوة بانتيلييف فأشار علىَّ إلاَّ أضيع هذه الصفقة الجيدة، وأكد لى أنه يمكن خصم كمبيالات كوچانتشيكوف، وأنه موافق أن يأخذها باعتبارها سدادًا لديوننا للمطبعة. عدت بهذه

(*) نيكولاى ألكسندروڤيتش دوبروليوبوف (١٨٣٦ ــ ١٨٦١) ناقد، كاتب فى صحيفة «المعاصر». آخر أعماله مقال «المنسيون» (مجلة المعاصر، ١٨٦١، العدد ٩) مكرسة بالمناسبة لإبداع دستويڤسكى، وهى أكثر الأعمال عمقًا فى تحليل أعمال دستويڤسكى المبكرة: «الفقراء» و«مذلون مهانون». كانت له وجهات نظر فى الفن والواقع تخالف وجهات دستويڤسكى الذى كتب ردًا عليها فى مقاله «السيد ــــــــــ بوف وقضية الفن» (المقصود الناقد روبروليوبوف (المترجم).

(**) فيكتور بتروڤيتش بورينين (١٨٤١ ــ ١٩٢٦): ناقد وشاعر. فى البداية انتقد دستويڤسكى باعتباره من أنصار «نزعة الأرض»، كما انتقد أيضًا الجوانب السلبية فى رواية «الأبله»، لكنه أدهش المؤلف نفسه بنقده العميق لروايتى «الشياطين» و«الإخوة كارامازوف». وقد رأى بورينين أن دستويڤسكى الروائى أفضل بكثير من دستويڤسكى الكاتب الاجتماعى والفيلسوف والأخلاقى (المترجم).

(***) ديمترى يفيموڤيتش كوچانتشيكوف (؟ ــ ١٨٧٧): ناشر من بطرسبورج وبائع كتب.

الأخبار إلى البيت وعلى الفور كتب لنا كوچانتشيكوف (الذى كان يحمل بصحبته دائماً دفتر كمبيالات، باعتباره تاجرًا محنكًا) ثلاث كمبيالات قيمتها سبعمائة وخمسة وثلاثين روبلاً، وأعطاه فيودور ميخايلوڤيتش إيصالاً يتسلم به الكتب من المطبعة.

باختصار، فقد بدأ نشاطنا فى النشر بداية رائعة. وبنهاية العام كنا قد بعنا ثلاثة آلاف نسخة، أما النسخ الخمسمائة المتبقية فقد امتد بيعها إلى ما يقرب من عامين ــ ثلاثة. والنتيجة أنه بحساب عمولات بيع الكتب وتسديد كل المصروفات فقد حصلنا على ربح صاف يزيد على أربعة آلاف روبل، مما هيأ لنا إمكانية سداد بعض من الديون التى أثقلت كاهلنا طويلاً.

لا أظن أنه قد حدثت لنا بعض الخسائر فى المرة الأولى: فقد استغل اثنان أو ثلاثة نصابين نقص خبرتى فى أعمال النشر، لكن هذه الخسارة علمتنا أن نكون أكثر حذرًا وألا نستسلم للعروض البراقة، التى تبدو فى ظاهرها رائعة، ثم يتضح بعد ذلك أنها خاسرة.

كانت تسمية الرواية «بالشياطين» سببًا فى تسميتها بأسماء مختلفة أخرى من جانب القادمين لشرائها وذلك عند طلبها من الفتاة بائعة الكتب. البعض كانوا يسمونها «القوة العدوانية»، والبعض يقول: «أتينا لشراء الأبالسة»، وآخر يقول: «أعطنى عشر نسخ من «الجن». وحتى مربيتنا العجوز اشتكت لى، بعد أن استمعت مرارًا لاسم الرواية، مؤكدة أنه منذ أن جلبنا إلى شقتنا هذه «الروح الخبيثة» (تقصد «الشياطين» فإن ربيبها (ابنى) أصبح أكثر قلقًا نهارًا وينام أسوأ ليلاً.

عندما بدأ فيودور ميخايلوڤيتش عمله محررًا فى مجلة «المواطن»، شغله هذا العمل وما يحيط عملية التحرير من أمور جديدة عليه تمامًا، إلى جانب هذا الكم المتنوع من الشخصيات التى تسنى له الالتقاء بها فى هيئة التحرير. أنا أيضًا كنت مسرورة فى البداية لتغيير مهنة زوجى، مفترضة أن تحرير مجلة أسبوعية لا يمكن أن يشكل صعوبة، خصوصًا وأنه سوف يتيح لفيودور ميخايلوڤيتش أن يستريح بعض الوقت بعد عمل

مضن استمر ثلاث سنوات فى كتابة رواية «الشياطين». ولكننى شيئًا فشيئًا، أدركت أن زوجى، كما أدرك هو أيضًا ذلك، قد ارتكب بقبوله هذا العمل غير الملائم لشخصيته خطأً كبيرًا. كان فيودور ميخايلوڤيتش يمارس مهام التحرير بضمير متقد، فكان يقرأ كل المقالات التى تصل إلى المجلة؛ فضلاً عن تصحيح المقالات المكتوبة دون إتقان وبعضها من تأليف صاحب المجلة نفسه(*) وكان ذلك يستهلك، بطبيعة الحال، وقتًا وجهدًا كبيرين. ما زلت أحتفظ بمسوَّدتين أو ثلاث لأشعار مكتوبة بشكل أخرق ولكنها تشى بموهبة كبيرة، وكيف ظهرت هذه الأشعار فيما بعد، على نحو رائع، بعد أن قام فيودور ميخايلوڤيتش بتصحيحها وتهذيبها.

وإلى جانب القراءة وتصويب مقالات الآخرين، استحوذت على فيودور ميخايلوڤيتش المراسلات التى تجرى مع كتاب المجلة، وقد ظهر معظمها كما ورد نصًا، وفى حالة اختصارها أو تعديلها، كان هؤلاء الكتاب يرسلون إليه خطابات حادة وأحيانًا وقحة. لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش ليقف مكتوف الأيدى تجاه مثل هذه الخطابات فكان يرد عليها بشكل أكثر حدة. وهو ما كان يعود ليندم عليه فى اليوم التالى، ولمّا كان الرد على هذه الخطابات الحادة يتم عادة عن طريقى، ولعلمى بأن غضب زوجى سوف يهدأ فى اليوم التالى وأنه سوف يندم على غضبه، فقد كنت أحتفظ بالخطابات ولا أرسلها على الفور، وفى اليوم التالى، عندما كنت أراه يعض إصبع الندم على رده الحاد، كنت أخبره أن هذا الخطاب لم يرُسل «صدفة»، عندها كان فيودور ميخايلوڤيتش يكتب ردًا وهو فى حالة أكثر هدوءًا، وما زلت أحتفظ فى أرشيفى بأكثر من عشرة خطابات من هذه الخطابات «الغاضبة»، التى كان من الممكن أن تدفع زوجى إلى نزاع مع أناس لم تكن لديه الرغبة إطلاقًا فى الشجار معهم، ولكنه، تحت تأثير الملل أو الإرهاق، لم يكن باستطاعته أن يتمالك نفسه فيعبر عن رأيه دون أن يضع فى اعتباره

(*) خطاب فيودور ميخايلوڤيتش لى والمؤرخ التاسع والعشرين من يوليو ١٨٧٣ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)(١٥٤)

غرور مراسله. كان فيودور ميخايلوڤيتش دائم الامتنان لى على تلك الخطابات التى لم ترسل بالصدفة.

كم مرة اضطر فيها فيودور ميخايلوڤيتش أن يجرى مباحثات شخصية، رغم وجود سكرتير لهيئة التحرير يدعى ڤيكتور فيوفيليڤيتش بوتسيكوڤيتش(*) لكن أغلب العاملين فى المجلة كانوا يرغبون فى الحديث معه، وقد حدث كثير من سوء الفهم. ولمّا كان فيودور ميخايلوڤيتش صادقًا فى حديثه وتصرفاته، يعبر عن رأيه دون مواربة، فقد خلق له ذلك أعداء فى عالم الصحافة!

وبالإضافة إلى الأضرار المادية، فقد تحمل فيودور ميخايلوڤيتش العديد من الأضرار النفسية أيضًا إبان عمله محررًا لمجلة ــ «المواطن»؛ إذ إن الأشخاص الذين لم يكونوا مؤيدين لاتجاه المجلة، أو الذين كانوا كارهين للأمير ميشيرسكى شخصيًا، نقلوا كراهيتهم وأحيانًا حقدهم نحو دستويڤسكى. وقد ظهر له عدد كبير من الأعداء حتى فى مجال الأدب، باعتباره محررًا لهذه المجلة المحافظة[١٥٥]

الغريب أن كثيرًا من هؤلاء استمروا على كراهيته قبل وبعد وفاته، ولم يستطيعوا أن يغفروا له تحريره لمجلة «المواطن». وما تزال آراؤهم الكارهة له تظهر فى الصحف حتى الآن.

فى بداية عمله الجديد ارتكب فيودور ميخايلوڤيتش هفوة. فقد استشهد فى «المواطن» (فى مقالة الأمير ميشيرسكى «نواب من قيرغيزيا فى سان بطرسبورج») بكلمات للإمبراطور كان قد وجهها للنواب[١٥٦]

ووفقًا لقواعد الرقابة المعمول بها آنذاك، كان ممنوعًا نشر خُطب أعضاء الأسرة الإمبراطورية؛ فضلاً عن الإمبراطور ذاته، إلا بعد الحصول على تصريح وزير البلاط

(*) ڤيكتور فيوفيلوڤيتش بوتسيكوڤيتش (١٨٤٣ ــ ١٩٠٩): كاتب. محرر بمجلة المواطن فى الفترة من ١٨٧٤ ــ ١٨٧٩. أصدر فى الفترة من ١٨٧٩ إلى ١٨٨١ وحرر فى برلين مجلة «المواطن الروسى».

الإمبراطورى، وكان زوجى لايدرى شيئًا عن هذا البند من القانون. وقد تم استدعاؤه إلى المحكمة دون محامين. انعقدت المحكمة فى الحادى عشر من يونيو عام ١٨٦٣ فى محكمة إقليم سان بطرسبورج(*) ظهر فيودور ميخايلوڤيتش شخصيًا هناك، وقد اعترف بطبيعة الحال، بخطئه وحكم عليه بغرامة قدرها خمسة وعشرون روبلاً والحبس يومين فى المخفر الرئيسى(١٥٧) كان زوجى قلقًا لعدم معرفته متى عليه أن يقضى العقوبة، وكذلك لأن ذلك عطَّله عن اللحاق بنا فى روسا. وإبان اعتقاله تسنى له أن يتعرف على رئيس محكمة إقليم سان بطرسبورج آنذاك أناتولى فيودورڤيتش كونى(**)، الذى بذل قصارى جهده حتى يتم حبس زوجى فى أصلح مكان ملائم له. ومنذ هذا اليوم نشأت بين كونى وبين زوجى علاقة صداقة وطيدة استمرت حتى وفاته(١٥٨)

كان علينا أن ننتقل إلى شقة أخرى حتى نعيش بالقرب من هيئة تحرير مجلة «المواطن»، فانتقلنا لنسكن فى شارع ليموفسكايا، عند ناصية حارة جوسيف، فى بيت سليفتشانسكى. لم يكن اختيارنا لهذه الشقة موفقًا. كانت الغرف ضيقة وموزعة توزيعًا غير مريح لنا، وحيث إننا انتقلنا فى منتصف فصل الشتاء، فقد اضطررنا أن نستسلم للعديد من الأمور التى لا تبعث على الارتياح. أحد هذه الأمور هو شخصية صاحب البيت المضطربة. كان عجوزًا غريب الأطوار تسببت نزواته لى ولزوجى فى إساءات كبيرة. ورد ذكرها فى خطاب فيودور ميخايلوڤيتش لى المؤرخ التاسع عشر من أغسطس (١٥٩).

فى ربيع عام ١٨٧٣ سافرت مع الأطفال إلى ستاريا روسا، بناء على نصيحة الأطباء، وذلك لاستكمال علاجهم بالمياه المالحة الذى كنا بدأناه فى العام الماضى، والذى كان له عليهم تأثير ملحوظ. لم نقم هذه المرة لدى الأب روميانتسيف، إذ جرى تأجير البيت

(*) تكونت المحكمة من الأعضاء: الأمير ى. م. بورخ، ف. ن. كريستيان، ك. أ. بيلياسوف، النائب العام ج. زيجير (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(**) أناتولى فيودورڤيتش كونى (١٨٤٤ ــ ١٩٢٧): شخصية عامة، رجل قضاء، ناشر وأديب.

لآخرين، وإنما فى بيت العقيد ألكسندر كارلوڤيتش جريبى(*) وكان موجودًا فى الخدمة فى إدارة الإسكان العسكرى منذ زمن أراكتشييف(**)

كان الفراق عن الأسرة أمرًا قاسيًا بالنسبة إلى فيودور ميخايلوڤيتش، وكان يشعر بالوحشة الشديدة، ولذلك جاء إلينا فى ستاريا روسيا أربع مرات خلال فصل الصيف. وقد اضطر أن يتحمل كل المسؤوليات المالية للمجلة فى أثناء غياب الأمير ميشيرسكى، ناهيك عن تحمله العيش فى العاصمة طوال أشهر الصيف الحارة فى بطرسبورج وما يصاحبها من مضايقات.

كان للظروف التى ذكرتها سابقًا أثر بالغ السوء على أعصاب فيودور ميخايلوڤيتش وبخاصة على صحته، وهو ما جعله فى خريف ١٨٧٣ يتذمر من عمله كمحرر ويحلم بأن يعود ليجلس مرة أخرى ليمارس عمله الإبداعى الخالص.

فى عام ١٨٧٣ اختير فيودور ميخايلوڤيتش عضوًا فى جمعية محبى التعليم الدينى، وكذلك عضوًا فى جمعية بطرسبورج الخيرية السلاڤية(١٦٠). وقد بدأ يتردد على اجتماعات ولقاءات هاتين الجمعيتين. اتسعت دائرة معارفنا وأصبح أصدقاء زوجى ومعارفه يترددون علينا أكثر فأكثر. وبالإضافة إلى ستراخوف الذى ظل لعدة سنوات يتناول طعام الغداء معنا كل أحد، وكذلك أبوللون مايكوف، الذى كان كثيرًا ما يزورنا فى هذا الشتاء، بدأ ڤلاديمير سيرجييڤتش سولوڤيوف(***)، وكان ما يزال فى عنفوان الشباب، وقد أنهى تعليمه لتوه، زياراته إلينا(١٦١).

فى البداية كتب خطابًا لفيودور ميخايلوڤيتش، الذى دعاه لزيارتنا. ترك سولوڤيوف آنذاك أثرًا طيبًا على زوجى، وكان كلما ازداد لقاء به وتناول معه شتى الأحاديث، ازداد

(*) أ. ك. جريبى (١٨٠٦ ــ ١٨٧٦): صاحب البيت الذى عاش فيه دستويڤسكى فى ستاريا روسا.

(**) ألكسى أندرويڤيتش أراكتشيف (١٨٦٩ ــ ١٨٣٤): وزير مؤقت فى عهد القيصر پاڤل الأول، ووزير حربية فى الفترة من ١٨٠٨ إلى ١٨١٠ فى عهد القيصر الإسكندر الأول.

(***) ڤلاديمير سيرجييڤتش سولوڤيوف (١٨٥٣ ــ ١٩٠٠): فيلسوف وشاعر وكاتب اجتماعى، تعرف عليه دستويڤسكى فى مطلع عام ١٨٧٣

حبًا وتقديرًا لعقله وتعليمه الرفيع. وذات مرة أخبره زوجى عن السبب وراء مودته الشديدة له.

ـــ إنك تذكِّرنى بشدة بشخص ما ـــ قال زوجى له، يُدعى شيدلوفسكى(*)، كان له أثر عظيم علىّ فى شبابى[١٦٢]، إنك تشبهه شبهًا كبيرًا شكلًا وموضوعًا، حتى يخيل لى أن روحه قد انتقلت لتستقر بداخلك.

ـــ وهل مات منذ زمن بعيد؟ سأله سولوڤيوف.

ـــ لا، منذ أربع سنوات فقط.

ـــ وهل كنت تظن أننى على مدى عشرين عامًا قبل وفاته كنت أعيش بلا روح؟ سأله ڤلاديمير سيرجييڤيتش وانفجر فى الضحك. كان فى معظم الأحوال مرحًا. تنتقل إليه سريعًا عدوى الضحك. وأحيانًا ما تقع له أحداث طريفة بسبب ما ينتابه من شرود. على سبيل المثال: كان ڤلاديمير سيرجييڤيتش يعلم أن زوجى قد تجاوز الخمسين من العمر، من ثم اعتبر أننى، زوجته، لابد وأن أكون فى نفس العمر تقريبًا. وها هو ذات مرة ونحن نتحدث عن رواية بيسميسكى(**) «الأربعينيون»، يتوجه إلينا بالحديث قائلاً:

ـــ وأنتما، باعتباركما من الأربعينيين، قد ترون أن...... وهلمجرا.

وعندما نطق بهذه الكلمات ضحك فيودور ميخايلوڤيتش وقال لى مشاكسًا:

ـــ هل تسمعين يا آنيا. ڤلاديمير سيرجييڤيتش يعدك من الأربعينيات!

ـــ الرجل لم يخطئ ـــ أجبته ـــ فقد ولدت فى السادس والأربعين وثمانمائة وألف.

(*) إيڤان نيكولايڤيتش شيدلوفسكى (١٨١٦ ـــ ١٨٧٢): شاعر، صديق شباب دستويڤسكى. تعرف عليه الأخوان دستويڤسكى عام ١٨٧٣ عندما وصلا للمرة الأولى للدراسة فى معهد الهندسة ببطرسبورج.

(**) ألكسى فيوفيلاكتوفيتش بيسميسكى (١٨٢١ ـــ ١٨٨١): كاتب، مؤلف روايات ـــ «ألف نفس»، «البحر الهائج»، «الماسونيون» وغيرها.

شعر سولوفيوف بالخجل الشديد للخطأ الذى ارتكبه: وهنا فقط، للمرة الأولى ينظر إلىَّ ليتعرف على الفارق الكبير فى العمر بينى وبين زوجى. وقد ذكر فيودور ميخايلوڤيتش فى حديثه عن وجه فلاديمير سولوڤيوف أنه يذكِّره بلوحة من لوحات أنيبال كاراتشى(*) المحببة إليه واسمها «رأس المسيح الشاب».

تعود معرفة فيودور ميخايلوڤيتش بيوليا دنيسوڤنا زاسيتسكايا(**) ابنة الفدائى دنيس داڤيدوف(***) إلى عام ١٨٧٣. وكانت قد أسست لتوها أول ملجأ فى بطرسبورج (يتبع السرية الثانية فى فوج إسماعيلوفسكى) وقد دعت فيودور ميخايلوڤيتش عن طريق سكرتير تحرير مجلة «المواطن» فى يوم محدد لمشاهدة الدار التى بنتها للمشردين. كانت يوليا زاسيتسكايا من أتباع الطائفة الريدستوكية(****)، وقد حضر فيودور ميخايلوڤيتش عدة مرات المناقشات الدينية لريدستوك (١٦٣) وغيرهم من المبشرين لهذا المذهب.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يقدر فكر وطيبة ى. د. زاسيتسكايا الشديدة تقديرًا رفيعًا، كان يزورها أحيانًا ويراسلها أحيانًا أخرى(١٦٤).

وقد زارتنى هى أيضًا وتعاملت معها وكانت سيدة غاية فى الطيبة والرقة، شاركتنى أحزانى عندما توفى زوجى.

فى عام ١٨٧٣ كنا نزور آل كاشبيريف (*****): وكان ڤاسيلى كاشيبيريف، رأس

(*) كاراتشى Carraccei: عائلة فنية إيطالية من مدرسة بولونيا تمثل الاتجاه الأكاديمى لود وفيكو (١٥٥٥ ــ ١٦١٩) والأخوان أجوستينو (١٥٥٧ ــ ١٦٠٢) وأنيبالى (١٥٦٠ ــ ١٦٠٩) أسسوا فى بولونيا «أكاديمية الذين ساروا على الطريق الصحيح» (حوالى ١٥٨٥) جمعوا بشكل توفيقى بين أساليب أساتذة عصر النهضة. أشهرهم أنيبالى الذى رسم صورًا شخصية واقعية ومناظر طبيعية وجداريات قصر فارنيزى بروما (١٥٩٧ ــ ١٦٠٤) (المترجم).

(**) يوليا رثيسوڤنا زاسيتسكايا (داڤيدوفا قبل الزوج) (؟ ــ ١٨٨٢) : كاتبة ومترجمة.

(***) دنيس ڤاسيليڤيتش داڤيدوف (١٧٨٤ ــ ١٨٣٩) : شاعر وكاتب حربى.

(****) الريدستوكية اسم طائفة ظهرت فى روسيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، إنجيلية مسيحية على اسم اللورد الإنجليزى ريدستوك الذى بشر بتعاليمه فى بطرسبورج (المترجم).

(*****) ڤاسيلى ڤلاديميروڤيتش كاشبيريف (١٨٣٦ ــ ١٨٧٥): أديب، ناشر مجلة «الفجر»(زاريا).

العائلة، يصدر مجلة «الفجر»، بينما كانت زوجته صوفيا سيرجييڤنا(*) تصدر وتحرر مجلة أطفال تسمى «أمسيات عائلية». كان الزوجان يحملان لنا مشاعر طيبة للغاية، وكان فيودور ميخايلوڤيتش يحب زيارتهم. فى عام ١٨٧٣ أقام الزوجان أمسية شيقة شارك فيها الكاتب الشهير ألكسى بيسيمسكى، قرأ فيها روايته «البورجوازيون الصغار» التى لم تكن قد نشرت بعد. لم يترك بيسيمسكى انطباعًا قويًا لدىّ : كان يبدو لى رجلاً سمينًا أخرق، لكنه قرأ روايته بشكل رائع استطاع بمهارة أن يميز خلالها أنماط أبطالها.

وفى عام ١٨٧٣ أيضًا جدد فيودور ميخايلوڤيتش صداقته القديمة بعائلة شتاكينشنايدر(**) والتى كانت يلينا أندرييڤنا(***) بمثابة القلب النابض لها، وهى ابنة المعمارى الشهير شتاكينشنايدر(١٦٥) كانت امرأة ذكية ومثقفة وكانت تجمع فى بيتها كل أحد جمعًا من الأدباء والفنانين. كانت تعامل فيودور ميخايلوڤيتش برقة وطيبة بالغتين. وقد بادلناها نفس المشاعر. بالمناسبة كنت من النادر فى هذه السنوات أن أذهب إلى المناسبات الاجتماعية، إذ كان أطفالى ما يزالون صغارًا وكان من الخطر تركهم فى رعاية المربية.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يشعر بالأسى الشديد بسبب قسوة الظروف التى أعيشها فى المنزل، وفى شتاء عام ١٨٧٣ أصر على أن أنتهز الفرصة المتاحة لأحصل على اشتراك لمشاهدة الأوبرا الإيطالية التى كان يغنى فيها مغنون متميزون مثل باتى(****)

(*) صوفيا سيرجييڤنا كاشبيريڤا : زوجة ف. ف. كاشبيريف. محررة وناشرة لمجلة الأطفال «أمسيات عائلية» منذ عام ١٨٧٠ صديقة لعائلة دستويفسكى.

(**) أدريان أندرييڤيتش شتاكينشنايدر (١٨٠٢ ــ ١٨٦٥): معمارى من بطرسبورج. أنشأ قصر مارينسكى.

(***) يلينا أندرييڤنا شتاكينشنايدر (١٨٣٦ ــ ١٨٩٧) : ابنة شتاكينشنايدر، صاحبة صالون أدبى.

(****) أديلينا باتى (١٨٤٣ ــ ١٩١٩): مغنية إيطالية، قدمت عروضها فى السبعينيات من القرن التاسع عشر فى بطرسبورج.

وڤـولـيـبـين(*) وكـالـتـسـولارى(**) وسـكـالـكـى(***) وإيـڤـراردى(****) وغيرهم. كان مكانى فى الشرفة فى مواجهة الثريا الضخمة مباشرة وكنت أرى ما يحدث على الجانب الأيمن من خشبة المسرح فقط، وأحيانًا لا أرى سوى الأقدام، بل كنت أحيانًا أسأل جارتى: «من الذى يرتدى الحذاء الأصفر الضخم أو الحذاء الوردى؟». ولكن على الرغم من أن المكان لم يكن مريحًا، فإنه لم يمنعنى من الاستمتاع بالأصوات الرائعة للفنانين(*****). كما أننى لم أكن قلقة على الأطفال، حيث كان فيودور ميخايلوڤيتش فى هذه الأمسيات يظل بالبيت، فيهرع إليهم بمجرد سماعه أى صوت أو بكاء ليطمئن على أن كل شىء على ما يرام.

(*) إيميليا ڤوليبين (١٨٤١ ـ؟): مغنية إيطالية، قدمت عروضها فى السبعينيات من القرن التاسع عشر فى بطرسبورج.

(**) إنريكو كالتسولارى (١٨٢٣ ـ ١٨٨٨) مغن إيطالى، قدم عروضه فى الستينيات والسبعينيات فى بطرسبورج.

(***) صوفيا سكالكى (١٨٥٠ ـ ١٩٢٢) مغنية إيطالية، قدمت عروضها فى السبعينيات فى بطرسبورج.

(****) كاميللو إيڤراردى (١٨٢٥ ـ ١٨٩٩) : مغن، أستاذ بكونسرڤاتوار موسكو وبطرسبورج.

(*****) أتذكر على وجه الخصوص أوبرا «Dinorah» التى غنت فيها باتى «وكأنها بلبل يزقزق»، (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

الجزء السابع
العامان ١٨٧٤ / ١٨٧٥

(١)
العام ١٨٧٤ . الحبس. نكراسوف

كانت الأشهر الأولى من عام ١٨٧٤ أشهرًا ثقيلة الوطء. كنا مضطرين للخروج من المنزل لقضاء الأعمال المتعلقة بمجلة «المواطن» فى كل الأوقات. كان فيودور ميخايلوڤيتش يواصل الجلوس ساعات طويلة قبيل صدور العدد الجديد فى غرفة التصحيح شديدة الحرارة، حتى أنه كان يصاب بالبرد من حين إلى آخر، أما سعاله الذى بدأ خفيفًا، فقد تحول إلى سعال شديد وأصبح يعانى من النهجان، وقد نصحه البروفيسور كوشلاكوف(*)، بعد أن زاره زوجى، بالعلاج بالهواء المضغوط. أوصاه كوشلاكوف بالعلاج فى مستشفى الدكتور سيمينوف (وكانت تقع فى شارع جاجارينسكايا)، حيث راح فيودور ميخايلوڤيتش يجلس ساعتين تحت الكؤوس ثلاث مرات أسبوعيًا. سرعان ما عاد عليه العلاج بالهواء المضغوط بالفائدة الكبيرة، على الرغم من أنه كان يستقطع منه وقتًا كبيرًا، إلى حد أنه كان يفسد عليه يومه: كان عليه أن يستيقظ مبكرًا ليصل فى

(*) ديمترى إيڤانوڤيتش كوشلاكوف (١٨٣٥ ــ ١٨٩١): أستاذ بالأكاديمية الطبية للجراحة، طبيب أمراض باطنية. تولى علاج دستويفسكى.

الموعد المحدد، ثم ينتظر المرضى الذين تأخروا فى الحضور، وهؤلاء كانوا يجلسون معه تحت الكؤوس وهلمجرا. كل ذلك كان يكدر كثيرًا من صفو زوجى.

ومن الأمور التى زادت آنذاك من عذاب فيودور ميخايلوڤيتش، هو أنه يومًا وراء الآخر، لم يعد باستطاعته أن يذهب لقضاء يومى الحبس اللذين حكم عليه بهما فى العام الماضى بسبب مقالته التى نشرها فى «المواطن»(*)، وكان وراء ذلك التزامه بأعمال التحرير، ناهيك عن سوء حالته الصحية. أخيرًا اتفق زوجى مع المحامى كونى وتحدد موعد الحبس فى النصف الثانى من مارس. وفى الحادى والعشرين من هذا الشهر حضر إلينا ضابط شرطة، وكان فيودور ميخايلوڤيتش بانتظاره، وقد ذهبا معًا فى البداية إلى المحكمة المحلية. وكان علىّ أن أتوجه بعد ساعتين إلى قسم الشرطة لأعرف على وجه اليقين فى أى مؤسسة سوف ينزل زوجى. وقد علمت أنه سوف يقيم فى المخفر الموجود فى ميدان سينايا (ميدان العلف وهو الآن معمل المدينة). على الفور ذهبت إلى هناك ومعى حقيبة صغيرة بها بياضات للفراش وبعض اللوازم. كان زمنًا يتسم بالبساطة وسرعان ما سمحوا لى بالدخول إلى زوجى. وقد وجدت فيودور ميخايلوڤيتش فى حالة نفسية طيبة: بدأ يسألنى عن الأطفال وما إذا كانوا قد أحسوا بالوحشة فى غيابه وطلب منى أن أقدم لهم بعض الهدايا وأن أخبرهم أنه مسافر إلى موسكو ليحضر لهم الألعاب التى يحبونها. وفى المساء أحسست أن صبرى قد نفد، فذهبت عائدة مرة أخرى إلى زوجى، بعد أن وضعت الطفلين فى الفراش. كان الوقت متأخرًا فلم يسمحوا لى بالدخول ومقابلته، ولكننى أرسلت إليه مع الحارس فطيرة طازجة وخطابًا. كنت أشعر بالحزن الشديد لأننى لم أستطع أن أبادله بعض الحديث وأن أطمئنه على الأطفال، حتى أننى وقفت أسفل نافذة المخفر (الأخيرة فى حارة سباسكى) ورأيت زوجى جالسًا إلى المائدة وقد راح يقرأ كتابًا. وقفت خمس دقائق ثم نقرت بهدوء على النافذة، وعلى الفور قام زوجى ونظر من النافذة. وعندما رآنى تبسم وبدت على وجهه أمارات المرح وراح يهز رأسه. وفى هذه اللحظة اقترب منى الجندى المناوب فاضطررت أن أغادر المكان.

(*) انظر ملاحظاتى السابقة فى هذا الشأن (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا).

ذهبت إلى أبوللون مايكوف (وكان يسكن غير بعيد فى شارع سادوڤ) وطلبت منه أن يزور زوجى غدًا. كان ودودًا للغاية حتى أنه أبلغ فسيڤولد سولوڤيوف بنبأ حبس زوجى، فسارع هذا لزيارة فيودور ميخايلوڤيتش فى اليوم التالى(*) وفى اليوم الثانى ذهبت إلى زوجى مرتين (ثم عدت إليه مرة ثالثة فى المساء، وفى هذه المرة كان ينتظرنى فى النافذة)، أما فى اليوم الثالث فقد قابلْنا أنا والأطفال بسرور بالغ «بابا» الذى عاد «من موسكو»، وفى الطريق عرجنا على أحد المحال لشراء ألعاب للأطفال. عاد فيودور ميخايلوڤيتش من الحبس مغتبطًا وأخبرنى أنه قضى يومين رائعين. كان رفيقه فى الزنزانة أحد أصحاب الحرف، كان يقضى ساعات طويلة نهارًا نائمًا مما أتاح لزوجى أن يعيد قراءة «البؤساء» لڤيكتور هوجو(**)، وهو من الأعمال التى كان يقدرها تقديرًا رفيعًا.

رائع أنهم حبسونى، قال زوجى بمرح، وإلا لما تمكنت مطلقًا من أن أجدد انطباعاتى القديمة الرائعة عن هذا العمل العظيم.

فى بداية عام ١٨٧٤ قرر فيودور ميخايلوڤيتش أن يترك نهائيًا العمل فى تحرير مجلة «المواطن» (صدر العدد الأخير باسمه فى الخامس عشر من أبريل)[١٦٧].

من جديد يجتذب العمل الإبداعى الخالص فيودور ميخايلوڤيتش. ومن جديد تتولد فى رأسه أفكار وشخوص جديدة، وها هو يشعر بالحاجة إلى تجسيدها فى رواية جديدة. كان مهمومًا، بطبيعة الحال، بمسألة أين سينشرها [١٦٨] فى حالة ما إذا كانت «البشير الروسى» قد حصلت بالفعل على مادة لنشرها فى العام القادم. وبصفة عامة كان زوجى، فوق ذلك، يشعر بالحرج دائمًا من عرض أعماله. وقد تكاتفت الظروف لتصنع نهاية سعيدة لهذه المشكلة التى أرقتنا.

فى صباح أحد أيام شهر أبريل، وفى الساعة الثانية عشرة، أعطتنى الخادمة بطاقة تعارف كتب عليها «نيكولاى ألكسييڤيتش نكراسوف» كنت أعلم أن فيودور

(*) مذكرات فسيڤولد سولوڤيوف عن فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى ـ «البشير التاريخى»، ١٨٨١، أبريل. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)[١٦٦]

(**) ڤيكتور هوجو (١٨٠٢ ـ ١٨٥٥): روائى فرنسى كبير.

ميخايلوڤيتش قد ارتدى ملابسه وأنه فى سبيله لمغادرة المنزل فورًا، فأسرعت بدعوة الضيف إلى غرفة الاستقبال ثم ذهبت فسلمت البطاقة إلى زوجى. وبعد خمس دقائق دعا فيودور ميخايلوڤيتش ضيفه إلى مكتبه معتذرًا له عن تأخره.

كنت مهتمة بشدة لحضور نكراسوف، صديق الشباب، ثم، فيما بعد، عدوه الأدبى. كنت أعلم أن صحيفة «المعاصر»(*) كانت تشتم فيودور ميخايلوڤيتش فى الستينيات، عندما كانت «الزمن» و «العصر» تصدران، وحتى فى السنوات الأخيرة لم ينقطع الهجوم المرير مرة واحدة فى المجلة من جانب ميخايلوڤسكى(**) وسكابيتشيفسكى(***) ويليسييف(****) وغيرهم(١٦٩) كنت على علم أيضًا أن فيودور ميخايلوڤيتش منذ عودته من الخارج، لم يلتق فى أى مكان بنكراسوف ومن ثم فإن زيارة نكراسوف لنا لا بد وأن لها أهميته محددة. كان فضولى هائلاً إلى حد أننى حسمت أمرى وقررت الوقوف خلف باب غرفة المكتب المؤدى إلى غرفة الطعام. كانت سعادتى بالغة عندما سمعت نكراسوف وهو يدعو زوجى للانضمام إلى العمل معه ويطلب منه رواية لنشرها فى العام القادم فى «حوليات الوطن»(*****) ويعرض عليه مائتين وخمسين روبلاً للملزمة، وكان فيودور ميخايلوڤيتش يتقاضى آنذاك مائة وخمسين روبلاً.

(*) المعاصر («سوڤريمينيك»): مجلة دورية صدرت فى بطرسبورج فى الفترة من ١٨٣٦ وحتى ١٨٤٦. أسسها الشاعر ألكسندر بوشكين. وبعد وفاته أعاد إصدارها مجموعة من أصدقائه وعلى رأسهم چوكوڤسكى. فى عام ١٨٣٨ انتقلت إلى بليتنيف الذى نقل حقوق إصدارها فى عام ١٨٤٦ إلى نكراسوف. (المترجم)

(**) نيكولاى قنسطنطينوڤيتش ميخايلوڤسكى (١٨٤٢ ــ ١٩٠٤): عالم اجتماع وكاتب وناقد أدبى. منظِّر للنزعة الشعبية. عمل بمجلة «حوليات الوطن» منذ عام ١٨٦٨، ثم عضوًا بهيئة تحريرها.

(***) ألكسندر ميخايلوڤيتش سكابيتشيڤسكى (١٨٣٨ ــ ١٩١٠): مؤرخ للأدب وناقد. عمل بمجلة «حوليات الوطن» منذ عام ١٨٦٨

(****) جريجورى زخاروڤيتش يليسييف (١٨٢١ ــ ١٨٩١): كاتب وصحفى. عمل بمجلة «المعاصر»، ثم عمل محررًا بصحيفة «الشرارة» («إيسكرا») منذ عام ١٨٦٨. عضو هيئة تحرير «حوليات الوطن».

(*****) حوليات الوطن (١٨٣٩ ــ ١٨٨٤): مجلة شهرية صدرت فى بطرسبورج. أصدرها كرايڤسكى حتى عام ١٨٦٨، ثم جاء بعده نكراسوف وسالتيكوف ــ شيدرين ويليسييف. وتولى بيلينسكى قسم النقد فى الفترة من ١٨٣٩ إلى ١٨٤٦. رأس نكراسوف تحريرها من ١٨٦٨ إلى ١٨٧٧ مواصلاً تقاليد «المعاصر» (المترجم).

عندما رأى نكراسوف حالتنا شديدة التواضع فإنه فكر، على الأرجح، أن فيودور ميخايلوڤيتش سيكون سعيدًا للغاية لهذه الزيادة فى الأجر، وأنه سوف يوافق على الفور. لكن فيودور ميخايلوڤيتش قال له، بعد أن شكره على عرضه:

ـ نيكولاى ألكسييڤيتش، ليس باستطاعتى أن أرد عليك بالإيجاب لسببين: أولاً: يجب علىّ أن أكتب إلى «البشير الروسى» وأن أسألهم إن كانوا بحاجة إلى روايتى؟ فإذا كانت لديهم مادة للعام القادم عندئذ أكون حرًا وأستطيع أن أعدك برواية. لقد عملت زمنًا طويلاً فى «البشير الروسى»، وكان كاتكوف(*) يستجيب لمطالبى باهتمام محمود، وسوف يكون من غير اللائق من جانبى أن أتخلى عنهم بألا أعرض عليهم عملى. وسوف يتضح الأمر فى خلال أسبوع ــ أسبوعين. كما أننى أرى أن من الضرورى أن أنبهك، نيكولاى ألكسييڤيتش، أننى أتقاضى مبلغًا مقدمًا من إجمالى أجرى، وهذا المقدم يكون فى حدود ألفين ثلاثة آلاف روبل.

وقد أعلن نكراسوف قبوله التام، ثم أردف زوجى قائلاً:

والمسألة الأخرى هى أن أستمع لرأى زوجتى فى اقتراحكم. إنها بالبيت الآن وسوف أسألها فى الأمر.

خرج فيودور ميخايلوڤيتش قادمًا إلىّ.

وهنا وقع أمر مضحك. فعندما جاء زوجى إلىّ أخبرته فى لهفة:

ـ ولماذا تسألنى؟ وافِق يافيديا، وافِق على الفور.

ـ أوافق على ماذا ؟ سألنى بدهشة.

ـ أوه، يا ربى ! على عرض نكراسوف.

ـ وكيف علمت بعرضه؟

(*) ميخائيل نيكيفوروڤيتش كاتكوف (١٨١٨ ــ ١٨٨٧): ناقد، كاتب، ناشر مجلة «البشير الروسى» وصحيفة «الوقائع الموسكوڤية».

ـ لقد سمعت حديثكما كله، لقد كنت واقفة وراء الباب.

ـ إذن كنت تتنصتين؟ ألا تشعرين بالخجل يا آنيتشكا؟

ـ صاح فيودور ميخايلوڤيتش بمرارة.

ـ لا شيء يدعو للخجل! أنت لا تخفى عنى أسرارًا، وعلى أية حال كنت ستخبرنى حتما بذلك. حسنًا، ما أهمية أن أتنصَّت، إنها أمور تخصنا معًا ولا تخص غيرنا.

لم يكن أمام فيودور ميخايلوڤيتش إلا أن يصمت أمام منطقى.

بعد أن عاد فيودور ميخايلوڤيتش إلى مكتبه قال لنكراسوف:

ـ لقد تفاوضت مع زوجتى وهى سعيدة للغاية أن روايتى ستظهر فى «حوليات الوطن».

يبدو أن نكراسوف لم يكن راضيًا على نحو ما أن الأمر بحاجة إلى موافقتى فقال:

ـ لم أكن أتصور إطلاقًا أن زوجتك قد «طوتك تحت جناحها».

ـــ وما وجه العجب هنا؟ أجاب فيودور ميخايلوڤيتش معترضًا. ـــ إننا نعيش معًا فى تفاهم تام، وقد فوضتها فى كل شؤونى وأنا أثق فى ذكائها ونزعتها العملية. كيف لا أسألها إذن النصيحة فى هذا الأمر الذى يهم كلينا؟

ـــ حسنًا، نعم، بطبيعة الحال فإننى أفهم... أجاب نكراسوف ثم انحرف بالحديث إلى موضوع آخر. غادرنا نكراسوف بعد حوالى عشرين دقيقة بمشاعر ودية وطلب منه زوجى أن يحيطه علمًا فور تلقيه ردًا من «البشير الروسى».

وحتى يستوضح فيودور ميخايلوڤيتش مسألة الرواية فى أسرع وقت ممكن قرر أن يستعيض عن الكتابة إلى «البشير الروسى» بالسفر إلى موسكو والذهاب مباشرة إلى هناك فى نهاية أبريل. بعد أن أستمع كاتكوف إلى عرض نكراسوف، وافق أن يخصص لزوجى نفس السعر، ولكن عندما طلب زوجى منه أن يعطيه مقدمًا فى حدود ألفى

روبل، أخبره كاتكوف أنهم قد أنفقوا لتوِّهم مبالغ طائلة للحصول على أحد الأعمال (رواية «أنّا كارنينا») وأن هيئة التحرير عاجزة عن توفير أموال فى الوقت الحالى. وهكذا ذهبت الرواية إلى نكراسوف.

(٢)

العام ١٨٧٤ . السفر إلى الخارج

قضى فيودور ميخايلوڤيتش شهر مايو مع العائلة فى ستاريا روسا، وفى الرابع من يونيو سافر إلى بطرسبورج ليسافر بعدها، بناء على نصيحة البروفيسور كوشلاكوف، للعلاج فى إمْس(*) فى بطرسبورج راح الأمير ميشيرسكى وأحد أقاربه يقنعان زوجى بالذهاب إلى سودين(**) بدلاً من إمس. وهى نفس النصيحة التى أعطاها له الدكتور بريتسل(***) الذى كان يعالجه دائمًا. كان لهذه النصائح المُلحة أثر كبير فى ارتباك فيودور ميخايلوڤيتش، ومن ثم قرر أن يطلب النصيحة فى برلين من الطبيب البارز هناك البروفيسور فريوريخس(****)، وما إن وصل إلى برلين حتى توجه إليه على الفور. لم يتجاوز الفحص دقيقتين وضع الطبيب فيها سماعته على صدره وبعدها مباشرة أعطاه عنوان الطبيب جوتنتاج فى إمس، واقترح أن يتوجه إليه. وقد شعر فيودور ميخايلوڤيتش بالامتعاض الشديد نتيجة عدم الاهتمام من جانب الطبيب الألمانى الشهير، وهو الذى اعتاد على الرعاية الدقيقة من جانب الأطباء الروس.

(*) إمس (Ems) : مدينة فى ألمانيا (المترجم).

(**) سودين مدينة فى ألمانيا (المترجم).

(***) ياكوف بوجدانوڤيتش فون بريتسل (١٨٤٢ ــ ١٩١٨): طبيب أسرة دستويڤسكى منذ عام ١٨٧٠ أول من استدعته زوجة دستويڤسكى عند احتضاره فى ٢٦ يناير ١٨٨١ وقد كتب مذكراته عن الكاتب وضمنها تفاصيل عن صحته والساعات الأخيرة فى حياته (المترجم).

(****) فريدريخ تيودور فريوريخس (١٨١٩ ــ ١٨٨٥): أستاذ وطبيب الأمراض الباطنية. استقبل دستويڤسكى فى برلين عام ١٨٧٤

وصل فيودور ميخايلوفيتش إلى برلين فى التاسع من يونيو، ولمّا كانت جميع البنوك مغلقة، فقد توجه إلى المتحف الملكى ليشاهد أعمال الفنان كاولباخ(*) الذى كثر الحديث والكتابة عنه. لم تنل أعماله إعجاب فيودور ميخايلوفيتش فقد رأى فيها مجازًا بارزًا لا أكثر(**)، لكن لوحات المتحف الأخرى، وبخاصة لقدامى الفنانين، تركت أثرًا ممتازًا على زوجى وقد عبر عن أسفه لأننا لم نشاهد معًا، إبان زيارتنا الأولى لبرلين، هذه الكنوز الفنية.

وفى برلين اضطر فيودور ميخايلوفيتش للطواف بالمحلات لشراء شال أسود من الكشمير، مثل الذى اشتراه لى من درزدن، بناء على طلب صاحبة الداتشا التى نقيم بها. وقد نجح فيودور ميخايلوفيتش فى إنجاز المهمة التى كلف بها واشترى شالاً رائعًا وبسعر مناسب نسبيًا. أنتهز هذه الفرصة لأقول إن لزوجى ذوقًا رفيعًا فى اختيار الأشياء، وكانت كل مشترياته خالية من العيوب. قطع فيودور ميخايلوفيتش الطريق من برلين وهو يشاهد بإعجاب المناظر الطبيعية الخلابة. وقد كتب لى يقول: «كل ما آراه رائع، لطيف، خيالى. يحتوى المنظر الطبيعى على أجمل ما فى الكون، الوهاد، الجبال، القلاع، مدن مثل ماربورج وليمبورج بأبراجها الفاتنة، هذا التناغم المدهش بين الجبال والوديان. أشياء لم أشاهد مثلها من قبل. هكذا استمر الحال حتى وصلت إلى إمس نفسها فى صباح يوم صحو، مشمس وحار(***) راح فيودور ميخايلوفيتش بفرح بالغ يصف جمال إمس، هى نفسها التى أصبحت بعد ذلك (نتيجة إحساسه بالسأم والوحدة) مصدرًا لانطباعاته المؤلمة.

بعد أن توقف فيودور ميخايلوفيتش فى أحد الفنادق، توجه فى نفس يوم وصوله إلى الدكتور أورت، حاملاً له خطابًا من الدكتور بريتسل. وقد قام أورت بفحصه فحصًا دقيقًا وتوصل إلى أنه يعانى نزلة شعبية عابرة، لكنه أخبره أن المرض جد خطير، فكلما تطور، قلت القدرة على التنفس، ووصف له شراب الماء ووعده بالشفاء الأكيد بعد استمرار العلاج لمدة أربعة أسابيع.

(*) فيلهم كاولباخ (١٨٠٥ ــ ١٨٧٤): فنان ألمانى.

(**) خطابه إلى المؤرخ ٢٥ يوليو ١٨٧٤ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)[١٧٠]

(***) المصدر السابق (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)[١٧١]

وفى اليوم نفسه نجح زوجى بعد بحث طويل فى العثور على غرفتين فى الطابق الثانى فى منزل يقع فى شارع Haus Blucher رقم 7 بإيجار اثنى عشر طالر فى الأسبوع. وبالإضافة إلى ذلك ثم الاتفاق مع صاحبة النزل على إضافة طالر ونصف مقابل قهوة الصباح والغداء والشاى وعشاء خفيف.

كتب لى فيودور ميخايلوڤيتش يصف كيف يقضى وقته بقوله: «أقرأ بوشكين فقط، وتغمـــرنى قراءته بفيض من السعـــادة؛ كل يوم أجد شيئًا جديدًا». وفى الخطاب نفسه (٢٨ يونيو) يخبرنى زوجى أنه «قابل مساء أمس للمرة الأولى، فى أثناء نزهته، الإمبراطور ڤيلهلم: طويل القامة، عجوز مهيب الطلعة. هنا يقف الجميع (بما فيهم السيدات) يرفعون القبعات وينحنون، أما هو فلا ينحنى لأحد وأحيانًا ما يكتفى بالإشارة بيده. أما قيصرنا فهو، على العكس من ذلك، ينحنى للجميع وهو ما يقدره له الألمان تقديرًا رفيعًا. وقد حكى لى بعضهم أن الألمان والروس يسعون جاهدين لأن يوجدوا فى طريقه على نحو ما وأن يتجمعوا أمامه»[١٧٢].

ما إن مر أسبوع واحد حتى بلغ الحنين للأسرة لدى فيودور ميخايلوڤيتش مبلغًا كبيرًا، وهو الذى لم يعتد من قبل على فراقها، اللهم إلا لفترة قصيرة، وكان بإمكانه عندئذ أن يعود إليها سريعًا عند أى ظرف طارئ. ازداد حنينه أيضًا نتيجة لأن خطاباتى لم تكن تصله فى موعدها، وإنما كانت تصل متأخرة بشكل ملحوظ فى غير الموعد الذى كان يتوقعها فيه زوجى. ولمعرفتى بمدى القلق الذى يمكن أن يعانيه كنت أحمل خطاباتى وأذهب بها بنفسى إلى مكتب البريد، وفى كل مرة أطلب من المدير إرسالها على وجه السرعة. وكنت أحضر إليه لأريه خطابات زوجى التى شكا فيها من تباطؤ مكتب بريد ستاريا روسا فى إرسالها وأرجوه ألا يؤخر مراسلاتنا، لكن جهودى ذهبت سدى: كانوا يستبقونها فى روسا يومين أو ثلاثة إلى أن علمت فى ربيع عام ١٨٧٥ فقط سبب هذا التأخير[١٧٣]

بعد إقامة دامت ثلاثة أسابيع فى Haus Blucher، حيث راحت صاحبة النزل تخطئ فى حساباتها، بل وفكرت فى نقل زوجى إلى الطابق الأعلى، انتقل زوجى إلى Hotel Ville d Alger فى الرقم 4 ــ 5 وقد سعد بالإقامة فى هاتين الغرفتين للغاية، فقد كانتا تقعان فى طابق مرتفع وكانت لهما شرفة تظل مفتوحة حتى وقت متأخر من المساء.

وفى إمس كان لفيودور ميخايلوڤيتش بضع معارف من الروس. كان يكن لهم شعورًا بالمودة. وقد التقى هناك، على سبيل المثال، بكوبليتسكى(*) وشتاكينشنايدر والسيد X والأميرة شاليكوڤا(**)، التى كان يقابلها عند كاتكوف. وقد ساعدت هذه العجوز الطيبة فيودور ميخايلوڤيتش فى الصبر على ملل الوحدة بمعاملتها المرحة الودودة. وأنا ممتنة لها بشدة على هذا الجميل. لقد اشتد السأم بزوجى أيضًا لحرمانه من متعة النزهات الكبيرة التى اعتاد القيام بها (مرتين فى اليوم). كان من السخف بالطبع أن يتنزه فى حديقة صغيرة وسط جمع كبير من الناس يتدافعون فى سيرهم، وفى الوقت نفسه لم يكن بمقدوره أن يصعد إلى الجبل لسوء حالته الصحية. كان يفكر فى قلق كيف سنقضى شتاء هذا العام. نفد المقدم المالى الضخم الذى أخذناه من نكراسوف جزء ذهب فى سداد الديون العاجلة، والجزء الآخر ذهب فى تغطية نفقات رحلة زوجى. لم يكن مقبولاً أن نطلب مبلغًا آخر مقدمًا دون أن نسلم الرجل ولو جزءًا من الرواية. كل هذه الظروف مجتمعة تركت أثرًا سيئًا على زوجى، لقد توترت أعصابه (وربما كان لشرب الماء أثره فى ذلك أيضًا) وذاع صيته بين الناس باعتباره الروسى «السودوى» الذى يتلو على الجميع مواعظه(***) كانت خطاباتى وحكايتى عن الأطفال وكلامهم تهدئ من روع زوجى كثيرًا. كتب لى خطابًا مؤرخًا الحادى والعشرين من يوليو يقول فيه «إن الطرائف التى تحكيها لى يا آنيا عن الأطفال تجدد روحى ببساطة وتشعرنى

(*) ميخائيل يفستافيڤيتش كوبليتسكى (١٨٢١ ــ ١٨٧٥): مؤرخ مسرحى وعالم فى الموسيقى.
(**) ناتاليا بتروڤنا شاليكوڤا (الاسم المستعار «ى. ناريسكايا») (١٨١٥ ــ ١٨٧٨): كاتبة؛ تعرفت على دستويڤسكى فى ڤيسبادن عام ١٨٥٦
(***) خطاب زوجى إلىّ المؤرخ ٢١ يوليو ١٨٧٤ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا)(١٧٤).

أننى بينكم». وفى نفس الخطاب يذكرنى فيودور ميخايلوڤيتش بنقص فى تربية صغارنا حين يقول: «ليس لديهم أصحاب، صديقات ورفاق، صغار فى مثل سنهم». وفى حقيقة الأمر كان قليل جدًا من بين معارفنا من لديهم أطفال فى عمر أطفالنا، إلى أن جاء فصل الصيف ووجد أطفالنا أصدقاء لهم من بين أفراد عائلة الأب يوحنا روميانتسيف.

وعندما كنا نخطط لرحلة فيودور ميخايلوڤيتش إلى الخارج فى الربيع، رأينا أنا وزوجى أنه بانتهاء مرحلة العلاج، عليه أن يذهب ليعيش فى مكان ما يكون بمثابة علاج إضافى له، فإذا ما توفرت لنا نقود فليذهب عندئذ ويلقى نظرة على باريس. وقد خطرت ببالى فكرة إرسال خمسين روبلاً لشراء قطعة قماش من الحرير الأسود من باريس تلزمنى لعمل ثوب سهرة للظهور به فى بعض المناسبات الضرورية. أثار إرسال النقود دهشة زوجى، ولما كان تحت تأثير إحدى النوبات فقد وبخنى على ذلك. لكن فكرة تحقيق رغبتى لم تفارقه، وقد طاف بمدينة برلين على العديد من المحال إلى أن أحضر لى قطعة رائعة من الحرير. وعلى الرغم من أنه عرض مشترياته على موظفى الجمرك، فإن هؤلاء لم يولوا اهتمامًا بها وأصروا على فحص كل ما لديه من كتب وأوراق، ربما يجدوا فيها شيئًا محظورًا.

لم يكن لدى فيودور ميخايلوڤيتش ما يكفيه من المال للسفر إلى باريس. وفى الوقت نفسه لم يكن يستطيع أن يقاوم الرغبة المخلصة لديه فى أن يزور مرة أخرى فى حياته مقبرة ابنتنا الكبرى سونيا، والتى كانت ذكراها متقدة فى قلبه، فذهب إلى چنيف ليزور جبانة «Plain Palais» للأطفال مرتين. ومن هناك أحضر لى بضعة أغصان من شجرة السرو التى نمت على مدى ست سنوات فوق النصب الذى أقيم فوق قبرها.

وفى العاشر من أغسطس تقريبًا عاد فيودور ميخايلوڤيتش إلى روسا، بعد أن قضى يومين أو ثلاثة فى بطرسبورج قبيل عودته.

(٣)

العامان ١٨٧٤ ــ ١٨٧٥ . صيف وشتاء فى ستاريا روسا

فى خطاباته التى أرسلها إلىّ فى صيف ١٨٧٤، يعود فيودور ميخايلوڤيتش إلى الفكرة التى كانت تؤرقه دائمًا، حول أننا سنضطر أن نعيش حياة شاقة فى المستقبل القريب(*). وفى الواقع كان وضعنا يدفعنا أن نفكر أننا سنظل دائمًا نعانى من سوء أحوالنا المادية.

ذكرت من قبل أن نكراسوف زارنا فى أبريل يطلب من فيودور ميخايلوڤيتش أن ينشر روايته الجديدة فى «حوليات الوطن» فى عام ١٨٧٥ كان زوجى سعيدًا لإعادة علاقات الصداقة من جديد مع نكراسوف، هذه الموهبة التى كان يقدرها، وكنا كلانا سعداء أيضًا لأن نكراسوف عرض سعرًا يزيد مائة روبل عما كان زوجى يتقاضاه فى «البشير الروسى».

لكن الأمر كان له جانبه الصعب بالنسبة إلى فيودور ميخايلوڤيتش، فـ «حوليات الوطن» كانت مجلة تقف فى المعسكر المضاد له؛ بالإضافة إلى أنها كانت منذ زمن غير بعيد، إبان قيام زوجى بتحرير مجلتى «الزمن» و«العصر»، تشن حربًا شعواء ضد هاتين المجلتين[١٧٦]، وكان من بين محررى «الحوليات» عدد من أعداء فيودور ميخايلوڤيتش الأدبيين: ميخايلوفسكى، سكابيتشيفسكى، يليسييڤ، وبليشييڤ جزئيًا(**)[١٧٧]، وهؤلاء كان بإمكانهم أن يطلبوا من زوجى إدخال تعديلات على روايته لتلائم توجهاتهم، لكن فيودور ميخايلوڤيتش لم يكن ليتخلى بحال من الأحوال عن قناعاته الجذرية. بدورها، كان بإمكان «حوليات الوطن» ألا تنشر آراء زوجى المختلفة، وعندئذ كان بإمكان فيودور ميخايلوڤيتش، عند أول بادرة خلاف، أن يستعيد، بلا شك، روايته مهما كلفنا الأمر من عواقب وخيمة.

(*) الخطابات التى أرسلها لى فى الفترة من ٢٤ يونيو إلى ١٤ يوليو وغيرها (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا)[١٧٥]

(**) ألكسى نيكولايڤيتش بليشييف (١٨٢٥ ــ ١٨٩٣): عضو فى حلقة بيتراشيفسكى، شاعر وناقد.

فى خطابه المؤرخ ٢٠ من ديسمبر ١٨٧٤، كتب لى، وقد ساورته المخاوف بسبب هذه الأفكار، يقول: «الآن يمكن لنكراسوف أن يضغط علىّ، إذا ظهر شىء مخالف لتوجهاته... ولكن حتى لو اضطررنا لطلب الصدقة هذا العام، فإننى لن أتنازل عن سطر واحد يعبر عن توجهاتى[١٧٨].

ما الذى كان علينا أن نفعله فى حالة وقوع خلاف بيننا وبين «حوليات الوطن». كانت هذه الفكرة تؤرق كلينا إلى حد كبير. ناهيك عن التفكير فيما إذا اضطررنا لرد المقدم المالى على الفور، وقد أنفقنا جزءًا كبيرًا منه، عندئذ سيصبح الدفع الفورى أمرًا بالغ الصعوبة. وفضلاً عن ذلك كانت هناك فكرة أخرى تلح علينا وهى من أين لنا أن نحصل على نقود يمكن أن نعيش بها إلى أن ينجح فيودور ميخايلوڤيتش أن يؤلف روايته؟ لم يكن أمامنا سوى «البشير الروسى»، المجلة الوحيدة آنذاك التى كان من الممكن لزوجى العمل فيها والتى كانت آراؤها تتفق وآراءه[١٧٩].

وصلت إلى فكرة، من بين أفكار مختلفة نتجنب بها الفشل المتوقع، تقليل نفقات أسرتنا (بقدر المستطاع)، فعلى الرغم من أننا كنا نعيش على نحو متواضع للغاية، فقد كنا ننفق سنويًا، بخلاف ما نسدده من الديون التى أثقلت كاهلنا: فضلاً عن فوائدها، ما لا يقل عن ثلاثة آلاف روبل، فقد كانت شقتنا وحدها (وكانت دائمًا شقة متواضعة) تكلفنا ما بين سبعمائة وثمانمائة روبل تصل إلى ألف بحطب التدفئة.

من هنا خطرت ببالى فكرة أن نقيم فى الشتاء فى روسا، وبخاصة أننا، أنا وزوجى، قررنا بشكل قاطع أن نعود من جديد فى الربيع القادم إلى روسا حيث يستفيد أطفالنا كثيرًا من استحمامهم فى مياهها. لقد كانت الإقامة فى العاصمة تستمر لمدة ثمانية ــ تسعة أشهر يضيع منها شهر ونصف ــ شهران، على الأرجح، ما بين بحث عن شقة ثم تجهيزها. أما الربيع فنقضيه فى الاستعداد للرحيل مرة أخرى. كل هذا الوقت كان من الممكن أن يستغله فيودور ميخايلوڤيتش فى العمل، وكان يدرك جيدًا إمكانية الانتهاء من الرواية بأقصى سرعة حتى يتمكن من البدء فى تحقيق حلمه المنشود، وهو إصدار مجلته المستقلة تحت اسم «مذكرة الكاتب».

كانت أسعار المؤن فى ستاريا روسا أرخص من مثيلاتها فى بطرسبورج ثلاث مرات، ناهيك عن رخص الشقق فيها، كما أن نفقاتنا الأخرى فى روسا كانت أقل بكثير من النفقات الضرورية فى العاصمة.

وخلافًا للحسابات المادية، فقد كان قضاء الشتاء بأكمله فى هدوء وسلام، والاستمتاع بالحياة العائلية الهانئة، التى كنا نحياها دائمًا فى فصل الصيف، أمرًا شديد الإغراء بالنسبة إلىَّ شخصيًا، فقد كنا نتذكر هذه الأوقات دائمًا بشعور طيب عندما يدهمنا الشتاء.

قليلاً ما كان فيودور ميخايلوفيتش ينضم إلى الأسرة فى فصول الشتاء، حيث كان عليه أن يظهر فى مجتمعات بطرسبورج فى هذه الآونة، وأن يحضر اجتماعات الجمعية الخيرية السلافية، التى كان عضوًا فيها [١٨٠] منذ عام ١٨٧٢

اضطررت لتحمل مزيد من الأعباء، بينما أبعدت المشاغل فيودور ميخايلوفيتش عنى وعن الأطفال، الذين اضطر بدوره لقضاء وقت أقل معهم، وهم الذين كان تواصلهم معه يمثل له السعادة الكبرى. كان بقاء الصغار فى ستاريا روسيا يجنبنا العديد مما يعكر صفو حياتنا العائلية.

بعد أن استقر قرارى على العودة لقضاء الشتاء فى روسا، عقدت العزم على البحث عن شقة هناك. إذ لم يعد من الممكن البقاء شتاء فى الداتشا التى يملكها جريبى لأسباب عديدة. لم يكن العثور على شقة رحبة فى روسا بالأمر الصعب: كانت الداتشات التى تؤجر مقابل ثلاثمائة ــ أربعمائة روبل فى الموسم تخلو من سكانها فى الشتاء، ولهذا كان أصحابها يؤجرونها مقابل خمسة عشر ــ عشرين روبلاً فى الشهر. ولكننى لم أكن لأقطع أمرًا دون فيودور ميخايلوفيتش: كان بإمكانه العثور على شقة مناسبة عند مروره ببطرسبورج، ومن ثم يصبح قضاء الشتاء فى روسا أمرًا هينًا.

إلى روسا عاد فيودور ميخايلوفيتش فى نهاية يوليو، بعد أن قضى فى بطرسبورج يومين ــ ثلاثة، لم ينجح فى العثور على شقة ولم يحاول أن يجد فى البحث عنها، إذ كان متلهفا للقاء الأسرة، فعاد أدراجه إلينا بسرعة.

مضت عدة أيام على عودته، وإذا بنا نعرج بالحديث إلى موضوع الشقة الشتوية وعن موعد مغادرتنا روسا، وعندئذ قلت بصيغة الاقتراح:

ــ حسنًا، وماذا لو بقينا فى روسا؟

قوبل اقتراحى برفض قاطع من جانب فيودور ميخايلوفيتش. وكانت حجته فى الرفض مفاجئة، وإن تضمنت فى الوقت نفسه إطراء شديدًا لى. راح زوجى يتحدث عن شعوره بالوحشة فى روسا، وكم عانينا من الوحدة طوال الصيف الماضى.

ــ طوال فصول الشتاء الماضية، قال زوجى، لم تذهبى إلى أى مكان، ولم تتح لك أى فرصة للاستمتاع؛ فى هذا الشتاء العمل، والحمد لله، يسير على ما يرام، وستتوفر لنا نقود أكثر، عندئذ يمكن أن تجهزى لنفسك ثيابًا أنيقة، وسوف نغشى معًا المجتمعات. هذا ما قررته بشكل حاسم. سوف تذبلين تمامًا هنا فى روسا!

رحت أسعى لإقناع فيودور ميخايلوفيتش أن الشتاء القادم سيكون مليئًا بالعمل وأن علينا أن نواصل العمل لإنهاء «المراهق»، ومن ثم لا مجال عندى للتفكير فى الأناقة أو التسلية.

ــ هذه أشياء لا تلزمنى على الإطلاق، إن الهدوء والسكينة العائلية التى لا تعكر صفوها مفاجآت الحياة، التى نعيشها هنا، أهم وأغلى عندى من كل ما عداها.

قلت له إن ما أخشاه فقط هو أن يتسرب إلى نفسه السأم فى روسا نتيجة ابتعاده عن المجتمع المناسب له. لكن حتى هذا الأمر المحزن يمكن التغلب عليه بأن يسافر مرة مرتين فى الشتاء إلى بطرسبورج فيلتقى هناك بمعارفه وأصدقائه الأعزاء. وهذه السفريات التى سيقوم بها وحده لن تكلفه الكثير، كما أنها ستمكنه من أن يجدد انطباعاته دون أن تأخذه بعيدًا عن اهتمامَاته الأدبية والفنية. عددت لزوجى كل أسباب الراحة، المادية وغيرها، كى أغريه بقضاء الشتاء هنا فى روسا. وقد أُعجب زوجى بالصورة التى رسمتها له لحياة أسرية هانئة مطمئنة يمكن له أن يتفرغ فيها كلية لإبداعه. على

أن فيودور ميخايلوڤيتش ساوره الشك فى إمكانية العثور على شقة دافئة رحبة، عندئذ اقترحت على زوجى، فى نفس اليوم ونحن نتنزه، أن نذهب معًا إلى روسا لبضعة أيام تكون داتشا الأدميرال ليونتيف(*) قد تم إخلاؤها لنلقى نظرة عليها، وقد حسمت هذه الزيارة الأمر نهائيًا: لقد حازت الشقة القائمة فى الطابق الأسفل للداتشا إعجاب فيودور ميخايلوڤيتش الشديد. كانت داتشا ليونتيف تقع فى شارع إيلينسكايا الحيوى، وهى عبارة عن بيت كبير(**) من طابقين يؤجر (الطابقين العلوى والأرضى) مقابل ثمانمائة روبل فى الموسم. كانت شقتنا المختارة مكونة من ست غرف كانت لاستخدام صاحب البيت. ويعود إعجاب زوجى بها أن غرفها (النوم والمكتب) تفصلها عن النصف الخاص بنا غرفة كبيرة لها أربع نوافذ. وبفضل ذلك لايصل ضجيج الأطفال أو ركضهم إلى فيودور ميخايلوڤيتش، فلا يقطع عليه عمله أو نومه، بل ويجعل الأطفال على سجيتهم (وهو ما كان زوجى حريصًا عليه دائمًا) وبذلك يستطيعون الصياح وإحداث جلبة كما شاؤوا.

تحدثنا على الفور مع السيدة التى تتولى شؤون المنزل، وأجَّرنا الشقة فى الخامس عشر من مايو من العام التالى، على أن ندفع خمسة عشر روبلاً فى الشهر. وحتى لا نضيع الوقت المخصص للعمل، قررنا الانتقال بسرعة وتهيئة المكان لقضاء الشتاء به.

يحتل شتاء عامى ١٨٧٤/ ١٨٧٥ الذى قضيناه فى ستاريا روسا مكانة رائعة فى سجل ذكرياتى. كان الأطفال يتمتعون بصحة جيدة، ولم يضطرونا مرة واحدة لاستدعاء الطبيب، وهو ما كان يحدث مرارًا عندما كنا نعيش فى العاصمة. وكذلك كان الحال بالنسبة إلى فيودور ميخايلوڤيتش الذى تحسنت صحته كثيرًا فظهرت عليه النتائج الإيجابية للعلاج فى إمس: قل السعال وأصبح تنفسه أعمق. وبفضل الحياة

(*) يفتيخى إيڤانوڤيتش ليونتيف (؟ ــ ١٨٩٢): عاش دستويفسكى فى بيته فى ستاريا روسا عامى ١٨٧٤ ــ ١٨٧٥

(**) لا يزال هذا البيت قائمًا على حاله حتى اليوم (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا).

الهادئة المنظمة وغياب كل المفاجآت السخيفة (التى كانت تتكرر كثيرًا فى بطرسبورج) تحسنت أيضًا أعصاب زوجى وندرت نوبات الصرع التى كانت تصيبه، وتراجعت حدتها بشكل ملحوظ، ونتيجة لذلك كان فيودور ميخايلوڤيتش نادرًا ما يغضب أو يثور، وكان طيبًا مرحًا ميالاً دائمًا للحديث والثرثرة. لم يكن مرضه المزمن، الذى كان سببًا فى وفاته بعد ست سنوات(*)، قد تطور بعد، فلم يكن يعانى من ضيق التنفس، ولهــــذا كان يسمح لنفســــه أن يجــــرى ويلعب مع الأطفال. ما زلت أتذكر أنا وأطفالى وأصدقاؤنا فى ستاريا روسا، كيف كان فيودور ميخايلوڤيتش يلعب مع الأطفال فى المساء على ألحان الأرغن اليدوى الصغير (البيانولا)(**) ثم يروح يرقص المازوركا(***). كان زوجى يحب المازوركا بوجه خاص. وكان يرقصها، إحقاقًا للحق، بشجاعة وحماس شديد وكأنه «بولندى حقيقى»، وقد كان فى غاية السعادة عندما أخبرته برأيى ذات مرة.

كانت حياتنا اليومية فى ستاريا روسا مقسمة على عدد من الساعات، وقد راعينا ذلك بدقة صارمة. كان زوجى يعمل فى الليل ولا يستيقظ قبيل الحادية عشرة. وعندما يخرج من غرفته لتناول القهوة، كان ينادى على الأطفال فيهرعون إليه فى سرور ويحكون له كل ما حدث لهم هذا الصباح، وكل ما شاهدوه فى نزهتهم. وكان فيودور ميخايلوڤيتش يتأملهم فى سعادة ويشاركهم حديثهم المفعم بالحيوية والبهجة. لم أشاهد من قبل ولا من بعد إنسانًا عطوفًا مثل زوجى، بإمكانه أن ينفذ إلى ما فى عقول الأطفال وقادرًا على تسليتهم بحديثه إليهم. فى هذه السويعات كان فيودور ميخايلوڤيتش يتحول هو نفسه إلى طفل.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يدعونى للحضور إلى مكتبه بعد الظهر ليملى علىّ ما تسنى له كتابته فى أثناء الليل. كان عملى مع فيودور ميخايلوڤيتش يمثل لى متعة كبيرة

(*) تمدد أوعية الرئة (المترجم).

(**) اشتراه فيودور ميخايلوڤيتش بنفسه للأطفال، والآن يلعب به أحفاده (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(***) المازوركا: رقصة بولندية (المترجم).

دائمًا، وعن نفسى فقد كنت فخورة بشدة أننى أساعده وأننى أول من يستمع من القراء إلى الرواية من فم المؤلف.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يملى علىّ الرواية عادة من المخطوطة مباشرة. فإذا لم يكن راضيًا عن عمله أو كان لديه شك فيها، فقد كان يقرأ علىّ ما كتبه دفعة واحدة قبل الإملاء. وهنا يتولد لدىَّ انطباع أقوى من الإملاء العادى.

(٤)

الإمـــــــــلاء

وبالمناسبة، سوف أذكر هنا بضع كلمات عن الإملاء.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يعمل دائمًا بالليل، عندما يسود البيت الهدوء التام وعندئذ لا يقطع حبل أفكاره أى شيء. وكان يملى علىَّ ما كتب من الثانية ظهرًا وحتى الثالثة، وما زلت أتذكر الساعات باعتبارها أسعد ساعات حياتى.

إن الاستماع إلى عمل جديد من شفاه الكاتب الذى أحببته، بهذه النبرات التى يلون بها كلمات أبطاله، كانت قدرًا سعيدًا بالنسبة إلىَّ. كان زوجى يتوجه إلىَّ بالسؤال فور أن ينهى إملاءه قائلاً:

ــ حسنًا، ما رأيك يا آنيتشكا؟

ــ رأيى أنها رائعة! بهذا كنت أجيبه، لكن هذه «الرائعة» كانت تعنى بالنسبة إلىَّ فيودور ميخايلوڤيتش أن المشهد الذى أملاه علىّ بعد أن نجح فى عمله لم يترك لدىّ، ربما، أثرًا خاصًا. وكان زوجى يولى انطباعاتى الشخصية اهتمامًا كبيرًا. ودائمًا ما كان يحدث على نحو ما أن صفحات الرواية التى تركت لدىَّ انطباعًا طيبًا أو كان أثرها محزنًا على نفسى، كانت تترك على غالبية القراء نفس الانطباع، الأمر الذى كان يتحقق منه زوجى من خلال أحاديثه مع القراء أو يعرفه من أحكام النقاد.

كنت أسعى أن أكون مخلصة فى حديثى، وألا يكون هذا الحديث مجرد مديح أو إعجاب لا أشعر به حقيقة، وكان زوجى يقدر إخلاصى تقديرًا رفيعًا. بطبيعة الحال لم أكن لأخفــى انطبــاعاتى أحيــانًا. أذكــر كيــف ضحكــت عند قراءة أحاديث السيدة خوخلاكوفا أو الجنرال فى رواية «الأبله»، وكيف مازحت زوجى بشأن المدعى العام فى «الإخوة كارامازوف».

ـ أوه، خسارة أنك لم تكن مدعيًا عامًا! إذن لاستطعت بخطابك أن ترسل بريئًا إلى سيبيريا.

ـ إذن فى رأيك أن خطاب المدعى العام قد حقق نجاحًا ـ سألنى فيودور ميخايلوفيتش.

ـ لقد نجح نجاحًا باهرًا ـ قلت مؤكدة، ـ ولكن على أى حال يؤسفنى أنك لم تكن واحدًا من القضاة ! كنت ستصبح جنرالاً، وكنت سأصبح جنرالاً لا ملازم ثانى متقاعدًا.

عندما كان فيودور ميخايلوفيتش يملى علىّ خطاب فيتيوكوفيتش(*) ثم توجه إلىَّ بعده بسؤاله المعتاد (ما رأيك يا آنيتشكا؟) أذكر أننى قلت له:

ـ والآن أقول لك، لماذا لم تعمل بالمحاماة يا عزيزى! إذًا لبرَّأت المتهم الحقيقى ولخرج من القضية ناصعًا كالثلج، أما فيتيوكوفيتش فقد صورته على نحو رائع!

وفى مرة أخرى بكيت. أذكر ذلك عندما أملى علىّ زوجى مشهد عودة أليوشا مع الأطفال بعد دفن إيليوشتشكا، كنت فى حالة شديدة من التوتر، لدرجة أننى كنت أكتب بيد وأمسح عن عينىّ دموعى باليد الأخرى، وعندما لاحظ فيودور ميخايلوفيتش مدى اضطرابى، اقترب منى وقبَّل رأسى دون أن يقول كلمة واحدة.

(*) فيتيوكوفيتش : محامى ديمترى كارامازوف فى رواية «الإخوة كارامازوف». وقد أفرد دستويفسكى ثلاثة فصول لخطابه. يمكن للقارئ الاطلاع على هذا الخطاب البليغ فى ترجمة د. سامى الدروبى للرواية الصادرة عن دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، المجلد الثالث، الجزء الرابع، الباب الثانى عشر (المترجم).

كان فيودور ميخايلوڤيتش بصفة عامة يضعنى فى صورة مثالية وكان يرى أننى أفهم رواياته فهمًا عميقًا أكثر، فى ظنى، مما كنت أتصور فى واقع الأمر. وهكذا كان على اقتناع أننى أفهم الجانب الفلسفى فى رواياته. أذكر أننى، بعد الانتهاء من إملاء أحد فصول رواية «الإخوة كارامازوف» أجبته عن سؤاله التقليدى بقولى:

ــ أتعرف، إننى لم أفهم مما أمليته علىّ (كان الحديث عن المفتش الأعظم) اللهم إلا القليل. أظن أنه لكى أفهم لا بد وأن أملك ذهنية فلسفية خلافًا لما لدىّ.

ــ مهلاً، ــ قال زوجى، سأقص عليك الأمر على نحو أكثر وضوحًا. وراح يشرح لى الأمر فى عبارات أكثر تحديدًا

ــ حسنًا، والآن هل أتضح الأمر؟ سألنى زوجى.

ــ والآن ما يزال غير واضح. مهما كررت، فإننى غير قادرة على الفهم.

ــ كلا، لقد فهمت، لقد عرفت ذلك من خلال أسئلتك التى طرحتيها. وإذا كنت لم تتمكنى من عرض ما فهمتيه فإن ذلك مرجعه عدم قدرتك على الصياغة.

أقول فى هذا السياق إنه كلما امتد بى العمر بكل ما حمله من أحزان، انفتحت أمامى وعلى نحو أرحب آفاق أعمال زوجى، وكلما رحت أفهمها فهمًا أعمق.

أتذكر أيضًا من بين أحداث حياتنا فى ستاريا روسا، أن فيودور ميخايلوڤيتش قرأ علىّ فصلاً من رواية، كان قد أنهى كتابته لتوه، عن فتاة شنقت نفسها («المراهق»، الجزء الأول الفصل التاسع)(*). وبعد أن انتهى من قراءته نظر إلىَّ ثم صاح قائلاً:

ــ آنيا، ماذا دهاك يا يمامتى، أنت شاحبة، هل أنت متعبة، هل أصابك مكروه؟

ــ إنه أنت الذى أفزعتنى! أجبته.

ــ يا إلهى، هل حقًا كان لهذا الفصل أثر ثقيل عليك؟ كم أنا آسف، كم أنا آسف!

(*) كان لهذا الفصل أثر هائل على نكراسوف، وهو ما ذكره لى زوجى فى خطابه المؤرخ التاسع من فبراير ١٨٧٥ (ملاحظة لآنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)[١٨١]

أعود بالحديث إلى عام ١٨٧٤ فبعد أن كان فيودور ميخايلوڤيتش ينهى الإملاء ويتناول إفطاره بصحبتى كان يقرأ (فى هذا الشتاء) «رحلة الراهب بارفينى»[١٨٢] أو يكتب خطابات فى أى وقت، وفى الثالثة والنصف كان يخرج للتنزه فى شوارع روسا المقفرة. ودائمًا ما كان يمر فى أغلب الأحوال على محل آل بلوتنيكوف[*] ليشترى المقبلات والحلوى الآتية لتوها من بطرسبورج ولو بكميات صغيرة. كانوا يعرفونه فى المحل ويحترمونه، ولم يكن يضايقهم أنه يشترى بما لديه من نقود قليلة، بل كانوا يسارعون فيعرضون عليه أحدث ما وصل إليهم.

فى الخامسة كنا نجلس مع الأطفال لتناول طعام الغداء، وكان زوجى دائمًا ما يكون فى هذا الوقت فى أفضل مزاج له. وكان أول ما يفعله أن يحمل كأسًا من الڤودكا للعجـــوز

بروخورڤنا، مربية ابننا[**]، كان فيودور ميخايلوڤيتش يقدمه لها قائلاً: «الڤودكا أيتها المربية العزيزة!» كانت تشربها ثم تتناول شيئًا من المقبلات عبارة عن خبز وملح. كان الغداء يمضى فى جو من المرح، بينما يروح الأطفال يثرثرون دون انقطاع، أما نحن فلم نكن نتحدث مطلقًا إبان الغداء فى أية موضوعات جادة لا يفهمها الأطفال. بعد انتهاء الغداء وشرب القهوة يظل زوجى جالسًا مع الأطفال حوالى نصف ساعة أو يقرأ عليهم حكايات كريلوف[***]

(*) ورد وصفه فى رواية «الإخوة كارامازوف»، حيث ذهب ميتيا كارامازوف إلى هذا المحل لشراء هدايا توجه بها إلى موكروى (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)

(**) كان فيودور ميخايلوڤيتش يقدر بروخوروفنا تقديرًا كبيرًا لحبها لطفلنا، وكان زوجى يذكرها أحيانًا فى خطاباته إلىّ، «وقد صورها فى رواية «الإخوة كارامازف» فى شخصية العجوز، التى كانت تخرج الصدقات على روح ابنها الحى، الذى لم تكن تصلها منه أنباء، وكان فيودور ميخايلوڤيتش قد نصحها بذلك وتنبأ لها أنها ستتلقى خطابات فى القريب العاجل وهو ما حدث بالفعل (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(***) إيڤان أندرييڤيتش كريلوف (١٧٦٩ ـــ ١٧٤٤): كاتب قصص وحكايات روسى. أصدر مجلات

في السابعة مساء كنا نذهب أنا وفيودور ميخايلوفيتش إلى نزهتنا المسائية وكنا نمر حتماً في طريق عودتنا بمكتب البريد(*)، حيث يمكن أن نبحث في هذا الوقت عن ما لنا في البريد القادم من بطرسبورج.

كان ما يصل فيودور ميخايلوفيتش من مراسلات ذا أهمية كبرى، ولذلك كنا أحياناً ما نهرول عائدين إلى البيت في سعادة لنبدأ في قراءة الخطابات والصحف.

كنا نضع أطفالنا في الفراش قرب التاسعة مساء وكان فيودور ميخايلوفيتش يذهب إليهم حتماً «متمنيًا لهم أحلامًا سعيدة» ويقرأ عليهم صلوات «يا أبانا»، و«العذراء» ثم دعاءه المفضل: «أتوسل إليك يا أم الرب أن تحفظيني في كنفك!»

وفي العاشرة مساء يعم الهدوء أركان البيت، حين يأوي كل من فيه، حسب تقاليد الريف، إلى فراشه مبكرًا. هنا ينسل فيودور ميخايلوفيتش إلى مكتبه ليقرأ الصحف؛ بينما أركن سعيدة إلى الهدوء وقد أنهكني الهرج والمرج طوال اليوم؛ فضلاً عن ضجيج الأطفال، فأجلس في غرفتي وأرتب أوراق اللعب التي تعلمتها حتى الرقم١٢ لرؤية الطالع.

أتذكر بحنين بالغ كيف كان زوجي يأتي إليّ عدة مرات كل مساء ليخبرني عما قرأه في الصحف الأخيرة، أو ليتحدث معي ببساطة في شتى الأمور، ودائماً ما كان يبدأ في مساعدتي في الانتهاء من ترتيب ورق اللعب، بحيث يكون طالعي حسنًا، والمدهش أنه كان يجد الكروت اللازمة والتي لم أكن ألحظها. كان لعب الورق يكتنفه الغموض والإلهام، ولم أكن لأفوز دون مساعدة زوجي(**) في الساعة الثانية عشرة يظهر زوجي

ساخرة. كتب في الفترة من ١٨٠٩ إلى ١٨٤٣ ما يزيد عن مائتي حكاية. أطلق جوجول على حكاياته اسم «كتاب حكمة الشعب» (المترجم)

(*) في هذا الزمن كانت القطارات تصل إلى مدينة نوفجورود القريبة، ومن هناك يقطع البريد ثمانين فرسخًا (وأربعين أخرى عبر البحيرة) على الخيول، ومن ثم كنا نتسلم الصحف من سعاة البريد في اليوم التالي فقط، ولذلك كنا نذهب بأنفسنا إلى مكتب البريد لنتسلم الصحف في يوم صدورها (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

(**) بمناسبة الورق: في ذلك المجتمع (وبخاصة المجتمع الأدبي)، الذي تربى في وسطه فيودور ميخايلوفيتش،

عند باب غرفتى، وكان هذا يعنى أن علىّ أن أخلد إلى النوم. كنت أطلب منه أن يسمح لى بدور آخر، كان يوافق فنذهب ونرتب أوراق اللعب معًا. أخيرًا أذهب للنوم ويكون جميع من فى البيت قد ناموا، ولا يبقى نشطًا سوى زوجى فيجلس ليعمل حتى الثالثة ـــ الرابعة بعد منتصف الليل.

مضى النصف الأول من شتائنا فى ستاريا روسا (من سبتمبر وحتى مارس) على خير ما يرام لا أذكر أننا نعمنا فى أى وقت آخر بمثل هذا الهدوء الذى خلا من أى كدر. صحيح أن الحياة هنا كانت تمر على وتيرة واحدة: كل يوم يشبه الآخر، حتى أن هذه الأيام كانت تتصل بعضها ببعض فى ذكرياتى، حتى أنه لم يعد بإمكانى أن أتذكر أية أحداث خلال هذه الفترة. على أننى أذكر حادثًا مضحكًا مبكيًا وقع فى مطلع الشتاء، قطع لبضعة أيام هدوءنا واليكم ما حدث: وصل إلى مسامعى أن التجار تسلموا من سوق مدينة نيچيچورود معاطف قصيرة من فراء الغنم للكبار والصغار وقد أخبرت بهذا زوجى وقد أبدى اهتمامًا شديدًا بذلك وأخبرنى أنه كان لديه فى وقت ما معطف من فراء الغنم وأنه يريد شراء واحد منه لفيديا، ذهبنا إلى المحل، وهناك عرضوا علينا عشرات المعاطف تفضل بعضها بعضًا.اخترنا عددًا منها وطلبنا أن يرسلوها إلى البيت لقياسها اخترنا معطفًا أصفر اللون فاتحًا، موشى على الصدر والأطراف على نحو رائع، وقد أعجب به فيودور ميخايلوڤيتش للغاية، وقد كان مناسبًا لابننا تمامًا من ناحية المقاس. كان فيديا طفلاً مورد الوجه وكم كان يبدو وسيمًا عندما كان يرتدى هذا المعطف بغطاء الرأس المرتفع وحول خصره يضع حزامًا أحمر اللون. اشترينا أيضًا معطفًا أنيقًا للفتـــاة وكـــان زوجى يظل يتطلع فى الأولاد قبـــل خروجهم للنزهة

لم يكن لعب الورق أمرًا معتادًا. وعلى امتداد حياتنا معًا، والتى استمرت أربعة عشر عامًا، لم يلعب زوجى الورق سوى مرة واحدة، عندما كان فى ضيافة أقاربنا، وعلى الرغم من أنه كان قد انقطع عن اللعب لمدة تزيد عن عشر سنوات، فقد لعب على نحو رائع، بل إنه كسب بضعة روبلات شعر بسببها بالخجل (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

لكن إعجابنا سرعان ما خبا: ففى أحد الأيام البائسة لاحظت على الطرف الأمامى للمعطف الأصفر الفاتح بقعًا دهنية كبيرة؛ فضلاً عن دهون أخرى كانت متراكمة على الجلد. أخذتنا حيرة شديدة، فمن أين للصبى أن يلوث معطفه بالدهن أثناء نزهته، ولكن سرعان ما اتضحت الحقيقة: كان لطاهيتنا العجوز زوج شبه أعمى وكان يجلس لديها فى المطبخ منذ الصباح، وبعد أن يتناول إفطاره ولا يجد تحت يديه فوطه يمسح فيها يديه الملوثتين بالدهن، كان يستخدم المعطف الذى كنا نعلقه فى المطبخ ليجف. وقد حاولنا بشتى الوسائل أن نزيل الدهن من المعطف. ولكن البقع كانت تبدو بعد كل تنظيف جديد أكثر وضوحًا، وهكذا لم يعد المعطف الجميل صالحًا على الإطلاق. كنت فى حالة شديدة من الغيظ لما أصاب المعطف من تلف، وبخاصة أنه لم يكن بإمكاننا استبدال آخر جديد به، وكان غضبى أشد على الطاهية، التى لم تكن تحسن تدبير شؤون المطبخ، حتى أننى من الحسرة كدت أن أطردها من البيت هى وزوجها الأخرق، لكن فيودور ميخايلوڤيتش وقف إلى جانبهما وأعادنى إلى جادة الصواب. وبطبيعة الحال فسرعان ما طوت الأيام صفحة هذا الحادث المؤسف الصغير.

لمّا كان إصدار روايتينا «الشياطين» و«الأبله» قد حقق نجاحًا كبيرًا، فقد قررنا، وكنا ما نزال فى روسا، إصدار «مذكرات من البيت الميت»، التى كانت طبعتها قد نفدت منذ زمن طويل وكان باعة الكتب كثيرًا ما يطلبونها. أرسلوا إلينا مسَّودة الطبع لتصحيحها، بعدها كان علىّ أن أسافر إلى العاصمة قبيل صدور الرواية حتى أقوم ببيع كمية من النسخ (وقد نجحت فى ذلك) وتوزيع كمية أخرى مقابل عمولة ومراجعة الحسابات مع المطبعة وما إلى ذلك من أعمال. كنت أرغب كذلك أن أزور أقاربى وأصدقائى وأن أشترى، بمناسبة أعياد الميلاد، حلوى ولُعبًا لنزين بها شجرة عيد الميلاد التى كنا نود أن نجهزها لأطفالنا، وكذلك لأطفال القس الأب روميانتيف لصلته القوية بأسرتنا.

سافرت فى السابع عشر من ديسمبر وعدت فى الثالث والعشرين من نفس الشهر. وعند عبور بحيرة إيملين المتجمدة، عانيت من الخوف الشديد:

عدد من العربات التى كانت تسير معًا انحرفت عن الطريق، وقد خاطرنا بالسير فى الريح الشديدة بعد أن هبت علينا عاصفة ثلجية، ولحسن الحظ أطلق الحوذية لهم فاتخذت الحيوانات الذكية طرقًا مختلفة حتى وصلت بنا فى النهاية إلى الطريق الممهد.

(٦)

شتاء عام ١٨٧٤

كانت الحرائق فى ذلك الزمن تنشب فى ستاريا روسا على نحو متكرر، سواء فى فصل الشتاء أو فى فصل الصيف. وكان من نتيجتها إحتراق شوارع بأكملها. وكان العدد الأكبر من هذه الحرائق يقع ليلاً (فى أحد المخابز أو الحمامات). وعندما كان فيودور ميخايلوڤيتش يتذكر الحريق الذى أتى على أورنبورج كلها قبل فترة قصيرة، كان يشعر بالخوف الشديد إذا ما نشب حريق هنا أو هناك وراحوا يدقون الأجراس فى أبراج الكنائس، وبخاصة أجراس الكنائس الواقعة بالقرب من بيتنا.

ورغم معرفته بأننى أكون فى الأحوال العادية فى غاية الهمة والنشاط، لا أهاب شيئًا، فقد كان يعلم أيضًا كيف «أفقد السيطرة على الأمور» فى حالة وقوع أى حدث مفاجئ لأبدأ بعده فى ارتكاب تصرفات طائشة. ولذلك كان لدينا دائمًا، إبان إقامتنا فى روسا اتفاق أن يوقظ كل منا الآخر فور سماعه قرع أجراس الخطر. فما إن يسمع فيودور ميخايلوڤيتش صليلها حتى يهزنى من كتفى قائلاً: يا آنيا، لاتخافى، هناك حريق فى مكان ما، لاتقلقى من فضلك، أما أنا فسأذهب لأستطلع أين يقع الحريق!»

كنت أستيقظ على الفور فألبس الأطفال النيام جوارب طويلة وأحذية وأعد لهم الملابس الخارجية حتى لا يصابوا بالبرد إذا ما اضطررنا لحملهم خارج المنزل. كنت أخرج ملاءات كبيرة فألف فى إحداها (بشكل محكم) كل ملابس زوجى، إلى جانب مذكراته ومحفوظاته، وفى الأخرى أضع كل ما هو موجود فى الصوان والكومودينو

من فساتينى وأشياء الأطفال. كنت أهدأ بعد الانتهاء من كل ذلك وقد علمت أن أهم الأشياء فى أمان. فى أول الأمر كنت أحمل كل اللفائف إلى مدخل البيت بالقرب من باب الخروج، ولكننى منذ أن تعثر زوجى فيها فى العتمة وكاد يقع عند عودته من الخارج بعد أن استطلع الأمر، بدأت فى وضعها فى الغرف. كثيرًا ما كان فيودور ميخايلوڤيتش يهدئ من روعى قائلاً إن الحريق على بعد ثلاثة فراسخ» وأكون وقتها قد أعددت العدة لإنقاذ حاجاتنا. ولكننى كنت أرى أن هذا الكلام لن يقنعنى، وأن جمع الأمتعة على هذا النحو هو الذى سوف يبعث فى نفسى الطمأنينة. لقد كان زوجى يدفعنى عند كل إنذار إلى «حزم الأمتعة»، طالبًا، مع ذلك، سرعة إعادتها بعد انقضاء الخطر المزعوم، إلى أماكنها.

أتذكر عندما انتقلنا فى ربيع عام ١٨٧٥ من شقتنا الشتوية فى بيت ليونتيف مرة أخرى إلى داتشا جريبى أن الحارس قال لى وهو يودعنا:

ــ أكثر ما يشعرنى بالأسف أن السيد سيسافر.

ــ ولماذا؟ سألته وأنا أعرف أن زوجى لا تربطه به علاقة.

ــ كيف يا سيدتى: لقد كان يهرع للقرع على باب الحارس ما إن ينشب حريق هنا أو هناك: انهض، هناك حريق فى مكان ما ! حتى أن رئيس الشرطة قال عنى: ليس هناك أحد فى المدينة أكثر انضباطًا من حارس الجنرال ليونتيف، فما إن تدق الأجراس حتى يهرع واقفًا عند الباب. والآن كيف ستمضى الأمور دونه؟ وكيف لا آسف سيدتى لفراقه؟

عندما وصلت إلى المنزل أخبرت زوجى بما قاله الحارس فضحك وقال:

ــ حسنًا، انظرى، إن لدىَّ فضائل لم يراودنى أنا نفسى الشك فيها.

سادت حياتنا على منوال منظم، كما استمر العمل فى الرواية بنجاح منقطع النظير. كان ذلك أمرًا هامًا بالنسبة إلينا، وأثناء رحلتنا إلى بطرسبورج التقى فيودور ميخايلوڤيتش مع البروفيسور ديمترى كوشلاكوف الذى نصحه بإلحاح بأن يواصل العلاج وأن

يذهب مرة أخرى فى الربيع إلى إمس، بعد أن لاحظ النتائج الإيجابية للعلاج بالماء فى العام الماضى.

فى أبريل عام ١٨٧٥ كان علينا أن نسعى للحصول على جواز سفر للخارج. لم يكن الأمر يشكل مشقة فى بطرسبورج؛ ولأننا كنا نعيش فى هذا الوقت فى روسا فقد كان على زوجى أن يتسلم جواز سفره من محافظة نوفجورود. ولكى نعرف أى أوراق عليه أن يستوفيها فى نوفجورود والمصروفات اللازمة وما إلى ذلك، ذهبت إلى رئيس الشرطة فى ستاريا روسا. آنذاك كان رئيس الشرطة هو العقيد جوتسكى[*]، وهو شخص عرف عنه طيشه، يحب المرور على ملاك الأراضى المجاورين. بعد أن تسلم الأوراق، دعانى على الفور إلى مكتبه، أجلسنى على مقعد وسألنى عن علاقتى بالأمر وبعد أن قلَّب فى درج مكتبه أعطانى كراسة سميكة ذات غلاف أزرق. فتحتها وقد أدهشنى بشدة أن أجد أن تتضمن «قضية الملازم ثان متقاعد فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى الموجود تحت المراقبة السرية والمقيم فى الوقت الحالى مؤقتًا فى ستاريا روسا»[١٨٣]. تصفحت بعض الأوراق[**] وابتسمت وأنا أقول:

ــ هكذا ؟ إذن فنحن تحت رقابتكم الواعية، وأنتم، على الأرجح، تعرفون كل شىء يحدث لدينا؟ هذا ما لم أتوقعه!

ــ نعم، أنا أعرف كل شىء يحدث فى أسرتكم، قال رئيس الشرطة بأهمية بالغة، وأستطيع أن أقول بأننى راضٍ حتى الآن عن زوجك تمامًا.

ــ هل أستطيع أن أنقل لزوجى مديحكم هذا؟ قلت له ذلك بلهجة ساخرة.

ــ نعم. أرجوكم أن تخبروه أنه يتصرف على نحو رائع وأننى أعول على أنه لن يسبب لى فى المستقبل أى متاعب[***].

(*) إدوارد ميخايلوڤيتش جوتسكى ــ دانيلوڤيتش (؟ ــ ١٨٩٥) : عقيد، چنرال فيما بعد. رئيس شرطة ستاريا روسا. المسؤول عن الرقابة السرية لدستويڤسكى باعتباره عضوًا سابقًا فى جماعة بتراشيڤسكى.

(**) انظر ترجمتنا لما ورد فى هذا الكراس الأزرق المنشورة بمجلة ضاد الصادرة عن اتحاد كتاب مصر تحت عنوان اختفاء دستويڤسكى العدد الرابع، السنة الأولى، يونيو ٢٠٠٦، ص ٦٣ ــ ٧٠.

(***) ورد فى تقرير جوتسكى عن دستويڤسكى ما يلى: «يعيش حياته بوعى كامل، حتى أنه يسعى للسير

بعد وصولى للمنزل أخبرت فيودور ميخايلوڤيتش بما قاله رئيس الشرطة وأنا أضحك من فكرة أن رجلاً كزوجى يمكن أن توكل مهمة مراقبته لرجل شرطة غبى، لكن فيودور ميخايلوڤيتش استمع إلى الخبر الذى نقلته إليه على مضض قائلاً:

ـــ كم غضوا البصر عن أناس سيئى السمعة، أما أنا فيرتابون فى ويراقبوننى، أنا الرجل المخلص بقلبه وأفكاره للقيصر وللوطن.

بفضل ثرثرة رئيس الشرطة تكشَّف وضع أحزاننا بشدة، لكن السبب الذى لم نكن نستطيع تفسيره تحديدًا من قبل وهو لماذا لم تكن خطاباتى التى كنت أرسلها إلى فيودور ميخايلوڤيتش من ستاريا روسا إلى إمس، لم تكن ترسل مكلفًا إليه فى نفس اليوم عندما كنت أسلمها إلى مكتب البريد، وإنما كانت تحتجز لسبب ما فى المكتب يومًا أو يومين. وهو ما كان يحدث أيضًا مع خطابات فيودور ميخايلوڤيتش المرسلة من إمس إلى روسا. وفى الوقت المناسب يسبب له قلقًا شديدا؛ بالإضافة إلى أنه كان وراء وقوعه فى نوبات الصرع، وهو ما يتضح، على سبيل المثال من خطابه إلىَّ المؤرخ ٢٨ يوليو ١٨٧٤ [١٨٤]. الآن اتضح أن خطاباتنا كانت تراقب وكان إرسالها يتوقف على نظرة رئيس الشرطة الذى كان كثيرًا ما يتغيب يومًا أو يومين فى مركز الإقليم.

هذه الرقابة التى كانت تتم على مراسلاتى مع زوجى على يد هذه الإدارة أو غيرها (وربما على مراسلاتنا الأخرى كل) استمرت أيضًا فى السنوات التى تلت ذلك وسببت لزوجى ولى غصة فى نفوسنا، لكن التخلص من هذا الموقف الحرج كان أمرًا مستحيلاً. ولم يحاول فيودور ميخايلوڤيتش نفسه أن يثير مسألة رفع رقابة الشرطة عنه، وبخاصة أن شخصيات مطَّلعة أكدت لنا أنه طالما يسمحون له أن يكون محررًا وناشرًا لمجلة «مذكرة الكاتب» فلا شك أن الرقابة السرية على نشاطه قد رُفعت. على أن الرقابة استمرت

فى أقل الطرق ازدحامًا، يعمل يوميًا فى الليل، يواصل العمل فى غرفته على مكتبه حتى الرابعة صباحا... (المترجم)

مع هذا حتى عام ١٨٨٠ عندما تسنى لفيودور ميخايلوڤيتش أن يتحدث مع إحدى الشخصيات الرفيعة عن هذا الأمر إبان الاحتفال ببوشكين، وقد أصدر هذا الشخص تعليماته التى بفضلها رفعت الرقابة السرية[١٨٥]

(٧)

العام ١٨٧٦ السفر إلى بطرسبرج وإمس

فى مطلع شهر فبراير اضطر فيودور ميخايلوڤيتش للسفر إلى بطرسبورج ليقضى بها أسبوعين. كان الهدف الرئيسى لهذه الرحلة هو ضرورة مقابلة نكراسوف والاتفاق معه على المواعيد التالية لنشر الرواية. كان من الضرورى أيضًا له التشاور مع البروفيسور كوشلاكوف، إذ كان زوجى يعتزم السفر إلى إمس فى هذا العام لكى يعزز النجاح الكبير الذى صادف العلاج هناك فى العام الماضى.

فى اليوم التالى لوصولنا إلى العاصمة بصحبة زوجى وقع حادث مؤسف جعله يشعر بالخوف، فقد جرى استدعاؤه لمقابلة رئيس الشرطة، لكن زوجى فشل فى الاستيقاظ والذهاب فى الموعد المحدد (الساعة التاسعة صباحا)، وعندما وصل لم يجد أحدًا بانتظاره فاضطر للعودة مرة ثانية بعد الظهر. إتضح أن السبب وراء استدعاء زوجى هو أن لديه جواز سفر مؤقت وقد طلبوا منه تقديم جواز سفر دائم وهو ما لم يكن يملكه. وقد أثبت فيودور ميخايلوڤيتش لمساعد رئيس الشرطة أنه يعيش بجواز سفر مؤقت منذ عام ١٨٥٩ وأنه يحصل على أساسه على جواز سفر للخارج، وأن أحدًا لم يطلب منه إطلاقًا جوازًا آخر. إليكم ما جاء بخطابه المؤرخ السابع من فبراير ١٨٧٥ «راح مساعد رئيس الشرطة أيضًا يجادلنى: لن نعطيك جواز سفر، إننا ملزمون بالحفاظ على القوانين. وما الذى علىّ أن أفعله؟ أحضر لنا جوازًا دائمًا. ــ ومن أين لى الحصول عليه؟ ــ ليس من شأننا. ــ حسنًا، هذه حماقة، أن يعامل «الكاتب»، فى شعبنا هذا، بهذه الاستهانة. فى النهاية أقول لك إن فى بطرسبورج عشرين ألفا دون جواز. وها أنتم تحتجزون شخصية

مشهورة وكأنه صعلوك ـ نعلم هذا يا سيد، نعلم جيدًا أنك رجل مشهور فى روسيا كلها، لكننا ملتزمون بالقانون. على أية حال، لماذا القلق؟ سنعطيك غدًا شهادة، أليس الأمر سيان بالنسبة إليك؟ ـ تبًا، إذن لماذا لم تقل لى ذلك من البداية وأضعت الوقت فى الجدل (١٨٦) انتهى الأمر باحتجاز جواز زوجى حتى موعد سفره ثم أعادوه إليه، دون أن يستبدلوا به آخر جديدًا، وإنما سببوا له المزيد من هموم كان فى غنى عنها.

فى الخطابين المؤرخين السادس(١٨٧) والتاسع من فبراير أخبرنى زوجى بشعور بالرضا عن لقائه الودى بنكراسوف، الذى عبر له عن سعادته البالغة عند قراءته نهاية الجزء الأول من رواية «المراهق». «جلست طوال الليل أقرأ، وقد استغرقت فى القراءة على نحو لم أكن لأسمح لنفسى به وأنا عجوز معتل الصحة». «يا له من موضوع مبتكر يا صديقى العزيز». (أكثر ما أعجب به نكراسوف كان المشهد الأخير مع ليزا)؟ «فى سنواتنا هذه لا توجد مثل هذه الطزاجة عند أى كاتب. لايوجد عند ليف تولستوى فى روايتــه الأخــيرة سوى تكرار لما قرأته له من قبل، بل إن القديم كان أفضل»، وقد رأى فى مشهد الانتحــــار «قمة الكمال». تصــورى، لقد أعجب أيضًا بالفصلين الأوَّلين. يقول نكراسوف: «أضعف ما فى روايتك هو الفصل الثامن، هنا كثير من الأحداث الظاهرية»، ــ أليس على حق؟ عندما كنت أعيد قراءة المسودة لم أعجب أنا نفسى بالفصل الثامن تحديدًا، وحذفت منه مقاطع كثيرة»(١٨٨)

بعــد عــودتنا إلى روسا قصَّ علىَّ زوجى العديد من الأحاديث التى دارت بينه وبين نكراسوف، وقد اقتنعت أن تجديد العلاقات الودية مع صديق الشباب كان أمرًا عزيزًا على قلبه. بينما تركت لقاءات أخرى له مع بعض الشخصيات الأدبية آنذاك انطباعات أقل أثرًا (١٨٩) على العموم فقد قضى زوجى أسبوعين فى العاصمة فى حالة من الاضطراب والإجهاد الكبيرين، وقد شعر بسعادة لا توصف عندما عاد إلى أسرته ووجدنا جميعًا أصحاء سالمين.

وفى نهاية شهر مايو اضطر فيودور ميخايلوڤيتش للسفر مرة أخرة إلى بطرسبورج لعدة أيام ومنها للخارج. فى هذه المرة لم يكن متحمسًا للسفر إلى إمس وقد بذلت جهدًا

كبيرًا لأقنعه ألا يفوِّت الصيف دون علاجٍ. كان سبب إحجامه يعود إلى أنه تركنى ولست أفضل ما يرام صحيًا (كنت «حاملاً)، وإلى جانب الحنين المعتاد للأسرة فقد عانى زوجى قلقًا بالغًا بسببى.

وقد وقعت حادثة (فى نهاية فترة علاج زوجى) أنذرتنى بخطر كبير فى الثالث والعشرين من يونيو تسلمت خطابًا من بطرسبورج أخبرونى فيه أن صحيفة «وقائع سان بطرسبورج» نشرت خبرًا يفيد أن فيودور ميخايلوفيتش مريض بشدة. لم أصدق ما ورد فى الخطاب، ولكننى أسرعت بالذهاب إلى مكتبة «مينيرالنى ڤودى» بحثًا عن صحف المساء فوجدت فى العدد ١٥٩ من الصحيفة المذكورة الملحوظة التالية:

«علمنا أن كاتبنا الشهير فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى مريض بشدة» يمكنكم تصور كيف يمكن أن تؤثر مثل هذه الأخبار علىّ. خطر ببالى على الفور أن من الأرجح أن تكون نوبة صرع مزدوجة قد داهمت فيودور ميخايلوڤيتش، ومثل هذه النوبات دائما ما يكون لها تأثير بالغ السوء عليه. وقد تكون صدمة عصبية أو ربما أى شىء فظيع آخر. ذهبت إلى مكتب البريد فى حالة من اليأس التام لأرسل برقية إلى زوجى، ورحت بعدها أستعد للسفر إليه، بعد أن اتخذت قرارًا بترك الأطفال فى رعاية الأب روميانتسيف وزوجته. وقد حاولا إثنائى عن السفر إلى زوجى، ولكننى لم أكن قادرة على أن أتحمل فكرة أن زوجى العزيز مريض للغاية وقد يموت وأنا لست بجانبه. ولحسن الحظ فقد تسلمت ردًا مطمئنًا فى حوالى الساعة السادسة. ما زلت أتذكر بمشاعر الخوف ما الذى كان من الممكن أن يحدث لو أننى سافرت وأنا «حامل» وعلى هذه الحالة من القلق الشديد. الحقيقة أن الله قد أنقذنا من كارثة!

لم أنجح فى معرفة من الذى أبلغ الصحف هذا الخبر الذى لم يكن له أساس من الصحة، والذى تسبب فى الساعات العصيبة التى قضيناها أنا وزوجى.

ولكن، وبالإضافة إلى قلقى على الأطفال وخوفى على حملى، فقد كانت هناك فكرة ما لبثت تعذب فيودور ميخايلوڤيتش وهى أنه لايتقدم فى عمله وأنه غير قادر على

تسليم «المراهق» فى الموعد المحدد. فى خطابه المؤرخ الثالث عشر من يونيو كتب فيودور ميخايلوڤيتش قائلاً: إن أكثر ما يعذبنى هو ألا تحقق الرواية نجاحًا: حتى الآن أجلس وأتعذب ويساورنى الشك وليست لدىّ القوة أن أبدأ. لا، ليس بهذه الطريقة تُكتب رواية أدبية، ليس بالعصا، بل أن يكون لدى الكاتب الوقت والإرادة. ولكن، يخيل إلىّ، أننى فى النهاية سرعان ما سأجلس لأبدع عملاً حقيقيًا، لكن، إلى أين سيقودنى الأمر. ما دمت أعيش فى هذا السأم فقد أفسد «الفكرة» ذاتها[190]

ومن بين المشكلات التى كانت تؤرق فيودور ميخايلوڤيتش أيضًا مشكلة استئجار شقة شتوية. وعلى الرغم من أننا كنا نعيش على نحو جيد فى روسا، ولكن إقامتنا فيها شتاء آخر كان أمرًا صعبًا، وبخاصة نتيجة لأنه فى بداية العام التالى (١٨٧٦) قرر فيودور ميخايلوڤيتش أن يشرع فى العمل فى مجلة «مذكرة الكاتب»التى كان يفكر فى إصدارها منذ زمن بعيد. كان الأمر يتلخص فى هل يبدأ البحث عن شقة فى أثناء مروره ببطرسبورج بعد عودته من الخارج، أم تسافر الأسرة إلى العاصمة، وبعد أن نستقر جميعًا فى أحد الفنادق نبدأ فى البحث عن شقة نقيم فيها؟ كل من هذه الحلول كانت له مصاعبه، أما أنا فكنت أميل إلى فكرة الذهاب إلى بطرسبورج بنفسى فى توقيت عودة زوجى لنقوم معًا بالبحث عن شقة. وقد اعترض زوجى بحسم على هذا الحل. آخذًا فى اعتباره حالتى الصحية آنذاك. وقد قررنا فى النهاية أن يبقى فيودور ميخايلوڤيتش يومين ثلاثة فى بطرسبورج، فإذا لم يسعده الحظ فى العثورخلال هذه الفترة على شقة مناسبة فعليه بالعودة إلى روسا.

العام ١٨٧٥ الفأر الصغير

طوال إقامتنا فى ستاريا روسا كان مزاج فيودور ميخايلوڤيتش دائمًا لطيفًا ومرحًا، وهو ما يشهد عليه، على سبيل المثال، مزاحه معى.

ذات يوم من أيام ربيع عام ١٨٧٥ غادر فيودور ميخايلوڤيتش فراشه صباحًا وقد ارتسم العبوس على وجهه. أحسست بالقلق فسألته عن صحته.

ـــ بصحة جيدة ـــ أجاب فيودور ميخايلوڤيتش ـــ ولكن وقع لى حادث مزعج: لقد اتضح أن هناك فأرًا صغيرا فى فراشى. لقد استيقظت بعد أن شعرت أن شيئًا ما جرى على قدمىّ، أزحت الملاءة فرأيت فأرًا صغيرًا. وقد شعرت بالاشمئزاز! قالها فيودور ميخايلوڤيتش وقد عبرت قسمات وجهه عن نفور شديد، وأردف قائلاً: لعل من الضرورى أن نبحث عنه فى الفراش!

ـــ نعم، حتما ـــ أجبته.

ذهب فيودور ميخايلوڤيتش إلى غرفة المائدة ليتناول قهوته، بينما ناديت على الخادمة والطاهية ورحنا معًا نفتش الفراش: أزحنا الملاءة واللحاف والمخدات، استبدلنا البياضات ولم نعثر على شىء، رحنا نقلب الكراسى ونبعد الأرفف عن الحوائط حتى نعثر على جحر الفأر.

عندما سمع فيودور ميخايلوڤيتش الجلبة التى أحدثناها بدأ فى النداء علىّ، ولمّا لم أستجب أرسل إلىَّ أحد الأطفال، أجبته أننى سآتى إليه فور انتهائى من تنظيم الغرفة. عندئذ طلب منى فيودور ميخايلوڤيتش بإصرار أن أذهب إليه فى غرفة المائدة. وعلى الفور ذهبت إليه وعندها سألنى بنفس النفور السابق:

ـــ حسنًا، هل وجدتم الفأر الصغير؟

ـــ أين نجده، لقد هرب. الغريب فى الأمر أن غرفة النوم ليس بها أى منفذ، بداهة فقد تسلل من المدخل.

ـــ أول أبريل، أنيتشكا، أول أبريل! ـــ أجاب فيودور ميخايلوڤيتش وقد أضاءت وجهه الطيب ابتسامة حنون مرحة. اتضح أن زوجى تذكر أن من الشائع فى أول أبريل أن يلجأ الناس إلى عمل خدعة، فأراد أن يسخر منى، وكنت قد صدقت الأمر وقد نسيت تمامًا تاريخ اليوم. بالطبع ضحكنا كثيرًا، وقد اعتدنا أن يدبر كل منا للآخر خدعة «أول أبريل» وكان أطفالنا يشاركون فيها.

(٨)

العام ١٨٧٥ ميلاد ليوشا

العـــــودة إلى بطرسبورج

عاد فيودور ميخايلوفيتش من إمس إلى بطرسبورج فى السادس من يوليو فقضى فى المدينة يومين ثلاثة، ولمّا كان من الصعب عليه فى هذه الفترة القصيرة أن يعثر على شقة مناسبة، فقد ترك البحث، بعد أن شاهد عددًا من الشقق، وعاد أدراجه إلى روسا. كان متشوقًا للغاية للعودة إلى أحضان الأسرة. وبعد أن أمعنَّا النظر والتدبير قررنا البقاء فى روسا إلى أن يصل العضو المنتظر إضافته إلى أسرتنا، ناهيك عن أن السادة كبار السن، الذين كانوا يهيمون حبا بأطفالنا أقنعونا بعدم سفرهم فى منتصف فصل الصيف.

وافق فيودور ميخايلوفيتش على البقاء بارتياح مستغرب، لأن ذلك كان سيسمح له بالعمل فى هدوء على إتمام روايته قبيل وبعد أن أضع طفلى، دون أن يتخلى عن تعاونى معه. كان العمل يتطلب قدرًا كبيرًا من الجهد حتى يتسنى لزوجى عند وصوله إلى بطرسبورج أن يطلب من نكراسوف نقودًا مقابل رواية «المراهق». وكانت النقود ضرورية لنا لأقصى حد لكى نبدأ بها حياتنا فى العاصمة.

سار كل شىء على ما يرام. كان فيودور ميخايلوفيتش يشعر أنه قد تعافى تمامًا، وقد راح الأطفال يكبرون وتتحسن صحتهم، وحتى أنا شعرت، بعد عودة زوجى، أن كل مخاوفى التى كانت تنتابنى قبل الوضع باحتمال موتى، قد اختفت جميعها تمامًا. وهكذا مضت أحوالنا فى هذا الشهر هادئة لا يعكر صفوها شىء، وفى العاشر من أغسطس وهبنا الله غلامًا سميناه ألكسى(*) كلانا كان سعيدًا إلى حد لا يوصف، مسرورًا بمجىء آليوشا للدنيا (وبخاصة أنه كان بصحة لابأس بها) وبفضل ذلك استعدت عافيتى سريعًا واستطعت أن أساعد زوجى مرة أخرى بأعمال الاختزال.

(*) تيمنًا بالقديس ألكسى وكان من الأولياء الذين أحبهم فيودور ميخايلوفيتش. ولهذا أطلق اسمه على مولوده، على الرغم من أن أحدًا فى عائلتنا لم يكن يحمل هذا الاسم (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا).

جو لطيف ساد شهر أغسطس بأكمله حل بعده شهر سبتمبر بأيامه المعروفة «بالصيف الهندى»، عجيبة بدفئها وهدوئها على أننا قررنا السفر فى حوالى الخامس عشر من الشهر خوفًا من تقلب الجو. كان الطريق أمامنا شاقًا. فالسفن لم تكن تصل إلى المدينة بسبب انخفاض المياه فى نهر بوليستا، ومن ثم كانت تقف فى بحيرة إيلمين فى مواجهة قرية أوستريكا، على بعد ثمانية عشر فرسخًا من روسا. وذات صباح رائع دافئ خرجنا من البيت فى طابور طويل: فى المقدمة جلس فيودور ميخايلوفيتش مع الطفلين فى عربة مسقوفة؛ بينما جلست أنا والرضيع والمربية فى العربة الثانية، وفى الثالثة جلست الطاهية فوق جبل من الصناديق والأجولة والصرر. سرنا فى جو يسوده المرح على صليل أجراس الخيول وكان فيودور ميخايلوفيتش يوقفها لكى يطمئن على أحوالى ويخبرنى أنه فى غاية السعادة مع الأطفال.

وصلنا إلى أوستريكا بعد حوالى ساعتين ونصف، وهنا صادفنا أمر لم نعمل له حسابًا. لقد وصلت السفينة بالأمس، وبعد أن أخذت عددًا كبيرًا من المسافرين، قرر القبطان أن العدد الراغب فى السفر سيكون قليلاً اليوم ولهذا وعد بالمجىء فى الغد. أسقط فى أيدينا. كان علينا أن نقضى يومًا بطوله هنا. هرعت إلينا ربات بيوت من بيتين ثلاثة يدعوننا للمبيت لديهن. اخترنا أكثرها نظافة لتنتقل العائلة كلها إليه سألت صاحبة البيت كم تأخذ أجرًا على المبيت فأجابت بأريحية شديدة: «لاعليك يا سيدتى، لن نأخذ أكثر مما يجب، وأنت لن تهضمينا حقنا شيئًا».

اتضح لنا أن الغرفة متوسطة الاتساع بها سرير كبير، يمكن وضع الأطفال فيه بالعرض، قررت أن أقرب بعض الكراسى بعضها إلى بعض وأنام عليها، أما فيودور ميخايلوفيتش فنام على أريكة قديمة ذكره مظهرها بطفولته. بينما ذهبت الفتيات (الطاهية والخادمة) للنوم فى مخزن العلف.

وحيث إننا سافرنا ومعنا كل ما نملكه، حاملين معنا أيضًا مواد غذائية، فقد ذهبت الطاهية على الفور لإعداد طعام الغداء، بينما توجهنا نحن للنزهة فمددنا عددًا من الأربطة على الأرض فوق تل يطل على البحيرة وجلسنا نستجم. كان وليدنا بصحبتنا

وقد استغرق فى النوم فى هذا الهواء الطلق. قضينا يومًا رائعًا: كان فيودور ميخايلوفيتش مسرورًا للغاية يلعب مع الأطفال ويدخل معهم فى سباق للجرى. وكنت مبتهجة لأننا نجحنا أن نجعل جزءًا من رحلتنا الطويلة على هذا النحو من السعادة. تناولنا طعام الغداء، وسرعان ما هبط الظلام لنعود ونهجع فى أسرَّتنا مبكرًا.

فى الصباح، فى حوالى الثامنة، أخبرونا أن دخان السفينة يتراءى عن بعد، وبعد حوالى ساعة ونصف سوف تصل إلى أوستريكا. بدأنا نجمع أمتعتنا ونلبس الأطفال ما يناسب الطريق ثم ذهبت لدفع أجرة المسكن. اختفت صاحبة البيت ليظهر بدلاً منها ابنها يبدو من مظهره أنه شخص مولع بشرب الفودكا. كان الحساب مكتوبًا بخط ردىء وبلغت قيمته أربعة عشر روبلاً وبضع كوبيكات: منها روبلان ثمن دجاجة، واثنان ثمن اللبن وعشرة للمبيت. غضبت بشدة ورحت أجادله فى الحساب، لكن ابن صاحبة البيت لم يتراجع وهددنا بأنه سوف يحتجز حقائبنا إذا لم ندفع المبلغ كله. بالطبع اضطررنا للدفع ولكننى لم أتمالك نفسى ووصفته «باللص».

فى هذه الأثناء كانت السفينة قد اقتربت وتوقفت على مسافة نصف فرسخ من الشاطئ ومن ثم كان علينا أن نستقل قاربًا لنصل إليها. ولكن عندما نزلنا إلى الشاطئ نفسه تبين أن القوارب تقف على مسافة بضع خطوات من البر وكان البسطاء يخوضون فى المياه إليها بعد أن خلعوا أحذيتهم. أما نحن فقد حملتنا علَى ظهورهن نسوة أشداء. لكم أن تتخيلوا مدى الخوف والقلق الذى شعرنا به أنا وزوجى على الأطفال. حملوا زوجى أولاً وقد وضع على يديه الأطفال وقد راحوا يصرخون ويبكون من الخوف. ثم حملونى بعده وأخيرًا حملوا الرضيع. جلست فى القارب وقد انتابنى الخوف وأنا أفكر كيف سنصعد إلى السفينة على السلم ومعنا الأطفال. لكن كل شىء تم على ما يرام: أرسل القبطان واحدًا من بحارته ليستقبلنا، وقد قام بحمل الأطفال كلهم. فى هذه الأثناء وصلت أمتعتنا عبر قارب يقوده ابن صاحبة البيت.

كان النهار بديعًا. انعكس سطح بحيرة إيلمين بلون الفيروز لتذكرنا بالبحيرات السويسرية. لم يكن هناك أدنى اهتزاز وقد جلسنا ساعات السفر الأربع جالسين على السطح.

وصلنا إلى نوفجورود فى حوالى الساعة الثالثة. وعلى الفور توجهنا أنا وفيودور ميخايلوڤيتش والأطفال إلى محطة السكك الحديدية.بينما تولى الحوذية إنزال أمتعتنا مع أمتعة باقى الركاب وبعد ساعة أحضروا الأمتعة، ولما لم أكن أثق فى فطنة الخادمة فقد ذهبت بنفسى لمراجعتها: كانت لدينا حقيبتان جلديتان كبيرتان، إحداهما سوداء والأخرى صفراء وبعض الحقائب الصغيرة، وقد هدأ خاطرى عندما شاهدتهم جميعًا.

مر اليوم بسرعة كبيرة، وفى حوالى الساعة السابعة جاء إلىّ الحارس وأخبرنى أن من الأفضل لى أن أعطيه التذاكر مقدمًا وأن أتسلم الحقائب قبل أن يزدحم المسافرون للحصول على أمتعتهم. وافقت واشتريت التذاكر وبعد أن عدت أشرت للحارس إلى حقيبتين كبيرتين واثنتين أخريين يجب تسليمهما. وفجأة، ولشدة دهشتى، قال لى الحارس، مشيرًا إلى الحقيبة السوداء: «سيدتى، هذه ليست حقيبتك. لقد سلمتها لتوى لحفظها لمسافر آخر».

ــ كيف ليست حقيبتى؟ مستحيل! ــ صرخت واندفعت أفحص الحقيبة. وآسفاه ــ على الرغم من أنها بنفس شكل ومقاس حقيبتنا (من المؤكد أنه قد تم شراؤها أيضًا من مخزن جوستينى دڤور بعشرة روبلات)، ولكنها دون أدنى شك، حقيبة شخص آخر، مكتوب على سطحها الحرفان الأوليان من اسم صاحبها بخط يكاد ينمحى.

ــ يا إلهى، إذن أين توجد حقيبتنا فى هذه الحالة؟ ابحث عنها، ــ قلت للحارس، لكنه أجاب بأنه لا توجد حقيبة سوداء أخرى هنا. وقعت فى هاوية اليأس: فالحقيبة الضائعة أشياء تمثل أهمية كبرى لفيودور ميخايلوڤيتش، ملابسه الخارجية وبياضات، والأهم من ذلك كله ــ مخطوطات رواية «المراهق»، التى ينبغى على زوجى أن يحملها غدًا إلى «حوليات الوطن»ويتسلم مكافأته المالية عنها والتى نحن فى أمس الحاجة إليها، وعلى هذا فقد ضاع جهده على مدى الشهرين الأخيرين ومن المستحيل إعادة كتابتها مرة أخرى، إذ إن المسودات التى كتبها فيودور ميخايلوڤيتش موجودة أيضًا فى الحقيبة، ودونها يصبح عاجزًا تمامًا، وعليه أن يضع، مضطرًا، خطة جديدة للرواية. هكذا تخيلت

حجم الكارثة التى حلت بنا. هرولت دون أن أشعر وقد غمرنى الحزن الى الصالة التى كان ينتظرنى فيها فيودور ميخايلوڤيتش مع الأطفال. عندما رأى وجهى وقد علاه الكدر، فزع زوجى خشية أن يكون مكروهًا قد أصاب المولود الذى كان بصحبة المربية فى غرفة السيدات. ما كدت ألتقط أنفاسى حتى رحت أقص عليه ما حدث.

كانت صدمة عنيفة لفيودور ميخايلوڤيتش حتى أن وجهه قد شحب وغمغم قائلاً:

ــ حقًا، إنها كارثة ثقيلة. ما الذى علينا أن نفعله الآن؟

ــ أتعرف، تذكرت فجأة، إنه هذا الوقح ابن صاحبة البيت لم يضع الحقيبة على الباخرة، نكاية فى، لأننى وصفته باللص.

ــ لعلك على حق، وافقنى على ذلك فيودور ميخايلوڤيتش. ولكن، تعرفين أن علينا ألا نتوقف عن البحث عن الحقيبة، يجب أن نحاول. مستحيل أن تكون قد اختفت. إليك ما ينبغى أن نفعله: تذهبين إلى بطرسبورج مع الأطفال (كان النزول فى فندق هنا بصحبة الأطفال والخادمة أمر مستحيل، إذ لم يكن معنا ما يكفى من مال)، وأنا سأبقى هنا، وغدًا أذهب إلى ليرخى(*) (محافظ نوفجورود وكان صديقًا لفيودور ميخايلوڤيتش)، فأطلب منه أن يرسل معى شرطيًا، وغدًا أذهب مباشرة إلى أوستريكا. فإذا كان صاحب البيت احتجز الحقيبة لديه، فسوف يسلمها لنا على الأرجح خوفًا من إجراء تفتيش. حسنًا، وأنت هدئى من روعك بالله عليك! اذهبى فاغتسلى بالماء البارد، ثم عودى إلينا بأسرع ما يمكن!

ذهبت وقد بلغ بى اليأس حدًا كبيرًا. رحت ألوم نفسى على العصبية التى وقعت، وعلى أننى لم أعتن اعتناء كافيًا بأعز ما لدينا، وعلى أنه بسبب عدم متابعتى لأمتعتنا

(*) إدوارد ڤاسيليڤيتش ليرخى (١٨٢٧ ــ ١٨٨٩): سيناتور، محافظ نوفجورود فى الفترة من ١٨٦٤ إلى ١٨٨٢

ضاع جهد شهرين بذله زوجى! «لكننى نظرت وكنت على يقين أنها حقيبتنا! هكذا حدثت نفسى. وهل كان من الضرورى أن تقع هذه المصادفة فيحدث هذا التشابه مع حقائبنا!»وقفت فى صالة الحقائب مستندة إلى أحد القوائم، وفجأة برقت فى رأسى فكرة أنه ماذا لو أن الحقيبة ما تزال على رصيف الباخرة؟ فى هذه الحالة لا بد أنهم أخذوها بطبيعة الحال وأخفوها. ماذا لو ذهبت للسؤال عنها هناك؟ توجهت إلى الحارس بالسؤال إن كان بإمكانه الذهاب إلى الرصيف والاستعلام إن كانت هناك حقيبة وأن يحضرها إلينا، فإذا لم يعطوها له فليخبرهم أن أصحابها سيأتون غدًا لاستلامها. أجابنى الحارس أنه لا يستطيع مغادرة المكان لأنه منوط بالوردية. عندئذ، ودون أن أطيل التفكير، قررت الذهاب بنفسى إلى الرصيف. خرجت من المحطة، وجدت عند البوابة حوذيين فصرخت قائلة: «من يأخذنى إلى رصيف السفن، ذهابًا وعودة، أعطيه روبلاً ونصف؟» أحدهما أجاب أنه مشغول، والآخر، وهو شاب يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، وافق، قفزت فى العربة وانطلقنا. كانت الساعة حوالى الثامنة مساء وكان الظلام قد حل بدرجة كبيرة. عندما كنا نسير عبر شوارع المدينة، لم يكن ينتابنى أى خوف لوجود أعمدة الإضاءة والمشاة. ولكننا ما إن عبرنا جسر فولخوفسكى وانحرفنا يمينًا، بالقرب من عدد من العنابر الطويلة، حتى راح قلبى يدق بشدة: هنا، فى الظلام، فى عمق العنابر، بدا أن هناك أناسًا مختبئين، حتى أن صعلوكين منهم راحوا هناك يركضون وراءنا. عندئذ قام الفتى بهمز الحصان ودفعه حتى أنه انطلق كأنه الطير. وصلنا بعد عشر دقائق إلى الرصيف. قفزت من العربة وعدوت عبر الجسر الصغير نحو المكتب الأمامى. كان المكان هناك مظلمًا بداهة، كان الحارس نائمًا. رحت أدق الحائط بكل قوتى، ثم الحائط الآخر، ثم النافذة، فى البداية صحت بأعلى صوتى: «أيها الحارس، افتح بسرعة!». بعد خمس دقائق وكنت قد يأست من نجاحى وأردت أن أعود إلى الحوذى، إذا بسعال رجل عجوز يدوى فجأة، ثم تلاه صوت يقول: «من يدق؟ ماذا تريدين؟» ــ افتح يا جدى بسرعة ! ــ صحت، بعد أن قررت بناء على الصوت، أنى أتحدث إلى شيخ عجوز» ــ لقد تركنا لديكم حقيبة سوداء كبيرة، وقد قدمنا لأخذها. ــ «موجودة»، ــ

أجاب الصوت. «أخرجها إذن بسرعة!» ــ «اقترب ــ أجاب العجوز ثم دفع فى الحائط الجانبى بحاجز خشبى (يسلمون الأمتعة عبره للمكتب بالأمتعة) وألقى على الرصيف بحقيبتى السوداء. يمكنكم أن تتصوروا سعادتى الغامرة فى هذه اللحظة!

ــ يا شيخ، أحضر الشنطة إلى الحوذى وسوف أعطيك ثمن الفودكا، ــ توجهت إليه بهذا الطلب لكنه إما لم يسمعنى وإما خشى رطوبة المساء، ولكنه أعاد الحاجز الخشبى إلى مكانه ليسود المكان الصمت المطبق الذى كان عليه من قبل. حملت الحقيبة فوجدتها ثقيلة للغاية يصل وزنها إلى أربعة بودات(*) أسرعت أبحث عن الفتى الحوذى لكنه رفض وضعها على مقعده قائلاً. «انظرى بنفسك، المكان ضيق للغاية، كيف لى أن أضعها إلى جوارى وأقود الحصان!» أسقط فى يدى، عدت من جديد مسرعة، أمسكت الحقيبة من مقبضها وجررتها وأنا أتوقف لالتقاط أنفاسى خطوة بعد خطوة، ولسوء الحظ كان الجسر طويلاً. على أنى نجحت فى النهاية أن أصل. نزل الحوذى من العربة ووضع الحقيبة فى المسافة بين مقعده والمقعد الخلفى، أما أنا فقد جلست فوقها بنفسى وقد عقدت العزم ألا أتنازل عنها حتى ولو هاجمنا «الأوباش». راح الحوذى يهمز حصانه فانطلقنا بسرعة البرق لنمر عبر طريقنا بأشخاص راحوا ينادون علينا وبعد خمس عشرة دقيقة وصلنا إلى الميدان التجارى. المكان هنا أكثر أمانًا. وعند هذه اللحظة انتعش سائقنا وبدأ يحكى عن الخوف الذى انتابه: «أردت أن أعود أدراجى، ولكن خشيت أن أتركك وحدك. فقد جاءنى إثنان من «الأوباش» وسألونى عن الأمر فقلت لهم إننى أحضرت رجلاً، وعندما سمعوا صياحك مع شخص ما انصرفوا».

رجوت الفتى أن يسرع فى العودة، فقد كنت أدرك كم من الوقت مضى منذ مغادرتنا المحطة، وأن فيودور ميخايلوڤيتش لا بد وأنه يفتقدنى بشدة الآن. وقد اتضح أن زوجى. عندما وجد أننى لم أرجع، ذهب إلى استراحة السيدات، ولما لم يجدنى هناك بعد أن تركت الأطفال وأليوشا للمربية، ذهب للبحث عنى. ظل زوجى يسأل الحراس

(*) البود : وحدة وزن زنتها ١٦,٣٨ كيلو جرامًا (المترجم).

لعل أحدًا منهم قد رآنى، فأجابه أحدهم أن السيدة استأجرت حوذيًا اتجه بها ناحية هذا الجانب من المدينة. كان فيودور ميخايلوڤيتش قلقًا، لا يعرف إلى أين توجهت فى هذه الساعة المتأخرة، وحتى يتمكن من لقائى، خرج إلى سقيفة الباب. وعندما رأيته عن بعد صحت :

ــ ها أنذا فيودور ميخايلوڤيتش، جئت ومعى الحقيبة!

لحسن الحظ أن المكان أمام بوابة محطة السكك الحديدية لم يكن مضاءً بشكل مناسب، وإلا شاهد الناس سيدة محترمة لا تجلس على المقعد المخصص للجلوس فى عربة وإنما فوق حقيبة، ويا له من منظر غير لائق بالمرة.

عندما قصصت على فيودور ميخايلوڤيتش مغامراتى كلها أصابه الذعر ووصفنى بالجنون.

ــ يا إلهى، يا إلهى! ــ صاح زوجى، فكِّرى فى مدى الخطر الذى تعرضتِ له! الأمر أن الأوباش عندما رأوا حوذيًا معه امرأة فى عربته أسرعوا وراءك، وكان باستطاعتهم أن يهجموا عليك فينهبوك ويشوهوك ويقتلوك! فكِّرى، ما الذى كان سيحدث لنا، سيحدث لى، سيحدث للأطفال؟ آه يا آنيا، إن اندفاعك هذا سيقودك للهلاك!

كان فيودور ميخايلوڤيتش يرى أن اندفاعى، أو كما يقال، ميلى لاتخاذ قرار خاطف فى ثانية واحدة ووضعه موضع التنفيذ، دون إمعان التفكير فيما يترتب عليه من نتائج، وهو أكبر عيوبى، وقد أشار إلى ذلك فى بعض خطاباته إلىّ.

شيئًا فشيئًا عاد فيودور ميخايلوڤيتش إلى هدوئه، وفى نفس الليلة عدنا إلى بطرسبورج سالمين.

أقدم هذا المشهد كنموذج للمصاعب والكروب التى صادفتنا فى تلك الأزمان البعيدة لمجرد سفرنا إلى بلد قريب نسبيًا مثل ستاريا روسا.

الجزء الثامن
العامان ١٨٧٦ ــ ١٨٧٧

(١)
العام ١٨٧٦ . المزحة السخيفة

ينتابنى إحساس بالفزع كلما تذكرت هذا الحادث الذى وقع فى الثامن عشر من مايو عام ١٨٧٦ إليكم ما حدث: فى هذا العام كانت «حوليات الوطن» تنشر رواية جديدة للكاتبة صوفيا سميرنوڤا(*) بعنوان «قوة الشخصية». كان فيودور ميخايلوڤيتش صديقًا لها وكان يقدر موهبتها الأدبية تقديرًا رفيعًا. وقد أبدى زوجى اهتمامًا بعملها الأخير فطلب منى أن أحصل له على أعداد من المجلة بمناسبة ظهور الرواية فيها. كنت دائمًا أتحين تلك الأيام التى يستريح فيها من عناء العمل فى «مذكرة الكاتب» فأحضر له «حوليات الوطن». ولما كانت المكتبة تعير الأعداد الجديدة من المجلة لمدة يومين ثلاثة، فقد كنت أحث زوجى على قراءة المجلة حتى نتجنب دفع غرامة للمكتبة إذا لم نعد إليها الأعداد فى الوقت المحدد. وهو ما حدث مع عدد أبريل. فبعد أن أتم فيودور

(*) صوفيا إيفانوڤنا سميرنوڤا (١٨٥٢ ــ ١٩٢٠): كاتبة مسرح وروائية. نشرت فى «حوليات الوطن» ثم فى «العصر الحديث». زوجة الممثل ن.ف. سازونوف.

ميخايلوفيتش قراءة الرواية أثنى لى على العزيزة صوفيا إيفانوفنا (التى كنت أنا أيضًا أقدرها) لنجاحها فى تصوير أحد الشخصيات[١٩١] وفى المساء ذاته خرج فيودور ميخايلوفيتش لحضور أحد الاجتماعات، أما أنا فقد عكفت، بعد أن وضعت الأطفال فى أسرَّتهم، على قراءة «قوة الشخصية». تضمنت الرواية، بالمناسبة، خطابًا غفلاً من التوقيع أرسله شخص سافل لبطل الرواية، إليكم ما ورد بالخطاب:

سيدى الكريم(*)

بيتر إيفانوفيتش المحترم[١٩٢]

أنا شخص مجهول لديكم تمامًا، وحيث إنى متعاطف معكم، فإننى أتجاسر بكتابة هذه السطور إليكم. إننى على دراية تامة بما تملكونه من نبل وكرم، ولذلك يحز فى نفسى أن تقوم إحدى الشخصيات القريبة منكم بخداعكم على نحو لا يليق بكم. إن هذه الشخصية تعيش على مسافة، ربما، ما يزيد على ألف فرسخ، وهى مثل يمامة سعيدة، ما إن تنشر جناحيها حتى تحلق فى الفضاء غير آبهة بالعودة إلى بيت الأسرة. لقد تركتم لها العنان وهى الآن على وشك الهلاك. لقد وقعت بين مخالب شخص يسومها العذاب، لكنه يفتنها بمظهره المتملق، شخص ملك فؤادها، وبات لديها أعز من عينيها، فإذا لم يردد على أذنيها معسول الكلام، راحت تكره كل شىء حتى أطفالها. إذا أردت أن تعرف من هذا الوقح فلن أخبرك باسمه، ولكن عليك أن تحاذر أصحاب البشرة السمراء، فإذا ما رأيت أحدهم حريصًا على زيارتكم وكثرة التردد عليكم فتدبر أمرك. هذا الأسمر يقطع الطريق عليكم منذ زمن بعيد دون أن تحزر من هو. لاشىء فى الأمر كله يهمنى، لكنى أكشف لكم هذا السر لما عهدته فيكم من كرم ونبل. فإذا لم تكن تصدقنى فيما أقول، فإن زوجتك تعلق فى رقبتها سلسلة لها قلادة، فانظر من تضع فى هذه القلادة فوق قلبها. المجهول أبدًا، المخلص دومًا.

(*) «حوليات الوطن» ٢ أبريل، ١٨٧٦، ص ٤٥٧. (ملاحظة لآنا جريجوريفنا دستويفسكايا).

ينبغى أن أذكر هنا أننى فى الفترة الأخيرة كنت فى حالة نفسية رائعة: توقفت منذ فترة طويلة نوبات الصرع التى كانت تداهم زوجى، شفى الأطفال من الأمراض تمامًا، كنا نسدد ديوننا شيئًا فشيئًا، أما نجاح «مذكرة الكاتب» فكان فى صعود. كل ذلك دعم داخلى المزاج المميز لشخصيتى المحبة للحياة. وهكذا إذا بى تحت تأثير هذا المزاج، وقراءتى لهذا الخطاب الذى أرسله مجهول، تخطر فى ذهنى فكرة عبثية هى أن أعيد كتابة هذا الخطاب (بعد أن أغير وأمحو سطرين ـ ثلاثة إلى جانب الاسم) وأرسله إلى فيودور ميخايلوڤيتش. تصورت أنه، وقد قرأ هذا الخطاب بالأمس فى رواية سميرنوڤا سوف يخمن على الفــــور أن هـــذا الخطاب ليس سوى مزحة وسوف نضحك عليه كلانا. وقد خطـــرت برأسى فكرة أخرى أن زوجى سوف يأخذ الخطاب على محمل الجد، وفى هذه الحالة شاقنى أن أعرف كيف سيتصرف عندما يتسلم خطابًا مجهولاً: هل سيعرضه علىّ أم سيلقى به فى سلة المهملات؟ وكعادتى رحت أنفذ ما فكرت فيه. فى البداية أردت أن أكتب الخطاب بخطى المعتاد، ولمّا كنت أعيد يوميًا كتابة «مذكرة الكاتب» بعد أن يمليها علىّ فيودور ميخايلوڤيتش، من لغة الاختزال إلى الكتابة العادية، فقد بات خطى معروفًا على نحو جيد له. وهنا لجأتُ إلى بعض التمويه لهذه المزحة فتوصلت لكتابة الخطاب بخط مختلف الحروف فيه أميل للاستدارة التى لا تميز خطى. وقد كلفنى هذا جهدًا بالغًا فقد اضطررت لإفساد عدد من الصفحات قبل أن تتخذ الكتابة شكلاً متسقًا. وفى صباح اليوم التالى وضعت الخطاب فى الصندوق ليسلمه لنا البريد فى منتصف اليوم ومعه باقى المراسلات.

فى هذا اليوم تأخر فيودور ميخايلوڤيتش فى مكان ما ومن ثم فقد عاد إلى المنزل فى الخامسة تمامًا، وحيث إنه لم يرغب فى تأخير الأطفال عن الغداء، فقد ارتدى ملابس المنزل ولم يتفحص البريد واتجه مباشرة إلى غرفة الطعام. كان فيودور ميخايلوڤيتش فى حالة نفسية طيبة، كان يتحدث كثيرًا ويضحك وهو يجيب عن أسئلة الأطفال. وبعد تناول الغداء، وما هى إلا عشر دقائق حتى توجهت لاستطلاع أثر الخطاب المجهول عليه.

دخلت إلى الغرفة وجلست فى مكانى المعتاد بالقرب من المكتب وتعمدت أن أنحو بالحديث منحى يتطلب إجابة من فيودور ميخايلوڤيتش. لكنه ظل صامتًا وقد علا وجهه العبوس، ثم راح يذرع الغرفة بخطوات ثقيلة. لاحظت أنه متوتر وأحسست فى لحظة خاطفة بشعور من الأسى عليه. وحتى أقطع الصمت الذى ساد المكان سألته:

ــ فيديا، لماذا أنت متجهم هكذا؟

نظر إلىّ فيودور ميخايلوڤيتش غاضبًا ثم واصل سيره مرتين فى الغرفة ثم توقف فى مواجهتى مباشرة:

ــ هل تحملين قلادة؟ ــ سألنى بصوت مختنق.

ــ نعم، أحمــل.

ــ أرينى إياها !

ــ لماذا؟ لقد شاهدتها مرارًا.

ــ أرينى القلادة! ــ صاح فيودور ميخايلوڤيتش بأعلى صوته؛

أدركت عندئذ أن مزحتى وصلت إلى طريق مسدود، وحتى أهدئ من روعه رحت أفك أزرار ياقة ثوبى. لكننى لم أستطع أن أسحب القلادة بنفسى. لم يستطع فيودور ميخايلوڤيتش أن يملك غضبه الذى اجتاحه، وإذا به يميل نحوى بسرعة وينزع السلسلة عن رقبتى بكل قوته. كانت سلسلة رقيقة، اشتراها بنفسه لى فى ڤينيسيا. وعلى الفور قُطعت السلسلة واستقرت القلادة فى يد زوجى. استدار نحو مكتبه وانكب فوقه يتفحص القلادة. لم يكن يعرف كيف يضغط على الزنبرك ولذلك راح يعالجه مدة طويلة. كنت أرى كيف راحت يداه ترتعشان حتى كادت القلادة تسقط من يديه على المكتب. كنت أشعر بالأسى الشديد نحوه والحزن على نفسى. بدأت أتحدث إليه بشكل ودى فعرضت عليه أن أفتحها بنفسى، لكن فيودور ميخايلوڤيتش أشاح برأسه غاضبًا رافضًا مساعدتى. أخيرًا نجح زوجى فى معالجة الزنبرك، وعندما فتح القلادة وجد

بداخلها صورة لوباتشكا على جانب، وعلى الجانب الآخر صورتى. أصابه الذهول التام، وواصل تفحص الصورة صامتًا.

ــ حسنًا، ماذا وجدت؟ فيديا، يا عزيزى، كيف استطعت أن تصدق خطابًا من مجهول؟ التفت إلىّ فيودور ميخايلوفيتش بحماس.

ــ وأنت من أين عرفت بشأن الخطاب من مجهول؟

ــ من أين ؟ إننى أنا الذى أرسلته بنفسى!

ــ كيف أرسلته بنفسك، ماذا تقولين! أمر لايُصدق!

ــ سوف أُثبت لك !

اقتربت بسرعة من المكتب الآخر، حيث وضِعت عليه أعداد من «حوليات الوطن»، فتشت فيه وأخرجت بعضًا من الأوراق، التى كنت أجرب فيها بالأمس كيف أنتحل خطًا عير خطى.

أسقط فى يد فيودور ميخايلوفيتش من الذهول.

ــ وأنت التى صغت هذا الخطاب؟

ــ لم أصغه إطلاقًا ! لقد نقلته حرفيًا ببساطة من رواية صوفيا إيڤانوڤنا. وقد كنت تقرؤه أمس: لقد اعتقدت أنك ستحزر الأمر على الفور.

ــ حسنًا، الآن تذكرت! على هذا النحو تمامًا يكتبون الخطابات المجهولة المرسل. لكنى لا أدرى لماذا أرسلته لى؟

ــ أردت فقط أن أمزح، شرحت له الأمر.

ــ إذن كنت تمزحين يا آنيتشكا، قالها وقد امتلأ صوته بالإحساس بالذنب ــ ألم تفكرى أن الأمر كان يمكن أن يؤدى إلى مصيبة! كان من الممكن أن أخنقك فى لحظة غضب! ليس هناك ما يقال سوى أن الله قد لطف بنا رأفة بأطفالنا ! تصورى، على

الرغم من أننى لم أجد صورة هناك، لكن كان من الممكن أن يبقى فى صدرى قدر من الشك فى إخلاصك، ولبقيت طوال عمرى أتعذب بذلك. أتوسل إليك ألا تمزحى بمثل هذه الطريقة، فلست مسؤولاً عما أفعل فى لحظة الغضب!

كنت أشعر فى أثناء حديثنا ببعض الألم عندما أحرك رقبتى. وضعت عليها منديلى، فإذا بشريط من الدم ينطبع عليه: بداهة فقد جرحت رقبتى عند نزع السلسلة بقوة. أحس زوجى بالذعر عندما شاهد الدم على المنديل.

ــ يا إلهى، ماذا فعلت! آنيتشكا، عزيزتى، سامحينى! لقد جرحتك ! هل تشعرين بالألم، أخبرينى، هل الألم شديد؟

رحت أهدئ خاطره. شرحت له أنه لا يوجد أى جرح، وأن الأمر لا يزيد عن خدش بسيط ما يلبث أن يلتئم غدًا. كان فيودور ميخايلوڤيتش فى غاية القلق، والأهم أنه كان ما يزال تحت تأثير سورة غضبه. ظل طوال المساء يعتذر ويأسف ويعاملنى بكل حنان ومودة. كنت فى غاية السعادة، أن مزحتى السخيفة انتهت على خير. كنت أشعر بالندم لما سببته من ألم لفيودور ميخايلوڤيتش، وعاهدت نفسى ألا أمزح مطلقًا فى حياتى فى مثل هذه الأمور، بعد أن علمتنى التجربة كيف يمكن لدقائق من الغيرة أن تدفع بزوجى إلى حالة من الجنون والخبل.

ما زلت أحتفظ حتى الآن بالقلادة والخطاب الغفل من التوقيع (المؤرخ الثامن عشر من مايو ١٨٧٦).

(٢)

عام ١٨٧٦ . البحث عن بقرة

فى صيف عام ١٨٧٦ عاش فى ستاريا روسا نيكولاس بتروڤيتش ڤاجنر(*)، الأستاذ

(*) نيكولاى بتروڤيتش ڤاجنر (١٨٢٩ ــ ١٩٠٧): كاتب، نشر أعماله تحت اسم مستعار هو «كوط موزليك» فى الفترة من ١٨٧٦ إلى ١٨٧٨. أصدر مجلة «سڤيت» (الضوء). أستاذ علم الحيوان بجامعة بطرسبورج.

فى جامعة سان بطرسبورج هو وأسرته. وقد زارنا حاملاً خطابًا من ياكوف بولونسكى(*) وقد ترك انطباعًا جيدًا لدى زوجى، وقد راحا يلتقيان أحيانًا وكان فيودور ميخايلوڤيتش مهتمًا بصديقه الجديد باعتباره شخصًا مهتمًا على نحو خيالى بتحضير الأرواح(١٩٣).

وذات يوم صادفنى ڤاجنر وكنت أتنزه فى إحدى الحدائق وقال لى:

ــ لقد أدهشنى بالأمس فيودور ميخايلوڤيتش!

ــ كيف؟ أجبت وقد أخذنى الفضول.

ــ كنت أتنزه فى المساء، وأردت أن أمر بكما، وإذا بى ألتقى عند تقاطع الطريق بزوجك فسألته: «هل أنت ذاهب للنزهة، فيودور ميخايلوڤيتش؟»

ــ لا، لست ذاهبًا للنزهة، وإنما فى عمل.

ــ وهل يمكننى أن آتى معك؟

ــ يمكنك إذا كنت تريد، أجاب دون ترحاب.

كان مظهره يدل على أنه مهموم، وكان من الواضح أنه لا يرغب فى تبادل الحديث معى. وعندما وصلنا إلى أول تقاطع التقينا امرأة ما فى طريقنا وعلى الفور سألها فيودور ميخايلوڤيتش.

ــ يا عمة، ألم تقابلى فى طريقك بقرة بنية داكنة.

ــ لا، يا أبتاه، لم أقابل، أجابت المرأة.

بدا لى أمر البقرة ذات اللون البنى الداكن أمرًا عجيبًا. وقد أرجعت الأمر للمعتقد الشعبى الذى يؤمن بأنه يمكن التنبؤ بالطقس القادم تبعًا لأول بقرة تكون عائدة لتوها من الحقل، وقد ظننت أن فيودور ميخايلوڤيتش يستفسر عن بقرة بغرض معرفة الجو

له مقالات فى تحضير الأرواح.

(*) ياكوف بتروڤيتش بولونسكى (١٨١٩ ــ ١٨٩٨): شاعر وناقد. عمل بمجلتى «حوليات الوطن» و«المعاصر»، ثم مجلتى «الزمن» و«العصر».

المتوقع غدًا. ولكننا عندما بلغنا الحى التالى وتوجه فيودور ميخايلوڤيتش بنفس السؤال إلى صبى قابلناه لم أتمالك نفسى من سؤاله:

ـــ ما حاجتك فيودور ميخايلوڤيتش إلى بقرة؟

ـــ كيف ما حاجتى؟ إننى أبحث عنها.

ـــ استمر فى البحث، قلت متعجبًا.

ـــ إننى أبحث عن بقرتنا. إنها لم تعد من الحقل. لقد ذهب كل من فى المنزل للبحث عنها، وأنا أيضًا أبحث عنها.

وهنا فقط أدركت لماذا ينظر فيودور ميخايلوڤيتش بإصرار عند القنوات وعلى جوانب الطرق ولماذا كان متكدرًا.

ـــ وما الذى أدهشك فى ذلك؟ سألتُ ڤاجنر.

ـــ وكيف لا أندهش، أجابنى ـــ كاتب عظيم، عقله وخياله مشغولان دائمًا بالأفكار الرفيعة، وإذا به يسير فى الطريق يبحث عن بقرة بنية داكنة.

ـــ بداهة، أنك لا تعرف أيها المحترم نيكولاى بتروڤيتش، قلت له، أن فيودور ميخايلوڤيتش ليس كاتبًا موهوبًا فحسب، ولكنه رب أسرة بالغ الحنان والعطف، يمثل له كل ما يحدث فى البيت أهمية كبرى. فلو أن هذه البقرة لم ترجع إلى البيت أمس، لما وجد أطفالنا، وبخاصة الرضيع، حليبًا يشربونه، ولاضطررنا للحصول عليه من بقرة غريبة، ربما لا تكون فى حالة صحية جيدة ولهذا خرج فيودور ميخايلوڤيتش للبحث عنها.

من الضرورى أن أخبرك أننا لم نكن نملك بقرة خاصة بنا، ولكننا عندما حضرنا إلى روسا فى فصل الصيف، راح نفر من الفلاحين من جيراننا يتنافسون فيما بينهم محاولين أن يعطينا كل منهم بقرته، أملاً فى أن تنال غذاء جيدًا فى الربيع، عوضًا عن ضمورها طوال الشتاء. كنا ندفع للفلاحين خمسة عشر روبلاً مقابل استغلال البقرة طوال فصل

الصيف، ولكن فى حالة نفوق البقرة أو استغلالها بحيث تصاب على نحو أو آخر، فقد كنا ملزمين بدفع تسعين روبلاً. وفى كل صيف كانت البقرة تختفى هنا أو هناك ثلاث أو أربع مرات، فلا تعود من الحقل مع القطيع، فيخرج كل من فى البيت عن بكرة أبيهم، عدا المربية والرضيع، لينتشروا فى شتى الطرقات بحثًا عنها. وكان فيودور ميخايلوفيتش، الذى كان يضع أسرته فى موضع الاهتمام البالغ فى السراء والضراء، كان يندفع لمساعدتنا، وقد حدث أن ذهب بنفسه مرتين أو ثلاثًا يسوق بقرتنا إلى البيت ليدخلها إلى الحظيرة. كانت هذه العناية الفائقة من جانب زوجى بأسرته تمس دائمًا شغاف قلبى بقوة.

(٣)

العام ١٨٧٦ . الشتــاء. التعــارف

فى هذا الشتاء ازداد تعارف دوستويفسكى بشخصيات اجتماعية متنوعة بشكل كبير. كان الجميع يستقبلونه فى كل مكان بترحاب شديد، إذ كانوا يقدرون فيه فكره وموهبته؛ فضلاً عن امتلاكه قلبًا طيبًا يتعاطف مع أحزان الناس وآلامهم.

وفى نفس هذا الشتاء قررت ألا أخرج إلى المجتمع: كنت مرهقة بشدة من جراء العمل فى «مذكرة الكاتب» ومن الانهماك فى شؤون البيت، ناهيك عن جلبة الأطفال وصخبهم، حتى أننى كنت بحلول المساء لا أطمع فى شىء سوى أن أخلد للراحة والاطلاع على كتاب شيق، أما الحياة الاجتماعية فلعلى كنت أبدو فيها مملة على نحو ما، زد على ذلك أننى لم أشعر بالأسف مطلقًا لكونى لم أشارك فى المناسبات الاجتماعية، ويرجع السبب فى ذلك أنه ومنذ اللحظة الأولى لعودتنا إلى روسيا، لم تتوقف الزيارات إلى بيتنا إلى أن صعدت روح فيودور ميخايلوفيتش إلى بارئها. ولمّا كنت أشعر دائمًا بالأسى لأننى لا أرتاد المجتمعات، ومن ثم أشعر بالوحشة، فقد أراد فيودور ميخايلوفيتش أن يسلينى بعض الشىء بأن يحكى لى كل ما يراه فى زياراته، ما سمعه من أحداث وما دار من

مناقشات بينه وبين هذا أو ذاك من الحضور. كانت أحاديث زوجى شيقة للغاية وكان له أسلوب فى الحكى شديد الجاذبية، إلى حد أنه كان يغنينى تمامًا عن صحبة الآخرين، أذكر أننى كنت دائما ما أنتظر عودة زوجى من زياراته على أحر من الجمر، ولدى عودته التى ما تكون عادة فى تمام الواحدة أو الواحدة والنصف، يكون الشاى معدًا له لتوه، فيخلع عنه ملابسه ويرتدى ثوبًا منزليًا صيفيًا فضفاضًا (يستخدمه بدلاً من روب المنزل)، ثم يحتسى كوبًا من الشاى الساخن ليأخذ بعده فى الحديث عن المقابلات التى أجراها اليوم فى المساء. كان فيودور ميخايلوڤيتش على علم بولعى بالتفاصيل ولهذا لم يكن يضن علىّ بها فيخبرنى بكل ما دار من أحاديث وأروح أنا أستوضحه: «حسنًا، وهى ماذا قالت لك، وأنت بماذا أجبته؟».

لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش يشرع فى عمله بعد عودته من زياراته مباشرة، وحيث إنه اعتاد أن يخلد إلى فراشه فى وقت متأخر، فقد كنا نجلس لنتبادل الحديث حتى الخامسة فجرًا، وكثيرًا ما كان فيودور ميخايلوڤيتش يلح علىّ فى الذهاب للنوم مؤكدًا أننى سأصاب حتما بالصداع وأنه سوف يكمل حديثه لى فى الغد.

أحيانًا ما كان يتسنى لفيودور ميخايلوڤيتش أن يتباهى أمامى بانتصار أحرزه فى جدل ما أدبى أو سياسى. وأحيانًا أخرى كان يقص علىّ كيف جانبه التوفيق عندما عجز أن يعرف أو يعترف بشىء ما، وما ينتج عن ذلك من سوء فهم ثم يروح يطلب منى أن أخبره برأيى أو أسدى إليه نصيحة من شأنها أن تصلح ما ارتكبه من خطأ. وكثيرًا ما كان فيودور ميخايلوڤيتش يبثنى شكواه صراحة لأن بعضهم عامله بإجحاف أو أن نفرًا من الناس حاول إهانته أو المساس بكرامته. يجب الاعتراف حقيقة أن بعضًا من زملاء المهنة، حتى ممن يملكون فكرًا وموهبة كانوا يعاملونه بجفاء وغلظة ويتعرضون له بالأذى بالقول والفعل محاولين أن يثبتوا له أن موهبته ضئيلة فى أعينهم. على سبيل المثال: كان هناك أشخاص آخرون يتحدثون مع فيودور ميخايلوڤيتش عن عمله الجديد كما لو كانوا لايريدون أن يغضبوه بآرائهم، على الرغم من أنهم كانوا يعرفون، بطبيعة الحال، أنه لا ينتظر منهم مديحًا أو مجاملة، وإنما رأى صريح فيما إذا كان قد نجح أن

يقدم فى الرواية الفكرة التى قصدها. أو يجيب «صديق» له عن سؤاله المباشر إن كان قد قرأ الفصل الأخير من روايته (بعد شهر من ظهوره) فيجيب «الصديق» أن «الرواية استحوذ عليها الشباب، وأنهم راحوا يتبادلونها ويثنون عليها»، على الرغم من أن هذا المتحدث يعلم تمامًا أن ما يهم فيودور ميخايلوڤيتش هنا ليس رأى الشباب الغض، وإنما رأى المتحدث نفسه، وأن من المؤسف بالنسبة إليه أن هذا «الصديق» لم يبد اهتمامًا كبيرًا بروايته، حتى أنه لم يجد متسعًا من الوقت لقراءتها.

أذكر، على سبيل المثال، أن أحد الأدباء، وكان قد التقى بزوجى فى أحد المجتمعات، أنه قد نجح أخيرًا فى قراءة رواية «الأبله» وكانت الرواية قد ظهرت منذ خمس سنوات مضت، وأنه أعجب بالرواية، لكنه وجد فيها شيئًا من عدم الدقة.

ــ وفى أى موضع لاحظتم عدم الدقة؟ ــ أبدى فيودور ميخايلوڤيتش اهتمامه، متوقعا أن يكون الأمر وثيق الصلة بالفكرة أو فى شخصيات أبطال الرواية.

ــ لقد قضيت هذا الصيف فى باڤلوڤسك، أجاب محدث زوجى، وعندما كنت أتجول مع بناتى، أخذنا نبحث عن هذه الداتشا الفاخرة على طراز الأكواخ السويسرية، التى عاشت فيها بطلة الرواية، أجلايا إبانشينا. ما قولكم أن هذه الداتشا غير موجودة فى باڤلوڤسك.

كما لو كان فيودور ميخايلوڤيتش ملزمًا أن يصور فى روايته داتشا موجودة بالفعل وليست من بنات أفكاره.

أديب آخر (فيما بعد) أعلن أنه قرأ بفضول عظيم مرتين خطاب المدعى العام (فى رواية «الإخوة كارامازوف») وكانت القراءة الثانية جهرًا وقد أمسك فى يده بساعة.

ــ ولماذا بساعة؟ ــ أعرب زوجى عن دهشته.

ــ لقد قلتم فى روايتكم إن الخطاب استمر... (*) دقيقة. وقد أردت أن أختبر الأمر. وقد اتضح أن الخطاب لم يستغرق... (**) وإنما (***) فقط (١٩٤)

(*) فقرة مفقودة فى المخطوطة.

(**) فقرة مفقودة فى المخطوطة.

(***) فقرة مفقودة فى المخطوطة.

فى البداية اعتقد فيودور ميخايلوڤيتش أن خطاب المدعى العام قد أثار اهتمام الأديب حتى أنه أعاد قراءته مرة ثانية، كما يحدث عندما يعجبنا شيء ما، ولكن اتضح أن هناك سببًا آخر لا يمثل أهمية تذكر، اللهم إلا رغبة هذا الأديب فى الإساءة أو فى جرح فيودور ميخايلوڤيتش. مثل هذه العلاقة من جانب الأدباء المعاصرين نحو زوجى كانت كثيرة.

كل هذه الأمور كانت، بطبيعة الحال، مساسًا بعزة نفسه، لاتليق بأناس أذكياء موهوبين، ولكنها كانت تؤثر فى الوقت نفسه تأثيرًا بالغًا على الأعصاب المتوترة لزوجى المريض. كنت أشعر أحيانًا بالغضب على هؤلاء الأشرار، وكنت أميل إلى تفسير هذه التصرفات المهينة (سامحونى إن كنت مخطئة) إلى «الغيرة المهنية» والتى، إن شئنا العدل، لم تكن من بين خصال فيودور ميخايلوڤيتش، الذى كان دائمًا ما يعطى أعمال الكتاب الآخرين الموهوبة حقها من التقدير، مهما كان مختلفًا مع فكر هذا الشخص الذى يتحدث معه أو يكتب عنه.

كنت أستمتع دائمًا بوصف فيودور ميخايلوڤيتش لملابس السيدات اللائى يشاهدهن فى المجتمعات التى يرتادها. وكثيرًا ما عبر لى عن ضرورة أن أمتلك ثوبًا مثل ثوب كان قد أعجب به.

ـــ ما رايك يا أنّا ـــ قال زوجى، كانت السيدة ترتدى ثوبًا رائعًا، ذو طراز بسيط للغـــاية: مرفوع وذو ثنيات من اليمين، منسدل من الخلف حتى الأرض ولكنه لا يجرجر، لا أذكر كيف كان من اليسار، أظن أنه كان مرفوعًا قليلاً أيضًا. فصلى لنفسك واحدًا مثله، سوف يكون جميلاً.

وعدته أن أفصل ثوبًا على الرغم من أنه كان من الصعوبة بمكان أن أضع تصورًا محددًا لطرازه بناء على الوصف الذى ذكره فيودور ميخايلوڤيتش.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يخطئ أحيانًا فى معرفة الألوان، بل كان يميزها على نحو سيئ. كان أحيانًا ما يسمى الألوان بأسماء إختفت تمامًا من الاستخدام، على سبيل

المثال، لون الماساك؛ أكد لى فيودور ميخايلوفيتش أن هذا اللون يلائم جهى
بالتأكيد وطلب منى أن يكون هذا اللون هو لون ثوبى الجديد. حاولت إرضاء زوجى
ورحت أسأل فى المحال عن قماش بهذا اللون. لم يفهم التجار ما أقصد، إلا سيدة
عرفت منها أن الماساك ما هو إلا البنفسجى الداكن، وأن المخملى منه كان يستخدم قديما
فى موسكو فى تبطين النعوش. ربما يكون البنفسجى الداكن ملائمًا لشخص آخر، وقد
يكون ملائمًا لى أيضًا، لكننى لم أنجح فى إعداد ثوب لى بهذا اللون. ومن ثم لم أستطع أن
أحقق رغبة زوجى.

بالمناسبة، كان زوجى يشعر بالسعادة الغامرة عندما يرانى مرتدية ثوبًا أحمر اللون أو أضع على رأسى قبعة جميلة. كان حلمه أن يرانى فى ذروة الأناقة(*) كان ذلك يسر أكثر مما يسرنى. لم تكن أمورنا المالية على ما يرام، ومن ثم كان من المستحيل أن تفكر فى الأناقة. ورغم ذلك كان زوجى العزيز يشعر بالرضا والسرور عندما يشترى أو يحضر لى من الخارج شيئًا جميلاً، ولو على غير رغبتى أحيانًا. فى كل رحلة له إلى إمس كان فيودور ميخايلوفيتش يحضر لى هدية، فمرة اشترى مروحة فاخرة لها يد من عاج، تحفة فنية، ومرة أخرى أحضر نظارة مقربة رائعة من الميناء الزرقاء وطقما من الكهرمان (بروش وحلق وإسورة). كان ينفق وقتًا طويلاً فى انتقائها ثم فحصها وتقييمها، وكان يشعر بالسعادة الغامرة إذا نالت هداياه إعجابى. ولمّا كنت أعلم كم يسعد زوجى تقديمه للهدايا، فقد كنت أقبلها معبرة له عن سعادتى الكبرى، على الرغم من أننى كنت أشعر أحيانًا بالحزن الشديد لتبديد المال فى أشياء غير ضرورية على الرغم من جمالها. أذكر، على سبيل المثال، كيف أصابنى الأسف عندما اشترى فيودور ميخايلوفيتش دستة من قمصان النوم، بلغ سعر الواحد منها اثنى عشر روبلاً، وكان قد تسلم لتوه مبلغًا من المال من كاتكوف، من أفضل محلات موسكو. بالطبع فقد قبلت الهدية بإعجاب ظاهرى، ولكن فى واقع الأمر كنت أشعر بالأسف على النقود، فقد كان

(*) خطابه لى المؤرخ ٢٤ يوليو ١٨٧٦ (ملاحظة لآنّا جريجوريفنا دستويفسكايا)(١٩٥)

لديَّ عدد كاف من هذه القمصان، وكان من الممكن شراء العديد من ألأشياء الضرورية الأخرى.

وقد وقعت حادثة طريفة على أثر شراء القمصان الفاخرة أزالت عنى كثيرًا من الهموم. فذات مرة وقد اقتربت الساعة من الثانية صباحًا، دخل علىّ زوجى غرفتى وأيقظنى بصوت مرتفع وهو يسأل: «آنيا، هل هذه قمصانك؟» ـ «أى قمصان، لعلها قمصانى»، أجبت دون أن أعى السؤال جيدًا. «وهل يعقل أن ترتدى مثل هذه القمصان الخشنة؟» ـ قال زوجى بلهجة غاضبة. «بالطبع، ممكن، لا أدرى عم تتحدث يا عزيزى، دعنى أنم!» وفى الصباح جاء تفسير تصرف زوجى وسبب استيائه. وقد قصت علىّ الخادمة كيف أفزعها «السيد» هى والطاهيـــة، ثم أدهشهما بعد ذلك. كانت الخادمة قد غسلت قمصانها فى المساء ونشرتها على الحبل خلف النافذة. وفى الليل اشتدت الريح وراحت القمصان المتجمدة تضرب الزجاج. كان فيودور ميخايلوڤيتش يعمل فى غرفته، وعندما سمع الطرق على الزجاج خشى أن يستيقظ الأطفال فذهب إلى المطبخ ووقف على كرسى صغير، ثم فتح جزءا من النافذة وراح يسحب القمصان المنشورة إلى الداخل واحدًا بعد الآخر، ثم نشرها بعناية على حبل فوق المدفأة، وهنا تمكن فيودور ميخايلوڤيتش من رؤية القمصان (وكانت مصنوعة بالطبع من قماش أشبه بالخيش الخشن) فأصابه الذعر وهرع ليوقظنى. فى الصباح قصصت على زوجى الأمر فابتسم ساخرًا من خطئه. وعندما سألته ولماذا لم يوقظ الخادمة، أجاب: «من الظلم أن أوقظها، إنها تكدح طوال اليوم، تركتها لتستريح». هل هذا النحو كانت علاقة زوجى بالخادمة، حتى إنه لم يكن يكلفها عناء بعض أموره الشخصية فيتولى بنفسه إنجازها.

لكن أكثر ما أدخل البهجة والسعادة على قلب زوجى بشكل خاص، عندما استطاع، قبل وفاته بعامين، أن يهدينى زوجًا من الأقراط فى كل قرط حجر من الماس. كلفته مائتى روبل، وقد لجأ زوجى عند الشراء إلى بيوتر فومين بانتيلييف الخبير فى الأشياء الثمينة.

أذكر أننى علقت فى أذنى هدية زوجى للمرة الأولى فى إحدى الأمسيات الأدبية التى ألقى فيها زوجى كلمة. آنذاك، عندما راح الأدباء الآخرون يلقون بكلماتهم، جلست

بجوار زوجى بالقرب من حائط تزينه المرايا. وقد لاحظت فجأة أن زوجى ينظر جانبًا ويبتسم لشخص ما؛ ثم التفت إلىّ وهمس فى فرح: «يتلألآن، يتلألآن على نحو رائع!» وقد تبين لى أن الحجرين الكريمين كانا يبرقان مع اهتزاز الأضواء العديدة بشكل جميل وهو ما جعل زوجى يفرح كالأطفال.

(٤)

العام ١٨٧٦ . دَيـن تورجينيف

سوء فهم صغير، ما زلت أذكره، وقع لنا فى عام ١٨٧٦ . وقد أثار اضطراب زوجى، الذى كان قد تعرض يومين ثلاثة قبله لنوبة صرع. فقد حضر إلى فيودور ميخايلوڤيتش شاب يدعى ألكسندر فيودورڤيتش أوتو(*) (أونيجين)، كان يعيش فى باريس، وقد استطاع أن يجمع بعد ذلك مجموعة قيمة من كتب بوشكين ووثائق خاصة به. أعلن السيد أوتو أن صديقه، إيڤان سيرجيڤيتش تورجينيف، قد فوّضه فى زيارة فيودور ميخايلوڤيتش وأن يتسلم منه مبلغًا من المال ديّنا له. اندهش زوجى وسأله إن كان تورجينيف لم يتسلم من باڤل ڤاسيليڤيتش أنينكوف(**) الخمسين طالر، التى أعطاها لأنينكوف ليسلمها لتورجينيف فى يوليو من العام الماضى، عندما قابله فى القطار المتجه إلى روسيا.

أكد السيد أوتو على استلام النقود من أنينكوف، لكنه قال أن تورجينيف يذكر أنه أرسل لفيودور ميخايلوڤيتش فى ڤيسبادن لاخمسين طالر وإنما مائة طالر، ومن ثم فإنه يرى أن فيودور ميخايلوڤيتش ما يزال مدينًا له بخمسين طالر. اضطرب زوجى بشدة وقد ظن أنه ارتكب خطأ، وعلى الفور استدعانى.

(*) ألكسندر فيودورڤيتش أوتو (أونيجين) (١٨٤٤ ــ ١٩٢٥): جامع وثائق ومواد خاصة ببوشكين. مؤسس متحف بوشكين فى باريس.

(**) باڤل ڤاسيليڤيتش أنينكوف (١٨١٢ ــ ١٨٨٧): أديب وناقد وكاتب مذكرات.

ن يا آنيا، بكم كنت مدينًا لتوجينيف؟ ــ سألنى زوجى بعد أن قدمنى لضيفه.

ــ بخمسين طالر.

ــ أكيد؟ هل تذكرين جيدًا؟ ألا يمكن أن تكونى مخطئة؟

ــ أذكر جيدًا. إذ إن تورجينيف ذكر فى خطابه إليك تحديدا المبلغ الذى سيرسله إليك.

ــ أرينى الخطاب، هل مايزال عندك ؟ سألنى زوجى.

لم يكن الخطاب فى حوزتى فى هذه اللحظة بطبيعة الحال، ولكننى وعدته بالبحث عنه، وقد طلبنا من الشاب أن يمر بنا بعد يومين.

كان فيودور ميخايلوڤيتش شديد القلق خوفا من أن يكون هناك احتمال للخطأ من جانبى، ومن ثم ظل متكدرًا، أما أنا فقد قررت السهر طوال الليل إلى أن أجد الخطاب. انتقل القلق الذى يعانى منه زوجى إلىّ، ورحت أسأل نفسى، ألا يمكن أن يكون هناك ثمة سوء تفاهم فى هذا الموقف. للأسف كانت مراسلات زوجى على مدى الأعوام الأخيرة فى فوضى تامة، وكان علىّ أن أراجع ما لا يقل عن ثلاثمائة أو أربعمائة خطاب، إلى أن عثرت أخيرًا على خطاب تورجينيف. بعد أن قرأنا الخطاب وتأكدنا أنه لم يحدث خطأ من جانبنا هدأ زوجى.

عندما زارنا السيد أوتو بعد يومين أطلعناه على خطاب تورجينيف، كان فى حالة ارتباك شديد وطلب منا أن نعطيه الخطاب حتى يتسنى له إرساله إلى تورجينيف، وفى الوقت نفسه وعدنا أن يعيد لنا الخطاب.

بعد مرور ثلاثة أسابيع عاد إلينا السيد أوتو من جديد حاملاً خطابًا، لكنه غير الذى أعطيناه إياه، وإنما خطاب فيودور ميخايلوڤيتش نفسه أرسله من ڤيسبادن، طلب فيه

من تورجينيف أن يقرضه خمسين طالر[١٩٦]. وعندئذ اتضح لنا سوء الفهم أمام دهشتنا البالغة. كان الوحيد الذى عانى من هذا الموقف هو السيد أ.ف. أوتو الذى كتب فى خطابه الذى أرسله بعد عدة سنوات (فى التاسع عشر من ديسمبر ١٨٨٨)(*) يقول:

«إن معرفتى القصيرة بفيودور ميخايلوفيتش كانت قائمة على سوء فهم فظيع بالنسبة إليه، وقد قمت بدور لا ناقة لى فيه ولا جمل، إننى، الشخص الذى حضر إليكم منذ زمن بعيد، عندما كنتم ما تزالون تسكنون فى حى بيسوك. كنت آنذاك فى وضع لا أحسد عليه، إذ فوّضنى صديقى إيفان تورجينيف لتسلم دينه لدى فيودور ميخايلوفيتش، وقد عانيت آنذاك حرجًا بالغًا عندما أبديتم ثقتكم فى وشرحتم لى الوضع برمته، ثم أثبت فيودور ميخايلوفيتش بعد ذلك، بعد أن عانى من الاضطراب والتوتر ما عانى، أن طَلَبَ إيفان سرجيفيتش غير عادل بالمرة. ونظرًا لطبيعتى الحادة فقد كتبت خطابًا شديد اللهجة إلى إيفان سرجيفيتش، وقد اتضح الأمر الآن: لقد أدرك إيفان سيرجيفيتش خطأه، ولكننى فقدت صداقته تمامًا، كما يحدث دائمًا لشخص ثالث تدخل فى خلاف بين شخصين آخرين[١٩٧]

(٥)

العام ١٨٧٧ ضياع المعطف

فى مطلع عام ١٨٧٧ وقع لى «حادث» تعرفت بفضله على التعرف على نظم قسم مباحث العاصمة، وذلك عندما سرق اللصوص معطفى الجديد المصنوع من فراء الثعلب.

جدير بالذكر هنا أننى، بعد عودتى إلى روسيا، كنت أواصل السير فى أشهر الشتاء مرتدية معطفًا متوسط الطول مصنوعًا من الاستراكان(**)، كنت أرتديه فى أثناء إقامتى

(*) ما زلت أحتفظ بخطابى فيودور ميخايلوفيتش والسيد أوتو (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).
(**) الاستراكان: فراء من جلد الضأن (المترجم).

فى درزدن. وقد أحس فيودور ميخايلوفيتش بالخوف علىّ عندما رآنى أرتدى مثل هذا المعطف الخفيف، وتنبأ بأن أصاب بنزلة برد شديد بكل ما يتبع ذلك من توابع للمرض. بالطبع لم يكـــن معطفـــًا مثـــل هذا ليقى المرء من صقيع شهرى ديسمبر ويناير، وكنت مضطرة إذا ما اشتد البرد أن أضع فوقه دثارًا غليظًا كان يضفى على منظرى شيئًا من الغرابة. ولكن كان ما يشغلنى بالدرجة الأولى فى السنوات الأولى لعودتنا إلى روسيا هو سداد ديوننا، ولهذا ما كان موضوع شراء بالطو ثقيل، والذى كان يتجدد كل خريف، ينتهى دون أن نجد له حلاً مُرضيًا. وأخيرًا أتيحت لنا فى نهاية عام ١٨٧٦ فرصة أن نحقق رغبتنا القديمة، وما زلت أذكر أن هذا الأمر العائلى الذى يبدو غير جدير بالاهتمام، كان يؤرق فيودور ميخايلوفيتش طوال الوقت. وحيث إنه كان على علم بتقتيرى الشديد آنذاك فيما يخص أناقتى، فقد قرر أن يأخذ هذه المهمة على عاتقه: اصطحبنى ذات يوم إلى محل زيزيرين للفراء (خاليًا يسمى ميرتينس. حيث كان يحفظ لديه دائمًا معطفه الفراء فى الصيف)، وطلب من كبير الموظفين أن يختار لنا «باخلاص» فرو ثعلب لبالطو وياقة من فرو الدَّلق. وضع الموظف (الذى كان من المعجبين بموهبة زوجى) تلاً من فرو الثعالب وأشار إلى ميزاتها وعيوبها، ثم اختار لنا فى النهاية قطعة من الفرو خالية من كل عيب ثمنها مائة روبل، إلى جانب قطعة أخرى رائعة من فرو الدَّلق للياقة ثمنها أيضًا مائة روبل. وقد وجدنا لديهم عينات من الحرير الأسود راح فيودور ميخايلوفيتش يختبرها من ناحية الجودة والذوق والمتانة. وعندما دار الحديث حول الموضة (كانت موضة المعاطف المستديرة المقببة قد ظهرت لتوها) طلب فيودور ميخايلوفيتش أن يرى أحدث ما فى الموضة، وعندما رأى تلك الموضة «السخيفة: اعترض عليها على الفور. وعندما أخبره البالغ ممازحًا أن الخطوط الدائرية اخترعها خياط أراد أن يسلم من زوجته قال له زوجى:

ــ أما أنا فلا أريد أن أسلم من زوجتى، ولهذا أطلب منك أن تخيط لها شيئًا على الموضة القديمة، معطفًا بأكمام!

عندما رأيت أن زوجى يروقه عمل معطف بهذه المواصفات، لم أصر على موضة المعطف المستدير. وعندما أحضروه لنا بعد أسبوعين ارتديته وعندما قال لى فيودور ميخايلوڤيتش بإعجاب:

ـ حسنًا، الآن سيــدة تشبــه تاجــرات موسكو! الآن لن أخشى عليك الإصابة بالبرد.

وإذا بالمعطف الذى «تم تجهــيزه» بعد سنوات عديدة من الانتظار يتعرض للسرقة!

الذى حدث أن السرقة وقعت فى وضح النهار، خلال عشر دقائق. عدت من مكان ما وعندما علمت أن فيودور ميخايلوڤيتش قد استيقظ منذ فترة وأنه قد سأل عنى ذهبت إليه فى مكتبه بعد أن تركت المعطف على المشجب فى بهو الاستقبال، على الرغم من أننى عادة ما آخذه لأضعه فى غرفتى. ما إن انتهيت من حديثى مع زوجى حتى عدت إلى بهو الاستقبال لأكشف اختفاء المعطف من على المشجب. جنَّ جنونى، أخبرتنى الفتاتان، اللتان كانتا فى المطبخ أنهما لم يشاهدا أحد. نظرنا خارج الباب، إلى السلم، كان المكان خاويًا. بداهة فقد نسيت الفتاة التى نزعت المعطف نسيت أن تغلق الباب، وقد نجح اللص فى استغلال هذه الهفوة.

كان فيودور ميخايلوڤيتش حزينًا للغاية لضياع المعطف، وبخاصة أنه ما يزال أمامنا شهــران من الــبرد القــارس. كنــت فى حــالة من اليأس الشديد «أرغى وأزبد»، أشتم الخادمتين، غاضبة حتى من نفسى، لماذا تركت المعطف فى البهو. استدعينا البواب العجوز الذى ابلغ الشرطة عن ضياع المعطف. فى المساء جاءنا أحد رجال الشرطة ليستجوب الخادمة وأشار علىّ أن أذهب بنفسى إلى قسم المباحث وأن أطلب منهم أن يقوموا بالبحث على نحو أكثر دقة.

ذهبت فى اليوم التالى إلى قسم الشرطة. ونظرًا إلى الاسم الأدبى الذى أحمله فقد استقبلنى على الفور أحد الضباط من ذوى الرتب الرفيعة (كان اسم عائلة زوجى الذى

أحمله (دستويفسكى) له أثر كبير إبان حياة زوجى فى إدارات الشرطة («ربما لأن الأديب لديه القدرة على الكتابة فى الصحف!»).

هناك استمعوا إلىَّ باهتمـــام بالغ، وسألنى الموظف لمن أوجه شكوكى؟

أخبرته أننى أثق فى خادمتىّ، لقد جئت بهما من ستاريا روسا، يعملون لدىَّ منذ ثلاث سنوات ولم ألحظ عليهما أى تصرف معيب. كما أننى لا أشك فى أى شخص آخر.

ــ أخبرينى، من هم زواركم الدائمين؟ سألنى الموظف.

ــ معارفنا كثير، منهم من يأتون إلينا من المحلات لتسلم الكتب والمجلات (١٩٨) ولكنهم دائمًا يدخلون عبر المطبخ، ولم يحضر منهم أحد بالأمس.

ــ ألا يحضر إليكم أحيانًا ذوى الحاجة، أقصد من يطلبون المساعدة لفقرهم؟

ــ هؤلاء يأتون، هم كثير. لا بد أن أخبرك أن زوجى فى غاية الطيبة وهو لا يملك القدرة على رد من يطلب المساعدة، على قدر إمكاناتنا بطبيعة الحال، أحيانًا، عندما يطلب أحدهم صدقة، ولا يكون لدى زوجى بعض النقود الصغيرة، فإنه يقود الفقراء إلى شقتنا وهنا يعطيهم بعض المال. بعد ذلك يبدأ هؤلاء الزوار فى الحضور إلينا دون دعوة، وبعد أن تعرفوا على اسم زوجى من اللوحة المثبتة على الباب، صاروا يسألون عن فيودور ميخايلوفيتش. وعند خروجى من المنزل، كانوا يحكون لى عن فقرهم، فكنت أعطيهم ثلاثين أو أربعين كوبيك. وعلى الرغم من أننا لسنا أغنياء، ولكن كان باستطاعتنا دائمًا أن نقدم بعض المساعدة فى هذه الحدود.

ــ إذن فاللص هو واحد من هؤلاء السائلين، قال الموظف.

ــ لا أظن. اسمح لى أن أشفع لفقرائنا هؤلاء، قلت له، فعلى الرغم من إلحاحهم وأنهم يستغرقون فى ذلك وقتًا طويلاً، فإننى لا أصدق أنهم لصوص: إن لهم مظهرًا ينم عن البؤس وسوء الحال.

ــ سننظر فى الأمر، قال الموظف، إيڤانوف، أحضر لى ألبوم صور.

أحضر المساعد ألبومًا سميكًا ووضعه أمامى على المائدة.

ــ قد يكون من المفيد تفحص الصور، أردف قائلاً، لعلك تجدين صورة وجه مألوف لك.

أخـــذت بكثير من الفضـــول أقلب الألبوم وفى الصفحة الثالثة لاحظت ملامح مألوفة لى.

ــ يا إلهى! صحت بدهشة. أعرف هذا الشخص معرفة جيدة. إنه كثير التردد علينا، وهذا أيضًا أعرفه، أردفت قائلة وأنا أقلب الصفحات. وتحت كل صورة من صور «معارفى» كُتبت عبارة «لص مداخل شقق»، وتحت إحدى الصور لشخص أعرفه معرفة تامة عبارة «محطم أبواب، ألقى القبض عليه ومعه سلاح نارى.

كنت فى حالة شديدة من الذهول: فهؤلاء الذين تردَّدوا علينا مرارًا، والذين كنت أتحدث معهم بمفردى، إذا بهم من اللصوص، بل والقتلة، الذين لا يكتفون بالسرقة أحيانًا، بل كان بإمكانهم قتلى أو قتل فيودور ميخايلوڤيتش، وكان من الممكن أن تتعرض أسرتنا لخطر داهم. انتابتنى قشعريرة سرت فى ظهرى من جراء الخوف والجزع: لقد خطرت على بالى فكرة مرعبة: فهؤلاء الناس سوف يواصلون التردُّد علينا، وليس هناك على الإطلاق ما يضمن حمايتنا فى المستقبل من موت محقَّق. وحتى لو امتنعنا الآن عن مساعدتهم، لأصبحوا، ربما، أكثر قوة ولدفعنا بالخطر فى اتجاهنا.

دقائق قليلة مضت وأنا أجلس فى أشد حالات الإحباط.

ــ يا للأسف، قلت، أن زوجى لم يشاهد هذه الصور لأناس أعرفهم ويعرفهم هو أيضًا، ولعله لم يكن ليصدق أنهم لصوص.

ــ قد يكون من المفيد أن تختارى صور من تعرفين، إن لدينا العديد منها. وسأشرح لك كيف تستفيدين منها: إذا ظهر واحد منهم لديكم، فأخبريه أنك ذهبت لقسم

المباحث وأنهم أعطوك صورًا لهم:صدقينى، سوف يخبرون بعضهم بعضًا بذلك، وسوف تتخلصين من زيارتهم عامًا بأكمله.

نادرًا ما كنت أسعد بهدية مثل مجموعة الصور «الرائعة» التى أهدانى إياها موظف القسم والتى ما زلت أحتفظ بها حتى الآن. وقد وعدنى الرجل بإرسال عميل من عندهم من ذوى الخبرة الطويلة، رأى أن من الممكن أن يعثر على المعطف الذى سرق منى، وبخاصة وقد أصبح معروفًا لهم أى دائرة يمكنهم البحث فيها.

لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش أقل منى دهشة عندما رأى الصور وقد كتبت تحتها نوعية هؤلاء الناس. وقد تعرف على بعضهم على الفور، إذ كان كثيرًا ما يقابلهم فى أثناء جولته المسائية عند أبواب مستشفى الأمير أولديبورجسكى، حيث كانوا يسألون المارة نقودًا لدفن من يدعون أنهم توفوا فى مستشفى الأطفال من أطفالهم أو أقاربهم. وكم من مرة توجهوا إلى فيودور ميخايلوڤيتش بهذا الرجاء أو غيره، وقد كان يستجيب لهم دائمًا، رغم علمه بأنهم يختلفون أسبابًا ملفقة للتسول.

وبالفعل فقد كانت الصور التى أهديت لى ذات نفع كبير. ينبغى أن أشير إلى أنه على مدى الشهر الأول بعد السرقة لم يحاول أحد إزعاجنا بطلب المساعدة. ثم ظهر بعد ذلك أحد أكثر المتسولين إلحافًا، وقد سبق أن ساعدته من خلال هباتى الصغيرة على دفن أمه المريضة؛ فضلاً عن عدد من عماته. وقد جاء مرة أخرى طلبًا للمساعدة فى شراء دواء لعمته المريضة، وحتى أشعر بالحماية ناديت لوكيريا (وهى فتاة فارعة الطول) من المطبخ وطلبت منها أن تحضر ثلاثين كوبيكًا، فجاءت ووضعها على المائدة، ثم خاطبت «اللص المداخل» بحزم قائلة:

ــ اسمع، خذ هذه الكوبيكات الثلاثين ولا تأت إلى هنا مرة أخرى من فضلك. لقد سرق منى منذ فترة معطفًا: وقد ذهبت بسبب ذلك إلى قسم المباحث وقد أعطونى هناك «صورًا للصوص المداخل» وقالوا لى إن أقدم إلى الشرطة كل من يأتى إلى هنا للتسول. وقد وجدت صورتك من بينها. هل تود أن تراها؟

ــ لا، ولماذا ترهقين نفسك، أجاب السائل ثم اختفى فى لمح البصر. بداهة فقد أخبر المتسول رفاقه بشأن الصور، ومنذ ذلك الحين مر زمن طويل لم يأت إلينا فيه واحد من هؤلاء. وحتى فيودور ميخايلوفيتش لم يعد يصطحب معه أحدًا من الشارع منذ ذلك الوقت فإذا لم يكن معه شيئًا يعطيه للسائل، فقد كان يطلب منه الانتظار عند مدخل البيت ويرسل له نقودًا مع الخادمة.

زارنا فى اليوم التالى العميل، الذى وعدنى قسم المباحث بإرساله، وطلب منى أن أقص عليه أدق التفاصيل التى حدثت، مستفسرًا على نحو غامض عن أتفه الأمور. وبالمناسبة فقد سألته إن كانوا يعثرون أحيانًا على الأشياء المسروقة، فجاءت إجابته على النحو التالى:

ــ هذا يتوقف، سيدتى، بشكل رئيسى، على ما إذا كان الشخص الذى فقد شيئًا يرغب فى أن يسترجع هذا الشىء من عدمه؟

ــ أظن أن كل شخص لا بد وأنه يرغب فى ذلك.

ــ نفترض أن كل شخص يرغب فى ذلك، لكن هناك شخصًا يهتم أكثر من شخص آخر يهتم على نحو أقل. على سبيل المثال: ذات مرة وقعت سرقة فى بيت الأمير، بلغت قيمة الأشياء الثمينة التى سرقت خمسة آلاف روبل، عندئذ قال لى الأمير مباشرة إبحث لى عن الأشياء وسأعطيك عشرة بالمائة من قيمتها، وقد تم العثور على المسروقات. إن كل عميل يعلم جيدًا أن جهوده المضاعفة سوف تكافأ.

وعاد العميل ليضرب لى مثلين أو ثلاثة آخرين. غادرت الغرفة لعدة دقائق متجهة إلى زوجى وأخبرته أن علىّ، بداهة، أن أعد العميل بإعطائه عشرة بالمائة وأن أعطيه ولو خمسة روبلات تحت الحساب. اكتفى فيودور ميخايلوفيتش بهز رأسه لكنه ذكر أن البحث لا طائل من ورائه. بعد أن عدت إلى العميل وعدته بأن أعطيه عشرة بالمائة وأعطيته خمسة روبلات، بعد أن وعدنى بدوره باتخاذ إجراءات استثنائية ما.

بعد يومين جاءنى العميل مرة أخرى وقال لى إنه عثر على أثر من آثار لص المعطف وأنه، خشية انتشار الخبر قبل الآوان، فقد قرر ألا يخبرنى باسمه، ثم عاد مرة أخرى يسألنى عن تفاصيل ليست بذات أهمية مضيعًا ساعة من وقتى. وقد خمنت أنه ما إن يحصل على رشوة منى حتى ينصرف، فأعطيته خمسة روبلات وقلت له إننى مشغولة دائمًا وأرجوه أن يأتى فقط عندما تكون لديه إمكانية لأن يخبرنى بشىء هام حول الموضوع.

مر أسبوع ونصف، وذات يوم وكنا نجلس فى غرفة الطعام أنا وزوجى، إذا بلوكيريا تدخل علينا وهى تصيح:

ـ تعالى يا سيدتى، لقد وجدوا المعطف! لقد أخبرنا العميل بذلك، وهو قادم الآن.

فرحنا جميعًا بطبيعة الحال. أخبرنا العميل أن اللص رهن معطفى المسروق لدى أحد محال الرهونات (فى مويكا) وأنه عثر على الإيصال، وأن المحل المحترم ملزم برد المعطف دون أتعاب، إذا ما قمت بإثبات أن هذا المعطف يخصنى. وقال إن علىّ أن أعلن حقى فى ملكيته فورًا وأن أذهب معه الآن إلى محل الرهونات وأن أستعيد منه معطفى.

لم يعجب فيودور ميخايلوفيتش بهذا الاقتراح من جانب العميل؛ وأعرب عن عزمه الذهاب بنفسه، ولكن العميل رفض قائلاً إنه باعتباره، أى زوجى، رجلاً، فلن يكون باستطاعته أن يذكر بعض العلامات المميزة للمعطف المسروق. كنت أرغب بشدة فى استعادة المعطف لدرجة أننى أقنعت زوجى أن يسمح لى بالذهاب مع العميل، وأننى سوف أغطى وجهى بالخمار فى حالة إذا ما التقينا صدفة بأحد من معارفنا، وهكذا سرت، فى وضح النهار المشمس، مخترقة وسط مدينة بطرسبورج بصحبة عميل قسم المباحث وأنا أضحك فى سرى وأنا أتخيل أن كل لصوص العاصمة، الذين يتنزهون فى شارع نيفسكى وقد أربكتهم المفاجأة لرؤية لصة مجهولة تسير الآن بصحبة عميل من قسم المباحث يعرفونه حق المعرفة.

وصلنا إلى شارع مويكا وأردت أن أدفع للحوذى أجرته، لكن العميل قال لى إننى سوف أحتاج إلى الحوذى ليوصلنى للمنزل بعد أن يعطونى المعطف. طلبت من الحوذى

أن ينتظر. دخلنا إلى الإدارة، ومنها قادونا إلى غرفة منفصلة وبعد عشر دقائق أحضروا لنا معطفًا نسائيًا من فرو الثعالب. تبين لى من النظرة الأولى أن المعطف ليس معطفى فأخبرت العميل بذلك.

ـــ انظرى إليه جيدًا ـــ طلب منى العميل ذلك، ـــ لعلك تتعرفين عليه، انظرى إلى الأكمام، النساء يتعرفن أكثر من خلال الأكمام.

ما هى إلا لحظة حتى استدعوا العميل، ألقيت نظرة على بطاقة المحل المثبتة على طرف المعطف. انحنيت لأقرأ، وكم كانت ثورة غضبى، عندما قرأت على البطاقة أن المعطف قد جرى تسليمه للمحل فى نوفمبر عام ١٨٧٦، أى قبل أربعة شهور من سرقة معطفى. كان من الواضح أن العميل على علم بذلك، لكنه افترض أننى إما لن أتعرف على معطفى، وإما أن يكون لدى استعداد أن آخذ شيئًا لا أملكه ما دمت لم أجد ما سرق منى.

عنـــدما عـــاد العميل أشرت له إلى البطاقة ثم عبرت له عن غضبى بصوت مرتفع فى وجود مدير المحل لخداعه الواضح لى. انعطف بجسده بشدة وعلى الفور إبتعد ليتفحص شيئًا ما فى نافذة المحل. قلت للحوذى وأنا أغادر المكان إننى لن أعود معه وسألته كم يطلب أجرًا على توصيلى إلى هنا من شارع جريتشسكايا لا أكثر ولا أقل. كم كان أسفى شديدًا عندما أخبرنى الحوذى أنه يطلب سبعة روبلات حيث إنه أوصل «السيد» منذ الصباح، وإذا بهذا السيد يخرج من مدخل المحل ليقول إن «السيدة سوف تدفع المبلغ كله». بالطبع كنت مضطرة لأدفع المطلوب. وهكذا تحققت نبوءة فيودور ميخايلوفيتش وانتهى بحثى عن المعطف دون طائل. بل واضطررت أن أضيف سبعة عشر روبلاً أنفقتها على العميل على قيمة المعطف المسروق. كان من رأى زوجى أن اللجوء إلى الموظف المختص للشكوى ضد العميل الذى أوصى به أمرًا لا معنى له، فقد يرسل عميلاً آخر لنبدأ فى المماطلة ذاتها من جديد. كان من الأفضل أن أستسلم لضياع المعطف وأن أعاهد نفسى ألا ألجأ فى المستقبل لمساعدة هذه المؤسسة.

(٦)

العام ١٨٧٧ . شراء منزل. السفر إلى ميروبولى.
نبوءة السيدة فيلد

فى مطلع عام ١٨٧٧ تلقينا نبأً حزينًا: توفى ألكسندر جريبى[١٩٩]، صاحب الداتشا التى قضينا فيها السنوات الأربع الأخيرة فى ستاريا روسا. وبالإضافة إلى الحزن الخالص الذى شعرنا به لوفاة هذا العجوز الطيب، وقد كان يتعامل مع أسرتنا دائمًا بود شديد، فقد أزعجتنا أنا وزوجى فكرة إلى من ستؤول هذه الداتشا، وهل سيرغب المالك الجديد فى السماح إلينا باستئجارها فى الصيف. كان هذا السؤال يمثل أهمية كبرى بالنسبة لنا. لقد أحببنا داتشا جريبى؛ فضلاً عن إعجابنا الشديد بالمدينة نفسها، وقد بدا لنا أن من الصعب أن نعثر على داتشا تساويها فى فضائلها. لم تكن داتشا السيد جريبى بيتًا من بيوت المدن، وإنما هى فى الأغلب أقرب إلى الضيعة الإقطاعية، حديقة وارفة الظلال وبستان خضراوات، تضم عنابر وقبوًا وهلمجرا. كان فيودور ميخايلوڤيتش يقدر تقديرًا خاصًا وجود حمام روسى ممتاز فى حديقة الداتشا.

ما تزال داتشا جريبى موجودة فى ضاحية المدينة بالقرب من كولومتس، على ضفاف نهر بيريريتيتسا، محاطة بأشجار الدَّردار الضخمة، التى غرست منذ زمن أراكتشييف[*] أما بمحاذاة الجانبين الآخرين للمنزل (على امتداد الحديقة) فيقع شارعان عريضان، لا يبقى سوى جانب واحد فقط من الأرض يشترك مع جانب من حديقة الجيران.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يخشى من الحرائق، التى تأتى أحيانًا على مدن مشجرة عن آخرها (أورينبورج مثلاً)، ومن ثم كان يقدر هذه العزلة التى كانت تميز بيتنا الصيفى، كما كان معجبًا أيضًا بحديقته وارفة الظلال والفناء المرصوف بالحصى، حيث كان يمارس

(*) ألكسى أندرييڤيتش أراكتشييف (١٧٦٩ ــ ١٨٣٤) : شخصية بارزة فى عصر القيصر باڤل الأول، وزير الحربية من عام ١٨٠٨ إلى عام ١٨١٠ فى عصر القيصر ألكسندر الأول.

نزهته الضرورية لصحته فى الأيام الممطرة، عندما تغرق المدينة كلها فى الأوحال ويصبح السير فى الطرق غير المرصوفة أمرًا مستحيلاً. كذلك كنا معجبين أنا وزوجى بالغرف الصغيرة للمنزل الموزعة على نحو مناسب وقد وُضع بها أثاث ثقيل عتيق مصنوع من خشب الماهوجنى مفروشًا فرشَا وثيرًا يوفر الدفء، وبالإضافة إلى كل ذلك، كانت فكرة ولادة ابننا أليوشا فى هذا البيت يجعلنا نشعر أنه كان مكان حميمى.أحيانًا كان ينتابنا الخوف الشديد من احتمال أن نفقد هذا الركن الذى نحبه حبًا عظيمًا، ولكن سرعان ما اتضحت الأمور:

لقد رحلت وريثة السيد جريبى من المدينة بعد أن قررت بيع البيت وطلبت فى المقابل (بما فى ذلك الأثاث بل وحتى الحديقة المشجرة) ألف روبل، وهو مبلغ كان باهظًا آنذاك بالنسبة إلى الأهالى فى روسا. لم يكن بحوزتنا مثل هذا المال فى تلك الفترة، ولكنى لم أكن أرغب أن أتنازل عن هذه الداتشا حتى أننى طلبت من أخى، إيفان جريجوريفيتش، أن يشترى البيت باسمه على أن يعيد بيعه لنا عندما نتوفر على ثمنه. وقد لبى أخى رغبتى واشترى البيت، وقد أعدت شراءه من أخى بعد وفاة زوجى باسمى.

وبفضل شرائنا لهذا البيت أصبح لدينا، على حد تعبير زوجى «عشًا خاصًا بنا نلجأ إليه بسرور منذ بواكير الربيع، ونرحل عنه بمشقة مع قرب انتهاء الخريف. كان فيودور ميخايلوفيتش يعتبر بيتنا الصيفى فى ستاريا روسا المكان الذى تجد فيه روحه سكينتها ويجد بدنه فيه راحته، أذكر أنه كان دائمًا ما يرجئ قراءة كتبه المفضلة والشيقة إلى حين وصوله إلى روسا، حيث يجد العزلة المحببة إليه والتى لا تقطعها زيارات الفضوليين إلا نادرًا.

فى عام ١٨٧٧ كنا ما نزال نواصل إصدار «مذكرة الكاتب»، وعلى الرغم من النجاح المادى والمعنوى الذى كانت تحققه، فقد زادت معه أيضًا المتاعب المرتبطة بإصدار مجلة شهرية: أى توزيع الأعداد، إدارة الاشتراكات، المراسلات مع المشتركين، وما إلى ذلك من تبعات، وحيث أننى لم أكن أمتلك مساعدين فى هذا الأمر (اللهم إلا ساع وحيد)،

فقد كنت أبذل جهدًا فائقًا أوصلنى للإرهاق الشديد، الذى ترك أثره على صحتى حتى الآن. لقد فقدت جزءًا كبيرًا من وزنى على مدى العامين الأخيرين وبدأت فى السعال. راح زوجى الطيب، الذى كان يعتنى بصحتى دائمًا، يصر على أن أخلد إلى الراحة التامة طوال الصيف، ولكن وحيث إننى كنت مسؤولة عن رعاية البيت فى ستاريا روسا، فلم يكن هناك من سبيل إلى مثل هذه الراحة المنشودة، ولذلك فقد قرر زوجى أن يقبل دعوة أخى لقضاء الصيف بطوله فى الريف. وفى مطلع شهر مايو أصطحبنا الأسرة كلها إلى محافظة كورسكايا حيث ضيعة أخى المسماة «مالى بريكول» بالقرب من مدينة ميروبولى.

أتذكر جيدًا رحلتنا الطويلة. توقفنا خلالها عدة مرات فى موسكو وفى بعض محطات السكك الحديدية الرئيسية، حتى اضطر قطارنا للوقوف ساعات طويلة بسبب نقل قوات من الجيش المتجهين إلى الحرب[٢٠٠]. وفى كل التوقفات كان فيودور ميخايلوڤيتش يتوجه إلى البوفيه ليشترى كميات كبيرة من الكعك والفطائر والسجائر والكبريت ويذهب ليوزعها على الجنود فى العربات، وكان يدخل فى نقاش طويل مع عدد منهم.

عندما أتذكر هذه الرحلة الطويلة، أقول إن ما كان يدهشنى دائمًا هو أن فيودور ميخايلوڤيتش، الذى كان يغضب لأتفه الأسباب فى الحياة العادية، يبدو رفيقًا سهل المعشر، شديد التحمُّل فى السفر: يوافق على كل شىء دون أن يبدى أى نوع من التذمُّر أو يصر على بعض المطالب، بل على العكس من ذلك، كان يبذل قصارى جهده ليوفر لى وللمربيتين أسباب الراحة ليتمكنا من العناية بالأطفال، الذين كانوا يشعرون بالتعب سريعًا فيبدأون فى المشاكسة. لكن أكثر ما كان يدهشنى، هو قدرة زوجى على تهدئتهم: فما إن يبدأ أحد من الثلاثة فى ممارسة الشقاوة، حتى يأتى فيودور ميخايلوڤيتش من ركنه (كان يجلس معنا فى نفس العربة ولكن على مسافة منا) ويأخذ الطفل إليه الذى سرعان ما يهدأ. كان لدى زوجى موهبة خاصة فى التحدث إلى الأطفال، وأن يعرف ما الذى يثير اهتمامهم، يكتسب ثقتهم (وهو ما كان يحدث أيضًا مع الغرباء من الأطفال الذين يلتقيهم صدفة) وهكذا يروح يسلى الطفل فتسوده البهجة ويصبح مطيعًا. لعلى أفسر ذلك بحبه الدائم للأطفال الذى يلهمه كيفية التصرف فى مثل هذه المواقف.

فى نهاية شهر يونيو اضطر فيودور ميخايلوڤيتش للذهاب إلى بطرسبورج تاركا الريف، لكى يتولى أعمال تحرير وإصدار العدد المزدوج من «مذكرة الكاتب» لشهرى مايو ويونيو. ذهبت بصحبة زوجى والطفلين الكبيرين إلى محطة كورينيوڤو متجهين لزيارة الأماكن المقدسة فى كييڤ. كان فيودور ميخايلوڤيتش يولى اهتمامًا كبيرًا فى تربية الأطفال للمؤثرات النورانية البديعة التى يعيشونها فى طفولتهم المبكرة. وحيث إنه كان يعلم أننى أحلم منذ زمن بعيد بالذهاب إلى كييڤ والصلاة فى رحاب الأماكن المقدسة هناك، فقد اقترح علىّ زوجى أن أنتهز فرصة غيابه والذهاب إلى كييڤ وهو ما أنجزناه على خير ما يرام.

حالف التوفيق فيودور ميخايلوڤيتش فى إصدار وتوزيع عدد الصيف من مجلة «مذكرة الكاتب» ولكنه للأسف، عانى الكثير من القلق بسبب انتظاره الطويل لاستلام خطابات منى. أكثر ما كان يزعجه أننى، باتفاق معه، كنت أرسل إليه بالخطابات عن طريق كبير بوابة بيتنا، لكن زوجى، إليهبتأثير نوبة من نوبات الصرع وقعت له، نسى أننا اتفقنا على أنه فى حالة إرسالى خطابات على اسمه مباشرة، فإن مكتب البريد الرئيسى، بناء على توجيهات سابقة منه، أعطاها له فى الربيع قبيل سفره إلى القرية، أن يعيد هذه الخطابات إلى ميروبولى، كما اعتاد المكتب أن يفعل مع عدد كبير من مراسلاتى إلى زوجى فى بطرسبورج.

فى السنوات الأخيرة عبر فيودور ميخايلوڤيتش أكثر من مرة عن أسفه لعدم تمكنه من الذهاب إلى قرية داروڤويه، حيث ضيعة الراحلة أمه، التى كان يقضى فيها فصول الصيف فى طفولته. ونظرًا إلى أن فيودور ميخايلوڤيتش كان يشعر فى صيف عام ١٨٧٧ أنه بصحة جديدة، فقد أقنعته أن يتوقف، فى طريق عودته من بطرسبورج إلى ميروبولى، فى موسكو ليسافر منها إلى داروڤويه، وهو ما فعله فيودور.ميخايلوڤيتش. وقد نزل ضيفًا على أخته ڤيرا ميخايلوڤنا (إيڤانوڤا)، (التى انتقلت ملكية الضيعة إليها) ليلتين.وقد قصَّ علىّ أقارب زوجى فيما بعد أنه قام بزيارة مختلف الأماكن فى المنتزه والضواحى التى كانت عزيزة عليه فى ذكرياته، حتى أنه ذهب سيرًا على الأقدام (مسافة

تبعد فرسخين عن الضيعة) إلى دغل «تشيريومشنى» الأثير إلى قلبه فى طفولته، وقد استخدم فيودور ميخايلوفيتش هذا الاسم فى رواية «الإخوة كارامازوف»، وقد عرج أيضًا على أكواخ يسكنها فلاحون من أترابه ما يزال يذكرهم، حيث استقبله عجائز من الرجال والنساء؛ فضلا عن أترابه، الذين بقى حيًا فى ذاكرتهم منذ طفولته بسرور بالغ وألحوا عليه لزيارتهم فى أكواخهم وقدموا له الشاى. أيقظت هذه الرحلة إلى داروفويه ذكريات عديدة فى وجدان زوجى حكاها لنا بعد عودته بكثير من الحماس[٢٠١] وقد وعد أطفاله بأن يسافر معهم حتمًا إلى داروفويه حتى يريهم كل الأماكن المفضلة لديه فى المنتزه. وقد حقَّقت لزوجى هذه الرغبة، وتمكَّن الأطفال من مشاهدة الأماكن التى قضى فيها طفولته، عندما اصطحبتهم فى عام ١٨٨٤ [*] إلى داروفويه وقد عرّفنا أقاربه بكل الأماكن التى زارها فيودور ميخايلوفيتش فى رحلته الأخيرة وقد زرناها جميعها.

مر بنا صيف عام ١٨٧٧ على نحو غير مسبوق من المرح والسعادة، ولم ينقص من سعادتنا شىء سوى أننا لم نستطيع البقاء فى القرية. حتى شهر سبتمبر. ولكن كان علينا أن نصدر عدد الصيف المزدوج، يوليو ــ أغسطس، وقد عدنا إلى بطرسبورج مع نهاية شهر أغسطس.

بدأت الحياة العادية المليئة بشتى أنواع المشاكل والاضطرابات. كان فيودور ميخايلوفيتش قد بدأ فى استقبال ضيوف شتى كل يوم، منهم من يعرفهم ومنهم من لا يعرفهم. وفى هذا الخريف دأب على زيارتنا واحد من أشد المعجبين بموهبة زوجى، فسيفولد سيرجييفيتش سولوفيوف. وفى إحدى زياراته لنا حكى لزوجى أنه تعرف على امرأة اسمها السيدة فيلد، حدثته بدقة عن حياته الماضية، ثم تنبأت له بعد ذلك بأشياء تحققت بالفعل. وعندما غادرنا سولوفيوف عائدًاا إلى منزله، خرج بصحبته زوجى، الذى يقوم بنزهته فى هذا الوقت كل مساء. سأله زوجى الغالى إن كانت السيدة فيلد تسكن بعيدًا، عندما علم منه أنها تعيش على مقربة اقترح عليه أن يعرجا عليها على

(*) توفى فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكى عام ١٨٨١ (المترجم).

الفور. وافق زوجى واتجها معًا إلى العرافة[٢٠٢]. لم تكن السيدة فيلد تعلم. بطبيعة الحال، من هو هذا الضيف المجهول، ولكن ما تنبأت به لزوجى. من أن مجدًا كبيرًا ينتظره وشهرة عظيمة لم تخطر بباله فى طريقها إليه قد تحققت حرفيًا فى إحتفالية بوشكين! وقد تحققت معها أيضًا، للأسف الشديد، نبؤوتها أيضًا بأن زوجى سوف يواجه فى القريب العاجل مصيبة عائلية. إذ توفى ابننا العزيز أليوشا! وقد أخبرنى فيودور ميخايلوفيتش بالنبؤوة الحزينة للعرافة بعد مصابنا الأليم.

مع اقتراب العام من نهايته، راح فيودور ميخايلوفيتش يمعن التفكير فى مسألة مواصلة بإصدار «مذكرة الكاتب» فى العام التالى. كان زوجى راضيًا تمام الرضا عن النجاح المادى للمجلة واستقبال المجتمع لها بمزيد من الثقة والإخلاص، وهو ما انعكس فى الخطابات التى كان يتلقاها والأعداد الغفيرة من قراء لا يعرفهم، وهو ما قدّره تقديرًا رفيعًا، لكن حاجته للإبداع الفنى تغلبت عليه، ومن ثم قرر فيودور ميخايلوفيتش أن يتوقف عن إصدار «مذكرة الكاتب» لمدة عامين أو ثلاثة وأن يشرع فى كتابة رواية جديدة. وبالنسبة إلى المهام الأدبية التى شغلت زوجى وأرَّقته، يمكن الرجوع إلى دفترمذكراته الذى وجدناه بعد وفاته، وقد سجّل فيه فى الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٧٧ ما يلى:

«حتى آخر العمر ــ Memento.[*]»

١) كتابة كانديد روسى.

٢) كتابة كتاب عن المسيح.

٣) كتابة مذكراتى.

٤) كتابة قصيدة الأربعين[**]

(*) Memento (لاتينية) : تذْكِرة (المترجم).

(**) الأربعين : اليوم الأربعين بعد الوفاة (المترجم).

(كل ذلك، ما عدا الرواية الأخيرة و«المذكرة» المفترض إصدارها، يتطلب عشر سنوات Minimum عمل، وأنا الآن أبلغ من العمر ٥٦ عامًا).

توطئة لعام ١٨٧٧

فى منتصف شهر أبريل احتاج فيودور ميخايلوفيتش للذهاب لأمر ما إلى بنك الحكومة، ولأنى خشيت أن يجهده البحث عن فرع البنك المطلوب له، فقد تطوعت باصطحابه. وقد لاحظنا ونحن نخترق شارع نيفسكى أن الناس يزدحمون حول باعة الصحف. أوقفنا الحوذى، اخترقت الزحام واشتريت الإعلان الذى ظهر لتوه. كان «بيان سام حول عبور القوات الروسية الحدود التركية، الموجودة فى كيشينيف فى الثانى عشرً من أبريل ١٨٧٧». كان الجميع ينتظر هذا البيان منذ أمد بعيد، لكن إعلان الحرب الآن أصبح حقيقة واقعة بعد أن قرأ فيودور ميخايلوفيتش البيان، أمر الحوذى أن يأخذنا إلى كنيسة كازان. كان هناك جمع كبير من الناس محتشدين فى الكنيسة يؤدون الصلاة بلا انقطاع أمام أيقونة عذراء كازان، وعلى الفور اختفى فيودور ميخايلوفيتش وسط الزحام. كنت أعلم أنه فى الاحتفالات الأخرى يحب الصلاة فى هدوء، بعيدًا عن الأنظار، لم أتبعه، ولكننى بعد مرور نصف ساعة رحت أبحث عنه فى ركن الكنيسة، حيث وجدته مستغرقًا فى الصلاة والدعاء، حتى أنه لم يتعرف علىَّ للوهلة الأولى. لم يكن من الممكن الذهاب إلى البنك، إذ كان فيودور ميخايلوفيتش متأثرًا للغاية بهذا الحدث وما له من نتائج عظيمة بالنسبة إلى وطنه الحبيب. وضع زوجى البيان فى عداد أوراقه الهامة، وهو موجود الآن فى أرشيفه[٢٠٣]

(٧)

العـــام ١٨٧٧

كان شهر نوفمبر عام ١٨٧٧ زمنًا لحزن عظيم عاشه فيودور ميخايلوفيتش: توفى نيكولاى نكراسوف، الذى عانى آلام مرض عضال. يمثل نكراسوف ذكريات عزيزة

على زوجى ترتبط بشبابه وبداية مستقبله الأدبى. لقد كان نكراسوف من أوائل الذين اعترفوا بموهبة فيودور ميخايلوڤيتش وساعدوه على النجاح فى المجتمع الثقافى آنذاك. والحقيقة أن المعتقدات السياسية فرقت بينهما بعد ذلك، وأن جدلاً حامى الوطيس نشب فى الستينيات بين مجلتى «الزمن» و«المعاصر»، لكن فيودور ميخايلوڤيتش تغاضى عن كل ما حدث، وعندما اقترح عليه نكراسوف أن ينشر روايته فى «حوليات الوطن»، فقد وافق على الفور وسرعان ما جدد علاقات الود بينه وبين صديق شبابه، الذى استجاب لها بإخلاص. وعندما عرف فيودور ميخايلوڤيتش أن نكراسوف يعانى من مرض خطير راح يعوده فى مرضه ويطمئن على صحته مرارًا. وفى مرات أخرى كان يطلب ألا يوقظوا المريض حرصًا عليه، وأن يبلغوه فقط تحياته القلبية. أحيانًا كان زوجى يجد نكراسوف فى حال من النشاط، وعندئذ كان يجلس لديه ليستمع منه إلى أشعاره الأخيرة، وعندما أشار نكراسوف إلى إحدى قصائده ــ «البؤساء» (تحت عنوان «الخُلُدْ») قائلاً: «لقد كتبتها عنك!»، الأمر الذى تأثر به فيودور ميخايلوڤيتش أيما تأثر[٢٠٤] على العموم فقد تركت اللقاءات الأخيرة بنكراسوف إنطباعًا عميقًا لدى فيودور ميخايلوڤيتش[٢٠٥]، ولهذا فقد كان حزنه عميقًا، عندما علم فى السابع والعشرين من ديسمبر بوفاة نكراسوف. وفى تلك الليلة راح يقرأ جهرة أشعار الراحل، مبديًا إعجابه بإخلاص بالعديد منها، معتبرًا إياها دُررًا حقيقية فى عقد الشعر الروسى. عندما رأيت مقدار كدره، وخوفًا من أن تدهمه نوبة من نوبات الصرع، بقيت جالسة إلى جواره فى غرفة المكتب ومن حكاياته عرفت بعضًا من المواقف التى عاشاها معًا فى شبابهما.

حضر فيودور ميخايلوڤيتش القداس الجنائزى الذى أقيم لنكراسوف وقرر الذهاب لحمل جثمانه ودفنه. وصلنا فى ساعة مبكرة من صباح يوم الثلاثين من ديسمبر إلى حى لينينانيا، حيث منزل كرايفسكى الذى عاش فيه نكراسوف، وهنا وجدنا جمهورًا غفيرًا من الشباب يحملون أكاليل الغار فى أيديهم. سار فيودور ميخايلوڤيتش خلف النعش حتى وصل إلى شارع إيتالينسكايا، وحيث إن السير فى هذا البرد القارس دون غطاء

رأس يعتبر أمرًا خطيرًا، فقد أقنعت زوجى بالعودة إلى المنزل، ثم الذهاب بعد ساعتين إلى كنيسة العذراء لحضور القداس. وهذا ما فعلناه، وفى الظهيرة كنا فى الكنيسة.

وقفنا حوالى نصف ساعة فى جو حار داخل الكنيسة، وهنا قرر فيودور ميخايلوڤيتش الخروج للهواء، وقد خرج معنا صديق زوجى، أورست فيودوروڤيتش ميللر ورحنا معًا نبحث عن قبر نكراسوف. ترك الهدوء الذى خيم على المكان انطباعًا موحيًا بوجود الموت. وعندئذ قال لى «آنيا، عندما أموت ادفنينى هنا أو حيث شئت، لكن تذكرى، لاتدفنينى فى جبانة ڤولكوڤى، عند جسور الأدباء. لا أريد أن أرقد بين أعدائى، كفانى ما لقيت منهم فى حياتى!» كان لوصيته بشأن الدفن وقع ثقيل على قلبى؛ رحت أقنعه وأؤكد له أنه بصحة جيدة وأنه لا ينبغى عليه التفكير فى الموت. ورغبة منى فى تغيير مزاجه الحزينِ رحت أصور له أمورًا خيالية حول دفنه، متمنية له أن يعيش أطول عمر ممكن.

ــ إذا لم تكن ترغب أن تدفن فى ڤولكوڤى، فسوف أدفنك فى كنيسة نيڤسكى، إلى جانب چوكوڤسكى(*) وقد كنت تكن له حبًا شديدًا. ولكن، أرجوك ألا تموت، من فضلك! سوف أستدعى مغنين من نيڤسكى وسوف يقيم القداس أسقفًا، بل أسقفين. هل تعرف، سوف أفعل كل ما فى وسعى لكى يسير وراءك ليس فقط هذا الجمع الغفير من الشباب، وإنما بطرسبورج كلها، ستون ألفًا، ثمانون. وسوف تكون الأكاليل ثلاثة أضعاف. انظر، أى جنازة رائعة أعدك بتنظيمها، ولكن بشرط واحد، أن تعيش سنوات طويلة طويلة! وإلا فسوف أكون تعيسة للغاية! رحت أسرف عمدًا فى وعودى لعلمى أن ذلك ربما يصرف فيودور ميخايلوڤيتش عن تلك الأفكار التى استولت عليه فى هذه اللحظة، وقد نجحت فى ذلك. ابتسم فيودور ميخايلوڤيتش وقال لى:

ــ حسنًا، حسنًا، سأحاول أن أعيش أطول!

(*) ڤاسيلى أندرييڤيتش چوكوڤسكى (١٧٨٣ ــ ١٨٥٢): شاعر روسى شهير (المترجم).

ذكر أوريست ف. ميللر شيئًا ما عن خيالى الخصب وانتقلنا بالحديث إلى أمور أخرى(*).

بعد أن أنهى عدد من العاملين فى «حوليات الوطن» كلماتهم عند قبر نكراسوف، طلب جمهور من الشباب الذى أحاط بقبره أن يلقى دستويفسكى كلمته. ألقى فيودور ميخايلوفيتش، الذى كان فى حالة من التأثر العميق، كلمة قصيرة بصوت متهدج. وضع فيها موهبة المتوفى فى منزلة رفيعة، وأوضح مدى الخسارة الفادحة التى أصابت الأدب الروسى بموته. كانت هذه الكلمة، فى رأى الكثيرين، أكثر الكلمات التى قيلت على القبر المفتوح لنكراسوف إخلاصًا. انتشرت هذه الكلمة انتشارًا واسعًا وظهرت فى عدد ديسمبر من «مذكرة الكاتب» عام ١٨٧٧ وقد تضمنت الفصول التالية: ١) وفاة نكراسوف. وتعرض الكلمات التى ألقيت عند القبر. ٢) بوشكين، ليرمونتوف ونكراسوف. ٣) الشاعر. والمواطن. وهو عن ردود الأفعال العامة عن نكراسوف باعتباره إنسانًا. ٤) شاهد لصالح نكراسوف. وقد أكد العديد من الأدباء أن هذه المقالة مثلت أكبر دفاع عن نكراسوف كإنسان سجله نقاد من نقاد هذا الزمان(٢٠٦).

(*) مضت ثلاث سنوات، وعندما توفى فيودور ميخايلوفيتش وجرت جنازته المهيبة الضخمة، التى لم يحدث مثيل لها فى العاصمة حتى الآن، ذكرنى أوريست ف.ميللر، الذى زارنى بعدها بفترة وجيزة، بنبوءتى التى تحققت بالحرف الواحد. وكما تنبأت بالفعل، فقد وجد فيودور ميخايلوفيتش مرقده الأبدى فى كنيسة ألكسندر نيفسكى بجوار قبر الشاعر چوكوفسكى (وكان من الممكن ألا نجد مكانًا إلى جواره)، وفى القداس الجنائزى الذى جرى لجثمانه، حضر اثنان من الأساقفة وأنشد مغنون رائعون من نيفسكى، وسار فى موكبه، كما تنبأت، من ستين إلى ثمانين ألفًا كانوا يحملون عددًا كبيرًا من الأكاليل. أنا نفسى تذكرت وعودى المسرفة فى الخيال التى ذكرتها فى جبانة كنيسة العذراء، ولكننى لم أتعجب إطلاقًا لدقة نبوءتى: كنت أدرك فى نفسى القدرة أحيانًا على التنبؤ. أو إبداء ملاحظة (على نحو غير متوقع تمامًا، كما لو أنها جاءت فى حديثى دون إرادة منى)، لكنها كانت تتحقق بحذافيرها تقريبًا. كانت هذه القدرة تظهر عادة لدىّ فى تلك المواقف عندما تكون أعصابى متوترة للغاية، وقد كانت بالفعل على هذا النحو عندما مشينا فى جنازة نكراسوف، وكنت انظر بقلق بالغ إلى زوجى وأرى إلى أى حد ترك موت صديقه القديم ومعاصره أبلغ الأثر عليه.

لقد قرأت فى مكان ما إن بعض القدرات، مثل «التنبؤ»، هى أمر فطرى لدى نساء الشمال، أى النرويجيات والسويديات. ترى هل يمكن تفسير قدرتى هذه لكونى من أم سويدية، هذه القدرة التى كانت السبب فى بعض الحالات فى العديد من الفترات التعيسة التى عشتها (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

الجزء التاسع
العامان ١٨٧٨ ــ ١٨٧٩

(١)

على مدى أيام الصيام الكبير عام ١٨٧٨، قرأ ڤلاديمير سيرجييڤيتش سولوڤيوف سلسلة من المحاضرات الفلسفية بطلب من جمعية محبى الثقافة الروحية فى مبنى بمدينة سوليانى. وقد جمعت هذه القراءة عددًا كبيرًا من المستمعين اكتظت بهم القاعة؛ كان من بينهم العديد من معارفنا المشتركين، وحيث إن أمورنا المنزلية كانت مستقرة، فقد واظبنا نحن أيضًا، أنا و فيودور ميخايلوڤيتش، على حضور هذه المحاضرات[٢٠٧].

ولدى عودتنا من إحدى هذه المحاضرات سألنى زوجى:

ــ ألم تلاحظى كيف تصرف معنا نيكولاى نيكولايڤيتش (ستراخوف) على نحو غريب؟ وأنه لم يعد يزورنا كما كان يفعل دائمًا، وفى الاستراحة حيَّانا على نحو عابر ثم راح يتحدث مع شخص ما. ألا تظنى أنه قد يكون غاضبًا منا، ما رأيك؟

ــ لقد بدا لى أيضًا أنه كما لو كان يتحاشانا، أجبته، زد على ذلك أننى عندما قلت له مودعة: «لاتنسَ الأحد»، أجاب: «سأحل ضيفًا عليكم».

كنت أشعر بشىء من الانزعاج لعلِّى أكون، بطبيعتى المندفعة، قد ذكرت شيئًا ما أثار استياء ضيف الأحد المعتاد. كان زوجى يحرص بشدة على النقاش مع ستراخوف وكان

دائمًا يذكِّرنى بضرورة الاحتفاظ بنبيذ جيد أو تقديم طبق من السمك الذى كان ضيفنا يحبه.

فى أول أحد زارنا نيكولاى نيكولايڤيتش على الغداء، وقد قررت أن أستوضح منه الأمر فسألته مباشرة إن كان غاضبًا منا.

ــ ما الذى يدعوك أنّا جريجوريڤنا لتفكرى فى ذلك؟ سألنى ستراخوف.

ــ لقد بدا لى ولزوجى أنك، فى محاضرة سولوڤيوف الأخيرة، تحاشيت لقاءنا.

ــ أوه، لقد كان ظرفًا استثنائيًا، ضحك ستراخوف، لم أتحاشاكم وحدكم، وإنما تحاشيت كل معارفى. لقد جاء معى إلى المحاضرة الكونت ليڤ نيكولايڤيتش تولستوى. وقد طلب منى ألا أقوم بتعريفه لأى أحد، هذا هو السبب الذى جعلنى أبتعد عن الجميع.

ــ مستحيل! كنت مع تولستوى؟ صاح فيودور ميخايلوڤيتش بدهشة ممزوجة بالحزن. كم أشعر بالأسف لأننى لم أره ! بالطبع لم أكن لألح على التعارف، ما دام لم يرغب فى ذلك، ولكن لماذا لم تهمس لى بأنه معك؟ كنت على الأقل سأنظر إليه.

ــ أنت تعرفه لا شك من خلال صوره، قال نيكولاى نيكولايڤيتش ضاحكًا.

ــ وما قيمة الصور، وهل بإمكانها أن تكون عوضًا عن الإنسان؟ الأهم أن تراه شخصيًا. أحيانًا تكفى نظرة واحدة لكى تنطبع صورة الإنسان فى القلب طول العمر. لن أغفر لك، نيكولاى نيكولايڤيتش، أنك لم تخبرنى بوجوده[٢٠٨].

فيما بعد لم يعبر فيودور ميخايلوڤيتش لأحد عن أسفه أنه لم يتعرف على وجه تولستوى.

(٢)

توطئة لذكريات عام ١٨٧٨

فى السادس عشر من مايو ١٨٧٨ منيت أسرتنا بمصاب جلل: توفى ابننا الأصغر

ليوشا(*). لم تكن هناك أية بادرة تنبئ بوقوع هذه المصيبة: كان الصبى يتمتع طوال الوقت بصحة جيدة، وكان يمضى وقته مرحًا مسرورًا. وفى صبيحة يوم وفاته كان ما يزال يثرثر بلغته غير المفهومة وكان يضحك بصوت مرتفع مع العجوز بروخوروڤنا، التى جاءت لزيارتنا قبل سفرنا إلى ستاريا روسا. وفجأة راح وجهه يهتز ويعتريه التشنج، وقد ظننت أن ما يحدث أمر معتاد بالنسبة إلى الأطفال عند ظهور أسنان لهم، والحقيقة أن جذور هذه الأسنـــان كانت قـــد بـــدأت فى التكون بالفعل عنده فى هذه الفترة. خفت بشدة وعلى الفور استدعيت طبيب الأطفال، جريجورى تشوشين(**)، الذى اعتاد علاج أطفالنا وكان يعيش بالقرب منا، وقد حضر على الفور. يبدو أنه لم يول المرض أهمية فائقة. وصف لنا دواءً ما وأكّد أن الصغير سوف يشفى سريعًا. وعندما وجدت أن التشنج لم يتوقف فقد أيقظت فيودور ميخايلوڤيتش الذى انتابه القلق بشدة. قررنا اللجوء إلى مختص فى الأمراض العصبية. توجهت إلى البروفيسور أوسبينسكى(***). كان يستقبل المرضى، وكان هناك ما يقرب من عشرين شخصًا يجلسون لديه فى الصالة. قابلنى لمدة دقيقة وقال لى إنه سوف يأتى إلينا ما إن ينتهى من زواره ووصف لى دواء ما مهدئًا وأمر بإعطائى وسادة خاصة بها أوكسچين ليستنشق منها الطفل من حين إلى آخر.

عدت إلى المنزل فوجدت ابنى المسكين على نفس حالته: كان فاقدًا للوعى، يهتز جسده الصغير كل فترة من التشنج. ولكن، يبدو أنه لم يكن يتألم: لم يكن يئن أو يصرخ. بقينا ملازمين لابننا الصغير المريض وقد عيل صبرنا فى انتظار الطبيب وأخيرًا فى حوالى الثانية ظهرًا حضر الطبيب. فحص المريض وقال لى: «لا تبك، لا تقلقى، سوف ينتهى

(*) ألكسى فيودوروڤيتش دستويفسكى (أسماء التدليل: أليوشا ــ ليوشا) (١٨٧٥ ــ ١٨٧٨): الابن الأصغر لدستويفسكى.

(**) جريجورى ألكسندروڤيتش تشوشين (١٨٣٧ ــ ؟) : طبيب أطفال فى بطرسبورج. كان يعالج أطفال دستويفسكى.

(***) بيوتر إيڤانوڤيتش أوسبينسكى (١٨٣٨ ــ ١٨٩٣): طبيب أعصاب فى بطرسبورج، كان يعالج ألكسى (ليوشا) الابن الأصغر لدستويفسكى.

كل ذلك سريعًا!». ذهب فيودور ميخايلوڤيتش يودع الطبيب ليعود وقد كسا وجهه شحوب رهيب، ركع على ركبتيه إلى الأريكة التى نقلناها لينام عليها الصبى، حتى نسهل على الطبيب فحصه. وركعت بدورى على ركبتى إلى جانب زوجى. أردت أن أسأله ماذا قال له الطبيب لكنه أشار إلىّ بالصمت (وقد علمت منه فيما بعد أن الطبيب أخبره أن سكرة الموت قد بدأت). مرت حوالى ساعة وبدأنا نلاحظ أن نوبات التشنج قد قلَّت على نحو ملحوظ. كنت مسرورة بعد أن هدأ الطبيب من روعى، ظنًا منى أن اهتزازه الذى تحول إلى نوم هادئ، ربما ينبئ بشفائه. وكم كان يأسى عندما توقف الصبى عن التنفس فجأة لتصعد روحه إلى بارئها. قبَّله فيودور ميخايلوڤيتش ثم رسم عليه علامة الصليب ثلاث مرات وراح فى بكاء مرير. بكيت أنا أيضًا بحرقة وشاركنا أطفالنا الذين كانوا يحبون ليوشا البكاء.

كانت وفاة ليوشا صدمة هائلة لفيودور ميخايلوڤيتش. كان يحبه بشكل خاص، حبًا لا مثيل له، وكأنه كان يشعر سلفًا أنه سوف يفقده سريعًا. كان أكثر ما يؤلم فيودور ميخايلوڤيتش أن الطفل قد لقى حتفه نتيجة نوبة صرع، وأنه هو الذى ورَّثه هذا المرض اللعين(*) اعتمادًا على ظاهر الأمور، فقد بدا فيودور ميخايلوڤيتش هادئًا متماسكًا، شجاعًا فى تحمله لضربة القدر التى نزلت بنا، ولكننى كنت أشعر بالخوف بشدة لأن كتمانه لحزنه العميق، سوف ينعكس حتمًا عليه وعلى صحته المعتلة حتى قبل وقوع هذه المصيبة. وحتى أخفف من وطأتها على فيودور ميخايلوڤيتش ولو قليلاً وأصرفه عن أفكاره الكئيبة توسلت إلى ڤلاديمير سولوڤيوف، الذى كان يزورنا فى هذه الأيام العصيبة، أن يبذل قصارى جهده لإقناع فيودور ميخايلوڤيتش للسفر معه إلى دير أوبتينا(**)، الذى كان سولوڤيوف يعتزم زيارته هذا الصيف. كانت زيارة دير أوبتينا

(*) حول حقيقة مرض ألكسى دستويڤسكى (ليوشا) راجع ترجمتنا لمقال ب. مويسييڤا «هل كان دستويڤسكى مريضًا بالصرع» فى كتاب «نماذج من النقد الروسى» الصادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة «آفاق عالمية»، عام ٢٠٠٥، العدد ٤٥، ص٣١ ــ ٥٨ (المترجم).

(**) دير أوبتينا: دير للرجال يقع على بعد كيلو مترين من مدينة كوزيلسيك. تأسس فى القرن الرابع عشر

حلمًا قديمًا طالما راود فيودور ميخايلوڤيتش، ولكن كم كان من الصعب تحقيقه. وقد وعدنى ڤلاديمير سير جييڤيتش (سولوڤيوف) بأن يمد لى العون فى هذا الأمر، ومن ثم راح يقنع فيودور ميخايلوڤيتش بالذهاب إلى دير أوبتينا بصحبته. ازدادت إلحافًا فى طلبى إلى أن تقرر سفر فيودور ميخايلوڤيتش إلى موسكو فى منتصف شهر يونيو (وكان قد عقد عزمه على السفر إلى هناك ليعرض على كاتكوف روايته القادمة) وأن ينتهز الفرصة للذهاب مع ڤلاديمير سيرجييڤيتش سولوڤيوف إلى دير أوبتينا. لم أكن لأسمح لفيودور ميخايلوڤيتش بالذهاب وحده إلى دير أوبتينا قاطعًا طريقًا طويلاً، والأهم أنه كان طريق شديد الوعورة والمشقة فى ذلك الزمان، وعلى الرغم من أن سولوڤيوف كان، فى رأيي، «نسيج وحده»، حالم مثالى، لكن كان باستطاعته أن يحافظ على فيودور ميخايلوڤيتش إذا ما تعرض لنوبة من نوبات الصرع.

كان لوفاة طفلنا الغالى أثره البالغ على حياتى: كنت مصدومة إلى حد أننى غرقت فى حزنى ودموعى، حتى بات الناس يتعرفون علىّ بالكاد. اختفى حبى للحياة كما اختفت معه حيويتى وطاقتى ليحل محلهما الخمول واللامبالاة تجاه كل شىء: أعمال البيت وحتى تجاه أطفالى، ولم يعد أمامى إلا أن أنكب على كتابة مذكراتى عن السنوات الثلاث الأخيرة. وقد سجَّل فيودور ميخايلوڤيتش العديد من شكوكى وأفكارى وحتى كلماتى بنصها فى رواية «الإخوة كارامازوف» فى الفصل المعنون «النساء المؤمنات»، حيث تحكى المرأة التى فقدت طفلها عن حزنها إلى الأب زوسيما.

كانت حالتى تعذب فيودور ميخايلوڤيتش بشدة: كان يسعى لإقناعى ويرجونى أن أخضع لإرادة الله وأن أستسلم لقضائه وأقبل المصاب الذى أنعم به الله علينا وأن أرحم أطفالنا، الذين أصبحت، فى رأيه، لا مبالية تجاههم. وقد أثمرت توسلاته ومواعظه فرحت أغالب نفسى حتى لا يزيد حزنى الفائض من كدر زوجى المكلوم.

الميلادى على يد الأب أوبتوى (مكارى). بجواره خلوة (أسست عام ١٨٢١) زارها كل من جوجول ودستويفسكى وتولستوى (المترجم).

ما إن انتهينا من مراسم دفن أليوشا (وقد دفناه فى جبانة بولشى ــ أوختينسكى) حتى سافرنا إلى ستاريا روسا، وبعدها سافر فيودور ميخايلوڤيتش فى العشرين من يونيو إلى موسكو. وهناك سرعان ما نجح فى الاتفاق مع هيئة تحرير «البشير الروسى» على نشر روايته الجديدة فى العام ١٨٧٩ (٢٠٩). وبعد انتهائه من هذه المهمة اتخذ طريقه إلى دير أوبتينا وقد وصف زوجى رحلته أو، إن شئنا الدقة، «متاهته» بصحبة ڤلاديمير سولوڤيوف فى خطابه لى المؤرخ التاسع والعشرين من يونيو ١٨٧٨(٢١٠).

عاد فيودور ميخايلوڤيتش من الدير وقد غشته الطمأنينة وساد السلام روحه على نحو ملحوظ، وقد حكى لى الكثير عن عادات الدير حيث قضى به يومين. وهناك التقى ثلاث مرات «بالأب» أمفروسى، الذى كان يحظى بشهرة واسعة آنذاك مرة وسط زحام الناس، ومرتين على انفراد، وأجرى معه أحاديث خرج منها بانطباعات عميقة نفاذة. وعندما حدثه فيودور ميخايلوڤيتش عن المصائب التى حلت بنا وعن الحزن العاصف الذى ألمَّ بى، سأله الأب إن كنت أؤمن بالله، فلما أكد له فيودور ميخايلوڤيتش أننى مؤمنة طلب منه أن يبلغنى تحياته وكذلك هذه الكلمات التى قالها الأب زوسيما(*) إلى الأم المكلومة...(**)

وقد تبين لى من أحاديث فيودور ميخايلوڤيتش على أى نحو من الخبرة بالقلوب وحدة البصيرة كان هذا «الأب» الذى كان الجميع يكنون له الاحترام.

بعد عودتنا فى الخريف إلى بطرسبورج قرَّرنا ألا نقيم مرة أخرى فى هذه الشقة التى تمتلئ جنباتها بذكرياتنا عن ابننا الراحل، ومن ثم انتقلنا للسكنى فى حارة كوزنيتشنى، فى المنزل رقم (٥) حيث قُـدِّر لزوجى أن يتوفى فيه بعد عامين ونصف العام.

كانت هذه الشقة مكونة من ست غرف ومخزن كبير للكتب، مدخل ومطبخ، وكانت تقع فى الطابق الثانى. كانت هناك سبع نوافذ تطل على حارة كوزنيتشنى، وكان مكتب

(*) فى رواية «الإخوة كارامازوف» (المترجم).

(**) فقرة مفقودة فى المخطوطة(٢١١).

زوجى موجودًا فى المكان الذى تعلق فيه الآن لوحة من المرمر. يقع المدخل الأمامى (وقد تم إغلاقه الآن) أسفل حجرة الاستقبال (بجانب المكتب).

حاولنا كثيرًا أنا وزوجى أن نستسلم لإرادة الله، وأن تقاوم الحنين وننسى أليوشا الحبيب، لكننا لم نستطع، وبقينا طوال الخريف ومن بعده الشتاء نكابد الذكريات الحزينة. كان لهذا الفقد أثره البالغ على زوجى الذى ازداد ولعه بأطفاله، فراح يعاملهم بحب أكثر وبقلق أشد.

كانت حياتنا تسير، ظاهريًا، على سابق عهدها: فيودور ميخايلوڤيتش يعمل بجد فى وضع خطة روايته الجديدة (كان وضع خطة للرواية يمثل دائمًا الأمر الأهم والأصعب فى أعماله الأدبية، فقد كان يعيد إعداد خطط رواياته أحيانًا أكثر من مرة، مثلما حدث مع رواية «الشياطين» على سبيل المثال). كان العمل يسير بقدر كبير من النجاح، إلى حد أنه بحلول شهر ديسمبر من عام ١٨٧٨ كان قد تم إنجاز حوالى عشر ملازم من رواية «الإخوة كارامازوف»، وقد نشرت جميعًا فى عدد يناير من مجلة «البشير الروسى» عام ١٨٧٩؛ فضلاً عن الخطة التى وضعها فيودور ميخايلوڤيتش.

فى الرابع عشر من ديسمبر عام ١٨٧٨ شارك فيودور ميخايلوڤيتش في الأمسية الأدبية الموسيقية التى أقيمت فى قاعة الجمعية الخيرية لصالح فصول بيستوچيف(*). وقد قرأ «قصة نيللى» من رواية «مذلون مهانون». كان أكثر ما سلب لب المستمعين فى قراءة فيودور ميخايلوڤيتش هو البساطة البالغة والإخلاص، وكأنه ليس هو الكاتب الذى يقرأ، وإنما هى الفتاة المراهقة، التى تحكى عن حياتها المريرة. كانت هذه القراءة البسيطة فنًا حقيقيًا، حتى أنها تركت مثل هذا الأثر الذى لا يمحى لدى المستمعين. رحبت الدارسات ترحيبًا حارًا بالمحاضر، وأذكر أن زوجى كان سعيدًا لوجوده

(*) مؤسسة تعليمية عليا قبل الثورة (الفصول النسوية العليا) كانت تقوم بإعداد الأطباء والمدرسين، كان على رأسها بيستوچيف ـ ريومين قسطنطين نيكولايڤيتش (١٨٢٠ ـ ١٨٩٧)، أستاذ التاريخ ورئيس الجمعية الخيرية السلافية.

وسط هؤلاء الشابات المتحمسات اللائى عاملنه بكل إخلاص. فيما بعد وافق فيودور ميخايلوڤيتش برضا خاص على دعوته للقراءة لصالح الدراسات[٢١٢].

(٣)

العام ١٨٧٨ . التعارف بالأمراء العظام

عندما ظهر الإعلان عن توقف فيودور ميخايلوڤيتش عن إصدار «مذكرة الكاتب»، وذلك فى العدد قبل الأخير منها لأسباب مرضية[٢١٣]، راح زوجى يتلقى من المشتركين والقراء خطابات تعبر عن تعاطف بعضهم معه فى مرضه ويتمنون له الشفاء، وآخرون عبَّروا عن أسفهم لتوقف المجلة، الأمر الذى كان يعبر بجلاء عن كل ما يثير المجتمع آنذاك من قضايا! وهناك من عبر عن أمله فى أن يصدر فيودور ميخايلوڤيتش «المذكرة» دون تحديد موعد ثابت، إن كان فى إصدارها شهريًا عبء كبير على صحته، وأن يصدرها عندما تسمح ظروفه الصحية وقوته بذلك، حتى يمكن أن يتعرف، ولو من حين إلى آخر، على آرائه السديدة المخلصة بشأن الأحداث البارزة الجارية. كانت هذه الرسائل تصل بالمئات فى مطلع العام، وكانت تترك أثرًا طيبًا على زوجى، كما أنها كانت تثبت لفيودور ميخايلوڤيتش أن هناك العديد ممن يشاركون آراءه وأن المجتمع يقدر وجهة نظره المحايدة ويثقون به. وفى هذا الصدد فقد احتفظت بالخطاب الذى كتبه فيودور ميخايلوڤيتش إلى صديقه ستيبان دميتربيڤيتش يانوفسكى [٢١٤]، الذى أورده فيما يلى:

«لن تصدق إلى أىّ حد وجدت تعاطفًا من الشعب الروسى خلال هذين العامين المنصرمين من إصدار «المذكرة». لقد وصلتنى مئات الخطابات التى تثنى عليها، بل والتى تعبر بصدق عن حبها لها. ومنذ شهر أكتوبر الماضى، عندما أعلنت عن توقف إصدارها، راحت هذه الخطابات تنهال علىّ شهريًا من كل أنحاء روسيا ومن كل طبقات المجتمع (على تباينها الشديد)، يعرب أصحابها عن أسفهم ويطلبون منى ألا أتخلى عن القضية. إن ضميرى فقط هو الذى يمنعنى أن أصف إلى أى حد عبروا عن

تعاطفهم معى، ولعلمت قدر ما تعلمته أنا نفسى فى هذين العامين من إصدار «المذكرة» من خلال هذه الخطابات التى تلقيتها من الشعب الروسى، الذى هو بحق، من وجهة نظر صادقة وعادلة لإنسان روسى، لا من وجهة نظر مثقفى بطرسبورج المشوهة، أعظم بدرجة لا تقارن مما كنت أظنه عنه قبل عامين. وإنه لأكبر إلى حد أننى لم أستطع، فى أكثر أبعد أحلامى وخيالاتى، أن أصل إلى هذه النتيجة. صدقنى، إن لدينا فى روسيا الكثير من الأمور، ليست بهذا السوء الذى كنا نتصوره من قبل، إن الكثير من الناس يعبرون عن طموحهم الشديد لحياة جديدة عادلة، عن إيمانهم العميق بقرب حدوث تغير كبير فى الطريقة التى يفكر بها مثقفونا، الذين تخلوا عن الشعب، والذين لايفهمونه على الإطلاق. أنت غاضب على كرايفسكى، ولكنه ليس وحده؛ إنهم ينكرون الشعب، سخروا، وما زالوا يسخرون على حركته، وعلى هذا التجلى الواضح المضيء لإرادته وللشكل الذى صاغ من خلاله طموحه. وبذلك سوف يختفى هؤلاء السادة، سوف يهرمون ويصمتون. إن الذين لا يفهمون الشعب عليهم الآن أن ينضموا إلى سماسرة البورصة واليهود، هذه نهاية ممثلى فكرنا «التقدمى». إن أمرًا جديدًا يجرى داخل جيش شبابنا ونسائنا (أخواتنا) أمر مختلف تمامًا عما توقعه الجميع أو تنبأ به، ولسوف ننتظر.

(إن كرايفسكى يخدم المشاهير، وبالإضافة إلى ذلك فإنه، من وجهة نظرى، يريد أن يبدو متميزًا بأصالته منذ الحرب الصربية. ولكن ما إن يقدم المرء تنازلاً واحدًا، حتى يستمر فى ذلك دون أن يملك القدرة على التوقف) زد على ذلك أن لدينا هنا ردود أفعال قليلة فى الصحف كل، باستثناء «حوليات موسكو» وسياسييها التقدميين الذين يلقون تقديرا كبيرا فى الخارج، أما الصحف الأخرى فإنها لا تفعل شيئًا سوى انتهاز الفرصة. فى كل هذه المئات من الخطابات التى تلقيتها على مدى هذين العامين. كان الناس يمتدحوننى لنزاهة أفكارى وصدقها: هذا يعنى أن هذا ما يفتقدون إليه، وما يتعطشون إليه، ما لا يجدونه لدينا»[٢١٥]

فى السادس من فبراير عام ١٨٧٨ تلقى فيودور ميخايلوڤيتش الرسالة التالية من السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم:

«إن أكاديمية العلوم الإمبراطورية إذ تعرب عن احترامها لجهودكم الأدبية، فإنها قد اختارت سعادتكم ضمن أعضائها المراسلين فى قسم اللغة الروسية وآدابها».

وقد جرى تدشين هذا الاختيار فى اجتماع احتفالى جرت مراسمه فى الأكاديمية فى التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٧٧

كان فيودور ميخايلوڤيتش سعيدًا بهذا الاختيار، على الرغم من أنه جاء متأخرًا بالنسبة إليه بعض الشىء (فى العام الثالث والثلاثين من نشاطه) مقارنة بأقرانه فى مجال الأدب[٢١٦].

أذكِّر هنا أن فيودور ميخايلوڤيتش قد شارك فى مطلع عام ١٨٧٨ فى حفلات الغداء التى كانت تنظمها جمعية الأدباء كل شهر فى مختلف المطاعم لدى بوريل[*] أو فى مطعم «مالويارسلاڤيتش» وغيرها. كانت الدعوات ترسل ممهورة بتوقيع الكيميائى الشهير مندلييف[**]. وفى هذه المآدب التقى أدباء من شتى الأحزاب المتباينة بشدة، وفيها كان فيودور ميخايلوڤيتش يلتقى بأشد أعدائه من الأدباء لدادة. وعلى مدى شتاء عام ١٨٧٨ تردد فيودور ميخايلوڤيتش مرات أربع لحضور مآدب الغداء هذه، وكان يعود منها فى كل مرة مضطربًا مثارًا فيحكى لى على نحو شيق عن لقاءاته المفاجئة وعمن تعرف عليهم فيها.

وفى مطلع عام ١٨٧٨ وقع حادث سار كان له تأثيره الطيب على فيودور ميخايلوڤيتش: زاره ديمترى سيرجييڤيتش أرسينيف[***]، مربى الأميرين العظيمين سيرجى وباڤل ألكسندروڤيتش. وقد أعرب أرسينيف عن رغبته فى أن

(*) بوريل : صاحب مطعم فى بطرسبورج.

(**) ديمترى إيڤانوڤيتش مندلييف (١٨٣٤ ـ ١٩٠٧): عالم كيمياء، صاحب الجدول الدورى المعروف باسمه. التقى بدستويفسكى عدة مرات وألقى كلمة بليغة يوم وفاته.

(***) ديمترى أرسينيف (١٨٣٢ ـ ١٩١٥) أدميرال. مربى الأميرين العظيمين، شغل منذ عام ١٨٨٢ منصب مدير المدرسة البحرية فى بطرسبورج.

يتعرف تلميذيه على الكاتب الشهير الذى أثارت رواياته إعجابهما، وأردف أرسينيف قائلاً أنه حضر إلى هنا ممثلاً للقيصر(*)، الذى يود لو أن فيودور ميخايلوڤيتش سعى من خلال أحاديثه أن يترك أثرًا طيبًا على الأميرين الشابين العظيمين[٢١٧].

آنذاك كان فيودور ميخايلوڤيتش مستغرقًا فى وضع خطة رواية «الإخوة كارامازوف»، وكان انقطاعه عن هذه الرواية أمرًا بالغ الصعوبة، لكن رغبة القيصر ــ المحرر كانت بطبيعة الحال، قانونًا بالنسبة إليه. كان فيودور ميخايلوڤيتش يشعر بالرضا كونه يدرك أن لديه إمكانية أن يحقق ولو جزءًا يسير من رغبة شخصية كان يمكن لها دائمًا تقديرًا كبيرًا لما قامت به من عمل عظيم تمثل فى تحرير الفلاحين من القنانة ولتحقيقه الحلم الذى كان عزيزًا عليه فى شبابه والذى عانى من أجله بشدة فى هذا الزمن.

وفى الخامس عشر من مارس تلقى فيودور ميخايلوڤيتش الخطاب التالى من ديمترى أرسينيف:

«مضى زمن طويل منذ ذلك اليوم الذى تعارفنا فيه: وبعد أن تبادلت معكم الحديث ازدادت اقتناعا، أن من الأفضل أن أعد لتعارف الأميرين العظيمين بكم، بحيث لا يبدو الأمر متفقًا عليه بناء على نصيحة الأسرة أو بطلب من المربى، وإنما ليأتى نابعًا من رغبتهما الشخصية. وهكذا، وبإيحاء من هذه الرغبة بواسطة (كما يبدو) أحاديث عابرة مضى عليها زمن طويل فى أثناء عيد الصوم الكبير والأسبوع الأول من الصيام. كنت أخشى أن يأتى اللقاء الأول معكم أقل قوة بتأثير ترتيبات أخرى، ولهذا السبب أتيت إليكم برجاء الوفاء بوعدكم»[٢١٨].

كان للقاء الأميرين العظيمين أثرًا طيب للغاية على فيودور ميخايلوڤيتش: وجد لديهما قلبا طيبًا وعقلاً راجحًا، وقدرة على التنازل عن آرائهما التى أحيانًا ما تبدو ما تزال مفتقدة إلى الخبرة ؛ فضلاً عن تعاملهما باحترام تجاه آراء الطرف الآخر المخالفة.

(*) القيصر ألكسندر الثالث (١٨٤٥ ــ ١٨٩٤).

وكان من الواضح أن تعارف الأميرين العظيمين بفيودور ميخايلوڤيتش قد ترك أثرًا رائعًا عليهما فراحا يكرران دعوتهما له. وذات يوم مر علينا أرسينيف، ولمّا لم يجد زوجى بالبيت ترك له الخطاب التالى (٢٣ أبريل ١٨٧٨):

«... أرجو زيارتى فى حدود الخامسة والنصف، إذا لم يكن فى هذا الأمر مشقة عليكم، وسيكون ذلك فضلاً عظيمًا من جانبكم، إذ إن لدىّ رغبة فى التحدث إليكم على انفراد قبيل لقائكم بالأميرين العظيمين. أود أن أطلب منكم أن تتطرقوا إلى الحديث عن هذا الدور الذى يمكنهما القيام به فى الظرف الاجتماعى الراهن، وعن كيف يمكننا الوصول إلى ذلك على نحو طبيعى للغاية. إننى متشوق للحديث معكم»[٢١٩].

استمرت علاقة الأميرين العظيمين بفيودور ميخايلوڤيتش حتى وفاته. وعندما ذهب سموهما إلى الخارج فى عام ١٨٨١، أرسلا إلىّ برقية تتضمن خالص عزائهما لى فى مصابى الجلل.

تسنى لفيودور ميخايلوڤيتش أن يلتقى، فى أثناء زيارته للأميرين العظيمين الأمير قنسطنطين قنسطنطينوڤيتش[*]، وكان فى ذلك الوقت شابًا مخلصًا سليم الطوية، أدهش زوجى بحماسه الشديد تجاه كل شىء جميل ورائع فى أدبنا الوطنى. وقد استشرف فيودور ميخايلوڤيتش فى هذا الأمير الشاب موهبة شعرية حقيقية وعبر عن أسفه لأن الأمير العظيم اختار البحرية مستقبلاً له سيرًا على نهج أبيه[٢٢٠]، بينما كان من الضرورى، فى رأى زوجى، أن يظهر نشاطه فى مجال الأدب؛ وقد تحققت نبوءته فيما بعد على نحو رائع[٢٢١]. انعقدت عرى الصداقة بين زوجى وبين الأمير العظيم الشاب، على الرغم من فارق السن بينهما، وكان كثيرًا ما يدعو زوجى إليه ليتبادلا أطراف الحديث على انفراد، أو يدعو صحبة مختارة ويطلب منه أن يقرأ عليهم ما يروق له من مقاطع من روايته الجديدة. وهكذا تسنى لزوجى مرتين أو ثلاث أن يقرأ من أعماله فى حضور زوجة

(*) قنسطنطين قنسطنطينوڤيتش (١٨٥٨ ــ ١٩١٥): رئيس أكاديمية العلوم، عازف بيانو، ناقد وشاعر.

ولى العهد، سمو الأميرة العظيمة ماريا فيودوروڤنا(*)، وكذلك ماريا ماكسيميليانوڤا بادنسكايا(**) وغيرهما من شخصيات الأسرة المالكة. وما زلت أحتفظ بعدد من الخطابات التى تفيض مودة أرسلها الأمير العظيم إلى زوجى[٢٢٢]، وعندما توفى زوجى لم يكتف سموه بإرساله برقية عزاء وإنما أرسـل إلىّ أيضًا خطـابًا. ومن بين العديد من خطابات العزاء التى تلقيتها فى عام ١٨٨١ كان لخطاب سموه أثر عميق فى نفسى، وكنت مقتنعة تمامًا أنه قد حزن حزنًا شديدًا لوفاة فيودور ميخايلوڤيتش.

لا يمكننى أن أحرم نفسى من متعة الإفصاح عن هذا الخطاب الذى ورد إلىّ من هذا الإنسان الرائع الذى اختطفه الموت مبكرًا:

«الفرقاطة» الدوق إينبورجسكى» ١٤ (١٦) فبراير ١٨٨١

المحترمة أنّا جريجوريڤنا

لقد تكبدتم خسارة فادحة لا تعوض، ولكنكم لست وحدكم من تكبدها، فروسيا بأسرها تشعر بالحزن العميق تجاه خسارتها رجلاً عظيمًا ضحى بعمره كله من أجلها. إن الله الرحيم، وقد حمَّلك عبء هذا المصاب الجلل، لسوف ينعم عليك فى ذات الوقت بالصبر الجميل: لسوف يشارككم هذا الحزن كل مواطنينا الذين عرفوا فيودور ميخايلوڤيتش عن قرب أو لم يعرفوه.

لقد منعنى السفر بحرًا إلى بلاد بعيدة أن أعرف بالمصيبة التى حلت بوطننا فى حينه. وقد وقع علىّ هذا النبأ الحزين، الذى عرفته بالأمس فقط، وقع الصاعقة. وعلى الرغم من أن الفرصة لم تتح لى حتى الآن للتعرف عليكم، فإننى لا أملك فى هذه الظروف العصيبة إلا أن أعبر لكم عن رغبتى التى لا تقاوم فى وصف حزنى العميق ومشاركتكم أحزانكم. ولمّا كنت محبًا مخلصًا لزوجكم خالد الذكر، فإننى لا أملك إلا أن أعرب

(*) ماريا فيودوروڤنا (١٨٤٧٨ ـ ١٩٢٨): الإمبراطورة، زوجة ألكسندر الثالث.
(**) ماريا ماكسيميليانوڤا بادنسكايا (١٨٤١ ـ ١٩١٤): زوجة الأمير ڤيلجيلم بادينسكى.

لكم عن عزائى فى هذه المصيبة التى أشعر بها الآن، والتى لا يمكن لكلماتى أن تصفها. اغفرى رفع الكلفة وأنا أخاطبكم فى هذه المحنة، التى لا يستطيع أى شىء على وجه الأرض أن يبدد فيها روعك. ثقى فى مشاعرى المخلصة.

المخلص قنسطنطين.

عندما عاد الأمير العظيم لحضور مراسم دفن الإمبراطور ألكسندر الثانى، أبلغنى، بواسطة الأميرة أ. ى. كوماروفسكايا(*)، عن رغبته أن يلتقى بى. وصلت إلى الأميرة بدعوة منها فى المساء، وقضيت بضع ساعات أتبادل الحديث مع الأمير العظيم. وما زلت أذكر بشعور الامتنان الخالص ما حدثنى به عن زوجى خالد الذكر وعن تأثيره الطيب الذى تركه الراحل عليه. وقد تمنى الأمير العظيم رؤية أطفالى. الذين تحدث عنهم زوجى بفرح بالغ. وقبيل رحيله إلى البحر، دعانى الأمير العظيم أنا وأطفالى يوم خميس العهد، حيث راح الأطفال «يلونون البيض» ويتلقون منه الهدايا. بعد ذلك زارنى الأمير العظيم فى أسبوع الآلام وقدَّم لى أنا والطفلين صورة له (وهو بالزى البحرى) وعليها إهداء ودى[٢٢٣].

فيما بعد وعندما تأسست فى ستاريا روسا مدرسة تحمل اسم فيودور ميخايلوفيتش، انضم الأمير العظيم قنسطنطين قنسطنطينوفيتش للشخصيات التى أرادت لهذه المدرسة النمو والإزهار بمساهمة مالية سنوية بلغ مقدراها خمسمائة روبل قبلتها المدرسة بامتنان عميق.

(٤)

العام ١٨٧٨. وصول معجبة

ذات يوم من أيام الربيع الأولى لعام ١٨٧٨ كانت أسرتنا جميعًا تجلس إلى مائدة

(*) آنّا يجوروفنا كومارو فسكايا. أميرة (١٨٣٢ ــ ؟): وصيفة فى بلاط ألكسندر الثانى.

الغداء فى سلام. كان فيودور ميخايلوفيتش يتمتع فى هذا اليوم بمزاج حسن، وقد استعاد نشاطه وحيويته، بعد جولة خلوية طويلة، وقد راح يتبادل أطراف الحديث مع الطفلين. فجأة دوى صليل الجرس بقوة، هرعت الخادمة لتفتح الباب. وإذا بنا نسمع عبر الباب المفتوح جزئيًا عند المدخل صوتًا نسائيًا عاليًا يصرخ قائلاً:

ــ هل ما يزال حيًا ؟

لم تفهم الفتاة السؤال فالتزمت الصمت.

ــ أنا أسأل هل ما يزال فيودور ميخايلوفيتش على قيد الحياة؟

ــ كلهم أحياء، أجابت الفتاة على عجل.

أردت أن أذهب لأستوضح الأمر، لكن فيودور ميخايلوفيتش، الذى كان جالسًا بالقرب من الباب، سبقنى مندفعًا بسرعة نحو المدخل.

قفزت عن الكرسى امرأة متوسطة العمر مهرولة وقد مرت يديها نحوه صائحة:

ــ ما زلت حيًا، فيودور ميخايلوفيتش؟ كم أنا مسرورة أنك حى!

ــ ما الذى بك يا سيدتى؟ صاح بدوره وقد أخذته الدهشة. أنا حى أرزق وعازم على أن أعيش طويلاً!

ــ لقد انتشرت الشائعات عندنا فى خاركوف، أجابت المرأة باضطراب، أن زوجتك قد هجرتك وأنك رقدت طريح الفراش بسبب خيانتها دون أن تجد من يمد لك يد العون، وعلى الفور سافرت حتى أقوم على رعايتك. إننى قادمة إليك مباشرة من القطار.

خرجت إلى المدخل أنا أيضًا بعد أن سمعت الضجة والصياح لأجد فيودور ميخايلوفيتش فى حالة من الغضب الشديد:

ـــ هل سمعت يا آنيا، التفت مخاطبًا إياى، بعض السفلة نشروا شائعات تقول إنك هجرتنى، كيف يبدو لك الأمر؟ كيف يبدو لك الأمر؟!!

ـــ اهدأ يا عزيزى، لا تقلق، قلت له، لا شك أن هناك سوء فهم ما. اذهب من فضلك، الهواء هنا شديد عند المدخل. وبهدوء شديد دفعت فيودور ميخايلوڤيتش باتجاه غرفة الطعام. استجاب لى؛ وبعد أن خرج استمعت إلى صياحه الغاضب آتيًا من غرفة الطعام.

رحت أتحدث مع المرأة الغريبة وقد تبين أنها مُدرسة، طيبة للغاية، ولكن لا يعنى هذا بالضرورة أنها تتمتع بالذكاء على نحو خاص. يبدو أنها قد وقعت تحت إغراء فكرة رعاية كاتب شهير هجرته زوجته السافلة، وأنها، من الجائز، يمكن أن تنقله إلى عالم أفضل، ثم تفخر بعد ذلك طوال حياتها أنه مات على يديها. كنت أشعر بالأسف الشديد لهذه المرأة المجهولة، التى كانت، بداهة، فى حالة شديدة من الاضطراب. استأذنتها وذهبت لدقيقة إلى غرفة الطعام وقلت لزوجى إننى أريد أن أقدم لها بعض الطعام.

هـز فيودور ميخايلوڤيتش يديه وقال بصوت خفيض: «نعم، نادى عليها، ولكن انتظرى برهـة لأذهب بعيدًا أولاً!»، غادر مقعده وتوجه إلى غرفته.

عدت إلى المرأة المجهولة وعرضت عليها أن تستريح وتتناول طعام الغداء، لكنها كانت، كما يبدو، غاضبة من استقبال زوجى لها وطلبت أن تقوم الخادمة بتوصيل سلتها الكبيرة، التى أحضرها لها البواب بعد وصولها، إلى الحوذى. لم ألح عليها فى العرض ولكننى استفسرت منها عن مكان إقامتها وعن اسمها كاملاً.

عندما عدت إلى زوجى وجدته على حال كبيرة من العصبية.

ـــ فقط، فكرى، قال زوجى وقد اشتد اضطرابه وراح يذرع الغرفة، ـــ أى حقارة يخترعونها: أنت هجرتنى! يا لها من افتراءات وقحة! من هذا العدو. الذى يروج هذه التلفيقات؟

كان أكثر ما يثير قلق زوجى فى هذا الحادث هو فكرة أن باستطاعة أحد أن يلفق لى الشائعات. عندما رأيت أن حادثًا ليست له، نسبيًا، كل هذه الأهمية قد أثار قلق زوجى إلى هذا الحد، اقترحت عليه أن يكتب إلى صديقه القديم، البروفيسور ن. ن. بيكيتوف[٢٢٤](*)، وأن يستفسر منه عن الشائعات التى تدور حولنا هناك. أخذ زوجى بنصيحتى، وفى المساء كتب خطابًا إلى بيكيتوف [٢٢٥]، وقد هـدأ هذا من قلقه بعض الشىء. وفى اليوم التالى طلب منى أن أدعو المرأة المجهولة للحضور إلينا، لكننى لم أجدها: فقد سافرت فى الصباح عائدة إلى خاركوف.

(٥)

العام ١٨٧٩

مر الشهران الأوليان من العام الجديد فى هـدوء تام كان فيودور ميخايلوفيتش يعمل فى دأب من أجل إنجاز روايته الجديدة، وكان العمل فيها يسير هينًا. وفى مطلع شهر مارس شارك زوجى فى عدد من الأمسيات الأدبية. على سبيل المثال: ألقى فى التاسع من مارس محاضرة لصالح الصندوق الأدبى فى قاعة الجمعية، وقد شارك فى هذه الأمسية أفضل كُتَّابنا: تورجينيف، سالتيكوف(**)، بوتيخين(***) وغيرهم. وكان فيودور ميخايلوفيتش قد اختار «قصة سرية» موضوعًا لمحاضرته وهى من رواية (الإخوة كارامازوف)، قرأها على نحو رائع واستقبلها الجمهور بتصفيق مدو[٢٢٦]. كان للنجاح الكبير الذى حققته هذه الأمسية الأدبية أثره فى اتخاذ قرار بإعادتها فى السادس عشر من نفس الشهر بمشاركة نفس الكُتَّاب تقريبًا (باستثناء سالتيكوف). عقب انتهائه

(*) نيكولاى نيكولايفيتش بيكيتوف (١٨٢٧ ـ ١٩١١): أكاديمى، أستاذ الكيمياء فى جامعتى خاركوف وبطرسبورج. شخصية اجتماعية بارزة، صديق شباب دستويفسكى.

(**) سالتيكوف ـ شيدرين ميخائيل يفجرافوفيتش (١٨٢٦ ـ ١٨٨٩) : كاتب ساخر له عدد من الروايات. عمل محررًا بمجلة «حوليات الوطن».

(***) ألكسى أنتيبوفيتش بوتيخين (١٨٢٩ ـ ١٩٠٨): أديب وكاتب مسرحى.

من القراءة فى السادس عشر من مارس قُدِّمت له باقة من الزهور نيابة عن طالبات الفصول النسائية العليا(٢٢٧). وقد زين الشريط على الطريقة الروسية وعليه إهداء مؤثر للمحاضر. فى أحد أيام العشر الثانية من مارس وقع لزوجى حادث مؤسف كان من الممكن أن تكون له عواقب وخيمة. فعندما كان فيودور ميخايلوڤيتش يقوم بجولته المعتادة فى شارع نيكولايفسكايا قبيل الغداء، إذا بسكير يدفعه من قفاه بقوة لدرجة أن زوجى وقع على الرصيف فجرحت رأسه. سرعان ما تجمع المارة وظهر الشرطى ليقتاد السكير إلى قسم الشرطة، وقد دعوا زوجى أيضًا للذهاب إلى هناك. وفى القسم طلب زوجى من ضابط الشرطة إطلاق سراح الرجل الذى آذاه لأنه «يعفو عنه»، ولكن وحيث إن الصحف ستظهر فى الغد «وهى تتحدث عن «الهجوم» وستحمل بالطبع اسم الأديب الذى تعرض للإيذاء، فإن المحضر الذى أعدته الشرطة تقرر فيه عرض القضية على محكمة الدائرة الثالثة عشرة التى يرأسها قاضى الصلح السيد تروفيموف، بعد حوالى ثلاثة أسابيع تم استدعاء فيودور ميخايلوڤيتش إلى المحكمة. وقد تبين من التحقيقات أن المدعى عليه فلاح يدعى فيودور أندرييڤ وقد اعترف أنه «شرب بشراهة ولكنه اصطدم صدامًا خفيفًا مع «السيد» الذى تعثرت قدماه فسقط»(*). أعلن فيودور ميخايلوڤيتش للمحكمة أنه يعفو عمن آذاه وطلب ألا يعاقبوه.

وهؤلاء الطالبات رحن ينادينني باسمى بنبرة ملؤها المودة. لحسن الحظ لم يكن بحاجة للنداء طويلاً، إذ اقتربت من زوجى على الفور.

حلَّ موسم الربيع، وبدأنا كعادتنا فى الإسراع بالسفر إلى ستاريا روسا، وبخاصة أن البروفيسور كوشلاكوف كان قد أوصى فيودور ميخايلوڤيتش بالذهاب إلى إمس، بينما كان زوجى يرغب فى السفر مع الأسرة إلى الداتشا وأن يواصل عمله بحرية، إذا ما أتيح له ذلك.

(*) صحيفة «جولوس» («الصوت»)، العدد ١٠٢، ١٤ أبريل ١٨١٩(ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

لسوء حظنا كان الربيع باردًا وممطرًا، ومن ثم لم يجد زوجى فرصة للتعافى فى الداتشا؛ بل إن وزنه قـد تراجع إلى حد أثار قلقنا بشدة.

ولذلك فقد سعدنا ببدء حلول فصل الصيف: وقد حضرت إلى روسا فى الموسم أ.ف. چاكلر ــ كورڤين بصحبة عائلتها. وكنا نحبها أنا وزوجى للغاية. كان فيودور ميخايلوڤيتش يحرص على المرور يوميًا تقريبًا بعد عودته من جولته، ليتناقش معها باعتبارها امرأة ذكية طيبة القلب تشغل مكانة مهمة فى حياته.

فى النصف الثانى من شهر يوليو (الثامن عشر) سافر فيودور ميخايلوڤيتش للخارج ليصل إلى إمس فى الرابع والعشرين من نفس الشهر. وقد أقام فى الشقة التى أقمنا فيها من قبل فى Ville d'Alger، ومنها توجه إلى طبيبه الخاص السيد أورت. وعلى الرغم من مرور ثلاث سنوات وقد استجاب قاضى الصلح لطلبه، لكنه أصدر حكمه بأن يدفع الفلاح أندرييڤ غرامة مالية قدرها ستة عشر روبلاً بدلاً من حبسه أربعة أيام. وقد انتظر زوجى من أساء إليه عند باب المحكمة وأعطاه ستة عشر روبلاً ليسدد بها الغرامة المقررة[٢٢٨]

إبان أعياد الفصح (٣ إبريل) أقيم فى مدينة سوليانك حفل للقراءة الأدبية لصالح جمعية ڤريبيليڤسكى[٢٢٩]، قرأ فيه دستويڤسكى مقاطع من «طفل عند شجرة عيد الميلاد»، ولما كان الحفل مخصصًا للأطفال فقد حرص زوجى أن يصطحب معه أطفالنا حتى يتمكنوا من سماع والدهم وهو يقرأ فى حفل عام، ويرون كيف يستقبله الناس بمحبة كبيرة. تميز الاستقبال هذه المرة بالاهتمام الفائق، فأحضرت مجموعة من المستمعين الصغار باقة من الزهور قدموها للقارئ. استمر فيودور ميخايلڤيتش موجودًا حتى نهاية العيد مع أطفالنا، متجولا معهم فى القاعات، متأملا إياهم وهم يلعبون، سعيدًا مبتهجًا بالعروض التمثيلية التى لا نظير لها.

فى عيد الفصح قرأ فيودور ميخايلوڤيتش محاضرة فى مبنى ثانوية ألكسندروڤسكايا النسوية لصالح فصول بيستوچيف. واختار مشهدًا من «الجريمة والعقاب» وقد ترك

تأثيرًا كبيرًا بقراءته. وقد راحت الطالبات يصفقن بحرارة له؛ فضلاً عن أنهن أحطن به فى الاستراحة، ورحن يتناقشن معه حول شتى الموضوعات التى تهمهن، وعندما انتهت الأمسية وقرر الذهاب، أحاط به جمهور يبلغ عدده مائتين وربما أكثر اندفع وراءه على الدرج وحتى مدخل البناية، حيث تنافس الجميع فى مساعدته على ارتداء معطفه وحاولت أن أكون قريبة من زوجى لكن الجمهور المندفع بحماس أبعدنى، حتى أصبحت بعيدة فى الخلف. كنت على ثقة أن زوجى لن يغادر المكان دونى. وبالفعل فقد راح فيودور ميخايلوڤيتش يلقى ببصره هنا وهناك بحثًا عنى بعد أن ارتدى معطفه، وعندما لم يلحظنى قال بصوت يعبر عن الشكوى: أين زوجتى؟ كانت معى هنا. أرجوكم ابحثوا عنها؟»، قال ذلك متوجهًا بالحديث إلى المعجبات اللائى كن يحطن به، منذ زيارته الأخيرة، فقد تعرف عليه الطبيب على الفور، بل إنه طمأنه وقال له إن مياه كرينخن سوف تبعثه من جديد. وفى الخامس والعشرين من يوليو كتب إلىّ زوجى يقول: «وجد أن لدىّ جزءًا ما من رئتى قد تحركَ من مكانه وأنه قد غيّر وضعه، تمامًا كما أن قلبى غيَّر من وضعه السابق ليستقر فى مكان آخر ــ كل ذلك نتيجة لمرض الأمفيزيما (تمدد الرئة)، على الرغم من أنه قد أضاف مواسيًا، ــ أن قلبى بحالة ممتازة، وأن كل هذه التغيرات فى الأماكن ليست هى أيضًا بذات أهمية كبيرة ولا تشكل أى تهديد من أى نوع. بطبيعة الحال فقد كان ملزمًا، باعتباره طبيبًا، أن يتحدث إلىّ مطمئنًا، ولكن إذا كانت الأمفيزيما، وهى ما تزال فى بدايتها، قد تسببت فى كل هذه التغيرات، فما الذى يمكن أن يحدث بعد ذلك؟ بالمناسبة ما زلت أعوِّل على العلاج بالمياه»[٢٣٠]

شعرت بالإحباط الشديد والقلق من جراء هـذا التحليل للوضع والذى قدمه الدكتور أورت، وحيث إننى كنت أشاهد زوجى فى أعوامه الأخيرة قويًا مليئًا بالحيوية، لم أظن أن مرضه قد نجح فى إحداث هذه النتائج السيئة. ولكن لعلمى أن مياه كرينخن كانت مفيدة دائمًا لزوجى، فقد عللت نفسى بالأمانى وبفكرة أن صحته سوف تتحسن كثيرًا فى هذه المرة.

كنت أعقد آمالاً عريضة على أن فيودور ميخايلوڤيتش سوف يلتقى حتمًا بشخص ما من أصدقائه المحببين إلى نفسه، وأن لقاءاته به سوف تسرى عنه، وأنه لن يشعر عندئذ

بالملل، الذى كان دائمًا ما يشعر به عند افتراقه عن أسرته. ولكن، للأسف الشديد، لم تتحقق هذه الآمال: فعلى مدى الأسابيع الخمسة من إقامة زوجى فى إمس لم يلتق بشخص واحد يعرفه، فكان يشكو بمرارة من شعوره بالوحدة التامة. «وأنا فى قمة الضجر تبين لى أن قاعة المكتبة لا تحوى سوى صحيفة «حوليات موسكو»، وهذه تصل متأخرة على نحو فظيع و«الصوت» الحقيرة، التى لا تفعل شيئًا سوى إصابتى بالجنون[٢٣١]. كل متعتى هنا تتلخص فى النظر إلى الأطفال الموجودين بكثرة والتحدث إليهم. وفوق ذلك فهناك أمور دنيئة تحدث هنا: لقد صادفت اليوم طفلاً فى طريقه إلى المدرسة وسط الزحام، يبلغ من العمر خمس سنين، يسير وهو يغطى عينيه بكفيه ويبكى. أسأل ما الذى به فأعرف من المارة الألمان أنه يعانى منذ شهر بأكمله من التهاب بعينيه (عذاب شديد)، أما أبوه فهو إسكافى لا يريد أن يأخذه إلى الطبيب حتى لا ينفق بضع قروش على الدواء. هـــذا الأمر المفزع أشعرنى بالكرب، أرهق أعصابى وجعلنى عبـــوسًا. لا يا آنيا، ليس المـــلل بالشىء الهين. فى وجود الملل يصبح العمل أمرًا مضنيًا أيضًا، ويصبح المعتقل مكانًا أفضل، كلا، لقد كان المعتقل أفضل!»[*] كانت خطابات فيودور ميخايلوڤيتش إلىّ تفيض حزنًا وأسًى. وقد كتب خطابه المؤرخ الثالث عشر من أغسطس يقول: «إن النبأ الذى تلقيته بشأن المسكينة إيميليا فيودورڤنا قد أصابنى بالحزن الشديد. صحيح أنه لم يكن من الممكن أن تعيش طويلاً مع هذا المرض، ولكن بموتها انتهى كل شىء كان قد تبقى على الأرض من ذكرى أخى. لم يبق سوى فيديا، فيودور ميخايلوڤيتش، الذى هدهدته على يدىّ. أما أطفال أخى الآخرين فقد ترعرعوا على نحو ما، بعيدًا عنى. اكتبى إلى فيديا عن عزائى العميق، فأنا لا أعرف عنوانًا أكتب له عليه... تصورى، لقد رأيت حلمًا فى الخامس من الشهر (سجلت التاريخ): رأيت أخى يرقد فى الفراش، وقد قُطِع منه الوتين[**] وقد سال منه الدم، رحت أفكر وأنا

(*) الخطاب المرسل إلىّ والمؤرخ ١٠ أغسطس ١٨٧٩ (ملاحظة لآنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا)[٢٣٢]
(**) الوتين: الشريان الرئيسى الذى يغذى جسم الإنسان بالدم النقى الخارج من القلب (المترجم).

فى شدة الرعب ــ هل أهرع إلى الطبيب، ثم تعود الفكرة تستوقفنى، فلو أننى فعلت ذلك لنفد دمه قبل وصولى للطبيب. يا له من حلم غريب، والأهم أن الخامس من أغسطس كان ليلة وفاتها. لا أظن أننى كنت مذنبًا أمامها: لقد ساعدتها، عندما كان ذلك بإمكانى، وتوقفت عن مساعدتها بشكل مستمر، عندما أصبح هناك من القريبين إليها من يساعدها: ابنها وصهرها. لقد أوقفت حياتى عليهم منذ العام الذى توفى فيه أخى. لم أفكر ولم آسف على العشرة آلاف التى كنت أملكها، وإنما ضحيت بعافيتى وباسمى الأدبى، الذى عرَّضته للعار مع دار نشر فاشلة، عملت كالثور، والآن حتى أخى لا يمكنه، وهو فى العالم الآخر، أن يلومنى»، ثم أضاف فى نهاية الخطاب قائلاً: «غدًا أُتم أسبوعين من الصمت الذى أعيشه هنا. إنها ليست الوحدة فقط، وإنما الصمت. لقد نسيت الكلام، إننى أتحدث مع نفسى كالمجنون»[٢٣٣]. وفى خطابه المؤرخ السادس عشر من أغسطس كتب زوجى يقول: «لقد أصبحت شخصًا تسيطر عليه الهواجس بسبب الوحدة. أتخيل أنه لا يوجد هناك شىء سيئ أو محزن. إن كآبتى على نحو لا يوصف: لقد نسيت الكلام وأشعر بالدهشة من نفسى عندما أنطق كلمة بصوت مرتفع. هذا هو الأسبوع الرابع الذى لم أسمع فيه صوتى»[٢٣٤].

أنا أيضًا تعذبت بشدة بسبب الحالة النفسية الصعبة لزوجى، وبخاصة أنه بالإضافة إلى ذلك كان يشعر بالقلق بشأن النقود التى وعدته بإرسالها، والحقيقة أننى لم أستطع إرسال هذه النقود لأن سوء فهم قد وقع مع هيئة تحرير «البشير الروسى»: فقد أرسلت هيئة التحرير حوالة مالية إلىَّ على مكتب أخينباخ وكولى(*) فى بطرسبورج، وكنت قد وعدت زوجى أننى لن أترك الأطفال وحدهم يومًا واحدًا، ولهذا لم أستطع أن أسافر لتسلم النقود، ومن ثم كان علىّ أن أعيد الحوالة مرة أخرى وأن أطلب إرسال النقود إلىّ نقدًا على عنوانى فى ستاريا روسا. وما إن تسلمتها حتى أرسلتها على الفور إلى زوجى.

(*) أخينباخ وكولى: بنك فى بطرسبورج.

(٦)

العام ١٨٧٩ . التفكير فى شراء ضيعة

كان فيودور ميخايلوڤيتش يفكر كثيرًا فى مصير الأسرة فى حالة تراجع نشاطه الأدبى أو موته، وعندئذ كان يتوقف عند فكرة شراء ضيعة صغيرة، بعد أن نتخلص نهائيًا من سداد ديوننا، وأن نعيش جزئيًا من عوائدها. وفى خطابه إلىّ من إمس والمؤرخ الثالث عشر من أغسطس كتب يقول: «أفكر طوال الوقت، يا عزيزتى، فى موتى (أفكر هنا بجدية) وفيما أتركه لك وللأطفال. الجميع يظنون أننا نملك مالاً، بينما لا نملك شيئًا. أنا الآن مشغول بآل كارامازوف. علىّ إنهاء الرواية على نحو جيد. أن أصيغها صناعة صائغ ماهر، إنها عمل شاق ومخاطرة رهيبة تستنفد قواى. لكنها أيضًا عمل مصيرى، فعليها يتوقف اسمى، وإلا ضاعت كل آمالى. سوف أنتهى منها ثم أعلن بنهاية العام عن فتح باب الاشتراك فى «المذكرة» ومن حصيلة الاشتراكات أشترى ضيعة، ثم أعيش وأصدر «المذكرة» حتى موعد الاشتراكات التالية من حصيلة بيع الكتب. يلزمنى قدر من الطاقة وإلا لن يتحقق شىء على الإطلاق. يكفى ذلك الآن، وسوف يكون باستطاعتنا أن نتشاور ونتجادل معًا لأنك لا تحبين الريف، أما أنا فلدى إيمان (١) أن الضيعة هى رأس مال سوف يتضاعف ثلاث مرات عندما يبلغ الأطفال أشدهم، ثم إن (٢) من يملك أرضًا يشارك فى السلطة السياسية فوق الدولة. هذا مستقبل الأطفال والذى سيحدد من سيكونون: مواطنين أقوياء ومستقلين (ولا شىء أسوأ) أم أوباشًا. وفى أحد الخطابات التالية(*) كتب يقول: «ما زلت أحلم بإعداد المستقبل وبكيفية شراء ضيعة. هل تصدقين أننى أكاد أُجَن من التفكير فى الأمر. أكابد الصبر من أجل الأطفال ومصيرهم».

كنت متفقة تمامًا، من حيث المبدأ، مع زوجى فى هذه المسألة، ولكننى وجدت أنه فى مثل ظروفنا هذه فإن التفكير فى تأمين مصير الأولاد من خلال ضيعة يمكن أن

(*) الخطاب المؤرخ فى السادس عشر من أغسطس ١٨٧٩ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا).

يبدو أمرًا غير قابل للتحقيق. كان الأمر الأول والأهم يتمثل فيمن ستقع على أكتافه مسؤولية القيام بأعمال الضيعة إذا ما نجحنا فى امتلاكها؟ إن فيودور ميخايلوفيتش، على الرغم من فهمه لشؤون الزراعة لكنه مشغول بالعمل الأدبى، وعلى الأرجح لن يكون باستطاعته أن يكون له نشاط يذكر فى هذا الأمر. أما أنا فلم أكن على دراية مطلقًا بالأعمال الريفية، ومن المحتمل أن يتطلب الأمر بضع سنين قبل أن أتعلم أو أتأهل لهذا العمل الذى أجهله تمامًا. لم يبق أمامنا سوى تفويض الضيعة لشخص يديرها. على أنه وبناء على خبرة العديد من معارفنا من ملاك الأراضى، توقعت النتيجة التى يمكن أن تؤول إليها الضيعة إذا ما قام على إداراتها شخص غريب.

لكن فيودور ميخايلوفيتش أصر على هذه الفكرة التى كانت تروقه، إلى حد أننى كنت غير راغبة بإخلاص أن أعارضه، ثم رحت أطلب منه فقط أن يتمهل إلى أن نحصل، فى النهاية، على نصيبنا فى ميراث عمة زوجى أ.ف. كومانينا(*)، وعندئذ نبدأ مشروعنا تدريجيًا على قطعة الأرض التى ستؤول إلينا. وقد وافقنى فيودور ميخايلوفيتش على رأيى وقرر أن يترك مستحقاته المالية عن رواية «الإخوة كارامازوف» لدى هيئة تحرير «البشير الروسى» باعتبارها احتياطيًا يمكنه اللجوء إليه عندما يبدأ فى إعداد الضيعة.

تسلمنا ميراثنا عن كومانينا فى مطلع السبعينيات. وكان عبارة عن ضيعة تبلغ مساحتها ستة آلاف ديسياتينا(**) وتقع على بعد مائة فرسخ من ريازان، بالقرب من قرية سباس ـ كليبكا. وقد بلغ نصيب إخوة دستويفسكى (الذين دفعوا نصيب أخواتهم أموالاً) ثلث الضيعة وتبلغ حوالى ألفى ديسياتينا، كان نصيب فيودور ميخايلوفيتش منها خمسمائة ديسياتينا.

وحيث إن ورثة كومانينا كان عددهم كثيرًا، فقد واجه الاتفاق معهم صعوبات جمة. لم يكن هناك مشتر قادر على شراء الضيعة بأكملها، وفى الوقت نفسه فقد كان مطلوبًا منا

(*) ألكسندرا فيودوروفنا كومانينا (نيتشايفا قبل الزواج) (١٧٩٦ ــ ١٨٧١): عمة فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكى.

(**) ديسياتينا : وحدة المساحة فى روسيا قبيل الثورة الروسية وتساوى هكتار (المترجم).

ومن باقى الورثة تسديد ما على الأرض من التزامات، وكذلك طلب وكيلنا أيضًا نقودًا مقابل سفره إلى الضيعة وإعداد الأوراق والمصروفات القضائية وما إلى ذلك، وهكذا لم يعد علينا هذا الميراث إلا بالمتاعب والمصروفات.

أخيرًا توصل الورثة إلى قرار أن يأخذوا الأرض على ما هى عليه، وحيث إن الأرض كانت متنوعة، من غابة قديمة إلى مستنقعات ممتدة، فقد قررنا أنا وزوجى أن نأخذ مساحة أقل فيها، على أن تكون من نوعية جيدة. ولكن وحتى نختار نصيبنا، كان علينا أن نسافر وأن نعاين الضيعة. كان الحديث يدور كل ربيع حول إجماع الورثة فى الضيعة بهدف اختيار وتقسيم الأنصبة، ولكن كان يحدث فى كل مرة أن يعتذر هذا الوريث أو ذاك عن الحضور، فيتم تأجيل الأمر إلى العام التالى.

وأخيرًا، وفى صيف عام ١٨٧٩، قرر الورثة الاجتماع فى موسكو ليتوصلوا إلى اتفاق نهائى، فإذا ما نجحوا فى ذلك، يتوجهون جميعًا إلى ريازان، ومن هناك إلى الضيعة حيث يقررون أمرهم على الطبيعة بشكل نهائى.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يتلقى علاجه آنذاك فى إمس، وكان من المتوقع أن يعود بعد شهر. كان من المؤسف أن تضيع هذه الفرصة السانحة للانتهاء من هذا الأمر بالغ الصعوبة. من ناحية أخرى، كنت أجد نفسى فى مأزق. هل ينبغى علىّ أن أبلغ زوجى بهذه الرحلة المقترحة إلى الضيعة، وبخاصة أن هناك إمكانية ألا تحدث؟ وحيث إننى كنت على دراية بمدى ولع فيودور ميخايلوڤيتش بأطفاله وحرصه على مستقبلهم، فقد خشيت، عندما علمت بطول الرحلة، أن أزعجه وأن أفسد عليه علاجه. ولحسن الحظ، تسلمت موافقة من زوجى على اصطحاب الأطفال إلى دير القديس نيل ستولبينسكى (على بعد مائة فرسخ من روسا)، وحيث إن هذه الرحلة تستغرق حوالى أسبوع، فقد قررت أن أعرج أولاً على موسكو لمدة يومين أو ثلاثة، ولكننى ما إن وصلت إلى هناك ووجدت الورثة الأساسيين المتجهين إلى الضيعة، حتى قررت أن أنتهز الفرصة وأن أذهب معهم بصحبة الأطفال لأعاين الأرض وأحدد القطعة المناسبة لزوجى.

استمرت رحلتنا إلى الضيعة حوالى عشرة أيام، وقد انتهت بسلام، وهناك نجحت فى اختيار نصيب زوجى ــ مائتى ديسيانينا من الغابة. فى منطقة تسمى «بيخوركا»، ومائة ديساتينا أرض صالحة للزراعة. فى خطاباته من إمس أعرب فيودور ميخايلوفيتش عن سروره البالغ لاختيارى، ولكنه وبَّخنى بشدة «لكتمانى» عنه أمر سفرى. كان من الصعب علىّ، بطبيعتى، أن أكتم شيئًا عن فيودور ميخايلوفيتش ولكنى كنت أجد ذلك أمرًا ضروريًا فى بعض الأحيان حتى لا أزعجه أو أثير اضطرابه (ما دام هذا ممكنًا). فكثيرًا ما يؤدى اضطرابه لإثارة نوبة من نوبات الصرع لا حاجة له بها، تكون نتيجتها وخيمة على صحته، وبخاصة عندما تحدث النوبة وهو بعيد عن أسرته.

عدنا إلى روسا فى مطلع شهر سبتمبر، وعادت حياتنا سيرتها الأولى: يتجمع لدينا كل يوم فى حوالى الساعة الثانية ظهرًا بعض الأشخاص، بعضهم نعرفهم، والبعض الآخر لا نعرفهم. يدخلون على فيودور ميخايلوفيتش تباعًا. يجلسون لديه أحيانًا لمدة ساعة. كنت أعلم أن الأحاديث الطويلة تثير ملل زوجى، ولذلك كنت أبعث إليه أحيانًا الخادمة لتبلغه بحاجتى إليه لمدة دقيقة، وعندما يخرج أناوله قدحًا من الشاى الطازج فيحتسيه على عجل ثم يسأل عن الأطفال ويسرع عائدًا إلى صحبته. وأحيانًا كنت أضطر، بسبب امتداد المناقشات، لاستدعاء فيودور ميخايلوفيتش إلى غرفة الطعام لكى يقابل مندوبًا ما جاء يطلب منه قراءة محاضرة فى إحدى الأمسيات الأدبية (لصالح جمعية ما) أو لمقابلة أحد الأصدقاء، الذين يصعب عليهم الانتظار فى طابور الزائرين المجهولين.

وفى هذا الشتاء ازداد تعاطف المجتمع مع فيودور ميخايلوفيتش (بفضل نجاح رواية «الإخوة كارامازوف») وأصبح يتلقى دعوات تكريم وبطاقات لحضور أمسيات أدبية وحفلات رقص وموسيقى. كان يضطر أحيانًا للرفض اللبق فيرسل خطابات اعتذار وشكر، وأحيانًا أخرى كان يرسلنى للحضور خشية أن يغضب أصحاب الدعوات. كنت أقضى حوالى الساعتين وقد استبد بى الملل، ثم أذهب للبحث عن مُنظمات الاحتفال فأعبر لهم، نيابة عن زوجى، عن امتنانه لاهتمامهم واعتذاره عن عدم الحضور بسبب أعمال طارئة. كل ذلك كان له أثر كبير فى ارتباك حياتنا ولم يكن ليجلب لنا أى متعة.

فى ديسمبر من عام ١٨٧٩ اضطر فيودور ميخايلوفيتش للاشتراك عدة مرات فى أمسيات ثقافية حَاضَر فيها. فعلى سبيل المثال ألقى فى السادس عشر من ديسمبر محاضرة لصالح مساعدة طلاب ثانوية لارينسكايا غير القادرين. وقد قرأ على الحضور قصة «طفل مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد». كانت القراءة فى منتصف النهار، فى الساعة الواحدة. وكان من بين الحضور الممثل الشهير وكاتب القصة القصيرة إ.ف.جوربونوف(*)، وما زلت أذكر أن حضوره قد أضفى حيوية شديدة فى القاعة. وقد ظل الأدباء بعد أن أنهوا مختارات من أعمالهم، موجودين فى أماكنهم ولم يتوجهوا ناحية الجمهور. كان إيڤان فيودوروفيتش مبهورًا، وقد راح يقص علىّ الجمهور العديد من حكاياته الجديدة، بل إنه رسم على أفيش الحفل صورة بقلمه.

وفى الثلاثين من ديسمبر أقيمت ندوة أدبية أخرى فى الصباح قرأ فيها فيودور ميخايلوفيتش بأستاذية رفيعة «المفتش الأعظم» من رواية «الإخوة كارامازوف». نالت نجاحًا غير مسبوق، وراح الجمهور يصفق له بحرارة ويكرر التصفيق لإعادته إلى المنصة كلما غادرها[٢٣٥].

(٧)

الأعوام ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠

كثيرًا ما كان فيودور ميخايلوفيتش يضطر، على مدى العامين ١٨٧٩ و ١٨٨٠، لإلقاء محاضرات لصالح مختلف الهيئات الخيرية والصندوق الأدبى وغيرها. ونظرًا إلى تدهور حالته الصحية، فقد كنت حريصة على اصطحابه بشكل دائم إلى الأمسيات الأدبية، وكنت أشعر أنا نفسى برغبة شديدة فى الاستماع إلى قراءته الفنية الحقيقية والحضور عند سماع دوى التصفيق الذى يحييه به جمهور بطرسبورج دائمًا(**).

(*) إيڤان فيودوروڤيتش جوربونوف (١٨٣١ ـ ١٨٩٥): كاتب وممثل فى مسرح ألكسندروفسكى فى بطرسبورج.

(**) كنت أحضر معى دائمًا فى هذه الأمسيات الكتاب، الذى يقرأ منه زوجى، ودواء السعال، وهو عبارة

كان العدد الأكبر من الأمسيات الأدبية يقام فى جمعية الائتمان، وتقع على الجانب المواجه لمسرح ألكسندروفسكى أو فى الجمعية الخيرية بالقرب من جسر الشرطة.

للأسف فإن ظهورى فى المجتمع لم يكن يخلو أحيانًا من المنغصات المفاجئة تمامًا بسبب غيرة فيودور ميخايلوفيتش غير المبررة، والتى كانت تضعنى فى أوضاع محرجة. أورد هنا واحدًا من هذه المواقف.

ذات يوم تأخرنا بعض الشىء فى الوصول إلى إحدى الأمسيات الأدبية، وهناك تجمع مختلف المشاركين فى الأمسية فى انتظارنا. وعند دخولنا أخذ الجميع يحيون فيودور ميخايلوفيتش بمودة صادقة، وراح الرجال يقبلون يدى، ويبدو أن هذه العادة الاجتماعية (تقبيل الأيدى) كان لها أثر سيئ على زوجى. رد على تحية الجميع بجفاء ثم انتحى جانبًا. أدركت على الفور كنه غضبه. وبعد أن تبادلنا مع الموجودين عبارات المجاملة، جلست إلى جوار زوجى محاولة أن أخرجه من حالته النفسية السيئة، لكننى لم أنجح فى ذلك: توجهت إليه مرتين أو ثلاثًا بالسؤال لكنه لم يجب، ثم حدجنى بنظرة «شرسة» قائلًا:

ـــ اذهبى إليه!!

اندهشت وسألته:

ـــ إلى من أذهب؟

ـــ ألم تفهمى ؟

ـــ لم أفهم. لمن علىّ أن أذهب؟ قلت مبتسمة.

ـــ إلى هذا الذى قبّل يدك بوَلَه!

عن أقراص للاستحلاب أحضرها معه من إمس، ومنديل يد إضافى (فى حالة ما إذا فقد منديله) وشملة يتلحف بها عند خروجه إلى الهواء البارد وبعض الأشياء الأخرى. كان فيودور ميخايلوفيتش عندما يرانى محملة دائما بالأشياء يسمينى «السلاحدار الأمين» (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

وحيث إن جميع الحضور من الرجال فى القاعة الذين قبّلوا يدى فعلوا ذلك على نحو مهذب، فإننى لم أستطع، بطبيعة الحال، أن أقرر من منهم شريكى فى الجريمة التى ارتكبتها من وجهة نظر زوجى. دار هذا الحديث بينى وبين فيودور ميخايلوڤيتش الذى كان يتحدث بصوت واضح، حتى أن الذين كانوا يجلسون قريبًا منا استمعوا إليه بوضوح تام، وخوفًا من وقوع «مسرحية عائلية» قلت له:

ــ حسنًا فيودور ميخايلوڤيتش، أرى أنك منحرف المزاج ولا تود الحديث معى. الأفضل أن أذهب إلى القاعة لأبحث عن مكانى. وداعًا!

ابتعدت، وما هى إلا خمس دقائق وإذا بباڤل ألكسندروڤيتش جايديبوروڤ(*) يأتى إلىّ ليخبرنى أن فيودور ميخايلوڤيتش يدعونى. إعتقدت أن زوجى يجد صعوبة فى العثور على المقطع الذى حدده للقراءة من الكتاب، فذهبت إلى حيث يوجد مسرعة، لكن زوجى قابلنى على نحو عدوانى.

ــ لم تطيقى صبرًا؟! فذهبت للبحث عنه؟ قال معلقًا.

ــ حسنًا، نعم، بالطبع، قلت مبتسمة، ولكنى أبحث عنك أيضًا. هل يلزمك شىء ما؟

ــ لا يلزمنى شىء.

ــ لكنك طلبت منى الحضور.

ــ لم أفكر فى طلبك؟ لا تدَّعى شيئًا من فضلك!

ــ حسنًا، إذا لم تكن قد طلبتنى فوداعًا، أنا ذاهبة.

مرت عشر دقائق وإذا بواحد من المنظمين يأتى إلىّ ليخبرنى أن زوجى يرغب فى رؤيتى. أجبته بأننى كنت لديه لتوى وأننى لا أريد أن أُفقده تركيزه فى الاهتمام

(*) باڤل ألكسندروڤيتش جايديبوروف (١٨٠٧ ــ ١٨٨٢): صحفى، محرر وناشر مجلة «نيديليا».

بما سيقرؤه، ولم أذهب. على أن المنظم جاءنى من جديد فى الاستراحة الأولى يخبرنى أن زوجى يلح فى طلبه الذهاب إليه. أسرعت إلى زوجى العزيز لأجده فى حالة من الإحباط وقد ارتسمت على وجهه علامات الشعور بالذنب. انحنى علىّ وهمس فى أذنى بصوت خفيض:

سامحينى يا آنيتشكا وأعطنى يدك. تمنَّى لى حظًا سعيدًا : سأخرج الآن للقراءة!

كنت فى غاية السعادة أن فيودور ميخايلوفيتش قد عاد له هدوؤه، ولكننى لم أستطع قط أن أخمن من الحضور (وجميعهم كانوا دون استثناء من الشيوخ المحترمين) كان موضوع شك زوجى، الذى رأى العاشق المفاجئ. على أن الكلمات المهينة التى وجهها لى فيودور ميخايلوفيتش «إيه أيتها الفرنسية، هكذا يكون الإطراء»، جعلتنى أفهم أن العجوز جريجوروفيتش(*) كان وراء شكوك زوجى وغيرته (وقد كانت أمه فرنسية).

بعد أن عدنا إلى بيتنا من الأمسية عاتبت زوجى عتابًا شديدًا على غيرته غير المبررة. وكعادته راح فيودور ميخايلوفيتش يرجونى المغفرة، معترفًا بذنبه، وهو يقسم أنه لن يعود إلى ذلك أبدًا، وأن الندم يعذبه، وفى الوقت نفسه ظل يؤكد أنه ظل على مدى ساعة بأكملها غير قادر على التغلب على سورة الغيرة المفاجئة التى انتابته، والتى أحس بسببها بتعاسة عميقة.

وهذا النوع من المشاهد كان يتكرر تقريبًا فى كل أمسية ثقافية. كان فيودور ميخايلوفيتش يرسل حتمًا واحدًا من المنظمين أو من معارفه ليرى أين أجلس ومع من أتحدث. وأحيانًا ما كان يقترب من باب غرفة المكتبة بعد أن يواربه قليلاً ليبحث عنى بنظره من بعيد إلى حيث أشاروا له علىَّ. (كان من المتبع آنذاك أن يجلس أقارب المحاضر فى أماكن بامتداد الحائط الأيمن للقاعة على بعد خطوات قليلة من الصف الأول).

(*) ديمترى ڤاسيليڤيتش جريجوروڤيتش (١٨٢٢ ـ ١٨٩٩): كاتب وصديق دستويفسكى منذ الأربعينيات.

لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش يشرع فى القراءة مباشرة، بعد أن يخرج إلى المنصة وينحنى أمام تصفيق الجمهور، وإنما كان يبدأ فى تفحص كل السيدات الجالسات على امتداد الحائط الأيمن. وحتى يتمكن زوجى من رؤيتى على الفور، كنت أمسح جبهتى بمنديلى الأبيض، أو أذهب واقفة عن مكانى، وما إن يتأكد فيودور ميخايلوڤيتش من وجودى، حتى يبدأ فى القراءة. وكان معارفى، وكذلك القائمون على تنظيم الأمسية قد لاحظوا، بطبيعة الحال، هذه النظرات الخاطفة واستفسارات زوجى حول تحركاتى. فكانوا يمازحوننى بشأنها تلميحًا إلى حد أننى كنت أشعر بالغضب الشديد. وقد أشعرنى ذلك بالضيق والملل، وذات مرة ونحن فى طريقنا إلى إحدى الأمسيات الأدبية قلت لفيودور ميخايلوڤيتش:

ـ أتعرف يا عزيزى أنك إذا ما استمرت اليوم فى النظر والبحث عنى وسط الجمهور، فإننى أعدك بأننى سوف أنهض من مكانى وأخرج من القاعة من الجانب التى تقع فيه المنصة.

ـ أما أنا فسأترك المنصة قفزًا وأهرع وراءك لأعرف ما الذى حدث لك وإلى أين تذهبين.

قال فيودور ميخايلوڤيتش هذا بجدية تامة، وعندها أيقنت تمامًا أنه قادر على اقتراف هذه الفضيحة، فى حالة إذا ما غادرت المكان فجأة.

(٨)

آفة النسيان تصيب فيودور ميخايلوڤيتش

كان لنوبات الصرع أثرها البالغ على ذاكرة فيودور ميخايلوڤيتش وبخاصة على قدرته على تذكر الأسماء والأشخاص، وقد اكتسب بسبب عدم قدرته على التعرف على وجوه الناس أعداء كثيرين، وعندما كانوا يذكرون لهم أسماءهم، لم يكن بمقدوره، دون اللجوء إلى سؤالهم عن كثير من التفصيلات، أن يحدد من هم هؤلاء الناس الذين يتحدثون إليه. كان هذا يثير حنق الذين نسيهم أو الذين لا يعترفون بمرضه، معتقدين

أن هذا نوع من الخيلاء، أو أنه نسيان متعمَّد بهدف إهانتهم. أذكر تلك الحادثة التى وقعت لنا، عندما كنا نزور ذات يوم آل مايكوف، يومئذ التقى فيودور ميخايلوڤيتش على سلم بيتهم بالكاتب ف. ن. بيرج، الذى عمل فى وقت ما فى مجلة «الزمن» وقد غاب الرجل عن ذاكرة فيودور ميخايلوڤيتش تمامًا. توجه بيرج بالتحية الودية إلى زوجى ولما رأى أنه لم يتعرف عليه خاطبه قائلاً:

ــ فيودور ميخايلوڤيتش، ألا تعرفنى؟

ــ أعذرنى، لا أستطيع أن أتعرف عليك.

ــ أنا بيرج.

ــ بيرج ؟ نظر إليه فيودور ميخايلوڤيتش نظرة استفهام (كل ما تذكره زوجى فى هذه اللحظة، كما ذكر لى مؤخرًا، هو «بيرج»، الألمانى القح، صهر آل روستوف فى رواية «الحرب والسلام»).

ــ الشاعر بيرج، قال الرجل موضحا، أحقًا لا تذكرنى؟

ــ الشاعر بيرج؟ أجاب زوجى ثم راح يكرر، ــ تشرفنا، تشرفنا! لكن بيرج، الذى أصر على أن يعرف نفسه، كان يعتقد يقينًا أن فيودور ميخايلوڤيتش لم يتعرف عليه عمدًا، وظل طوال حياته يتذكر هذه الإهانة. وكم من أعداء، وبخاصة من الأدباء، اكتسبهم فيودور ميخايلوڤيتش بسبب آفة النسيان.

وقد وضعتنى هذه الآفة وعدم التعرف على الأشخاص، الذين كان فيودور ميخايلوڤيتش يلتقى بهم، وضعتنى أنا أيضًا فى مواقف شديدة الحرج.

أذكر حادثًا مضحكًا فى هذا الصدد. كنا نذهب وزوجى ثلاث أربع مرات فى العام للاحتفال بالأعياد فى ضيافة عائلة ابن عمى ميخائيل نيكولايڤيتش سنيتكين، وكان يحب أن يجمع فى بيته الأقارب. وفى كل مرة تقريبًا، كنا نلتقى هناك بإشبينتى، ألكسندرا باڤلوڤنا، والتى لم أزرها منذ زواجى، حيث كان زوجها يعتنق وجهات نظر سياسية لا

تتفق ووجهات نظر فيودور ميخايلوفيتش. كانت ألكسندرا باڤلوڤنا تشعر بالاستياء لأن زوجى، الذى كان يقابلها دائمًا بكل لطف، لم يتبادل معها الحديث إطلاقًا، وقد ذكرت ذلك أمام كل أقاربنا، وهؤلاء أبلغونى بذلك. وفى أول زيارة لنا لآل سنيتكين، طلبت من زوجى أن يتحدث معها وأن يعاملها بمودة قدر استطاعته.

ـ حسنًا، حسنًا، ـ وعدنى بذلك فيودور ميخايلوڤيتش، ما عليك إلا أن تخبرينى أى السيدات هى إشبينتك، وسوف أجد موضوعًا شيقًا للحديث. وسوف تشعرين بالرضا.

بعد أن وصلنا، أشرت إلى فيودور ميخايلوڤيتش نحو السيدة الجالسة على الأريكة. نظر إليها فى البداية باهتمام ثم نظر إلىّ، ثم عاد ينظر إليها مرة أخرى، ثم حياها بأدب جم، ثم إذا به يقضى بقية السهرة دون أن يقترب منها. وبعد أن عدنا إلى بيتنا عاتبته لأنه لم يحقق رغبتى البسيطة هذه.

ـ أخبرينى يا آنيا من فضلك، أجابنى فيودور ميخايلوڤيتش والحيرة تبدو على وجهه، من منكم إشبينة الأخرى؟ أنت التى عمدها أم هى؟ لقد أخذت انظر إليكما بتمعن: كلاكما تشبه الأخرى، حتى أننى ارتبت فى إمكانية التمييز بينكما، وحتى لا أخطئ، قررت أن من الأفضل ألا أقترب منها.

المسألة أن الفارق فى العمر بينى وبين إشبينتى لم يكن بالغًا نسبيًا (ستة عشر عامًا)، وحيث إننى كنت دائمًا أرتدى ملابس متواضعة، وغالبًا ما تكون قاتمة، بينما كانت هى تحب التزين وترتدى ملابس جميلة، فقد بدت أصغر منى سنًا بدرجة ملحوظة، الأمر الذى أدى بزوجى للحيرة.

لكن الأمر الأكثر مدعاة للفضول، هو أننى علمت، بعد عام، أننا مدعوون لقضاء عيد الميلاد لدى آل سنيتكين، وأننا حتمًا سنقابل هناك إشبينتى، فطلبت من زوجى أن ينفذ لى نفس الطلب، بعد أن شرحت له بإصرار مدى قربها منى. بدا أن زوجى قد استمع إلىّ باهتمام بالغ (بداهة كان مستغرقًا فى التفكير فى أمر آخر)، ووعدنى على أية

حال أنه سوف يتبادل معها أطراف الحديث، وكما أنه لم يف بوعده. فى العام الماضى فقد أخل بوعده أيضًا هذه المرة: لقد تطرقت إلى نفسه نفس شكوك العام الماضى، لم يستطع أن يحسم أمر «من منا الذى عمَّد الآخر»، وقد اعتبر زوجى أن سؤالى أمام الأغراب أمر غير لائق.

كان نسيان فيودور ميخايلوڤيتش لأسماء أقرب الناس إلينا يضعه أحيانًا فى مواقف شديدة الحرج. ذات مرة ذهب زوجى إلى قنصليتنا فى درزدن لاعتماد تصديق بصحة توقيعى على تفويض ما (حيث لم يكن باستطاعتى الذهاب بنفسى لمرضى). ما إن رأيت من النافذة أن فيودور ميخايلوڤيتش قد رجع بسرعة إلى البيت، حتى هرعت لمقابلته. دخل إلى البيت منفعلاً وسألنى غاضبًا:

ـــ آنيا، ما اسمك؟ ما اسم عائلتك؟

ـــ دستويڤسكايا، أجبت فى ذهول، وقد تعجبت لهذا السؤال.

ـــ أعرف أنه دستويڤسكايا، ولكن ما اسم عائلتك قبل الزواج؟ لقد سألونى فى القنصلية عن اسم العائلة عند الميلاد، وقد نسيت، وسيكون على أن أذهب إلى هناك مرة ثانية. لقد سخر منى الموظفون لأننى نسيت اسم عائلة زوجتى. اكتبى الاسم فى الاستمارة وإلا نسيته مرة أخرى فى الطريق!

مثل هذه الأحداث وقعت كثيرًا فى حياة فيودور ميخايلوڤيتش، وللأسف، خلقت له أعداء كثيرين.

الجزء العاشر
العام الأخير

(١)
تجارة الكتب

كان مطلع عام ١٨٨٠ مميزًا بالنسبة إلينا، عندما قمنا بافتتاح مشروعنا الجديد: «تجارة الكتب لصاحبها فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكى (لسكان المدن الأخرى فقط)».

وعلى الرغم من أن أحوالنا المادية كانت تسير سيرًا حسنًا من عام لآخر، وأننا نجحنا فى سداد غالبية ديوننا (الديون التى تراكمت على فيودور ميخايلوفيتش منذ الستينيات)، فإن هذه الأحوال ظلت على حالها من عدم الاستقرار ها قد أصبحت الحياة أكثر غلاءً وتعقيدًا، ولم ننجح فى ادخار قرش واحد أبيض «لليوم الأسود». وقد أخافنا ذلك لأبعد الحدود، وبخاصة أن فيودور ميخايلوفيتش نفسه بات يدرك أن العمل أصبح يشكل صعوبة بالغة عليه يومًا بعد الآخر. فى الوقت الذى راح مرضه (الأمفيزيما) يزداد سوءًا، الأمر الذى جعلنا نخشى توقف فيودور ميخايلوفيتش عن العمل الأدبى، نتيجة تدهور صحته. ومن ثم كنا نود، بسبب هذا الوضع المحزن، لو أننا تمكنا من امتلاك رصيد ما من النقود، أو يكون لنا عمل ما جانبى يمكننا من توفير هذا

الرصيد. على أن مجالات عمل المرأة ما تزال، حتى يومنا هذا، محدودة للغاية، ناهيك عما كانت عليه فى تلك الأيام.

فكرت طويلاً فى العمل الذى يمكن أن يكون لنا عونًا ولو قليلاً. وبعد تفكير طويل وطلب المشورة من معارف نثق فى خبرتهم، استقر رأيى على فكرة افتتاح تجارة كتب لسكان المدن الأخرى، وبخاصة أننى نجحت، جزئيًا، بفضل عدد من الإصدارات التى توليتها، فى التعرف على حرفة الكتب. كان للمشروع الذى بدأته ميزتان: الأولى، وهى الأهم بالنسبة إلىَّ، أنه لن يجبرنى على الابتعاد عن البيت، وأننى أستطيع، كما فى السابق، أن أتابع صحة زوجى، وأن أقوم على تربية أطفالى وإدارة الشؤون المنزلية. وأما الثانية فتتلخص فى أنك إذا أردت أن تفتتح مشروعا لتجارة الكتب، فلن تكون مضطرًا لانفاق أموال على الإطلاق: فلا حاجة هناك لاستئجار محل وشراء سلع، وإنما يمكنك، فى بداية الأمر، أن تكتفى بشراء الكتب، التى تم إرسال أثمانها عن طريق الاشتراكات. المصروفات الوحيدة تتمثل فى دفع «الحقوق التجارية» وفى استخدام صبى تكون مهمته الذهاب لشراء الكتب وتسجيل الطرود وتسليمها للبريد. وهذا الأمر تبلغ تكاليفه من مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة روبل سنويًا، وهو مبلغ يمكن المخاطرة به، وبطبيعة الحال يلزم لنجاح العمل نشر إعلانات فى الصحف، وقد اعتمدت فى المرة الأولى على الإعلانات المطبوعة، التى وزعتها على المشتركين السابقين فى «مذكرة الكاتب»، وفى العام التالى قررت أن أوزعها مع تحمل المصاريف مع ناشرة مجلة «أمسيات عائلية»(٢٣٦)، إعلان كبير يظهر فى مجلة توزع آلاف النسخ وقد تم إرسال الإعلان فى مطلع عام ١٨٨١، ولكننى لم أكن أملك بعد التأثير فى حركة البيع.

لم يكن من الممكن، بطبيعة الحال، إلا أن نعول فى نجاح مشروعنا على أن ننسب تجارتنا للكتب إلى اسم فيودور ميخايلوڤيتش دستويفسكى. وهكذا كان عليه أن يتقدم إلى «الغرفة التجارية» الحصول على «حقوق البيع» بصفته تاجرًا، الأمر الذى ما لبث أن عرَّضه للسخرية من جانب أعدائه فى الصحف، لكن هذه السخرية لم تؤثر فى كبرياء زوجى قيد أنملة، إذ أنه بعد أن اندمج فى «الصنعة»، استحسن فكرتى وأصبح مثلى مؤمنًا بنجاح مشروعنا.

كانت آمالى فى نجاح المشروع معقودة بالدرجة الأولى على افتراض أن المشتركين السابقين فى «مذكرة الكاتب» (١٨٧٦ ــ ١٨٧٧)، والذين اعتادوا على العمل الدقيق لزوجى فى تحريره للمجلة، بإمكانهم أن يولوا ثقتهم لتجارة الكتب التى يقوم بها نفس الناشر الذى تعاملوا معه من قبل، وفى الحصول على ما يلزمهم من كتب. وقد تحققت آمالى، فما إن مر شهران أو ثلاثة، حتى تكونت حلقة (من حوالى ثلاثين شخصًا) من المشتركين السابقين فى «مذكرة الكاتب»، الذين بدؤوا يطلبون كل شهر كتبًا من خلال تجارتنا. أتذكر، على سبيل المثال، أحد الأساقفة من بولتافا، وكان يشترى كل شهر (لمكتبته الخاصة وللهدايا) الكثير من الكتب الثمينة الغالية، من أموال الوقف الكنسى الذى خصصه الأمير ف. م. يليتسكى. أتذكر كذلك أحد المهندسين من مينسك، كان يطلب شراء كتب بمبالغ باهظة، لم يقتصر فى طلبها على تخصصه فقط.

على أنه بالإضافة إلى حلقة المشترين الراسخة التى تشكلت، بدا أن هناك عددًا غير قليل من الشخصيات المستقلة، الذين لاحظوا أن تجارة الكتب قد ظهرت من جديد. بطبيعة الحال كان هناك زبائن مملون يشتركون فى أى صحيفة من أجل أن يوفروا خمسة وعشرين كوبيكا. على أنه كان هناك أيضًا مشترون أكثر مللاً، كانوا يجبروننا على البحث عن كتب نفدت من السوق منذ زمن بعيد. وبعد أن يطول بنا البحث الدؤوب عن طيب خاطر، كنا نضطر إلى إعادة النقود لهم مرة أخرى.

لم تكن تجارة الكتب تقتطع منى شخصيًا وقتًا طويلاً: كان علىّ فقط أن أنظم الكتب، وأن أسجل الطلبات وأكتب الفواتير. وكان الصبى الذى رشحوه لى يعمل من قبل فى محل للكتب، وكان بيوتر (وهذا اسمه) ماهرًا فى التصرف عند شراء الكتب وعند إرسالها، على الرغم من سنوات عمره الخمس عشرة[٢٣٧]

كان فيودور ميخايلوڤيتش فى غاية الاهتمام بسير مشروعنا، وكنت أعد له فى نهاية كل شهر تقريرًا موجزًا بالعائدات والمصروفات فى هذا الشأن. عادة ما كانت الأرباح تتراوح ما بين ثمانين إلى تسعين روبلاً عند بداية العام وعند نهايته (وهى مواعيد الاشتراك فى الصحف والمجلات) وما بين أربعين وخمسين روبلاً فى أشهر الصيف. على العموم،

فقد بلغ صافى أرباحنا فى العام الأول، بعد طرح المصروفات، ثمانمائة روبل وأحد عشر، وقد اعتبرنا أنا وفيودور ميخايلوڤيتش هذه النتيجة فألاً حسنًا للمستقبل.

بداهة، فقد كان من الممكن أن يتسع حجم العمل على نحو أكبر: فقد كانت هناك طلبات من المؤسسات التعليمية ومخازن الأرياف لإرسال الكتب إليهم بالأجل، ولماّ كان الحصول على هذه الكتب يتطلب أموالاً ضخمة، على الرغم من الربح الكبير المتوقع، فقد اضطررنا للاعتذار لهؤلاء الزبائن.

إن تجارة الكتب للمدن الأخرى، أمر مربح للغاية، إذا ما جرت إدارته، بطبيعة الحال، بحرفية ودقة، قد تحولت أمام ناظرى ثلاث شركات، بدأت بتجارة صغيرة، لتصبح بعد ثلاثة عقود إلى شركات محترمة لبيع الكتب («الإخوة باشماكوف»، بانافيدين، كليوخين)، وأنا على يقين تام أننى لو كنت قد واصلت نشاطى فى بيع الكتب، لامتلكت الآن محلا لايقل عن محل «نوڤوى ڤريميا» («العصر الحديث»). لم أواصل هذا العمل لأننى أخذت على عاتقى إصدار الأعمال الكاملة لزوجى، التى أخذت كل جهدى ووقتى.

عندما أعلنت، بعد وفاة فيودور ميخايلوڤيتش، عن عزمى إغلاق تجارة الكتب، اتصل بى العديد من الشخصيات يطلبون منى أن أنقل إليهم ملكية مشروعى، بل إن بعضهم أعرب عن رغبته فى شراء الشركة وعرضوا ألفًا وخمسمائة روبل مقابلها. لكننى لم أوافق: إن إدارة تجارة الكتب ترتبط باسم فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى، أمر أختص به أنا وحدى، فقد كنت أدرك مدى جدارة هذه الشركة وسمعتها. يعلم الله، كيف سينظر إلى هذا الأمر، من سيشترى الشركة أو يأخذها هبة، وهل سيتعرض اسم فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى، العزيز إلى قلبى، إلى الذم أو السخرية، فى حالة إدارة الشركة بلا دراية أو دون ضمير.

وهكذا اختفت من الوجود فى مطلع شهر مارس ١٨٨١ تجارة كتب فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى.

وبالمناسبة، ما زلت أذكر مشروعى قصير العمر بكل المشاعر الطيبة، وبخاصة، تجاه هذه العلاقات الودية التى ترسخت بين الزبائن وبين الشركة. بعض الأشخاص كانوا يعتقدون بسذاجة أن فيودور ميخايلوڤيتش كان يعمل بالفعل ببيع الكتب، وكانوا يكتبون إليه مباشرة، آخرون، وهم يكتبون إلى الشركة، كانوا يطلبون إبلاغ فيودور ميخايلوڤيتش مدى السرور البالغ الذى شعروا به إبان قراءتهم رواية «الإخوة كارامازوف»(*)، أو أى عمل آخر من أعماله. وآخرون طلبوا، عند إرسالهم حساباتهم، إبلاغهم عن أحوال «الكاتب الكبير» الصحية، متمنين له أطيب الأمنيات. كان فيودور ميخايلوڤيتش شديد التأثر من قراءته لبعض الخطابات التى تميزت بالبساطة والتعبير عن الفرح وطلب منى أن أنقل لهم نيابة عنه أسمى تحياته وتقديره. كان فيودور ميخايلوڤيتش، الذى كثيرًا ما قوبل بالعداوة من جانب أصدقائه من الأدباء والنقاد، يقدر التعبيرات التى تنطوى على سلامة الطوية، والبساطة التى تصل أحيانًا إلى حد السذاجة، والإعجاب بموهبته، والاحترام والإخلاص من أناس لا يعرفهم على الإطلاق، وإنما أناس يعبرون عن تعاطفهم مع نشاطه الفنى.

(٢)

بداية العام ١٨٨٠ . الأمسيات الثقافية

زيارة المعارف

أقول على وجه العموم، إن عام ١٨٨٠ قد بدأ ونحن فى ظروف طيبة: ها هى صحة فيودور ميخايلوڤيتش تسير، كما يبدو، إلى الأفضل بعد رحلته إلى إمس فى العام الماضى (١٨٧٩)، أما نوبات الصرع فأصبحت تداهمه على نحو أقل. كما أن أطفالها كانوا يتمتعون بصحة جيدة. وقد حققت رواية «الإخوة كارامازوف» نجاحًا لا شك فيه،

(*) «الإخوة باشماكوف»، بانا فيدين، كليوخين: تجار كتب فى بطرسبورج.

وكان فيودور ميخايلوڤيتش، وهو الصارم دائمًا فى أحكامه تجاه نفسه، راضيًا تمامًا عن عدد من فصول الرواية(٢٣٨) وقد تحقق مشروعنا الذى كنا نفكر فيه (تجارة الكتب)، وحققت إصدارتنا مبيعات لابأس بها. إجمالاً فقد سارت أمورنا سيرًا حسنًا. كل هذه الظروف مجتمعة، كان لها أطيب الأثر على فيودور ميخايلوڤيتش، وكانت روحه المعنوية عالية ومزاجه طيب ومرح.

فى مطلع العام كان فيودور ميخايلوڤيتش مهتمًا بالمناقشة المنتظرة لڤلاديمير سيرجييڤيتش سولوڤيوڤ للحصول على لقب دكتور فى الفلسفة، وقد رأى أن حضوره هذا الاحتفال أمر لا بد منه. أنا أيضًا ذهبت بصحبة زوجى حتى أجنبه، بالدرجة الأولى، احتمال الإصابة فى الزحام بنزلة برد. كانت المناقشة رائعة، وقد نجح سولوڤيوڤ فى التصدى لهجوم مناقشيه الجادين والرد عليهم فى أثناء سير المناقشة. ظل فيودور ميخايلوڤيتش منتظرًا حتى انفض الجمهور ليتمكن من مصافحة صاحب الاحتفال. أظهر سولوڤيوڤ سعادته بوجود فيودور ميخايلوڤيتش، الذى على الرغم من ضعفه، حرص على الحضور إلى الجامعة ليكون ضمن أصدقائه فى هذا اليوم المشهود من حياته(٢٣٩)

فى عام ١٨٨٠، وعلى الرغم من أن فيودور ميخايلوڤيتش بذل جهدًا كبيرًا فى رواية «الإخوة كارامازوف»، فقد وافق على حضور عدد من الأمسيات الأدبية لصالح بعض من الهيئات المختلفة. كانت براعة فيودور ميخايلوڤيتش فى القراءة دائمًا ما تجذب الجمهور، ولم يكن ليتوانى عن الموافقة على المشاركة مهما كانت مشاغله، طالما كان صحيحًا معافيًا. أذكر أنه قد شارك فى الأمسيات التالية منذ بداية العام: فى الثانى من فبراير شارك بالقراءة فى ثانوية كولومنسكايا النسوية بناء على طلب من بيوتر ڤاينبرج(*). وفى العشرين من مارس قرأ فى قاعة مبنى البلدية لصالح أطفال دار الرحمة فى سان بطرسبورج، وهناك اختار زوجى «حديث الأب زوسيما مع النساء»(**)

(*) بيوتر إيسايڤيتش ڤاينبرج (١٨٣١ ـ ١٩٠٨): شاعر ومترجم. زميل دستويڤسكى فى الصندوق الأدبى.

(**) لا أستطيع ألا أحكى عن هذا الحادث الغريب، الذى وقع معى فى الأمسية الأدبية التى جرت فى العشرين من مارس ١٨٨٠ كانت قاعة مبنى البلدية مكتظة بجمهور جاء إلى الأمسية فى أبهى ثياب، وكان

وفى اليوم التالى (٢١ مارس) اضطر فيودور ميخايلوڤيتش للاشتراك بالقراءة فى قاعة الجمعية الخيرية لصالح فصول الدراسات التربوية. وقد اختار زوجى مقطع «حلم راسكو لنيكوف عن الحصان المنهك». كان الانطباع الذى تركته القراءة على الناس بالغ الأثر، وقد شاهدت بعينى رأسى كيف جلس الناس وقد شحبت وجوههم من الفزع، بينما راح بعضهم يبكى. أنا نفسى لم أستطع كبح دموعى. كانت القراءة الأخيرة فى الربيع، وكان موضوعها حديث راسكولنيكوف مع مارميلادوف» وجرت فى الثامن والعشرين من مارس فى مبنى الجمعية الخيرية لصالح جمعية مساعدة طلاب جامعة سان بطرسبورج.

تجددت أمسيات القراءة الأدبية فى خريف ١٨٨٠ بعد أن استمع ڤيكتور جايڤسكى(*)، رئيس الصندوق الأدبى، إلى كلمة فيودور ميخايلوڤيتش فى احتفالية بوشكين، أقنعه بالمشاركة بالحضور للقراءة لصالح الصندوق، يوم التاسع عشر من أكتوبر، وهو يوم الاحتفال بيوبيل الليسيه(**) وبالفعل حضر فيودور ميخايلوڤيتش وقرأ مشهدًا من مسرحية «الفارس الفقير» (الفصل الثانى)، ثم قرأ بعده قصيدة «مثل

أغلبهم من الرجال. عندما تفحصت هذا الجمع، أدهشنى أمر وحيد تحديدًا: أن غالبية وجوه فيودور ميخايلوڤيتش بذلك، وقد تعجب لهذه الظاهرة الغريبة، لكن الأمر اتضح، عندما طُلِب من المشاركين وزوجاتهم أن يحضروا، فى وقت الاستراحة، إلى قاعة جانبية. وهناك صُفت على الموائد الكبيرة المزهريات وزجاجات الشمبانيا والفاكهة والحلوى، وقام منظمو الأمسية، محافظ المدينة، إيڤان إيليتش جلازونوف، وزوجته السيدة جلازونوڤا، راعية دار الرحمة، باستضافة المغنين والأدباء بحفاوة وترحاب شديدين، وقد حضر إلى الأمسية، بطبيعة الحال، تجار وبائعو محل جوستينى دفور الشهير، الذين لبوا الدعوة إلى الأمسية باعتبارهم من المؤسسة الراعية للمناسبة. ولمّا كنت قد أنفقت بضعة أيام أطوف بكل أنحاء محل جوستينى دفور، بحثًا عن أقمشة زاهية الألوان، جميلة الرسوم، لزوم ملابس الأولاد الصيفية، ولهذا تذكرت وجوه البائعين فبدت لى الآن معروفة. كنت فى غاية السرور، لأن الأمر الذى بدا لى فى البداية مرضًا ما غير معروف، قد اتضح لى الآن ببساطة (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(*) ڤيكتور باڤلوڤيتش جايفسكى (١٨٢٦ ــ ١٨٨٨): محام، مؤرخ أدبى ومفهرس. أحد مؤسسى الصندوق الأدبى ورئيسه لسنوات طويلة.

(**) الليسيه: مدرسة متميزة فى روسيا القيصرية، كان يدرس بها أبناء النبلاء ورجال البلاط، ومنهم الشاعر ألكسندر بوشكين، والأعمال التى قرأها دستويڤسكى فى هذه المناسبة، من أعمال هذا الشاعر (المترجم).

وقت دافئ فى الربيع»، وعندما راح لجمهور يدعوه لمزيد من القراءة، ألقى قصيدة «النبى»، الأمر الذى أثار حماسًا منقطع النظير لدى الجمهور، حتى أن حوائط جمعية الائتمان، حيث جرى الاحتفال، بدت وكأنها تهتز من أثر التصفيق العاصف. انحنى فيودور ميخايلوفيتش عدة مرات محييًا الحضور، ثم غادر المنصة، لكن الجمهور راح يستدعيه مرة وراء الأخرى، وقد استمر هذا الوضع ما يقرب من عشر دقائق(٢٤٠)

ونظرًا إلى النجاح المدوى لهذه القراءة، فقد قرر ڤيكتور جايفسكى أن يعيدها بعد أسبوع، أى فى السادس والعشرين من أكتوبر بنفس البرنامج ونفس المؤدين. وبفضل رد الفعل السابق، فقد جذبت الأمسية التالية جمهورًا كبيرًا وقف جانب منه فى الممرات. وعندما خرج فيودور ميخايلوڤيتش إلى المنصة استقبله الجمهور بتصفيق طويل، حتى أن زوجى لم يستطع أن يبدأ قراءته؛ ثم راح الجمهور يقاطعه بعد كل شطرة بالتصفيق ولم يسمح له بمغادرة المنصة. وقد وصل الحماس ذروته بالحضور عندما أنهى فيودور ميخايلوڤيتش قراءة قصيدة «النبى». لقد حدث شىء ما هنا لا يمكن وصفه بالكلام.

ومرة أخرى يذهب فيودور ميخايلوڤيتش فى الحادى والعشرين من نوفمبر إلى الجمعية الخيرية ليقرأ فيها لصالح الصندوق الأدبى. وفى الجزء الأول من الأمسية قرأ قصيدة نكراسوف «ظلمة الضلال»، وفى الجزء الثانى قرأ مقاطع من الجزء الأول من قصيدة جوجول «الأنفس الميتة»(*)

فى الثلاثين من نوفمبر أقيمت أمسية فى جمعية الائتمان لصالح جمعية مساعدة طلاب جامعة سان بطرسبورج، قرأ فيها فيودور ميخايلوڤيتش الفصل المعنون «دفن إيليوشيتشكا»من «الإخوة كارامازوف». كانت القراءة بصوت خفيض، وعلى الرغم من ذلك بلغت من فنيتها أنها مست القلوب مسًا موجعًا، حتى إننى شاهدت حولى وجوهًا باكية مكلومة، ليس فقط من النساء. قدم الطلاب إلى زوجى إكليلاً من الغار، ورافقه جمهور كبير حتى باب البناية. لقد استطاع فيودور ميخايلوڤيتش أن يتأكد بنفسه، إلى أى حد يحبه الشباب ويقدره. كان إدراك هذا أمرًا عزيزًا على زوجى.

(*) «الأنفس الميتة» (الجزء الأول ١٨٤٢) رواية ـ قصيدة حسب تصنيف نيكولاى جوجول (١٨٠٩ ـ١٨٥٢)، وقد أحرق مخطوطة الجزء الثانى منها فى عام ١٨٥٢. (المترجم).

اعتاد الجمهور أن يستقبل فيودور ميخايلوفيتش بكل حفاوة فى أمسيات القراءة الأدبية. كان ظهوره على المنصة يثير عاصفة من التصفيق يستمر بضع دقائق. فيودور ميخايلوفيتش يهب فى أثنائه واقفًا عن كرسيه فينحنى ويشكر الجمهور، الذى لا ينى يعطيه الفرصة للقراءة، ثم بعد ذلك يعود ليقاطعه أكثر من مرة بتصفيق يصم الآذان. نفس الشيء كان يحدث بعد الانتهاء من القراءة، وكان فيودور ميخايلوفيتش يضطر إلى العودة لتحية الجمهور، بعد مغادرته المنصة، ثلاث أو أربع مرات. بالطبع فإن إعجاب الجمهور بموهبته كان يُسعد فيودور ميخايلوفيتش، الذى كان يشعر برضا معنوى عظيم. قبيل القراءة، كان فيودور ميخايلوفيتش يخشى ألا يسمع الناس صوته الواهن، وقد لا يسمع صوته إلا الجالسين فى الصفوف الأولى، وكانت هذه الفكرة تؤرقه. لكن التوتر العصبى الذى كان يسيطر عليه فى هذه الأحوال كان يجعل من صوته، حتى ولو كان ضعيفًا، مدويًا على نحو واضح، وتصبح كل كلمة من كلماته جلية مسموعة فى كل أركان القاعة الفسيحة [٢٤١]

هناك حقيقة هامة ينبغى ذكرها هنا. لقد كان فيودور ميخايلوفيتش قارئًا من الطراز الأول(*).

(*) وحتى لا يكون حديثى دون سند، سأورد هنا كلمات سميون أفانا سيفيتش فينجيروف عن الانطباع الذى تركه فيودور ميخايلوفيتش فى نفسه. «كان من نصيبى أن أنال هذه السعادة الكبرى بالاستماع إليه (دستويفسكى) وهو يقرأ فى إحدى الأمسيات التى نظمها الصندوق الأدبى عام ١٨٧٩ ليس هناك ند له كقارئ. يمكن أن نسمى دستويفسكى «قارئًا» لأنه لا يوجد على الإطلاق تعريف لهذا الرجل، الذى يخرج إلى المنصة ليقرأ روايته وقد ارتدى معطفًا أسود. فى هذه الأمسية نفسها، التى استمعت فيها إلى دستويفسكى، قرأ تورجينيف وسالتيكوف ــ شيدرين وجريجوروفيتش وبولونسكى وألكسى بوتيخين. وباستثناء سالتيكوف، الذى قرأ على نحو ردىء، وبولونسكى، الذى قرأ بنبرة احتفالية غنائية للغاية، فقد قرأ الآخرون على نحو جيد. ولكن الأمر، تحديدًا، لم يكن سوى مجرد قراءة. أما دستويفسكى فكانت قراءته تنبؤية بكل معنى الكلمة. قرأ بصوت رقيق، لكنه واضح وثاقب، وعلى نحو مؤثر يصعب وصفه، واحدًا من أروع فصول «الإخوة كارامازوف» ــ «اعترافات قلب حار» ــ حيث يحكى ميتيا كارامازوف كيف جاءت إليه كاتيرينا إيفانوفنا تطلب منه نقودا لتعطيها لأبيه. وإلى وقتنا هذا لم أشاهد مطلقًا صمتًا مطبقًا مثل هذا الصمت الذى ساد القاعة، وقد اندمج الحضور، البالغ عددهم ما يزيد عن ألف شخص، اندماجًا تامًا بأرواحهم، رغم اختلاف أمزجتهم، وكأنهم توحدوا فى شخص واحد. وعندما كان الآخرون يقرؤون،

وسواء أكان يقرأ من أعماله أم أعمال كُتَّاب آخرين، فقد تميزت قراءته بإبراز تنوع وخصائص محل عمل من هذه الأعمال. وفى الوقت نفسه فقد كان يقرأ بسلاسة دون أن يلجأ إلى أى أسلوب من أساليب الخطابة. لقد ترك فيودور ميخايلوڤيتش أثرًا مذهلاً على مستمعيه بقراءته (وبخاصة عندما قرأ قصة نيللى من «مذلون مهانون» أو أليوشا كارامازوف وهو يحكى عن إيليوشيتشكا). كنت أشاهد الدموع فى عيون الحضور؛ وأنا نفسى كنت أبكى، على الرغم من أننى كنت أحفظ هذه المقاطع عن ظهر قلب. كان فيودور ميخايلوڤيتش يرى أن من المفيد أن يبدأ كل قراءته بتقديم موجز، حتى يتسنى فهمها للأشخاص، الذين لم يقرؤوا النص، أو قرؤوه ثم غاب عن ذاكرتهم.

وبالإضافة إلى الأمسيات الأدبية، حرص فيودور ميخايلوڤيتش على زيارة معارفه. فى شتاء ١٨٧٩/ ١٨٨٠ زار إيڤان بتروڤيتش كورنيلوف(*) المحترم (الراعى السابق لإقليم فنيلينسكى التعليمى)، وقد قابل لديه العديد من العلماء والشخصيات، التى كانت تشغل مكانة رسمية رفيعة. وقد حضر فيودور ميخايلوڤيتش الأمسيات التى كانت تقيمها يلينا أندرييڤنا شتاكينشنايدر (ابنة المعمارى البارز)، وكان عدد من الأدباء البارزين يجتمعون فى بيتها أيام الثلاثاء فيقرؤون أحيانًا مقاطع من أعماله[٢٤٣]. وكانت تنظم أيضًا مسرحيات منزلية؛ أذكر، على سبيل المثال، أننى وزوجى حضرنا فى شتاء عام ١٨٨٠ عرض «دون چوان» وقد أدى الأدوار المسرحية: ص. ف. أڤيركييڤا(**)

لم يكونوا ليفقدوا «ذواتهم»، وإن تعاملوا، على نحو أو آخر، مع ما استمعوا إليه، كل على طريقته. وحتى القراءة الرائعة لتورجينيف، بالاشتراك مع سافينا، لم تصعد بالجمهور إلى ذرّى عالية. أما عندما يقرأ دستويڤسكى، فالمستمع، مثله مثل قارئ رواياته الكابوسية العبقرية، يفقد «ذاته» تمامًا ويصبح أسيرًا بكل كيانه لسلطان التنويم المغناطيسى لهذا العجوز النحيل، رث الهيئة، ذى النظرة الثاقبة الحادة النافذة المشتعلة بنيران غامضة، تشبه، على الأرجح، هذا البريق الذى كان يتأجج يومًا ما فى عيون البابا أڤاكوم» (صحيفة «ريتش» («الخطاب») ٢٥ أبريل١٩١٥) (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(*) إيڤان بتروڤيتش كورنيلوف (١٨١١ ــ ١٩٠١): جامع للمخطوطات والكتب القديمة، وقد انعقدت أواصر الصداقة بينه وبين دستويڤسكى فى نهاية السبعينيات.

(**) صوفيا ڤيكتورڤنا أڤيركييڤا (١٨٤٠ ــ ما بعد ١٩١٧): ممثلة.

فى دور دونا ــ أنّا؛ وقد أدت الدور بموهبة فائقة وقد قام بالأداء أيضًا الشاعر ك. ك. سلوتشايفسكى(*) ونيكولاى ستراخوف. وقد أدى الأخير دورًا مناسبًا له، حتى أن فيودور ميخايلوفيتش صفق له بشدة وكان فى حالة من المرح الشديد فى هذه الأمسية. وقد تعرف فيودور ميخايلوفيتش فى هذا الشتاء أيضًا على ليديا إيفانوفنا فيسيليتسكايا(**) فى بيت شتاكينشنايدر، وقد اشتهرت ليديا كأديبة بعد ذلك باسم ف. ميكوليتش. أود أن أشير هنا إلى دقة حرس فيودور ميخايلوفيتش: فبعد أن تحدث مع هذه الفتاة الشابة مرتين أو ثلاثًا، خمن، على الرغم من حداثة عمرها وارتباكها المفهوم، أنها ستصبح لا مجرد سيدة مجتمع بارزة، وإنما شخصية تمتلك إرهاصات لشىء ما أسمى، طموحًا لمثل أعلى، وعلى

الأرجح، موهبة أدبية. لم يخطئ حدس فيودور ميخايلوفيتش وقد تركت مؤلفة «ميموشك أثرًا بارزًا بأعمالها الأدبية فى الأدب الروسى(٢٤٤).

كانت يلينا أندرييفنا شتاكينشنايدر موضع احترام ومحبة فيودور ميخايلوفيتش لطيبتها الدائمة ودماثة خلقها، التى احتملت بها أمراضها المزمنة، ودون أن تفصح عن شكاواها منها علنًا، وإنما على العكس من ذلك، كانت تشيع البهجة فى نفوس الآخرين بحفاوتها وترحابها.

كان أدريان أندرييفيتش، الأخ الأصغر ليلينا أندرييفنا، يتمتع بمحبة خاصة بين أفراد عائلة شناكينشنايدر(***)، وهو شاب ذكى واسع الأفق، وكان معجبًا بموهبة فيودور ميخايلوفيتش بإخلاص. كان فيودور ميخايلوفيتش دائم التشاور مع محام موهوب مثل أدريان أندرييفيتش بشأن كل الأحداث التى تدور فى عالم المحاكم وعن نظمها. ويدين فيودور ميخايلوفيتش بمعلوماته فى هذا الشأن له، حتى أن كل تفاصيل محاكمة

(*) قنسطنطين قنسطنطينوفيتش سلوتشايفسكى (١٨٣٧ ــ ١٩٠٤): شاعر، وناشر، وناقد، ومحرر مجلة «براڤيتلستڤينى ڤيسنيك» («بشير الحكومة»).

(**) ڤيسيليتسكايا، ليديا إيڤانوڤنا (الاسم الأدبى «ميكوليتش») (١٨٥٧ ــ ١٩٣٦): كاتبة.

(***) أدريان أندرييڤيتش شتاكينشنايدر (١٨٤١ ــ ؟) محام، ابن المعمارى شناكينشنايدر.

ميتيا كارامازوف كانت من الدقة بحيث إن أى ناقد حقود (وهؤلاء ما أكثرهم) لم يكن ليجد فيها أى خطأ أو هفوة.

كان فيودور ميخايلوڤيتش شغوفًا بزيارة قنسطنطين بوبيدونوستسيف؛ الذى كان الحديث معه يمثل متعة ذهنية رفيعة لزوجى، باعتبار الحديث تواصلاً مع عقل راجح، ذو فكر عميق، على الرغم من ميله للشك.

على مدى عامى ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠ واظب فيودور ميخايلوڤيتش على زيارة الكونتيسة صوفيا أندرييڤنا تولستايا أرملة المرحوم الشاعر الكونت ألكسى تولستوى. كانت امرأة شديدة الذكاء، ومثقفة واسعة الاطلاع. كان زوجى يرى أن النقاش معها أمرًا غاية فى الروعة، وكان يبدى دائمًا تعجبه من موهبتها وقدرتها على النفاذ إلى جوهر الأمور وإبداء الرأى فى العديد من الأفكار الفلسفية، وهو أمر نادر بين النساء(٢٤٥).

وبالإضافة إلى ما كانت تتمتع به هذه المرأة البارزة من فطنة، كانت لها قلب عطوف وإحساس مرهف، وسوف أظل أذكر لها طوال عمرى بكل امتنان أنها أدخلت السرور على قلب زوجى ذات يوم.

فذات مرة، وكان فيودور ميخايلوڤيتش يتجاذب أطراف الحديث مع الكونتيسة عن قاعة الصور الفنية فى درزدن، أعرب عن رأيه فى لوحة العذراء السيستينية، وأضاف قائلاً، بالمناسبة، وقد تملكه إحساس بالحزن، أنه لم يستطع إطلاقًا أن يحضر معه من الخارج صورة فوتوغرافية كبيرة للوحة العذراء، وأن الحصول عليها هنا أمر يكاد يكون مستحيلاً. وعندما ذهب فيودور ميخايلوڤيتش إلى إمس، كان يود لو أنه تمكن من شراء نسخة من هذه اللوحة، لكنه لم يتمكن من تحقيق رغبته. أنا أيضًا بحثت عن نسخة كبيرة من صورة العذراء فى محال الصور المستنسخة فى العاصمة دون جدوى. وبعد مرور أسبوعين ثلاثًا على هذا الحديث، وذات صباح، وكان فيودور ميخايلوڤيتش ما يزال نائمًا، إذا بڤلاديمير سولوڤيوف يأتى لزيارتنا وقد حمل معه صندوقًا ضخمًا من الورق المقوى، وإذا بداخل هذا الصندوق صورة فوتوغرافية رائعة لعذراء السيستينية بالحجم الطبيعى، ولكن دون الشخصيات التى تحيط بها.

وقد أخبرنى ڤلاديمير سيرجييڤيتش، الذى كان صديقًا مقربًا من الكونتيسة تولستايا، أنها تبادلت بعض الرسائل مع معارفها فى درزدن، وهؤلاء أرسلوا إليها هذه الصورة الفوتوغرافية، وقد طلبت الكونتيسة من أن يقبلها فيودور ميخايلوڤيتش منها «للذكرى الطيبة». حدث ذلك فى منتصف أكتوبر ١٨٧٩، وقد وصلت إلى فكرة وضع إطارًا لها على الفور لتدخل السرور على قلب فيودور ميخايلوڤيتش يوم عيد ميلاده، فى الثلاثين من أكتوبر. وقد أخبرت سولوڤيوف بفكرتى، وقد استحسنها، وقد سارعت بعمل إطار لها حتى لا تتعرض للتلف. طلبت من ڤلاديمير سولوڤيوف أن ينقل إلى الأميرة امتنانى القلبى لفكرتها الرائعة، وفى الوقت نفسه نبهتها إلى أن فيودور ميخايلوڤيتش لن يرى هديتها قبل موعد الاحتفال بعيد ميلاده، وهو ما حدث بالفعل: ففى عشية الثلاثين من أكتوبر، تسلمت الصورة فى إطار من خشب البلوط الداكن المنقوش، ملفوفة فى غلاف ومعها مسمار لتثبيته فى الحائط، فوق الأريكة (سرير فيودور ميخايلوڤيتش) حيث ينعكس الضوء عليها هناك بشكل أفضل، فيبرز خصائص هذه الرائعة الفنية Chef- d'oeuvr.

وفى صباح يوم الاحتفال بعيدنا العائلى، عندما خرج فيودور ميخايلوڤيتش ليشرب الشاى فى غرفة المائدة، سارعت بوضع الصورة فى مكانها، وبعد تبادل التهانى المرحة مع الأطفال، توجهنا معًا إلى غرفة المكتب، وكم كانت دهشة فيودور ميخايلوڤيتش وابتهاجه، عندما التقت عيناه بالعذراء التى كان يحبها حبًا شديدًا! «أين استطعت العثور عليها، آنيا؟» سألنى فيودور ميخايلوڤيتش معتقدًا أننى اشتريتها، وعندما شرحت له أنها هدية من الكونتيسة تولستايا، شعرت أن هذه اللفتة مست شغاف قلبه. وفى اليوم نفسه ذهب ليعبر لها عن شكره وامتنانه. كم من مرة وجدته فى العام الأخير من حياته واقفًا أمام هذه اللوحة الرائعة فى حالة من الخشوع العميق، حتى أنه لم يكن ليلحظ دخولى، وحتى لا أقطع عليه نشوته الروحية، كنت أغادر الغرفة فى هدوء. كان امتنانى للكونتيسة تولستايا مفهومًا، فقد أعطت لزوجى بهديتها إمكانية الإفصاح عن مشاعر البهجة والتأثر العميق أمام وجه العذراء! هذه الصورة تمثل كنزًا من كنوزنا العائلية وهى محفوظة لدى ابنى.

كان فيودور ميخايلوڤيتش يحب زيارة الكونتيسة صوفيا تولستايا لأن لديها أيضًا عائلة لطيفة تحيطها، ابنة أختها، صوفيا بتروڤنا خيتروڤو، وهى امرأة شابة بشوشة، وأطفالها الثلاثة: ولدان وفتاة رائعة. كان هؤلاء الأطفال فى سن أطفالنا، وقد قمنا بتعريفهم بعضهم ببعض، وقد تصادقا، الأمر الذى أسعد فيودور ميخايلوڤيتش.

التقى فيودور ميخايلوڤيتش لدى الكونتيسة صوفيا تولستايا بالعديد من سيدات المجتمع الراقى: الكونتيسة ألكسندرا أندرييڤنا تولستايا(*) (وهى تمت بصلة قرابة للكونت ليڤ تولستوى)(٢٤٦)، يليزافيتا الكسييڤنا ناريشكينا(**)، الكونتيسة أنّا يجوريڤنا كوماروفسكايا(***)، يوليا فيودوروڤنا

أباظة(****)، الكونتيسة فولكونسكايا، يوليا ڤانيليارسكايا(*****)، المغنية لاڤروفسكايا، كونتيسة تسيرتيليڤايا(٢٤٧)(******)، وغيرهن. كن جميعهن يتعاملن مع فيودور ميخايلوڤيتش بإكبار ومودة كبيرة، وبعضهن كن من المعجبات بموهبته، ورغم أن فيودور ميخايلوڤيتش كان ينفعل دائمًا عند دخوله فى جدل أدبى وسياسى فى مجتمع الرجال، فقد كان يقدر دائمًا التحفظ والرقة التى تميز النساء فى محاوراتهن.

ومن الشخصيات التى كان فيودور ميخايلوڤيتش يميل إلى تبادل الحديث معهن، واللائى كان يزورهن أحيانًا، أذكر هنا الكونتيسة يليزاڤيتا نيكولايڤنا جايدن، ممثلة جمعية جيورجينسكى. كان ميخايلوڤيتش يكن لها احترامًا صادقًا على نشاطها الخيرى

(*) ألكسندرا أندرييڤنا تولستايا (١٨١٧-١٩٠٤): ابنة عمة الكاتب الكونت ليڤ تولستوى.

(**) يليزاڤيتا ألكسييڤنا ناريشكينا (١٨٤٠- بعد ١٩١٠): كونتيسة، أشتهرت بأعمالها الخيرية.

(***) أنّا يجوريڤنا كوماروڤسكايا (١٨٣١- ١٩٠٦): وصيفة فى بلاط الكونتيسة العظيمة ألكسندرا يوسيبوڤنا، أرملة الأمير العظيم قنسطنطين نيكولايڤيتش.

(****) يوليا فيودورڤنا أباظة (١٨٣٠-١٩١٥): كاتبة، مغنية، مؤلفة موسيقى، مديرة ملجأ أطفال السجناء». صاحبة صالون موسيقى تردد عليه تشايكوڤسكى وروبنشتاين. زوجة وزير المالية أ. أباظة.

(*****) يوليا فيودوروڤنا ڤانيليارسكايا: كونتيسة، كاتبة، زوجة نيكولاى ساڤيتس، سيناتور وعضو مجلس الدولة ورئيس الإدارة العليا للبريد، كان رقيبا على الإصدار الأخير «لمذكرة الكاتب».

(******) يليزاڤيتا أندرييڤنا لاڤروڤسكايا (١٨٤٥-١٩١٩): كونتيسة، مغنية روسية.

الدؤوب وأفكارها السامية. كما كان يحب زيارة يوليا دينيسوڤنا زاسيتسكايا(*) (ابنة الفدائى دينيس داڤيدوڤ)، وكان دائمًا ما يدخل معها فى جدل شديد، وإن كان وديًا، بشأن معتقداتها الدينية. نادرًا ما كان فيودور ميخايلوڤيتش يقوم بزيارة أنّا باڤلوفنا فيلوسوفوفا(**)، وكان يقدر نشاطها الحيوى، وكان يقول إن لديها «قلبًا ذكيًا»[٢٤٨]

أقول، بالمناسبة، إن فيودور ميخايلوڤيتش كان له كثير من الأصدقاء من النساء، اللائى كن يأتمنه على أسرارهن وشكوكهن عن طيب خاطر، وكن يطلبن منه النصح، ولم يكن ليرد لهن طلبًا. على العكس، كان يولى اهتمامًا وديًا خالصًا باهتماماتهن ويبدى آراءه بشأنها بكل صدق، مخاطرًا أحيانًا بإغضابهن بهذه الآراء. ولكنهن، وقد وضعت ثقتهن فيه، كن يدركن بحساسية فائقة، أن من النادر أن يجد الانسان، الذى يفهم أعماق المرأة ومعاناتها، على النحو الذى يتفهم، بل ويتنبأ به فيودور ميخايلوڤيتش.

(٣)

السفر إلى موسكو
للاشتراك فى الاحتفال ببوشكين

فى مارس عام ١٨٨٠ انتشرت الشائعات فى الأوساط الأدبية بشأن الانتهاء من إقامة تمثال لبوشكين فى موسكو، وأنه سيفتتح فى الربيع. وأن من المفترض أن يزاح الستار عن التمثال فى احتفال مهيب. وقد أثار الحدث المنتظر اهتمام مثقفينا بشكل كبير، وأعد الكثير منهم عدته للسفر لحضور هذا الاحتفال. وقد تأسست فى موسكو لجنة خاصة لافتتاح التمثال، وقد قررت جمعية محبى الأدب الروسى التابعة لجامعة موسكو

(*) يوليا دينيسوڤنا زاسيتسكايا (؟ ـــ ١٨٨٢): كاتبة ومترجمة.
(**) أنّا باڤلوڤنا فيلوسوفوفا (١٨٣٧ـــ١٩١٢): شخصية اجتماعية، مشاركة فى الحركة النسائية.

الإمبراطورية الاحتفال بافتتاح التمثال بعقد اجتماعات جماهيرية. كان رئيس الجمعية هو س. يورييف(*)، وقد أرسل إلى الأدباء البارزين دعوات لحضور الاحتفال(٢٤٩)، وقد تسلم فيودور ميخايلوفيتش، مثل باقى الأدباء، دعوة للحضور. وقد تضمنت الدعوة اقتراحًا له، ولغيره، أن يلقى خطابا فى افتتاح الاحتفال، إذا رغب فى ذلك، يكون مكرسًا لذكرى بوشكين. كان فيودور ميخايلوفيتش يشعر بالقلق إزاء الآراء المتضاربة التى شاعت فى العاصمة، بشأن هذه الخطب سليقيها ممثلو الحزبين الفكريين الموجودين آنذاك: أنصار النزعة السلافية، وأنصار النزعة الغربية. وقد أعلن أنه إذا لم يعوقه المرض، فإنه سيذهب حتمًا إلى موسكو ويلقى خطابه عن بوشكين، هذا الخطاب الذى ظل سنوات عديدة فى عقله وقلبه، وفى هذا الصدد أعرب فيودور ميخايلوفيتش عن رغبته فى أن أذهب بصحبته. بالطبع كنت سعيدة للغاية للذهاب إلى موسكو لأشاهد هذا الاحتفال الاستثنائى؛ فضلاً عن أن أكون إلى جوار فيودور ميخايلوفيتش فى هذه الأيام، التى توقعت أن تنتابه فيها المخاوف.

كان أمرًا محزنًا بالنسبة إلىَّ، ومؤسفًا بالنسبة إلى فيودور ميخايلوفيتش ألا تتحقق رحلتنا المشتركة، فعندما رحنا ندرس كيف سندبر أمر هذه الرحلة، وصلنا فى النهاية إلى اقتناع بأنها رحلة صعبة المنال. فبعد وفاة ابننا أليوشا كان فيودور ميخايلوفيتش، الذى كان يعامل الأطفال بحب بالغ، أصبح أكثر وسوسة فيما يخص حياة وصحة الأطفال، ومن ثم كان من المستحيل أن تفكر فى الذهاب معًا ونترك أمر رعاية الأطفال للمربية. كان من المحتم عندئذ أن نصطحبهم معنا. على أنه لمّا كانت الرحلة والإقامة فى موسكو لا يمكن أن تستغرق أقل من أسبوع، فإن إقامتنا مع الأطفال فى فندق جيد (إضافة إلى نفقات السفر إلى موسكو والعودة) لابد وأنها ستكلفنا ما لا يقل عن ثلاثمائة روبل. علاوة على ذلك، فإن مثل هذه الاحتفالات كانت تتطلب أن أظهر فيها بملابس زاهية،

(*) سيرجى أندرييفيتش يورييف (١٨٢١ـ١٨٨٨): ناقد أدبى ومترجم، محرر وناشر مجلتى «بسييدا» («المحاورة») (١٨٧١ـ١٨٧٢)، «روسكايا ميسل» («الفكر الروسى») (١٨٨٠ـ١٨٨٥)، رئيس جمعية محبى الأدب الروسى منذ عام ١٨٧٨

فإذا لم تكن ملابس فاخرة، فتكون محترمة على أية حال، وهو ما سيزيد من تكلفة الرحلة. وزيادة فى نكايتنا، فقد كان هناك سوء فهم ما بشأن حساباتنا مع «البشير الروسى» وكان الحصول على نقود من هيئة التحرير تكتنفه بعض لصعوبات. باختصار، توصلنا أنا وزوجى، بعد تفكير طويل وتردد، أن علىّ أن أتنازل عن هذه الفكرة التى فتنتنى بالسفر إلى موسكو لحضور الاحتفال. أود أن أقول إننى ظللت طوال عمرى أرى أن عدم حضورى هذا الانتصار المدوِّى الذى حقَّقه زوجى العزيز فى عيد بوشكين، هو خسارة فادحة لا تعوض.

وحتى يتمكن من أن تتاح له الفرصة فى الهدوء والحرية فى التفكير فى كتابة خطابه فى ذكرى بوشكين، أراد فيودور ميخايلوڤيتش أن يذهب مبكرًا إلى ستاريا روسا، وفى أوائل شهر مايو التأم شمل الأسرة بالفعل فى الداتشا.

وفى أبريل من عام ١٨٨٠، راح أصدقاء فيودور ميخايلوڤيتش يخبرونه أن مجلة «البشير الأوروبى» قد نشرت مقالاً لباڤل أنينكوف تحت عنوان «عشر سنوات رائعة» تعرض فيه الكاتب بالحديث عن دستويڤسكى. اهتم فيودور ميخايلوڤيتش اهتمامًا بالغًا بالمقال وطلب منى أن أحصل من المكتبة على عدد أبريل من المجلة. وقد نجحت فى الحصول عليه من معارفى قبيل سفرنا إلى روسا مباشرة، وقد أخذنا العدد معنا إلى هناك. ما إن قرأ زوجى المقال حتى استشاط غضبًا: يتحدث أنينكوف فى مذكراته عن أن دستويڤسكى كان يقدر موهبته الأدبية على نحو مبالغ فيه، حتى أنه بدا كما لو كان يطلب أن يتم الاحتفاء بشكل خاص بروايته الأولى «الفقراء» ــ وهذا الطلب كان مطبوعًا على هيئة «هامش» فى جوانب الصفحات. استاء زوجى بشدة من هذه الفرية، وعلى الفور أسرع بالكتابة إلى سوڤورين(*) طالبًا منه أن يعلن فى «نوڤوى ڤريميا» («العصر الحديث») على لسانه، أن شيئًا مما نشر فى «البشير الأوروبى» فى مقال أنينكوف عن مسألة «الهامش» لم

(*) ألكسى سيرجييڤيتش سوڤورين (١٨٣٤ــ ١٩١٢): صحفى وناشر؛ بدأ فى إصدار صحيفة «العصر الحديث» منذ عام ١٨٧٥؛ تعرف على دستويڤسكى فى عام ١٨٧٥، ومنذ هذا التاريخ توطدت صداقتهما.

يحدث، ولا يمكن أن يحدث. كان العديد من أتراب فيودور ميخايلوفيتش (أبوللون مايكوف على سبيل المثال)، الذين تذكروا تلك الفترة، يشعرون هم أيضًا بالاستياء الشديد من جراء هذا المقال الذى كتبه أنينكوف، وقد كتب سوفورين، بناء على خطاب فيودور ميخايلوفيتش وشهادات معاصريه، ملاحظتين عبقريتين بخصوص «الهامش» (فى الثانى والسادس عشر من مايو ١٨٨٠) ونشرهما فى «العصر الحديث».

وردًا على تكذيب فيودور ميخايلوفيتش، كتب أنينكوف فى...(*) أن خطأ قد وقع، وأن طلب «الهامش» يخص عملاً آخر لفيودور ميخايلوفيتش يسمى «حكاية بليسميسلوف» (وهو عمل لم يكتب على الإطلاق). لقد أثارت الفرية التى أطلقها أنينكوف غضب زوجى، إلى حد أنه قرر أن يتجاهله، إذا ما حدث وقابله فى عيد بوشكين، وأنه لن يمد يده لمصافحته إذا ما اقترب منه [٢٥٠]

تحدد يوم الخامس والعشرين من مايو موعدًا لافتتاح تمثال بوشكين، لكن فيودور ميخايلوفيتش قرر الذهاب قبل الموعد بثلاثة أيام، حتى لا يضطر للتعجل فى الحصول على البطاقات، اللازمة لحضوره فى كل الاجتماعات الاحتفالية؛ وفضلاً عن أنه كان زميلاً لرئيس الجمعية الخيرية السلافية، كان فيودور ميخايلوفيتش يعد ممثلاً لهذه الجمعية فى الاحتفال، وعليه أن يقوم بطلب أكاليل الزهور لوضعها على التمثال.

فى الثانى والعشرين من مايو سافر فيودور ميخايلوفيتش، وقد ذهبت بصحبة الأطفال لنودعه عند محطة القطار. أذكر بكل حنان صادق، كيف تحدث إلى زوجى الغالى عند الوداع قائلاً:

ـــ عزيزتى المسكينة آنيا، إذن لم يحالفك الحظ فى السفر! يا للأسف يا للحزن! لقد كنت أحلم أن تكونى معى!

أجبت وقد انفطر قلبى من الحزن للفراق، والأهم، كان قلقى الشديد على صحته ومعنوياته:

(*) فقرة مفقودة فى المخطوطة.

إذن، ليس مقدرًا لنا، ولكن عليك فى المقابل أن تزيل مخاوفى ــ أن تكتب لى حتمًا كــل يــوم بكل التفاصيل، حتى أتمكن من معرفة كل شىء يحدث لك، وإلا سوف أعانى قلقًا لا نهاية له. هل تعدنى أن تكتب.

ــ أعدك، أعدك، قال فيودور ميخايلوڤيتش، سأكتب لك كل يوم. ــ ولأنه إنسان صادق الوعد، فقد أوفى بوعده وراح يكتب لى لا خطابًا واحدًا، وإنما أحيانًا خطابان فى اليوم الواحد، حرصًا منه أن يجنبنى شدة القلق عليه، وكذلك، وكعادته، أن يشركنى فى كل انطباعاته.

عندما افترقنا، كنت أظن أن غياب فيودور ميخايلوڤيتش لن يستمر أكثر من أسبوع: ليلتا سفر إلى موسكو والعودة، وخمسة أيام للاحتفال، كان على فيودور ميخايلوڤيتش أن يشارك بحضوره فيه. وقد وعدنى زوجى أنه لن يتأخر فى موسكو يومًا واحدًا، لكن الذى حدث أن فيودور ميخايلوڤيتش عاد بعد اثنين وعشرين يومًا، بدلاً من أن يقضى هناك أسبوعًا واحدًا. وأستطيع أن أقول، إلىَّ أسابيع الثلاثة التى غابها كانت زمنًا للعذاب والقلق والخوف بالنسبة لى.

ينبغى أن أذكر هنا أنه فى نهاية عام ١٨٧٩، وبعد عودته من إمس، قام زوجى بزيارة لابن عمى، الطبيب ميخائيل نيكولايڤيتش سنيتكين، وطلب منه أن يفحص صدره ليعرف إن كان العلاج فى إمس قد أحرز نجاحًا ما، كان قريبى طبيبًا للأطفال، لكنه على الرغم من ذلك، كان خبيرًا أيضًا فى الأمراض الصدرية، وكان فيودور ميخايلوڤيتش يُوليه ثقته بصفته طبيبًا، وكان يحبه، بصفته إنسانًا طيبًا وذكيًا. بالطبع فقد طمأن ابن عمى فيودور ميخايلوڤيتش (كما يفعل كل طبيب، وأكد له أن الشتاء سيمر على على نحو رائع، وأنه لا ينبغى عليه أن يخشى على صحته من أى شىء، بشرط أن يلزم الحيطة. على أن الطبيب اعترف لى، وهو يجيب عن أسئلتى الملحَّة، أن المرض قد حقق نجاحًا منذرًا بالسوء، وأن الإمفيزيما (تمدُّد أوردة الرئة) فى وضعها الحالى، يمكن أن تمثِّل تهديدًا على حياته، وقد شرح لى أن الأوعية الدقيقة للرئة أصبحت من الرقة والهشاشة، بحيث

أصبحت تنبئ بإمكــانية انفجــارها نتيجــة لأى توتر بدنـــى، ولهذا فقد نصحه بألا يقوم بأى حركة حادة، وألا ينقل أو يرفع اشياء ثقيلة، وعمومًا فقد نصحنا بأن نجنب فيودور ميخايلوڤيتش من أى نوع من أنواع الأفعال، سواء السار منها أو المحزن.

الحقيقة أن الطبيب قد طمأننى بقوله إن انفجار هذه الشرايين لايؤدى دائمًا إلى الموت، حيث تتكون أحيانًا ما يعرف باسم «الانسداد» ـ وهو عبارة عن جلطة لا تسمح بفقدان الدم بشكل شديد. لا يمكن تصور على أى نحو كنت خائفة وكيف أصبحت أتابع باهتمام صحة زوجى.

ولكى لا أترك فيودور ميخايلوڤيتش وحيدًا فى زيارته لبعض العائلات، حيث كان من الممكن أن يلتقى هناك أناسًا مزعجين أحيانًا، أو يدخل فى نقاشات تفسد عليه مزاجه، رحت أشكو له ما أعانيه من ملل فى البيت، وأعربت له عن رغبتى فى الخروج إلى المجتمع. كان فيودور ميخايلوڤيتش يشفق علىَّ لقلة زياراتى، وقد أسعده قرارى، ومن ثم بدأت فى مرافقته فى اجتماعاته مع معارفه وفى أمسياته الأدبية شتاء عام ١٨٧٩ وعام ١٨٨٠ كله؛ وقد أعددت لنفسى ثوبًا أنيقًا للخروج من الحرير الأسود، واقتنيت دبوسين ملونين أكد لى زوجى أنهما يناسبانى تمامًا.

وفى الأمسيات والاجتماعات كنت أضطر للجوء إلى الحيلة لكى أجنب فيودور ميخايلوڤيتش اللقاءات والمناقشات السمجة، فعلى سبيل المثال: كنت أطلب من ربة البيت أن تُجلس فيودور ميخايلوڤيتش على مقعد السهرة بعيدًا عن شخص ما أو سيدة ما، مستخـــدمة حجـــة ما، أو أنـــادى على فيودور ميخايلوڤيتش إذا رأيت أنه بدأ فى الانفعال أو احتدَّ فى النقاش. باختصار: كنت منتبهة دائمًا، ونتيجة لهذا الخروج إلى المجتمع، كان نصيبى من الاستمتاع قليلا للغاية.

وهكذا، عندما كنت على هذا الحال من الاضطراب والقلق البالغين على صحة زوجى، إذا بنا نفترق بعضنا عن بعض ولمدة اثنين وعشرين يومًا، لا لمدة أسبوع كما كنا نعتقد. يا إلهى، كم من الألم عانيته طوال هذه الفترة، وبخاصة وأنا أرى من خلال

الخطابات، أن عودة فيودور ميخايلوڤيتش تبتعد أكثر فأكثر. كنت على يقين أن هذا الكم من الاضطراب والقلق الذى راح يتزايد لديه، لا بد وأن ينتهى بنوبة صرع، إن لم تكن نوبتين، وبخاصة أن نوبات الصرع كانت قد توقفت منذ زمن بعيد، وكان من الممكن توقع حدوثها السريع. وهنا راحت أسوأ الهواجس الكئيبة تنتابنى هاجسًا وراء الآخر. كانت فكرة أن فيودور ميخايلوڤيتش قد داهمته نوبة الصرع، وأنه وقبل أن يسترد وعيه تمامًا، راح يبحث عنى فى الفندق(*)، وأنهم سوف يعاملونه باعتباره مجنونًا ثم يشَّهِروا به فى موسكو، وأن أحدًا لن يُوليه اهتمامًا أو يهدئ من روعه بعد النوبة، وقد يثيرونه فيدفعونه لارتكاب عمل طائش، كل هذه الأفكار والهواجس راحت تعذبنى بلا توقف، ولم أصلٍ ولو مرة واحدة إلى اتخاذ قرار بالسفر إلى موسكو لأعيش إلى جواره، دون أن أظهر للناس، وإنما لرعاية فيودور ميخايلوڤيتش. ولكننى لم أستطع أن أتخذ هذا القرار لعلمى أنه سيصاب بالذعر لتركى الأطفال فى رعاية المربية. وقد طلبت من أصدقائى فى موسكو، أن يُبرقوا إلىّ على الفور، فى حالة إذا ما انتابت فيودور ميخايلوڤيتش نوبة، وعندئذ سوف أسافر إليه فى أول قطار. مرت أيام وأيام، وتأجل افتتاح التمثال، وازدادت الظروف السيئة التى أحاطت بفيودور ميخايلوڤيتش (استنادًا إلى خطاباته)[٢٥١]، ومعها ازدادت معاناتى النفسية. والآن، وبعد مرور زمن طويل على هذا الأمر، لا أستطيع أن أتذكر هذا الزمن دون إحساس بالمرارة.

هناك «مشهد» يعود إلى هذا الزمن، مشهد لم يكن يستحق التسجيل، لولا أن فيودور ميخايلوڤيتش ذَكَرَه فى خطابه، الذى كتبه مباشرة بعد عودته من الاجتماع، الذى استقبل فيه جمهور موسكو بحماس شديد فيودور ميخايلوڤيتش فى ذكرى بوشكين وقدَّروه تقديرًا رفيعًا. إننى أتحدث هنا عن شراء «مُهْر».

كان ابننا الكبير، فيديا، يحب الخيل بشدة، وحيث إنه كان يقضى أشهر الصيف فى ستاريا روسا، فقد كنا نخشى عليه دائمًا أن تصدمه الخيول: فعندما كان يبلغ من العمر

(*) كان فيودور ميخايلوڤيتش يأتى إلىّ دائمًا بعد نوبة الصرع، ولم يكن قد استرد وعيه تمامًا، إذ كان يعانى فى هذه اللحظات من فزع غامض. فكان وجود وجه قريب منه يهدئ من روعه (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)

عامين أو ثلاثة، كان ينفلت أحيانًا عن يدى مربيته، ويجرى نحو أى حصان غريب ويحتضنه من ساقه. ولحسن الحظ، كانت الخيول فى روسا خيولاً قروية، اعتادت أن يدور الأطفال حولها، ولهذا كانت الأمور تمر بسلام. وعندما اشتد عود الطفل، راح يطلب شراء حصان حقيقى. وقد وعده فيودور ميخايلوڤيتش بأن يحقق طلبه، ولكن لم تسمح الظروف بذلك. فى عام ١٨٨٠ اشتريت مُهرًا بمحض الصدفة وقد ندمت على ذلك فيما بعد ندمًا شديدًا. حدث ذلك على النحو التالى.

ذات يوم ذهبت إلى سوق المدينة فى الصباح المبكر ومعى الأطفال. وعندما كنا نسير على كورنيش نهر بيريريتيتسا، مرت بجوارها عربة مسرعة، جلس فيها فلاح منتشيًا بعض الشىء من أثر الخمر. وخلف العربة كان هناك مهر يجرى برشاقة لافتة، تارة يسبق الحصان، وتارة يتخلف عنه. رحنا نتأمل المهر، وعندما قال لى ابنى، إن هذا هو المهر الذى يحب أن يقتنيه. عندما وصلنا إلى الميدان بعد ربع ساعة، وقد لاحظنا أن هناك جمعًا من الفلاحين يقفون بالقرب من الحصان والمهر، وقد راحوا يتجادلون حول أمر ما. اقتربنا واستمعنا فعرفنا أن الفلاح المخمور يبيع المهر «دون سرج» ويطلب مقابله أربعة روبلات. ظهر مشترون بالفعل، ولكن نظرًا إلى رجاء ابنى وشفقة منى على المهر أن يقتلوه، عرضت ستة روبلات ليصبح ملكى. لم أكن على دراية بالخيل أو بشؤون الزراعة، وما إن غادر صاحب المهر المكان مسرعًا «ليتناول شرابا منعشا»، حتى بدأت فى سؤال الفلاحين عما إذا كان المهر سيعيش عندى دون أمه. وقد تعددت الإجابات: البعض أكد أنه لن يعيش، والبعض الآخر نصحونى بأنواع الغذاء التى علىّ أن أقدمها له، وقالوا، إنه سيكون لدىَّ حصانًا جيدًا لو أحسنت رعايته. على أى حال، لم يعد هناك مجال للتردد. وهكذا عدنا وراء العربة إلى البيت، وإلى جانبنا راح المهر يجرى. أبلغت زوجى فى نفس اليوم بقصة الشراء، وقد تصادف أن وصل خطابى إليه فى نفس اليوم الذى ألقى فيه خطابه الشهير، الذى قوبل بحماس شديد من جانب كل الموجودين فى الاجتماع! بعد أن قرأ فيودور ميخايلوڤيتش خطابى، وبتأثير مشاعر الحماس التى أحاطته، ذيَّل خطابه إلىّ بكلمة «قبلاتى إلى المهر»[٢٥٢]، إلى هذا الحد كان يشعر بالحاجة إلى أن يغمر الجميع بمشاعره الفياضة، وأن يهب الذين أساؤا إليه إحساس المحبة والفرح!

مرت الأيام الأولى على خير ما يرام، كان المهر يشرب فى اليوم خمس قصعات من اللبن، كان مرحًا وراح يجرى مع الأطفال مثل كلب أليف. لكن الأمور ساءت بعد ذلك. وقد وجد فيودور ميخايلوڤيتش، وكان على دراية بأحوال الخيل، أن المهر «مكتئب» وأرسل فى طلب البيطرى، الذى أعطانا بعض النصائح، ولكنها جاءت متأخرة، لأن المهر لفظ أنفاسه الأخيرة بعد ثلاثة أسابيع. أصيب الأطفال بالحزن، أما أنا فلم أستطع أن أسامح نفسى لشرائى مهرًا. صحيح أنه كان سيلقى نفس المصير، لو أنه ذهب إلى مالك آخر. لكننى لم أشعر بالذنب آنذاك، كما أشعر به الآن.

(٤)

عودة فيودور ميخايلوڤيتش من موسكو

أخيرًا جاء اليوم السعيد، بعد أن انتهت عذاباتى. فى الثالث عشر من يونيو عاد فيودور ميخايلوڤيتش إلى ستاريا روسا، فى حال من السعادة والحيوية، لم أعهده عليها من زمن طويل. لم تقع له فى موسكو نوبة واحدة من نوبات الصرع، بل إنه كان يشعر بالنشاط طوال الوقت بفضل التوتر العصبى. لم يتوقف عن الحكى عن الأحداث التى شاهدها والتى شارك فيها فى موسكو، كما لم أتوقف بدورى عن طرح كل أنواع الأسئلة. كم من أمور شيقة ذكرها، لم أجد مثيلاً لها فيما بعد فيما ذكره الآخرون بشأن عيد بوشكين! لقد استطاع فيودور ميخايلوڤيتش، على نحو شديد الخصوصية، أن يتذكر ما لاحظه فى فترة قصيرة. حكى لى، بالمناسبة، من الاجتماع الثانى والأخير (الذى كان ختامًا لكل احتفالات بوشكين) مرهقًا للغاية، سعيدًا على نحو لا يوصف بمأدبة الوداع التى أقامها له جمهور موسكو[٢٥٣] جلس يلتقط أنفاسه منهك القوى، ثم غادر المكان، فى ساعة متأخرة من الليل، متوجهًا مرة أخرى إلى تمثال بوشكين. كان الليل دافئًا وقد خلت الشوارع تمامًا من المارة. وفى ميدان ستراستنايا اقترب من التمثال ورفع

إكليل الغار الذى وضعه فى اجتماع الصباح، بعد أن ألقى خطابه، ليعيد وضعه أسفل تمثال «أستاذه العظيم»، ثم ليجثو أمامه على الأرض.

لقد تجمع كل شىء هنا ليهب فيودور ميخايلوڤيتش «دقائق من السعادة العظمى»، على حــد تعبيره: فرحــه الصــادق بفكرة أن روسيا أدركت وقدرت، أخيرًا، المغزى الرفيع لعبقرية بوشكين، وأقامت له تمثالاً فى «قلب روسيا»، فى موسكو. وعى الناس بأنه (دستويڤسكى ـ المترجم) العاشق لشاعر الشعب العظيم منذ شبابه الأول، استطاع بخطابه أن يعيد للشاعر اعتباره. وفى النهاية، فرحته الطاغية بإعجاب الجمهور بموهبته الشخصية وتصفيقهم المدوى له. كان فيودور ميخايلوڤيتش، وهو يقص علىّ انطباعاته عن تلك الأيام، يبدو كما لو كان يعيش هذه الأيام التى لا تنسى مرة أخرى[٢٥٤]

حكى لى فيودور ميخايلوڤيتش أيضًا أن أفضل مصور فوتوغرافى فى موسكو آنذاك، الفنان بانوف(*)، قد حضر إليه طالبًا منه أن يسمح له بتصويره. ولما كان زوجى متعجلاً فى مغادرة موسكو، فقد ذهب مع بانوف على الفور لالتقاط الصورة كسبًا للوقت. لقد عكست الصورة التى أخذها له الفنان كل الانطباعات التى تركتها على وجه زوجى أحداث الأمس المشهودة، وفى رأيى أن هذه الصورة التى نجح الفنان فى التقاطها، هى واحدة من أنجح الصور التى أخذت لفيودور ميخايلوڤيتش، من بين الصور المتنوعة التى التقطت له (بفضل تغير المزاج فيها). فى هذه الصورة تعرفت على هذا التعبير الذى رأيته مرارًا على وجه فيودور ميخايلوڤيتش فى أثناء معايشته دقائق من السعادة والسرور[٢٥٥]

ولكن، وبعد مرور عشرة أيام، إذا بالحالة النفسية لفيودور ميخايلوڤيتش تتغير بحدة؛ وكان المسؤول عن ذلك هو تلك التعليقات التى نشرتها الصحف، التى كان يطالعها يوميًا فى مكتبة مينيرالنى ڤودى. انهارت على فيودور ميخايلوڤيتش جبال من

(*) ميخائيل ميخايلوڤيتش بانوف (١٨٣٦ ـ ١٨٩٧): مصور فوتوغرافى من موسكو صوّر دستويڤسكى فى التاسع من يونيو عام ١٨٨٠، بعد خطابه عن بوشكين.

اتهامات الصحف والمجلات ومن أكاذيبها وافتراءتها وحتى شتائمها. هؤلاء الذين يمثلون الأوساط الأدبية، الذين أصاخوا، هم أنفسهم، السمع بفرح شديد إليه وهو يلقى خطابه عن بوشكين، وكانوا فى حالة من الذهول إلى درجة أنهم اندفعوا يصفقون بحرارة، وراحو يشدون على يديه بقوة. وفجأة، وكما لو أنهم ثابوا إلى رشدهم من أثر التنويم المغناطيسى، إذا بهم ينهالون على الخطاب بالشتائم وإهانة كاتبه. إن من يقرأ التعليقات التى كتبت آنذاك على خطاب بوشكين، سوف يغضب من جراء الوقاحة وعدم اللياقة، التى عومل بها فيودور ميخايلوڤيتش من جانب أولئك الذين كتبوها، ناسين أنهم كالوا الإهانات فى مقالاتهم لشخص صاحب موهبة كبيرة، ظل يعمل على مدى ثلاثين عامًا فى مجال اختاره لنفسه، شخص استحق احترام وحب عشرات الآلاف من القراء الروس(٢٥٦)

ينبغى القول، إن هذه الهجمات غير اللائقة أحزنت فيودور ميخايلوڤيتش وأشعرته بالإهانة، وقد أحس بسببهم بإحباط شديد، حتى أن نوبتى الصرع، التى تنبأت بهما، واللتين تأخر وقوعهما، ظلتا تحومان فى رأسه لمدة أسبوعين كاملين. وفى خطابه إلى أوريست ميللر المؤرخ السادس والعشرين أغسطس (*)١٨٨٠ كتب فيودور ميخايلوڤيتش قائلاً:

«انظر ماذا حدث لى من كل صحافتنا تقريبًا، بسبب كلمتى التى ألقيتها فى موسكو: كأننى ارتكبت سرقة، أو مارست احتيالاً، أو اقتحمت بنكًا من البنوك. حتى يوخانتسيف(**) لم يكن ليتعرض لهذا التشهير الذى تعرضت له»(٢٥٧)

لقد كان على فيودور ميخايلوڤيتش أن يتحمل الكثير والكثير من المصاعب من جانب الإخوة فى الوسط الأدبى!

(*) «چورنال چورنالوف» («مجلة المجلات»)، ١٩١٥، العدد الثانى (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(**) بطل أحد قضايا البنوك (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

على أن فيودور ميخايلوفيتش لم ير فى نفسه إنسانًا مهزومًا، وحيث أنه لم يكن يملك القدرة على الرد على كل هذا الهجوم الكاسح، فقد قرر أن يرد على شخص يمكن اعتباره جديرًا بأن يكون ندًّا له إذا دخل معه فى جدال أدبى، وهو تحديدًا ألكسندر جرادوفسكى(*)، البروفيسور بجامعة سان بطرسبورج، الذى كتب مقالاً بعنوان «الأحلام والواقع» (مجلة «جولوس» (الصوت)، ١٨٨٠، العدد ١٧٤)(٢٥٨) نشر فيودور ميخايلوفيتش رده فى العدد الوحيد من «مذكرة الكاتب»، الذى صدر فى عام ١٨٨٠، ونشر فيه أيضًا خطابه عن بوشكين، الذى نُشر فى البداية فى «وقائع موسكو»، والتى طلب الجمهور بشدة إعادة نشره. ولكى أتمكن من نشر هذا العدد اضطررت للسفر إلى العاصمة لمدة ثلاثة أيام. وقد نال عدد «المذكرة» الذى نشرت فيه مقالة «بوشكين» والرد العنيف على جرادوفسكى نجّاحا هائلاً. وقد تمكنت من بيع ستة آلاف نسخة من العدد قبل نزولها للأسواق، ومن ثم كان علىّ أن أصدر طبعة ثانية منه نفدت كلها فى الخريف.

وبعد أن رد فيودور ميخايلوفيتش على النقاد، شعر بالهدوء بعض الشىء وشرع فى الانتهاء من رواية «الإخوة كارامازوف». كان قد تبقى له الجزء الرابع من الرواية، ويبلغ حجمها حوالى عشرين ملزمة، وكان من الضرورى الانتهاء منها قبل حلول شهر أكتوبر، حيث إننا كنا ننتوى إصدار الرواية فى طبعة كاملة. وحتى يتسنى توفير مناخ مناسب للعمل بقينا فى ستاريا روسا حتى نهاية سبتمبر، الأمر الذى لم نندم عليه على أية حال، لأن الخريف كان رائعًا.

بعد عودتنا إلى بطرسبورج، تسنى لفيودور ميخايلوفيتش أن يشارك بالقراءة فى عدد من الأمسيات الأدبية(٢٥٩). وقد أقنع فيكتور بافلوفيتش جايفسكى، الذى شغل منصب رئيس الصندوق الأدبى آنذاك، والذى حضر الاحتفال ببوشكين واستمع فى إحدى

(*) ألكسندر ديمتريفيتش جرادوفسكى (١٨٤١ ــ ١٨٨٩): أستاذ القانون العام بجامعة بطرسبورج، كاتب وناقد.

الأمسيات إلى قراءة فيودور ميخايلوڤيتش لقصيدة «النبى» لبوشكين، أقنع زوجى بأن يعيد قراءتها فى الأمسية الأدبية التى ستقام لصالح الصندوق، فى العيد السنوى لمدرسة الليسيه، الموافق التاسع عشر من أكتوبر. كانت القراءة انتصارًا حقيقيًا لفيودور ميخايلوڤيتش: لقد بدا أن حوائط قاعة جمعية الائتمان راحت ترتج من التصفيق، بعد أن أنهى فيودور ميخايلوڤيتش قراءة القصيدة. ينبغى الاعتراف بأنها كانت حقًا قراءة فنية رفيعة المستوى، تركت فى نفوس المستمعين انطباعًا لا يمحى. وقد تسنى لى أن ألتقى بأناس من بين الجمهور الذى حضر الأمسية، بعد مرور عشرين عامًا، تذكروا جميعهم كيف نجح فيودور ميخايلوڤيتش فى قراءة هذه القصيدة العبقرية على نحو مدهش. وفى كل أمسيات القراءة التالية تقريبًا، على مدى عام ١٨٨٠، كان الجمهور يطلب حتمًا أن يقرأ عليه فيودور ميخايلوڤيتش قصيدة «النبى». وقد دفع النجاح العظيم للقراءة الأدبية، التى جرت فى التاسع عشر من أكتوبر عام ١٨٨٠، بفضل مشاركة فيودور ميخايلوڤيتش فى المقام الأول، دفع رئيس الصندوق الأدبى أن يقرر إعادة نفس القراءة بعد أسبوع، فى السادس والعشرين من أكتوبر. وفى هذه المرة وصل التصفيق الذى حيا به الجمهور فيودور ميخايلوڤيتش ذروته: لقد راح الجمهور يستدعيه بالتصفيق صائحًا «براڤو» طالبًا منه أن يعيد قراءة قصيدة «النبى»، ثم انتظره على الدرج مصفقا له، وهو يودعه إلى مدخل البناية. كان الحماس فى هذه المرة هائلاً، وقد تأثر فيودور ميخايلوڤيتش من أعماقه بهذا الشكل من أشكال التعبير القوى عن الفرح من جمهور عادة ما يبدو باردًا.

فى الحادى والعشرين من نوفمبر ١٨٨٠[*] نظم الصندوق الأدبى أمسية أدبية شارك فيها فيودور ميخايلوڤيتش أيضًا. ثم توالت القراءة لصالح طلاب جامعة بطرسبورج فى الثلاثين من نوفمبر، ثم لصالح جمعية مساعدة طلاب جامعة بطرسبورج، فى الرابع عشر من ديسمبر، وأخيرًا لصالح ملجأ القديسة كسينيا فى بيت الكونتيسة مينجرين،

(*) قرأ فيها فيودور ميخايلوڤيتش مقطعًا من «الأنفس الميتة» (ملاحظة لآنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

فى الثانى والعشرين من ديسمبر. وفى هذه القراءة الأخيرة، تمت دعوة فيودور ميخايلوڤيتش فى الاستراحة إلى إحدى الغرف الداخلية، بناء على رغبة الإمبراطورة ماريا فيودورڤنا(*)(٢٦٠)، وقد عبرت عن شكرها لفيودور ميخايلوڤيتش على مشاركته فى القراءة وبادلته أطراف الحديث لفترة طويلة.

كان الاشتراك فى القراءات الأدبية أمرًا مشوقًا وهامًا للغاية بالنسبة إلى فيودور ميخايلوڤيتش، وكان التصفيق المدوى المصاحب لقراءته عزيزًا على نفسه وسببًا من أسباب سعادته، ولكنها، للأسف، كانت تثير اضطرابه وتستنفد منه جهدًا كبيرًا لم يكن يملك منه إلا القليل.

فى قصول الشتاء الأخيرة كان شبابنا العطوف يولى فيودور ميخايلوڤيتش بصفة خاصة محبة شديدة، وكان يتلقى بشكل دائم بطاقات تكريم لحضور حفلات الموسيقى والباليه، التى كانت تقام فى المؤسسات التعليمية العليا. كان فيودور ميخايلوڤيتش محاطًا دائمًا فى هذه الحفلات بالناس. كان الشباب يسير خلفه فى جماعات، ملقين عليه بالأسئلة، وكان يجيب عنها وكأنه يلقى بالخطب؛ وأحيانًا ما كان يدخل معهم فى جدل، فيستمعون إلى ردوده بحب استطلاع شديد. هذا التواصل الحى مع الشباب، الذى أحبه قدر موهبته، كان أمرًا جذابًا لفيودور ميخايلوڤيتش.. وكان يعود بعد هذه المحاورات بحماس متجدد ليقص علىّ، رغم شعوره بالتعب الجسمانى، تلك التفاصيل التى كانت تضفى على أحاديثه دائمًا متعة فائقة.

فى مطلع شهر ديسمبر من عام ١٨٨٠ صدرت رواية «الإخوة كارامازوف فى طبعة كاملة، بلغ عدد نسخها ألف نسخة. وقد أحرزت هذه الطبعة نجاحا كبيرًا على الفور. وخلال بضعة أيام إشترى القراء نصف الكمية. بالطبع، فقد تأكد فيودور ميخايلوڤيتش من هذا الاهتمام الذى أثارته روايته الجديدة. كان من الممكن وصف هذا الأمر بالحدث السار الأخير فى حياته المترعة بكل أنواع المصائب والنكبات.

(*) الإمبراطورة ماريا فيودوروڤنا: زوجة القيصر ألكسندر الثالث.

الجزء الحادى عشر

الوفاة. الدفن

لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش بطبيعته، شخصًا ميالاً إلى العمل إلا نادرًا. وأتصور أنه لو كان شخصا ذو ثراء، غير مضطر للسعى وراء المال من أجل أن يعيش. لظل، ربما، بلا عمل، ولوجد دائما موضوعات للعمل الأدبى الدؤوب.

بحلول مطلع عام ١٨٨١ ، انتهينا من سداد ديوننا التى ظلت تعذبنا طويلاً، بل كان لدينا أيضًا رصيد مالى لدى مجلة «البشير الروسى» عن أعمال أديناها، بلغت قيمتها حوالى خمسة آلاف روبل. بدا الأمر كما لو أننا لم نعد بحاجة ملحة إلى العمل، لكن فيودور ميخايلوڤيتش لم يشأ أن يركن للراحة. لقد قرر أن يشرع من جديد فى العمل على إصدار «مذكرة الكاتب»، إذ إنه بعد كل هذه السنوات العجاف، تراكمت لديه كثير من الأفكار المؤرقة عن الواقع السياسى لروسيا، وقد وجد أنه لن يستطيع أن يعبر عنها فى حينه إلا فى مجلته. وبالإضافة إلى ذلك، فإن النجاح المدوِّى للعدد الوحيد من «مذكرة الكاتب»، الذى صدر عام ١٨٨٠ ، أيقظ فينا الأمل فى أن يجد الإصدار الجديد من المجلة جمهورًا واسعًا من القراء، وبطبيعة الحال كان فيودور ميخايلوڤيتش يعتز اعتزازا شديدا بأفكاره الحميمة، وقد افترض أن يقوم بإصدار «مذكرة الكاتب» على مدى عامين، يبدأ بعدها فى تحقيق حلمه بكتابة الجزء الثانى من «الإخوة كارامازوف»، حيث يعود أبطاله القدامى كلهم تقريبًا إلى لظهور، ولكن بعد مرور عشرين عامًا، فى

العصر الحديث، حيث يصبح بإمكانهم، ربما، أن يقدموا الكثير، وأن يواجهوا الكثير أيضًا فى حياتهم، تُظهر الخطة المستقبلية، التى وضعها فيودور ميخايلوڤيتش، بناء على قصصه وملاحظاته، أنها كانت خطة هامة وشيقة على نحو غير عادى، وللأسف الشديد لم يكتب لهذه الرواية أن تظهر للوجود[٢٦١].

سارت الاشتراكات، التى تم الإعلان عنها فى «مذكرة الكاتب» على نحو جيد، وبحلول العشرين من يناير بلغ عدد المشتركين حوالى....[*]

كان لدى فيودور ميخايلوڤيتش عادة حميدة تتمثل فى إحجامه عن اعتبار نقود الاشتراكات ملكًا خاصًا له، قبل أن يلبى طلبات المشتركين، ولذلك فتح حسابًا فى بنك الحكومة باسمى، كنت أضع فيه النقود التى نتسلمها من الاشتراكات، وبفضل ذلك كان لدىّ إمكانية إعادة الأموال للمشتركين على وجه السرعة إذا لزم الأمر.

فى النصف الأول من شهر يناير كان فيودور ميخايلوڤيتش فى صحة جيدة، كان يزور أصدقاءه، بل وافق أيضًا على الاشتراك فى المسرحية المنزلية التى اقتُرح تنظيمها فى بيت الكونتيسة صوفيا تولستايا فى مطلع الشهر التالى. كان الحديث يدور حول عرض مشهدين أو ثلاثة من ثلاثية الأمير ألكسى تولستوى، وقد أخذ فيودور ميخايلوڤيتش على عاتقه القيام بدور الراهب فى مسرحية «موت إيڤان الرهيب».

توقفت نوبات الصرع لمدة ثلاثة أشهر، الأمر الذى جعل من مظهره النشط وحيويته يحيى الأمل فى نفوس الجميع أن شتاء هذا العام سيمر بسلام. وبدءا من منتصف شهر يناير شرع فيودور ميخايلوڤيتش فى العمل فى عدد يناير من «مذكرة الكاتب»، التى أراد أن يعبر فيها عن أفكاره وأمنياته بخصوص «المجلس المحلى». كان موضوع المقالة من هذا النوع الذى من المحتمل ألا تسمح الرقابة بتمريره[٢٦٢]، وهو ما كان يثير قلق فيودور ميخايلوڤيتش. وقد بلغ نبأ هذا القلق نيكولاى ساڤيتش أباظة[**]، وذلك من

(*) فقرة مفقودة فى المخطوطة.

(**) نيكولاى ساڤيتش أباظة (١٨٣٧ـ١٩٠١): سيناتور، عضو مجلس الدولة، فى ١٨٨٠ـ١٨٨١ عمل رئيسًا لإدرة البريد، قام برقابة الإصدار الأخير «لمذكرة الكاتب».

خلال الكونتيسة صوفيا تولستايا، وكان أباظة قد تم تعيينه للتو رئيسًا للجنة الرقابة، فطلب من الكونتيسة إبلاغ فيودور ميخايلوڤيتش ألا يخشى شيئًا، إذ إنه سوف يقوم بنفسه بالرقابة على مقالته. وفى الخامس من عشرين من يناير كانت المقالة جاهزة وتم إرسالها للمطبعة لجمعها، ومن ثم لم يبق إلا مراجعتها المراجعة الأخيرة وتسليمها للرقيب، ثم طبعها لتصدر فى عدد «المذكرة» فى اليوم الأخير من الشهر.

كان الخامس والعشرون من يناير موافقًا الأحد، وكان لدينا زوار كثيرون. جاء إلينا البروفيسور أوريست ميللر وطلب من زوجى أن يقرأ فى التاسع والعشرين من يناير، فى ذكرى وفاة بوشكين، فى الأمسية الأدبية، التى ستقام لصالح الطلاب. وحيث إن زوجى لم يكن يعلم بعد بمصير مقاله حول «المجلس المحلى»، وإذا ما كان عليه أن يستبدل بها غيرها، فقد رفض فى البداية الاشتراك فى الأمسية، ولكنه وافق فيما بعد. كان فيودور ميخايلوڤيتش، كما لاحظ كل ضيوفنا، ممتلئا بالصحة، مرحًا، ولم يكن هناك أى شىء ينبئ بما حدث له بعد بضع ساعات.

فى صباح السادس والعشرين من يناير، استيقظ فيودور ميخايلوڤيتش، كعادته، فى الساعة الثانية، وعندما دخلت إلى غرفته، حكى لى أن حادثًا صغيرًا قد وقع له فى الليل: فقد سقطت حاملة ريشة الكتابة على الأرض وتدحرجت تحت المكتبة (وكان شديد الاعتزاز بهذه الحاملة لأنه كان يستخدمها؛ فضلاً عن الكتابة، لحشو سجائره)؛ وحتى يتمكن من استعادتها، فقد اضطر لتحريك المكتبة جانبًا. كانت المكتبة، بداهة، ثقيلة مما اضطره إلى أن يبذل جهدًا كانت نتيجته أن اندفع الدم فجأة من الشريان الرئوى ليصعد إلى فمه، وحيث إن كمية الدم لم تكن كبيرة، فإن زوجى لم يول الأمر اهتمامًا زائدًا، حتى أنه لم يرغب أن يوقظنى فى الليل. انزعجت بشدة، ودون أن أخبره بشىء، أرسلت صبينا الصغير بيوتر فى طلب الطبيب ياكوف بوجدانوڤيتش بريتسل، الذى كان يتولى علاج زوجى بشكل دائم، للحضور على عجل، وللأسف لم يستطع الطبيب الذهاب إلى مرضاه إلا بعد الخامسة.

كان فيودور ميخايلوفيتش هادئًا تمامًا وقد راح يتحدث ويمازح الأطفال ثم أخلد لقراءة «العصر الحديث». وفى حوالى الساعة الثالثة حضر إلينا أحد الزوار وكان شخصًا طيبًا من الذين يودهم زوجى، إلا أن هذا السيد كانت له خصلة سيئة، إذ كان دائمًا حادًا فى جدله. وعندما راح يتحدث وزوجى بشأن المقالة المزمع نشرها فى «المذكرة»، إذا به يبدأ فى إثبات شىء ما، وقد اعترض عليه زوجى، الذى كان ما يزال تحت تأثير الخوف من النزيف الذى فاجأه بالليل، وسرعان ما حمى الجدل بينهما. ذهبت محاولاتى فى تهدئة الجدل بينهما سدى، على الرغم من أننى أخبرت الضيف مرتين أن فيودور ميخايلوفيتش ليس على ما يرام وأن كثرة الحديث والصياح أمور ضارة بصحته. وأخيرًا، وفى حوالى الساعة الخامسة، انصرف الضيف وتأهبنا للذهاب إلى تناول طعام الغداء، وإذا بفيودور ميخايلوفيتش يجلس فجأة على أريكته، ثم يصمت ساكنا لمدة ثلاث دقائق، وفجأة، ويا لهول ما رأيت، تتخضب ذقن زوجى بالدم ويروح تيار رفيع من الدم ينساب على لحيته(٢٦٣)

صرخت بشدة، وعلى صرختى هرعت إلىّ الخادمة ومعها الأطفال. على أية حال لم يكن فيودور ميخايلوفيتش مرتاعًا، بل على العكس راح يحاول إقناعى أنا والأطفال بالتزام الهدوء؛ ثم اقتاد الأطفال إلى مكتبه وراح يعرض عليهم العدد الأخير من مجلة «اليعسوب». الذى تلقاه لتوه، حيث كان هناك رسم كاريكاتورى لاثنين من الصيادين تعثرا فى شبكتهما ليسقطا فى المياه(٢٦٤) لم يقتصر الأمر على ذلك، بل إنه راح يقرأ على الأطفال أبياتًا منشورة من الشعر بصورة مضحكة، حتى أن الطفلين هدءا وكفا عن البكاء. ساد الهدوء البيت لما يقرب من ساعة، وها هو الطبيب يصل، وكنت قد أرسلت فى طلبه مرة أخرى. عندما بدأ الطبيب فى الفحص ونقر صدر المريض بإصبعه، إذا بالنزيف يعود إليه مرة أخرى وبقوة فى هذه المرة، حتى أن فيودور ميخايلوفيتش فقد وعيه. وعندما أفاق كانت الكلمات الأولى التى قالها لى:

ــ آنيا، أرجوك، أرسلى بسرعة فى طلب القس، أريد أن أعترف وأن أتناول القربان!

وعلى الرغم من أن الطبيب راح يؤكد أنه لا يوجد أى خطر، فإننى قمت على تنفيذ رغبة زوجى لأهدئه. كنا نسكن بالقرب من كنيسة ڤلاديميريسكايا، وقد وصل إلينا الأب ميجورسكى بعد نصف ساعة. استقبل فيودور ميخايلوڤيتش القس بكل هدوء وانشراح، واعترف اعترافًا طويلاً وتناول القربان. ما إن غادر القس البيت، حتى دخلت ومعى الأطفال إلى غرفة فيودور ميخايلوڤيتش لأهنئه بتناول الأسرار المقدسة، وهنا باركنى أنا والأطفال ودعا لهم بحياة آمنة وأن يحبوا بعضهم بعضًا، وأن يحبونى ويعتنوا بى. وبعد أن صرف فيودور ميخايلوڤيتش الأطفال، شكرنى على السعادة التى أعطيتها له، ورجانى أن أسامحه، إذا كان قد أغضبنى لسبب ما. وقفت أمامه بين الحياة والموت، لا أملك من القوة لأقول له أى شىء. دخل الطبيب وأرقد المريض على الأريكة، ومنعه من إتيان أقل حركة أو الحديث وطلب أن نبعث فى طلب طبيبين، أحدهما من معارفه، أ. أ. بفيفر، والبروفيسور ديمترى كوشلاكوف، الذى كان زوجى يستشيره أحيانًا فى مرضه. وما إن أدرك كوشلاكوف من مذكرة الطبيب فون بريتسل، أن حالة المريض سيئة، حتى حضر على الفور. وفى هذه المرة لم يعودا مرة أخرى لفحص المريض، وقرر كوشلاكوف، أنه ما دام أن النزيف لم يكن حادًا نسبيًا (ما يقرب من فنجانين أو ثلاثة)، فمن المحتمل أن يحدث «تخثر»، وأن تتحسن حالته. ظل الطبيب فون بريتسل يراقب فيودور ميخايلوڤيتش فى فراشه طوال الليل، وكان زوجى يبدو أنه ينام فى هدوء، أما أنا فقد أخذتنى سنة من النوم عند انبلاج الصبح فقط.

مر السابع والعشرين من يناير هادئًا لا يعكر صفوه شىء: لم يتكرر النزيف، بدا فيودور ميخايلوڤيتش هادئًا مرحًا، طلب رؤية الأطفال وتحدث إليهم همسًا. وفى منتصف النهار أعرب عن عدم ارتياحه بشأن «المذكرة»، وقد حضر مُرتِّب الطباعة من مطبعة سوڤورين وأحضر معه التصحيح النهائى. وقد اتضح أن هناك ضرورة لحذف سبعة أسطر حتى تصبح المادة كلها من ملزمتين تامتين. انتاب زوجى القلق، لكننى اقترحت أن نختصر بضعة أسطر من الصفحات الأولى، وهو ما وافق زوجى عليه. وعلى الرغم من أننى احتجزت مرتِّب الطباعة حوالى نصف ساعة، فإن فيودور

ميخايلوڤيتش رأى بعد تصحيحين قرأتهما عليه، أن الأمر أصبح على ما يرام. وقد عرفت من المُرتِّب أن بروفة العدد قد أُرسلت إلى نيكولاى ساڤيتش أباظة، وأنها أُجيزت، وقد أثلج ذلك صدر فيودور ميخايلوڤيتش.

وفى هذه الأثناء انتشر خبر مرض فيودور ميخايلوڤيتش فى أنحاء المدينة، وبدءًا من الثانية ظهرًا وحتى وقت متأخر من المساء ظل قرع الجرس مستمرًا، حتى اضطررت لربطه جاء إلى البيت للاطمئنان على صحة فيودور ميخايلوڤيتش من يعرفهم ومن لا يعرفهم، جاؤوا ومعهم خطابات يعبرون فيها عن تعاطفهم معه، وآخرون أرسلوا برقيات. كانت زيارة المريض ممنوعة، وكنت أخرج للزائرين لمدة دقيقتين أو ثلاث لأخبرهم بحالة المريض. كان فيودور ميخايلوڤيتش مسرورًا للغاية بهذا الاهتمام والتعاطف العام، وكان يسألنى همسًا، ويملى علىّ أحيانًا بضع كلمات ردًا على خطاب ما مؤثر. وقد حضر البروفيسور كوشلاكوف ووجد أن الحالة الصحية أفضل كثيرًا، وطمأن المريض، أنه خلال أسبوع سوف يتمكن من القيام من الفراش، وأنه سيشفى تمامًا فى خلال أسبوعين. وأمره أن ينام أكثر قدر استطاعته؛ ولهذا فقد كان بيتنا بمن فيه يركن للهدوء والنوم مبكرًا للغاية. وحيث إننى قضيت البارحة جالسة على الكرسى ولم يغمض لى جفن، فقد وضعت فى الليلة التالية حشية على الأرض، إلى جوار الأريكة التى ينام عليها زوجى، حتى يسهل عليه استدعائى. ولمّا كنت مرهقة من جراء الأرق الذى عانيته فى الليلة السابقة، فقد استغرقت فى النوم فى الحال. استيقظت بضع مرات، وعلى ضوء القنديل الخافت رأيت زوجى العزيز المريض نائمًا. استيقظت فى حوالى السابعة صباحًا لأرى زوجى ناظرًا باتجاهى.

ـــ حسنًا، كيف حالك يا عزيزى؟ سألته وقد التفت ناحيته.

ـــ تعرفين يا آنيا، قال فيودور ميخايلوڤيتش بصوت خفيض، لم أنم منذ ثلاث ساعات، كنت أفكر طوالها، والآن فقط أدركت بوضوح، أننى سأموت اليوم.

ـ يا عزيزى، لماذا تفكر فى ذلك؟ قلت له وأنا فى حالة من القلق الشديد، إنك الآن أفضل، توقف النزيف، ومن البدهى، أن «تخثرًا» قد حدث، كما أخبرنا كوشلاكوف. بالله عليك، لا تعذب نفسك بالشكوك، ستعيش طويلاً، أؤكد لك!

ـ كلا، أنا أعرف، يجب أن أموت اليوم. أشعلى شمعة يا آنيا، وأعطنى الإنجيل!

كان هذا الإنجيل قد أُهدِى لفيودور ميخايلوڤيتش فى توبولسك (عندما كان فى طريقه إلى المعتقل) من زوجات الديسمبريين (براسكوڤيا أنينكوفا، ابنتها أولجا إيڤانوڤا، ناتاليا ديمتريڤنا مورافيوڤا ـ أبوستول[٢٦٥]، فون فيزينا). وهؤلاء رحن يتوسلن إلى حارس المعتقلين أن يسمح لهن بأن يلتقين بالمجرمين السياسيين القادمين من بعيد، وقد قضين معهن ساعة و«باركننا فى طريقنا الجديد، ورسمن علينا علامة الصليب، وأهدوا لكل واحد منا الإنجيل ـ الكتاب الوحيد المسموح به فى المعتقل»[*] لم يفترق فيودور ميخايلوڤيتش عن هذا الكتاب المقدس طوال السنوات الأربع التى قضاها فى الأعمال الشاقة[٢٦٦]. بعد ذلك ظل هذا الكتاب على مقربة دائمًا من زوجى على مكتبه، وكثيرًا ما كان يفتحه كيفما اتفق، عندما كان يفكر أو تنتابه الشكوك فى أمر ما، فيقرأ أول ما تقع عليه عيناه فى الصفحة (على اليسار). والآن كانت لدى فيودور ميخايلوڤيتش الفرصة لأن يتأكد من شكوكه مستخدمًا الإنجيل، قام بنفسه وفتح الكتاب وطلب منى أن أقرأ.

فُتِح أمامى إنجيل متى. الإصحاح الثالث، الصفحة الثانية: «ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى إلىّ؟ فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر»[**].

(*) «المسنون»، «مذكرة الكاتب»، ١٨٧٣ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(**) فى طبعة الإنجيل الصادرة فى عشرينيات القرن الماضى (التاسع عشر ـ المترجم) توجد كلمة «اسمح». فى الطبعات الحديثة استبدلت بكلمة «أتركنى» هذا الموضع من الإنجيل تحديدًا ورد فى الطبعات التالية بالكلمات الآتية: «أمسك به يوحنا قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى إلىّ؟ فأجاب يسوع وقال له: اتركنى الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر».

ــ هل تسمعين ــ «اسمح الآن» ــ هذا يعنى أننى سأموت، قال زوجى ذلك وأغلق الكتاب.

لم أتمالك نفسى من البكاء، بينما راح فيودور ميخايلوڤيتش يهدئ من روعى بكلمات حنونة رقيقة، شكرنى على الحياة السعيدة التى عاشها معى وأوصانى بالأطفال قائلاً إنه يثق فى ويأمل أن أظل أحبهم دائمًا وأن أرعاهم، ثم قال لى كلمات يندر بين الرجال من يستطيع أن يقولها لزوجته بعد أربعة عشر عامًا من الحياة الزوجية.

ــ تذكــرى يا آنيــا، لقد أحببتــك دائمًا حبــًا شديدًا، ولم أخنك أبدًا حتى فى أفكارى!

كنت فى حالة بالغة من التأثر بكلماته المخلصة، ولكننى كنت أيضًا مضطربة خشية أن يصيبه التأثر بأى ضرر. توسلت إليه ألاَّ يفكر فى الموت، وألاَّ يكدرنا بشكوكه، وطلبت منه أن يستريح وأن يخلد للنوم. أطاعنى زوجى، توقف عن الحديث، لكن وجهه وقد كسته السكينة كان يوحى بوضوح أن فكرة الموت لم تفارقه، وأن انتقاله إلى العالم الآخر أمر لا يخيفه.

كان لكلمات الإنجيل التى فتحت أمام فيودور ميخايلوڤيتش معنى ومغزى عميقين فى حياتنا. لعله كان من الممكن أن يبرأ زوجى من مرضه بعد فترة من الوقت، لكن برأه لم يكن ليستمر طويلاً: ومن المعروف أن العمل الإجرامى الذى وقع فى أول مارس[٢٦٧]، كان من شأنه دون شك أن يهز فيودور ميخايلوڤيتش بقوة، وكان يحب القيصر ــ محرر الفلاحين؛ وربما انفجر آنذاك شريانه الرئوى الهش، ولو وافته المنية. بالطبع فقد كان من المتوقع أن تترك وفاته فى هذا الوقت العصيب أثرًا كبيرًا، ولكنه لم يكن ليصبح ذا أثر هائل كالذى حدث له بعد وفاته بالفعل (فى يناير ــ المترجم): كانت أفكار المجتمع كلها ستصبح مشغولة بالتفكير فى هذا العمل الوحشى، وفى النتائج الوخيمة التى يمكن أن تنشأ فى تلك اللحظة المأسوية من حياة الدولة. فى يناير ١٨٨١، عندما بدا أن كل شىء هادئ، تأتى وفاة زوجى باعتبارها «حدثًا اجتماعيًا»؛ لقد بكاه أناس من مختلف الاتجاهات السياسية، أناس من كل طبقات المجتمع. وقد حظى بموكب جنائزى استثنائى ودفن فى احتفال مهيب اجتذب جمهورًا عريضًا من القراء والمعجبين، وحتى من بين الذين كانوا من غير المهتمين بالأدب الروسى.

وهكذا اكتسبت الأفكار السامية لزوجى انتشارًا أوسع وحظيت بتقدير رفيع يليق بموهبته.

بعد وفاة القيصر ــ المحرر الرحيم، كان من الممكن ألا تحظى أسرتنا بالعطف السامى الإمبراطورى، الذى تحقق بفضله حلم زوجى الدائم بأن ينال أطفالنا تعليمًا جيدًا، ليتمكنوا فى النهاية أن يصبحوا خدمًا مفيدين للقيصر وللوطن (ملاحظة لآنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)

وفى حوالى الساعة العاشرة صباحًا، استغرق فيودور ميخايلوڤيتش فى نوم هادئ وقد تشبث بيدى. جلست لا أحرك ساكنًا خشية أن توقظه فجأة أى حركة، لكن زوجى استيقظ فجأة. نهض عن الوسادة نصف نهوض، وإذا بالنزيف يعود من جديد. كنت فى حالة من الحزن الشديد، على الرغم من أننى حاولت أن أبدو نشيطة. أكدت لزوجى أنه نزف قليلاً من الدم وسوف يتكون، على الأرجح تخثرا كما حدث قبل ذلك. اكتفى فيودور ميخايلوڤيتش بأن هز رأسه فى أسىً ردًا على كلماتى المطمئنة، وكان مقتنعًا تمامًا بأن نبوءته عن موته اليوم ستتحقق.

بحلول منتصف النهار بدأ الأقارب والمعارف والغرباء فى التوافد، وتلقينا الكثير من الخطابات والبرقيات. وقد حضر أيضًا ربيب فيودور ميخايلوڤيتش، وكنت قد أرسلت إليه خطابًا أخبره فيه بمرض زوجى. أصرَّ باڤل ألكسندروڤيتش على الدخول إلى المريض، لكن الطبيب لم يسمح له، وعندئذ راح ينظر إلى الغرفة من فتحة الباب. انتبه فيودور ميخايلوڤيتش إليه وهو يختلس النظر، اضطرب وقال لى: «آنيا، لا تسمحى له بالمجىء إلىّ، إنه يثيرنى!»

فى هذه الأثناء، ازداد باڤل ألكسندروڤيتش إيسايف توترًا وراح يحدث الجميع، الذين جاؤوا ليتعرفوا على حالة فيودور ميخايلوڤيتش، المعارف منهم والغرباء، أن «والده» لم يترك وصية، وأنه يجب إحضار كاتب العقود إلى البيت حتى يستطيع فيودور ميخايلوڤيتش أن يوصى بنفسه بما يملكه. عندما علم البروفيسور كوشلاكوف، الذى جاء لمتابعة المريض من الربيب نيته استدعاء كاتب العقود، اعترض على ذلك وأعلن أن من الضرورى الحفاظ على قوة المريض بكل وسيلة، لأن مثل هذا المشهد العملى، حيث يُطلب منه التوصية والشرح، لايمكن إلا أن يدفع بفكرة موته السريع إلى الأمام، وأن أى انفعال يمكن أن يقتل المريض.

فى حقيقة الأمر، لم تكن هناك حاجة إلى وصية، فالحقوق الأدبية لمؤلفات فيودور ميخايلوڤيتش قد أهداها إلىّ زوجى قبل ذلك فى عام ١٨٧٣ وباستثناء خمسة آلاف روبل كانت لدى هيئة تحرير «البشير الروسى»، لم يكن فيودور ميخايلوڤيتش يملك أى شىء، أما ورثة هذا المبلغ الصغير فكانوا نحن، أى أنا والأطفال.

لم أبتعد دقيقة واحدة طوال اليوم عن زوجى؛ كان يمسك يدى بيده ويقول لى هامسًا: «مسكينة... عزيزتى... لمن تركتك... مسكينة... كم ستكون حياتك صعبة!...».

رحت أهدئ من روعه وأبعث بالأمل فى الشفاء فى نفسه، ولكن كان من الواضح أنه لا يملك ذرة واحدة من الأمل، وكانت فكرة أنه سيترك أسرته دون مورد تقريبًا تعذبه. فلم نكن نملك سوى أربعة أو خمسة آلاف روبل لدى هيئة تحرير «البشير الروسى».

همس لى عدة مرات قائلاً: «نادى على الأطفال». ناديت، مد زوجى شفاهه إليهم، قبّلوه، ثم خرجوا على الفور بأمر من الطبيب، أما فيودور ميخايلوڤيتش فقد ودعهم بنظرة حزينة، وقبيل وفاته بساعتين، جاء الأطفال إليه بناء على دعوته، فطلب إعطاء الإنجيل لابنه فيديا.

فى أثناء اليوم حضر إلينا جمهور من شخصيات مختلفة، لم أخرج لمقابلتهم. جاء أبوللون نيكولايڤيتش مايكوف وتحدث بعض الوقت مع فيودور ميخايلوڤيتش، الذى راح يرد تحيته همسًا.

وفى حوالى السابعة تجمع لدينا العديد من الضيوف، جلسوا فى غرفتى الاستقبال والمائدة ينتظرون كوشلاكوف، الذى اعتاد أن يأتى إلينا فى هذا الوقت. وفجأة ودون أى مقدمات، أخذت فيودور ميخايلوڤيتش رجفة، نهض على أثرها بالكاد من الأريكة لينساب شريط أحمر من الدم مخضبًا وجهه. رحنا نناوله قطعًا من الثلج، لكن النزيف لم يتوقف. فى هذا الوقت تقريبًا وصل مايكوف مرة أخرى ومعه زوجته أنّا إيڤانوڤنا التى قررت الذهاب لإحضار الطبيب ن. ب. تشيريبنين. كان فيودور ميخايلوڤيتش فاقدًا للوعى، بينما جثوت أنا والأطفال عند رأسه نبكى، كنا نبذل قصارى جهدنا حتى لا ننفجر فى النحيب بصوت عال، فقد حذرنا الطبيب من أن الحاسة الأخيرة التى تبارح الإنسان هى السمع، وأن كل خرق للهدوء قد يطيل أمد الاحتضار ويزيد من عذاب المحتضر. كنت أمسك يد زوجى بيدى، وأحس بنبضه يتلاشى أضعف فأضعف، وفى

الساعة الثامنة وثمان وثلاثين دقيقة مساء(*) انتقل فيودور ميخايلوفيتش إلى الخلود. لم يستطع الطبيب تشيريبنين أن يلحق، اللهم إلا بسماع دقات قلبه الأخيرة(**).

عندما حانت لحظة النهاية، أطلقت وأطفالى العنان لأحزاننا: بكينا وانتحبنا وأطلقنا بعض الكلمات، قبَّلنا وجه الراحل الغالى ويديه التى كانت ما تزال دافئة. كان كل شىء يبدو لى مبهمًا، لكن شيئًا واحدًا كنت أعيه بشكل واضح، هو أنه ومنذ هذه اللحظة انتهت حياتى الخاصة المليئة بالسعادة التى لا حدود لها، وأننى أصبحت يتيمة روحيًا إلى الأبد، أنا التى أحبت زوجها حبًا شديدًا مخلصًا، والتى أفخر بحب وصداقة واحترام هذا الإنسان النادر ذى الصفات الاخلاقية الرفيعة، والذى لا يعوض فقدانه أى شىء. وفى هذه اللحظات الرهيبة حقًا للفراق يبدو لى أننى لن أتحمل وفاة زوجى، وأن قلبى يكاد ينفطر (كم يخفق هذا القلب الآن بشدة بين جوانحى) وأننى سأفقد عقلى على الفور.

بالطبع، فإن كل إنسان عانى فى حياته، ولكن هؤلاء يعانون أحزانهم النفسية فى هذه اللحظات التى لا تنسى، فى معظم الأحوال، وهم بين ذويهم، بين أحبائهم وأقاربهم، عندها تكون لديهم إمكانية أن يعبروا عن مشاعرهم التى تؤرقهم قدر استطاعتهم، وعلى النحو الذى يريدونه، دونما خجل أو تحفُّظ. لم يكن من نصيبى أن أنال هذه السعادة الكبرى: لقد توفى زوجى الغالى فى حضور جمع غفير من الناس، جزء منهم كانوا يكنون له الاحترام العميق، لكن جزءًا آخر كان لا مباليًا تمامًا تجاهه، وتجاه الحزن الذى لا يخبو أواره فى أسرتنا التى تيتمت. وكأن الظروف شاءت أن تزيد من وطأة أحزانى، إذا بى أجد بين الحضور الأديب بوليسلاف ماركيفيتش(***)، الذى لم يزرنا

(*) أحد الحضور (لعله ماركيفيتش) سجل بدقة لحظة الوفاة (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

(**) أخبرنى نيكولاى بتروفيتش تشيريبنين منذ عدة سنوات مضت أنه ما يزال يحتفظ بالسماعة الطبية التى استخدمها باعتبارها أثرًا هامًا (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

(***) بوليسلاف ميخايلوفيتش ماركيفيتش (١٨٢٢ـ١٨٨٤): كاتب رجعى، كاتب روايات ظهرت فى «البشير الروسى» هاجم فيها العدميين.

مرة واحدة، يأتى الآن بناء على رغبة الكونتيسة صوفيا تولستايا ليعرف على أية حالة وجد الطبيب فيودور ميخايلوڤيتش. ولمعرفتى بماركيڤيتش فقد كنت على يقين أنه لن يتمالك نفسه عن وصف الدقائق الأخيرة من حياة زوجى، وقد كنت أشعر بالأسف أن وفاة شخص عزيز على قلبى لم تحدث فى هدوء، على انفراد، بين أناس يخلصون له من أعماق قلوبهم. وقد تحققت مخاوفى: علمت بكل أسًى فى اليوم التالى، أن ماركيڤيتش أرسل إلى مجلة «وقائع موسكو» وصفًا «فنيًا» للحدث المؤسف الذى وقع. وبعد يومين أو ثلاثة قرأت المقالة نفسها («وقائع موسكو»، العدد ٣٢) ولم أتعرف على الكثير مما جاء بها. لم أتعرف على نفسى فى تلك الأحاديث، التى بدت وكأنها وضعت على لسانى، فقد كانت بعيدة كل البعد عن شخصيتى وعن مزاجى النفسى فى تلك الدقائق الحزينة الخالدة [٢٦٩]

لكن الله الرحيم أنزل على السكينة: فى هذا المساء الحزين، وفى حوالى الساعة العاشرة، وصل أخى العزيز إيڤان جريجوريڤيتش سنيتكين. كان قد جاء من الريف فى بعض شؤونه متجهًا إلى موسكو، وبعد أن عزم أمره على العودة إلى بيته، فكر دون سبب ظاهر، فى الذهاب إلى بطرسبورج لمقابلتنا. صحيح أنه كان قد قرأ فى إحدى الصحف عن مرض فيودور ميخايلوڤيتش، لكنه لم يول هذا الخبر أهمية كبرى، مفترضًا أن زوجى كثيرًا ما تقع له نوبة صرع مزدوجة. كان قطاره قد تأخر فقرَّر، بعد أن أقام فى أحد الفنادق، أن يأتى لزيارتنا مساء. وبعد أن وصل إلى مدخل بيتنا، لاحظ بدهشة أن جميع نوافذ شقتنا مضاءة بشدة، وأن شخصين مثيرين للشبهة يرتديان ما يشبه القفطان يقفان عند المدخل. أحدهما أسرع خلف أخى على السلم وقال له بصوت خفيض:

ـــ أيها السيد، من فضلك، اطلب منهم أن يكلفونا بالأمر.

ـــ أى أمر؟ سأله أخى دون أن يدرك ما يحدث.

ـــ إننا حانوتيان، جئنا بشأن الدفن.

ــ ومن الذى مات هنا؟ سألها إيڤان جريجوريڤيتش دون تفكير.

ــ مؤلف ما، لا أتذكر اسمه. هكذا أخبرنا البواب.

أخبرنى أخى أن قلبه قد تجمد، هرع إلى أعلى واندفع داخلاً عبر باب الشقة، الذى لم يكن مغلقًا، حيث وقف أمامه عدد من الأشخاص. وبعد أن ألقى بمعطفه، أسرع أخى نحو غرفة المكتب، حيث كان جثمان فيودور ميخايلوڤيتش مسجى على الأريكة.

كنت جاثية بالقرب من الأريكة، وما إن شاهدت أخى، حتى أسرعت نحوه. تعانقنا بشدة، وسألته «ڤانيا، من أخبرك أن فيودور ميخايلوڤيتش قد توفى؟ ــ كنت قد نسيت تمامًا أن أخى لا يسكن فى بطرسبورج، وأنه يعيش فى موسكو الآن، ولا يمكن أن يعرف ويصل إلى هنا بمثل هذه السرعة. بداهة، كنت مصدومة من الحزن، ومن الموت المفاجئ (فبالأمس فقط كان البروفيسور كوشلاكوف يؤكد لى الأمل فى شفاء زوجى) حتى أننى فقدت القدرة على تصور أى شىء بوضوح.

اعتبرت أن وصول أخى فى هذا الوقت العصيب هبة حقيقية من الله: فضلاً عن أن وجود أخى الحبيب وصديقى المخلص، فيه بعض من العزاء، فإلى جوارى الآن إنسان مخلص، أستطيع أن أسأله النصح وأن أضع على كاهله كل همومى البسيطة حتى وإن كانت معقدة فيما يخص دفن فيودور ميخايلوڤيتش، وبفضل أخى استطعت أن أتغلب على كل الأمور العملية، وأن أتجنب العديد من الأمور الصعبة الكريهة فى هذه الأيام الحزينة. مضى مساء الثامن والعشرين من يناير بطوله، وتلته أربعة أيام (٢٩ يناير ــ الأول من فبراير) ظلت فى ذاكرتى كابوسًا يعذب روحى. الكثير مما حدث بقى ماثلاً أمامى بوضوح تام، كما انمحت من ذاكرتى أحداث أخرى كثيرة، وقد عرفت الكثير أيضًا من خلال أشخاص آخرين. أتذكر، على سبيل المثال، أنه فى الساعة الثانية عشرة من مساء نفس اليوم جاء لزيارتنا أ. س. سوڤورين، وكان حزينا للغاية بسبب وفاة زوجى، وكان يقدره تقديرًا رفيعًا ويحبه، وقد وصف سوڤورين زيارته المسائية فى مجلة «العصر الحديث»[٢٧٠]

بحلول الساعة الواحدة ليلاً كانت الاستعدادات الضرورية كلها قد اتخذت. وقد وضع جثمان العزيز لدينا على منصة الدفن وسط غرفة المكتب. من جهة الرأس كانت المكتبة ذات الأرفف وعليها أيقونة وقنديل مضاء. كان وجه المرحوم يغمره الهدوء وكأنه ما يزال حيًا نائمًا يبتسم فى حلمه «بالبرِ» الذى يعرفه الآن.

بعد منتصف الليل تفرق كل الغرباء. ذهبت لأضع فى الفراش أطفالى، الذين أعياهم الحزن على موت أبيهم وبكاؤهم المستمر عليه طوال المساء، بينما ذهبنا ثلاثتنا (أمى وأخى وأنا) لنهجع دون إزعاج بالقرب من الجثمان. أتذكر بامتنان بالغ التقدير هذه الليلة الأخيرة، عندما كان زوجى العزيز ما يزال ملكًا خالصًا لأسرته وكان ما يزال بإمكاننا أن نطلق العنان للتعبير عن أحزاننا دون شهود، دون خجل ودون تحفُّظ. نبكى بغزارة، نصلِّى بحرارة ليرحم الله روح الميت ونطلب من الراحل أن يعفو عن الصغائر التى لا مفر منها فى الحياة العائلية، التى قد أكون قد ارتكبتها فى حق زوجى الحبيب دون وعى أو دون فهم.

وقفت أنا وأخى ثم جلسنا عند نعش الميت حتى الرابعة صباحًا، ثم أصر أخى أن أذهب للنوم، وأقنعنى أخيرًا، أن علىَّ أن أستجمع قواى لما سوف أواجهه غدًا من اضطرابات لا مفر منها.

فى التاسع والعشرين من يناير، فى الساعة الحادية عشرة، جاء إلىَّ شخص مهيب من وزارة الداخلية آنذاك، الأمير لوريس ـــ ميليكوف.وبعد أن أعرب لى عن تعازيه بشأن مصابى، قال الموظف، إن لديه مبلغًا يود أن يسلمه لى لنفقات دفن المتوفى. لم أكن أعرف مقدار هذا المبلغ، ولكننى لم أرغب فى أخذه، كنت أعرف بالطبع أن لدى كل الوزارات تقليد يقضى بإعطاء الأسرة التى فقدت عائلها مساعدة من أجل دفن المتوفى من أفرادها وأن هذه المساعدة لا تعد عيبًا، لكننى كنت أشعر بالإهانة من هذا العرض. طلبت من الموظف أن يبلغ شكرى العميق للأمير لوريس ـــ ميليكوف للمساعدة التى قدمها، لكننى أعلنت، أننى لا أستطيع قبولها، لأننى أرى أن من واجبى الأخلاقى أن

أدفن زوجى من أمواله التى اكتسبها. وعلاوة على ذلك، فقد أخبرنى الموظف نيابة عن الأمير، أن أطفالى سوف يتلقون تعليمهم فى المؤسسات العلمية التى أرغب فى التحاقهم بها وذلك على نفقة الحكومة. طلبت من الموظف أن يبلغ الأمير امتنانى القلبى لعرضه الكريم، ولكننى قررت فى نفسى أن أطفالى لا بد أن يتلقوا تعليمهم لا على نفقة الحكومة، وإنما من أعمال والدهم، ثم أعمال أمهم. ولسعادتى الكبرى، فقد نجحت فى إنجاز التزامى، وقد تعلم أولادى فيما بعد من الأموال التى حصَّلتها من إصدار الأعمال الكاملة لوالدهم. كنت على قناعة عميقة، أننى برفضى قبول المساعدة فى الدفن وتعليم الأولاد، فقد تصرفت تمامًا كما كان سيتصرف زوجى خالد الذكر.

منذ الحادية عشرة صباحًا توافد المعارف والغرباء، بعد أن علموا من الصحف بموت فيودور ميخايلوڤيتش، لحضور القداس على جثمانه، وقد كانوا من الكثرة بحيث امتلأت بهم سريعًا حجرات المنزل الخمس، وبحلول لحظة القداس كنت مضطرة أنا والأطفال أن نشق طريقنا يصعوبة لكى نقف إلى جوار النعش.

كنت قد دعوت القس الأب...(*) لكى يقوم بمراسم القداس، وكان المنشدون قد جاؤوا فى اليوم الأول من كنيسة ڤلاديميرسكايا. وفى اليومين الأخيرين فى القداسات الرئيسية التى أُعلن عنها (فى الواحدة ظهرًا والثامنة مساء) جاءت، بناء على طلبى وبموافقة وكيل الكنيسة، جوقة كنيسة كاملة من كاتدرائية إيساكييڤسكى يرأسها ى. ف. بوجدانوڤيتش. ولكن كان هناك وفودًا أخرى تأتى يوميًا من مختلف المؤسسات برئاسة قس من الكنيسة ومعهم منشدون، كانوا يطلبون السماح لهم بإقامة القداس عند نعش الكاتب. أتذكر وفدًا جاء من الفيلق البحرى قام القس الخاص به بإقامة قداس مهيب بمصاحبة غناء الجوقة البحرية الرائعة.

لن أستمر فى تعداد أسماء هذه الشخصيات التى حضرت القداس عند قبر زوجى. هنا وقف أبرز ممثلى أدبنا، الذين تعاطفوا مع فيودور ميخايلوڤيتش وقدَّروا موهبته؛

(*) فقرة مفقودة فى المخطوطة.

وكذلك الذين ناصبوه العداء الصريح، والذين أدركوا، بعد وفاته، مدى الخسارة الفادحة التى لحقت بالأدب الروسى، والذين أرادوا أن يعبروا عن احترامهم لواحد من أنبل ممثلى هذا الأدب. وقد حضر إلى أحد القداسات التى أقيمت مساءً الأمير العظيم، الذى كان فى مقتبل العمر آنذاك، ديمترى قنسطنطينوڤيتش، الأمر الذى أثار دهشة الحضور.

وطوال اليوم، التاسع والعشرين من يناير، سألنى كثير من الناس أين سيدفن فيودور ميخايلوڤيتش؟ تذكرت أن فيودور ميخايلوڤيتش قد أعرب عن إعجابه بجبانة دير نوڤوديڤيتشى، فى أثناء دفن نكراسوف، وقد قررت أن يدفن هناك. طلبت من صهرى باڤل جريجوريڤيتش سڤاتكوڤسكى أن يقوم بالاتفاق بشأن المقبرة، وفوَّضت ابنتى ليليا فى اختيار مكانها وأرسلتها مع صهرى إلى نوڤوديڤيتشى وكان هدفى الرئيسى من ذلك أن تتمكن الفتاة من المرور عبر المدينة وتتنفس هواء نقيًا (يا لهم من أطفال مساكين! ثلاثة أيام على التوالى، قبيل الدفن، لم يغادروا البيت، جالسين فى حجراتهم، المكتظة بالناس الذين جاؤوا ليحضروا كل القداسات التى أقيمت، وكانت ليليا توزع الزهور من الأكاليل الموضوعة على صدر المتوفى على المعجبين بموهبة أبيها للذكرى.

وفى أثناء الرحلة إلى نوڤوديڤيتشى وصل ڤيساريون ڤيساريونوڤيتش كوماروف(*)، المحرر فى جريدة «وقائع سان بطرسبورج»، الذى أخبرنى أنه جاء ممثلاً لكنيسة ألكسندر نيڤسكى التى تعرض أى مكان فى جبانتها ليجد فيه زوجى راحته الأبدية. «إن الكنيسة، ــ يقول كوماروف، ترجو قبول المكان مجانًا وسوف تعتبر أن دفن رفات الكاتب دستويڤسكى، الذى دافع بكل حماس عن العقيدة الأرثوذوكسية، فى الكنيسة شرف كبير» إن العرض الذى قدمته كنيسة ألكسندر نيڤسكى، كان أمرًا مشرفًا، إلى حد أن رفضه سيكون أمرًا مؤسفًا حقًا. وفى الوقت نفسه فمن المحتمل أن يكون صهرى سڤانكوڤيتش قد انتهى من شراء مقبرة فى دير نوڤوديڤيتشى. لم أكن أعرف

(*) ڤيساريون ڤيساريونوڤيتش كوماروف (١٨٣٨ ــ ١٩٠٧): صحفى وناشر.

كيف أتخذ قرارى وكيف أجيب على كوماروف. ولحسن حظى عاد صهرى وأخبرنى أن رئيس الدير أظهر بعض الصعوبات بشأن المكان الذى اختارته ابنتى، ومن ثم فقد تم تأجيل شراء المقبرة إلى الغد. كنت راضية تمامًا، وحيث إن الكنيسة قد عرضت اختيار مقبرة فى أى مكان من جبانتها، فقد طلبت من كوماروف اختيار مكان فى جبانة تيخفينسكى، بالقرب من مقبرتى كارامازين(*) وچوكوڤسكى(**)، اللذين كان فيودور ميخايلوڤيتش يحب أعمالهما. ومن الصدف السعيدة أن يكون المكان الشاغر إلى جوار تمثال الشاعر چوكوڤسكى وقد اختير مكانًا للراحة الأبدية لزوجى خالد الذكر.

فى الثلاثين من يناير وأثناء القداس اليومى حضر الهوفميستر(***) نيكولاى أباظة وسلمنى خطابًا من وزير المالية يفيد بأنه «تقديرًا للخدمات التى قدمها المرحوم زوجى للأدب الروسى» فقد خصص القيصر الإمبراطور لى ولأطفالى معاشًا سنويًا قدره ألفى روبل. بعد أن قرأت الخطاب توجهت بالشكر الحار لنيكولاى أباظة على هذا الخبر الطيب، ثم دخلت من فورى إلى مكتب زوجى، لأنقل إليه الخبر السار، وأخبره أن الأطفال منذ الآن سيكونون مُؤَمَّنينَ، وما إن دخلت إلى الغرفة، حيث يرقد جثمانه، حتى تذكرت أنه لم يعـــــد بيننا فأخذت فى البكاء المرير (أود أن أذكر بالمناسبة، أن هذا النسيان غير المفهوم لى استمر، على أقل تقدير، حوالى شهرين بعد وفاة فيودور ميخايلوڤيتش: فتارة أسرع إلى البيت، حتى لا يضطر لانتظار الغداء، وتارة أشترى له حلوى، وتارة أخرى أفكر فى نفسى، أن من الضرورى أن أبلغه ببعض الأنباء التى سمعتها. بالطبع كنت أتذكر بعد دقيقة أنه قد توفى، وعندها أشعر بأسى لا يوصف).

جدير بالذكر، أننى دائمًا ما أستعيد ذكرى هذين اليومين ونصف اليوم، التى ظل فيها جثمان زوجى خالد الذكر موجودًا فى البيت بشىء من الخوف. كان أكثر ما يعذبنى

(*) ڤاسيلى أندرييڤيتش چوكوڤسكى (١٧٨٣ ــ ١٨٥٢): شاعر روسى.

(**) نيكولاى ميخايلوڤيتش كارامزين (١٧٦٦ ــ ١٨٢٦): كاتب روسى، مؤرخ، مؤسس المدرسة الروسية العاطفية. رئيس تحرير عدد من الصحف والمجلات الروسية. أشهر أعماله «تاريخ الدولة الروسية».

(***) رئيس ديوان البلاط (المترجم)

آنذاك، أن شقتنا لم تكن تخلو ولو لساعة واحدة من الغرباء : تيار كثيف من الناس يمشى فى خطوات استعراضية، وتيار آخر يأتى من المدخل الخلفى ليقطع الشقة كلها ليتوقفوا جميعًا فى غرفة المكتب، حتى لا يبقى هناك بمرور الوقت سوى قليل من الهواء، حتى أن القناديل والشموع الكبيرة المحيطة بالنعش كانت تنطفئ. لم تكن وجوه الغرباء موجودة لدينا فى أثناء النهار فقط، وإنما فى الليل أيضًا: كانت هناك أناس يريدون قضاء الليل بجوار نعش فيودور ميخايلوڤيتش، وآخرون كانوا يريدون قراءة المزامير، وقد راحوا يقرؤونها على مدى ساعات طويلة. أذكر أن الياور الأمير نيكولاى فيودوروڤيتش جايدن، الذى كان يقدر بعمق موهبة فيودور ميخايلوڤيتش، ظل يقرأ المزامير فى الليلة الأخيرة إلى جوار النعش قبل إخراج الجثمان من البيت.

كل ذلك يدل، بطبيعة الحال، على الحزن الصادق لدى محبى موهبة فيودور ميخايلوڤيتش، وعن الاحترام العميق لذكرى الراحل. وليس بمقدورى سوى أن أشعر وأن أعبر عن خالص امتنانى لهؤلاء الذين تعاطفوا مع زوجى.

ولكن فى سياق امتنانى القلبى ذاته، كنت أشعر فى نفسى بشىء من «الغصة» لأن المجتمع قد انتزع منى زوجى العزيز، وأن الذين أحاطوه، وإن كانوا يكنون له مشاعر الحب، فإننى، أقرب مخلوق إليه، لم أستطع أن أكون معه على انفراد، لم أستطع كذلك أن أقبّل وجهه ويديه مرات ومرات. أن أضع رأسى فوق صدره كما فعلت فى الليلة الأولى لوفاته. إن وجود الغرباء اضطرنى لأن أتحفظ فى إبداء مشاعرى، خوفًا من أن يقوم مندوب صحيفة نكرة فى اليوم التالى بوصف حزنى بتعبيرات سخيفة. لم يكن أمامى سوى تلك الغرفة الصغيرة، التى أستضيف فيها أمى، لأهرب إليها حتى أتمكن من الاستسلام لحزنى. كنت ألجأ إلى أمى عندما أشعر بضعفى، أختبئ، ألقى بنفسى فوق فراشها، وأحاول أن أفسر لنفسى قدر ما أستطيع ماذا حدث. لكن أحدًا لا يريد أن يتركنى فى هدوء وفى عزلة: يطرقون الباب ويقولون إن وفدًا قد وصل من مؤسسة كذا ويود أن يعبر بصفة شخصية عن تعازيه. كنت أخرج إليهم، فيقوم مندوب الوفد، الذى يكون قد أعد مسبقًا خطابًا بليغًا فى الحديث عن الأهمية التى كان يشغلها زوجى

المرحوم فى الأدب الروسى، وكيف طرح تلك الأفكار السامية التى كان ينادى بها، ثم يروح يتحدث عن «الخسارة الفادحة التى منيت بها روسيا من جراء موته». كنت أستمع فى صمت، ثم أشكره بحرارة وأصافحه، ثم أعود راجعة إلى أمى. وبعد برهة ــ وفد جديد، يرغب حتمًا فى لقائى والتعبير عن تعازيه لى شخصيًا، فأخرج وأستمع إلى خطاب عن أهمية زوجى وعن «الرجل الذى فقدته روسيا»بقيت أستمع على مدى ثلاثة أيام إلى خطب العزاء، وفى النهاية وصلت إلى حال من القنوط فقلت فى نفسى: «مالى الآن و«روسيا». تذكروا يا ناس من الذى فقدته أنا؟ لقد فقدت أفضل إنسان فى العالم، الإنسان الذى وهبنى السرور والفخر والسعادة فى حياتى، شمسى، إلهى! ارحمونى، ارحمونى أنا شخصيًا ولا تحدثونى عن خسارة روسيا فى هذه اللحظة!».

عندما يأتى إلىّ شخص واحد من أعضاء الوفود العديدة يريد أن يعبر عن أسفه من أجلى، لا من أجل روسيا، فهذا هو الذى سيترك حقًا أثرًا فى نفسى، وسوف أمسك بيد هذا الغريب وأقبّلها.

كنت مقتنعة تمامًا أن أفكارى فى هذه الأيام مضطربة وغير طبيعية، الأمر الذى ساعد عليه أيضًا أننى كنت، بالمناسبة، أعانى من سوء حالتى الصحية: مرت خمسة أيام (٢٦ ــ ٣١ يناير) لم أغادر فيها الغرف الخانقة، ولم أكن أتغذى فيها إلا على الخبز والشاى. كان أقربائى الطيبون يأخذون الأطفال للنزهة وإلى منازلهم ليتناولوا طعام الغداء لديهم، لأن الزحام الذى كان يملأ شقتنا، ودخول الضيوف من بابها الخلفى، لم يكن ليمكن الطاهية من إعداد الطعام، فكنا جميعًا نتناول طعامًا جافًا.

فى اليوم الأخير (الثلاثين من يناير) راحت تنتابنى حالات هيستيرية؛ وفى واحدة منها وقع لى حادث كان من الممكن أن يودى بحياتى: فبعد انتهاء أحد القداسات، أحسست بضيق عصبى فى حلقى، فطلبت من أحد القريبين منى أن يحضر لى نقطة من دواء الڤاليريان. بدأ الواقفون بالقرب من غرفة الاستقبال يصيحون على الخادمة قائلين: «أحضروا ڤاليريان، ڤاليريان أين ڤاليريان؟»، ولما كان هناك اسم «ڤاليريان»، فقد

خطرت على رأسى المضطرب فكرة مشوشة: أرملة تبكى والجميع ينادون على ڤاليريان ما ليساعدها. وبسبب هذه الفكرة السخيفة رحت أضحك بغيظ، وأصبح «ڤاليريان، ڤاليريان!!»، وحتى المحيطين دخلوا فى هيستيريا شديدة. لسوء الحظ، لم تعثر الخادمة على قنينة الڤاليريان القطّارة، فأرسلوها على الفور إلى الصيدلية، بعد أن طلبوا منها بالمرة إحضار روح النشادر أيضًا، فى حالة إذا ما دعت الحاجة له لإفاقتى. بعد عشر دقائق تم إحضار الدواءين، وكنت ما أزال أواصل الضحك الهيستيرى وأخبط على أيدى النساء اللائى كن يحطننى. هنا قامت إحدى السيدات الفضليات، صوفيا ڤيكتوروڤنا أڤيركييڤا، وهى سيدة تتميز بالحزم بوضع ثلاثين نقطة، وربما أكثر، فى إحدى الكؤوس من سائل ما، وعلى الرغم من مقاومتى، فقد أرغمتنى على شربه. لكننى شعرت بلذعة حارقة فى لسانى، فأخرجت منديلى وبصقت فيه ما تجرعته. وقد تبين أن صوفيا ڤيكتوروڤنا، خلطت من فرط تسرعها بين قنينتى الدواء، فأعطتنى ما يزيد على ثلاثين نقطة من روح النشادر، بدلا من نقطة الڤاليريان. راحت دموعى تنساب طوال الليل على جلدى، وكنت أشعر بالألم فى فمى ولسانى، وقد استمر الأمر لمدة أسبوع بعد ذلك، ولو أننى شربت ما فى الكأس لحدث حرق فى المرىء والمعدة وربما هدد ذلك حياتى، أو أصابنى بمرض خطير.

نسيت أن أذكر، أن من بين العديد من الذين زارونا فى اليوم التالى لوفاة زوجى، الفنان الشهير كرامسكوى(*)، وقد أعرب عن رغبته فى رسم صورة لوجه المتوفى بالحجم الطبيعى، وقد أنجز عمله بموهبة فائقة. وفى هذه الصورة يبدو فيودور ميخايلوڤيتش وكأنه لم يفارق الحياة، وإنما راح فى نوم عميق، وقد علت وجهه المضىء ابتسامته، كما لو كان قد عرف سر الحياة الأخرى المكنون[٢٧١]

وبالإضافة إلى كرامسكوى حضر عدد آخر من الفنانين من الرسامين والمصورين الفوتوغرافيين، الذين رسموا والتقطوا الصور لاستخدامها فى الكتب كصور

(*) إيڤان نيكولايڤيتش كرامسكوى (١٨٣٧ ـ ١٨٨٧): رسام، صاحب أشهر الصور الشخصية لكتاب مثل تولستوى ونكراسوف. تعرف على دستويفسكى عام ١٨٨٠ فى بيت سوڤورين.

توضيحية. كما زارنا أيضًا النحات المعاصر الشهير الآن ليوبولد برنشتام(*)، ولم يكن معروفًا آنذاك. وضع برنشتام قناعًا لزوجى، استطاع بفضله أن يصنع تمثالاً نصفيًا مطابقًا له تمامًا (٢٧٢)

وفى يوم السبت، الحادى والثلاثين من يناير، جرى نقل جثمان فيودور ميخايلوڤيتش من شقتنا إلى دير ألكسندرنيفسكى. ليس بإمكانى أن أصف لكم موكب الدفن، فقد وصفه الكثيرون غيرى(٢٧٣). فأنا لم أشاهد الموكب بأكمله أو رأيته فى الصور، فقد سرت وراء النعش مباشرة ولم أشاهد سوى من كانوا بالقرب منى. ووفقًا لشهود العيان فقد كان مشهدًا رائعًا: طابور طويل من أكاليل الزهور المحمولة على قوائم ارتكاز. العديد من جوقات المنشدين من الشباب، ينشدون أناشيد الدفن، بينما يسير النعش مرتفعًا فوق الزحام وجمهور هائل من البشر يبلغ عشرات الآلاف يسيرون خلف الموكب ــ كان مشهدًا مؤثرًا للغاية. كان الأمر الأكثر مدعاة للتقدير لهذا الموكب الحزين لجثمان فيودور ميخايلوڤيتش هو أنه لم يسبق الإعداد له من جانب أى طرف من الأطراف. وقد أصبحت مثل هذه الجنازات المهيبة تقليدًا عامًا فيما بعد. كان أمرًا شائعًا أن تكون مواكب الجنازات الاحتفالية فى ذلك الزمن متواضعة نسبيًا (باستثناء جنازة الشاعر نكراسوف)، ولم يكن الوقت المتاح للاجتماع لتنظيمها (يومان) كافيًا. وقد أخبرنى أخى عشية خروج النعش، محاولاً إدخال السرور على نفسى، أن ثمانية مؤسسات تعرض إحضار باقات الزهور لوضعها على قبر فيودور ميخايلوڤيتش، وفى الصباح إذا بالباقات والأكاليل يبلغ عددها أربعًا وسبعين، وربما أكثر، وقد تبين فيما بعد أن كل المؤسسات والمنظمات، كل بمبادرة خاصة منها، قد استعدت بإكليلها وأختارت وفدا يمثلها. باختصار، فقد اتفقت كل الأحزاب من كل التيارات على التعبير عن حزنها على وفاة دستويڤسكى وعن رغبتها الحارة فى تخليد ذكراه بأقصى ما تستطيع.

(*) ليوبولد أدولفوڤيتش برنشتام (١٨٥٩ ــ ١٩٣٩): نحات وجوه، أقام تماثيل نصفية لكل من بوشكين ودستويڤسكى وسالتيكوف ــ شيدرين وجونشاروف وفلوبير.

خرج موكب الدفن من البيت فى الساعة الحادية عشرة ليصل إلى دير ألكسندر نيڤسكى بعد الثانية ظهرًا. كنت أسير بجوار ابنى وابنتى، لاتفارقنى الأفكار الحزينة: كيف سأقوم على تربية أطفالى دون والدهم الذى كان يحبهم بشدة؟ يا لها من مسؤلية جسيمة وقعت على كاهلى بدءًا من هذه اللحظة أمام ذكرى زوجى، ترى هل أستطيع أن أقوم بجدارة بإنجاز واجباتى؟ أقسمت وأنا أسير خلف نعش فيودور ميخايلوڤيتش أن أكرس حياتى لأطفالنا، وقطعت عهدًا على نفسى أن أكرس ما تبقى لى من عمر فى بذل كل ما لدىّ من قوة لإحياء ذكرى زوجى خالد الذكر، وعلى نشر أفكاره السامية. والآن، وأنا أقترب من نهاية حياتى، أضع يدى على قلبى، بعد أن حققت كل الوعود التى بذلتها فى تلك الساعات الصعبة وأنا أودع جثمانه، بقدر جهدى وطاقتى.

فى تلك الليلة، فى الثلاثين من يناير، وفى كنيسة دوخوفسكى الملحقة بدير ألكسندر نيڤسكى، حيث وضع نعش فيودور ميخايلوڤيتش، أقيمت صلاة ليلية احتفالية. وصلت إلى الصلاة بصحبة أطفالى. كانت الكنيسة تغص بالمصلين؛ وكان أغلبهم من الشباب والطلاب من شتى المؤسسات التعليمية العليا والمنتسبين والأكاديمية اللاهوتية. وقد قضى أكثرهم الليل بطوله فى الكنيسة يتبادلون تلاوة المزامير عند نعش دستويڤسكى. وقد أخبرنى البعض بملحوظة لها مغزاها، وتتلخص تحديدًا فى أنه عند حضور الحراس لتنظيف الكنيسة، لم يجدوا عقب سيجارة واحدًا، الأمر الذى أدهش القساوسة، فمن المعتاد، عندما تطول الصلاة، أن يقوم البعض سرًا بالتدخين فى الكنيسة وإلقاء الأعقاب، أما هنا فلم يلجأ أى من الحضور إلى التدخين احترامًا لذكرى المتوفى.

فى اليوم الأول من فبراير ١٨٨١ أقيم فى الكنيسة الملحقة بدير القديس ألكسندر نيڤسكى قداس جنائزى. كان مظهر الكنيسة رائعًا: وضع النعش فى وسط المعبد مغطى بالعديد من باقات الزهور، أما باقى الأكاليل فقد صُفَّت وهى مزدانة بالشرائط العريضة، وقد بدت عليها كتابات مفضضة وأخرى مذهبة، بامتداد حوائط المعبد مستندة على ركائز مرتفعة، وهو ما أضفى على المكان جمالاً خاصًا.

كان أخى قد اصطحب ابنتى إلى دير نيفسكى يوم القداس الجنائزى، بينما ذهبت أنا وابنتى فى عربة يوليا دنيسوفنا زاسيتسكايا (ابنة الفدائى داڤيدوف) وكانت من أشد المعجبات بموهبة زوجى، بناء على دعوتها لاصطحابنا إلى هناك. انطلقنا فى الساعة العاشرة. وقبل أن نصل إلى الدير ببضعة أمتار، سارت عربتنا بمحاذاة عربة كان يستقلها أحد عقداء الجيش. حياها الرجل فأشارت له زايتسكايا ردًا على تحيته. وفى الميدان كان هناك حشد هائل من بضعة آلاف من الناس، وكان الاقتراب من باب الكنيسة أمرًا بالغ الصعوبة. اضطررنا للوقوف وسط الميدان. نزلت ومعى ابنتى من العربة متوجهة إلى الباب، بينما وقفت زايتسكايا فى العربة فى انتظار وصول العقيد وأخبرتنى أنه سيصطحبها إلى الدير. مررنا بصعوبة وسط الحشود، لكنهم أوقفونا طالبين منا بطاقات الدخول. بطبيعة الحال كنت قد نسيت، فى غمرة الحزن والارتباك، أن أحضر معى البطاقات، متصورة أنهم سيسمحون لنا بالدخول بدونها. أجبت بأننى «أرملة المتوفى، وهذه ابنته».

ـ هنا العديد من أرامل دستويفسكى، سواء بمفردهم، أو مع أطفالهن، كان هذا هو الرد الذى تلقيته.

ـ لكنك ترى أننى أرتدى ملابس حداد كاملة.

ـ هن أيضًا كن يضعن خُـمُرًا. من فضلك أظهرى بطاقة الدعوة.

بالطبع لم أكن أحمل حتى بطاقة الدعوة. حاولت أن ألح فى طلب الدخول، ثم رحت أتوسل أن ينادوا أحدًا من منظمى الدفن، وذكرت لهم أسماء جريجوريڤيتش، ريكاتشيف(*)، أڤيركييف، لكنهم أجابوا بقولهم: «أين سنبحث عنهم، وهل يمكن العثور عليهم فورًا وسط الآلاف من الناس؟»

(*) ميخائيل ألكسندروڤيتش ريكاتشيف (١٨٤٠ ـ ١٩١٩): دكتور فى الفيزياء، عضو عامل فى أكاديمية العلوم.

غلبنى اليأس، ناهيك عما يمكن أن يقوله الناس الذين لا يعرفوننى جيدًا، إذا لم يرونى فى الصلاة الليلية على زوجى، علاوة على أننى كنت أرغب إلى حد لا يوصف أن أودعه فى اللحظة الأخيرة، أصلى من أجله، أبكى عند قبره، لم أكن أعرف ما الذى ينبغى أن أفعله، كنت أظن أن زايتسكايا قد نجحت بالفعل فى الدخول ولن يكون بمقدورها أن تنتشلنى من محنتى. ولحسن الحظ لم يحدث ذلك: استخدم مرافقها سلطته وأكد على شخصيتى، وعندها سمحوا لنا بالمرور، أسرعت أنا وابنتى نحو الكنيسة ولحسن الحظ كانت الصلاة قد بدأت لتوها.

قام بمراسم القداس رئيس الأساقفة نيستور والأسقف فيبورجسكى وبصحبتهم قساوسة وأرخميندرات، كما حضر القداس رئيس أكاديمية اللاهوت يوهان يانيشيف(*) والقائم بأعمال الدير الأرخميندريت سيميون، الذى كان على معرفة جيدة بزوجى(٢٧٤)

قام بالغناء على نحو مؤثر الجوقة الكاملة لدير ألكسندر نيڤسكى، وكذلك جوقة كاتدرائية إيساكييڤسكى، وقبيل إقامة الصلاة ألقى المطران يانيشيف خطابًا بليغًا أظهر فيه بوضوح كل فضائل فيودور ميخايلوڤيتش، الكاتب والمسيحى(٢٧٥)

امتلأت جبانة تيخڤينسكى بالجمهور. راح الناس يتسلقون التماثيل ويجلسون فوق الأشجار، وقد تزاحم بعضهم خلف الأسوار. راح الموكب يسير ببطء، وقد مالت نحوه من الجانبين أكاليل الزهور التى حملتها مختلف الوفود، وبعد أن تم الدفن راحوا يلقون بالكلمات فوق القبر المفتوح. كان أول المتحدثين هو ألكسندر پالم(**)، العضو السابق فى جماعة بتراشيفسكى، ثم تبعه أوريست ميللر، البروفيسور قنسطنطين بيستوجيڤ ــ ريومين، ڤلاديمير سولوڤيوڤ، باڤل ألكسندروڤيتش جايديبوروڤ وآخرون كثيرون.

(*) يوهان ليونتييڤيتش يانيشيڤ (١٨٢٦ ــ ١٩١٠): كاتب لاهوتى. رئيس أكاديمية اللاهوت فى بطرسبورج (١٨٦٦ ــ ١٨٨٣). كان على علاقة ودية مع دستويڤسكى.

(**) ألكسندر إيڤانوڤيتش پالم (١٨٢٢ ــ ١٨٨٥): عضو فى جماعة بتراشيڤيتس، كان ينشر كتاباته تحت اسم مستعار هو «ب. ألمينسكى»، كتب رواية بعنوان «ألكسى سلوبودين»، وصف فيها دستويڤسكى وبتراشيڤتس ودوروڤ بأسماء مختلفة.

وعند القبر المفتوح أُلقيت أيضًا كثير من القصائد مكرسة لذكرى المتوفى[٢٧٦]. لقد فرش الجمهور القبر بباقات الزهور التى أحضروها حتى وصلت إلى قمة الضريح تقريبًا. أما باقى الأكاليل فقد تم تقسيمها إلى أجزاء، وأخذ الحضور أوراقها وزهورها معهم للذكرى. أغلق القبر فى حوالى الساعة الرابعة. وقد أصابنى الضعف بسبب البكاء والجوع أنا والأطفال، فعدت إلى المنزل، ولم يكن الزحام قد انفض بعد. (...)

الجـــــزء الثانى عشر
ما بعـــد موت فيودور ميخايلوڤيتش

(١)
حديث مع تولستوى

مرة واحدة فى حياتى كان لى الشرف فيها أن أرى وأن أتحدث مع الكونت ليڤ نيكولايڤيتش تولستوى، وحيث إن حديثنا قد دار تحديدًا حول فيودور ميخايلوڤيتش، فقد رأيت أن من الممكن أن أضم هذا الحديث إلى مذكراتى.

تعرفت على الكونتيسة صوفيا أندرييڤنا تولستايا(*) فى عام ١٨٨٥، عندما جاءت إلىّ فى واحدة من زياراتها إلى بطرسبورج، ولم أكن قد تعرفت عليها من قبل، تطلب نصيحتى بشأن إصدار الكتب. وقد شرحت لى الكونتيسة أن صالايف(**)، بائع الكتب فى موسكو، ما يزال يتولى حتى الآن إصدار مؤلفات زوجها ذائع الصيت، وأنه يدفع مبلغا متواضعًا نسبيًا مقابل حق النشر (خمسة وعشرون ألف روبل، إذا لم أكن مخطئة). كانت الكونتيسة قد قررت، بعد أن علمت من معارفها أننى أنشر مؤلفات زوجى

(*) صوفيا أندرييڤنا تولستايا (بيرس قبل الزواج) (١٨٤٤ ــ ١٩١٩): زوجة ليڤ نيكولايڤيتش تولستوى.
(**) فيودور إيڤانوڤيتش صالايف (١٨٢٠ ــ ١٨٧٩) : ناشر فى موسكو.

بنجاح، أن تحاول بنفسها إصدار أعمال الكونت ليف نيكولايفيتش، ولهذا جاءت تستفسر منى عما إذا كان إصدار الكتب أمرًا يكتنفه كثير من المتاعب والصعوبات. لقد تركت الكونتيسة أثرًا طيبًا فى نفسى، وقد قمت بإطلاعها على كل «أسرار» دار النشر التى أديرها، وأعطيتها نماذج من الكتب التى جرى الاشتراك لشرائها، وأطلعتها أيضًا على الإعلانات التى أرسلتها بنفسى، وحذرتها من الوقوع فى بعض الأخطاء التى ارتكبتها وما إلى ذلك. وحيث إننا تعرضنا للحديث عن العديد من التفاصيل، فقد كان علىّ أن أقوم بزيارة الكونتيسة فى بيت أختها تانيانا كوزمينسكايا(*)، وقد زارتنى الكونتيسة بدورها فى بيتى مرتين أو ثلاثا، لكى تستوضح بعض الأمور التى بدت لها مبهمة.

أتاحت لنا الزيارات و الأحاديث المتكررة مع الكونتيسة إمكانية أن تتعرف كل منا على الأخرى وأن يمتد بيننا حبل الصداقة والألفة، ومن ثم وصلت إلى اقتناع مفاده أن الكونتيسة صوفيا أندرييفنا كانت حقيقة ملاكًا حارسًا لزوجها العبقرى. كانت الكونتيسة تحرص على زيارتى عندما تكون فى بطرسبورج، وعندما كنت أذهب إلى موسكو كنت أزورها حتمًا، وقد أتحت لها ولأسرتها أن يشاهدوا من نوافذ بيتى «المتحف التذكارى لفيودور ميخايلوفيتش دستويفسكى»وكذلك نقل جثمان الإمبراطور ألكسندر الثالث فى طريقه إلى كاتدرائية أرخانجلسكى.

كان معظم الوقت الذى أقضيه فى موسكو (لزيارة «متحفى») إما فى الربيع أو الخريف، وعندما كنت أعود من القرم وأذهب لزيارة الكونتيسة لم أكن ألتق أبدًا بالكونت ليف نيكولايفيتش: فإما يكون قد سافر فى بداية الربيع إلى ياسنايا بوليانا(**)، أو يقضى الخريف هناك. وفى يوم من أيام الشتاء، وكنت قد ذهبت لزيارة الكونتيسة مساء، عرفت أن الكونت ليف نيكولايفيتش موجود فى موسكو، لكنه مريض ولا

(*) تاتيانا أندرييفنا كوزمينسكايا (١٨٤٦ ــ١٩٢٥): كاتبة مذكرات، أخت صوفيا أندرييفنا، صديقة مقربة من ليف تولستوى.

(**) ياسنايا بوليانا: الضيعة التى ولد بها ليف تولستوى وتبعد أربعة عشر كيلومترًا عن مدينة تولا. عاش فيها حوالى ستين عامًا، وكتب فيها رواياته «الحرب والسلام» و«أنا كارنينا» والعديد من القصص والمقالات (المترجم).

يستقبل زوارًا. كنت أتحدث مع الكونتيسة، ثم إذا بها تتركنى أتحدث مع أفراد أسرتها لتذهب إلى زوجها. وما هى إلا دقائق عشرًا حتى عادت لتخبرنى أن زوجها حين علم بحضورى أصر على رؤيتى ويطلب مقابلتى. لكنها نبهتنى إلى أن الكونت أصيب اليوم بنوبة من نوبات الكبد، وأنه يشعر بشىء من الضعف طوال اليوم، ولهذا فهى ترجونى ألا أطيل معه الحديث. ذهبنا أنا والكونتيسة لنعبر من بيت إلى بيت عبر ردهات على الطراز الموسكوفى الخالص، وكنت طوال السير أشعر بشىء من عدم الرضا لذهابى إليه، فعلى الرغم من رغبتى الشديدة فى لقاء الكاتب العبقرى، الذى طالما أعجبت برواياته الشاعرية، فإن شعورًا ما بالخوف كان يكتنفنى لأن أمثل أمامه، وقد أحسست مقدما أننى سوف أترك لديه انطباعًا سيئًا، الأمر الذى لم أكن أتمناه على الإطلاق.

دخلنا غرفة فسيحة، لكنها ذات سقف منخفض، حيث جلس الكونت ليف نيكولايفيتش على أريكة، وقد ارتدى قميصه الرمادى الشهير فى صوره الفوتوغرافية. وما هى إلا لحظة من الزمن حتى انقشع خوفى عندما صاح فى بشاشة وترحاب :

ــ يا له من أمر مدهش، أن تبلغ زوجات كتابنا هذه الدرجة من الشبه بأزواجهن!

ــ وهل أشبه فيودور ميخايلوفيتش؟ سألته وقد غمرنى شعور بالسرور.

ــ للغاية! لقد تخيلت زوجة دستويفسكى على مثالك تحديدًا!

بالطبع لم يكن هناك شبه بينى وبين زوجى، على أنه لم يكن بإمكان تولستوى أن يمنحنى سعادة أكبر، من تلك التى منحها إياى هذا الكلام البعيد تمامًا عن الحقيقة، حين قال إننى أشبه زوجى خالد الذكر. لقد أصبح الكونت منذ هذه اللحظة شخصا قريبًا وعزيزًا على قلبى.

أجلسنى ليف نيكولايفيتش على كرسى وثير إلى جواره وراح يشتكى من سوء صحته مشيرًا إلى صدره الذى غطته بعض الوسائد الصغيرة (المحشوة بالشوفان والرماد الدافئ). مضت دقيقة سادها الصمت.

ـ لقد حلمت منذ زمن بعيد أن ألتقى بكم ليڤ نيكولايڤيتش، قلت له، لكى أشكركم من قلبى على هذا الخطاب الرائع، الذى كتبتموه لستراخوف بشأن وفاة زوجى. لقد أعطانى ستراخوف هذا الخطاب، وأنا أحفظه باعتباره وثيقة ثمينة.

ـ لقد كتبت بإخلاص ما أحسست به، قال الكونت ليڤ نيكولايڤيتش، إننى أشعر بالأسف دائمًا إننى لم أقابل زوجك أبدًا.

ـ وكم أسف لذلك هو أيضًا ! رغم أن الفرصة للقاء قد أتيحت ـ حدث ذلك عندما كنتم موجودين فى محاضرة ڤلاديمير سولوڤيوڤ فى مدينة سوليانا. أذكر أن فيودور ميخايلوڤيتش قد عاتب ستراخوف لأنه لم يخبره بوجودكم فى المحاضرة، وقد قال حينها: «كنت أود لو شاهدته، ما دمت لم أستطع التحدث معه».

ـ معقول؟ وكان زوجك موجودًا فى المحاضرة؟ لماذا لم يخبرنى نيكولاى نيكولايڤيتش بذلك؟[٢٧٧]. يا للأسف ! لقد كان دستويڤسكى إنسانا عزيزًا لدى[*] ولعله كان الوحيد الذى كان باستطاعتى أن أسأله عن عديد من الأمور، وهو الذى كان باستطاعته أن يجيب عن العديد منها !

دخلت الكونتيسة. تذكرت تحذيرها فوقفت متأهبة للخروج، لكن الكونت استبقانى قائلاً:

ـ لا، لا، ابق قليلاً. أخبرينى أى إنسان كان زوجك، على أى نحو ظل فى قلبك، فى ذكرياتك؟

كنت متأثرة أشد التأثر من هذه النبرة الـودود التى تحدث بها عن فيودور ميخايلوڤيتش.

(*) «عندما مات (دستويڤسكى) أحسست أنه كان إنسانًا غاية فى الأهمية بالنسبة إلىَّ» (من مذكرات ڤالنتين سبيرانسكى عن ليڤ نيكولايڤيتش تولستوى. ـ مجلة «ريتش»، (الحديث)، العدد ٣٠٧، السابع من نوفمبر١٩١٥) (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

ـ كان زوجى العزيز، قلت بفرح، مثالاً للإنسان ! كانت تتجلى فيه الخصال الروحية الرفيعة، التى تزين الإنسان فى أعلى درجاتها. لم يكن هناك أحد يضارعه فى طيبته ونقاء سريرته وعطفه وعدله ورقته ورأفته: وكم جلبت له الاستقامة والنزاهة الكثير من الأعداء ! أرونى شخصا واحدًا خرج من عنده دون أن يتلقى منه نصيحة أوترضية أو مساعدة على نحو أو آخر؟ صحيح أن البعض قد يجده فظًا بعد نوبة من نوبات المرض، أو عندما يكون منهمكًا فى عمل جاد، لكن هذه الفظاظة سرعان ما تتبدد ليحل مكانها طيبة بالغة، إذا ما رأى أن أمامه إنسانًا بحاجة إلى المساعدة. وكم من رقة وحنان كان يبديهما عندئذ ليكفر بهما عن حدته أو قسوته. هل تعلم، ليڤ نيكولايڤيتش، أن طبيعة الإنسان لا تتجلى بوضوح فى أى مكان، مثلما تتجلى فى حياته العادية، وسط أفراد عائلته، وها أنذا أقول إننى، وبعد أربعة عشر عامًا عشتها معه، لاأستطيع إلا أن أشعر بالدهشة والحنان، وأنا أرى على أى نحو كانت تصرفاته، وأدرك إلى أى حد كانت هذه التصرفات غير عملية فى بعض الأحيان، بل وضارة بنا شخصيًا، وهنا علىّ أن أعترف أن زوجى تصرف، على نحو محدد، كما ينبغى أن يتصرف إنسان نبيل وعادل !

ـ على هذا النحو كان ظنى به دائمًا، هكذا تحدث الكونت ليڤ نيكولايڤيتش وقد استغرق فى تفكير عميق وتأثر بالغ. لقد كان دستويڤسكى يمثل لى دائمًا إنسانًا ذو عاطفة مسيحية حقيقية(*) مرة أخرى دلفت الكونتيسة إلى الغرفة، عندها نهضت، صافحت بقوة يد كاتبى المحبوب الممدودة إلىّ، غادرت المكان وقد غمرنى إحساس بالافتنان، هذا الإحساس الذى نادرًا ما جربته(٢٧٨). نعم هذا هو الإنسان الذى يستطيع أن يستولى على قلوب البشر!

فى طريق عودتى إلى المنزل، وقد خلت شوارع موسكو تمامًا، رحت اختبر هذا الانطباع العميق الذى عشته، وعاهدت نفسى (وقد وفيت بالعهد) ألاّ أعود للقاء

(*) المصدر السابق. هذا هو نفس ما ذكره ف. سبيرانسكى فى مقالته: «من ذكرياتى عن ليڤ نيكولايڤيتش تولستوى». مجلة «ريتش»، العدد ٣٠٧، المؤرخ السابع من نوفمبر ١٩١٥ (ملاحظة لآنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

الكونت ليف نيكولايڤيتش مرة أخرى، على الرغم من أن الكونتيسة الطيبة قد دعتنى عدة مرات للزيارة، بل واستضافتنى فى ياسنايا بوليانا. كنت أخشى أن أجد الكونت ليڤ نيكولايڤيتش فى لقائى التالى، مريضًا، ضَجِرًا، أو فاقدًا لإرادته، أى أن أجد إنسانًا آخر غير الذى التقيته، وعندئذ يختفى بداخلى للأبد هذا الافتتان الذى جربته، والذى أصبح عزيزًا على نفسى ! ولماذا أفقد هذا الكنز الروحى، الذى نادرًا ما يهبه القدر لنا فى طريق حياتنا؟

(٢)

رَدِّى على ستراخوف

والآن، وقد اقتربت ساعتى، أرى أن علىّ أن أدافع عن الذكرى الوضاءة لزوجى خالد الذكر ضد الافتراءات الشنيعة، التى رماه بها الإنسان الذى اعتبرناه، زوجى وأنا وكل أسرتنا، صديقنا المخلص. إننى أتحدث هنا عن خطاب نيكولاى نيكولايڤيتش ستراخوف إلى الكونت ليف نيكولايڤيتش تولستوى (المؤرخ الثامن والعشرين من نوفمبر عام ١٨٨٣)، والذى نشر فى عدد أكتوبر من مجلة «سوڤريمنى مير» («العالم الحديث») الصادر عام ١٩١٣ [٢٧٩]

فى نوفمبر من ذلك العام، وبعد أن عدت بعد صيف قضيته فى بطرسبورج، التقيت فيه بأصدقائى ومعارفى، أثارت دهشتى بعض الشىء تلك الأسئلة التى كان يطرحها علىّ كل من قابلونى تقريبًا. كانوا يسألوننى ما إذا كنت قد قرأت خطاب ستراخوف إلى الكونت تولستوى؟ وعندما كنت أسألهم بدورى عن المكان الذى نشر فيه الخطاب، كانوا يجيبوننى بأنهم قرأوه فى إحدى الصحف، ولكنهم لا يتذكرون فى أى صحيفة تحديدًا. لم أكن ألتفت إلى نسيانهم أو أبدى اهتمامًا خاصًا بالخير، لأن نيكولاى ستراخوف، على أية حال، لن يكتب عن زوجى (هكذا كنت أظن) إلا كل ما هو خير، وهو الذى طالما اعتبره كاتبًا بارزًا، وكان يثنى على نشاطه ويقترح عليه موضوعات

وأفكارًا لعمله. وقد خمنت فيما بعد فقط، أن أصدقائى ومعارفى، «شديدى النسيان»، تحاشوا إغضابى بشكل مميت، مثلما فعل صديقنا الزائف بخطابه. لم أقرأ هذا الخطاب المشؤوم إلا فى صيف ١٩١٤، عندما رحت أرتب عددًا هائلاً من القصاصات من الصحف والمجلات، وفرتها لى إحدى الوكالات لأزود بها «المتحف التذكارى لفيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى» فى موسكو.

«أكتب إليكم، ليڤ نيكولايڤيتش العزيز، هذا الخطاب الموجز، على الرغم من أن الموضوع الذى أعرضه غاية فى الثراء. ولكن، وبسبب مرضى، فقد كان علىّ أن أقضى وقتًا طويلاً من أجل تطويره. من المؤكد أنكم تسلمتم الآن كتاب «السيرة» الذى كتبته عن دستويڤسكى»[٢٨٠] ـ أرجو منكم أن تولوه اهتمامكم وأن تتفضلوا بإبلاغى برأيكم فيه. وبهذه المناسبة أيضًا فإننى أود أن أعترف لكم بأننى كنت فى صراع دائم طوال الكتابة. كنت أصارع شعورى بالنفور الذى راح يتصاعد بداخلى. وقد حاولت أن أكبح فى نفسى هذا الشعور البغيض. وإنى لأرجوكم أن تساعدونى على أن أجد لديكم منه مخرجًا. إننى لا أستطيع أن أعتبر دستويڤسكى إنسانًا سيئًا، بائسًا (وهى صفات تنطبق عليه فى واقع الأمر). لقد كان شريرًا، وحسودًا، وكريهًا، وقد قضى حياته كلها فى اضطراب وتشوش جعلا منه كائنًا بائسًا، وربما مضحكًا، لولا أنه فى هذا الأمر كان شريرًا وذكيًا إلى حد كبير. كان يرى نفسه مثل روسو، أفضل الناس وأكثرهم سعادة. وبمناسبة كتابة سيرته، فقد استعدت بوضوح شديد كل هذه السمات. فعندما كنا فى سويسرا وجدته يعامل النادل بمنتهى التعسف الأمر الذى دفع بالرجل لأن يصيح به قائلاً: «أنا أيضًا إنسان!»، أذكر أن هذا القول قد أدهشنى إذ يُوجَّــه إلى المبشر بالإنسانية، وأنهم هنا يتحدثون عن سويسرا الحرة وعن حقوق الإنسان.

لقد تكررت هذه المشاهد كثيرًا فى حضورى، ولم يكن باستطاعته أن يتحكم إزاءها فى شراسته. لقد التزمت الصمت مرارًا أمام نزواته التى كان يرتكبها بأسلوب نسائى، أى على نحو مفاجئ وبصورة غير مباشرة، وقد تسنى لى أن أوجه إليه مرتين أو ثلاثًا كلاما قاسيا، ولكنه كان، بطبيعة الحال، متفوقًا فى سلاطة اللسان، على وجه العموم،

على العاديين من الناس، والأسوأ من ذلك أنه كان يجد فى ذلك لذة، حتى أنه لم يندم مرة واحدة على كل ما ارتكبه من دناءات. كان منجذبًا نحو الدناءات، وكان يتباهى بارتكابها. وقد حكى لى ڤيسكوڤانوف(*) كيف راح دستويڤسكى يتفاخر بأنه... فى أحد الحمامات العامة مع فتاة صغيرة أحضرتها له إحدي المربيات، لاحظوا فى ذلك، ليڤ نيكولايڤيتش، أنه عندما كان يمارس هذه الشهوة الحيوانية، لم يكن لديه أى ذوق، وأى إحساس بالجمال الأنثوى أو بالبهجة، وهو ما يتضح جليًا فى رواياته. إن بطل رواية «مذكرات من العالم السفلى»، وسفيدريجايلوف فى «الجريمة والعقاب»، وستافروجين فى «الشياطين» هم جميعًا شخوص على شاكلته تمامًا. لقد رفض كاتكوف نشر أحد المشاهد الخاصة بستافروجين (مشهد إطلاق الرصاص وغيره)[٢٨١]، وقد راح دستويڤسكى يقرأ هذا المشهد هنا وهناك أمام كثير من الناس.

رجل هذا طبعه، كان ميالاً للعاطفة الشهوانية، إلى الأحلام السامية والخصال الإنسانية الرفيعة، وقد كانت الأحلام هى توجهه، هى إلهامه وطريقه. بالمناسبة، فإن رواياته كلها تمثل، فى واقع الأمر، ذريعة لإثبات أن الرذائل على اختلافها يمكن أن تتعايش مع الخير داخل الإنسان.

من الصعب علىّ أن أنفصل عن هذه الأفكار، حتى أننى لا أجد نقاطًا للتصالح ! فهل أنا شرير؟ هل أحسده؟ هل أتمنى له سوءًا؟ إطلاقًا: إننى لا أمتلك إلا البكاء، لأن هذه الذكريات، التى كان من الممكن أن تكون مشرقة، لا تفعل شيئًا سوى أن تعتصر قلبى!

أتذكر كلماتكم التى تقول، إن الناس الذين يعرفوننا جيدًا، لايحبوننا بطبيعة الحال. لكن الأمر يجرى على نحو آخر أيضًا، فمن الممكن أن نعرف، فى سياق اقترابنا الشديد من إنسان ما، خصلة تجعلنا نصفح عن كل أفعاله فيما بعد: شىء من الطيبة الحقيقية،

(*) باڤل ألكسندروڤيتش ڤيسكوڤانوف (١٨٤٢ ــ ١٩٠٥): أستاذ الأدب الروسى، دكتوراه فى الفلسفة.

شرارة الدفء الودى، بل إن دقيقة من إبداء التوبة النصوح يمكن أن تكفر عن كل شىء؛ ولو أننى تذكرت شيئًا من هذا لدى دستويفسكى، لسامحته ولسررت به. لكنه يدَّعى أنه إنسان رائع، وأنه يقدم فقط أدبًا إنسانيًا تقدميًا.

لقد كان حقًا رجلاً تعيسًا وسيئًا. كان يتصور نفسه سعيدًا، بطلاً، ولم يكن يحب سوى نفسه فقط. وحيث إننى أعلم عن نفسى أننى أستطيع أن أثير الاشمئزاز، وأننى قد تعلمت أن أفهم وأن أسامح هذا الشعور فى الآخرين، فقد ظننت أننى سوف أجد مخرجًا فى علاقتى بدستويفسكى. لكننى لم أجد ولن أجد.

وها هو تعليق صغير على السيرة التى كتبتها، قد كان بإمكانى أن أكتب وأن أقص أيضًا هذا الجانب من حياة دستويفسكى، وقد تراءت لى العديد من الأحداث على نحو أكثر حيوية مما صورتها، وكان من الممكن أن يأتى القص عندئذ أكثر صدقًا، ولكن ليذهب هذا الصدق إلى الجحيم، ولنكتفى بالتباهى بالجانب الظاهرى للحياة، كما نفعل فى كل مكان، ومع كل شىء!

لقد أرسلت إليكم مُؤلَّفين آخرين (نسخة ثانية)، أنا نفسى أحبهما، وكانا فى حوزتك من قبل، وكما لاحظت، فقد عبرتم عن إعجابكما بهما. الأول كتبه Pressensé(*)، وهو كتاب رائع، ينم عن سعة إطلاع من طراز رفيع(٢٨٢)، أما كتاب Joly(**) فهو بالطبع فهو بالطبع أفضل ترجمة لماركوس أوريليوس، أسعدتنى حرفيتها الرفيعة (٢٨٣).

وإليكم رد الكونت ليف نيكولايفيتش تولستوى:

«قرأت كتاب بريسانسى أيضًا الذى أرسلته إلىّ، لكن سعة الإطلاع التى وصفتها ضاعت بسبب ما به من صعوبات. هناك جياد جميلة، جياد قوية، يبلغ سعر الواحد منها ألف روبل، وفجأة يصطدم الجواد بكبوة، فيصبح سعر هذا الجواد الجميل بضعة

(*) إدموند بريسانسى (١٨٢٤ ـ ١٨٩١): عالم لاهوت بروتستانتى وشخصية حكومية بارزة فى فرنسا.
(**) چولى: مترجم فرنسى، ترجم أعمال ماركوس أوريليوس.

قروش. كلما تقدمت فى العمر، قدَّرت الناس أكثر دون كبواتهم. قلت لى إنك تصالحت مع تورجينيف. وأنا أحبه جدًا. ومن المضحك أننى أحبه لأنه دون كبوة، وهو قادر على توصيلك، أما الآخر (بريسانسى) فهو جواد خاب، لا يمكن أن يوصلك إلى أى مكان، هذا إذا لم يلق بك فى خندق أو مصرف. إن ذهب فكره وقلبه عبثًا ــ سيدوم تورجينيف أطول من دستويفسكى، لا بسبب ميزاته الفنية، وإنما لأنه بلا كبوة [٢٨٤]

وإليكم أيضًا رد ستراخوف المؤرخ ١٢ ديسمبر ١٨٨٣

«إذا كان الأمر كذلك، فاكتب لى، ليف نيكولايفيتش العزيز، عن تورجينيف. كم أنا متعطش لأقرأ شيئًا ما يتميز بالعمق، على النحو الذى تتميزون به! وإلا أصبح ما نكتبه مجرد هزل نتلهَّى به، أو كوميديا نؤديها للآخرين. لقد اعتمدت كليةً فى كتابة المذكرات على الجانب الأدبى للقضية، لقد أردت أن أسجل صفحة من تاريخ الأدب، ولكننى لم أستطع أن أتغلب على نحو تام على لامبالاتى. حاولت شخصيًا أن أطرح فضائل دستويفسكى فحسب، لكننى لم أكن لأنسب إليه خصالاً لم يكن يمتلكها. إن ما حكيته عن القضايا الأدبية قد شغلتك، على الأرجح، بعض الشىء. هلاَّ حدثتكم، مع ذلك، دون مواربة؟ إن تعريفكم لدستويفسكى على الرغم من أنه أضاء أمامى أمورًا كثيرة، فإنه كان كلامًا دمثًا بالنسبة إليه. كيف يمكن للإنسان أن يتغير، عندما يصبح من المستحيل أن تتغلل فى روحه خصلة معروفة؟ أقول ــ لاشىء، بكل ما فى الكلمة من معنى. هكذا أتصور روحه. أوه، يا لنا من مخلوقات تعيسة وبائسة! إنما يكمن خلاصنا فى شىء واحد ــ أن ننفصل عن أرواحنا»[٢٨٥].

لقد أحبطنى خطاب نيكولاى ستراخوف حتى أعماق روحى. هذا الإنسان الذى كان يزور أسرتنا على مدى عشرات السنين، والذى عامله زوجى بكل مودة، يتضح الآن أنه كاذب، يسمح لنفسه أن يلقى عليه بكل هذه الافتراءات البشعة! لقد كان أمرًا مسيئًا له، لما أوليناه إياه من ثقة، لكوننا، أنا وزوجى، قد خدعنا فى هذا الإنسان غير الجدير بالثقة.

إن ما أدهشنى فى خطاب ستراخوف أنه كان يحاول، «طوال فترة كتابته (للمذكرات) أن يصارع هذه البشاعة التى راحت تتصاعد بداخله». إذن لماذا لم يتخل عن هذا العمل الملقى على عاتقه، طالما كان يشعر بكل هذه الكراهية، بداهة، نحو الإنسان الذى يكتب سيرته، كما كان سيفعل كل إنسان يحترم نفسه لو كان فى مكانه؟ أليس لأنه لم يرغب فى أن يضعنى، أنا الناشرة، فى وضع صعب بخصوص البحث عن كاتب للسيرة؟ لكن ها هو أوريست ميللر يتولى مسؤولية كتابة السيرة، وكذلك فعل أدباء آخرون (أفيركييف وسلوتشيفسكى)، كتباها لنشرها فى طبعات لاحقة[٢٨٦]

لقد كتب ستراخوف فى خطابه يقول إن دستويفسكى كان شريرًا، وحتى يثبت ذلك، أورد الواقعة الغبية التى حدثت له مع النادل، الذى قد يكون زوجى قد «تعسَّف» معه. إن زوجى، بسبب مرضه، يكون أحيانًا سريع الغضب، ومن المحتمل أنه صاح فى الخادم، لتأخره فى تقديم الطعام الذى طلبه (وما الذى يمكن أن يجعل النادل يعبر عن شعوره «بالعسف» غير ذلك؟)، لكن هذا لم يكن يعنى أنه شرير، وإنما كان يعكس نفاد الصبر، وفى سويسرا يتميز البسطاء من الناس بخشونة الطبع، حتى أن الخادم لا يكتفى بالشكوى ردًا على الإهانة، وإنما يستطيع، وقد يتجاسر على الرد بوقاحة متناهية، مطمئنًا تمامًا إلى أنه لن ينال أى عقاب.

لا أستطيع أن أفهم كيف جرؤ ستراخوف أن يكتب بيده أن فيودور ميخايلوفيتش كان «شريرًا» و«أنه لم يحب سوى نفسه»؟ فستراخوف نفسه كان شاهدًا على الوضع بالغ الصعوبة، الذى وضع فيه هو نفسه الأخوين دستويفسكى بسبب منع مجلتهما «الزمن»، والذى جاء نتيجة مقالة «القضية الحرجة»، التى كتبها ستراخوف بطريقة خرقاء[٢٨٧]، فلو أن ستراخوف لم يكتب هذه المقالة الغامضة، لواصلت المجلة وجودها، ولحققت أيضًا أرباحًا، ولما وقع على كاهل زوجى بعد وفاة أخيه ميخائيل دستويفسكى كل ديون المجلة، ولما تكبد طوال عمره هذا العناء بسبب سداد مستحقات المجلة. والحقيقة أنه يمكن القول إن ستراخوف كان العبقرية الشريرة لزوجى، ليس فقط إبان حياته، وإنما بعد وفاته كذلك، كما اتضح الآن. كان ستراخوف أيضًا شاهد عيان على أن فيودور

ميخايلوفيتش ظل زمنًا طويلاً يساعد عائلة أخيه المتوفى ميخائيل ميخايلوفيتش، وأخيه المريض نيكولاى ميخايلوفيتش، وربيبه پاڤل ألكسندروفيتش إيسايف، ولو أنه كان إنسانًا سيئ القلب، لا يحب سوى نفسه، لما حمل على عاتقه هذه المسؤوليات المالية التى يصعب الوفاء بسدادها، ولما تحمل عبء الاهتمام بمصير أقاربه، ومن ثم فإن يقول ستراخوف عن فيودور ميخايلوفيتش، وهو الذى يعرف أدق تفاصيل حياته، أنه «شرير» لا يحب سوى نفسه، فهذا ينم عن منتهى سوء النية. ومن جانبى، فإننى أرى أن من واجبى أن أشهد أن زوجى، وقد عشت فى كنفه أربعة عشر عامًا، كان إنسانًا طيبًا إلى أبعد الحدود، وقد أظهر هذه الطيبة ليس فقط تجاه القريبين منه فقط، وإنما تجاه الجميع، الذين تسنى له أن يستمع إلى تعاستهم، أو فشلهم، أومصائبهم. لم يكن بحاجة إلى أن يسأله الناس، وإنما كان يسارع بنفسه إلى تقديم العون لهم. كان له أصدقاء من ذوى النفوذ (قنسطنطين بوبيدونستسيف، تيرتى فيليبوف، إيڤان ڤيشنجرادسكى(*)). كان زوجى يستخدم نفوذهم، لكى يساعد الآخرين فى مصائبهم. كم من العجائز، رجالاً ونساء، أنزلهم فى الملاجئ، كم من أطفال أرسلهم إلى دور الأيتام، كم من الفاشلين دلَّهم على أماكن للعمل! وكم من مرة بات يقرأ ويصحح مخطوطات لأعمال مؤلفين آخرين. كم من مرة استمع إلى اعترافات صريحة وأعطى لأصحابها نصائح فى أمور حميمة للغاية. لم يبخل بوقته أو جهده، إذا ما رأى أن باستطاعته أن يقدم لقريب أى مساعدة. كان يساعد بالمال، فإذا لم يجد مالاً، وقَّع له على كمبيالات، وقد حدث أن قام هو نفسه بسدادها من ماله بعد ذلك.

كتب ستراخوف، أن دستويڤسكى كان «حسودًا». من ذا الذى حسده دستويڤسكى؟ إن جميع المهتمين بالأدب الروسى يعلمون أن فيودور ميخايلوڤيتش كان يقدر عبقرية بوشكين، وكانت أفضل مقالة أشادت بالشاعر العظيم هى خطابه عن بوشكين، الذى ألقاه فى موسكو، عند افتتاح تمثاله هناك.

(*) إيڤان ألكسييڤيتش ڤيشنجرادسكى (١٨٣١ ــ ١٨٩٥): عالم وشخصية حكومية بارزة.

من الصعب أن نفترض أن فيودور ميخايلوفيتش كان يكن مشاعر الحسد تجاه الكونت ليف تولستوى، إذا ما تذكرنا ما قاله زوجى عنه فى مقالاته المنشورة فى «مذكرة الكاتب». على سبيل المثال «المذكرة» عن عام ١٨٧٧؛ ففى عدد يناير عبر فيودور ميخايلوفيتش، فى معرض حديثه عن بطل «الطفولة والشباب»، أن هذا العمل هو «دراسة فنية شديدة الجدية عن روح الطفولة، كتبت على نحو رائع»(*) وفى عدد فبراير وصف زوجى تولستوى بأنه «فنان من طراز رفيع»(**) وفى «المذكرة» عن شهرى يوليو ـ أغسطس، قدَّم فيودور ميخايلوفيتش «أنّا كارنينا» باعتبارها «حقيقة ذات مغزى خاص، يمكن أن تمثل ردًّا على أوروبا، إنها تمثل أيضًا الحقيقة التى نستطيع أن نلفت انتباه أوروبا إليها»(***)، ثم يقول بعد ذلك (فى نفس العدد) «لقد رسمها بعبقرية الشاعر فى هذا المشهد العبقرى فى الرواية، مشهد المرض المميت للبطلة»(****). وفى ختام مقالته يقول زوجى: «هؤلاء الناس، من أمثال مؤلِّف أنّا كارنينا، هم جوهر مُعلم المجتمع، هم معلمونا، وما نحن سوى تلاميذ لديهم»(*****)

كان فيودور ميخايلوفيتش يقدر الروائى الشهير جونتشاروف ويعتبره «عقلاً كبيرًا»(******)؛ فضلاً عن أنه كان يضع موهبته فى منزلة رفيعة، وقد أحبه بإخلاص واعتبره كاتبه المفضل(*******)

كانت علاقة زوجى بتورجينيف فى مرحلة الشباب علاقة رائعة. وفى خطابه إلى أخيه، المؤرخ ١٦ فبراير ١٨٤٥، كتب فيودور ميخايلوفيتش عن تورجينيف يقول: «يا

(*) «مذكرة الكاتب»، ١٨٧٧، طبعة ١٨٣٣، ص ٣٤ (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا)[٢٨٨]

(**) المصدر السابق، ص ٥٥ (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

(***) المصدر السابق، ص ٢٣٠ (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

(****) المصدر السابق، ص ٢٣٤ (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

(*****) المصدر السابق، ص ٢٥٨ (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

(******) السيرة الذاتية والخطابات، ص ٣١٨. (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا)[٢٨٩]

(*******) «مذكرة الكاتب»، ١٨٧٧، طبعة ١٨٨٣، ص٢٢٩، ٢٣٠ (ملاحظة لأنّا جريجوريفنا دستويفسكايا).

له يا أخى من إنسان ! أنا أيضًا أحبه. إنه شاعر، صاحب موهبة، أرستقراطى، بهى الطلعة، واسع الثراء، ذكى، مثقف، يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، لا أعرف إن كانت الطبيعة حرمته شيئًا ما ؟ فى النهاية فهو شخص مستقيم لأبعد الحدود، شخص رائع، تلقى تعليمه فى مدرسة جيدة»(*) فيما بعد اختلف فيودور ميخايلوڤيتش مع تورجينيف فى آرائهما و معتقداتهما، لكن تورجينيف فى خطابه المؤرخ ٨ مارس (٩ أبريل بالتقويم القديم) ١٨٧٧ كتب يقول: «لقد حرصت على كتابة هذا الخطاب إليكم، رغم ما نشب بيننا من سوء فهم، الأمر الذى ترتب عليه انقطاع علاقتنا. وإننى لعلى يقين تام أن الشك لن يتطرق إليكم، فى أن سوء الفهم بيننا لا يمكنه أن يؤثر قيد أنملة على رأيى فى موهبتكم، التى أعدها موهبة من الطراز الرفيع، ولا على المكانة السامية التى تشغلونها عن جدارة فى أدبنا»(**). وفى عام ١٨٨٠ وفى الاحتفال الذى جرى فى موسكو، تحدث فيودور ميخايلوڤيتش عن تاتيانا بطلة بوشكين بقوله: «إن هذا النموذج للجمال الإيجابى للمرأة الروسية، لم يتكرر تقريبًا فى أدبنا، اللهم إلا فى نموذج ليزا فى رواية «عش النبلاء» عند تورجينيف(***). وهل لى أن أتحدث عن علاقة فيودور ميخايلوڤيتش بالشاعر نكراسوف، الذى كان عزيزًا على قلب زوجى، كما ورد فى مذكرات الشباب، وقد وصفه زوجى بأنه الشاعر العظيم، الذى ألَّف قصيدة ڤلاس»(****)؟. وقد كتب فيودور ميخايلوڤيتش فى مقالته بخصوص وفاة نكراسوف يقول: «إن نكراسوف ينبغى أن يأخذ مكانه، وهو الشاعر (الذى جاء «بكلمة جديدة»)، بعد بوشكين وليرمنتوف مباشرة(*****)، وتعتبر هذه المقالة، باعتراف علماء الأدب الروسى، واحدة من أفضل المقالات التى كتبت بمناسبة وفاة الشاعر.

(*) السيرة الذاتية، ص ٤٢. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)

(**) المجلد الأول لخطابات إيڤان سرجييڤيتش تورجينيف، ١٨٨٥، ص ٣١٥ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)(٢٩١)

(***) السيرة الذاتية. المذكرات، ص ٣١٠ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)(٢٩٢)

(****) «مذكرة الكاتب»، ١٨٧٧، طبعة ١٨٨٣، ص ٣٩٠. (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)

(*****) المصدر السابق، ص ٣٨٧.

على هذا النحو كانت علاقات زوجى بمواهب وأعمال كتابنا البارزين، أما كلمات ستراخوف حول أن دستويڤسكى كان حسودًا، فهى كلمات تفيض ظلمًا وقسوة تجاهه.

على أن هناك ظلمًا أشد مضاضة فى كلمات ستراخوف، عندما وصف زوجى بأنه كان «فاجرًا»، وأنه كان «منجذبًا إلى الدناءات، وأنه كان يفتخر بفعلها». ويسوق ستراخوف دليله على ذلك من أحد المشاهد من رواية «الشياطين»، الذى «رفض كاتكوف أن يطبعها، لكن دستويڤسكى راح يقرأه هنا وهناك أمام كثير من الناس». ومن أجل تقديم صورة فنية لنيكولاى ستاڤروجين، بطل روايته، كان على فيودور ميخايلوڤيتش أن يضيف إلى بطله شيئًا ما ليفضح النزعة الإجرامية لديه، وقد رفض كاتكوف بالفعل نشر هذا الفصل وطلب من المؤلف تعديله. وقد أحزن هذا الرفض فيودور ميخايلوڤيتش فراح يقرؤه على أصدقائه قنسطنطين بوبيدونوستسيف وأبوللون مايكوف ونيكولاى ستراخوف وغيرهم، ليختبر بواسطتهم صحة انطباع كاتكوف، وليس بهدف التباهى، كما ذكر ستراخوف، وإنما ليطلب رأيهم وليحكموا بينه وبين الناشر. وعندما وجد الجميع أن المشهد «واقعى للغاية»، راح زوجى يفكر فى شكل جديد لهذا الوصف الفنى لستاڤروجين، لأنه كان يرى، أنه أمر ضرورى. كان هناك عدد من الخيارات الفنية أمام زوجى. من بينها المشهد الذى تجرى أحداثه فى أحد الحمامات العامة (وهى حادثة حقيقية حكاها أحدهم لزوجى)[٢٩٣] وفى هذا المشهد تقوم «المربية» بالمشاركة فى الجريمة. ونتيجة لذلك فقد أعرب الأشخاص، الذين قرأ عليهم زوجى هذا الخيار (ومن بينهم ستراخوف) طالبًا منهم النصح، أعربوا عن رأيهم فى أن هذا المشهد على هذا النحو، يمكن أن يجلب باللائمة على فيودور ميخايلوڤيتش من جانب القراء، كما لو كان يتهم هنا «المربية» بارتكاب هذا الجرم الشنيع، فيسير الأمر على هذا النحو باعتباره تشهيرًا «بقضية المرأة»، تمامًا كما حدث من قبل، عندما وجهوا اللوم لدستويڤسكى عندما جعل من الطالب راسكولنيكوف قاتلاً، وكأنه بذلك يتهم جيلنا الشاب من الطلاب بارتكاب جرائم مشابهة.

وهكذا فإن ستراخوف لم يتردد، فى غمرة حقده، أن يلصق هذا المشهد من الرواية، هذا الدور المشين الذى قام به ستاڤروجين، بفيودور ميخايلوڤيتش نفسه، ناسيًا أن القيام بهذا الفعل الدنىء يتطلب نفقات باهظة لا تتوفر إلا لدى الأثرياء، وقد عاش زوجى طوال حياته فى عسر مادى شديد. إن استشهاد ستراخوف بكلام قيل على لسان البروفيسور ڤيسكوڤانوڤ أمر مدهش تمامًا لى، فالبروفيسور لم يزرنا قط ؛ بل إن معرفة فيودور ميخايلوڤيتش به كانت سطحية للغاية، وهو ما يؤكده ما ورد فى خطابه إلى أبوللون مايكوف، حيث يذكر لقاءه فى درزدن بأحد الروس(*) من جانبى فإننى أستطيع أن أشهد أن زوجى ظل طوال حياته بعيدًا عن «الفجور»، على الرغم من الوصف الواقعى للغاية للتصرفات الوضيعة لأبطال أعماله أحيانًا. ومن البدهى أن الفنان الكبير غير مضطر، بفضل موهبته، لأن يقوم بارتكاب الجرائم، التى يرتكبها أبطاله، وإلا لكان علينا أن نعترف أن دستويڤسكى قتل شخصًا ما، وقد نجح، على هذا النحو الفنى المحكم، فى وصف جريمة قتل امرأتين على يد راسكولنيكوف.

أتذكر بكل العرفان بالجميل، حسن معاملة فيودور ميخايلوڤيتش لى، حرصه الشديد ألا أقرأ الروايات الفاحشة، قلقه البالغ، عندما كنت أنقل له، فى سنوات الشباب، مزحة بذيئة سمعتها من أحد ما. كان زوجى شديد التحفظ دائمًا فى أحاديثه، ولم يكن يسمح باستخدام العبارات السوقية. والأرجح أن كل من يذكرونه سيوافقوننى على ذلك.

بعد أن انتهيت من قراءة خطاب ستراخوف الملىء بالافتراءات، قرَّرت أن أعبر عن احتجاجى عليه. ولكن، على أى نحو كان علىّ أن أفعل ذلك؟ كان زمن طويل قد انقضى للاعتراض على الخطاب، فقد ظهر الخطاب فى أكتوبر عام ١٩١٣، ولم أعلم به إلا بعد عام تقريبًا. ثم ما الذى يعنيه اعتراض منشور فى الصحف؟ سوف يضيع وسط الأنباء المتدفقة، سيهمل، ثم كم من الناس سيقرؤونه؟ رحت ألتمس المشورة لدى أصدقائى ومعارفى، الذين كانوا على معرفة بزوجى الراحل. تفرقت آراؤهم.

(*) السيرة الذاتية. والخطابات، ص ١٧١ (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا)(٢٩٤).

البعض ذكر أنه ينبغى التعامل مع هذه الافتراءات الدنيئة بكل الاحتقار الذى تستحقه. والبعض الآخر قال إن قيمة فيودور ميخايلوڤيتش معروفة فى الأدبين الروسى والعالمى بالسمو والرفعة، بحيث لن يكون لهذه الافتراءات أى أثر على ذكراه المضيئة؛ وأشاروا إلى أن ظهور الخطاب لم يكن له أى رد فعل فى الأدب الراهن، حتى أن أغلبية الكُتاب كانوا يعرفون جيدًا أن الأمر لا يعدو كونه وشاية، كما أنهم يدركون من هو الواشى. بينما رأى البعض الأمر على نحو مخالف، إذ أكدوا ضرورة قيامى بالتعبير عن احتجاجى، مذكرين إياى بالمثل الذى يقول:«Calomniez, caomniez, il en reste toujoure quelque chosel» (العيار اللى ما يصيبش يدوش)، وأضافوا، أنه نتيجة لهذا الظرف، وهو أننى، المرأة التى كرَّست حياتها لخدمة زوجها وذكراه، لم أجد ما أدحض به الوشاية، وعندئذ سيستنتجون أن بها ولو جزء يسير من الحقيقة، وهنا يظهر صمتى كما لو كان تأكيدًا لها.

على أن عديدًا من الناس، الذين كدَّرهم خطاب ستراخوف، وجدوا أن دحض الوشاية ايضًا ليس كافيًا، وأن على الأصدقاء والشخصيات، الذين يذكرون فيودور ميخايلوڤيتش بأحاسيس طيبة، عليهم أن يكتبوا احتجاجًا ضد هذا الافتراء الذى رماه به ستراخوف، كما أن هناك أشخاصًا آخرين أرادوا أن يعبروا عن سخطهم بخطابات منفصلة، بينما رأى العديد من أصدقائى أنه قد يكون من الضرورى، من أجل الرد على هذا الافتراء، إضافة مقالات الاحتجاج (إلى المذكرات) والتى نشرت على فترات مختلفة فى المجلات، والتى تصور فيودور ميخايلوڤيتش باعتباره إنسانًا محترمًا ومستقيمًا على نحو استثنائى. وقد استجبت لنصائح أصدقائى فأرفقت كل من الاحتجاج والمقالات بمذكراتى.

وفى معرض حديثى مع كثير من الأشخاص بشأن هذا الخطاب الشرير، الذى كدَّر صفو سنواتى الأخيرة، سألتهم عن رأيهم فى السبب الذى دفع ستراخوف لأن يكتب هذا الخطاب؟ مالت الأغلبية للقول إن السبب يرجع إلى ما يعرف بالغيرة المهنية «Jalousie de métier»، وهو أمر شائع فى عالم الأدب، وأن فيودور ميخايلوڤيتش

يمكن أن يكون، على الأرجح، قد أغضب ستراخوف (وهو ما ذكره الأخير)، إما بحسن نية، أو بسبب حدته، ومن ثم جاءت رغبة ستراخوف فى الانتقام منه، حتى ولو لم يكن على قيد الحياة. لم يكن بوسع ستراخوف أن يعبر عن رأيه كتابة، إذ كان يعلم أنه سوف يثير ضده عدد كبير من المدافعين عن ذكرى دستويفسكى، ولم يكن من طبيعة ستراخوف الدخول فى معارك مباشرة مع الناس. وقد عبَّر لى أحد الأشخاص، الذين عرفوا ستراخوف عن قرب عن فكرة أن ستراخوف كان يسعى من وراء خطابه لأن «يُشَهِّر بدستويفسكى وأن يقلل من شأنه» فى عيون تولستوى، وعندما أعربت عن شكوكى حول هذا الافتراض. راح محدثى يعبر عن رأيه فى ستراخوف على نحو مبتكر تمامًا: «من هو ستراخوف فى واقع الأمر؟ إنه نموذج «للنبيل الطفيلى»، وهو نموذج اختفى فى الوقت الحالى، لكنه كان منتشرًا فى الزمن القديم. تذكرى أنه كان يحل ضيفًا لشهور طويلة على تولستوى وفت ودانيلوفسكى، وكان يذهب فى فصول الشتاء لتناول طعام الغداء فى أيام بعينها لدى معارفه، ثم يروح ينقل الشائعات والفتن من بيت إلى بيت. لم يكن يحظى بأهمية خاصة باعتباره كاتبًا ــ فيلسوفًا، ولكنه كان ضيفًا مرغوبًا فى كل مكان، إذ كان باستطاعته دائمًا أن يحكى شيئًا ما جديدًا عن تولستوى، الذى كان يعتبره صديقه. كان ستراخوف يُعلى من قيمة صداقته بتولستوى بشدة، وانطلاقًا من غروره، فقد يكون من الممكن أن يكون قد رأى فى نفسه «سندًا» لتولستوى. أى إحباط إذن يمكن أن يكون قد أصاب ستراخوف، عندما وصف تولستوى دستويفسكى، بعد أن عرف بموته، أنه كان يعده «سنده»، وعبر عن أسفه الصادق أنه لم يلتق به أبدًا [٢٩٥] ومن الجائز أن تولستوى قد عبر فى مناسبات كثيرة عن إعجابه بموهبة دستويفسكى، ولعله كان يتحدث عنه هنا وهناك، وهو ما كدَّر ستراخوف، وحتى يضع حدًا لهذا الإعجاب، قرر أن ينال من دستويفسكى مُطلقًا هذه الافتراءات والوشايات، لكى يلطخ بها صورة دستويفسكى المتألقة فى عيون تولستوى.

وربما كانت لدى ستراخوف فكرة أن ينتقم من دستويفسكى، الذى وجه إليه يومًا ما إهانة، لذلك من خلال النيل منه أمام الأجيال القادمة، وحيث إنه، وقد رأى أى

تألق يتمتع به صديقه العبقرى، فقد افترض أنه بعد خطابه هذا لتولستوى ومراسلاته الأخرى، سوف تنشر جميعًا ولو بعد العديد العديد من السنوات، وعندها تتحقق فكرته الشريرة.

سوف أنهى هذا الحادث العرضى الصعب من حياتى، دون أن أتفق مع هذا الرأى الاستثنائى، الذى ذكره لى محدثى بكلمات وردت فى خطاب ستراخوف تقول: «يمكن لكل الرذائل أن تتواءم مع النبل فى شخص واحد» (...) [٢٩٦]

خاتمـة مذكراتى

كنت أتصور حياتى كلها بمثابة لغز من نوع ما. فزوجى الطيب لم يكن يحبنى ويحترمنى فقط، كما يحب كثير من الأزواج زوجاتهن ويحترمهن، إنما كان يعبدنى، وكأنى كيان خاص خلق من أجله تحديدًا. ولم يكن ذلك موجودًا فى الفترة الأولى من زواجنا فحسب وإنما ظل الأمر كما هو طوال السنوات التالية وحتى آخر يوم فى حياته. و فى الواقع لم أكن أتميز بالجمال، أو أمتلك مواهب أو ميزات عقلية خاصة، وإنما تعليم متوسط (ثانوى). وها أنا، على الرغم من ذلك، استحققت من هذا الإنسان الذكى الموهوب احتراما عميقًا، بل عبادة تقريبًا(*).

وقد تكشف لى هذا اللغز بعض الشىء، عندما قرأت ملاحظة ڤاسيلى ڤاسيليڤيتش روزانوف(**) على خطاب نيكولاى ستراخوف المؤرخ الخامس من يناير ١٨٩٠ فى كتابه «أدباء منفيون». أسجل هذه الملاحظة هنا(ص٢٠٨):

«ليس هناك أحد بإمكانه، حتى ولو كان «صديقًا» أن يقوِّم مسارنا. لكن السعادة الكبرى أن تصادف إنسانًا له مزاج مختلف تمامًا. طابع آخر، رؤى مختلفة، إنسانًا يظل على سجيته دائمًا، لا يقلدنا ولو بقدر ضئيل، لا يتخذنا قدوة (كثيرًا ما يحدث ذلك!)

(*) الذين قرؤوا خطابات زوجى خالد الذكر إلىَّ لن يروا فى كلماتى أى قدر من التفاخر (ملاحظة لأنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا).

(**) ڤاسيلى ڤاسيليڤيتش روزانوف (١٨٥٦ ــ ١٩١٩): فيلسوف وكاتب وناقد. مؤلف كتاب «أسطورة المفتش الأعظم عند ف. م. دستويڤسكى».

لا يقحم روحه (والتى تفتقد عندئذ إلى الصدق!) فى شؤوننا النفسية، فى تشوشنا، فى شؤوننا الخاصة، قد يمثل هذا الانسان جدارًا متينًا، حاجز صد «لحماقاتنا» و«جنوننا»، وهل يخلو امرؤ منهما.

إنما تكمن الصداقة فى الاختلاف، لا فى الاتفاق. وفى الحقيقة فقد كافأنى الله باعتبارى معلمًا، بستراخوف: وكانت صداقتى معه وعلاقتى به تشكلان دائمًا جدارًا متينًا. كنت أشعر أننى أستطيع دائمًا أن أعتمد عليه، أو بتعبير أدق، أن أستند إليه، فهو جدار لا يخذلك؛ فضلاً عن أنه يشعرك بالدفء».

فى الواقع، كنت أنا وزوجى نعتبر أنفسنا أناسًا لهم مزاج مختلف تمامًا، لهم طابع آخر، رؤى مختلفة، لكننا بقينا على سجيتنا دائمًا، لم يتدخل أحدنا فى شؤون الآخر، لم يقلده، لم يقتحم عالمه النفسى. وهكذا كنت وزوجى الطيب نشعر بحرية أرواحنا. كان فيودور ميخايلوفيتش يفكر كثيرًا وحده فى الأسئلة العميقة للنفس البشرية. وكان يقدر لى عدم تدخلى فى حياته النفسية والعقلية، ولهذا كان كثيرًا ما يقول لى : «أنت المرأة الوحيدة التى فهمتنى!» (هذا ما كان يمثل أكثر الأشياء أهمية بالنسبة إليه) وكانت علاقته بى تمثل «جدارًا متينًا (وكان يشعر بذلك)، كان باستطاعته أن يعتمد عليه، أو بتعبير أدق، يستند إليه. وهو جدار لا يخذلك؛ فضلا عن أنه يشعرك بالدفء».

وهذا هو ما يفسر، من وجهة نظرى، هذه الثقة المدهشة التى كان زوجى يوليها لى ولكل تصرفاتى، على الرغم من أن كل ما فعلته، لم يكن يتجاوز إطلاقًا حدود المألوف.

إن هذه العلاقة، من طرفيها، أعطتنا إمكانية أن نواصل حياتنا الزوجية على مدى أربعة عشر عامًا فى سعادة أرضية متاحة لمن أراد من الناس.

التعليقات

لم تصدر مذكرات أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا كاملة على الإطلاق. وقد قام ليونيد بتروڤيتش جروسمان(*) بنشر أكثر الطبعات اكتمالاً فى عام ١٩٢٥ ــ انظر أ. ج. دستويڤسكايا، جوسيزدات، موسكو ــ لينينجراد ١٩٢٥ ويتضمن هذا الكتاب كل ما يتعلق بحياة دستويڤسكى، وكذلك مقطعين مستقلين ــ «ردى على ستراخوف» و«أصحاب المذكرات». وقبل ذلك بفترة، فى عام ١٩٢٣، نُشر لأنا جريجوريڤنا عمل آخر بعنوان «اليوميات».

لقد شكلت المذكرات ويوميات عام ١٨٨٧، اللتان نشرتا فى العشرينيات (من القرن العشرين) حدثًا أدبيًا كبيرًا. وقد تمت ترجمتهما إلى اللغات الأوروبية الأساسية ــ ومنذ ذلك الحين أصبحتا محلاً لاهتمام الباحثين فى إبداع دستويڤسكى، سواء من الأجانب أو السوڤييت، باعتبارهما مادة ذات أهمية قصوى لدراسة حياة وإبداع الكاتب. على أن نقصًا شَابَ الطبعة الأولى من المذكرات، ظهر فى افتقارها إلى استخدام هيئة تقوم بالمراجعة العلمية، وإلى تعليقات تاريخية أدبية، إذ تمثل هذه التعليقات أهمية فائقة لكتب الذكريات.

لقد أصبحت ذكريات أنّا جريجوريڤنا عملاً ببليوجرافيا نادرًا. وقد أعاد نشر مقاطع منها فى كتاب «فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه» (١٩٦٤)،

(*) ليونيد بتروڤيتش جروسمان (١٨٨٨ ــ١٩٥٦): عالم سوڤييتى متخصص فى الدراسات الأدبية. له دراسات عن دستويڤسكى وبوشكين وتراجم فى قالب روائى(المترجم).

أعاد القارئ إلى صفحات مختارة من كتابىّ أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا، وأكد فى الوقت نفسه على ضرورة إعادة إصدار الذكريات فى أكثر صورها الممكنة اكتمالاً.

فى هذه الطبعة من «المذكرات»، وكما فى الطبعة الأولى (١٩٢٥)، يتم نشر الأبواب التى تتعلق مباشرة بحياة دستويڤسكى (بدءًا من عام ١٨٦٦ وحتى عام ١٨٨١). ويضم الكتاب أيضًا أكثر الأبواب أهمية والتى تعود إلى ما قبل عام ١٨٨٦ (قبل لقاء أنّا جريجوريڤنا بدستويڤسكى) وإلى ما بعد عام ١٨٨١ (أى بعد وفاة الكاتب). ففى المذكرات التى سبقت عام ١٨٦٦ تحكى أنّا جريجوريڤنا بالتفصيل عن طفولتها وشبابها، عن والديها، وعن المحيط التى تعيش فيه، وعن أقاربها ــ كان هذا تسجيلاً لحياتها العائلية يتسم بالبساطة. ويتضمن هذا الكتاب، للمرة الأولى منذ تلك الفترة المبكرة، وحتى صدوره فصلين ــ «مجيئى إلى الدنيا» و«التعليم» ومن خلالهما نتعرف على الوضع الذى تشكلت من خلاله شخصية زوجة الكاتب الذكية القادمة على نحو بليغ.

وتتضمن الطبعة التى بين أيدينا، كما فى الطبعة الأولى، مذكرات ما بعد عام ١٨٨١، وذلك فى الفصلين ــ «آفة النسيان عند فيودور ميخايلوڤيتش» (وهذا الفصل يتوافق زمنيًا مع الفترة من ١٨٦٦ وحتى ١٨٨١)، «ردِّى على ستراخوف»، وكذلك الفصل المعنون «حديث مع تولستوى» (وقد نشر للمرة الأولى فى المنتخب «كولتورا» (الثقافة)، المجلد الأول، أوديسا، ١٩٢٣؛ دار نشر «إيسكوستڤو» (الفن)، ١٩٢٣، العدد الثانى)(*).

بدأت أنّا جريجوريڤنا دستوى دستويڤسكايا كتابة مذكراتها منذ عام ١٩١١ وحتى عام ١٩١٦، وقد أوشك العمر على الأفول، غاب العديد من الأحداث عن ذاكرتها، وبدت حتى دفاتر الاختزال والسجلات غير كافية دائمًا لترابط القص على نحو متتابع. أحيانًا ما نجد فى المخطوطات تكرارًا عفويًا، فقرات مفقودة اضطراريًا. لم تنجح أنّا

(*) جزء من هذه الذكريات نشر منه فصل «مقدمة إلى مذكراتى عن المتحف» («كراسنى أرخيف» (الأرشيف الأحمر)، ١٩٢٣، المجلد الثالث).

جريجوريڤنا من إعداد المخطوطة فى شكلها النهائى لدفعها إلى المطبعة: فهى لم تقسمها إلى أجزاء كبيرة، الأمر الذى كان يشكل ضرورة ملحة، كما أنها لم تكن تعطى دائمًا عناوين للعديد من الفصول.

من الجائز أن يكون السبب وراء هذا «النقصان» هو الحجم الكبير للأجزاء غير المتساوية التى تم تحريرها فى الطبعة الأولى (١٩٢٥)، والفقرات المفقودة والاختصارات التى أدخلت على جزء من النص، الذى طبع كاملاً، ومن ثم شوَّه كثيرًا فكرة المؤلف(*) تنقسم «مذكرات» أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا إلى اثنى عشر بابًا تقع فى تتابع زمنى يتفق مع أكثر مراحل حياة دستويڤسكى أهمية. أما عناوين الأبواب فقد وضعتها هيئة التحرير. وينقسم كل باب بدروه إلى فصول، وذلك، فى حقيقة الأمر، بناء على موافقة صاحبة المذكرات، كما ترجع إليها عناوين الفصول (فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة).

وبالمقارنة بالمخطوطة، تم إدخال عدد من التعديلات الضرورية إلى الطبعة الحالية وفقًا لمنطقية السرد وتتابع الفصول، وكذلك إدخال بعض المقاطع المستقلة إلى هذه الفصول.

تم نقل الفصل الأول من الباب الثانى، «العام ١٨٦٧» إلى الباب الثالث تبعًا للفكرة. والفصل الثانى «١٨٧٤. السفر إلى الخارج» إلى الباب السابع، وقد تكرر هذا الفصل فى المخطوطة مرتين. ونقدم فى هذه الطبعة النص الأكثر دقة. ولم نورد فيها الصفحة ٣٤٨، إذ إنها تكررت، وقد تم إدخالها فى السياق الملائم فى الفصل الخامس من الباب السابع. وفى الباب الثامن، الفصل السادس، «العام ١٨٧٧، شراء البيت، السفر إلى ميروبولى، نبوءة فيا» قدمت أنّا جريجوريڤنا ملحوظة غير دقيقة، إذ كان من الضرورى وضع

(*) انظر تعليق س. ليڤين على هذه الطبعة فى مقالة: المخطوط المشوَّه، مجلة ف ليتيراتورنوم بوستو» (فى الموقع الأدبى)، ١٩٢٨ العدد ٢٣، ص ٦٠ ـ ٦٣

الفصل الخامس السابق، «العام ١٨٧٧ ضياع الصالون» فى منتصف هذا الفصل. وقد ظلت هذه الفصول فى الطبعة الحالية دون تعديلات وبنفس التتابع الذى كانت عليه فى المخطوطة. وفى الباب التاسع، الفصل الثالث، «العام ١٨٧٨ التعرف على الأميرين العظيمين»، كتبت الملحوظة التالية على حواف المخطوطة بعيدًا عن خطاب قنسطنطين قنسطنطينوڤيتش»، وحيث إن أنّا جريجوريڤنا لم تضع إشارات دقيقة تبين موضع هذا الخطاب، وحيث أن نقل الخطاب من موضعه يخل بالنص، فقد بقى فى مكانه فى الفصل الثالث من الباب التاسع، على النحو الذى كان عليه فى المخطوطة. تم نقل الفصل الثامن، كما تمت الإشارة من قبل، وهو «آفة النسيان عند فيودور ميخايلوڤيتش، إلى الفصل التاسع من القسم الأخير لمخطوطة أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا، ومن ثم فقد وضع هذا الفصل، خلافًا للطبعة الأولى، فى نهاية الباب لا فى منتصفه. الفصل الثانى، بداية مطلع عام ١٨٨٠ الأمسيات الثقافية. زيارة المعارف»، ويضم الباب العاشر فصلين مستقلين عن المخطوطة، وحيث إن الفصلين يكرر بعضهما بعضًا جزئيًا، ولذلك فقد تم دمجهما فى هذه الطبعة فى فصل واحد.

مخطوطة «مذكرات» أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا محفوظة بمكتبة الدولة بالاتحاد السوڤييتى. التى تحمل اسم ڤلاديمير إيليتش لينين، وتتكون من سبعمائة واثنين وتسعين صفحة بخط صاحبة المذكرات.

المصادر والاختصارات(*)

السيرة ــ ف. م. دستويفسكى، الأعمال الكاملة، الجزء الأول. السيرة، الخطابات وملاحظات من المفكرة. سان بطرسبورج. ١٨٨٣

ڤولوتسكوى ــ م. ف. ڤولوتسكوى. شجرة عائلة دستويفسكى (١٩٠٦ ــ ١٩٣٣)، موسكو، ١٩٣٣

م. د. إ ــ مكتبة الدولة بالاتحاد السوڤييتى، التى تحمل اسم ڤ. إ. لينين.

جروسمان ــ ل. ب. جروسمان، حياة وأعمال ف. م. دستويفسكى. موسكو ــ لييننجراد، ١٩٣٥

جروسمان ــ السمينارات ــ ل. ب. جروسمان، سمينارات دستويفسكى، موسكو ــ براج. ١٩٢٣

مفكرة دستويفسكى ــ أ. ج. دستويفسكايا، المفكرة، ١٨٦٧، موسكو، ١٩٢٣

وثائق ــ فى تاريخ الأدب والمجتمع، الإصدار الأول. ف. م. دستويفسكى، موسكو، ١٩٢٢

دستويفسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠ ــ ف.م. دستويفسكى، الأعمال الكاملة، الروايات. المحرران: ب. توماشيفسكى و ك. خالابايف. الأجزاء من ١ ــ ١٣ موسكو ــ لييننجراد، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠

(*) المصادر والاختصارات التى استخدمتها اللجنة العلمية فى الطبعة الحالية، ما عدا المقال الافتتاحى.

دستويڤسكى، ١٩٥٦ ــ ١٩٥٨ ــ ف. م. دستويڤسكى. الأعمال الكاملة فى عشرة أجزاء، موسكو، ١٩٥٦ ــ ١٩٥٨

دستويڤسكى، الجزء الأول ــ «دستويڤسكى. مواد وأبحاث»، المحرر: أ. س. دولينين، الجزء الأول، براج، ١٩٢٢

دستويڤسكى، الجزء الثانى ــ «دستويڤسكى. مواد وأبحاث»، المحرر: أ. س. دولينين، الجزء الثانى، لينينجراد، ١٩٢٤

دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، الجزأين الأول والثانى ــ «ف. م. دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه»، الجزأين الأول والثانى، المحرر أ.س دولينين، موسكو، ١٩٦٤

زاموتين ــ إ. إ. زاموتين، ف. م. دستويڤسكى فى النقد الروسى، الجزء الأول، ١٨٤٦ ــ ١٨٨١، وارسو، ١٩١٣

ب.ت ــ «البشير التاريخى».

ت. أ، الجزء ١٥ ــ «التراث الأدبى»، الجزء ١٥، موسكو، ١٩٣٤

ل. ف. دستويڤسكايا ــ ل. ف. دستويڤسكايا، دستويڤسكى كما صورته بناته، المحرر: أ. ج. جورتسفيلد، موسكو، براج،١٩٢٢

ح. و ــ «حوليات الوطن».

الخطابات ــ ف. م. دستويڤسكى، الخطابات، المحرر: أ. س. دولينين، الجزء الأول، موسكو ــ لينينجراد، ١٩٢٨؛ الجزء الثانى، موسكو ــ لينينجراد، ١٩٣٠؛ الجزء الثالث، موسكو ــ لينينجراد، ١٩٣٤؛ الجزء الرابع، موسكو، ١٩٥٩

أ. ح. م. أ. ف. ــ الأرشيف الحكومى المركزى للأدب والفن.

الهوامش

(١) المقصود هنا رواية «المقامر».

(٢) يدور الحديث هنا عن ربيب دستويفسكى، ابن زوجته الأولى ماريا ديمتريفنا إيسايفا.

(٣) جرت تلاوة حكم الإعدام على جماعة بتراشيفسكى يوم ٢٢ ديسمبر ١٨٤٩ فى ساحة سيميونوفسكى فى بتروجراد. كان ف.م.دستويفسكى موجودًا فى لحظة نطق الاعدام فى الصف الأول ــ كما جاء فى خطابه لأخيه ــ هو و س.ف. دوروف و أ.ن. بيلشييف فى الصف الثانى (راجع الخطابات، المجلد الأول، ص١٢٨). الصف الأول كان يضم م.ف. بتراشيفسكى، ن.أ. مومبيللى، ن.ب جريجورييف (انظر كتاب د.أخشاروموف، مذكرات جماعة بتراشيفسكى، موسكو ــ ليننجراد، ١٩٣٠).

(٤) الخطاب مؤرخ الثانى والعشرين من ديسمبر عام ١٨٤٩ (الخطابات، المجلد الأول، ص١٢٨ ــ ١٣١) أعاده ميخائيل ميخايلوفيتش دستويفسكى الصغير، ابن ميخائيل ميخايلوفيتش دستويفسكى.

(٥) بعد وفاة كل من ماريا ديمتريفنا إيسايفا و ميخائيل ميخايلوفيتش دستويفسكى، كان دستويفسكى بالفعل» وحيدًا تمامًا، محاطًا بدائنى مجلتى «الزمن» و «العصر» (سيأتى الحديث عن ذلك لاحقًا).

(٦) كانت رواية «المقامر» تسمى فى البداية «روليتنبورج».

(٧) كانت الديون على مجلة «العصر» (لا «الزمن»). وظلت قائمة بعد إغلاق المجلة التى كانت تصدر فى الفترة من ١٨٦٤ إلى ١٨٦٥ بدلاً من مجلة «الزمن» التى تم فرض الحظر عليها (فى أبريل ١٨٦٣) بعد وفاة ميخائيل ميخايلوفيتش دستويفسكى (فى يوليو ١٨٦٤)، وقد أخذ ف. م. دستويفسكى على عاتقه إدارة «العصر». ويذكر دستويفسكى فى خطابه إلى فرانجيل والمؤرخ ٣١ مارس ١٨٦٥ أن ديون المجلة بلغت ثلاثة آلاف روبل (انظر، الخطابات، المجلد الأول، ٣٩٦ـ٤٠٣).

(٨) تقصد أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا هنا قيام ف.ن ستيلوڤسكى بنشر أعمال كل من أ.ف. بيسيمسكى و ڤ.ڤ. كريستوڤسكى بشروط مجحفة لهم، وكذلك قيامه بشراء مؤلفات جلينكا الموسيقية من أخته ل.إ.شيستاكوڤا فى عام ١٨٦١ مقابل ٢٥ روبلاً. وفى عام ١٨٦٦ بدأت المحكمة فى نظر قضية تنفيذ العقد بين ستيلوڤسكى وشيستاكوڤا (تقارير المحاكمة نشرت فى صحيفة «جولاس» (الصوت) عام ١٨٦٧، العدد ١٣٦؛ وفى صحيفة «بيتربورجسكى فيدوموستى» (الوقائع البطرسبورجية) عام ١٨٦٧، العددين ١٠٨، ١٣٦). وفى هذا الصدد كتب دستويڤسكى إلى أ. ن. مايكوف حول ستيلوڤسكى فى خطابه المؤرخ ١٩ مارس (الأول من أبريل) ١٨٧١ يقول: «لديه من الأموال ما يستطيع بها شراء الأدب الروسى كله إذا أراد. ألم يكن لدى هذا الرجل ما يكفيه من مال حتى يشترى كل مؤلفات جلينكا مقابل ٢٥ روبلاً» (الخطابات، المجلد الثانى، ص ٣٣٨).

(٩) عن أ. ن. مايكوف، أ. ب. ميليوكوف، إ. ج. دولوجوموستيڤ انظر التعليقات ٣٧، ٣٩، ١٨٩

(١٠) الملاحظة السابقة غير صحيحة، فمذكرات أ.ب. ميليوكوڤا نشرت فى

البداية فى «البشير التاريخى» ثم فى «روسكايا ستارينا» (الماضى الروسى)، ١٨٨١، الأعداد ٣،٥، ثم ظهرت فى كتاب ميليوكوف «لقاءات وصداقات أدبية»، سان بطرسبورج ١٨٩٠، ص ١٦٧ ــ ٢٤٩ وفى هذه المذكرات يورد ميليوكوف هذا الحوار الذى دار بينه وبين دستويفسكى:

ألا تود أن نقوم بعمل ما. اجمع الآن عددًا من رفاقنا؛ قص علينا موضوع الرواية، ثم سنقوم نحن بتقسيمها، نقسمها إلى فصول، ثم نكتبها معًا. أنا على ثقة أن أحدًا منا لن يعترض. بعد ذلك تقوم أنت بمراجعتها وتهذيبها أو إزاحة ما يبدو متنافرًا، يمكننا بالتعاون معا أن ننجح فى إتمام العمل فى موعده. سوف تسلم الرواية لستيلوفسكى وتنجو من الحبس. فإذا كنت تشفق على قصتك من هذه التضحية، فلنفكر فى شىء آخر جديد.

(١١) بخصوص العلاقة بين تورجينيف ودستويفسكى انظر الهامش رقم ٦٩

(١٢) تم القبض على دستويفسكى فى الثالث والعشرين من أبريل عام ١٨٤٩ فى قضية بتراشيفسكى وسجن فى قلعة بتروباڤلوڤسك، وظل بها حتى الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٤٩، ثم نُفى إلى سيبيريا.

(١٣) المقصود هنا عائلة ڤيرا ميخايلوڤنا إيڤانوڤا، شقيقة الكاتب الأثيرة لديه. كتب لها دستويفسكى ولزوجها أ. ب. إيڤانوف فى الأول من يناير عام ١٨٦٦ يقول: «ومن أعز وأغلى عندى (وعند أنّا جريجوريڤنا) سواك وسوى أسرتك؟» (عن عائلة ڤ. م. إيڤانوڤا انظر كتاب ڤولوتسكى، ص١٨٧ ــ ٢٤٧

(١٤) يدور الحديث هنا عن ماريا ديمتريڤنا إيسايڤا. للمزيد عنها انظر ج. بروخوروف، روايات دستويفسكى ــ فى كتاب «المنتخب الأدبى الفنى»، دار نشر «كراسنايا بانوراما»، ١٩٢٨، يوليو؛ ص ٥٦ ــ ٦٤؛ م. ل. سلونيم. ثلاث قصص غرامية فى حياة دستويفسكى نيويورك، ١٩٥٣؛

ن.إ.ياكوشين، دستويڤسكى فى سيبيريا، كيميريڤو، ١٩٦٠؛ ل. ب. جروسمان، دستويڤسكى، موسكو ١٩٦٢

(١٥) الأرجح أن أنّا جريجوريڤنا تقصد خطاب دستويڤسكى إلى ڤرانجيل المؤرخ ١٨ فبراير ١٨٦٦، إذ إن الخطاب المؤرخ نهاية ١٨٦٦ غير معروف، أما الخطاب المؤرخ ١٨ فبراير ١٨٦٦ فقد ورد فى «السيرة الذاتية» صفحة ٢٨٨ يقول دستويڤسكى فيه لڤرانجيل: «أنت، على الأقل، سعيد فى حياتك العائلية، أما أنّا فقد حرمنى القدر من السعادة الإنسانية الوحيدة..» (الخطابات، المجلد الأول، ص ٣٤٢).

(١٦) عن قصة حب دستويڤسكى لأنّا ڤاسيليڤنا كورڤين ــ كروكوڤسكايا تحكى أختها صوفيا كوڤاليڤسكايا فى «مذكرات الطفولة» (انظر ت. ف. كوڤاليڤسكايا، مذكرات، خطابات، دار نشر أكاديمية العلوم السوڤييتية، موسكو، ١٩٦١). على أنه لايتضح لنا من خلال هذه المذكرات (فى هذا الشأن وفى صفحات تالية) أن أنّا ڤاسيليڤنا، كما كتبت أنّا جريجوريڤنا، كانت مخطوبة لدستويڤسكى ولو لفترة قصيرة، وأن دستويڤسكى، لاعتبارات فكرية، «فسخ هذه الخطوبة». واستنادًا إلى شهادة صوفيا كوڤاليڤسكايا، فإن أنّا ڤاسيليڤنا قالت لأختها بعد تقدم دستويڤسكى لخطبتها مباشرة: إنه ليس بحاجة إلى امرأة مثلى تكرس حياتها من أجله ولا تفكر فى شىء سواه، وهو ما لا أستطيع القيام به، أنا نفسى أريد أن أعيش !» (صوفيا كوڤاليفسكايا، مذكرات وخطابات، موسكو، ١٩٦١، ص ١٢٠). وقد انعكست علاقة دستويڤسكى بأنّا ڤاسيليڤنا كورڤين ــ كروكوڤسكايا فى إبداعه الفنى. ويمكن أن نتعرف على عدد من الملامح النفسية والخصال الأخلاقية لها فى شخصية أجلايا فى رواية «الأبله» (انظر فى هذا الشأن كتاب إدوارد هالت كار «دستويڤسكى»، لندن، ١٩٣١)، وفى شخصية أخماتوڤا فى رواية («المراهق»)، وفى شخصية كاترينا إيڤانوڤنا فى رواية

(الإخوة كارامازوف) وحول علاقات دستويفسكى بأنّا فاسيليفنا كورفين ــ كروكوفسكايا انظر مقال إ. شبا داروك «كورفين ــ كروكوفسكايا» مجلة «نيمان»، ١٩٦٦، العدد ١١، ص ١٤٣ ــ ١٥٠

(١٧) تعد رواية «المقامر» فى معظمها سيرة ذاتية ينعكس فيها ولع دستويفسكى الطويل بالقمار فى أثناء وجوده بالخارج فى الفترة من ١٨٦٢ إلى ١٨٦٣ وفى عام ١٨٦٥، كما يصف فيها حبه لأبوليناريا سوسلوفا (انظر كتاب أ. ب. سوسلوفا، سنوات بالقرب من دستويفسكى، موسكو، ١٩٢٨؛ أ. س. دولينين؛ دستويفسكى وسوسلوفا فى كتاب «دستويفسكى»، المجلد الثانى، ص١٥٣ ــ ٢٨٤؛ أ. ل. بيم «المقامر» لدستويفسكى («فى ضوء معلومات بيبلبوجرافية جديدة»). ــ مجلة «سوفريمنى زابيسكى»، باريس ١٩٢٥، الكتاب الرابع والعشرين، ص ٣٧٢ ــ ٣٩٢.

(١٨) تعرف دستويفسكى على التنويرى الكازاخى وعالم الأثنوجرافيا والرحّالة تشوكان تشينجيزوفيتش فاليخانوف فى مدينة أومسك فى فبراير عام ١٨٥٤، حيث كان تشوكان فاليخانوف يدرس فى المدرسة العسكرية. تحولت معرفة دستويفسكى به إلى صداقة متينة. وفى خطابه المؤرخ الرابع عشر من ديسمبر عام ١٨٥٦ كتب دستويفسكى له قائلاً: «لم أشعر بهذا الانجذاب نحو إنسان إطلاقًا، حتى أخى، بمثل ما شعرت به نحوك» (الخطابات، المجلد الأول، ص ٢٠٠). حول علاقة دستويفسكى وفاليخانوف انظر ف. مانويلوف، تشوخان فاليخانوف صديق ف. م. دستويفسكى. ــ «أعمال معهد لينينجراد للمكتبات»، ١٩٥٩، المجلد الخامس، ص ٣٤٣ ــ ٣٦٩.

(١٩) صوفيا ألكسندروفنا إيفانوفنا (١٨٤٦ ــ ١٩٠٧) (صوفيا خميروفا بعد الزواج) ابنة أخت دستويفسكى (تنسب إلى زوجها إيفانوف)، يحمل لها

دستويڤسكى إعزازًا خاصًا. وكان يقدرها لرجاحة عقلها وطهارة قلبها، وكان يأتمنها فى خطاباته على أسراره الإبداعية وخصّها بالعديد من الحقائق عن حياته الخاصة. وقد أهدى دستويڤسكى لها رواية «الأبله» وأطلق على ابنته اسمها تكريمًا لها. عن صوفيا إيڤانوڤنا انظر كتاب ڤولوتسكى (شجرة عائلة دستويڤسكى ــ مرجع سابق) ص١٩٤ــ١٩٩

(٢٠) خطاب أ. ف. كورڤين ــ كروكوڤسكايا المؤرخ أوائل نوفمبر ١٨٦٦، والتى أعربت فيه لدستويڤسكى عن معاناتها الشخصية، وأبلغته بخططها الأدبية، كما عبرت له عن مشاعر الصداقة والود التى تحملها تجاهه (انظر المنتخب الأدبى الفنى «كراسنايا بانوراما»، ١٩٢٩، مايو، ص ٤٠ ــ ٤١).

(٢١) كانت أنّا جريجوريڤنا ترتدى ملابس الحداد على أبيها.

(٢٢) لم يتم العثور على آراء دستويڤسكى نفسه حول مسرحية ألكسى تولستوى «موت إيڤان الرهيب». المعروف فقط هو ما كتبته فى هذا الشأن أنّا جريجوريڤنا فى نهاية مذكراتها، كيف أن دستويڤسكى كان ينوى فى مطلع شهر فبراير ١٨٨١ أن يؤدى دور الراهب فى هذه المسرحية، فى العرض الذى كان من المفترض أن يقام فى بيت صوفيا تولستايا. تقول إبنة الكاتب فى مذكراتها، «إن دستويڤسكى راح ذات مرة يقرأ علينا قصائد لبوشكين وألكسى تولستوى، باعتبارهما أفضل الشعراء عنده» (ل. ف. دستويڤسكايا، ص٨٩).

(٢٣) عن ذلك كتب كل من د. ف. جريجورڤيتش، ف. ف. تيموفييفا (أ. بوتشينكوڤسكايا) (انظر: دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، المجلد الأول، ص ١٢٧، المجلد الثانى، ص١٢٦)، ن. ن. ستراخوف (انظر، السيرة الذاتية، ص٣١٧). بالإضافة إلى ذلك يتذكر المطران م. أ. ألكسندروف، الذى كان كثيرًا ما يلتقى بدستويڤسكى بقوله: «يشبه الانطباع الأول الذى تركه علىّ فيودور ميخايلوڤيتش تلك الانطباعات

التى تركها على معظم الناس الذين تعامل معهم للمرة الأولى، وبخاصة تلك الانطباعات التى تبقَّت لدى هؤلاء، الذين لم يتسن لهم اختبار التجاوب مع فيودور ميخايلوڤيتش (دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، المجلد الثانى، ص٢١٨).

(٢٤) لم تكن طفولة دستويڤسكى «طفولة هادئة سعيدة» كما كتبت أنّا جريجوريڤنا، وذلك يعود إلى والده العبوس، حاد الطباع. يقول أ. ى. فرانجيل فى خطابه إلى دستويڤسكى، المؤرخ ٩ مارس١٨٥٧: إن أكثر ما يقلقنى عليك، يا صديقى، هو علاقتك بوالدتك. أعلم، أعلم جيدًا (استنادًا إلى خبرتى) أن مثل هذه الأمور المزعجة تكون غير محتملة (...). إن أمثال والدك ــ هم خليط من الشك المقيت، والحساسية المفرطة إلى حد المرض، وطيبة القلب. إننى لا أعرفه شخصيًا، وإنما أطرح رأيى عنه، إذ عرفت فى حياتى مرتين، مثل هذه العلاقات القائمة بينك وبينه» (الخطابات، المجلد الأول، ص٢١٥) يصف أندريه ميخايلوڤيتش، الأخ الأصغر للكاتب، فى «مذكراته» (لينينجراد، ١٩٣٠) أمهم، ماريا فيدورڤنا «باعتبارها امرأة نادرة الطيبة، مرهفة، حنون، لديها موهبة أدبية وموسيقية. ومن الجائز أن تكون أم أليوشا فى «الإخوة كارامازوف» مستوحاة من ذكرياته عن ماريا فيدوروڤنا.

(٢٥) تقصد أنّا جريجوريڤنا اشتراك دستويڤسكى فى حلقة بتراشيڤسكى، التى حكم عليه بسببها بالإعدام، الذى خفف بالأشغال الشاقة لمدة أربع سنوات ثم الخدمة العسكرية لمدة خمس سنوات فى كتيبة حدودية فى سيبيريا.

(٢٦) هذا المقطع غير موجود فى «المذكرات».

(٢٧) الإشارة إلى هروب ش. ف. چاكلار إلى ألمانيا من القلعة الواقعة قرب الحدود إشارة خاطئة. فى الحقيقة فإن چاكلار كان معتقلاً فى سجن شانتيه

فى ڤرساى حيث هرب منه إلى چينيڤ فى السابع من أكتوبر ١٨٧١ لمزيد من التفاصيل عن هروبه واشتراك والد أنّا ڤاسيليڤنا، الجنرال ف. ف. كورڤين ــ كروكوڤسكى انظر كتاب إ. س. كنيچنيك ــ ڤيتروڤ: الناشطات الروسيات فى الإنترناسيونال الأول وكومونة باريس، لينينجراد، ١٩٦٤ ص ١٩٠ ــ ٢٠٣

(٢٨) فى الثانى والعشرين من مارس ١٨٨٧ تلقى چاكلار إنذارًا من وزير الداخلية يقضى بمغادرته روسيا فى خلال ثلاثة أيام. وفى الثانى من أبريل ١٨٨٧ كتبت أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا خطابًا إلى ى. أ. بوبيدونوستسيڤا، زوجة قنسطنطين بوبيدونوستسيڤ تطلب فيه أن يقدم خدمة لأنّا ڤاسيليڤنا بحيث يسمح لزوجها، الذى أبعد عن العاصمة لمدة يومين للاشتباه السياسى، فرصة البقاء لبضعة أسابيع لتدبير أمورهم، ومرافقة زوجته المريضة وطفلهما الصغير للسفر إلى الخارج. وبعد بقاء چاكلار فى روسيا، نبهت أنّا جريجوريڤنا بوبيدونوستسيڤ للاستفسار عن موضوع چاكلار. وفى الرابع من أبريل ١٨٨٧ أبلغ رئيس قسم الشرطة إ. دورنوڤو بوبيدونوستسيڤ أنه قد أصدر أمرًا بتأجيل مغادرة چاكلار بطرسبورج إلى عشرة أيام. (انظر قنسطنطين بوبيدونوستسيڤ ومراسلاته»، المجلد الأول، الكتاب الثانى، موسكو، براج، ١٩٢٣، ص ٦٨٠ ــ ٦٨٢)

(٢٩) الخطابات، المجلد الثانى، ص ٥ ــ ٦

(٣٠) فى خطابه إلى م. ى. سالتيكوڤ ــ شيدرين المؤرخ ٢٤ سبتمبر (٦ أكتوبر حسب التقويم القديم) ١٨٨٢، كتب تورجينيڤ يقول: «قرأت أنا أيضًا مقالة ميخايلوڤسكى («موهبة قاسية») وقد انتبه هو أيضًا بشكل مؤكد للخاصية الأساسية فى إبداعه، وقد استطاع (ميخايلوڤسكى) أن يتذكر أن هناك ظاهرة مماثلة له (دستويڤسكى) فى الأدب الفرنسى وهى، تحديدًا،

الماركيز دى ساد سيئ السمعة» (إ. س. تورجينيف، الأعمال الكاملة والخطابات، الخطابات المجلد ١٣، الكتاب الثانى، موسكو ــ ليننجراد، ١٩٦٨،ص٤٩). وقد عبر تورجينيف عن نفس الفكرة أيضًا فى خطابه إلى ب. ڤ. أنينكوف المؤرخ ٢٥ سبتمبر (٧ أكتوبر حسب التقويم القـديم) ١٨٨٢ . عن علاقة تورجينيف بدستويڤسكى. اقرأ التعليق رقم ٦٩

(٣١) عـن الانطبـاع الكـبير الذى تركته رواية «الجريمة والعقاب» على المعاصرين، انظر مذكرات ن. ن. ستراخوف فى كتاب: السيرة الذاتية، ص ٢٨٩ــ٢٩٠ وأ. ف. كونى فى كتاب: أ. ف. كونى، الأعمال الكاملة، المجلد السادس، موسكو،١٩٦٨، ص ٤٣٠ــ ٤٣١، وكذلك كتاب: زاموتين، ص٨٣ ــ١١٥، حيث تم جمع الآراء المنشورة فى الصحف والمجلات الدورية الروسية حول نشر رواية «الجريمة والعقاب». يتذكر أ.ف. كونى لقاءه بمايكوف فور صدور الرواية قائلاً: «قابلنى مايكوف وكان واقعًا تحت تأثير قراءته للجزء الأول من «الجريمة والعقاب»، الذى كان قد صدر لتوه فى مجلة «البشير الروسى». قال لى: «استمع إلى ما سأقرؤه عليك. إنه شىء مدهش!»، وبعد أن أغلق باب مكتبه علينا، حتى لايزعجنا أحد، قرأ علىَّ المقطع الشهير لحديث مارميلادوف فى الخمارة، ثم أعارنى العدد نفسه لعدة أيام. وما تزال تنتعش بداخلى حتى اليوم، وبعد مرور بضع سنوات، هذه المشاعر التى مررت بها آنذاك بكل تفاصيلها، والانفعال الذى داهمنى من جراء تعرفى على هذا العمل بالغ التأثير».

(٣٢) أبناء ميخائيل ميخايلوڤيتش دستويڤسكى وإميليا فيدوروڤنا دستويڤسكى هم: ميخائيل ميخايلوڤيتش الصغير وفيودور ميخايلوڤيتش الصغير. للمزيد عنهم انظر كتاب ڤولوتسكى «شجرة عائلة دستويڤسكى» ص ١٠٤_١٠٨

(٣٣) تقاضى دستويفسكى من هيئة تحرير «البشير الروسى» ١٥٠ روبلاً للملزمة على نشر روايات «الجريمة والعقاب»، «الأبله»، «الشياطين». ومن هيئة تحرير «حوليات الوطن» على ٢٥٠ روبلاً للملزمة على نشر رواية «المراهق». ومن هيئة تحرير «البشير الروسى» على ٣٠٠ روبل للملزمة فقط عند نشره لروايته الأخيرة «الإخوة كارامازوف» (انظر ل.ك. إيلينسكى، رواتب دستويفسكى. ــ «الملازم الببليوجرافية للجمعية الروسية للمكتبات»، ١٩٢٢، العدد، العدد الثالث، ص ٤ ــ ٩). على رواية «أبناء وبنون» تقاضى إ.س. تورجينيف من «البشير الروسى» ٤٠٠ روبل على الملزمة، واقترحت عليه المجلة نفس المبلغ على الملزمة فى رواية «الدخان» (انظر خطاب تورينيف إلى كاثوكوف المؤرخ ٢٣ مارس (٤ أبريل حسب التقويم القديم) ١٨٦٢ و ٣ (١٥) أغسطس ١٨٦٦ فى كتاب إ.س. تورجينيف، الأعمال الكاملة والخطابات، الخطابات، المجلد الرابع، موسكو ـ لينتجراد، ١٩٦٢، ص ٣٦٥، المجلد السادس، موسكو لينتجراد، ١٩٦٣، ص ٩٣)

(٣٤) فى الواقع إن معظم النقاد لم يدركوا الشكل الخاص بأعمال دستويفسكى، على سبيل المثال، كان رأى مجلة «ديلو» (القضية) قد أثنى على الكاتب لمشاعره الإنسانية، التى ألهمته عند إبداعه «الإخوة كارامازوف» لكن الرواية نفسها اعتبرت غير مرضية من الناحية الفنية («ديلو، ١٨٨١، الأعداد ٢ ــ ٤)، أما الناقد الشهير ف. ف. تشويكو فقد كتب عن «الإخوة كارامازوف»: «الرواية فى بعض صفحاتها تتلألأ بموهبة مذهلة، ولكنها فى معظمها تتكون من أشياء سخيفة غير متناسقة (...)، وبعد ذلك فإنها مملة للغاية بسبب طولها وما بها من تكرار» («نوفوستى»(الأنباء)، ١٨٨٠، العدد ٣٤٧). وحتى دستويفسكى نفسه كان يدرك أنه لايستطيع ولا يريد أن يكتب بطريقة أخرى. يقول دستويفسكى فى خطابه لستراخوف: «لقد أشرت بدقة متناهية إلى العيب الرئيسى لدىّ. حقًا، لقد عانيت وما زلت

(ولم اتعلم) من هذا العيب؛ لم أعرف مطلقًا حتى الآن أن أتملك أدواتى. العديد من الروايات والقصص تتداخل بعضها مع بعض فى رواية واحدة، وهنا تضيع المعايير ويختفى الانسجام (...) ولكن هناك أيضًا ما هو أسوأ، فعندما أسىء استخدام أدواتى، وأندفع وراء الهوس الإبداعى، لايصبح بمقدورى عندئذ التعبير عن الفكرة فنيًا» (ف. م. دستويڤسكى قد أكد فى الوقت نفسه أنه «لايعرف شيئًا أكثر واقعية من هذه...»، أى الوسائل الأكثر حدة، «الملعونة» (المصدر السابق، المجلد الرابع، ص٥٧).

(٣٥) قبيل لقائه بأنّا جريجوريڤنا، كتب دستويڤسكى فى السابع عشر من يونيو ١٨٦٦ خطابًا إلى أ. ڤ. كورڤين ـ كروكوڤسكايا يقول فيه «إننى على يقين أنه ليس هناك من بين أدبائنا السابقين أو الأحياء من كتب فى مثل هذه الظروف، التى أكتب فيها دائمًا. لعل تورجينيف يشعر بالغيرة من أفكارى، ولكنك تعلمين كم هو صعب على المرء أن يفسد الفكرة التى ولدت بداخله، والتى تأخذه إلى الحماس. عندما تعرفين أنت نفسك أنها فكرة جيدة، ثم تضطرى لإفسادها عن وعى إ (الخطابات، المجلد الأول، ص٤٣٨). انظر أيضًا خطابات دستويڤسكى بشأن رواية «الأبله» إلى صوفيا إيڤانوڤنا المؤرخة العاشر من أبريل والثلاثين من مارس عام ١٨٦٨، وإلى أبوللون مايكوڤ المؤرخة السابع من نوفمبر والسادس والعشرين من أكتوبر ١٨٦٨ (الخطابات، المجلد الثانى، ص١١١، ١٣٩، ١٤١).

(٣٦) الخطابان مؤرخان التاسع والعشرين من ديسمبر ١٨٦٦، والثانى من يناير ١٨٦٧ (انظر، الخطابات، المجلد الأول، ص ٤٥٠ ـــ ٤٥٤).

(٣٧) انعقدت أواصر الصداقة بين دستويڤسكى وميليوكوڤ، الكاتب والمعلم منذ الأربعينيات؛ ولم تنقطع هذه الصلة بعد عودة دستويڤسكى من المنفى (انظر خطابات دستويڤسكى إلى ميليوكوڤ المؤرخة العاشر من نوفمبر

١٨٦٠ ويوليو ١٨٦٦، الثالث عشر من نوفمبر ١٨٦٦ الخطابات، المجلد الأول، ص ٢٩٩، ٤٤٢،٤٥٦). على أن العلاقة بينهما كانت تخلو من المودة، وهو ما تدل عليه كلمات دستويفسكى التى نقلتها أنّا جريجوريڤنا: «لم تسر أمورنا معًا بسبب وقاحة أسلوبه»؛ فضلا عن آراء دستويفسكى السلبية عنه، إبان وجوده فى الخارج، فى الفترة من ١٨٦٧ إلى ١٨٧١ والتى انعكست فى خطاباته إلى إميليا فيدوروڤنا دستويفسكايا، ونيكولاى ستراخوف وأنّا جريجوريڤنا دستوڤسكايا. على أنه لا توجد معلومات دقيقة أن ميليوكوف تحديدًا هو صاحب المقال المنشور فى صحيفة «صن أوتشيستڤا» («ابن الوطن»). وفى عام ١٨٩٠ ظهر كتاب ألكسندروڤيتش ميليوكوف «لقاءات ومعارف أدبية»، خصص فيه فصلاً كاملاً لمعرفته وصداقته بفيودور ميخايلوڤيتش دستويفسكى.

(٣٨) فى اليوم الأخير من أيام أعياد الصوم الكبير تناولنا طعام الغداء عند أقاربنا، وفى معلومة غير دقيقة. فقد أشارت أنّا جريجوريڤنا نفسها إلى أن پاڤل ألكسندروڤيتش إيسايف، ربيب دستويفسكى، كان يصغرها بعدة شهور فقط.

(٣٩) دولجوموستييف، إيڤان جريجوريڤيتش (؟ ـ ١٨٦٧): مترجم وصحفى، عمل بمجلتى دستويفسكى «الزمن» و«العصر». واحد من أكثر أنصار نزعة «العودة إلى الأرض» المتحمسين إلى حد التطرف واستنادًا إلى مذكرات ستراخوف. فقد أصابه مرض التسلط الفكرى بسبب الجدال الحاد المرهق الذى امتد لسنوات طويلة والتفكير المضنى فى «العودة إلى الأرض» (انظر السيرة الذاتية، ص٢٠٥، ٢٠٦). عن ستراخوف انظر الجزء الثانى عشر من هذا الكتاب (الفصل الثانى، الرد على ستراخوف) وكذلك التعليق رقم ٢٩٦

(٤٠) ولد باڤل ألكسندروڤيتش إيسايف عام ١٨٤٦

(٤١) فى يوليو ١٨٤٢ وفى صيف ١٨٤٦ سافر دستويڤسكى إلى ريڤيل ليلتقى بأخيه ميخائيل ميخايلوڤيتش دستويڤسكى.

(٤٢) عن وصول دستويڤسكى فى صيف ١٨٦٦ إلى داتشا آل إيڤانوڤ فى ضاحية ليوبلينا (قرب موسكو) انظر مذكرات ن. ن. فون ــ فوخت «مدخل إلى سيرة دستويڤسكى» ــ مجلة «البشير التاريخى» ١٩٠١، العدد ١٢، ص ١٠٢٣ ــ ١٠٣٣ يصف ن. ن. فون ــ فوخت وصول دستويڤسكى إلى ليوبلينا أنه أسعد أيام الكاتب، عندما استطاع أن يستجم من خلال اللعب والمرح مع الشباب من العمل المضنى الذى بذله فى كتابة رواية «الجريمة والعقاب».

(٤٣) عن رقابة الشرطة لدستويڤسكى انظر مقالة ى. ج. أوكسمان «التعليمات السرية الخاصة بدستويڤسكى» فى كتاب: «إبداع دستويڤسكى، أوديسا، ١٩٢١، ص ٣٦ ــ ٣٨، وكذلك فى الفصل السابع من هذا الكتاب وفى مقالنا المترجم المنشور بمجلة «ضاد» والمشار إليه سابقًا).

(٤٤) لمزيد من التفاصيل عن حياة ف. م. دستويڤسكى و أ.ج. دستويڤسكايا فى الخارج فى عام ١٨٦٧ انظر مذكرة الكاتب.

(٤٥) فى متن «المذكرات» لم تأت أنّا جريجوريڤنا على ذكر أى خطاب من خطابات دستويڤسكى إليها تقصد. الأرجح أن هذا الخطاب قد فقد، إذ إن هذا المقطع لم يرد ذكره فى «الخطابات» التى تم إصدارها فى أربعة مجلدات. وعن نفس المقطع تحكى أنّا جريجوريڤنا فى «مذكرة دستويڤسكايا» (ص١٠٥) مشيرة إلى أنه مؤرخ السادس والعشرين من مايو (٧ يونيو) عام ١٨٦٧

(٤٦) فى مذكرة الكاتب غن يوم ١٨ أبريل ١٨٦٧ يوجد التسجيل الآتى: «وأخيرًا قادنى فيودور ميخايلوڤيتش إلى لوحة السيستينية. لا توجد هناك حتى الآن لوحة تركت لدىّ هذا الأثر مثلما تركته هذه اللوحة. أى جمال هذا. أية براءة وأى حزن فى هذا الوجه الربانى. كم من تواضع، كم من معاناة فى هاتين العينين. كان فيديا يرى الألم فى ابتسامة المادونا» (ص ١٥). وقد ورد ذكر المادونا عدة مرات فى أعمال دستويڤسكى. فى «الجريمة والعقاب» يتحدث سفيدريجايلوڤ عن خطيبته الشابة بقوله: «كان وجهها يشبه مادونا رفاييل. إن للمادونا السيستينية وجهًا رائعًا، وجه برىء ينبض بالألم» _دستويڤسكى، ١٩٥٦ ــ ١٩٥٨، الجزء الخامس، ص٥٠٢).

(٤٧) تقصد أنّا جريجوريڤنا أعمال الرسام ڤاسنيتسوف التى رسمها فى أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات على حوائط كنيسة ڤلاديمير فى كييڤ مستوحيًا فيها موضوعات من الكتاب المقدس.

(٤٨) فى يوميات أنّا دستويڤسكايا نجد تعليقًا مؤرخًا فى العشرين من أبريل حول لوحة تيتسيان «المسيح والقطعة النقدية» جاء فيها: «هذه اللوحة الرائعة، على حد تعبير فيديا، يمكن أن توضع على قدم المساواة مع مادونا رفاييل. هنا يعبر وجه المسيح عن التواضع الجم. والسمو والألم» (ص١٩).

(٤٩) لوحتا الفنان الفرنسى كلود لوران «الصباح» و«المساء» غير موجودتين فى قاعة درزدن، وإنما فى متحف الإرميتاج فى بطرسبورج. وتعرف الأولى ــ «الصباح» أيضًا باسم «لقاء يعقوب وراشيل»، أما اللوحة الثانية لكلود لوران «أسيس وجالاثيا» فهى التى أطلق عليها دستويڤسكى اسم «العصر الذهبى»، وهى موجودة فى قاعة درزدن للفنون وموضوع لوحة «أسيس وجالاثيا» مأخوذ من كتاب «التحولات» لأوڤيد والمنشور فى القرن الثالث عشر الميلادى، ويحكى قصة غرام الفتاة جالاثيا بالشاب أسيس، وقد

استعان دستويفسكى بهذه اللوحة ثلاث مرات فى رواياته: «الشياطين» («اعتراف ستاڤروجين») وفى «المراهق»(حكايةڤيرسيلوف عن الأيام الأولى للإنسانية الأوروبية) وفى «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٧ («حلم رجل مضحك»).

(٥٠) تأكدت العلاقة المشوبة بالشك تجاه موسيقى ڤاجنر فى خطاب دستويفسكى لأنّا جريجوريڤنا من مدينة إمس والمؤرخ السابع من أغسطس (التاسع عشر بالتقويم القديم) من عام ١٨٧٩ حيث يقول: «وعلى الرغم من أن الموسيقى هنا جيدة، ولكن بيتهوفن، موتسارت، ڤاجنر كله (المكر الألمانى الممل، على الرغم من شهرته)، وباقى الأشياء الرديئة» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ٩٠). يمكن تفسير الكراهية لڤاجنر ـ كما يبدو ـ بأن دستويفسكى تربى على الموسيقى الكلاسيكية والرومانسية لجلينكا وبيتهوفن وموتسارت، ينبغى أن نضع فى الاعتبار أيضًا أن دستويفسكى قد استمع إلى ڤاجنر فى قوالب الكونشرتو فقط، فى الوقت الذى لاقت فيه أوبرات ڤاجنر النجاح الأكبر عند تجسيدها مسرحيًا. وفى نفس الوقت كتب دستويفسكى فى عام ١٨٧٣ ردًا من هيئة تحرير مجلة «المواطن» على خطاب أحد القراء من ألمانيا يقول: «وهذه الظواهر، مثل انتشار أفكار شوبنهاور المشبعة بالمهام العميقة، فإن موسيقى ڤاجنر، ترينا، على الأقل، أن الفكر الألمانى العميق والإبداع الفنى مايزالان أحياء، وأنهما مشبعان بالطموحات الرفيعة الكبرى (دستويفسكى، ١٩٢٦ـ ١٩٣٠، المجلد الثالث عشر، ٤٥٦).

(٥١) كان دستويفسكى يداوم كثيرًا على قراءة جيرتسين (ألكسندر جيرتسين ١٨١٢ ـ ١٨٧٠). كان جيرتسين يشكل بالنسبة إليه أهم الكتاب والمفكرين عمقًا ونفاذًا. من الضرورى أن نشير هنا إلى أن إبداع ألكسندر جيرتسين قد ترك اثرًا كبيرًا على دستويفسكى، رغم أن هذا التأثير لم يدرس بعد دراسة كافية. وقد تحدث دستويفسكى عن جيرتسين للمرة

الأولى فى خطابه إلى أخيه ميخائيل فى يناير ١٨٤٦ يتابع بدأب كل أعمال جيرتسين دون استثناء: «من المذنب؟»، «الدكتور كروبوف»التى أصبحت فى مصاف روائع الأدب الروسى والعالمى المفضل عند دستويفسكى. وكان دستويڤسكى يقدر تقديرًا رفيعًا مقالات جيرتسين، وأبحاثه عن أوروبا. التى كانت قريبة منه بروحها المعادية للبورچوازية ونفاذها بعمق إلى جوهر المشكلات الاجتماعية والفلسفية وإلى الانقلابات الحادة الحادثة فى الغرب. وقد أثنى دستويڤسكى ثناء رفيعًا أيضًا على «رسائل فى دراسة الطبيعة»لجيرتسين ووجد فيها «الفلسفة الأفضل فى روسيا بل وفى أوروبا بأسرها»(دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الثانى، ص١٣٨). وفى عام ١٨٦٢ عقد لقاء بين دستويڤسكى وجيرتسين فى لندن. كان له أثره الإيجابى على كليهما. فيما بعد عندما أصاب التغيير كثيرًا من توجهات دستويڤسكى السياسية وأصبح من البدهى أن يقع الانفصال فى وجهات نظرهما الأيديولوجية، أبدى دستويڤسكى فى مقاله «عن الناس القدامى» نظرة ذاتية، ولكنها بعيدة كل البعد عن العداوة فى وصفه لشخصية جيرتسين حيث كتب يقول: «كان فنانًا، ومفكرًا وكاتبًا رائعًا، إنسانًا واسع الاطلاع، وكان عظيماً (دستويڤسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، المجلد الحادى عشر، ص ٧). وفى عام ١٨٧٦ عندما صدم دستويڤسكى بنبأ انتحار ابنة جيرتسين، كتب عن أبيها باعتباره مفكرًا وشاعرًا: «انظروا ــ هذه ابنة جيرتسين، الرجل صاحب الموهبة الرفيعة، المفكر والشاعر. صحيح أن حياته كانت مرتبكة للغاية، مليئة بالمتناقضات والظواهر النفسية الغريبة. لقد كان واحدًا من المنشقين الروس ذوى النزعة الغربية، ولكنه مع ذلك. كان واحدًا من الذين اتسمت شخصيتهم بالاتساع والندرة والروح والمزاج الروسيين (مكتبة الدولة بلينينجراد، ملف ٩٣، ص ١، ١٠،٢). عن علاقة دستويڤسكى جرتسين انظر مقالة أ.س. دولينين «دستويڤسكى وجيرتسين» فى كتابه «روايات دستويڤسكى الأخيرة»، موسكو ليننجراد، ١٩٦٣

(٥٢) تقصد أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا الفصل الخامس عشر ــ «شيء ما عن الكذب» ــ «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٣ والذى أنهاه دستويڤسكى على النحو التالى: «بدأنا نلاحظ فى نسائنا أكثر فأكثر الإخلاص والمثابرة والجدية والشرف والبحث عن الحقيقة والتضحية فى سبيل ذلك (...) إن المرأة تظهر اليوم إصرارًا أكثر فى العمل؛ إنها أكثر جدية من الرجل، فهى تسعى للعمل من أجل العمل لا من أجل التظاهر. ألسنا فى الواقع ننتظر منها دعمًا كبيرًا؟» (دستويڤسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، المجلد الحادى عشر، ص ١٢٩). إن أنّا جريجوريڤنا لم يخالفها الصواب تقريبًا بقولها إن علاقة الكاتب الإيجابية بحركة تحرير المرأة ظهرت مؤخرًا، فى السبعينيات. لقد كان دستويڤسكى فى الأغلب يرفض العدمية الشكلية «البلهاء». وقد كتب فى هذا الصدد إلى صوفيا إيڤانوڤا قبل ذلك فى عام ١٨٦٨ يقول «إن قضية المرأة، والمرأة الروسية على وجه الخصوص، سوف تحقق خلال فترة زمنية قصيرة حتى من حياتك خطوات عظيمة ورائعة. إننى لا أتحدث هنا عن نسائنا غير الناضجات...» (الخطابات، المجلد الثانى، ص٧٣).

(٥٣) يعد ف. ك. هابلسبرجر هو مؤسس علم الاختزال فى ألمانيا ومخترع نظامها الجديد، وقد وصل إلى فكرة أن العلاقات المرئية التى تنقل أصوات اللغة يجب أن تتكيف مع آلية الحديث البشرى. وقد أسس تلاميذ هابلسبرجر بعد وفاته «جمعية هابلسبرجر الرئيسية للاختزال»، وقد قاموا بإعداد وإعادة طبع أهم مؤلفات هابلسبرجر "Lehrgebäude der Stenographie» München" (١٨٥٠) وكان ب. م. أولخين، مدرس أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا، أحد أوائل مدرسى الاختزال فى روسيا، وهو مؤلف كتاب ــ الدليل إلى الاختزال الروسى وفقًا لمبادىء هابلسبرجر»(الطبعة الثالثة، سان بطرسبورج، ١٨٦٦)، وكان موجودًا فى مكتبة فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى.

وعن أ. ج. دستويڤسكايا باعتبارها مختزلة انظر ب. ن. كابليوش و ت. م. بوشيمانسكايا، كتابات أ. ج. دستويڤسكايا بالاختزال فى كتاب «الأرشيف الأدبى»، المجلد السادس، موسكو ـ ليننجراد، ١٩٦١، ص ١٠٩ ـ ١١١

(٥٤) بشأن الفقرة المفقودة. تبين أن الخبر الخاص باجتماع جمعية الاختزال فى درزدن فى العشرين من يونيو ١٨٦٧، الذى حضرته أ. ج. دستويفسكايا قد ظهر لا فى صحيفة «Dresdener Mission – Nachrichen» فى الثانى والعشرين من يونيو ١٨٦٧ وفى «مذكرة الكاتب»هناك مقطع مأخوذ عن هذا العدد تحديدًا من صحيفة «Nationa Zeitung» يذكر أن سيدة روسية حضرت الاجتماع الموسع الأخير لمعهد الاختزال، وهى تدرس بنظام هابلسبرجر وتستخدمه فى عملها فى بطرسبورج»(١٤٥).

(٥٥) يدور الحديث هنا حول إطلاق النار من جانب المهاجر البولندى أنطون بيريزوڤسكى على ألكسندر الثانى (١٨١٨ ـ ١٨٨١) فى أثناء إقامة معرض باريس الدولى عام ١٨٦٧ وقد اتخذت الصحافة الفرنسية كلها تقريبا، وكذلك المحامون الفرنسيون، الذين نظموا مظاهرة خاصة رفعت شعار «Vive la Pologne !»(«عاشت بولندا») موقفًا مدافعًا عن أنطون بيريزوڤسكى، ورأت فى حادث الاغتيال انتقامًا شرعيًا لبلاده المستعبدة. وفى الثالث من يوليو ١٨٦٧، أصدرت محكمة المحلفين فى باريس حكمها على بيريزوڤسكى بالسجن مدى الحياة بدلاً من الإعدام. على أن الكاتب، الذى لم يكن من المؤيدين قبل ذلك لأحكام الإعدام، كان، مع ذلك، مستاءً بشدة من هذا الحكم المخفف الذى أصدرته محكمة المحلفين على بيريزوڤسكى. كان موقف المحلفين مناقضًا لمبدأ دستويڤسكى حول المسؤولية الشخصية للإنسان على أفعاله. وقد عبر دستويڤسكى فى خطابه إلى أبوللون مايكوف المؤرخ ٢٨ أغسطس ١٨٦٧ عن رفضه الشديد لقيام بيريزوڤسكى بمحاولة الاغتيال وأدان الحكم

الصادر ضد هذا الإرهابى بقوله: «ما حدث فى باريس هزنى بشدة. كان المحامون الباريسيون رائعين وهم يهتفون Viva la Pologne أف! يا لها من حقارة. والأدهى من هذا الغباء وهذه البيروقراطية! لقد أصبحت أكثر اقتناعًا أنا أيضًا بفكرتى السابقة: أن من المفيد لنا، إلى حد ما، أن أوروبا ما تزال لا تعرفنا، وأنها تعـرفنا على نحو بشع. أما عن تفاصيل محاكمة (...) بيريزوفسكى! فحدث ولا حرج. يا لها من بيروقراطية بشعة...» (الخطابات، المجلد الثانى، ص ٢٧).

(٥٦) كثيرًا ما راح دستويفسكى، الكاتب الاجتماعى، يدافع فى الواقع عن وحدة الشعب و«القيصر ــ المحرر» ألكسندر الثانى. ولعل أكثر الأمور وضوحًا هو هذا المزاج الملكى الذى جرى التعبير عنه فى الأعوام الأخيرة من حياة الكاتب. على أن دستويفسكى وهو يدافع عن المبادئ الملكية للدولة الروسية، لم يكن يضع دائمًا القياصرة الروس فى صورة مثالية، وقد عبر عن رأيه فى نيكولاى الأول بنبرة حادة حين قال: «إن شخصية نيكولاى تتسم بالوقاحة»، هذا ما كتبه دستويفسكى فى عام ١٨٧٦ (ن.بيلتشيكوف. تورجينيف ودستويفسكى) نقد «الدخان» «الأدب والماركسية»، ١٩٢٦، العدد ١، ص ٨٦).

(٥٧) فى رأى الجنرال المستمع فى قضية بتراشيفسكى فى التاسع عشر من ١٨٤٩، فقد دستويفسكى هو وزملاؤه فى حلقة بتراشيفسكى حقوقهم المدنية كل، ولكن فى السابع عشر من أبريل ١٨٥٨، أى فى عهد ألكسندر الثانى، صدر مرسوم عال لمجلس الشورى بإعادة كل حقوق النبالة الوراثية إلى دستويفسكى، الذى لم يتسلم على الفور الحق فى الحياة فى بطرسبورج، وإنما اضطر فى البداية، بدءًا من أغسطس إلى ديسمبر ١٨٥٩، للإقامة فى مدينة تفير، وفى الثانى من ديسمبر ١٨٥٩ فقط صدر تصريح ألكسندر الثانى بحق دستويفسكى فى الإقامة فى بطرسبورج تحت الرقابة السرية للشرطة.

(٥٨) انظر الخطابات، المجلد الثانى، ص ١١ ــ ٢٠

(٥٩) كتبت أنّا جريجوريڤنا فى دفتر يومياتها أن دستويڤسكى سافر إلى هامبورج فى الرابع من مايو ١٨٦٧ ووعد أن يعود بعد أربعة أيام، ولكنه بقى هناك حتى الخامس عشر من مايو (يوميات دستوڤسكايا، ص ٤٦، ص٨٦).

(٦٠) انظر دستويڤسكى، ١٩٢٦ - ١٩٣٠، المجلد الثانى عشر، ص٢٧ - ٣٣.

(٦١) تستند أنّا جريجوريڤنا فى روايتها عن علاقة دستويڤسكى ببيلينسكى، كما هو واضح، على مناقشاتها مع زوجها، وكذلك على مقالة «المسنون» فى «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٣ (انظر دستويڤسكى، ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠، المجلد الحادى عشر) وعلى خطابه إلى نيكولاى ستراخوف المؤرخ الثامن عشر من مايو ١٨٧١، الذى أكد فيه أن بيلينسكى «سب المسيح سبًا مقذعًا» (الخطابات، المجلد الثانى، ص ٣٦٤). الأرجح أن الصدام الجوهرى بين بيلنسكى ودستويڤسكى بشأن القضايا الدينية شغل مكانة هامة، ولكنها لم تكن السبب الرئيسى فى الخلافات الفكرية بينهما فيما بعد. من الواضح أن أنّا جريجوريڤنا قد تناولت التطور المعقد فى العلاقة بين دستويڤسكى وبيلينسكى بشىء من التبسيط. لقد كان تأثير بيلينسكى على دستويڤسكى هو التأثير الأخطر الذى مر به فى فترة شبابه. وعلى امتداد حياة دستويڤسكى التالية، لا نجد مفكرًا أو كاتبًا اجتماعيًا نفذ بمثل هذا العمق إلى وعيه. «لقد اعتنقت تعاليمه كلها آنذاك بحماس بالغ»، هذا ما كتبه دستويڤسكى (دستويڤسكى، ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠، المجلد الحادى عشر، ص ١٠) اتسم اللقاء الأول مع بيلينسكى (فى مايو عام ١٨٤٥) بالحماس والبهجة، اللذين طبعا الكلمات التى قالها فى أول مناقشة بينهما عن «الفقراء»: «هل تدرك معنى أنك أنت نفسك الذى كتب هذا !... لقد لمست جوهر الأمر ووضعت يدك على الشىء الأهم دفعة واحدة... لقد كشفت لك الحقيقة عن نفسها جلية باعتبارك فنانا امتلك هذه الموهبة. عليك أن تقدر موهبتك، وأن تظل مخلصًا، وسوف تصبح كاتبًا عظيماً !»(دستويڤسكى، ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠،

المجلد الثانى عشر، ص ٣١ ــ ٣٢) ــ كل ذلك استقر للأبد فى ذاكرة دستويفسكى. وبمرور الوقت تبدلت رؤية الكاتب، وتبدل معها تقديره لبيلينسكى الماضى. لقد اتفق أن دستويفسكى رفع راية العصيان على الناقد الكبير، ولكنه لم يستطع مطلقًا أن ينسى، أو أن يتعامل بلا مبالاة مع أستاذه الملهم إبان شبابه. وبعد الأزمة الفكرية التى عاناها الكاتب فى المعتقل، أراد لو تحرر من تأثير بيلينسكى، ولكنه لم يستطع أن يواصل عصيانه له حتى النهاية، وفى الوقت نفسه انعكس التطور الفكرى للكاتب بشكل خاص فى علاقته ببيلينسكى تحديدًا، والذى كان يجسد لدستويفسكى الستينيات الاشتراكية الملحدة الكريهة. وقد شن دستويفسكى حملته الشعواء ضد تعاليم بيلينسكى وضد «الأفكار الهدامة» للأربعينيات (انظر، على سبيل المثال، خطاب دستويفسكى إلى أبوللون مايكوف المؤرخ الثامن والعشرين أغسطس ١٨٦٧ ــ الخطابات، الجزء الثانى، ص ٢٤ ــ ٣٦). بلغت عملية «الإطاحة بالمثل» ذروتها فى فترة كتابة «الشياطين»، وهى الرواية التى حوت بين دفتيها. محاولة التشهير بفكرة الثورة ذاتها. على أنه وقبل ثلاث سنوات من وفاة دستويفسكى تقع انعطافه جديدة فى علاقته ببيلينسكى. وفى يناير عام ١٨٧٧ يموت نكراسوف، الذى لعب دور الوسيط فى تعرف كاتب «الفقراء» على بيلينسكى. يتذكر الآن لقاءه الأول به فيكتب فى «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٧ قائلاً: «هذه كانت أروع دقيقة فى حياتى بأسرها. كنت أستعيد ذكراها وأنا فى المعتقل فتشد من أزرىَ (دستويفسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، المجلد الثانى عشر، ص ٣٢). وحول علاقة بيلينسكى ودستويفسكى انظر كتاب ف. كيربوتين «دستويفسكى وبيلينسكى» (موسكو، ١٩٦٠).

(٦٢) فى فبراير ١٨٦٤ نشرت «حوليات الوطن» مقالة لبيلينسكى عن روايتى: الفقراء» و«المِثْل» («المزدوج»)، وقد حوت، إلى جانب الاعتراف بالفضائل الفنية الرفيعة للروائيين (وبخاصة «الفقراء»)، ملاحظات انتقادية وجهت

أساسًا إلى رواية «المِثْل». وقد أدت هذه الملاحظات، حسنة النية تمامًا، بدستويفسكى الموسوس إلى الوقوع فى حالة من الاكتئاب. ومن ثم راحت علاقته بجماعة «سوفر يمينيك» («المعاصر») تميل إلى البرود والتكلف. وفى هذه المرة لم يعط دستويفسكى روايته الجديدة «السيد بروخارتشين» إلى نكراسوف لنشرها، وإنما إلى أندريه ألكسندروفيتش كرايفسكى، (١٨١٠ ـ ١٨٨٩) الصحفى وصاحب مجلة «حوليات الوطن» وصحيفة «الصوت». وفى هذا الشأن كتب دستويفسكى إلى أخيه فى نوفمبر ١٨٤٦ رسالة جاء فيها: «لقد وقع بينى وبين جماعة «المعاصر» فى شخص نكراسوف سوء فهم انتهى بالخصام (...). والآن يشيعون أننى قد أصبت بالغرور، وأننى أقدر نفسى بأكثر مما تستحق. سأنشر أعمالى لاحقًا عند كرايفسكى وهو ما استحسنه مايكوف» (الخطابات المجلد الأول، ص ١٠٢). على أن السلوك المضطرب للكاتب الشاب، والذى كان وراءه هذا الوسواس الشديد، قد أبعد عنه أدباء جماعة «المعاصر» وأعطى لهم ذريعة للسخرية منه وهجائه. إن «رسالة إلى بيلينسكى ودستويفسكى»، وهى إبداع مشترك لكل تورجينيف ونكراسوف تبدأ بالأبيات التالية:

دستويفسكى، يا فارس الحزن
أيها الطيب النحيل
ها أنت على أنف الأدب
تقف مثل بثرة جديدة
تزداد احمرارًا

وعن علاقات جماعة «المعاصر» بدستويفسكى تكتب أفدوتيا بانايفا فى مذكراتها قائلة: «بظهور أدباء شبان فى جماعة «المعاصر» أصبح هدفا للسخرية والنقد اللاذع من جانبهم، أما دستويفسكى فاتخذ من ذلك، عن عمد، ذريعة للغضب والعجرفة، وإثبات أنه أعلى موهبة منهم بكثير.

ومن ثم راح هؤلاء يقدحونه ويثيرون حفيظته بلمزة فى أحاديثهم؛ وفى هذا المجال كان تورجينيف أستاذًا لا يبارى. كان يتعمد أن يورط دستويفسكى فى الجدل ويدفعه إلى الغضب الشديد. وعندئذ كان دستويفسكى يقف وظهره للحائط مدافعًا بكل حماس عن أفكار سخيفة أحيانًا، راح يقذف بها فى سورة غضبه...» (دستويفسكى فى مذكرات معاصريه، المجلد الأول، ص١٤١).

(٦٣) انظر الخطابات، المجلد الثانى، ص ٣٦ ــ ٣٨.

(٦٤) خطاب أبوللون مايكوف المؤرخ الثالث من نوفمبر ١٨٦٧ والمنشور فى كتاب: دستويفسكى، المجلد الثانى، ص ٣٤٢ ــ ٣٤٣. لا تذكر أنّا جريجوريفنا فى تعليقاتها على خطابات دستويفسكى تاجر الكتب إ. ج. سولوفيوف، وإنما تذكر ألكسندر فيودورفيتش بازونوف (ف. م. دستويفسكى، خطاباته إلى زوجته، موسكو ــ لينينجراد، ١٩٢٦، ص٣١٤).

(٦٥) الأرجح أن هذه المعلومة تفتقد إلى الدقة، إذ إن قنسطنطين بابيكوف توفى فى عام ١٨٧٣، والمقالة لم تصل عمومًا إلى بابيكوف، وهو ما يؤكد خطابه إلى دستويفسكى المؤرخ الحادى والثلاثين من ديسمبر عام ١٨٦٧ ومن خلاله نتعرف بوضوح أنه على مدى عام مضى ظل بابيكوف يأمل دون جدوى أن يتسلم المقالة التى وعده بها دستويفسكى (انظر بوريس بورسوف، دستويفسكى الذى لا يعرفه أحد ــ «الصحيفة الأدبية، ٢٦ نوفمبر ١٩٧٠).

(٦٦) لا يمكن أن نؤكد على أى نحو كانت فكرة مقالة دستويفسكى عن بيلينسكى. يمكن فقط أن نفترض أن هذا العمل قد تجسد فى جانب منه فى «مذكرة الكاتب»عن عام ١٨١٣ فى المقالة المعنونة «المسنون» (انظر دستويفسكى ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، المجلد ١١). وقد توصل مايكوف الذى قرأ المقالة، إلى اقتناع مفاده أن من المستحيل نشرها. يقول فى خطابه إلى

دستويفسكى: «إن الكاتب هنا قد أخذ على عاتقه أن يقول كل شىء، فما إن شرع فى الكتابة حتى رأى أن من المستحيل عليه أن يحكى كل شىء. فقط يمكن أن تنشر فى مذكرات الكاتب بعد وفاته» (الخطابات، المجلد الثانى، ص ٣٩٠).

(٦٧) خطاب دستويفسكى إلى أبوللون مايكوف المؤرخ ٢٨ أغسطس ١٨٦٧ ــ الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٩

(٦٨) قابل دستويفسكى وزوجته إيفان جونتشاروف فى الثانى من يوليو عام ١٨٦٧ ويبدو أن رأى أنّا جريجوريفنا فى جونتشاروف قد تكون بتأثير الآراء السلبية لدستويفسكى عن شخصية هذا الكاتب الذى كان، بالمناسبة، كاتبًا تكن له الاحترام: «أراد الله، من باب السخرية، أن ينعم عليها بالموهبة الرائعة» (من خطاب دستويفسكى إلى فرانجيل المؤرخ التاسع من نوفمبر ١٨٥٦ ــ الخطابات، المجلد الأول، ص ١٩٩).

(٦٩) انظر موجز الحديث فى يوميات دستويفسكايا، ص ١٩٨ ــ ١٩٩، وكذلك فى خطاب دستويفسكى إلى أبوللون مايكوف المؤرخ الثامن والعشرين من أغسطس ١٨٦٧ ــ الخطابات، المجلد الثانى، ص ٣٠ ــ ٣٢. أصبح هذا الخصام بين الكاتبين، والذى وقع فى العاشر من يوليو عام ١٨٦٧، موضوعًا لفتنة أدبية (انظر ى. م. جارشين، ذكريات حول إيفان تورجينيف ــ البشير التاريخى، ١٨٨٣، العدد ١١، وهناك تدقيق لهذه المذكرات كتبه ب. بارتينيف فى مجلة «الأرشيف الروسى»، ١٨٨٤، العدد٣). انظر تفاصيل هذا الخصام أيضًا فى تعليقات أ.س. دولينين على خطاب دستويفسكى إلى ما يكوف والمؤرخ الثامن والعشرين من أغسطس ١٨٦٧ ــ الخطابات، المجلد الثانى، ص ٣٨٤ ــ ٣٨٧. وفى بادن وقع الصدام «الأيديولوجى» الشهير بين دستويفسكى وجونتشاروف، الذى انتهى بالقطيعة النهائية بينهما. كانت هذه القطيعة مُعدة سلفًا منذ الأربعينيات بدرجة ما، عندما

قام تورجينيف بأداء دوره كواحد من أشد الذين وجهوا إلى دستويفسكى سهام التجريح القاسية (انظر التعليق رقم ٦٢). بالمناسبة فقد كان للقاء الأول الذى جرى بين الكاتبين (فى منتصف شهر نوفمبر ١٨٤٥) أثر طيب على كليهما، مما دفع دستويفسكى لأن يكتب لأخيه فى السادس عشر من نوفمبر عام ١٩٤٥ خطابًا بشأن هذا الانطباع (انظر الفصل المعنون «رَدِّى على ستراخوف). لكن هذه الفترة من التفاهم لم تدم طويلاً. فسرعان ما انعكست القطيعة بين دستويفسكى وحلقة كُتَّاب «المعاصر» على علاقته بتورجينيف. لينكشف على الفور وعلى نحو واضح «النفور» النفسى بين طبيعتيهما ومزاجيهما فى كل الأمور ــ الإبداعية؛ فضلاً عن الإنسانية. يقول تورجينيف فى أحد خطاباته: «إن دستويفسكى يكن لى مشاعر الكراهية منذ أن كنا شابين يافعين نخطو خطواتنا الأولى نحو مستقبلنا الأدبى، على الرغم من أننى لا أستحق بأى حال من الأحوال هذا الشعور بالكراهية، لكن المخاوف الذى لا مبرر لها أقوى وأطول أثرًا، كما يقولون (تورجينيف، الخطابات، المجلد العاشر، ص ٣٩).

ربما يكون الكاتب قد صنف طابع الخصام، الذى استمر طيلة حياتهما تقريبًا، تصنيفًا دقيقًا باعتباره «ولعًا غير مبرر»من جانب دستويفسكى بصورة رئيسية، لكن هذا التوتر النفسى والعاطفى المتبادل قام، بالتأكيد، نتيجة للخلاف الفكرى، الذى زادت حدته بظهور رواية «الدخان» لتورجينيف فى عام ١٨٦٧ . على أنه فى سياق هذا التاريخ الصعب للعلاقة بين تورجينيف ودستويفسكى، كانت هناك فترة من التقارب النسبى فى التعاون الإبداعى بينهما. وتقع هذه الفترة تحديدًا بين عامى ١٨٦٠ و ١٨٦٥، عندما ظهرت رواية «الآباء والبنون» ثم نشر قصة «أشباح» لتورجينيف فى مجلة «العصر». فى هذه الفترة انتعشت المراسلات بين تورجينيف ودستويفسكى، وقد ذكر تورجينيف أن دستويفسكى تحديدًا أدرك، دون غيره، مغزى شخصية بازاروف («الآباء والبنون») أكثر من غيره حين قال له: «لقد أدركتم ما

أردت أن أعبر عنه من خلال بازاروف بمهارة وعلى نحو غير منقوص، حتى أننى لم أتمالك نفسى من الدهشة والسعادة» (تورجينيف، الخطابات، المجلد التاسع، ص ٨٥). لكن «دخان»تورجينيف حال بين الأديبين إلى الأبد، فقد رأى دستويڤسكى المتعاطف مع أصحاب «نزعة الأرض» (التقريب بين المثقفين والشعب ــ المترجم)، فى هذه الرواية هجوم واضح من أصحاب «نزعة الغرب» على روسيا، وكانت «الدخان»، حسب تعبيره «جلادًا يدفع بها (روسيا) إلى الحرق» (تورجينيف، الخطابات، المجلد التاسع، ص ٨٥). إنصب غضب دستويڤسكى على خطاب باتوجين «صاحب النزعة الغربية المتطرفة»، والذى تتطابق آراؤه فيه مع آراء تورجينيف. وكان الاحتجاج العارم لدستويڤسكى سببه أفكار بطل تورجينيف الذى كان يرى ضرورة أن تقف روسيا على طريق الحضارة الغربية، والنقد الحاد الذى كاله للنزعة السلاڤية العالمية وعل بعض من وجهات نظر جيرتسين المتعاطفة إلى حد كبير مع الأفكار السلاڤية. وقد أكد معاصرو تورجينيف هذا النوع من النقد المتحيز للرواية، مثل أ. ف. نيكيتين («المفكرة»، المجلد الثالث، موسكو، ١٩٥٦، ص٨٣). من هنا راح دستويڤسكى ينقل الجدل الأدبى والأيديولوجى مباشرة إلى المجال الفنى وهو يصنع روايته «الشياطين». إن شخصية كارمازنيوف، ليست سوى كاريكاتور شرير لتورجينيف، مؤلف قصص «الأشباح»و«كَفَى» و«إعدام تروبمان»، التى تتضمن أيضًا تلميحًا خطيرًا على التعاطف الواضح له (تورجينيف) مع «العدميين»والمتآمرين. كتب تورجينيف يقول: «لقد أدخلنى دستويڤسكى، على طريقة أريستوفان، إلى زمرة «الشياطين». «بل إن دستويڤسكى سمح لنفسه بشىء أسوأ من محاكاة «الأشباح»؛ ففى «الشياطين» نفسها أطلق علىّ اسم كارمازنيوف، الذى كان متعاطفًا سرًا مع حزب نيتشايف...، (تورجينيف، الخطابات، المجلد العاشر، ص ٤٩، ص٣٩). إن تورجينيف، الذى لم يعترف برائعة دستويڤسكى «الجريمة

والعقاب» يقارن بشكل جروتسكى الانطباع الذى تركته عليه هذه الرواية بالمغص المستمر من جرَّاء مرض الكوليرا. كما هاجم أيضًا وبحدة رواية دستويڤسكى «المراهق» ووصفها «بالفوضى»، وبأنها دمدمة «مبهمة» لا تهم أحدًا. وقد انعكست هذه الأحقاد المتحيزة والآراء الظالمة فى النبرة الغاضبة للجدل عند الكاتب؛ فضلاً عن الخلاف المبدئى مع المنهج الإبداعى عند دستويڤسكى المتناقض أحيانًا مع وجهة نظر تورجينيف وتطرف نزعته النفسية. لقد تصور تورجينيف العالم المأسوى لأبطال دستويڤسكى، فى كثير من جــوانب هــذا العــالم نموذجًا خاصًا للدفاع المريض عن المعاناة (انظر التعليق رقم ٣٠) إن تورجينيف الفنان يرى أن دستويڤسكى هو «موهبة قاسية». بينما يورد س. ل. تولستوى فى مذكراته الإدانة المميزة لتورجينيف حول «النزعة النفسانية» عند دستويڤسكى بقوله: «أتذكر أنه كان يتحدث عنه لى قائلاً: «هل تعرف ما هو الأمر النقيض؟ عندما يكون المرء غارقًا فى الحب، فإن قلبه يخفق، وعندما يغضب، يحمر وجهه وهكذا. كل هذه أمور عامة مشتركة. أما عند دستويڤسكى فالأمر يحدث على النقيض من ذلك. خذ مثلاً. إذا التقى الإنسان أسدًا، ما الذى سيفعله عندئذ؟ بالطبع سيشحب وجهه وسيحاول الهرب أو الاختفاء. فى أحد القصص البسيطة التى كتبها چول ڤيرن، على سبيل المثال، سوف تكون الحكاية على هذا النحو. أما دستويڤسكى فسوف يتخذ موقفًا آخر، سيقول: «سوف يحمر وجهه، ويظل مسمرًا فى مكانه»، وهذا هو الأمر المناقض للطبيعة... ثم نجد أبطال دستويڤسكى بعد ذلك يعانون كل صفحتين من الهذيان، أو من سورة الغضب، أو يسقطون فريسة الحمى. وهى أمور ليس من المعتاد حدوثها» («تورجينيف فى مذكرات معاصريه»، المجلد الثانى، موسكو، ١٩٦٩، ص ٣٧٧). وكذلك كانت احتفالات بوشكين التى جرت فى الثمانينيات حجة جديدة لنشوب صدامات فكرية. ففى تقدير كل من تورجينيف و دستويڤسكى للشاعر اتضح مرة أخرى أن أفكارهما على

طرفى نقيض (انظر التعليق رقم ٢٥٦). كانت الاتجاهات المحبة لروسيا من جانب أصحاب نزعة الأرض فى تفسيرها لبوشكين تثير احتجاج تورجينيف، لكن خطاب تورجينيف أيضًا قوبل من جانب دستويڤسكى باعتباره «مغازلة» متحيزة للشبيبة الديمقراطية.

على أنه، وعلى الرغم من الخلافات المبدئية العميقة بين تورجينيف ودستويڤسكى، فقد وحَّد بينهما الحب الصادق الكبير للأدب الروسى. ويمكن تفسير ذلك بالاعتراف الثابت المتبادل بموهبة الآخر حتى فى فترة احتدام العداوة بينهما (انظر خطاب تورجينيف إلى دستويڤسكى المؤرخ الثامن والعشرين من مارس ١٨٧٧ فى هذه الطبعة). يقول تورجينيف فى خطابه إلى دستويڤسكى «إنك تقف بالطبع<...> فى الصف الأول بين ممثلى الأدب الروسى العظام» (تورجينيف، الخطابات، المجلد الثانى عشر، ص ١٢٩). كان تورجينيف بالنسبة إلى دستويڤسكى موهبة «لا جدال عليها»، لايتطرق إليها الشك». فى خطابه عن بوشكين عدَّد دستويڤسكى أنماط النساء فى أعمال تورجينيف من أمثال ليزا كاليتينايا اللائى وصفهن بشاعرية رفيعة. من المعروف أن تورجينيف أعرب عن رغبته فى كتابة نعى «شخصية عظيمة» مثل دستويڤسكى. للأسف فإن هذه الفكرة لم تتحقق. وعن العلاقات بين تورجينيف دستويڤسكى انظر مراسلاتهما التى قام بتحريرها إ. س. زيلبرشتاين (ليننجراد، ١٩٢٨)، كتاب ى. نيكولسكى «تورجينيف و دستويڤسكى. قصة عداوة» (صوفيا، ١٩٢١) ومقالة أ. س. دولينين «تورجينيف فى «الشياطين» (دستويڤسكى، المجلد الثانى).

(٧٠) انظر : دستويڤسكى، ١٩٥٦ــ ١٩٥٨، المجلد الخامس، ص ٤٦٣.

(٧١) عن التأثير الهائل الذى تركته لوحة هانز هولباين «المسيح الميت» كتبت أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا أيضًا فى «مفكرة عام ١٨٦٧» فى الرابع والعشرين من أغسطس (مذكرة دستويڤسكى، ص ٣٦٦) وفى «تعليقات

على رواية «الأبله»: «وهناك فى متحف المدينة شاهد فيودور ميخايلوڤيتش لوحة هانز هولباين، وقد أثارت دهشته بقوة، وعندئذ قال لى : إن مثل هذه اللوحة كفيلة أن تفقد المرء إيمانه»(جروسمان، السمينارات، ص٥٩).

(٧٢) تستشهد أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا بخطاب دستويڤسكى إلى أبوللون مايكوف المؤرخ السادس عشر من أغسطس عام ١٨٦٧ . انظر: الخطابات، المجلد الثانى، ص ٣٤.

(٧٣) من الأمور التى جذبت انتباه دستويڤسكى فى إبداع بلزاك، التوجه المعادى للبورچوازية فى إبداعه، عمق التحليل النفسى، التعاطف مع المذلين المهانين، وكان أول عمل أدبى أنجزه دستويڤسكى هو ترجمته لرواية «أوچينى جرانديه»، وفى آخر إنجاز له، وهو خطابه عن بوشكين، يأتى دستويڤسكى على ذكر راستينياك، وهو أحد الأبطال الرئيسيين فى رواية «الأب جوريو» (انظر خطاب بوشكين فى كتاب: دستويڤسكى، المجلد الثانى)، الذى يحاول حل نفس المعضلة، التى كان يسعى راسكولنيكوف لحلها: حق الإنسان المتميز (السوبرمان) فى تخطى الحواجز من خلال إرتكاب جريمة يستطيع أن يحقق بارتكابها خططه الكبرى. عن السمات المشتركة فى إبداع بلزاك و دستويڤسكى انظر مقالة ل. ب. جروسمان «بلزاك و دستويڤسكى» فى كتاب: ل. ب. جروسمان، الأعمال الكاملة، المجلد الثانى، الإصدار الثانى، موسكو، ١٩٢٨؛ إ. إ. لابشين «الإخوة كارامازوف»لدستويڤسكى و«الحانة الحمراء» لبلزاك. ــ مجلة «ڤوليا روسى» («إرادة روسيا»)، براج، ١٩٢٧، العدد الثانى؛ ل. ب. جروسمان «بلزاك فى ترجمة دستويڤسكى» فى كتاب: أ. بلزاك، أوچينى جراندية، ترجمه ف. م. دستويڤسكى، موسكو ــ لينينجراد، ١٩٣٥

(٧٤) كان للكاتبة چورچ صاند تأثير كبير على فكر دستويڤسكى الشاب. ومن المعروف أن دستويڤسكى قام فى صيف عام ١٨٤٤ بترجمة قصة چورچ

صاند «ألدينى الأخير». وقد نعى دستويڤسكى چورچ صاند فى عدد يونيو من «مذكرة الكاتب» عام ١٨٧٦ بقوله: تقف چورچ صاند (...) عندنا فى المقدمة، إلى جانب كوكبة كاملة من الكتاب الجدد، الذين اشتهروا فجأة وذاع صيتهم فى أنحاء أوروبا بأسرها (...) لم تكن چورچ صاند مفكرة، بقدر ما كانت من بين الذين استشرفوا ببصيرة نفاذة (...) مستقبلاً أكثر سعادة ينتظر البشرية، وآمنوا بتحقيق المثل التى كانت تؤمن بها بكل حمية وحماس طوال حياتها «(دستويڤسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، المجلد الحادى عشر، ص ٣١١، ص ٣١٤ ــ ٣١٥). تورد ف. ف. تيموفييڤا (أ. بوتشينكوڤسكايا) كلمات دستويڤسكى الت تقول: «هناك كاتبة واحدة فى العالم بأسره تستحق هذا اللقب ! إنها چورچ صاند!«(دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، المجلد الثانى، ص١٣٦). وعن تأثير چورچ صاند فى إبداع دستويڤسكى انظر مقالات:

A. Brinken. George Sand et Dostojevsky: contribution en probléme des emprunts litté. – «Revue de literature comparée»Paris, 1933, Oct.-Dec.,P623 – 629,

وف. كوماريڤيتش، شباب دستويڤسكى.

مجلة الماضى، ١٩٢٤. العدد ٢٣

(٧٥) خطأ: أول جزء من ملحمة «Les parents pauves» هى رواية «Le cousine Bétte».

(٧٦) تسمى أنّا جريجوريڤنا خطأ رواية «Les Misérables» («البؤساء») لڤيكتور هوجو بالعنوان المعتاد لترجمة رواية «مذلون مهانون» لدستويڤسكى «Les humiliés et les offenses»، وقد أشار كتاب المذكرات مرارًا إلى العلاقة الحميمة بين دستويڤسكى ورواية «البؤساء» (انظر، على سبيل المثال، مذكرات تيموفييڤا (أ. بوتشينكو

فسكايا) ون. ن. ستراخوف فى كتاب: دستويفسكى فى مذكرات معاصريه، المجلد الأول، ص ٣٠٠، والمجلد الثانى، ص ١٧٨ ــ ١٧٩، وكذلك فى الكتاب الحالى ــ الباب السابع).

(٧٧) تشير ف. ف. تيموفييڤا (أ. بوتشينكو فسكايا) إلى أن الأبيات المفضلة لدستويفسكى كانت الترجيع من قصيدة ن. ب. أوجاريف «السجن»، التى كتبت بين عامى ١٨٥٧ و١٨٥٨:

استخرت الكتاب المقدس

ولم أكن آمل أو أتطلع

سوى أن يتيح لى القدر

حياة وأحزانًا، وموتًا مثل الأنبياء.

(٧٨) عقد أول مؤتمر «لجامعة السلام والحرية» فى چينيڤ من التاسع إلى الثانى عشر من سبتمبر عام ١٨٦٧

(٧٩) معلومة غير دقيقة. الخطاب المشار إليه المرسل إلى س. أ. إيڤانوڤا والمؤرخ الحادى عشر من أكتوبر عام ١٨٦٧ (الخطابات، المجلد الثانى، ص٤٤ ــ ٤٥) نُشر للمرة الأولى فى العدد السابع من مجلة «الماضى الروسى»عام ١٨٨٥

(٨٠) معلومة غير دقيقة. الخطاب المشار إليه المرسل إلى س. أ. إيڤانوڤا والمؤرخ الأول من يناير عام ١٨٦٨ (الخطابات، المجلد الثانى، ص٧١)، والذى استشهدت صاحبة المذكرات بمقطع منه، نُشر للمرة الأولى فى العدد السابع من مجلة «الماضى الروسى» عام ١٨٨٥

(٨١) الخطاب المرسل إلى أبوللون مايكوف، مؤرخ التاسع من أكتوبر ١٨٦٧ (الخطابات، المجلد الثانى، ص٤٥).

(٨٢) الخطاب مرسل إلى أبوللون مايكوف، مؤرخ التاسع من أكتوبر ١٨٦٧ (الخطابات، المجلد الثانى، ص٤٦).

(٨٣) انظر الخطابات، المجلد الثانى، ص (٥٤ ـ ٥٥).

(٨٤) عن عدم رضاء دستويڤسكى عن الفصول الأولى من روايته، كتب أبوللون مايكوف فى الثانى عشر من يناير ١٨٦٨ (الخطابات، المجلد الثانى، ص ٦١ـ٦٢)، حول سير العمل فى رواية «الأبله» انظر كتاب: «من أرشيف دستويڤسكى «الأبله» مواد غير منشورة». المحرر ب. ن. ساكولين و ن. ف. بيلتشكيوف، موسكو ـ ليننجراد، ١٩٣١

(٨٥) كان للمواد الخاصة بقضية أولجا أوميتسكايا، ابنة مالك الأراضى، المتهمة بإحراق منزل الأسرة عمدًا، ووالديها: ڤلاديمير أوميستسكى ويكاتيرينا أوميتسكايا، المتهمين بسوء استغلال سلطتهما كأولياء أمرها (صحيفة «موسكڤا» («موسكو«)، ١٨٧٦، العددين ١٣٦ و١٣٧ المؤرخين ٢٣ و ٢٤ سبتمبر و«جولوس» («الصوت«) العددين ٢٦٦ ـ ٢٦٨ المؤرخين ٢٦ و٢٨ سبتمبر) كان لها أثرها على تشكيل الفكرة المبدئية لرواية «الأبله». لقد كشفت قضية هؤلاء المُلَّاك من منطقة كاشيرا بالقرب من موسكو، صورة الازدراء الحاد من جانب الوالدين تجاه أطفالهما، وهو الازدراء الذى أثار «ثمرة» ابنة آل أوميتسكى، أولجا، البالغة من العمر خمس عشرة عامًا، والتى حاولت أن تحرق بيت الأسرة أربع مرات. وتعد أولجا هى النموذج الأصلى لإحدى بطلات الرواية القادمة وتدعى مينيونا، وعلى الرغم من أن قضية آل أوميتسكى لم تظهر فى النص النهائى لرواية «الأبله»، فإن دستويڤسكى استشهد من المأساة العائلية لآل أوميتسكى الملامح النمطية لإعداد موضوع «العائلة العابرة» وهو من الموضوعات الأثيرة لديه.

(٨٦) نتيجة للإصلاحات القضائية التى اتخذت فى عام ١٨٦٤، تم استبدال المؤسسات القضائية العامة لكل الفئات بالمحاكم الطبقية، وفى المحاكم الجديدة، خلافًا لمحاكم ما قبل الإصلاحات، كانت القضايا تنظر علنًا ويشارك فيها المحلفون والمحامون. وكانت تقارير الاجتماعات القضائية تنشر فى الصحف. وقد انعكس اهتمام دستويفسكى بقضاء ما بعد الإصلاحات فى رواية «الأبله»، ثم فى «مذكرة الكاتب» بعد ذلك وقد ظهر هذا الاهتمام على نحو خاص فى رواية «الإخوة كارامازوف».

(٨٧) الخطابات، المجلد الثانى، ص١١٧

(٨٨) انظر الخطابات، المجلد الأول، ص ٣٩٨.

(٨٩) استشهاد من خطاب دستويفسكى إلى فرانجيل المؤرخ الثامن عشر من فبراير ١٨٦٦ (انظر التعليق رقم ١٦).

(٩٠) انظر الخطابات، المجلد الثانى، ص١٢٢. هناك فقرة مفقودة فى مخطوطة أنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا: وردت هنا السطر الأول فقط من الاستشهاد: «كلما مر الوقت».

(٩١) من خطاب دستويفسكى إلى أبوللونٍ مايكوف المؤرخ الثانى من أغسطس ١٨٦٨: «أخيرًا تسلمت خطابًا غفلاً من التوقيع حول شكوك تدور حولى (يعلم الشيطان لماذا) وأن هناك أوامر قد صدرت بفتح خطاباتى وانتظارى على الحدود عند وصولى وتفتيشى بدقة كما لو أن الأمر يسير دون قصد» (الخطابات، المجلد الثانى، ص١٣٠).

(٩٢) ورد فى قائمة الشخصيات المراقبة من قبل الشرطة فى عام١٨٦٧، إلى جانب نشطاء الحركة الديمقراطية فى الستينيات كل من: تكاتشيف، بلاجو سفيتلوفى، بيساريف، يليسييف، مينايف، ف. كوروتشين، كما ورد اسم دستويفسكى أيضًا ضمن هذه القائمة (انظر «قائمة الشخصيات المراقبة

من قبل الشرطة فى سان بطرسبورج عن عام ١٨٧٦» التى نشرها م. ليمكن فى الأعمال الكاملة وفى خطابات جيرتسين، المجلد العشرين، ص١١٣ ــ ١١٤). وقد ورد فى تعليمات القسم الثالث المؤرخة الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٦٧ تحت رقم ١٢٩٢: «سرى. إلى السيد رئيس إدارة شرطة أوديسا. نحيط سيادتكم علماً بضرورة تفتيش الملازم ثان متقاعد فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى لدى عودته من الخارج قادمًا إلى روسيا بكل دقة، وفى حالة عثور أشياء تثير الشبهة، فعليكم بإرسالها على وجه السرعة إلى القسم الثالث التابع لدائرة جلالة الإمبراطور، بعد تسليم دستويڤسكى نفسه فى هذه الحالة، مقبوضًا عليه، إلى نفس القسم. مدير إدارة معية جلالته اللواء ميزينتسوڤ». وقد تم إبلاغ رئيس جمرك منطقة أوديسا، الذى أبلغ بها بدوره، وعلى نحو «سرى للغاية»، حاكم مدينة أوديسا (انظر منتخب «إبداع دستويڤسكى»، أوديسا،١٩٢١، ص ٣٦، ٣٨).

(٩٣) كـــان هذا كتاب بول جريم «Les mystéres du Palais de Czars (Sous l’ Empereur Nicolqs I) par paul Grimm Prorpriéte de l’editeur. Vurzbuourg ١٨٦٨»(أسرار قصر القيصر زمن نيكولاى الأول») فى ڤيورتسبورج باللغة الفرنسية) وتعرض رواية بول جريم صورة خيالية للأيام الأخيرة من حكم القيصر نيكولاى الأول. تقع أحداث الرواية فى عام ١٨٥٥، وقد تم تصوير دستويڤسكى فى الرواية باعتباره أحد الأبطال الرئيسيين، حيث يعود من سيبيريا، التى نُفى إليها بسبب قصية «بتراشيفسكى ــ بتروشيڤيتش»، ثم اشتراكه بعد ذلك بشكل نشط فى مؤامرة ثورية سرية. يجتمع أعضاء الجمعية فى أحد بدرومات البيوت، حيث يتم تتبعهم والقبض عليهم. وعند استجوابه فى القسم الثالث يرفض دستويڤسكى الإدلاء بأسماء رفاقه المشاركين فى المؤامرة، وهنا يتعرض للعقاب البدنى ويتم ترحيله إلى قلعة بتروباڤلوڤسك. تنجح أنّا

جريجوريڤنا فى مقابلة نيكولاى الأول وترجوه العفو عن زوجها ولكن بعد فوات الأوان. فى هذا الوقت يكون الحكم قد صدر على دستويڤسكى بالنفى إلى سيبيريا، حيث يموت فى شليسيلبرج. تذهب أنّا جريجوريڤنا للحياة فى الدير بعد أن أضناها الحزن على زوجها. ويرى نيكولاى الأول أن العرش يهتز من تحته فينهى حياته بالانتحار. بعد ظهور هذا الكتاب، كانت هناك شكوك حول كون بول جريم، الذى تخفَّى وراء إسم مستعار هو اسم أفجوسط تيودور جريم (١٨٠٥ ــ ١٨٧٨) مربى الأمراء العظام، هو المؤلف، وكان أفجوسط جريم قد غادر روسيا فى عام ١٨٦٠ إلى ألمانيا ليستقر بها إلى الأبد. وفى خطاب أبوللون مايكوف إلى دستويڤسكى المؤرخ السابع عشر من سبتمبر ١٨٦٨، ينفى مايكوف بشكل حازم كون أفجوسط جريم هو مؤلف هذا الكتاب (يورد أ. س. دولينين مقطعًا من هذا الخطاب فى تعليقاته. ــ الخطابات، المجلد الثانى، ص٤٣٣) حول كتاب بول جريم والعلاقة السلبية الشديدة لدستويڤسكى به، انظر مقال ن. ف. بيلتشيكوف «ف. م. دستويڤسكى ــ «عضو الجمعية السرية» فى كتاب: ن.ف. بيلتشيكوف، دستويڤسكى فى قضية بتراشيفسكى، موسكو، ١٩٣٦، ص٢٣٦ ــ ٢٤٠

(٩٤) يحتفظ الأرشيف الحكومى المركزى للآداب والفنون بمسوَّدة هذا الخطاب، ملف٢١٢ وقد نشر فى كتاب: الخطابات، المجلد الثانى، ص١٣٤ ــ ١٣٦

(٩٥) مقطع من الخطاب المرسل إلى ن. ن. ستراخوف المؤرخ الثانى عشر من ديسمبر ١٨٦٨ (الخطابات، المجلد الثانى، ص١٥٦).

(٩٦) عن ن. ى. دانيا وڤسكايا انظر التعليق ١٣٩

(٩٧) من خطاب دستويڤسكى إلى س. أ. إيڤانوڤا المؤرخ الخامس والعشرين من يناير (السادس من فبراير بالتقويم القديم) ١٨٦٩: «لست راضيًا عن

الرواية؛ فهى لا تعبر عن معشار ما أردت أن أقوله، على الرغم من أننى لم أتخلَّ على أية حال، وما زلت أحب حتى الآن فكرتى التى لم أوفق فى تجسيدها» (الخطابات، المجلد الثانى، ص ١٦٠).

(٩٨) «ڤينوس ميديتشى» (متحف أوڤيتسى فى فلورنسا)، صنعت فى روما فى القرن الأخير قبل الميلاد، تنسب خطأ إلى النحات الإغريقى كليومين(القرن الأول قبل الميلاد).

(٩٩) تصحح مذكرات أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا وتضيف إلى خطاب دستويڤسكى إلى ن. ن. ستراخوف من فلورنسا المؤرخ الثامن عشر من أبريل: «ها أنت تسألنى فى خطابك عما أقرأ الآن. أقرأ ڤولتير وديدرو طوال الشتاء. وهذا الأمر، بطبيعة الحال، يجلب لى المتعة والفائدة...» (الخطابات، المجلد الثانى، ص١٨٦). لقد ازداد اهتمام دستويڤسكى فى نهاية الستينيات تحديدًا، وبخاصة مع ارتباطه بالإعداد لرواية «الإلحاد»(انظر فى هذا الشأن التعليق رقم ١٠٢) بفلسفة الشك عند ڤولتير، وفى الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٧٧، أى قبل عام من شروعه فى العمل فى رواية «الإخوة كارامازوف» يكتب دستويڤسكى: «حتى آخر العمر ــ Memento (تذكِرة)، ١)كتابة كانديد روسى...» تكتمل فكرة كتابة «كانديد روسى»، كما يبدو، فى رواية «الإخوة كارامازوف». وعن علاقة دستويڤسكى بڤولتير انظر مقالة ل. ب. جروسمان «كانديد روسى»(مدحل إلى تأثير ڤولتير على دستويڤسكى)» «روسكى ڤيستنيك»(البشير الأوروبى)، ١٩١٤، العدد ٥، وكذلك بحث:

A. Rammelmeyer. «Dostojevskij und Voltaire»– «Zeitschrift für slavische philology", Bd. xxvi, H.2, 1958, s.252 – 278.

وفى هذا العمل يتم بحث تأثير فلسفة حرب الآلهة فى رواية ڤولتير «كانديد، أو التفاؤل» فى إبداع شخصية إيڤان كارامازوف، وذلك استنادًا إلى نصوص

وحقائق كثيرة. يكتب أ. س. دولينين معلقًا على خطاب دستويفسكى المذكور الموجه إلى ستراخوف، والذى يتحدث فيه عن قراءاته لديدرو وڤولتير قائلاً: «لعل من الضرورى من وجهة النظر هذه، أن نولى اهتمامًا خاصًا لشخصية جانيا (فى رواية «الأبله»)، الذى يمتلك سمات ما تذكرنا بالشخصية الرئيسية عند ديدرو» (الخطابات، المجلد الثانى، ص٤٥٣). أما فيما يتعلق برواية «مذكرات من العالم السفلى»، فيكتب ڤاسيلى روزانوف قائلاً: «إن التشابه الوحيد مع هذا العمل، الذى هو واحد من أعمق أعمال دستويفسكى فيتمثل فى «ابن العم رامو» عند ديدرو (ف. ف. روزانوف، أسطورة المفتش الأعظم لدستويفسكى، سان بطرسبورج، ١٩٠٦، ص٣١). عن دستويفسكى وديدرو انظر كتاب: أ. جريجورييڤ، دستويفسكى وديدرو (مدخل لطرح المشكلة). ـ «روسكايا ليتيراتورا» (الأدب الروسى)، ١٩٦٦، العدد ٤.

(١٠٠) من خطاب دستويفسكى إلى ن. ن. ستراخوف المؤرخ الرابع عشر من أغسطس ١٨٦٩ (الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٠٠).

(١٠١) يُظهر أبطال رواية تشارلز ديكنز عدم اكتراثهم برغم الديون العديدة الملقاة على كاهلهم. وفى خطابه إلى أبوللون مايكوف المؤرخ الخامس والعشرين من مارس ١٨٧٠، يطلق دستويفسكى على نفسه اسم «مستر ميكوبر» (الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٦٢). الأرجح أنه ليس من قبيل الصدفة أن دستويفسكى يتذكر هذه الشخصية فى أثناء فترة انشغاله بكتابة رواية «الأبله»: إن «مستر ميكوبر» استطاع أن يعطينى الدَفعة الأولى لرسم شخصية الجنرال إيڤولجين.

(١٠٢) قبل أن يُتم عمله فى رواية «الأبله»، بدأ دستويفسكى فى ديسمبر عام ١٨٦٨، إبان وجوده فى فلورنسا، التفكير فى كتابة رواية «فلسفية ضخمة» جديدة

اسمها «الإلحاد»، عن شخص روسى «فقد إيمانه بالله»، شخص «ينقض بالهجوم على الأجيال الجديدة، على الملحدين، على أنصار النزعتين السلافية والأوروبية، على المتعصبين الروس والمقيمين فى الأديرة والقساوسة... ثم يعود ليلجأ فى النهاية إلى المسيح وإلى الأرض الروسية» (الخطابات، المجلد الثانى، ص ١٥٠، ١٩٥، ١٦١)، لكن دستويفسكى لم يستكمل فكرة رواية «الإلحاد»، وبعد أن أدخل عليها عددًا من التعديلات، تحولت إلى خطة لرواية «سيرة خاطئ كبير»، وهذه أيضًا لم تكتمل، وإن تجسدت أجزاء منها فى روايات «الشياطين»، «المراهق»و «الإخوة كارامازوف».

(١٠٣) تخلط أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا، على نحو خاطئ، بين خطابين من خطابات دستويڤسكى باعتبارهما خطابًا واحدًا أرسلهما إلى صوفيا إيڤانوڤا (خميروفا). ينتهى الجزء الأول من الاستشهاد بعدد من النقاط بالكلمات الآتية: «أشارك فى الحياة الروسية بشكل مباشر...»، وهى من خطابه المؤرخ الثامن من مارس عام ١٨٦٩ ـ الخطابات، الجزء الثانى، ص١٧٥ أما الجزء الثانى من الاستشهاد فيسبقه عدد من النقاط ويبدأ بالكلمات التالية: «... وحتى هنا فإننى أفتقد حتى القدرة على «وهو استشهاد فى غير موضعه، إذ إنه مقتبس من الخطاب المؤرخ الخامس والعشرين من يناير (السادس من فبراير بالتقويم القديم) ـ الخطابات، المجلد الثانى، ص١٦١

(١٠٤) أصبحت لوبوف فيودوروڤنا، ابنة الكاتب، فيما بعد روائية، كتبت عددًا من الروايات ـ «المحامية»، «المهاجرة»ومجموعة قصصية تحت اسم «فتيات مريضات». سافرت فى عام ١٩١٣ إلى الخارج ولم تعد مطلقًا بعدها إلى روسيا. كانت تكسب عيشها فى الخارج من الكتابة الأدبية وأصدرت مذكراتها عن أبيها باللغة الألمانية

München,1920) «Dostojewski, geschildert von sei er Tochter»)

ظهرت ترجمة مختصرة باللغة الروسية على يد أ. ج. جورينفيلد بعنوان «دستويفسكى كما وصفته ابنته» (موسكو ـــ براج. دار نشر الدولة، ١٩٢٢). لا يمكن اعتبار كتاب لوبوف فيودوروڤنا دستويفسكايا مذكرات بالمعنى الدقيق للكلمة: فعندما توفى والدها كانت تبلغ من العمر إحدى عشر عامًا. ولهذا وضعت لوبوف فيودورڤنا «دستويفسكى كما وصفته ابنته» عنوانًا لكتابها. وفى مثل هذه الحالة، عندما يلتزم كاتب المذكرات بصرامة «بوصف» دستويفسكى بحقائق موثقة وأخبار عائلية وذكريات المعاصرين، والأهم من ذلك ما يتذكره هو نفسه من حكايات الأب والأم، عندها يكون هذا «الوصف» محلاً للثقة. بيد أن كاتبة المذكرات قد شوهت، عن وعى، فى كتابها الحقائق المعروفة فى حياة دستويفسكى ـــ ومن ثم اتخذ كتابها منحى متحيزًا بشكل. على سبيل المثال تؤكد لوبوف فيودوروڤنا بإصرار، خلافًا للحقائق البدهية والوثائق، على أن أبيها ليس روسيًا، وإنما من أصل نورمندى ـــ ليتوانى. من المؤكد أن السبب فى هذا الادعاء يعود إلى أن هذا «النسَبْ» لسلالة دستويفسكى كان يعطى لابنته إمكانية الانتماء إلى فئة النبلاء، وهو ما كان يزيد من قدرها فى أوساط المهجر حيث كانت تعيش فى العشرينيات. إن تزييف الحقائق المتعمد والهوى الذى لا يرقى إليه الشك يمثل عيبًا أساسيًا فى مذكرات لوبوف فيودوروڤنا دستويفسكايا، وهو يمثل الفارق الجوهرى بين مذكرات الابنة ومذكرات أنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا القائمة على أسس واقعية موثقة*.

(١٠٥) اقتباس غير دقيق من الخطاب المرسل إلى أبوللون مايكوف والمؤرخ السابع عشر من سبتمبر ١٨٦٩. الخطابات، المجلد الثانى، ص٢١١

(١٠٦) من الخطاب المرسل إلى نيكولاى ستراخوف والمؤرخ السادس والعشرين من فبراير (العاشر من مارس بالتوقيت القديم) ١٨٧٠ ـــ الخطابات، المجلد الثانى، ٢٥٦.

(١٠٧) تعيد أنّا جريجوريفنا هنا قص خطاب دستويفسكى إلى أبوللون مايكوف والمؤرخ الخامس والعشرين من مارس (السادس من أبريل بالتوقيت القديم) ١٨٧٠ قارن: «الاسم العام للرواية هو: سيرة خاطئ كبير، على أن تحمل كل قصة اسماً منفصلاً. إن القضية الكبرى التى يتم معالجتها فى كل الأجزاء، هى نفس القضية التى شقيت بها طوال عمرى بوعى وبلا وعى... وهى قضية وجود الله...» (الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٦٣).

(١٠٨) فى خطابه إلى أبوللون مايكوف والمؤرخ الخامس والعشرين من مارس (السادس من أبريل بالتقويم القديم) ١٨٧٠، يكتب دستويفسكى قائلاً: «أود أن أقدم فى القصة الثانية الشخصية الرئيسية، تيخون زادونسكى <...> لعلنى أقدم هنا الشخصية الإيجابية العظيمة المقدسة <...> وبقدر ما أعلم فربما يمثل تيخون نفسه نموذجنا الروسى للبطل الإيجابى، الذى يبحث عنه أدبنا...» (الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٦٤). تيخون زادونسكى، وكان اسمه تيموفيى سافيليفيتش كيريلوف قبل أن يُرسم قسًا، وهو ابن كاتب فقير يعمل فى مقاطعة تتبع محافظة نوفوجورود، تلقى تعليمه فى حلقة نوفوجورود الدراسية ليصبح مدرسًا فيها، ثم رئيسًا لحلقة تفير الدراسية، ثم أسقفًا لفورونيج منذ عام ١٧٦٣ لينتقل فى عام ١٧٦٧ إلى كاتدرائية زادونسكى، حيث ظل بها حتى وافته المنية وهو شيخ كبير وهن جسده، وإن ظلت روحه على قوتها ليصبح تيخون زادونسكى مثالاً للحب العميق الفعال للإنسانية، يقدم للناس الخير، يعلمهم ويرعى مرضاهم، يكتب المؤلفات الدينية ذات الطابع الأخلاقى (صدرت الأعمال الدينية لتيخون زادونسكى فى خمس طبعات: الأولى فى عامى ١٨٢٥ ـ ١٨٢٦، فى خمسة عشر جزءًا، ثم صدرت الطبعة الخامسة فى عام ١٨٨٩). ومن المؤكد أن دستويفسكى كان مهتماً، منذ بداية الستينيات، وربما قبل ذلك إبان وجوده فى سيبيريا فى المنفى، بأعماله وحياته. وفى «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٦، يوصى دستويفسكى كل من يرغب فى إدراك روح الشعب الروسى بقراءة

أعمال تيخون زادونسكى: «وبالمناسبة : هل يعلم كثير من الناس شيئًا عن تيخون زادونسكى؟ ربما لم يسمع عنه أحد على الإطلاق. ثقوا، أيها السادة، أنكم ستتعرفون على أمور رائعة لو تعرفتم عليه (دستويفسكى، ١٩٢٦ ـــ ١٩٣٠، الجزء الحادى عشر، ص ١٨٤ ـــ ١٨٥). وقد كان لحياة وأعمال تيخون زادونسكى أثر على رسم شخصيات «الآباء» عند دستويفسكى: تيخون فى فكرة رواية «سيرة خاطئ كبير» التى لم تكتمل، تيخون فى «الشياطين»، ماكار دولجوروكوف فى «المراهق»، زوسيما فى «الإخوة كارامازوف» (انظر ر. ف. بلينوف، القلوب الحكيمة (عن «الآباء» فى أعمال دستويفسكى ـــ فى كتاب: «عن دستويفسكى». مجموعة مقالات حررها أ. ل. بيم، المجلد الثانى، براج ١٩٣٣، ص ٧٣ ـــ ٩٢).

(١٠٩) يعرض دستويفسكى فى خطابه إلى نيكولاى ستراخوف المؤرخ الرابع والعشرين من مارس (الخامس من أبريل بالتقويم القديم) وإلى أبوللون مايكوف المؤرخ الخامس والعشرين من مارس (السادس من أبريل) ١٨٧٠ خطة روايته «سيرة خاطئ كبير» تفصيلاً (الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٥٨، ٢٦٣ ـــ ٢٦٤). وقد أضفى دستويفسكى على روايته طابع الاعتراف باعتبارها محصلته الإبداعية: «سوف تكون هذه هى روايتى الأخيرة» (الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٦٣). ومن خلال خطابيه المذكورين إلى كل من ستراخوف ومايكوف يمكن أن نرى أن العمل فى رواية «سيرة خاطئ كبير» كان يسير بالتوازى مع العمل فى رواية ـــ الشياطين ـــ (انظر أيضًا «دفاتر مذكرات فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكى»، موسكو ـــ لينينجراد، ١٩٣٥). وفى الحقيقة فإن الكاتب راح يؤمن تدريجيًا بضرورة العودة للعمل على فكرة «سيرة خاطئ كبير» بعد أن ينتهى مباشرة من «الشياطين». لكن دستويفسكى لم يحقق عزمه على كتابة «السيرة» بعد ذلك (انظر ن. برودسكى، الفكرة التى خمدت ـــ فى كتاب: الوثائق، ص٤٧ ـــ ٥٩؛ ب. بيتسيللى، لماذا لم يكتب دستويفسكى رواية

«سيرة خاطئ كبير»؟ ــ فى كتاب: «عن دستويفسكى» مجموعة مقالات حررها أ. د. بيم، المجلد الثانى، براج، ١٩٣٣، ص٢٥ ــ٣٠؛ أ. دولينين، روايات دستويفسكى الأخيرة. كيف كُتبت روايتى «المراهق» و«الإخوة كارامازوف» (موسكو ــ لينجراد، ١٩٦٣).

(١١٠) خطاب نيكولاى ستراخوف المؤرخ ٢٤ مارس (٥ أبريل) ١٨٧٠ الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٥٧

(١١١) نشرت رواية «الشياطين» فى الأعداد ١، ٢، ٤، ٩ ــ١١ عام ١٨٧١ والعددين ١١ و ١٢ عام ١٨٧٢ من مجلة «البشير الروسى».

(١١٢) يتضح من خطاب دستويفسكى إلى صوفيا إيفانوفا والمؤرخ الرابع عشر من ديسمبر ١٨٦٩ أن إيفان جريجوريفيتش سنيتكين، الأخ الأصغر لأنّا جريجوريفنا، الطالب بأكاديمية بتروفسكى للعلوم الزراعية وصل إلى درزدن فى منتصف شهر أكتوبر ١٨٦٩ (الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٤٠).

(١١٣) فى الواقع فإن كثيرًا من الصحف الأجنبية، وخاصة الصحف الألمانية Z eitung// c/neue prevssische Zeitung.. «K olnische) «Allgemeine ,«Zeitung) كتبت في هذه الفترة عن شبكات المنظمات المتآمرة المنتشرة بشكل كبير فى روسيا وعن قرب وقوع انتفاضة (لمزيد من التفاصيل عن هذا الأمر انظر مقال ف. يفنين « رواية.. الشياطين في كتاب «إبداع دستويفسكى» ، موسكو، ١٩٥٩)، ولا توجد أية معلومات فى أية مصادر تفيد أن دستويفسكى تنبأن بأن هذه الانتفاضة يجب أن تبدأ تحديدًا فى أكاديمية بتروفسكايا، سوى تلك المعلومات التى وردت فى مذكرات أ. ج. دستويفسكايا.

(١١٤) يرتبط موضوع رواية «الشياطين» ارتباطًا وثيقًا بحادث محدد هو مصرع

الطالب إ. إيفانوف، الطالب بأكاديمية بتروفسكى الزراعية، عضو جمعية «القصاص الشعبى» فى الحادى والعشرين من نوفمبر ١٨٦٩ بالقرب من موسكو على يد رئيس تنظيم الجمعية ــ س. ج. نيتشايف بمشاركة أعضائها ب. أ. أوسبينسكى، أ. كوزنيتسوف، بريچوف، إ، نيكولايف ويعد نيتشايف هو النموذج الأصلى لبيوتر ڤيرخوڤينسكى فى رواية «الشياطين» والأرجح أن دستويفسكى كان على علم «بالقواعد العامة للتنظيم» الأناركية، التى أنشأها نيتشايف، إذ إن أفعال بيوتر ڤيرخوڤينسكى، كانت تطبيقًا متطرفًا «لقواعد» نيتشايف (انظر هذا السياق ــ الخطابات، المجلد الثانى، ص٤٨٣ ــ ٤٨٥)؛ ولمزيد من التفاصيل عن الأساس التاريخى المحدد للرواية انظر: «مفكرة ف. م. دستويفسكى» (موسكو ــ لينينجراد، ١٩٣٥؛ أ. أوسبينسكايا، مذكرات الستينيين. ــ «الماضى»، ١٩٢٢، العدد ١٨؛ ف. روزنبلات، مدخل لإعادة النظر فى بعض القيم الأدبية (بشأن الهدف من رواية «الشياطين»). ــ «الأدب الروسى»، ١٩٦٥، العدد ٣.

(١١٥) انظر وصف الحديقة والجبلاية فى الجزء الثالث من رواية «الشياطين»، الفصل السادس: «ليلة شاقة» دستويفسكى، ١٩٥٦ ــ ١٩٥٨، المجلد السابع، ص ٦٢١ ــ ٦٢ لا تتوقف فكرة رواية «الشياطين» عند «قضية نيتشايف» فقط. لقد مر تاريخ الرواية الإبداعى بعدة مراحل، فهى ترتبط على نحو كبير بأفكار روايتى «سيرة خاطئ كبير» و«الإلحاد»، اللتين لم تكتملا، وكذلك بقضية نيتشايف». وكما يؤكد دستويفسكى نفسه فى خطابه إلى م. ن. كاتكوف المؤرخ الثامن من أكتوبر ١٨٧٠، فإن محاكمة نيتشايف تعد واحدة فقط من الحقائق، التى استخدمها لتأكيد أفكاره (الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٨٨).

(١١٦) حول عمله فى رواية الشياطين كتب دستويفسكى خطابًا إلى ستراخوف فى الثانى من ديسمبر عام ١٨٧٠ يقول فيه: «عام بأكمله مضى وأنا لا أفعل

شيئًا سوى أن أمزق ما كتبت، ثم أعود لأكتب من جديد. لقد استهلكت تلالاً من الورق، حتى أننى فقدت نظام تصحيح ما كتبت. عشر مرات لا أقل، قمت فيها بتعديل كل خطتى إلى أن انتهيت من كتابة الجزء الأول من جديد» (الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٩٨). حول تاريخ إبداع رواية «الشياطين» انظر: «دفاتر مذكرات ف. م. دستويفسكى» (موسكو ــ ليننجراد، ١٩٣٥)؛ ن. ل. برودسكى، تاريخ إبداع رواية «الشياطين» فى كتاب: «سفيستوك» («الصافرة»)، الجزء الأول، موسكو، ١٩٢٢، ص ٨٣ ــ ١١٩؛ ج. تشولكوف، كيف كان يعمل دستويفسكى، موسكو. ١٩٣٩، ص ١٩٨ ــ ٢٣٩

(١١٧) وصلت إلى مجلس الوزراء رسالة عاجلة فى السابع عشر (وليس فى التاسع عشر) عام ١٨٧٠ تفيد اتخاذ روسيا قرارًا بإلغاء المادة الثانية من اتفاقية باريس ١٨٥٦ بشأن تحييد البحر الأسود. وقد وافقت كل الدول العظمى على إعادة النظر فى هذه المادة من اتفاقية باريس ومن ثم تمكنت روسيا من الاحتفاظ بأسطولها الحربى فى البحر الأسود مرة أخرى، الأمر الذى تم التصديق عليه فى معاهدة لندن عام ١٨٧١

(١١٨) انظر خطابى دستويفسكى إلى مايكوف المؤرخين الخامس عشر والثلاثين من ديسمبر. وقد ألحق دستويفسكى بخطابه الأخير تفويضًا لمايكوف لاستلام مستحقاته المالية من ستيلوفسكى مقابل نشر طبعة مستقلة من رواية «الجريمة والعقاب» (الخطابات، المجلد الثانى، ص ٣٠٢ ــ ٣١٠).

(١١٩) توجه أبوللون مايكوف إلى الصندوق الأدبى بطلب إعطاء دستويفسكى خمسمائة روبل لرفع دعوى ضد ستيلوفسكى. وقد أجاب المسؤولون فى الصندوق أنهم لا يستطيعون إعطاء دستويفسكى مالاً لرفع دعوى، وإنما يعطونه «قرضًا بضمان». وقد نصح مايكوف دستويفسكى أن يطلب

«من الصندوق أربعمائة روبل» (وليس مائة، الأرجح أنه قد وقع خطأ فى البرقية). انظر حول هذا الأمر خطاب مايكوف إلى دستويفسكى المؤرخ الرابع من أبريل ١٨٧١ فى كتاب: دستويفسكى، المجلد الثانى، ص٣٥٣ــ ٣٥٤.

(١٢٠) تبالغ أنّا جريجوريفنا عندما تكتب عن العلاقة العدوانية المتحيزة ضد دستويفسكى من جانب الصندوق الأدبى. فالصندوق الأدبى لم يعترض على رغبة دستويفسكى فى الحصول على سُلْفَة؛ ولكنه طلب ضمانًا، ويرجع السبب فى ذلك بكل تأكيد، إلى أن الكاتب كان يعيش فى الخارج ما يزيد عن أربع سنوات وكانت علاقته بالدوائر الأدبية مقطوعة تقريبًا. وعن علاقة دستويفسكى بالصندوق الأدبى انظر خطاب رئيس الصندوق، ف. ب. جايفسكى فى ذكرى دستويفسكى فى الثامن من فبراير ١٨٨١ فى كتاب: السيرة، ص ٩٩ ــ ١٠

(١٢١) الأرجح أن هناك زلة فى الكتابة، أن خطاب مايكوف مؤرخ فى الرابع من أبريل ١٨٧١ (وهو منشور فى كتاب: دستويفسكى، المجلد الثانى، ص٣٥٣ ــ ٣٥٤)، بينما كان رد دستويفسكى مؤرخًا الحادى والعشرين من أبريل ١٨٧١

(١٢٢) لا تورد أنّا جريجوريفنا فى مخطوطتها رد دستويفسكى على خطاب مايكوف المؤرخ الرابع من أبريل ١٨٧١، على الرغم أنه من الواضح أنها كانت تعتزم نشره. نستند على ذلك بخطاب دستويفسكى المؤرخ الحادى والعشرين من أبريل ١٨٧١ (الخطابات، المجلد الثانى، ص٣٥٤).

(١٢٣) اقتباس غير دقيق من خطاب دستويفسكى إلى أنّا جريجوريفنا المؤرخ الثامن والعشرين من أبريل ١٨٧١ (الخطابات، المجلد الثانى، ص٣٤٨).

(١٢٤) هــذه المذكــرات التى تم العثور عليها والخاصة بروايتى «الأبله»

و«الشياطين» تم نشرها فى كتابى: «من أرشيف دستويفسكى. الأبله. مواد غير منشورة» المحرران ب. ن. ساكولين و ن. ف. بيلتشيكوف، موسكو ــ لينينجراد، ١٩٣١؛ «دفاتر مذكرات ف. م. دستويفسكى»، موسكو ــ لينينجراد، ١٩٣٥

(١٢٥) أنهى فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكى الابن فيها بعد المدرسة الثانوية فى بطرسبورج، ثم كُليتين فى جامعة يربتسكى: الحقوق والعلوم. عمل بتربية الخيول وكانت لديه فى الوقت نفسه مزرعة مليئة بخيول السباق الأصلية فى بطرسبورج.

(١٢٦) لم يسافر دستويفسكى إلى موسكو «فى نهاية أغسطس»، وإنما سافر إليها فى نهاية يوليو ــ أوائل أغسطس لاستلام مستحقاته المالية من هيئة تحرير «البشير الروسى». ويتضح من خطاب دستويفسكى إلى صوفيا إيفانوفا المؤرخ التاسع من أغسطس ١٨٧١ أنه أقام فى بطرسبورج عدة أيام بعد رحلته إلى موسكو (الخطابات، المجلد الثانى، ص ٣٦٨).

(١٢٧) فى ربيع عام ١٩١٧، عثر ليونيد جروسمان، فى أثناء عمله فى دراسة محفوظات دستويفسكى فى متحف التاريخ بموسكو على الدفتر الذى سجلت فيه أنّا جريجوريفنا قائمة بأسماء الكتب الموجودة فى مكتبة دستويفسكى فى الفترة الأخيرة من حياته (انظر: ل. ب. جروسمان، مكتبة دستويفسكى (مواد لم تنشر وملاحق قائمة مكتبة دستويفسكى، أوديسا، ١٩١٩).

(١٢٨) دفتر المذكرات الخاص برواية «الجريمة والعقاب». مواد لم تنشر»، موسكو ــ لينينجراد (معهد الدولة للأدب).

(١٢٩) ورد ذكر بيت تاراسوف للديون، الذى هدد دستويفسكى أكثر من مرة، فى خطاباته. على سبيل المثال، كتب دستويفسكى إلى مايكوف فى السادس

عشر من أغسطس ١٨٦٧ يقول: «الحقيقة أن قسم الديون (ولا أقول هذا على سبيل السخرية) كان مفيدًا للغاية لى. كان من الممكن أن تصل ديونى إلى ما لا يقل عن أربعة أو خمسة آلاف روبل، وكنت قد تزوجت لتوى، وكان السؤال الذى لا إجابة له لدى، هل سأتحمل الصيف الخانق فى سجن تاراسوف؟ إذا كان علىّ أن أكتب هناك، إذا كان ذلك مستحيلاً فى ظروف النوبات الشديدة التى تداهمنى، فكيف إذًا سوف أسدد ديونى؟» (الخطابات، المجلد الثانى، ٢٥ ــ ٢٦).

(١٣٠) انظر التعليق رقم ٧

(١٣١) انظر التعليق رقم ٧.

(١٣٢) انظر التعليق رقم ٣٣.

(١٣٣) المقصود أبوللون ميكوف ونيكولاى ستراخوف.

(١٣٤) نيكولاى ميخايلوڤيتش دستويڤسكى، الأخ الأصغر لفيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى، كان مهندسًا مدنيًا ومعماريًا، عمل فى البداية فى ريڤيل، ثم فى بطرسبورج، ولكنه أصبح بلا عمل منذ بداية الستينيات بسبب المرض. كان دستويڤسكى يعامله على نحو خاص بكل مودة وتعاطف، وكان يمد له يد العون دائمًا، وقد عاش نيكولاى ميخايلوڤيتش طوال حياته فى فقر مدقع.

لمزيد من التفاصيل عن نيكولاى ميخايلوڤيتش دستويڤسكى انظر: ڤولوتسكى (شجرة عائلة دستويڤسكى ــ المترجم) ص ٣٤٨ ــ ٣٥٥.

(١٣٥) من الأمور التى قاربت بين ڤاسيلى ڤاسيليڤيتش جريجوريڤ وبين دستويڤسكى إيمان الأول بالنزعة السلاڤية واهتمام الثانى بالشرق ورسالة روسيا تجاهه (إن روسيا دولة أوروبية وآسيوية عظمى فى نفس الوقت).

يرى أ. س. دولينين أن ف. ف. جريجورييف كان له بعض التأثير على دستويفسكى من خلال مقالاته (وبخاصة مجموعة مقالاته بعنوان «روسيا وآسيا»، سان بطرسبورج، ١٨٧٥)، وقد ظهر هذا التأثير فى المقالات السياسية الساخرة فى «مذكرة الكاتب» حيث يدور الحديث عن «المسألة الشرقية». ويشير أ.س. دولينين كذلك إلى التقارب بين السمات الشخصية التى تميز ت. ن. جرانوفسكى باعتباره عالمًا فى «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٦ (والتى وردت فى المقالات المعنونة «المثاليون ــ الكلبيون» و«هل من العار أن يكون المرء مثاليًا؟») ــ فيما يخص المسألة الشرقية ــ والمقالات المبكرة التى كتبها جريجورييف والتى كان لها دوى هائل فى حينه: «ت. ن.جرانوفسكى قبل أن يعمل أستاذًا جامعيًا فى موسكو» (مجلة «روسكايا بيسييدا»{«الحوار الروسى»}، ١٨٥٦) ويذكر أن «شخصية جرانوفسكى التى رسمها جريجورييف، تمتلك صفات مشتركة مع شخصية س. ت. فيرخوفينسكى (فى رواية «الشياطين») والتى تدفع المرء لأن يفكر على الفور دون إرادة منه فى إمكانية تعرف دستويفسكى على هذه المقالات، وربما مع كاتبها، قبل سفر (دستويفسكى) إلى الخارج (الخطابات، المجلد الثالث، ص٢٩٨).

(١٣٦) لمزيد من التفاصيل حول فلاديمير بتروفيتش مشيرسكى وعمل دستويفسكى بمجلة «المواطــن»، انظر بقية النص فى مذكرات أنّا جريجوريفنا (الفصل السادس) وكذلك التعليق رقم (١٤٩).

(١٣٧) كان الكاتب تيرتى إيفانوفيتش فيليبوف شخصية اجتماعية وحكومية بارزة فى حلقة مجلة «موسكفيتيانين الشابة. وقد ترك فيليبوف أثرًا قويًا للغاية على أبوللون مايكوف وأستروفسكى وبيسيمسكى وبوجودين بأفكاره ذات النزعة السلافية بشأن ضرورة عودة روسيا إلى البناء الاجتماعى ونسق الحياة قبل عصر بطرس وإلى «أيام كوتوشيخين» بنظامها الأبوى وكنائسها.

وقد كان لأفكار ت. إ. فيليبوف، ذات الأفكار والمفاهيم السلافية الخاصة بالمسألة الشرقية والكنيسة، تأثير كبير على دستويفسكى فى عصر «أنصار الأرض» (الأرجح بمشاركة مايكوف وجريجوريف). وفى نوفمبر ١٨٧١ يتوجه دستويفسكى إلى ت. إ. فيليبوف طلبًا للمشورة عن طريق أبوللون مايكوف، باعتبار فيليبوف عالمًا مرموقًا فى تاريخ الكنيسة، ومنذ هذه الفترة بدأت بين دستويفسكى وبينه تقارب روحى وصداقة (انظر « التراث الأدبى»، الجزء الخامس، ص ١٤٩ ــ ١٥٦، حيث نشرت خطابات ن. إ. فيليبوف إلى دستويفسكى).

(١٣٨) كان قنسطنطين بوبيدونوستسيف، التى توطدت علاقته بدستويفسكى، يدعم علاقته بالكاتب إبان سنوات عمله فى «المواطن» وحتى وفاته. وكان بينهما، على حد تعبير بوبيدونوستيسيف، «أحاديث ودية كثيرة»؛ وتؤكد على هذا القول كل الخطابات المتبادلة بين الرجلين: كان دستويفسكى يتابع باهتمام كبير كل ما ينشره بوبيدونوستسيف، ويشاركه الرأى فى معظم ميوله السياسية ويعبر عن تعاطفه مع وجهات نظره وبخاصة وجهة النظر التى ترى ضرورة إقامة نظام ملكى قوى فى روسيا وتقوية الكنيسة الأرثوذوكسية. كان بوبيدونوستسيف يعلق آمالاً كبارًا على دستويفسكى، محاولاً التأثير على اتجاه إبداعه، ساعيًا لاستغلال موهبة الكاتب لأهداف وقائية. بعد وفاة دستويفسكى كتب بوبيدونوستسيف إلى ألكسندر الثالث (وكان ما يزال وليًا للعهد): «إن موت دستويفسكى هو خسارة كبيرة لروسيا. لقد كان الوحيد تقريبًا بين الأدباء الذى يمكن اعتباره داعية متحمسًا لمبادئ الإيمان الأساسية وللقومية وحب الوطن. لقد كان شبابنا البائس، الضال مثل الأغنام بلا راع، يوليه ثقته، لقد كان عمله عظيمًا، مفعمًا بحب الخير»(«الأرشيف الأحمر»)، ١٩٢٣، المجلد الثانى، ص٢٥٢). فى واقع الأمر كان من الممكن أن يكون بوبيدونوستسيف راضيًا، على نحو

ما، بصاحب «مذكرة الكاتب»، لقد كان بوبيدونوستسيف يقصد تحديدًا التوجهات الرجعية لكتابات دستويفسكى فى السبعينيات فى خطابه إلى ألكسندر الثالث. لكن دستويفسكى الفنان والروائى أشاع بكتاباته الخوف فى بلاط القيصر، وقد انعكس ذلك بشكل واضح فى الخطاب الذى أرسله بوبيدونوستسيف إلى دستويفسكى يعبر فيه عن رأيه فى الجزء الخامس من «الإخوة كارامازوف» والمعنون» «Pro u contra» (مع وضد)، حتى أنه نصح الكاتب بحرق كل الصفحات المليئة بالتمرد فى الرواية. «عندما يفشل الفنان فى عمل تمثاله، أو يكون غير راض عنه، فإنه يعيد المعدن مرة أخرى إلى البوتقة. وبالمناسبة، يمكن أن نقول إن أى فنان يبدع على طريقته، وأنتم، إذا توخيتم الصبر، ربما، لن تضطروا إطلاقًا إلى عدم إخراج عملكم إلى النور» (التراث الأدبى، المجلد ١٥، ص ١٣٩). حول علاقة دستويفسكى بوبيدونوستسيف انظر مقالات: ل. ب. جروسمان، «دستويفسكى والدوائر الحكومية فى السبعينيات» «التراث الأدبى»، المجلد ١٥ ؛

R. F. Byrnes «Dostoevsky and Pobedonostzev»– «Essays in Russian and soviet History”, New York,1963, 85 - 102

(يقدم الكتاب تحليلاً محددًا لنماذج من مؤلفات كل من دستويفسكى وبوبيدونوستسيف ويعرض للتشابه والاختلاف فى وجهات نظرهما السياسية).

(١٣٩) كان نيكولاى ياكوفليفيتش دانيليفسكى مواظبًا فى الأربعينيات على زيارة جماعة بتراشيفسكى، حيث راح يدرس بإعجاب مبادئ فورييه (انظر العرض الذى قدمه لمذهب فورييه فى كتاب ف. ليكينا «جماعة بتراشيفسكى»، تحرير: ب. ى. شيجوليف، موسكو، ١٩٢٤). فى عام ١٨٤٩ تم القبض عليه فى قضية بتراشيفسكى. وفى أثناء وجوده فى قلعة بتروبافلوفسك قدم دانيليفسكى طلبًا أثبت فيه براءته وقد أفرجت المحكمة عنه، لكنه نُفى من بطرسبورج إلى فولوجدا ثم ينقل منها إلى سمارًا.

وبدا من عام ١٨٥٣ يعمل دانيليڤسكى فى مختلف دور النشر وينشر عددًا من المقالات سواء فى تخصصه (علم النبات)، أو فى موضوعات اجتماعية مختلفة.

وفى عام ١٨٦٩ ينشر دانيليڤسكى فى مجلة «زاريا» (الفجر) عمله الرئيسى: «روسيا وأوروبا» (وقد ظهر فى طبعات متعددة عام ١٨٧١، ١٨٨٨، ١٨٨٩). وتشغل فكرة دانيليڤسكى حول انهيار أوروبا وعن الخصائص الثابتة لروسيا (الأرثوذوكسية وروح الجماعة وهلمجرا) الجزء الأكبر من الكتاب، وإن لم تقدم جديدًا مقارنة بما عبر عنه أنصار النزعة السلافية من قبل. وتعد آراء دانيليڤسكى السياسية هى الأكثر أصالة فى زمنه، وبخاصة المشروع الذى طرحه لحل المسألة الشرقية والذى تمثل فى إنشاء الاتحاد السلافى، بحيث تكون عاصمته هى القسطنطينية. وعن تأثير أعمال دانيليڤسكى على آراء دستويڤسكى فى السبعينيات، الذى بدأ عمله «مذكرة الكاتب» فى الظهور بعد أربع سنوات من ظهور كتاب دانيليڤسكى «روسيا وأوروبا» انظر كتاب د. ف. جريشين «مذكرة الكاتب» لفيودور دستويڤسكى، ملبورن، ١٩٦٦، ص ١٣٢ ــ ١٣٥

(١٤٠) ظل باڤل ميخايلوڤيتش تريتياكوف مؤسس أشهر قاعة عرض للوحات الفنية طوال حياته واحدًا من أكثر المعجبين بإبداع دستويڤسكى (لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :ف.ب. زيلوتى، فى بيت ترياتيكوف، نيويورك، ١٩٥٤، ص ١٨٣ ــ ١٨٧). وقد ازدادت العلاقة بينه وبين دستويڤسكى توثقًا فى موسكو فى يونيو عام ١٨٨٠، عندما شارك فى تنظيم احتفالات بوشكين بصفته محافظًا للمدينة. ويشهد على هذه العلاقة الوثيقة خطابا دستويڤسكى إلى تريانيكوف المؤرخ ١٤ يونيو ١٨٨٠ ثم إلى زوجته ڤيرا تريتياكوڤا المؤرخ ١٣ يونيو ١٨٨٠ (انظر كتاب أ. ب. بوشكين «باڤل

ميخايلوڤيتش ترياتيكوف فى الحياة والفن»، موسكو، ١٩٦٠، ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠).

كتب ترياتيكوف إلى كرامسكوى خطابًا فى الخامس من فبراير ١٨٨١ بعد وفاة دستويڤسكى يقول فيه: «ما أكثر ما قيل وما كتب عنه (دستويڤسكى)، ولكن هل يدرك الناس مدى فداحة الخسارة التى منينا بها؟ لقد كان رجلاً روسيًّا حتى النخاع، إلى جانب كونه كاتبًا عظيمًا، كان يقدر وطنه بحماس، على الرغم مما أصاب هذا الوطن من قروح. لم يكن حواريًا فقط كما وصفته بل. كان نبيًا ومعلمًا لكل ما هو طيب. كان ضمير مجتمعنا» (مراسلات إ. ن. كرامسكوى و ب. م. ترياتيكوف، ١٨٦٩ ــ ١٨٨٧»، موسكو، ١٩٥٣، ص ٢٧٧).

(١٤١) عن عمله فى رسم صورة دستويڤسكى فى نهاية أبريل والنصف الأول من مايو ١٨٧٢ كان ڤاسيلى جريجوريڤيتش بيروف يحيط ترياتيكوف علمًا فى خطاباته (انظر: خطابات الفنانين إلى ب. م. ترياتيكوف ١٨٧٠ ــ ١٨٧٩»، موسكو، ص٧٦ ــ ٧٧). وعن إبداع ف. ج. بيروف كتب دستويڤسكى مرتين: الأولى بخصوص لوحتيه «دعوة فى الريف» فى مقاله: «معرض فى أكاديمية الفنون عن العامين ١٨٦٠ ــ ١٨٦١» (المقال ملحق بأعمال دستويڤسكى ــ انظر دستويڤسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، المجلد الثالث عشر، ص ٥٤٤ ــ ٥٤٥) والثانية عن لوحة «صيادون عند الموقف» فى «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٣ فى مقاله «بخصوص المعرض» (دستويڤسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، المجلد الحادى عشر، ٧٣ ــ ٧٤).

(١٤٢) عن وصول دستويڤسكى إلى ستاريا روسا فى عام ١٨٧٢ والسنوات التالية انظر التفاصيل فى كتاب: ل.م. راينوس، ف. م. دستويڤسكى فى ستاريا روسا، لينينجراد، ١٩٦٩

(١٤٣) بالإضافة إلى الكتاب سابق الذكر لراينوس ـ عن القس إ. روميانتسيف، انظر نعى «صديق دستويفسكى» صحيفة «نوفوستى» (الأخبار)، ١٩٠٥، ١٢ فبراير، العدد ٣٦؛ ومقاله أ. ف. كروجلوف «رحلة ستاريا روسا». «البشير التاريخى»، ١٨٩٥، العدد ٤، حيث تتضمن المقالة أيضًا ذكريات موجزة لروميانتسيف نفسه عن لقاءاته بدستويفسكى فى ستاريا روسا.

(١٤٤) يدعى طبيب ستاريا روسا أ. أ. رويخل وهو مدير مينيرلنى ڤودى أما الطبيب العسكرى الذى جاء إلى ستاريا روسا فيدعى ن. أ. شينك (انظر بقية النص فى «مذكرات» أنّا جريجوريڤنا المؤرخ السابع والعشرين من مايو ١٨٧٢ الخطابات، المجلد الثالث، ص ٢٨ ـ ٣٠).

(١٤٥) الخطابات، المجلد الثالث، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(١٤٦) استقبلت رواية «الشياطين» باستهجان تام سواء من جانب الصحافة اللليبرالية أو الديمقراطية. وقد ظهرت الانتقادات الحادة فى مجلة «سيانيا» («الضياء») (١٨٧٣، الجزء الأول) وكذلك فى صحف ـ بيريچيڤيى ڤيدوموستى» (١٨٧٢، العدد ٨٣)، «نوڤوى فريميا» (١٨٧٣، العدد ٦١)، «جولوس» (١٨٧٣)، العدد ١٨). ظهرت المقالات والآراء، كما ظهر الهجاء والهجوم على مقالة «بخصوص المعرض» فى الصحف الديموقراطية ـ «ديلو» و«إيسكرا»، كانت أشهرها مقالات د. مينايف («ديلو»، ١٨٧١، العدد١١) و ب. تكانثيف («المرضى». ـ «ديلو»، ١٨٧٣ (العددان ٣ ـ ٤). وحتى صحيفة «روسكى مير»(»العالم الروسى» ذات التوجه الرجعى جمعت فى مقالاتها بين ما هو مناصر للجوانب المتحيزة للرواية (ف. ج. أڤسينكو) وبين توجيه اللوم لدستويڤسكى لافتقاد العمل إلى الحرفية الفنية والإطالة و «الجنوح إلى الخيال» («روسكى مير»، ١٨٧٢، العدد ٣١٥؛ ١٨٧٣، العدد ٥). صحيح أن أڤسينكو خفف من حدة ملاحظاته النقدية

بشكل ملحوظ فى مقالته ــ التوجه النفسى الاجتماعى فى الرواية». «البشير الروسى»، ١٨٧٣، العدد ٨. فى حين اكتسبت مقالات ف. ب. بورينين فى «وقائع سان بطرسبورج» نبرة أكثر لينًا وتحفظا، ١٨٧٢، العدد ١٥، ٣٤٥؛ ١٨٧٣، العددان ٦، ١٣ (عن بورينين انظر التعليق رقم ١٥٣). تجدر الإشارة إلى أن النقد الليبرالى زاد من حدة هجومه على رواية دستويڤسكى: وإذا كان هذا النقد قد صب لعنته عليه، إلا أنه، فى الواقع، قد أحجم عن تحليلها. المقالة الوحيدة التى تميزت بنبرة موضوعية وهادئة والتى قامت بتحليل «الشياطين» تحليلاً منطقيًا فى خضم الجدل المحتدم حول الرواية فى الأعوام ١٨٧١ ــ ١٨٧٣، كانت مقالة ن. ك. ميخايلوڤسكى «ملاحظات أدبية وصحفية» وذلك فى «حوليات الوطن»، ١٨٧٣، العدد الثانى، انظر كتاب زاموتين، ص١٣١ ــ ١٦٧، حيث جرى جمع الآراء التى وردت فى المجلات والصحف الدورية عن «الشياطين»، انظر أيضًا التعليق رقم ١٤٩

(١٤٧) تعرف دستويڤسكى، كما يبدو، على الكاتب والصحفى نيكولاى بتروڤيتش سيميونوف من خلال أخيه، الرحَّالة الشهير ب. ب. سيميونوف ــ تيان ــ شانسكى، وقد كان على معرفة قريبة منه قبل ذلك فى الأربعينيات فى جماعة بتراشيفسكى ثم التقاه مرة أخرى فى المنفى فى مدينة سيميبالاتينسك. كان ن. ب. سيميونوف عضوا فى هيئة تحرير معنية بكتابة قانون للفلاحين وقد تسنى له، على الأرجح، أن يتحدث مع دستويڤسكى فى هذا الموضوع.

(١٤٨) يصرح دستويڤسكى نفسه فى خطابيه إلى أ. ى. فرانجيل المؤرح الثامن من نوفمبر ١٨٦٥ وإلى صوفيا إيڤانوڤا المؤرخ التاسع والعشرين من سبتمبر ١٨٦٧ أن فكرة إصدار «مذكرة الكاتب» كانت تراوده قبيل سفره إلى الخارج (انظر: الخطابات، المجلد الأول، ص ٤٢٤؛ المجلد الثانى، ص ٤٤).

(١٤٩) بدأ ف. ب. ميشيرسكى فى إصدار الصحيفة ــ المجلة الأسبوعية «المواطن» عام ١٨٧٢؛ وفى نهاية العام قرر أن يدعو دستويفسكى للعمل بالصحيفة ــ المجلة باعتباره محررًا. فى الخامس عشر من ديسمبر عام ١٨٧٢ تم رفع التماس لتعيين دستويفسكى محررًا بمجلة «المواطن»، إذ إن دستويفسكى كان معروفًا بأنه «مجرم سياسى» سابق، وكان موضوعًا تحت الرقابة السرية للشرطة. وقد قدم ميشيرسكى هذا الالتماس بنفسه إلى كل من مدير ورئيس القسم الثالث ب. أ. شوفالدف وأ.ف. شولتز (انظر مقال ر. كانتور «معلومات جديدة عن دستويفسكى». ــ «البشير الأدبى»، ١٩٢١، العدد ١١، ومقال ى. ج. أوكسمان «دستويفسكى فى هيئة تحرير «المواطن». ــ فى كتاب: «إبداع دستويفسكى» أوديسا، ١٩٢١). جاءت موافقة دستويفسكى على العمل فى تحرير «المواطن» بسبب الوضع المالى المتردى للكاتب، كما كتبت بعد ذلك أنّا جريجوريفنا دستويفسكايا؛ فضلاً عن رغبة دستويفسكى الشديدة فى الانخراط المباشر فى الصراع الأدبى والسياسى. كان دستويفسكى مدفوعًا بالرغبة فى إمكانية أن يشارك بكتابة مقالاته وهو يشغل، أكبر منصب فى المجلة. كان قرار دستويفسكى، مؤلف رواية «الشياطين» (التى اعتبرها النقد الديمقراطى وحتى الليبرالى بمثابة طعن وهجاء للحركة الثورية وللشباب المعاصر) أن يصبح محررًا لأكثر الدوريات الأسبوعية رجعية، والتحالف مع الكاتب ميشيرسكى عدو التقدم، الذى راح يدافع بكل صلابة عن المزايا الإقطاعية والأرستقراطية، العدو اللدود للإصلاحات، من وجهة نظر كل صحف بطرسبورج تقريبا انتقالاً طبيعيًا لدستويفسكى إلى المعسكر الرجعى. كان دستويفسكى يأمل بمجرد تسلمه العمل محررًا «للمواطن» أن يحصل على الحرية والاستقلال الكاملين فى العمل، لكنه راح يعض إصبع الندم على ضياع آماله بأسرع مما كان يتصور: لم يتمكن دستويفسكى بسبب الوصاية والتدخل المتكرر

من جانب ميشيرسكى فى عمله؛ فضلاً عن الهجوم الذى ازدادت حدته من الصحافة فى بطرسبورج من ممارسة نشاطه فى التحرير إلا قليلاً، كما أضعف كل ذلك على نحو كبير من وضع دستويڤسكى فى عالم الصحافة الأدبية. لقد تحمل دستويڤسكى «آلامًا نفسية» مبرحة على مدى العام الذى عمل فيه محررًا فى «المواطن»، لا بسبب «أعداء» الأمير ميشيرسكى فقط، وإنما ينبغى أيضًا أن نغزو هذه الآلام إلى غالبية الصحف الروسية ربما باستثناء مجلة «أحاديث عائلية» و«البشير الروسى» فسيڤولد سولوڤيوڤ ــ دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الثانى، ١٩٦ ــ ١٩٧). سرعان ما تصاعد الخلاف الداخلى، وبخاصة الصدام «الأيديولجى» الحاد بين دستويڤسكى وميشيرسكى، الذى أدى إلى انفصالهما، وأعرب فيها عن فكرته فى فرض الرقابة على شباب الطلاب. وقد كتب دستويڤسكى خطابًا إلى ميشيرسكى فى نوفمبر ١٨٧٣ عبر فيه عن استيائه بقوله: «إن فكرتك هذه تتنافى بشدة مع معتقداتى وقد أثارت فى نفسى القلق» (الخطابات، المجلد الثالث، ص٨٨). عن عمل دستويڤسكى فى «المواطن» انظر: ف. ب. ميشيرسكى، مذكراتى، الجزء الأول، سان بطرسبورج، ١٨٩٨ (وهى مذكرات تفتقد بشدة إلى الحياد وقد أغفل فيها ميشيرسكى الحديث عن الصدامات والخلافات بينه وبين دستويڤسكى)؛ مذكرات ڤ. ڤ. تيموفيڤا (أ. بوتشينكوڤسكايا) و م. أ. ألكسندروڤا فى كتاب: دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الثانى، والعمل المتميز الذى أعده ڤ. ڤ. ڤينوجرادوڤ. ف. م. دستويڤسكى باعتباره محررًا «للمواطن»ومؤلفًا مجهولا للمقاولات الهجائية فيه فى كتابه «مشكلة التأليف ونظرية الأساليب»، موسكو، ١٩٦١

(١٥٠) تعرف ألكسندر أوستينوڤيتش بوريتسكى على دستويڤسكى فى الأربعينيات (انظر خطابات دستويڤسكى إلى بوريتسكى فى الأربعينيات ــ

الخطابات، المجلد الأول). تتذكر ف. ف. تيموفيڤا (أ. بوتشينكوفسكايا) قائلة «يعترف لى دستويڤسكى بقوله: إننى أكن لهذا الإنسان ثقة خاصة، ففى كل الأحداث الصعبة وفى لحظات الشك فى حياتى كنت ألجأ إليه ودائما ما أجد لديه الدعم والسكينة» (دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الثانى، ص١٦٢). كان موريتسكى يدير فى الستينيات قسم «العروض النقدية المحلية» فى مجلة الأخوين دستويڤسكى «الزمن»، وقد تولى بعد وفاة ميخائيل دستويڤسكى (١٠ يوليو ١٨٦٤) وظيفة المحرر الرسمى لمجلة «العصر» حتى توقفها. يصف ستراخوف بوريتسكى فى مذكراته بأنه «كان إنسانًا ذكيًا، مثقفًا، يتميز فوق ذلك بخصال نفسية نادرة، كان يمتلك قلبًا طيبًا نقيًا لا تشوبه شائبة. كان متعاطفًا بكل جوانحه لتوجهات مجلة «العصر» (السيرة الذاتية، ص٢٧٢). عن دور ألكسندر بوريتسكى فى مجلة «العصر» انظر مقالة أ. س. دولينين «مدخل إلى تاريخ الرقابة على المجلتين الأوليين لدستويڤسكى». ــ فى كتاب دستويڤسكى، المجلد الثانى، ص٥٧٤ ــ ٥٧٧.

(١٥١) يفجينى ألكسندروڤيتش بيلوف ــ معلم، مؤرخ للحركة السلاڤية، مؤلف الكتاب الشهير «تاريخ روسيا قبل إصلاحات بطرس الأكبر» (١٨٩٦)، عرض فيه تفصيلاً لوجهات نظره وإيمانه بالحركة السلاڤية. ومن الأمور الشيقة أن بيلوف فى شبابه كان معجبًا بالاشتراكية الطوباوية، كما اشترك فى الواقع مع دستويڤسكى فى تطوره الفكرى فى نفس الاتجاه. فى عام ١٨٧٣ تولى بيلوف العمل فى مجلة «المواطن» فى قسم «الفهارس». وله عدد من المقالات فى «المواطن» عام ١٨٧٣ (الأعداد ٢١، ٢٦، ٣٠، ٣١، ٣٢).

(١٥٢) انظر خطاب دستويڤسكى إلى أخيه ميخائيل المؤرخة ٣١ ديسمبر ١٨٤٣، يناير وأبريل ١٨٤٤ وأكتوبر ١٨٤٦ (الخطابات، المجلد الأول، ص ٦٦، ٦٧ ــ ٦٨، ٧٠ ــ ٧١، ١٠٠ ــ ١٠١).

(١٥٣) من الواضح أن أنّا جريجوريڤنا تقصد الآراء الحادة التى وجهها النقد المعاصر لرواية «الشياطين» (انظر التعليق رقم ١٤٦) والاستقبال الفاتر لرواية «الأبله». بطبيعة الحال فقد كان دستويڤسكى كثيرًا ما يقاسم أنّا جريجوريڤنا آراءها بشأن النقاد المعاصرين، الذين كان يميل أكثر منها لأن يعدهم ضمن «أعدائه». وكان دستويڤسكى يتعامل مع صمت النقاد وآرائهم العدوانية بنفس الحدة، وفى الوقت نفسه كان يضع رأى القراء العاديين فى مواجهة المقالات النقدية المتحيزة والتى تفتقد إلى العمق؛ وفى هذا الصدد، على وجه الخصوص، تحدثت إحدى ملاحظاته التى سجلها فى دفتره عام ١٨٧٦ «إننى أجد دائمًا الدعم والتأييد لا من النقد، وإنما من الجمهور. من النقاد لديه معرفة بخاتمة رواية «الأبله» هذا المشهد شديد القوة، الذى لم يتكرر مطلقًا فى الأدب. حسنًا، إن الجمهور يعترف به» (الأرشيف المركزى للأدب والفن).

أما ڤيكتور بوريفين فقد كتب كثيرًا عن دستويڤسكى بدءًا من النصف الثانى من الستينيات وبخاصة فى صفحتى «وقائع سان بطرسبورج» و«الزمن الحديث»، على أن كتاباته كانت تتميز بالسطحية وسوء القصد فى معظم الأحوال. وقد اعتبر بورينين أن رواية «الأبله» «خليط قصصى مكون من أحداث وشخصيات سخيفة وضعت دون أدنى عناية بالهدف الفنى لها» (وقائع سان بطرسبورج»، ١٨٦٨، العدد ٢٥٠). وعلى الرغم من أن بورينين، الناقد فى صحيفة ليبرالية، أدان الاتجاه النقدى الساخر للرواية، فإنه رفض بشدة الآراء التى وضعت رواية «الشياطين» جنبًا إلى جنب روايات ليسكوف وأفسينكو وماركيڤيتش. وأردف قائلا إنه حتى الصفحات أكثر صفحات هذه الرواية تحيزًا فإنها «ثمرة اعتقاد مخلص، وليست تملقًا رخيصًا لغرائز الجماهير الحسية الفظة، مثل ما هو موجود فى روايات الأساتذة» («وقائع سان بطرسبورج»، ١٨٧٣، العدد١٣). كان

لهذا الرأى تحديدًا أثره الطيب على دستويفسكى، الذى أبرز مقالة بورينين بشكل خاص لأن الناقد «فى تحليله لرواية «الشياطين» طرح فكرة أننى إذا كنت قد اعتنقت إيمانا مغايرًا لإيمانى السابق، فقد حدث هذا بكل صدق (أى أن ذلك لم يكن بقصد التظاهر، دائما بشرف)، وقد مست هذه العبارة شغاف قلبى» (مكتبة الدولة باسم لينين). من الواضح أنه يتعين علينا أن نشرح جزئيًا، بناء على هذا الموقف، ما ذكره بورينين إلى جانب ما ذكرته أنّا جريجوريفنا فى مذكراتها عن بيلينسكى ودوبروليوبوف. إن المقالات الرصينة التى كتبها بورينين عن رواية «الإخوة كارمازوف» («العصر الحديث»، ١٨٧٩ الأعداد، ١٠٨٧، ١٢٧٣، ١٣٥٧)، والتى تناول فيها الناقد العمل الجديد لدستويفسكى بصورة إيجابية تمامًا، حتى أنه كتب يقول، إن الرواية من حيث عمقها وطزاجتها فى معالجتها للحياة الروسية «تبدو أكثر عصرية بعشر مرات عن أكثر القصص والروايات والأعمال الدرامية والكوميدية المعاصرة»، قد ساهمت فى زيارة التعاطف من جانب دستويفسكى تجاه الناقد، وقد انعكس ذلك الشعور فى مذكرات زوجته. على أن أنّا جريجوريفنا استطاعت أن تجد من بين النقاد الباحثين المعاصرين لإبداع دستويفسكى اسما أكثر جدارة من بورينين وهو ڤاليريان نيكولايڤيتش مايكوف، الذى أشار فى مقالاته «شىء ما عن الأدب الروسى فى ١٨٤٦» (الوقائع الوطنية ١٨٤٧، المجلد ٥٠) إلى أوجه التشابه بين واقعية جوجول وواقعية دستويفسكى، وحدد بدقة أيضًا أوجه الخلاف بينهما فى مقولة: «إن جوجول شاعر يتميز بالنزعة الاجتماعية، بينما يتميز دستويفسكى بالنزعة النفسية».

(١٥٤) الخطابات، المجلد الثالث، ص٧٠. وكما يصرح دستويفسكى نفسه فى هذا الخطاب (المؤرخ التاسع والعشرين من يوليو ١٨٧٣)، فقد قام بإعادة كتابة مقالة ميشيرسكى عن تيوتشيف. وقد نشرت مقالة «الذاكرة

النضرة لتيوتشيف» فى «المواطن» العدد ٣١ المؤرخ ٣٠ يوليو ١٨٧٣ بعد أن قام دستويفسكى بتنقيحها (انظر فى هذا السياق: ن. بيلتشيكوف، دستويفسكى عن تيوتشيف. ملحق بها مقالة ف. ميشيرسكى، «الذاكرة النضرة لنيوتشيف» مجلة «الماضى»، ١٩٢٥، العدد ٥).

(١٥٥) فى «مذكرات عن ف. م. دستويفسكى» كتب فسيفولد سولوفيوف يقول: «كان يعلق آمالاً كبارًا على نشاطه فى التحرير منذ أول لقاء لنا. لكن هذا النشاط لم يكن مبشرًا إطلاقًا بالنجاح، وهو ما كان من الممكن التنبؤ به على الفور لعلمنا بشخصيته وبالظروف التى تحيط به. كانت سمعة المجلة قد ترسخت وراحة الصحافة كلها آنذاك تهاجم المجلة بحدة وبذاءة». وقد انهالت السخرية والازدراء على المحرر الجديد من كل جانب، سخرية غبية ووقحة. لقد تعرض مؤلف «الجريمة والعقاب» و«مذكرات من البيت الميت» لوصفه بالمجنون والمهووس والمتخلف والخائن، بل إنهم دعوا الجمهور للذهاب إلى معرض أكاديمية الفنون «مشاهدة صورة دستويفسكى هناك، التى رسمها بيروف، باعتبارها دليلاً مباشرًا أن هذا المعتوه مكانه فى بيت المجانين» (دستويفسكى فى مذكرات معاصريه، المجلد الثانى، ١٩٦ ــ ١٩٧).

(١٥٦) نشرت مقالة ميشيرسكى «نواب ڤيرغيزيا فى سان بطرسبورج» فى «المواطن»، العدد ٥، المؤرخ التاسع والعشرين من يناير ١٨٧٣ . وقد تضمن المقطع التالى: «قام أقدم النواب المدعو سلطان محمد <...> بإلقاء خطابه الذى كتبه نيابة عن الشعب، وقد ألقاه بأصالة وحزم وبلغة سليمة: «جلالة الإمبراطور»، ــ ولكن عندما اعترض الإمبراطور على هذه الكلمات قائلاً: «هل تتحدث بالروسية»، ارتبك محمد، حتى أنه نطق بضع كلمات بصوت خفيض باللغة القرغيزية من خطاب كان قد أعده ثم أصابه الخرس»

(حول هذا المقطع انظر: ى. ج. أوكسمان، «ف. م. دستويفسكى فى هيئة تحرير «المواطن». ــ فى كتاب: إبداع دستويفسكى، أوديسا، ١٢٩٢١، ص ٦٩ ــ ٧١).

(١٥٧) غير صحيح ما كتبته أنَا جريجوريفنا دستويفسكايا أن دستويفسكى «بالطبع، اعترف بخطئه». إنعقدت المحاكمة للنظر فى قضية دستويفسكى صباح الحادى عشر من يونيو ١٨٧٣. وقد حضر دستويفسكى إلى المحكمة، لكنه لم يعترف بذنبه؛ وقد حضر للدفاع عنه المحامى ف. ب. جايفسكى ممثلاً للصندوق الأدبى الذى أعلن أن لجنة الرقابة لا تملك الحق القانونى فى رفع القضية (انظر «جولوس»، ١٨٧٣، ١٣ يونيو، العدد ١٦٢).

(١٥٨) وعن هذا المقطع يحكى أ. ف. كونى فى مقالته فى كتاب «ف. م. دستويفسكى»؛ وإن كان فى الحقيقة قد أخطأ فى قوله إن دستويفسكى قد أدين لنشره «معلومات عن رحلة القيصر» (انظر: أ.ف. كونى، الأعمال الكاملة، المجلد السادس، موسكو، ١٨٦٨، ص٤٣٢). جمعت الصدفة بين أ. ف. كونى، رجل القانون الروسى البارز والكاتب فى عام ١٨٧٣، ليكون هذا التاريخ بداية لصداقة امتدت بينهما لسنوات طويلة. كان مؤلف «الجريمة والعقاب» مهتمًا بشكل خاص بمشكلات مخالفة القواعد الأخلاقية والاجتماعية، وكان أ. ف. كونى مهتمًا لغاية كذلك بهذه المشكلات باعتباره قانونيًا بارزًا، وبفضله استطاع دستويفسكى أن يحصل على فرصة الحضور فى عدد من المحاكمات فى بطرسبورج فى السبعينيات. وقد نظم كونى لدستويفسكى رحلة إلى مستعمرة للمجرمين الأحداث فى عام ١٨٧٥، وفى النهاية فإن رواية «الإخوة كارامازوف» مدينة للعديد من النصائح الحرفية التى بذلها كونى (الباب التاسع «تحقيق تمهيدى» والباب الثانى عشر» خطأ قانونى»). وإلى جانب مقالته عن «ف. م. دستويفسكى» كتب كونى مقالتين أخريين عن دستويفسكى اتخذا طابع المذكرات: (انظر: أ. ف. كونى، الأعمال الكاملة، المجلد السادس، موسكو ١٩٦٨).

(١٥٩) انظر الخطابات، المجلد الثالث، ص٧٧.

(١٦٠) غير صحيح. الحديث يدور عن لجنة بطرسبورج السلاڤية الخيرية، التى انبثقت عنها فى عام ١٨٧٧ الجمعية السلاڤية الخيرية لتقديم المساعدات العينية للسلاڤيين البلقان، ودعم المتطوعين المتجهين إلى ميدان الحرب الروسية التركية.

(١٦١) على الرغم من أن أواصر التعارف بين دستويڤسكى وسولوڤيوف عقدت بالفعل فى مطلع عام ١٨٧٣ (خطاب ڤلاديمير سولوڤيوف إلى دستويڤسكى المؤرخ ٢٤ يناير ١٨٧٣ ـــ مكتبة الدولة باسم لينين)، ويدور الحديث فى هذا الخطاب على الأرجح عن الأخ الأكبر لسولوڤيوف، الكاتب والناقد فسيڤولد سولوڤيوف، الذى توطدت علاقته بالمناسبة مع دستويڤسكى فى هذه الفترة (انظر فسيڤولد سولوڤيوف «مذكرات عن ف. م. دستويڤسكى. ـــ دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الثانى، ص١٨٦ ـــ ٢٠٩).

وقد سافر ڤلاديمير سولوڤيوف إلى الخارج لمدة عامين فور حصوله فى عام ١٨٧٤ على درجة الماچستير، وكانت أطروحته تسمى «أزمة الفلسفة الغربية» وهكذا فإن العلاقة بينه وبين دستويڤسكى توطدت على نحو أوثق بدءًا من عام ١٨٧٧ فور عودته إلى بطرسبورج. وقد جرت معظم لقاءاتهما منذ نهاية ١٨٧٧ وحتى خريف ١٨٧٨ عندما راح دستويڤسكى يواظب على حضور المحاضرات التى كان يلقيها ڤلاديمير سولوڤيوف بنجاح منقطع النظير فى سوليانى فى ضواحى بطرسبورج تحت عنوان «قراءات حول الإله الإنسان». وفى يونيو ١٨٧٨ وإبان رحلتهما معًا إلى دير أوبتينا عرض دستويڤسكى على ڤلاديمير سولوڤيوف «فكرته الرئيسية» وبعضًا من الخطة الكاملة لسلسلة رواياته المنتظرة، التى لم يكتب منها سوى «الإخوة كارامازوف» (انظر فى هذا السياق: ڤلاديمير سولوڤيوف، المؤلفات الكاملة، المجلد الثالث، سان بطرسبورج، ١٩١٢، ص١٩٧

وقد حضر دستويفسكى فى السادس من أبريل ١٨٨٠ مناقشة أطروحة ڤلاديمير سولوڤيوف للدكتوراة التى كان عنوانها «نقد المبادئ المحررة». وقد اهتم الكاتب بنظريات الفيلسوف الشاب، وكان أكثر ما لفت انتباه دستويڤسكى هو جوهر الفكرة القريبة إليه، والتى عبر عنها سولوڤيوف عندها ذكر أن «الإنسانية <...> تعرف أكثر بكثير مما استطاعت أن تعبر عنه فيما أنجزته من علوم وفنون» (خطاب دستويڤسكى إلى إدوارد يونج المؤرخ الحادى عشر من أبريل ١٨٨٠ ــ الخطابات، المجلد الرابع، ص١٣٦). وبعد وفاة دستويڤسكى ألقى ڤلاديمير سولوڤيوف ثلاثة خطب أكد فيها على المثل الدينية فى إبداع الكاتب: وهكذا ــ فإن الكنيسة، باعتبارها مثالاً اجتماعيًا إيجابيًا، وأساسًا وهدفًا لكل أفكارنا وأعمالنا، وهى مأثرة الشعب بأسره، والطريق المستقيم إلى تحقيق هذا المثال ــ هذه هى الكلمة الأخيرة التى وصل إليها دستويڤسكى، والتى أضاءت كل أعماله بنور نبوى» (ڤلاديمير سولوڤيوف، ثلاث خطب فى ذكرى دستويڤسكى، موسكو،١٨٨٤، ص١٠)، على أن هناك أسسًا قوية للشك فى الإخلاص التام لڤلاديمير سولوڤيوف، الذى كانت المُثُل التى نادى بها الكاتب غريبة عليه فى معظمها، وفى آرائه الدينية التى كتب عنها بحدة تامة إلى الكاتب والناقد قنسطنطين ليونتيف ــ «إن دستويڤسكى يؤمن بحرارة فى وجود الدين وكثيرًا ما نظر إليه من خلال أنبوب بصرى، باعتباره موضوعًا قائمًا بذاته، ولكنه لم يستطع إطلاقًا أن يقف فى الواقع على أرضية دينية» (ڤاسيلى روزانوف، من مراسلاته إلى قنسطنطين ليونتيف «البشير الروسى»، ١٩٠٣، العدد ٥، ص١٦٢). وعن دستويڤسكى و ڤلاديمير سولوڤيوف انظر مقالة الفيلسوف المثالى إرنست ليوبولدوڤيتش رادلوف «سولوڤيوف ودستويڤسكى» فى كتاب دستويڤسكى، المجلد الأول.

(١٦٢) تعرف دستويفسكى على إيفان نيكولايفيتش شيدلوفسكى فى ربيع ١٨٣٧، بمجرد وصوله مع أخيه ميخائيل إلى بطرسبورج. لقد وقع دستويفسكى فى السنوات الأولى لوجوده فى معهد الهندسة تحت تأثير شيدلوفسكى، الذى كان يكتب قصائد صوفية غامضة، وكان يعيش قصة حب سامية، ويتحدث على نحو ملهم عن مملكة الله ويحلم بلذة بالانتحار. كان دستويفسكى يحكى لأخيه عن شيدلوفسكى بحماس بالغ: «تنظر إليه، فإذا بك أمام شهيد! كان نحيلاً، خداه غائران، عيناه منديتان، متوهجتان بالحماس، الجمال الروحى لوجهه يستمر فوق ذبوله البدنى <...>. يا له من إنسان بخلص صريح! أن تنساب الآن عندما أتذكر الماضى <...>. لقد قمنا فى لقائنا الأخير بالتنزه فى يكاتير ينهوف. كم كانت قمنا أمسية! لقد استعدنا فيها ذكريات فصل الشتاء، عندما تحدثنا عن هيرميروس وشكسبير وشيللر وهوفمان، وقد تحدثنا طويلاً عن هوفمان وقرأناه كثيرًا <...> لقد كنت فى حالة من البهجة الشديدة فى الشتاء الماضى. وقد عشت أجمل ساعات حياتى بفضل معرفتى بشيدلوفسكى <...>. أستطيع أن قول إن لى رفيقًا، مخلوقًا، أحبه حبًا جمًا!». (الخطاب مؤرخ الأول من يناير ١٨٤٠. ــ الخطابات، المجلد الأول، ٥٦ ــ ٥٧). عمل شيدلوفسكى لفترة قصيرة موظفًا فى بطرسبورج، ولكنه سرعان ما غادرها عائدًا إلى مسقط رأسه فى محافظة خاركوف، وهناك أعد بحثًا كبيرًا فى تاريخ الكنيسة الروسية. ولعل من اللافت للانتباه أن أوردينوف، بطل قصة دستويفسكى المبكرة، يجمل، ربما، كثيرًا من الملامح النفسية لشيدولوفسكى، والذى كان يكتب هو أيضًا بحثًا عن تاريخ الكنيسة. وفى الخمسينيات انخرط شيدولوفسكى فى سلك الرهبنة بدير فالويسكى، ومن هناك ذهب للحج فى كييف. عاد بعدها إلى قريته، حيث عاش بها إلى أن وافته المنية. ظل دستويفسكى طوال عمره يحتفظ بذكريات طيبة عن صديق شبابه. ويذكر فسيفولد سولوفيوف أنه عندما

طلب من دستويفسكى أن يقص عليه طرفًا من حياته ليكتب مقالة عنه، أجابه الكاتب: «من الضرورى أن تذكر فى مقالتك شيدلوفسكى، لا حاجة لك أن تقول إن أحدًا لا يعرفه، وأنه لم يترك بعده اسمًا. أدبيًا. أستحلفك بالله يا عزيزى أن تذكر أنه كان شخصًا عظيمًا بالنسبة إلىَّ، وأن اسمه لا ينبغى أن يطوى فى غياهب النسيان» (دستويفسكى فى ذكريات معاصريه، المجلد الثانى، ص ١٩١). ظلت شخصية شيدلوفسكى، الرومانسى الروسى، مطبوعة للأبد فى مخيلة دستويفسكى. ويعد أوردينوف، بطل قصة دستويفسكى «صاحب النزل» أول من بدأ المسار الرومانسى بين أبطاله؛ لينتهى هذا المسار بديمترى كارامازوف الذى ألقى نشيد شيللر. عن شيدولوفسكى ودستويفسكى المبكر، أوديسا، ١٩٢١

(١٦٣) فى عام ١٨٧٤ قام جرينفيل ردستوك، الداعية الإنجليزى لمذهب التوبة عن طريق الإيمان، بقراءة عدد من المحاضرات فى بطرسبورج. وكان لدعوته أثر فى نشأة طائفة دينية فى روسيا عرفت باسم الباشكوفيين (أحد أسماء طائفة المسيحيين الإنجيليين فى نهاية القرن التاسع عشر على اسم زعيمها آنذاك ف. أ. بشكوف ــ المترجم). ويتلخص مذهب ردستوك فى التوبة عن طريق الإيمان فى أن «غفران الذنوب لا يأتى نتيجة الأعمال الصالحة، فالذنوب يمكن أن يطهرها الدم المقدس، الذى انساب وغسل كل من آمن بالمسيح، باعتباره المخلص الوحيد، وهو الوحيد الذى يصل بين الله والإنسان». وقد أعرب دستويفسكى عن رفضه لتعاليم ردوستوك فى «مذكرة الكاتب» عن ١٨٧٦ قائلاً «إن النجاح الحقيقى للورد ردستوك يعتمد فى الأساس على أننا «انفصلنا» عن أرضنا، عن أمتنا. ويبدو أننا، الصفوة المثقفة فى مجتمعنا، أصبحنا الآن شعبًا غريبًا، صغير العدد للغاية، لا قيمة له إطلاقًا، لكنه يمتلك مع هذا عاداته وخرافاته، التى يمكن اعتبارها

دينًا خاصًا به» (دستويفسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، المجلد الحادى عشر، ص ٢٤٢).

(١٦٤) لم يُكشف حتى الآن أى خطاب من دستويفسكى إلى زايتسكايا. وبخصوص المراسلات التى جرت بينهما تشير أ. ج. دستويفسكايا إلى «التعليقات على أعمال ف. م. دستويفسكى»: «ربما يمكن العثور لدى ورثة يوليا دينيسوفنا زايتسكايا (أبنائها وبناتها) أو لدى أختها الأميرة ڤيسكونتى على خطابات أرسلها فيودور ميخايلوڤيتش دستويفسكى ردًا على خطابات زايتسكايا، وبخاصة تلك التى تدور حول قضايا الدين»(«إبداع دستويفسكى»، أوديسا، ١٩٢١، ص٣٤). ليس من قبيل الصدفة أن تكتب أنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا، أن هذه الخطابات تدور «بصفة خاصة حول قضايا الدين ثم تذكر فيما بعد فى مذكراتها أن دستويفسكى اشتبك فى جدل شديد، وإن كان وديًا مع ى. د. زايتسكايا حول معتقداتها الدينية» وانتقلت من الأرثوذوكسية الى اللوثرية وقد حاول دستويفسكى أن يعيدها الى الأرثوذوكسية مرة أخرى. عن الجدل الدينى بينهما انظر مذكرات ن. س. ليسكوف: «عن الفلاح الكاتب وأمور أخرى. ملاحظات حول بعض الآراء التى قيلت عن ليڤ تولستوى». ــ فى كتاب ن. س. ليسكوف، الأعمال الكاملة، الجزء الثانى، موسكو، ١٩٥٨، ص١٤٧ ــ ١٥٥

(١٦٥) تعرفت يلينا شتاكينشنايدر على دستويفسكى فى مطلع الستينيات وتجددت صداقتهما فى السبعينيات، وقد قام بزيارتها فى بيتها كثيرًا، كما أنهما كانا يتراسلان أيضًا (انظر: الخطابات، المجلد الرابع، ص٦٢، ص١٨٢). وقد انعكست هذه اللقاءات فى يوميات ى. شتاكينشنايدر وفى مذكراتها عن دستويفسكى التى لم تكتمل (ى. أ. شتاكينشنايدر، يوميات ومذكرات (١٨٥٤ ــ ١٨٨٦)، موسكو ــ لينينجراد (١٩٣٤). عن زيارات

دستويفسكى لبيت ى. شتاكينشنايدر انظر أيضًا لمذكرات: ف. ميكوليتش (ل. إ. فيسيليتسكايا)، لقاءات مع الكُتاب، لينجراد، ١٩٢٩

(١٦٦) اقتباس غير دقيق. عن هذا الأمر كتب فسيفولد سولوفيوف فى عدد مارس (العدد٣) من مجلة «البشير التاريخى»عام ١٨٨١، ص ٦١٤

(١٦٧) فى أبريل عام ١٨٧٤ توقف دستويفسكى عن العمل باعتباره محررًا لمجلة «المواطن»، ولكنه فى الواقع كان يمارس منذ نهاية عام ١٨٧٣ بعض المهام الشكلية فقط كمحرر، وهو ما أخبر به م. بوجودين فى خطابه له المؤرخ الثانى عشر من نوفمبر ١٨٧٣: «........... أقوم بإعداد العدد، أقرأ المقالات، أنقحها ولكننى نادرًا ما أكتب ــ هذا هو كل عملى. أما ما يتعلق بباقى الأعمال، فإننى لا أملك حيالها تفسيرًا» (الخطابات، المجلد الرابع، ص٣٠٢).

(١٦٨) يدور الحديث هنا عن رواية «المراهق».

(١٦٩) يدور الحديث هنا عن «حوليات الوطن»، إذ أن «المعاصر» كانت قد توقفت عن الصدور فى عام ١٨٦٦ وعن صداقته بنكراسوف فى الأربعينيات، وعن «الذكرى الخالدة» للقاء الأول بينهما، يحكى دستويفسكى فى «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٧ (دستويفسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، ص ٢٩ ــ ٣٢؛ انظر أيضًا مذكرات ديمترى جريجورفيتش فى كتاب: دستويفسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الأول، ص١٣٢ ــ ١٣٣). ولكن سرعان ما دب الخلاف بينهما، ويرجع السبب فى ذلك بشكل اساسى إلى تحول موقف بيلينسكى وحلقته من دستويفسكى (انظر فى هذا السياق مذكرات أفدوتيا بانايفا فى كتاب: دستويفسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الأول)، على أنهما لم يعبرا هذا الخلاف الذى دب بينهما. وفى مجلة «الزمن»، التى أصدرها الأخوان دستويفسكى، ظهرت مقالتان لنكراسوف («أطفال الفلاحين»

و«وفاة بروكليس». وفى بداية صدور «الزمن»، عندما كان توجهها يميل إلى نزعة «أنصار الأرض»على نحو مبهم، لم يكن نكراسوف وحده الذى كتب فيها رسالته الساخرة بعنوان «نشيد الزمن»، وإنما شارك بالكتابة فيها أيضًا نشيرنيشيفسكى إلى جانب آخرين شاركوا هم أيضًا عن طيب خاطر بالكتابة فى هذه المجلة الجديدة. وفيما بعد إشتد الصراع الفكرى بين مجلة «الزمن» (التى تحولت فيما بعد إلى «المعاصر»)، وذلك بفضل انضمام الكاتب نافد الصبر، صاحب المزاج القتالى نيكولاى ستراخوف إلى هيئة تحرير ــ المعاصر» ومعه أبوللون جريجورييڤ من جانب، ثم انضمام سالتيكوف شيدرين صاحب القلم الحاد الذى لايلين إلى المجلة لتزداد نبرة المجلة حدة على نحو ملحوظ، وبخاصة بعد وفاة دوبروليوبوڤ ونفى تشيرنيشيفسكى. ولم يكن من الممكن ألا ينعكس ذلك كله على تراجع العلاقة بين نكراسوف ودستويڤسكى، على أنها لم تصبح على الإطلاق علاقة عدائية. وحتى عندما ألقى دستويڤسكى باللائمة على نكراسوف لاتخاذه منحىً «رسميا» فى شعره وسخر من قصيدته «النساء الروسيات»، فقد أفصح فى الوقت نفسه عن تعاطفه معه باعتباره واحدًا «من أكثر شعرائنا حماسًا واكتئابا و«معاناة» (دستويڤسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، المجلد الحادى عشر، ص ٢٣). تضع أنّا جريجوريڤنا كل من ن. ميخايلوڤسكى، أ. سكايتشيڤسكى، ج. يليسييڤ، موظفى مجلة «حوليات الوطن»فى عداد الكارهين لدستويڤسكى بصراحة تامة ودون إثبات، وكانت تقصد تطابق تقاليد «حوليات الوطن» و«المعاصر». فى الوقت نفسه فإن سكابيتشيڤسكى ويليسييڤ لم يكتبا شيئًا فى «حوليات الوطن» عن دستويڤسكى، عدا بعض الإشارات العابرة، أما ميخايلوڤيسكى فهو صاحب المقالة الوحيدة الموضوعية والمتزنة التى كُتبت عن رواية «الشياطين» («حوليات الوطن»، ١٨٧٣، العدد ٢). وعن الجدل الذى دار بين «المعاصر» من جانب،

ومجلتى «الزمن» و«العصر»من جانب آخر، انظر «مذكرات عن ف. م. دستويفسكى»(السيرة، ص٢٧٥ ــ ٢٧٦)؛ س. بورشيفسكى، شيدرين ودستويفسكى. قصة صراعهما الفكرى، موسكو، ١٩٥٦؛ أ. جورالنيك، دستويفسكى والصراع الجمالى الأدبى فى الستينيات. ــ فى منتخب «إبداع دستويفسكى»، موسكو، ١٩٥٦

(١٧٠) الخطابات، المجلد الثالث، ص١٠٢. الأرجح أن مقالة دستويفسكى «مجاز بارد» كانت تخص بالنقد لوحتى ف. كاولباخ: «معارك الهن» و«سقوط أورشليم» اللتين كانتا تزينان مدخل متحف برلين الملكى.

(١٧١) الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٠٣

(١٧٢) الخطابات، المجلد الثالث، ص١٠٨، ١١٠

(١٧٣) انظر الفصل (٦) من الباب السابع.

(١٧٤) الخطابات، المجلد الثالث، ص١٢٧

(١٧٥) الخطابات، المجلد الثالث، ص١١٤، ١٣١

(١٧٦) كانت هيئة تحرير مجلة «المعاصر» التى أسسها نكراسوف هى التى تدير الجدل مع مجلتى «الزمن» و«العصر»، بعد أن أصبح نكراسوف رئيسًا لتحرير «حوليات الوطن» إعتبارًا من عام ١٨٦٨، بينما صدر العدد الأخير من «العصر»فى عام ١٨٦٥

(١٧٧) انظر التعليق رقم ١٦٩. ليس من قبيل المصادفة أن كتبت أنّا جريجوريفنا: «وبليشييف جزئيًا»، لعلمها، بداهة، أنه وعلى الرغم من الاختلاف الفكرى بين دستويفسكى وبليشييف (وقد شغل الأخير فى عام ١٨٧٤ منصب سكرتير «حوليات الوطن») فقد استمرت علاقتهما الشخصية ودية تمامًا والتى تعود إلى الأربعينيات عندما كانا عضوين فى جماعة بتراشيفسكى.

انظر فى هذا السياق التقديم الذى كتبه ل. س. بوستيلنيك لخطابات أ. ن. بليشييف إلى دستويڤسكى. ــ فى كتاب «الأرشيف الأدبى»، الجزء السادس، موسكو ــ لينينجراد، ١٩٦١، ص ٢٥٢ ــ ٢٥٥ وعن العلاقة بين دستويڤسكى وبليشييف انظر أيضًا مقالة ف. ل. كوماروڤيتش «شباب دستويڤسكى»، مجلة «الماضى»، ١٩٢٤، العدد ٢٣، ص ٣ ــ ٤٣.

(١٧٨) الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٤٥

(١٧٩) يدحض ظهور «المراهق» فى مجلة «حوليات الوطن» الراديكالية والتى يحررها شيدرين ونكراسوف، يدحض بشكلٍ عملى رأى أنّا جريجوريڤنا فى هذا الخصوص. كان دستويڤسكى متعاطفًا فى السبعينيات مع التوجه السياسى «للبشير الروسى» ومع المقالات التى ينشرها كاتكوف. على أن العلاقة بين كاتكوف ودستويڤسكى كانت تتعرض مرارًا للتوتر والبرود. وقد صاحب ظهور «الجريمة والعقاب»و«الشياطين» و«الإخوة كارامازوف» فى «البشير الروسى» كثير من الخلافات الجادة بينهما. وعلى صعيد آخر، فإن الخلافات الأيديولوجية الجوهرية مع توجه «حوليات الوطن» لم تمنع دستويڤسكى من الشعور بالتعاطف العميق مع نكراسوف، الذى كان يرى فيه صديقًا قديمًا وشاعرًا عظيمًا.

(١٨٠) انظر التعليق رقم ١٦٠

(١٨١) الخطابات، المجلد الثالث. انظر الباب السابع، الفصل (٧).

(١٨٢ الأب بارڤينى (بيوتر جاييف قبل الانخراط فى سلك الرهبنة)، مؤلف المذكرات الشهيرة المعروفة باسم «قصة رحلة الأب بارڤينى إلى روسيا ومولداڤيا وتركيا والأراضى المقدسة «تعرف دستويڤسكى على هذا الكتاب، الذى أشاد به سالتيكوف شيدرين وأنينكوف وتورجينيف، إبان وجوده فى سيميبالاتينسك، وقد ترك الوصف

الشاعرى والبساطـة الآسـرة التى قـدم بها الأب بارڤينى رحلاته عن الشرق أثرًا عميقًا على دستويڤسكى. يؤكد ستراخـوف (انظر «السيرة»ص ٢٩٨)، أن دستويڤسكى اصطحب معه فى عـام ١٨٦٧ عنـد سفـره إلى الخارج كتـاب «رحـلات الأب بارڤينى»، وقـد استفـاد مما به من مفردات وتعبـيرات استخدمها على لسان ماكار إيڤانوڤيتش فى رواية «الأبله». وفى خطابه إلى ن. أ. لوبيموف المـؤرخ السابـع من أغسطس ١٨٧٩، أشـار دستويڤسكى فى سيـاق حديثـه عـن «الإخـوة كارامازوف» إلى الكتـاب السادس من الرواية تحت عنـوان «عن الكتـابة المقدسة فى حياة الأب زوسيما» فى قوله: «هذا الفصل رائع وشاعرى، النموذج الأصلى هنـا مأخـوذ من بعض تعاليم تيخون زادونسكى، أما بساطة العرض فهى من كتاب رحلات الأب بارڤينى» (الخطابات، المجلد الرابع، ص٩٢). عن التأثير الذى تركه بارڤينى على إبداع دستويڤسكى، انظر العمل المتميز الذى كتبه ر. ف. بليتنيف

«Dostojevskiy und der Hieromonach Parfenij»– «Zeitschtift für slavische Philologie”, Band xiv, Heft 1-2,1937, s. 30-46.

(١٨٣) تم نشر المواد الخاصة بقضية الرقابة السرية على دستويڤسكى إبان وجوده فى ستاريا روسا فى كتاب أ. ز. چاڤورونكوف و س. ف. بيلوف، «قضية الملازم ثان متقاعد فيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكى». مجلة «روسكايا ليتيراتورا» (الأدب الروسى)، ١٩٦٣، العدد٤.

(١٨٤) الخطابات، المجلد الثالث، ص١٣١

(١٨٥) تؤكد ف. س. نيتشايڤا أن أنّا دستويڤسكايا على خطأ هنا. فقد رُفعت الرقابة السرية عن دستويڤسكى منذ صيف عام ١٨٧٥، وهو الأمر الذى لم يكن دستويڤسكى على علم به حتى عام ١٨٨٠، ففى ربيع عام ١٨٨٠،

قدم دستويفسكى التماسًا إلى الأمير العظيم قنسطنطين نيكولايفيتش لرفع الرقابة عنه، وذلك عن طريق «شخصية هامة»، هى الكاتب أ. أ. كيرييف، الذى كان يعمل فى معية الأمير، وقد تم إبلاغ دستويفسكى بعدها أن الرقابة مرفوعة عنه بالفعل منذ عام ١٨٧٥ (انظر: ف. س. نيتشايفا، متى رفعت الرقابة السرية عن دستويفسكى». «الأدب الروسى»، ١٩٦٤، العدد الثانى).

(١٨٦) الخطابات، المجلد الثالث، ص١٤٩

(١٨٧) الخطابات، المجلد الثالث، ص١٤٧

(١٨٨) الخطابات، المجلد الثالث، ص١٥١ ــ ١٥٢

(١٨٩) فى خطابه إلى أنّا جريجوريفنا دستويفسكايا المؤرخ الثانى عشر من فبراير ١٨٧٥ يشير دستويفسكى صراحة إلى الخلاف الذى وقع بينه وبين أبوللون مايكوف ونيكولاى ستراخوف بسبب نشر «المراهق» فى «حوليات الوطن» الذى يرأس تحريرها نكراسوف (انظر الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٥٥). كان أبوللون نيكولايفيتش مايكوف صديقًا مقربًا من دستويفسكى منذ النصف الثانى من الأربعينيات كما كان مقربًا أيضًا منذ هذا التاريخ من جماعة بتراشيفسكى. وكان مايكوف تحديدًا محل ثقة دستويفسكى فيما يخص معلوماته السرية عن الاستعدادات الجارية لقلب الحكومة، كما قص عليه عن عزمه هو ونفر من أعضاء جماعة بتراشيفسكى: سبيشنيف، وموردفينوف، ومومبيللى، وفيلييوف وميليوتين، الانفصال عن هذه الجماعة و«تكوين جمعية خاصة بهم تمتلك مطبعة سرية (...) بهدف القيام بانقلاب فى روسيا» (انظر «الأرشيف التاريخى»، ١٩٥٦، الجزء الثالث، ص ٢٢٤ــ ٢٢٥؛ انظر كذلك خطاب أبوللون مايكوف إلى البروفيسور ب. أ. فسكوفاتوف. ــ دستويفسكى، الجزء الأول، ص ٢٦٦ ــ ٢٧١).

وقد عادت العلاقات الودية بين دستويفسكى ومايكوف سيرتها الأولى فى الخمسينيات والستينيات. زد على ذلك أن دستويفسكى، كما أشار بحق أ. س. دولينين، «راح فى نهاية النصف الأول من الستينيات يعيد النظر فى أفكاره التى اقتربت أكثر من النزعة السلافية، ومن ثم فقد كان عليه أن يتواصل مرة أخرى مع مايكوف، الذى كان قد مر بنفس مراحل التطور قبل ذلك بعدة أعوام (فى نهاية الخمسينيات)» (الخطابات، المجلد الأول، ص٥١٩). وفى النصف الثانى فقط من السبعينيات، عندما جرى نشر «المراهق» فى «حوليات الوطن»، عاد الفتور ليخيم على العلاقة بين دستويفسكى ومايكوف وبخاصة بعد رد دستويفسكى على سؤال ألقاه أحدهم عليه إبان غداء أقامه بعض الأساتذة والأدباء فى الثالث عشر من مارس ١٨٧٩ تكريماً لتورجينيف بقوله: «لماذا أنت الوحيد الذى ينشر فى «البشير الروسى»؟ وقد أجاب دستويفسكى على الفور: «لأنهم يدفعون أكثر وبأمانة ومقدمًا». وفى نفس اليوم كتب مايكوف خطاب احتجاج إلى دستويفسكى تسائل فيه بحدة قائلاً: «لقد انتظرت أن تقول، باعتبارك شخصًا مستقلاً، ونظرًا لتعاطفك مع كاتكوف واحترامك له، ولاتفاقك معه فى العديد من الآراء الأساسية (...) لكنك ابتعدت دون أن تقول لماذا؟ هل تنشر عند كاتكوف بسبب النقود؟» (دستويفكى، المجلد الثانى، ص ٣٦٤). عن ستراخوف انظر الباب الثانى عشر من هذا الكتاب (الفصل (٢)، رَدِّى على ستراخوف) وكذلك التعليق رقم ٢٩٦

(١٩٠) الخطابات، المجلد الثالث، ص ١٨٠

(١٩١) من البدهى أن الشخصية الرئيسية فى رواية س. إ. سميرنوفا ــ نيكولاى باڤلوڤيتش سولڤوى، هى التى جذبت انتباه دستويفسكى بقوتها واستقلاليتها.

(١٩٢) غير دقيق. فالخطاب فى الرواية يبدأ على النحو التالى: «العزيز إيڤان باڤليتش!» («حوليات الوطن»، ١٨٧٦، أبريل، ص ٤٥٧).

(١٩٣) يعود السبب الرئيسى فى اقتراب دستويڤسكى من نيكولاى بتروڤيتش ڤاجنر، لاهتمامه بظاهرتى استحضار الأرواح والوسطاء الروحانيين. وكان ڤاجنر داعية متحمسًا لهما، وقد نشر مقالتين دافع فيها عنهما فى «البشير الأوروبى»(١٨٧٥، العدد ٤) وفى «البشير الروسى»(١٨٧٥، العدد ١٠) أحدثنا دويًا هائلاً. وقد أخذت هواية استحضار الأرواح فى الانتشار فى المجتمع الروسى فى السبعينيات وتوافد على بطرسبورج كثير من الوسطاء الروحيين معظمهم من إنجلترا، نظموا جلسات لاستحضار الأرواح، شارك فيها عدد من مشاهير العلماء والكتاب:

بلتيروف، بوبوريكين، أ. ن. أكساكوف، ڤاجنر، ليسكوف (انظر فى هذا السياق: ن. ليرنر، «الملتقيات السرية. حادثة دستويڤسكى». ــ فى كتاب «كراسنايا بانوراما»، ١٩٢٨، أكتوبر، ص٣٦ ــ ٤٢)، وقد ازدادت هذه الهواية قوة، الأمر الذى دفع بجمعية الفيزياء التابعة لجامعة بطرسبورج أن تشكل لجنة يرأسها العالم الشهير ديمترى مندلييف بهدف دراسة الظواهر الروحانية دراسة علمية. فى هذه الفترة تحديدًا كتب دستويڤسكى خطابه إلى هيئة تحرير صحيفة «العصر الحديث» «قضية البعد الرابع» (الخطابات، المجلد الرابع، ص١٠ ــ١١)، والتى تؤكد اهتمام الكاتب بظاهرة استحضار الأرواح (انظر: ف. ب ــ ڤا) {ف. إ. بريبيتكوڤا}، «ذكريات عن دستويڤسكى». ــ «ريبوس»، ١٨٨٥، العدد ٢٥، ص٢٣٠ ٢٣٢ــ؛ العدد ٢٦، ص٢٤٠ ٢٤٥ــ). على أن ملاحظات دستويڤسكى الثلاث عن استحضار الأرواح فى «مذكرة الكاتب» عن العام ١٨٧٦ تكشف أن اهتمامه بهذه الظاهرة أخذ يفتر تدريجيًا. وقد أتى دستويڤسكى مرتين، فى ملاحظته الأخيرة ــ «مرة أخرى كلمة موجزة عن ظاهرة «استحضار

الأرواح» على ذكر ن. ب. ڤاجنر (دستويڤسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، الجزء الحادى عشر، ص ٢٧٤ ــ٢٧٥)، ترجع أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا خطأ تاريخ تعارف دستويڤسكى وڤاجنر إلى صيف عام ١٨٧٦ والحقيقة أنهما تعارفا فى صيف ١٨٧٥ ويؤكد ذلك خطابات دستويڤسكى الخمسة إلى ڤاجنر، التى لم تدرج فى مجلدات «الخطابات» الأربعة لدستويڤسكى والتى قام على تحريرها أ. س. دولينين (١٩٢٨ ــ ١٩٥٩) وقد نشرت للمرة الأولى فى تشيكوسلوڤاكيا على يد التشيكى غ. كاوتمان المتخصص فى الدراسات الأدبية فى كتاب:

(1962), Cis. 4. «Sbornik Nàrodniho Muzea v Praze»SV. VII

ثم فى الاتحاد السوڤيتى بعد ذلك (انظر: س.ف. بيلوف، «خطابات دستويڤسكى». مجلة «الأرشيف السوڤييتية»،١٩٦٩، العدد ٢). وقد نشر ف. كاوتمان خطابًا آخر أرسله دستويڤسكى إلى ڤاجنر يتعلق بالخطابات الخمسة الأخرى ولم يدرج أيضًا فى مجلدات «الخطابات» الأربعة، نشره فى مجلة «Literàr ni archive» (الأرشيف الأدبى)، ١٩٦٧، العدد ٢، ونشره س. ف. بيلوف فى مجلة «قضايا الأدب»، ١٩٦٧ العدد ٥.

(١٩٤) ورد فى «الإخوة كارمازوف» ما يشير إلى أن المناقشات القضائية استمرت من الثامنة صباحًا، عندما بدأ النائب العام حديثه، وحتى لحظة خروج المحلفين والمحامين فى الساعة الواحدة ليلاً.

(١٩٥) الخطابات، المجلد الثالث، ص ٢٣٥

(١٩٦) تعرض أنّا جريجوريڤنا هذا المشهد الخاص بدين تورجينيف على نحو غير دقيق. ففى خطابه المؤرخ الثالث من أغسطس ١٨٦٥ كتب دستويڤسكى إلى تورجينيف يطلب منه أن يقرضه مائة طالر، وليس خمسين، كما كتبت أنّا جريجوريڤنا (انظر الخطابات، المجلد الأول، ص ٤١٠). على أن تورجينيف

أرسل إلى دستويفسكى خمسين طالر، شكره دستويفسكى عليها فى خطابه المؤرخ ٢٠ أغسطس (انظر الخطابات، المجلد الأول، ص٤١٠).

(١٩٧) تحتفظ مكتبة الدولة (مكتبة لينين) بخطاب أ. ف. أونيجين إلى أنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا المؤرخ ١٩ ديسمبر ١٨٨٨

(١٩٨) المقصود هنا «مذكرة الكاتب».

(١٩٩) تُسقط أنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا عامًا بأكمله. فقد توفى ألكسندر كارلوڤيتش جريبى فى الأول من يناير ١٨٧٦، وبالتالى فقد اشترى البيت الصيفى فى ستاريا روسا (الداتشا)، الأمر الذى كتبت بشأنه أنّا جريجوريڤنا فيما بعد، فى عام ١٨٧٦، وليس فى عام ١٨٧٧ (انظر ل. م. راينوس، دستويڤسكى فى ستاريا روسا، لينينجراد، ١٩٦٩، ص٣٥ ؛ جروسمان، ص٢٤٨).

(٢٠٠) الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨

(٢٠١) عن سفر دستويڤسكى إلى دارفويه ٢٠ ــ ٢١ يوليو ١٨٧٧، انظر مذكرات الفلاح من دارفويه إ. ماكاروف فى مقالة: د. ستونوف، «قرية داروڤويه». ــ مجلة ــ كراسنايا نيڤا»، ١٩٢٦، العدد ١٦، ومقالة ف. س. نيتشايڤا «من المراجع الخاصة بدستويڤسكى (رحلة إلى داروڤيويه)» «العالم الجديد»، ١٩٢٦، العدد ٣.

(٢٠٢) يحكى فسيڤولد سولوڤيوف فى «مذكراته عن ف. م. دستويڤسكى» عن زيارته بصحبة دستويڤسكى إلى العرّافة فيلد (انظر «البشير التاريخى»، ١٨٨١، العدد ٤، ص ٨٤٩).

(٢٠٣) شدت الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ انتباه الرأى العام الروسى إلى ما عرف بالمسألة الشرقية أو السلاڤية، وقد رأى دستويڤسكى أن «المسألة الشرقية» ما هى إلا تطويرًا لأفكاره الخاصة بنزعة «أنصار

الأرض»، وقرر أن اشتراك روسيا فى الحرب هو بمثابة بداية لتحقيق رسالة الشعب الروسى التاريخية التى تستهدف توحيد البشرية جمعاء وعلى رأسها الشعوب السلاقية على أسس المحبة والإخاء المسيحيين (انظر «مذكرة الكاتب» عن ١٨٧٦، يونيو. ــ دستويفسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، الجزء الحادى عشر، ص ٣١٦ ــ ٣٣٣).

(٢٠٤) لا تدخل قصيدة البؤساء فى عداد الأشعار التى كتبها نكراسوف مؤخرًا، كما كتبت أنّا جريجوريڤنا: نُشرت هذه القصيدة فى العدد الخامس من «المعاصر» عام ١٨٥٦ . ومن المرجح أن دستويفسكى جاء تحديدًا على ذكر قصيدة «البؤساء» عندما كتب عن لقائه بنكراسوف فى «مذكرة الكاتب» عام ١٨٧٧ فى قوله: «عندما عدت من المعتقل، أشار إلىّ (نكراسوف) إلى إحدى قصائد ديوانه قائلاً: «لقد كتبت هذه القصيدة آنذاك عنك» (دستويفسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، الجزء الثانى عشر، ص ٣٣).

(٢٠٥) كتبت أ. بوتكيڤيتش، شقيقة نكراسوف فى يومياتها عن لقاء دستويفسكى بالشاعر إبان مرضه فى الثالث والعشرين من مارس ١٨٧٧ تقول : «حضر إلينا ف. م. دستويفسكى. كانت ذكريات الشباب تربط أخى به (كانا تربين)، وكان أخى يحبه قال أخى: «لن أستطيع التحدث إليه، أخبريه أن يدخل لدقيقة واحدة، يسعدنى أن أراه»، لم يُطل دستويفسكى زيارته وحكى له أنه كان مندهشًا اليوم بعد أن رأى فى السجن كتاب «فسيولوجيا بطرسبورج» لدى السجناء. كان دستويفسكى فى هذا اليوم شاحبًا ومتعبًا على نحو واضح؛ سألته عن صحته، أجاب: «ليست على ما يرام، نوبات الصرع تزداد حدة، خمس نوبات داهمتنى هذا الشهر، آخرها منذ خمسة أيام، ولا تزال رأسى مشوشة؛ لا تتعجبى أننى أضحك اليوم، إنه ضحك عصبى يحدث لى دائمًا بعــد كل نوبــة» (ن. أ. نكراسوف فى مذكرات معاصريه»، موسكو، ١٩٧١، ص٤٤١). يذكــر دستويفسكى نفسه لقاءه

الأخـــير مع نكراســوف فى النصف الثانى من نوفمبر ١٨٧٧ فى «مذكرة الكاتب» عن عام ١٨٧٧ (دستويڤسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، الجزء الثانى عشر، ص ٣٤٦).

(٢٠٦) لم تكتف غالبية صحف بطرسبورج أن تكتب فى مقالاتها بشأن وفاة نكراسوف عن قيمة شعر نكراسوف، بقدر ما أولت اهتمامًا كبيرًا «لواقعية» هذا الشعر وما به من «عيوب» وعن «ازدواجية شخصيته». وفى هذا السياق ذاته جاءت مقالة دستويڤسكى عن نكراسوف فى «مذكرة الكاتب»، كما أشارت أنّا إنسانًا». وقد اختتم دستويڤسكى مقالته بأن قال: «إن نكراسوف هو نموذج روسى تاريخى، وهو أحد أعظم الأمثلة على إلى أى حد وصل الإنسان الروسى فى تناقضاته وانقساماته فى مجالى الأخلاق والعقائد فى زمننا الانتقالى المؤسف. لكن هذا الإنسان سيبقى فى قلوبنا. لقد كانت سورة الحب عند هذا الشاعر مفعمة دائمًا بالإخلاص والطهارة ونقاء السريرة! لقد كان سعيه نحو الشعب سعيا ساميًا، وقد وضعه هذا الشعب فى منزلة رفيعة. أما من ناحية كونه إنسانًا ومواطنًا، فقد أثبت مرة أخرى حبه للشعب ومعاناته من أجله وقد كفَّر بهما عن الكثير، إن كان هناك ما يكفر عنه...» (دستويڤسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، الجزء الثانى عشر، ص٣٦٣). هكذا استقبل العاملون البارزون فى «حوليات الوطن»، مثل ميخايلوڤسكى وسكابيتشيڤسكى، خطاب دستويڤسكى باعتباره «خطابًا للدفاع» عن نكراسوف تحديدًا. وعن الانطباع الذى تركه خطاب دستويڤسكى عن نكراسوف وعلى المعاصرين، انظر مذكرات: أ. أ. بليشييف، «ثلاثون عامًا على وفاة نكراسوف». «صحيفة بطرسبورج»ج. ف. بليخانوف، الأدب وعلم الجمال، الجزء الثانى، موسكو،١٩٥٨، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٩؛ ف. ج. كورلينكو، تاريخ معاصر لى، موسكو، ١٩٦٥، ص ٤٢٩ ــ ٤٣١.

(٢٠٧) كان موضوع المحاضرات هو «قراءات حول الإله الإنسان». وكانت هذه المحاضرات، بشهادة دستويفسكى نفسه، تتم فى حضور جمهور يبلغ ألف شحص» (خطاب دستويفسكى إلى ن. ب. بيترسون المؤرخ ٢٤ مارس١٨٧٨ . ـ الخطابات، المجلد الرابع، ص٩).

(٢٠٨) جرت هذه المحاضرة التى ألقاها ڤلاديمير سولوڤيوف وحضرها كل من دستويفسكى وتولستوى فى العاشر من مارس ١٨٧٨ . وقد عبر تولستوى أيضًا بالخاص عن أسفه أن ستراخوف لم يخبره بوجود دستويفسكى فى المحاضرة. انظر تفاصيل هذا الموضوع فى الباب الثانى عشر من هذا الكتاب فى الفصل المعنون «حديث مع تولستوى».

(٢٠٩) المقصود هنا رواية «الإخوة كارامازوف».

(٢١٠) انظر الخطابات، المجلد الرابع، ص٢٩ فى الفترة من ٢٣ إلى ٢٩ يونيو ١٨٧٨ سافر دستويفسكى إلى دير أوبتينا بصحبة ڤلاديمير سولوڤيوف. بخصوص هذه الرحلة انظر مذكرات ڤلاديمير سولوڤيوف. بخصوص هذه الرحلة انظر مذكرات ڤلاديمير سولوڤيوف ـ ڤلاديمير سولوڤيوف، الأعمال الكاملة، الجزء الثالث، سان بطرسبورج، ١٩١٢، ص١٩٧) وكذلك مقالة د. إ. ستاخييف «جماعات ووجـوه» البشير التاريخى، ١٩٠٧، العدد الأول، ص ٨٤ ــ ٨٨. دير أوبتينا هو دير قديم تم تأسيسه بناء على نبوءة فى القرن الرابع عشر، يقع على مقربة من مدينة كوزيلسك، بمحافظة كالوجا، وهذا الدير، إلى جانب أديرة أخرى، مثل دير ساروڤسكايا (محافظة تامبوف) ودير جيلنسكايا (محافظة كورسك)، ودير بيلوبيريچيڤسكايا (محافظة أرلوف)، أنجب طرازًا خاصًا من الرهبان الآباء (الأب فى الأرثوذوكسية تعنى قائد الضمير). كان آباء دير أوبتينا يمثلون دائمًا مركز جذب لرجال الأدب والفن البارزين. وقد زار الدير:

جوجول ودستويڤسكى وتولستوى وأبوختين وچوكوڤسكى وڤلاديمير سولوڤيوف وألكسى تولستوى ومكسيم جوركى وب. ف. وإ. ف. كيرييڤسكى و ن. س. ليسكوف وتورجينيف وفورمانوف (انظر: د. ب. بوجدانوف «دير أوبتينا ومن حجَّ إليه من الكتاب الروس». البشير التاريخى، ١٩١٠، العدد ١٠). ومن المثير للانتباه وجود كتب فى مكتبة دستويڤسكى الخاصة منها: «سيرة الأب ليونيد (الاسم قبل الانخراط فى الرهبنة هو ليڤ) من دير أوبتينا» موسكو، ١٨٧٦، وكتاب «الوصف التاريخى لكوزيليسكايا ڤيدينسكايا بدير أوبتينا»، الطبعة الثالثة، موسكو، ١٨٧٦ . وقد قص ستراخوف أيضًا على دستويڤسكى بالتفصيل عن رحلته بصحبة ليڤ تولستوى إلى دير أوبتينا عام ١٨٧٧

(٢١١) وفى «ملاحظات على مؤلفات ف. م. دستويڤسكى» تستشهد أنّا جريجوريڤنا بكلمات زوسيما فى «الإخوة كارامازوف»: «سأذكر يا أماه، سأذكر حزنك عند صلاتى، سأذكر أيضًا زوجك وأدعو له بالصحة» (دستويڤسكى، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨، الجزء التاسع، ص ٦٦) وتضيف قائلة: «نقل فيودور ميخايلوڤيتش هذه الكلمات لى بعد عودته فى عام ١٨٧٨ من دير أوبتينا؛ وقد تبادل هناك أطراف الحديث مع الأب أمفروسى وحكى له عن حزننا وبكائنا على طفلنا الذى مات منذ زمن غير بعيد. وقد وعد الأب أمفروسى فيودور ميخايلوڤيتش» أن يذكر أليوشا فى صلاته» و«حزنى عليه»، وأن «يدعو لنا ولأطفالنا بالصحة». وقد تأثر فيودور ميخايلوڤيتش تأثرًا عميقًا بحديثه مع الأب ووعده أن يصلى من أجلنا، (جروسمان. السمينارت، ص٦٧). ويعتبر الأب أمفروسى إلى حد كبير هو النموذج الأصلى للأب زوسيما فى رواية «الإخوة كارامازوف». ومن الأمور الشيقة المقارنة بين فصل «رائحة الجثة» فى الفصل السابع من «الإخوة كارامازوف» وحديث الأب أمفروسى الذى سمعه دستويڤسكى فى دير أوبتينا، والذى

كثيرًا ما راح أمفروسى يردده: «لقد استمعت من الناس إلى كثير من المديح فى حياتى، ولهذا سوف يفوح النتن من جسدى». وقد جرى إصلاح خلوة وقلاية الأب زوسيما فى دير أوبتينا. وعن الأب أمفروسى، النموذج الأصلى لزوسيما، انظر مقالة ر. ف. بليتنيف «حكماء القلب (عن «الآباء» عند دستويفسكى)». فى كتاب: «عن دستويفسكى». مجموعة مقالات حررها أ. ل. بيم، الجزء الثانى، براج، ١٩٣٣، ص ٧٣ــ٩٢.

(٢١٢) انظر، على سبيل المثال، مذكرات: مساعدو الأطباء ــ أ. دوجانوفيتش عن كلمة دستويفسكى فى الأمسية الأدبية التى أقيمت فى مدرسة الأطباء المساعدين (مجلة «نابليوداتل» (المراقب)، ١٨٨٥، أكتوبر، ص٣٣٢ ــ ٣٣٤)؛ ى. أ. شتاكينشنايدر ــ عن كلمة دستويفسكى فى الأمسية الأدبية التى أقيمت فى الثانوية النسوية (ى. أ. شتاكينشنايدر. مذكرات ويوميات (١٨٥٤ ــ ١٨٨٦)، موسكو ــ لينينجراد، ١٩٣٤، ص ٤٦٣ــ ٤٦٤). زوجة الفسيولوجى إ. ب. باڤلوف ــ س. ف. باڤلوڤا ــ تتذكر كلمة دستويفسكى فى الأمسية الأدبية التى أقيمت فى الدورات التربوية فى بطرسبورج عام ١٨٧٩: «فجأة سمعت صوتًا مدويًا، وعندما نظرت إلى المنصة شاهدت «النبى». لقد اكتسبت وجه دستويفسكى ملامح جديدة. وكانت عيناه تبرقان بوميض أشعل قلوب الحضور، أما وجهه فراح يضيء بقوة الإلهام السامية إ... لم تكن الموسيقى والغناء فى هذه الأمسية سوى افتتاح لهذا الخطاب النبوى الذى ألقاه دستويفسكى. كنت أؤكد طوال الوقت: «نعم، لقد أشعل قلوب الناس لخدمة الحق والحقيقة» («العالم الجديد»، ١٩٤٦، العدد ٣، ص١١٦ ــ ١١٧).

(٢١٣) لم يظهر الإعلان الموجه «إلى القارئ»عن موعد توقف «مذكرة الكاتب» فى العدد قبل الأخير من المذكرة، أى عدد نوفمبر ١٨٧٧، وإنما ظهر فى عدد أكتوبر (انظر: دستويفسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، الجزء الثانى عشر،

جوجول ودستويفسكى وتولستوى وأبوختين وچوكوفسكى وفلاديمير سولوفيوف وألكسى تولستوى ومكسيم جوركى وب. ف. وإ. ف. كيرييفسكى و ن. س. ليسكوف وتورجينيف وفورمانوف (انظر: د. ب. بوجدانوف «دير أوبتينا ومن حجَّ إليه من الكتاب الروس». البشير التاريخى، ١٩١٠، العدد ١٠). ومن المثير للانتباه وجود كتب فى مكتبة دستويفسكى الخاصة منها: «سيرة الأب ليونيد (الاسم قبل الانخراط فى الرهبنة هو ليڤ) من دير أوبتينا» موسكو، ١٨٧٦، وكتاب «الوصف التاريخى لكوزيليسكايا ڤيدينسكايا بدير أوبتينا»، الطبعة الثالثة، موسكو، ١٨٧٦. وقد قص ستراخوف أيضًا على دستويفسكى بالتفصيل عن رحلته بصحبة ليڤ تولستوى إلى دير أوبتينا عام ١٨٧٧

(٢١١) وفى «ملاحظات على مؤلفات ف. م. دستويفسكى» تستشهد أنّا جريجوريڤنا بكلمات زوسيما فى «الإخوة كارامازوف»: «سأذكر يا أماه، سأذكر حزنك عند صلاتى، سأذكر أيضًا زوجك وأدعو له بالصحة» (دستويفسكى، ١٩٥٦ ــ ١٩٥٨، الجزء التاسع، ص ٦٦) وتضيف قائلة: «نقل فيودور ميخايلوڤيتش هذه الكلمات لى بعد عودته فى عام ١٨٧٨ من دير أوبتينا؛ وقد تبادل هناك أطراف الحديث مع الأب أمفروسى وحكى له عن حزننا وبكائنا على طفلنا الذى مات منذ زمن غير بعيد. وقد وعد الأب أمفروسى فيودور ميخايلوڤيتش» أن يذكر أليوشا فى صلاته» و«حزنى عليه»، وأن «يدعو لنا ولأطفالنا بالصحة». وقد تأثر فيودور ميخايلوڤيتش تأثرًا عميقًا بحديثه مع الأب ووعده أن يصلى من أجلنا، (جروسمان. السمينارت، ص٦٧). ويعتبر الأب أمفروسى إلى حد كبير هو النموذج الأصلى للأب زوسيما فى رواية «الإخوة كارامازوف». ومن الأمور الشيقة المقارنة بين فصل «رائحة الجثة» فى الفصل السابع من «الإخوة كارامازوف» وحديث الأب أمفروسى الذى سمعه دستويفسكى فى دير أوبتينا، والذى

كثيرًا ما راح أمفروسى يردده: «لقد استمعت من الناس إلى كثير من المديح فى حياتى، ولهذا سوف يفوح النتن من جسدى». وقد جرى إصلاح خلوة وقلاية الأب زوسيما فى دير أوبتينا. وعن الأب أمفروسى، النموذج الأصلى لزوسيما، انظر مقالة ر. ف. بليتنيف «حكماء القلب (عن «الآباء» عند دستويڤسكى)». فى كتاب: «عن دستويڤسكى». مجموعة مقالات حررها أ. ل. بيم، الجزء الثانى، براج، ١٩٣٣، ص ٧٣ ــ ٩٢.

(٢١٢) انظر، على سبيل المثال، مذكرات: مساعدو الأطباء ــ أ. دوجانوڤيتش عن كلمة دستويڤسكى فى الأمسية الأدبية التى أقيمت فى مدرسة الأطباء المساعدين (مجلة «نابليوداتل» (المراقب)، ١٨٨٥، أكتوبر، ص٣٣٢ ــ ٣٣٤)؛ ى. أ. شتاكينشنايدر ــ عن كلمة دستويڤسكى فى الأمسية الأدبية التى أقيمت فى الثانوية النسوية (ى. أ. شتاكينشنايدر. مذكرات ويوميات (١٨٥٤ ــ ١٨٨٦)، موسكو ــ لينينجراد، ١٩٣٤، ص ٤٦٣ــ ٤٦٤). زوجة الفسيولوجى إ. ب. باڤلوف ــ س. ف. باڤلوڤا ــ تتذكر كلمة زوستويڤسكى فى الأمسية الأدبية التى أقيمت فى الدورات التربوية فى بطرسبورج عام ١٨٧٩: «فجأة سمعت صوتًا مدويًا، وعندما نظرت إلى المنصة شاهدت «النبى». لقد اكتسبت وجه دستويڤسكى ملامح جديدة. وكانت عيناه تبرقان بوميض أشعل قلوب الحضور، أما وجهه فراح يضىء بقوة الإلهام السامية إ... لم تكن الموسيقى والغناء فى هذه الأمسية سوى افتتاح لهذا الخطاب النبوى الذى ألقاه دستويڤسكى. كنت أؤكد طوال الوقت: «نعم، لقد أشعل قلوب الناس لخدمة الحق والحقيقة» («العالم الجديد»، ١٩٤٦، العدد ٣، ص١١٦ ــ ١١٧).

(٢١٣) لم يظهر الإعلان الموجه «إلى القارئ»عن موعد توقف «مذكرة الكاتب» فى العدد قبل الأخير من المذكرة، أى عدد نوفمبر ١٨٧٧، وإنما ظهر فى عدد أكتوبر (انظر: دستويڤسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، الجزء الثانى عشر،

ص٢٦٥). وقد توقف دستويفسكى عن إصدار «مذكرة الكاتب» مؤقتًا فى ذروة انشغاله بالعمل فى «الإخوة كارامازوف»..

(٢١٤) تم التعارف بين دستويفسكى والطبيب ستيبان ديمتريفيتش يانوفسكى فى عام ١٨٤٦ وقد جمعت بينهما روابط الصداقة على الرغم من التباين النفسى بينهما. وقد ظل يانوفسكى طوال حياته محتفظًا بالمشاعر الودية الخالصة تجاه دستويفسكى.

وعن وصول دستويفسكى إلى تفير قادمًا من سيميبالاتينسك كتب يانكوفسكى قائلاً: «كان دستويفسكى أول من ذهبت لزيارته من أصدقائى فى هذه المدينة <...> لكى أراه وأعانقه فقط لمعزته لدى» («العصر الحديث»، ١٨٨١، ٢٤ فبراير (٨ مارس بالتقويم القديم)، العدد ١٧٩٣). ترك س. د. يانكوفسكى «مذكرات عن دستويفسكى»، وقد نشرت فى «البشير الروسى»، ١٨٨٥، العدد ٤، ص٧٩٦ ــ ٨١٩. وفى خطابه إلى دستويفسكى بخصوص موضوع «الزوج الأبدى»، كتب مايكوف يقول: «لقد تعرفت فيها على قصة يانكوفسكى وشخصيته» (الخطابات، المجلد الثانى، ٤٧٦).

(٢١٥) من خطاب دستويفسكى إلى س. د. يانكوفسكى المؤرخ ١٧ ديسمبر ١٨٧٧ ــ الخطابات المجلد الثالث، ٢٨٥. يمكن أن نلاحظ أن خطابات دستويفسكى، بدءًا من الستينيات، تتضمن آراء مليئة بالغضب والسخرية المريرة تجاه كرايفسكى وجريدة «الصوت». وقد ازدادت هذه النبرة حدة فى السبعينيات بشكل ملحوظ اشتد الجدل مع الصحافة المحافظة، وبخاصة مع «الوقائع الموسكوفية» التى كان يصدرها م. ن. كاتكوف، وقد وجهت «الوقائع»فى مقالاتها الهجائية، التى كانت تحمل عنوان «طرائف أدبية واجتماعية»(١٨٧٢ ــ ١٨٧٣) و«الأدب والحياة»، وجهت نقدًا حادًا

إلى مجلة «المواطن»، التى كان يصدرها ف. ب. ميشيرسكى، و«البشير الروسى» التى كان يصدرها م. ف. كاتكوف، وهما المجلتان التى كان يعمل بهما فيودور دستويفسكى بالمناسبة. كانت «الصوت» لكراييفسكى تهاجم تقديم المساعدة إلى الصرب والجبل الأسود فى صراعها العسكرى مع تركيا فى عام ١٨٧٦، وذلك من مواقع ليبرالية، كما كانت تهاجم أيضًا مشاركة الشعب الروسى ذاته فى الحرب التركية عامى ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ وقد عبرت «الصوت» فى مقالاتها عن وجهات نظر تتعارض بشدة وموقف دستويفسكى الذى يفسر سياسة روسيا بأنها تعود للمشاعر الأخوية للشعب الروسى تجاه السلاڤيين. وكان دستويفسكى فى خطابه إلى يانكوڤسكى يعنى تحديدًا الموقف المعادى «للصوت» تجاه إشتراك روسيا فى الحرب على تركيا. ويعترف دستويفسكى أن مجلة «الصوت» الوقحة قد «أثارت حنقه» (الخطابات، المجلد الرابع، ص٩٥). لمزيد من التفاصيل عن علاقة دستويفسكى بكراييفسكى وصحيفته «الصوت» انظر العمل المتميز الذى كتبه ف. ف. ڤينوجرادوف: «عن الكاتب الساخر من أ. أ. كراييفسكى وصحيفته «الصوت» («الأدب الروسى»، ١٩٦٩، العدد ٣).

(٢١٦) فى الثانى من ديسمبر ١٨٧٧ تم اختيار دستويفسكى عضوًا مراسلاً فى أكاديمية العلوم، فرع اللغة الروسية والأدب، وفى التاسع والعشرين من ديسمبر أغفلت الأكاديمية إعلان اختياره عضوًا مراسلاً بها فى الاحتفال السنوى باهتمامها، وفى السادس من فبراير ١٨٧٨ أحاط ك. س. ڤيسيلوڤسكى، السكرتير الدائم للأكاديمية دستويفسكى علمًا بالخطاب الرسمى الملحق بشهادة الشرف والمكتوبة باللغة اللاتينية (وقد نشر ب. ل. مودزاليفسكى النص اللاتينى للشهادة فى مقالته: «دستويفسكى ـ العضو المراسل لأكاديمية العلوم». ـ «دستويفسكى». صحيفة جمعية علم المكتبات الروسية، براج، ١٩٢١، ١٢ نوفمبر). كان دستويفسكى

قد حصل على هذا اللقب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، بعد حصول عدد من الكتاب الروس عليه. وقد سبقه إليه كل من ليف تولستوى، تورجينيف، جونتشاروف، أستروڤسكى، ألكسى تولستوى، أبوللون مايكوف، تيوتشيف، ك. أكساكوڤ، خومياكوف.

(٢١٧) قدم ل. ب. جروسمان عرضًا لتاريخ العلاقة بين د. س. أرسينييف ودستويڤسكى فى مقالته «دستويڤسكى والدوائر الحكومية فى السبعينيات». ــ «التراث الأدبى»، الجزء ١٥، ص٨٣ ــ ١٦٢

(٢١٨) يفتقد هذا الاستشهاد من خطاب أرسينيڤ إلى دستويڤسكى والمؤرخ ١٥ مارس ١٨٧٨ إلى بعض الدقة. وقد نُشر الخطاب كاملاً فى «التراث الأدبى»، الجزء ١٥، ص١٥٦ ــ ١٥٩

(٢١٩) نُشر هذا الخطاب كاملاً فى «التراث الأدبى»، الجزء ١٥، ص١٦٠

(٢٢٠) كان الأمير العظيم قنسطنطين قنسطنطينوڤيتش ابنًا لقنسطنطين نيكولايڤيتش، وزير البحرية فى الخمسينيات.

(٢٢١) نال الأمير العظيم قنسطنطين قنسطنطينوڤيتش بعد ذلك شهرة واسعة باعتباره شاعرًا موهوبًا، وكان يوقع على أشعاره بالحرفين ق. ر.

(٢٢٢) الخطابات الموجهة إلى دستويڤسكى منشورة فى «التراث الأدبى»، الجزء ١٥، ص١٦٠ــ١٦٢

(٢٢٣) نشرت هذه الصورة فى «التراث الأدبى»، الجزء ١٥، ص٩٧، وهى الآن محفوظة فى بيت بوشكين (معهد الأدب الروسى ــ المترجم).

(٢٢٤) تعرف دستويڤسكى على نيكولاى نيكولايڤيتش بيكيوڤ وتوطدت بينهما أواصر الصداقة فى عام ١٨٤٦ (وكان شقيقه ألكسى نيكولايڤيتش، رفيقه فى معهد الهندسة وراء تعرفهما). ويعترف دستويڤسكى (الذى كان يشعر بالحزن من جراء انفصاله عن «المعاصر») بقوله، إن معرفته بالأخوين

بيكيتوف «قد ارتقت به خلقيًا وبدنيًا» (الخطابات، المجلد الأول، ص١٠٣).
ولمزيد من التفاصيل حول صداقة دستويفسكى بالأخوين بيكيتوف فى الأربعينيات انظر «المذكرات الأدبية» التى كتبها د. ف. جريجوروڤيتش (موسكو، ١٩٦١، ص٩٠ ـ٩٣) ومقالة ف. كوماروڤيتش «شباب دستويفسكى» («الماضى»، ١٩٢٤، العدد ٢٣).

(٢٢٥) لم يتم العثور على هذا الخطاب الذى أرسله دستويفسكى إلى ن. ن. بيكيتوف. أما الرد الذى أرسله ن. ن. بيكيتوف فى الثامن عشر من أغسطس ١٨٧٨ فهو محفوظ فى مكتبة لينين. يستنتج أ. س. دولينين، استنادًا إلى رد بيكيتوف، الذى يتضمن معلومات عن أ. ل. أوچيچينا، أن أنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا كانت تتحدث فى الفصل المعنون «وصول مُعجبة» من مذكراتها عن ل. أ. أوچيچينا، وهى روائية نشرت رواية بعنوان «طريقى. من يوميات فتاة معاصرة» فى «حوليات الوطن» (١٨٦٩، الأعداد ٣، ٥ـ٧) (انظر الخطابات، المجلد الرابع، ص٣٤٤).

(٢٢٦) «حديث فى الخفاء» هو «اعترافات قلب حار. شعرًا» الفصل الثالث من الجزء الأول من «الإخوة كارامازوف». تذكر ف. ف. تيموفيڤا (أ. بوتشينكوفسكايا) خطاب دستويفسكى فى الأمسية التى جرت فى التاسع من مارس ١٨٧٩ بقولها: «كان يقرأ فصلاً من «الإخوة كارامازوف» هو «حديث فى الخفاء»، لكنه كان بالنسبة إلى الكثيرين، وأنا من بينهم بمثابة نبوءة لكل ما سيحدث... استمعت على صوت هذه القراءة إلى عبارتين، كانتا كافيتين لتفسران لى وللجميع ما كان يعتمل فى نفس دستويفسكى وفى نفوسنا جميعًا. وقد خُيل لى أن الحضور فى الصالة، لم يفهموا فى البداية ما كان يقرؤه عليهم فراحوا يتهامسون فيما بينهم:

ـ مهووس!.. مجذوب !.. غريب الأطـــوار...

على أن صوت دستويفسكى المتهدج، شديد الانفعال غطى على كل هذا الهمس...

ـ ليكن غريبًا! ليكن حتى وليًا من أولياء الله ! ولكن الأهم ألا تموت الفكرة العظيمة!

كان هذا الصوت الحماسى النفاذ يهز أعماق قلوبنا... لم أكن وحدى التى شعرت بالاضطراب، وإنما شعر به كل من كان بالقاعة. أذكر كيف راح أحد الشباب الجالسين بالقرب منى يرتجف وهو يتنهد، كان وجهه يحمَّر ثم يكسوه الشحوب، تنتفض رأسه تشنجًا، يغلق أصابعه كما لو كان يتحكم فيها بصعوبة نتيجة للتصفيق اللا إرادى... كان الجميع يصفقون وقد استولى عليهم الاضطراب، كان هذا التصفيق المفاجئ يقطع القراءة فى وقت غير مناسب، كما لو كان يوقظ دستويفسكى، فيهتز جسده ثم يتوقف عن الحركة فى مكانه برهه، بينما يستمر التصفيق أكثر حدة. هنا يستوى دستويفسكى واقفًا، وكأنه يستيقظ بصعوبة من حلم لذيذ، ينحنى احترامًا للحضور، ثم يعود للجلوس مرة أخرى ليستكمل القراءة» (دستويفسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الثانى، ص١٨٢ ـ ١٨٣).

(٢٢٧) لمزيد من التفاصيل عن خطاب دستويفسكى فى الأمسية التى أقيمت فى السادس عشر من مارس ١٨٧٩ انظر مذكرات الممثلة م. ج. ساڤينا فى كتاب «تورجينيف وساڤيا»، تقديم وتحرير أ. ف. كونى، براج، ١٩١٨، ص ٦٨ ـ٦٩، وكذلك مذكرات د. ن. سادوڤينكوڤ فى مجلة «الماضى الروسى»، ١٩٢٣، العدد الأول، ص ٧٥ ـ ٧٦. وقد حملت م. ف. كامينيتسكايا، ابنة أ. ب. فيلوسوڤوفا باقة من الزهور قدمتها إلى دستويفسكى.

(٢٢٨) حضر هذا الاجتماع الحاسم د. د. مينايف، وقد قام بعد انتهاء الاجتماع، الذى حضره دستويفسكى، بقراءة مقطع شعرى فكاهى على تروفيموف

جاء فيه:

إذا كان دستويفسكى نفســه

ينتظر حكمـــك العـــادل

فأنـــت بـــلا شــــــك

أكثـــر القضـــاة حظـــًا

فى عاصمـــة النيـــڤــا

(البشير التاريخى، ١٩٠٩ العـــدد ٩، ص ٩٢٥)

عن هذه الفترة من حياة دستويفسكى انظر أيضًا مذكرات ن. ريبين «دستويفسكى والصعلوك». ـ «صحيفة بطرسبورج»، ١٩٠٣، ٤ ديسمبر، العدد ٣٣٣.

(٢٢٩) أنشئت جمعية فريوبل فى روسيا على يد أتباع المعلم التربوى الألمانى الشهير فريدريخ فريوبل. وقد استعان دستويفسكى فى أثناء عمله فى رواية «الإخوة كارامازوف» بأفضل المراجع التربوية النموذجية بما فيها أعمال فريوبل. وقد ورد فى مسودات الرواية إشارة «عن بيستالوتسى، عن فريوبل. مقالة ليڤ تولستوى عن التعليم المدرسى المعاصر... (ف. م. دستويفسكى. مواد وأبحاث. تحرير أ. س. دولينين، ليننجراد، ١٩٣٥، ص٨٢).

(٢٣٠) الخطابات، المجلد الرابع، ص٧٤

(٢٣١) انظر التعليق رقم (٢١٥).

(٢٣٢) الخطابات، المجلد الرابع، ص ٩٥

(٢٣٣) الخطابات، المجلد الرابع، ص ٩٨ ـ ٩٩

(٢٣٤) الخطابات، المجلد الرابع، ص١٠٢

(٢٣٥) قرأ دستويفسكى مقطعًا من «المفتش الأعظم» فى الندوة الأدبية الصباحية التى أقيمت لصالح جمعية مساعدة طلاب جامعة بطرسبورج فى مبنى الجمعية الخيرية. ما يزال برنامج الندوة الصباحية موجودًا ويضم إلى جانب دستويفسكى مشاركين آخرين أيضًا هما: د. ف. جريجوروفيتش و ب. إ. ڤاينبرج. ويؤكد خطاب لجنة جمعية مساعدة الطلاب إلى دستويفسكى وكذلك البيان الذى أصدرته اللجنة على الأثر العميق الذى تركته قراءة دستويفسكى على الجمهور (الوثيقتان محفوظتان فى مكتبة لينين). على أن م. س. ڤولكونسكى، راعى دائرة بطرسبورج التعليمية، ظل حانقًا على الاستقبال الحافل للجمهور وقرر منع قراءة «المفتش الأعظم» لاحقًا. وقد كتب دستوزيفسكى إلى ف. ب. جايڤسكى يخبره: «أن الراعى حضر بنفسه القراءة، لكنه أخبرنى بعدها، أنه نظرًا إلى الأثر الذى أحدثته هذه القراءة على نفوس الجمهور، فقد قرر منعى من القراءة مستقبلاً. وهكذا، أصبح من المستحيل قراءة «المفتش» الآن. وأصبح لزامًا علىّ البحث عن شىء ما آخر» (الخطابات، المجلد الرابع، ص١٣٣).

(٢٣٦) مع صوفيا سيرجييڤنا كاشيبيريڤا.

(٢٣٧) كان ذلك هو بيوتر جريجوريڤتش كوزنتيسوف، الذى أصبح فيما بعد من أشهر تجار الكتب فى لينينجراد، وقد ترك مذكراته عن عمله صبيًا لدى محل كتب ف. م. دستويڤسكى. انظر: ب. ج. كوزنيتسوف، «العمل عند دستويڤسكى». مجلة «كنيجنايا تورجوڤليا» («تجارة الكتب»)، ١٩٦٤، العدد ٥، ص ٤٠ ــ ٤١.

(٢٣٨) أرفق دستويڤسكى بالفصل الذى أتمه من رواية «الإخوة كارامازوف» خطابًا إلى محرر «البشير الروسى»، ن. أ. لوبيموف، فى الثلاثين من يناير ١٨٧٩ جاء فيه: «لا أدرى أى عيب فى الفصل الثالث، الذى أرسله إليك،

بل على العكس تمامًا، أظن أن التوفيق قد حالفنى فى كتابته (أرجو أن يتسع صدرك لهذا التباهى الصغير لعلك تذكر مقولة القديس بولص «لم أجد من يمدحنى، فمدحت نفسى») الخطابات، المجلد الرابع، ص ٤٦.

(٢٣٩) دافع ڤلاديمير سولوڤيوف عن طريق أطروحته للدكتوراه ـ «نقد الأفكار المجردة» فى السادس من أبريل ١٨٨٠ فى جامعة بطرسبورج.

(٢٤٠) عن كلمة دستويڤسكى التى ألقاها فى التاسع عشر من أكتوبر ١٨٨٠ انظر «اليوميات والمذكرات (١٨٥٤ ـ ١٨٨٦)» ى. أ. شتاكينشنايدر (موسكو ـ ليننجراد، ١٩٣٤).

(٢٤١) من اللافت للانتباه أن دستويڤسكى نفسه، بشهادة معاصريه من الأدباء، كان يتحدث كثيرًا عن الطابع الفريد المميز لقراءاته الأدبية بقوله: «أتُرانى أقرأ بصوتى؟! إنما أنا أقرأ بأعصابى!» (أ. موشين، الجديد عن الكتاب العظام... الطبعة الثانية، سان بطرسبورج، ١٩٠٨، ٧٣).

(٢٤٢) يحكى س. أ. ڤينجيروڤ عن إحدى الأمسيات الأدبية التى أقيمت يومى التاسع والسادس عشر من مارس ١٨٧٦ فى قاعدة الجمعية الخيرية أن تورجينيف قرأ فى الأمسية الأولى قصة «العمدة»، وفى الثانية «الذئب»، وفيها قرأ أيضًا مقطعًا من كوميديا «القروية الساذجة» بصحبة م. ج. ساڤينا (انظر «الصوت»، ١٨٧٩، ١١ مارس، العدد ٧٠؛ ٨ مارس، رقم ٧٧؛ كتاب «تورجينيف وساڤينا»، براج، ١٩١٣، ص ٦٨ ـ ٦٩، ٨٠).

(٢٤٣) انظر: ى. أ. شتاكينشنايدر، اليوميات والمذكرات (١٨٥٤ ـ ١٨٨٦)، موسكو ـ ليننجراد، ١٩٣٤

(٢٤٤) تركت ل. إ. ڤيسيليتسكايا مذكراتها عن تعرفها بدستويڤسكى ولقاءاتها معه: ف. ميكوليتش، لقاء من الشهرة، موسكو، ١٩٠٣. وقد تضمن كتابها «لقاءات مع الكتَّاب»، ليننجراد، ١٩٢٩، هذه المذكرات.

(٢٤٥) نظَّمت صوفيا أندرييڤنا تولستايا صالونًا أدبيًا فى بيتها، كان من بين المترددين عليه كل من جونتشاروڤ وتورجينيف وڤلاديمير سولوڤيوڤ، وكان دستويڤسكى يكن لصوفيا أندرييڤنا احترامًا كبيرًا ومشاعر ودية خالصة، وهو ما يؤكد، خطابه إليها المؤرخ ١٣ يونيو ١٨٨٠ (الخطابات، المجلد الرابع، ١٧٤). تكتب لوبوف فيودوروڤنا دستويڤسكايا فى كتابها «Dostojewskiǐ geschildert von seiner tochter» فى الفصل المعنون «صالون الأميرة تولستايا: «كان صالون الأميرة تولستايا أرملة الكاتب ألكسى تولستوى، من بين أكثر الصالونات الأدبية شهرة فى بطرسبورج، التى كان دستويڤسكى يحرص على حضورها فى السنوات الأخيرة من حياته. وتؤكد ابنة الكاتب (لوبوف دستويڤسكايا) أن دستويڤسكى ذكر أن تولستايا، فى رأيه، كانت تمتلك بصيرة نافذة «حادة كالصلب». وبعد أن استقر المقام الأخير بالأميرة تولستايا فى بطرسبورج، راحت تستقبل فى بيتها كل أصدقاء زوجها القدامى من الشعراء والكتاب وكانت تسعى فى الوقت نفسه لعقد صداقات أدبية جديدة. وبعد أن قابلت أبى، سارعت بدعوته وكانت تكن له كل مشاعر الود والاحترام. تناول أبى فى بيتها طعام الغداء أكثر من مرة، وكان يزورها مساء، وقد وافق على قراءة بعض فصول من «الإخوة كارامازوف» فى صالونها قبيل نشرها. وسرعان ما اعتاد على زيارة الأميرة تولستايا فى أوقات نزهاتها ليتبادل معها آخر الأخبار. وعلى الرغم من بعض مشاعر الغيرة التى كانت تنتاب أمى، إلا أنها كانت توافق أن يقوم زوجها أحيانًا بزيارة الأميرة، التى كانت قد تخطت آنذاك العمر الذى كان يجعل منها موضوعًا للإغراء. كانت الأميرة ترتدى دائمًا ملابس سوداء وتضرب على رأسها خمار الأرامل، الذى كان يغطى شعرًا كساه اللون الأبيض وقد صففته على نحو يتسم بالبساطة الشديدة، وكانت الأميرة تسعى لأن يُعجب الناس بعقلها الراجح ومعاملتها الودية. كانت قليلاً ما تغادر بيتها، وإن فعلت فلا تتجاوز دائمًا الرابعة مساء، وهو الوقت

التى تكون مستعدة فيه لدعوة دستويفسكى على قدح من الشاى. كانت الأميرة، امرأة مثقفة للغاية، تكثر القراءة باللغات الأوروبية كل وكثيرًا ما لفتت انتباه أبى إلى مقالة ما على قدر من الأهمية من بين المقالات التى ظهرت فى أوروبا. كان دستويفسكى ينفق وقتًا طويلا فى كتابة رواياته، وبطبيعة الحال لم يكن بمقدوره أن يقرأ كثيرًا كما كان يحب<...>. كانت النبرة الودية المهذبة، التى كانت تسود صالون الأميرة من الأمور المحببة كانت تفتقد إليها الصالونات الأدبية الأخرى المبتذلة<...>. كان أبى يفضل الرفاهية والرقى المحتشم الذى كان يميز صالون تولستايا».

(٢٤٦) يضم كتاب: «متحف تولستوى»، الجزء الأول. «مراسلات ليف تولستوى وألكسندرا تولستايا، ١٨٥٧ ــ ١٩٠٣». سان بطرسبورج، ١٩١١ مذكرات ألكسندرا تولستايا عن لقاءاتها بدستويفسكى، وكانت ألكسندرا تولستايا قد قامت بتعريف دستويفسكى قبيل وفاته بنظرات ورؤى ليف تولستوى الجديدة وسمحت له أن يطلع على خطاباته، وكانت ألكسندرا تولستايا قد اقتربت منه أكثر فى هذه الفترة.

(٢٤٧) لم يول كُتاب سيرة دستويفسكى حتى الآن أى اهتمام لذكر اسم لاڤروڤسكى ضمن أصدقائه من الكتاب فى السنوات الأخيرة من حياته. بينما يدور الحديث عن المغنية الروسية البارزة يليزاڤيتا أندرييڤنا لاڤروڤسكايا، التى كانت تحظى بشهرة نادرة فى دوائر المثقفين الروس المهتمين بالفن. وقد أثنى على موهبتها: إيڤان تورجينيف وبيوتر تشايكوڤسكى، الذى رأى فى ليزاڤيتا لاڤروڤسكايا واحدة من أعظم ممثلى مدرسة الغناء الروسى (انظر: بيوتر إيليتش تشايكوڤسكى، مقالات وملاحظات موسيقية، موسكو، ١٨٩٨)؛ وقد أهداها ست أغانٍ عاطفية (١٨٧٥) ورباعية غنائية باسم «الليل»(١٨٩٣)، وتحتفظ مكتبة لينين بخطاب لاڤروڤسكايا

إلى دستويفسكى، عبرت فيه عن إمتنانها لصورته التى أهداها إياها ومعها خطابه عن بوشكين و«مذكرة الكاتب».

(٢٤٨) تمثل العلاقات الودية التى قامت بين أ. ب. فيلوسوفوفا باعتبارها شخصية اجتماعية بارزة وبين دستويفسكى، الذى كانت ترى فيه «معلمها الأخلاقى العزيز» أهمية مؤكدة (انظر مذكرات فيلوسوفوفا فى كتاب: دستويفسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الثانى، ص ٣٢٢ ــ ٣٢٤). كانت فيلوسوفوفا فى السبعينيات من المعارضين للنظام، وكانت تحتفظ فى شقتها بمراجع محظورة، وهناك افتراض أنها أوت ڤيرا زاسوليتش سرًا فى بيتها بعد محاكمتها. كتبت فيلوسوفوفا إلى زوجها، المدعى العسكرى العام، تقول: «إننى أكره حكومتنا الحالية <...> إنها عصابة من المجرمين الذين يسوقون روسيا إلى الهلاك»(فى كتاب «ذكريات أ. ب. فيلوسوفوفا»، الجزء الأول، براج، ١٩١٥٦ ص٣٢٦). كان دستويفسكى يكن لفيلوسوفوفا احترامًا كبيرًا، وقد كتب عن «قلبها الرائع الذكى» (الخطابات، المجلد الرابع، ص٦٦ ــ ٦٧) واستنادًا إلى رواية ابنتها، م. ف. كامينيتسكايا، فقد أصاب دستويفسكى الخوف والاضطراب، عندما علم بإمكانية اعتقال فيلوسوفوفا (انظر: دستويفسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الثانى، ص٣٢٦).

(٢٤٩) من بين أكثر الكتاب شهرة، الذين أرسلت إليهم الدعوة لحضور احتفالات بوشكين فى موسكو ولم يحضروا: سالتيكوف شيدرين وإيڤان جونتشاروف وليف تولستوى. وفى خطابه المؤرخ الثامن من مايو ١٨٨٠ إلى س. أ. يورييف شرح سالتيكوف شيديرين أسباب تخلفه عن الذهاب إلى موسكو متعللاً بالمرض، على أن تصريحاته المتأخرة عن الاحتفال ببوشكين تؤكد أن المرض لم يكن ليمنعه من الذهاب والمشاركة فى الاحتفال

ببوشكين من قريب أو بعيد. الواقع أن سالتيكوف شيدرين لم يكن راضيًا لأن القوى الديموقراطية لم تكن هى التى قامت على تنظيم الاحتفال. وفى الخامس والعشرين من يونيو ١٨٨٠ كتب إلى أستروفسكى يقول: «لقد أثار الاحتفال ببوشكين لدىّ قدرًا من سوء الفهم. يبدو أن تورجينيف الذكى ودستويفسكى المجنون استطاعا أن يسرقا احتفال بوشكين لصالحهما. ــ م. ى. سالتيكوف شيدرين، الأعمال الكاملة، الجزء التاسع عشر، موسكو، ١٩٣٩، ١٥٨ أما ليف تولستوى الذى لحق به تورجينيف خصيصًا إلى ياسنايا بوليانا فقد رفض أيضًا المشاركة فى احتفالات بوشكين. ووفقا لما ذكره ك. م. ستانكوفيتش فإن «هذا الرفض أمر منطقى للغاية. لقد صرح الكونت تولستوى أكثر من مرة أن أدبنا ليس سوى تزجية لطيفة للوقت بالنسبة إلى القادرين، أما الشعب فالأمر سيان بالنسبة إليه، سواء وُجد بوشكين أم يُوجد» («ديلو»، ١٨٨٠، العدد ٧، ص١٠٧).

(٢٥٠) عن هذا المشهد تحدث إ. إ. بانايف فى «المعاصر» دون أن يذكر اسم دستويفسكى (١٨٥٥، العدد ١٢، ص٢٣٥). وقد كتب ب. ف. أنينكوف مرة ثانية عن ذلك فى عدد أبريل من «البشير الأوروبى» عام ١٨٨٠ وقد اعترض عليه أ. س. سوفورين فى «العصر الحديث»(١٨٨٠، ٤ أبريل و ٢ مايو) بعد أن أخبره أن «الفقراء» نشرت فى «المنتخب البطرسبورجى» دون «حواش». وفى الرد الذى نشرته هيئة تحرير «البشير الأوروبى» على حجج «العصر الحديث» (لا على أنينكوف، كما كتبت أنّا جريجوريفنا، ــ كان فى الخارج) فى عددها الصادر فى مايو عام ١٨٨٠، أجابت أن الحديث يدور لا على «الفقراء»، وإنما عن «قصة بليتميسليكوف» التى سيكتبها دستويفسكى لنشرها فى المنتخب الذى فكر فى إصداره بيلينسكى تحت عنوان «ليفيافان». وفى حقيقة الأمر لم تكن هناك أى قصة لدى دستويفسكى باسم «قصة بليسميسليكوف» كما أكدت ذلك «العصر الجديد» فى مقالها

المنشور فى الخامس من مايو ١٨٨٠، وإنما كانت هناك قصتان مخصصتان من أجل «ليفيافان «هما «الفودان الحليقان»و«قصة عن المكاتب المحطمة». وفى خطابه المؤرخ ٤ مايو ١٨٨٠ يكتب دستويفسكى إلى سوفورين مرة أخرى طلبا بشأن «الحواشى» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٤٣). وفى الثامن عشر من مايو (وليس السادس عشر كما أشير فى المذكرات) ١٨٨٠ ظهر فى «العصر الحديث» إعلان باسم دستويفسكى يقول: «بطلب ف. م. دستويفسكى، الموجود حاليًا فى ستاريا روسا للعلاج، أن نعلن على لسانه أنه لا صحة لما نشره أنينكوف فى «البشير الأوروبى» بشأن «الحواشى»، ولا يمكن أن يكون قد حدث أو يحدث مثل هذا الأمر...

(٢٥١) انظر الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٥٢ ــ ١٦٥ فى خطابه المؤرخ الخامس والعشرين من مايو ١٨٨٠ يكتب دستويفسكى إلى أنّا جريجوريفنا دستويفسكايا، بعد أن قرر السفر إلى بطرسبورج فى السابع والعشرين من مايو قائلاً: «أجلس الآن وأنا فى أشد حالات الضيق والارتباك: فمن ناحية، فإن سعيى وراء زيادة تأثيرى فى بطرسبورج؛ فضلاً عن موسكو، يعنى الكثير بالنسبة إلىَّ. ومن ناحية أخرى فراقى عنك، حيرتى بخصوص كارامازوف، ناهيك عن النفقات المالية وما إلى ذلك» (الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٥١).

(٢٥٢) انظر خطاب دستويفسكى إلى أنّا جريجوريفنا دستويفسكايا المؤرخ الثامن من يونيو ١٨٨٠ (الخطابات، المجلد الرابع، ص١٧٢).

(٢٥٣) كان من المقرر فى البداية أن يتم الاحتفال بذكرى بوشكين فى يوم ذكرى ميلاده فى السادس والعشرين من مايو ١٨٨٠، لكن الموعد تأجل بسبب وفاة الإمبراطور. وقد قامت جمعية محبى الأدب الروسى بتنظيم الاحتفال الذى استمر أربعة أيام فى الخامس من يونيو ١٨٨٠ أقيم حفل استقبال للوفود أشرفت عليه اللجنة المنوط بها إقامة التمثال وألقى فيه ى. ك.

جروت تقريره؛ وفى السادس من يونيو جرت فى موسكو فى ميدان تفيرسكايا مراسم افتتاح التمثال، واختتم اليوم بقراءة الخُطب، وفى الثامن من يونيو، عقد الاجتماع الختامى الذى ألقى فيه دستويفسكى خطابه عن بوشكين. عن احتفالات بوشكين انظر الكتاب الخاص الذى أشرف على إصداره ف. بولجاكوف تحت عنوان «باقة من الزهور عند تمثال بوشكين» (سان بطرسبورج، ١٨٨٠).

(٢٥٤) عن انطباعاته المباشرة عن خطاب بوشكين كتب دستويفسكى إلى أنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا فى الثامن من يونيو ١٨٨٠، كما كتب إلى س. أ. تولستايا فى الثالث عشر من يونيو (الخطابات، المجلد الرابع، ص١٧١ ــ١٧٢؛ ١٧٤ ــ ١٧٥). وقد تم حفظ وتوثيق العديد من ذكريات المعاصرين عن الخطاب الذى ألقاه دستويفسكى عن بوشكين. على سبيل المثال: ن. ن. ستراخوف، «مذكرات عن دستويفسكى». ــ السيرة، ٣٠٨ ــ ٣١٢؛ أ. بارسوكوڤا، «رسالة حول خطاب بوشكين لدستويفسكى. ــ فى كتاب: زڤينيا (الروابط)، الجزء الأول، موسكو ــ لينينجراد، ١٩٣٢؛ د. لوبيموڤ، «من المذكرات». ــ «قضايا الأدب»، ١٩٦١، العدد ٧؛ أ. أمفيتياتروف، «ما زلت أسمع خطاب دستويفسكى حتى الآن». ــ «ليتيراتورنيا روسيا»، ١٩٦٥، الثانى من يونيو.

(٢٥٥) عن الصورة الفوتوغرافية التى التقطها م. م. بانوف، والمحفوظة فى بيت بوشكين (المتحف الأدبى) كتب إ. ن. كرامسكوى: «فى السنوات الأخيرة راح وجهه (دستويفسكى) يبدو أكثر أهمية وعمقًا وتراجيدية، وللأسف الشديد، لا توجد صورة له فى الفترة الأخيرة من حياته يمكن أن تعادل فى قيمتها الفنية الصورة التى رسمها له بيروف. ولحسن الحظ فقد تم إدراك هذا النقص، بمحض الصدفة، بفضل التصوير الفوتوغرافى. وقد التقط المصور بانوف من موسكو هذه الصورة تحديدًا. كان من الممكن أن تكون صورة

بانوف غير ذات أهمية، من الناحية التقنية، غير ذات قيمة، فبانوف التقط من قبل صورًا أفضل بكثير، من هذه الناحية، من صورة دستويڤسكى. لكن ما يميز هذه الصورة هو ما تحويه من قوة التعبير، ويمكن استنادًا إليها الحكم على مدى ما أضيف إلى وجه دستويڤسكى من معان وأفكار عميقة. على أية حال فإنه من النادر أن تعطى الصور الفوتوغرافية مجمل ما يحتوى عليه الوجه الإنسانى: أما فى صورة بانوف فهناك استثناء سعيد ونادر. يمكننا أن نخمن أنه فى حالتنا هذه فقد تجلت تلك اللحظة التى عاشها دستويڤسكى، لحظة الاحتفال ببوشكين فى موسكو (لتأتى دعمًا للصورة) فقد التقطت الصورة بعد خطابه الشهير عن قيمة بوشكين»(«إ. ن. كرامسكوى. حياته، مراسلاته ومقالات فنية ونقدية. ١٨٣٧ ــ ١٨٨٧» سان بطرسبورج. ١٨٨٨، ص ٦٦٩).

(٢٥٦) كان لخطاب دستويڤسكى عن بوشكين بإجماع آراء المعاصرين، أثر لا يمحى على المستمعين، الأمر الذى أسهمت فيه إلى حد كبير القراءة الرائعة لدستويڤسكى نفسه ثم فكرته المفضلة التى تتلخص فى أنه من أجل أن يصل الروسى الحائر المتردد إلى الهدوء والسكينة ينبغى أن تحقق السعادة الإنسانية العالمية الشاملة. وقد كتب جليب أوسبينسكى فى مقالته «عيد بوشكين» يقول: «لقد أصاب الذهول الاهتمام العام وقد أخذته الدهشة من الفكرة التى تم التعبير عنها برشاقة حول فطرة الإنسان الروسى المجبولة على الحزن من أجل آلام الآخرين (ج. إ. أوسبنسكى، الأعمال الكاملة، الجزء السادس، موسكو، ١٩٥٣، ص٤٢٥). على أنه عندما تم نشر خطاب دستويڤسكى فى «وقائع موسكو»(١٨٨٠، ١٣ يونيو) وغيرها من الصحف والمجلات، تم بعد ذلك نشر الخطاب مع إيضاحات لصاحبه ورده على أ. د. جرادوڤسكى فى «مذكرة الكاتب»، توالت ردود الأفعال المتضاربة. فقد استنكر نقاد من المعسكر الليبرالى والديمقراطى انقطاع

الصلة بين الأفكار المثالية لدستويفسكى والحياة الروسية المعاصرة؛ فضلاً عن الطابع المجرد لمبدأ «الإنسانية الشاملة» الذى أعلنه. وقد لقيت دعوة دستويفسكى للاستكانة والتمسك بالدين اعتراضًا خاصًا من جانب الكتاب والصحفيين التقدميين. ويضم الثبت الببليوجرافى الذى أعده ف. إ. ميچوف (سان بطرسبورج، ١٨٨٥)، كل المقالات التى نشرت بشأن افتتاح تمثال بوشكين فى موسكو عام ١٨٨٠ بما فيها ردود ألأفعال على خطاب دستويفسكى، وقد جمعت هذه المقالات فى كتاب: زاموتين، ص ٢٨٧ ــ ٣٢١.

(٢٥٧) الخطابات، المجلد الرابع، ص ١٩٧ ك. ن. يوخانتسيف، موظف مفوض من وزارة المالية، حكم عليه فى الفترة من ٢٣ إلى ٢٥ يناير ١٨٧٩ من قبل دائرة بطرسبورج القضائية بالسجن لإهداره أموالاً طائلة تخص هيئة التسليف الزراعى (أ. ف. كونى، خطب قضائية. ١٨٦٨ ــ ١٨٨٨، سان بطرسبورج، ١٩٠٥، ص ٤٤٧ ــ ٤٦٥).

(٢٥٨) أشار البروفيسور ألكسندر دمتريڤيتش جرادوڤسكى، البروفيسور الروسى الشهير فى القانون الدولى بجامعة بطرسبورج إلى «ملحوظتين» فى خطاب دستويفسكى: تقييم بوشكين باعتباره شاعر الشعب، وفى الوقت نفسه تقديمه لتعريف موجز للإيمان من وجهة نظره الشخصية باعتباره «صاحب الخطاب». ويعترف الناقد بقدرة دستويفسكى على النفاذ بعمق فى جوهر شعر بوشكين، لكنه يؤكد فى الوقت نفسه على أن دستويفسكى «لم يقدم شرحًا وافيًا لشخصيات بوشكين عندما تناولها بالتحليل، وذلك لأنه ربط هذه الشخصيات تحديدًا، لا بالحركة الأدبية اللاحقة، وإنما ربطها بشكل استثنائى مع وجهة نظره والتى كان يشوبها كثير من جوانب الضعف». لقد تعرض أ. د. جرادوڤسكى «لأكثر النقاط أهمية» عندما تناول «اختلافه» مع دستويفسكى: فعندما يطلب (دستويفسكى)

الاستسلام أمام حقيقة الشعب، أمام المثل العليا للشعب، فإنه يقبل هذه «الحقيقة» وهذه المثل وكأنها شيء ما جاهز، شيء راسخ وأبدى. ونحن نسمح لأنفسنا أن نقول له: الأمر ليس كذلك. إن المثل الاجتماعية لشعبنا ما تزال فى طور التكوين والتطور. وعلى الشعب أن يعمل كثيرًا لكى يكون جديرًا بأن يكون شعبًا عظيمًا. فما يزال هناك الكثير <...> من بقايا أزمنة العبودية مغروسة فيه، لكى يستطيع أن يطلب لنفسه الفضيلة، وفوق ذلك، أن يدَّعى توجه أوروبا بأسرها نحو الطريق الحق، على النحو الذى تنبأ به دستويفسكى...» ويعترض الناقد على دستويفسكى بقوله، إنه بدلاً من تعظيمه لرسالة الشعب الروسى إلى حد أن يلعب هذا الشعب دور الخالق «للانسجام النهائى»، فقد كان من الأفضل له أن يقول «للضالين» المعاصرين و«للشعب» نفسه سواء بسواء: اخضعوا لمطالب المواطنة الاجتماعية، التى حصلتم عليها، والحمد لله، بفضل إصلاحات بطرس (الأكبر ــ المترجم)...» («الصوت»، ١٨٨٠، العدد ١٧٤).

وفى رده على أ. د. جرادوفسكى فى «مذكرة الكاتب» («الإصدار الوحيد الذى ظهر فى عام ١٨٨٠، أغسطس») إعترض دستويفسكى بشدة على هذا المنهج الليبرالى الذى اتخذه البروفيسور، بعد أن سخر من «رؤيته ذات النزعة الغربية للشعب، الذى هو فى رأى دستويفسكى، استنار منذ زمن بعيد، عندما اعتنق جوهر المسيح وتعاليمه»(دستويفسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، الجزء الثانى عشر، ص٣٩٢). وقد وقف النقد الديمقراطى فى هذه المبادرة الجدلية من جانب دستويفسكى ضد جرادوفسكى موقفًا معاديًا للأفكار الأرثوذكسية التى نادى بها الكاتب (انظر: ن. ك. ميخايلوفسكى، ليتيراتورنى زاميتكى» (ملاحظات أدبية) ١٨٨٠» حوليات الوطن، ١٨٨٠، العدد ٩).

(٢٥٩) فيما بعد تعيد أنّا جريجوريفنا دستويفسكايا جزئيًا ما ذكرته قبل ذلك فى الفصل (٢) ــ بداية العام ١٨٨٠. الأمسيات الثقافية. زيارة المعارف.

(٢٦٠) زلة قلم. لم تكن ماريا فيودوروڤنا فى هذا الوقت هى الإمبراطورة تصف لوبوف دستويڤسكايا فى كتابها «Dostojewski, geschildert von seiner tochter (München, 1920. s. 263 – 264»، فى الفصل المعنون «صالون الأميرة تولستايا» اللقاء الأول بالإمبراطورة الروسية القادمة: «بعد أن أنهى دستويڤسكى قراءته، توجهت ماريا فيودوروڤنا إلى السيدات اللائى قمن على تنظيم الأمسية وأخبرتهن برغبتها فى التحدث معه (دستويڤسكى). وعلى الفور أسرعن لتلبية طلبها. بداهة لم تكن النسوة على قدر كبير من الذكاء. كن يعلمن أن دستويڤسكى رجل يميل بطبعة إلى الحذر والريبة، ومن ثم خشين أن يرفض طلب الأميرة، فقررن أن يدفعن به للمقابلة بشىء من الدهاء. اقتربن من أبى وقلن له، وقد علا وجههن تعبير غامض، إن «شخصية على قدر كبير من الأهمية» تود لو تحدثت إليه عن قراءته.

«وما شأن هذه الشخصية الهامة؟». سألهن دستويڤسكى مندهشًا.

«سترى بنفسك... إنها جذابة للغاية... هيا معنا بسرعة !» هكذا أجابت النساء الشابات وقد أحطن به ضاحكات ودفعن به معهن إلى صالون صغير. وبعد أن أدخلنه أغلقن الباب خلفه. كان دستويڤسكى فى دهشة من هذا السلوك الغامض. صالون صغير يلفه ضوء خافت صادر عن مصباح صغير، أسدلت الستائر على نوافذه، وإلى مائدة صغيرة جلست امرأة على نحو يفيض بالتواضع. لم يكن أبى فى تلك الفترة من حياته يلتق سوى بنساء تخطين سن الشباب. ألقى بالتحية على المرأة المجهولة، كما اعتاد أن يلقى بها على أى من السيدات اللائى كان يقابلهن فى صالونات معارفه، وحيث إنه ظن أن فتاتين عابثتين سمحن لأنفسهن أن يضللنه، فقد غادر الصالون من الباب المواجه. لا شك أن دستويڤسكى كان على علم بوجود الأميرة فى الأمسية، لكنه ظن أنها غادرت المكان، ولعله يكون قد نسى وجودها تمامًا بسبب شروده المعتاد. وبعد مرور ربع ساعة هرعت إليه

النساء الشابات، اللائى كن قد أوصلنه إلى باب الصالون الصغير.

سألنه بفضول: «ماذا قالت لك؟ ماذا قالت لك؟»

ـ «من هى ؟» سألهن فى دهشة.

ـ «من هى ؟ الأميرة، بالطبع !»

ـ «الأميرة ؟ وأين هى ؟ لم أرها...»

قام س. ڤ. بيلوڤ بنشر فصل «صالون الأميرة تولستايا» باللغة الروسية للمرة الأولى فى الجزء الخاص من «التراث الأدبى» المكرس لدستويڤسكى.

(٢٦١) استنادًا إلى مذكرات أ. س. سوڤورين فإن دستويڤسكى كان يخطط لأن يدخل أحد أبطال روايته من آل كارامازوف «إلى الدير، ثم يجعل منه ثوريًا، وقد يرتكب جريمة سياسية، وقد يتم إعدامه، ولعله كان يبحث عن الحقيقة، ومن الطبيعى، خلال هذا البحث، أن يصبح ثوريًا» (أ. س. سوڤورين، المذكرات، موسكو ـ براج، ١٩٢٣، ص١٦)، كما يورد أ. م. سليڤيتسكى، كاتب الأطفال، فى مذكراته «أن رواية اسمها «الأطفال» كان من الممكن أن تكون، وفقًا لفكرة دستويڤسكى، تكملة لرواية «الإخوة كارمازوف» حيث يمثل الأطفال فيها الأبطال الرئيسيين للرواية السابقة... (دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الثانى، ص٣٥٥). وهناك بعض الأدلة الأخرى على تكملة لرواية «الإخوة كارامازوف ساقتها أيضًا فى كتابها عن دستويڤسكى الباحثة الألمانية ن. هوفمان، التى جاءت إلى بطرسبورج لجمع عدد من المواد من أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا نفسها. وقد سجلت الباحثة ما روته زوجة دستويڤسكى عن تطور الأحداث فى تكملة الرواية المفترضة: «وفقًا لخطة الكاتب، كان من المفترض أن يعود

أليوشا إلى العالم الدنيوى، بناء على وصية الأب زوسيما، وأن يحمل على كاهله معاناة هذا العالم وما به من ذنوب. يتزوج من ليزا، ثم يتركها من أجل جروشنكا الخاطئة، التى توقظ فى نفسه «طبيعة آل كارامازوف»، وبعد فترة عاصفة من الضلال والشكوك والرفض يعيش وحيدًا. ثم يعود مرة أخرى ليدخل الدير. وهناك يحيط نفسه بالأطفال ـــ يهب بطل دستويڤسكى حياته كلها من أجلهم: يحبهم بإخلاص فيعلمهم ويأخذ بهم إلى الطريق المستقيم: من منا لا يربط هنا بين هذا المشهد وبين حكاية الأمير ميشكين (فى رواية «الأبله» المترجم) عن الأطفال؛ ومن منا لا يتذكر على الفور قصة البطل الصغير، إنها نفس السمات الطفولية المبهجة، التى لا تنكشف إلا بالحب» Hoffmann Th. Dostojewsky. Eine biographische Studie. Berlin, .(1899, s. 427)

(٢٦٢) الإصـــدار الأخـــير من «مذكرة الكاتب» (يناير، ١٨٨١) ـــ «وصية» دستويڤسكى. كتبها بشعـــور من القلق البالغ على التطور التاريخى القادم روسيا ولشعبها: «ظهر بعد ذلك هذا السُكْر الطائش، بحر من السُكْر يغطى روسيا، وعلى الرغم من أنه ما يزال يجتاح روسيا حتى الآن، إلا أن الشعب لم يفقد إطلاقًا، حتى وهو غرق حتى أذنيه فى هذا السُكْر، حتى ولو ارتوى من الخمـــر، تعطشـــه إلى عـــالم جديد على أى حال، إلى الحقيقة الجديدة، الحقيقة الكاملة. الأمر الأهم هنا، هو أن شعبنا واحد، أى متحد بأسره، متحصن بقوته الباقية فقط، لا يؤيده أحد روحيًا. هنا.. وحدة الأرض»، لكنها ليست سوى «البداية... (دستويڤسكى، ١٩٢٦ـــ ١٩٣٠، الجزء الثانى عشر، ص ٤٣٣ ـــ ٤٣٤). فى هذه الكلمات عبر دستويڤسكى عن حلمه الطوباوى أيضًا بشأن وفد «السترات الرمادية»، الذين تمت دعوتهم لإعادة تشكيل المجلس المحلى بروح ديمقراطية ومن ثم إنقاذ روسيا. وفى الوقت نفسه فقد رسم دستويڤسكى هذه الصورة الشاملة لانحلال المجتمع

الروسى كله، الأمر الذى جعله يطلب بداهة، انطلاقًا من إحساسه بالخوف على مصير إصدار يناير من المذكرة، أن يقوم ن. س. أباظة، رئيس الإدارة العليا للصحافة، بتغيير الرقيب (الذى كان من المفترض أن يكون ن. ى. ليبيديف. وقد أخذ ن. س. أباظة على عاتقه مسؤولية مراقبة إصدار يناير («بيتربورجسكى ليستوك»، وصحيفة بطرسبورج)، ١٨٨١، ٣ فبراير، العدد ٢٤).

(٢٦٣) لا يمكن اعتبار هذه الرواية التى ذكرتها أ. ج. دستويڤسكايا صحيحة على إطلاقها، وهناك رواية أخرى ذكرت فيها بعد تصف الظروف التى أحاطت بمرض وفاة دستويڤسكى. فأنّا جريجوريڤنا لا تشير هنا إلى سبب آخر على قدر كبير من الأهمية هو الذى تسبب فى الإسراع بوفاة الكاتب ويتلخص فى أن شجارًا عائليًا وقع بسبب الميراث الذى تركته كومانينا عمة الكاتب، التى توفيت عام ١٨٧١ ففى عام ١٨٨١ آلت إلى دستويڤسكى قطعة أرض من الضيعة التى كانت تملكها عمته فى ريازان بشرط أن يسدد مبلغًا ماليًا لأخواته اللائى لم يدخلن فى هذه القسمة. وقد ذهبت ڤيرا ميخايلوڤنا إيڤانوڤا، أخت دستويڤسكى، إليه تطلب منه أن يتنازل عن نصيبه فى ضيعة ريازان لأخواته. واستنادًا إلى مذكرات ابنة الكاتب، نشب بين دستويڤسكى وأخته نقاش حاد حول ميراث كومانينا، انتهى باندفاع الدم من حلقه توفى بعده بيومين (انظر لوبوف دستويڤسكايا، ص٩٦ ــ ٩٧. والحقيقة أن ل. دستويڤسكايا تنسب وقع هذا الحديث خطأ إلى السادس والعشرين من يناير، والصواب هو الخامس والعشرين). ومما يؤكد ما جاء بمذكرات لوبوف دستويڤسكايا عن الجدل الحاد الذى دار بين دستويڤسكى وأخته ڤيرا إيڤانوڤا، ما ذكرته أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا عن وفاة زوجها فى خطابها إلى ن. ن. ستراخوف المؤرخ الحادى والعشرين من أكتوبر ١٨٨٣ وقد نُشر هذا الخطاب: جروسمان، ص ٣٥٢.

(٢٦٤) يؤكد ل. ب. جروسمان أن أنّا جريجوريڤنا أخطأت فى اسم المجلة، عندما ذكرت أنها «اليعسوب». الصحيح أن دستويڤسكى كان يعرض على طفليه عدد من مجلة رسوم فكاهية من سلسلة «الرغبة أقوى من الإكراه»(صيادا السمك) وقد رُسم على ظهر الغلاف إعلان للاشتراك فى مجلة «أسكولكى»(الشظايا) عام ١٨٨١ وقد كتبت أنّا جريجوريڤنا على الإعلان بالقلم الرصاص (وهو محفوظ الآن فى بيت بوشكين) تقول: «شاهد فيودور ميخايلوڤيتش هذا الرسم فى يوم مرضه فى السادس والعشرين من يناير ١٨٨١» (جروسمان، ص٣٢٠).

(٢٦٥) غير دقيق. كانت زوجة الديسمبرى م. إ. مورڤايوڤ ــ أبوستول تدعى ماريا قنسطنطينوڤنا؛ على أن الحديث لم يكن يدور هنا بشأنها، وإنما عن چوزيڤين آدموڤنا موراڤيوڤا (براكمان قبل الزواج) زوجة الديسمبرى أ. م. مورڤايوڤ، التى كانت تعيش فى هذه الفترة فى توبولسك. انظر: م. د. فرانتسيڤ، «المذكرات». «البشير التاريخى»، العدد ٦ عن لقاء دستويڤسكى فى توبولسك بزوجات الديسمبريين انظر أيضًا مذكرات إ. ل. ياسترچيمبسكى. ــ السيرة، ١٢٧

(٢٦٦) يذكر دستويڤسكى هذا الحادث فى «مذكرة الكاتب»عن عام ١٨٧٣ فى مقالته «المسنون» (دستويڤسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، الجزء الحادى عشر، ص ١٠).

(٢٦٧) فى الأول من مارس عام ١٨٨١ تم اغتيال ألكسندر الثانى على يد أحد أعضاء جماعة إرادة الشعب.

(٢٦٨) أشار ب. ماركيڤيتش فى مذكراته «بضع كلمات عن وفاة ف. م. دستويڤسكى» («وقائع موسكو»، ١٨٨١، الأول من فبراير، العدد ٣٢) إلى وقت الوفاة ــ الساعة الثامنة وست وثلاثون دقيقة. عن وفاة دستويڤسكى

انظر أيضًا مذكرات أ. س. سوڤورين «عن المرحوم» (دستويڤسكى فى مذكرات معاصريه، الجزء الثانى، ص ٤١٧ ـ ٤١٨)، نعى دستويڤسكى، الذى كتبه أ. س. سزڤورين («المجلة الفنية»، ١٨٨١، العدد الثانى)، خطاب أنّا جريجوريڤنا إلى ن. ن. ستراخوف المؤرخ الحادى والعشرين من أكتوبر ١٨٨٣ (فى كتاب: جروسمان، ص٣٥٢)، مذكرات ابنة الكاتب (ل. ف. دستويڤسكايا، ص ٩٨ ـ ٩٩)، مذكرات ن. ن. ستراخوف (السيرة، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

(٢٦٩) الأرجح أن النفور الذى كانت تكنه أنّا جريجوريڤنا لـ «ب. م. ماركيڤيتش» يعود فى الأساس إلى دستويڤسكى نفسه. فقد دأب ماركيڤيتش، المحرر الدائم فى مجلتى «البشير الروسى» و«وقائع موسكو» اللتين كان يملكهما كاتكوف، على نشر الوشايات السياسية فى مقالاته الهجائية ضد نشطاء حركة التحرير الروسية وضد عدد من الكتاب الروس وعلى الأخص ضد سالتيكوف شيدرين وإيڤان تورجينيف. وقد قام باتهام الأخير بوجود علاقة بينه وبين «العدميين الروس» والإرهابيين. وعلى الرغم من أنه لا توجد أية آراء سلبية منشورة لدستويڤسكى بشأن نشاط ماركيڤيتش المذكور، فقد كان من الواضح فى الوقت نفسه أن ماركيڤيتش، شأنه فى ذلك شأن أڤسيينكو وميشيرسكى، كان يمثل صحافة «الطبقة العليا»، التى كان دستويڤسكى يضمر لها كراهية شديدة. وقد دفع الغلو المتطرف لآراء ماركيڤيتش الرجعية وما اتسمت به مقالاته من وقاحة بدستويڤسكى للنفور منه. وعلى سبيل المثال فقد استمرت «وقائع موسكو» فى نشر مقالات ماركيڤيتش البذيئة ضد أ. ب. فيلوسوفوڤا، الشخصية الاجتماعية البارزة، القريبة من الدوائر الديموقراطية الراديكالية، وكان دستويڤسكى يكن لها دائماً مشاعر الاحترام الخالص. وقد كانت أنّا جريجوريڤنا على دراية، بطبيعة الحال، بمقالات ماركيڤيتش الهجائية ضد فيلوسوفڤا.

(٢٧٠) انظر مقالة نيزناكوميتس (الاسم المستعار لأ س. سوڤورين وتعنى «مجهول» (المترجم) «عن المرحوم». ــ «العصر الحديث»، ١٨٨١، الأول من فبراير، العدد ١٧٧١

(٢٧١) نشرت مجلة «البشير التاريخى»(١٨٨١، العدد الثالث، ص٤٨٧ ــ ٤٨٨) مقالة عن الصورة التى رسمها كرامسكوى لدستويڤسكى والموجودة فى الوقت الحالى فى بيت بوشكين (المتحف الأدبى)، ففى صباح اليوم التالى للوفاة أبلغ أحد رفاق الكاتب الرسام بالنبأ، وعلى الفور توجه إلى بيت المرحوم وهناك نصب أدواته واستمر فى رسم صورة المتوفى لعدة ساعات بالقلم الرصاص والحبر، لتجيء واحدة من أفضل أعماله ولتظهر التشابه بين الصورة وصاحبها على نحو مدهش. أما المصورون الفوتوغرافيون، الذين حاولوا التقاط صور للكاتب المسجى فى الغرفة الصغيرة فى ضوء خافت، فضلاً عن اضطرارهم لأن تكون الصورة جانبية فقط باءت محاولاتهم بالفشل. وقد طلب كرامسكوى من أرملة المرحوم أن تقبل منه هذه الصورة باعتبارها هدية متواضعة مقابل هذه الساعات من المتعة التى أعطتها له أعمال دستويڤسكى.

(٢٧٢) كان ل. أ. برنشتام يعتزم القيام بنحت تمثال نصفى لدستويڤسكى حتى إبان حياته، وفى خطابه المؤرخ السادس من نوفمبر ١٨٨٠ طلب د. ف. جريجورفيتش من دستويڤسكى الموافقة على إقامة التمثال، كما أرسل خطابًا آخر فى هذا الصدد إلى أنّا جريجوريڤنا فى العشرين من يناير ١٨٨١ (انظر: «من أرشيف دستويڤسكى» خطابات الكتاب الروس، براج، ١٩٢٣، ص ٢٦ ـ٢٧). عن قيام ل. أ. برنشتام بعمل قناع وتمثال نصفى لدستويڤسكى: انظر:

.S. Bernstam. Léopold Bernstam. Sa Vie – son oecivre

.Paris, 1913, p. 5-6

(٢٧٣) توجد قائمة كاملة من المطبوعات الدورية التى أفردت على صفحاتها وصفًا لجنازة دستويڤسكى، انظر فى كتاب: أ. ج. دستويڤسكايا، الدليل

البيليوجرافى للمؤلفت والأعمال الفنية الخاصة بحياة وإبداع ف. م. دستويفسكى... ١٨٤٦ ـ ١٩٠٣(سان بطرسبورج)، أما مذكرات معاصرى الكاتب فيضمها الدليل الذى وضعه س. ف. بيلوف، «ف. م. دستويفسكى فى مذكرات معاصريه. الدليل البيلوجرافى». «النشرات العلمية لمعهد ألكسندر جيرتسين للعلوم التربوية»، الجزء ٣٢٠، ص٢٧٤ ـ ٣١٦. للاطلاع على أكثر وصف اكتمالاً لجنازة دستويفسكى انظر مجلة «فسيميرنايا إيلوستراتسايا» ١٨٨١، العدد ٦٣١

(٢٧٤) يذكر قنسطنطين بوبيدونستسيف فى خطابه إلى ف. م. دستويفسكى المؤرخ الرابع والعشرين من فبراير ١٨٧٩ «حضر لزيارتى الأب الأرخميندريت سيميون وقد أحضر معه التفاصيل التى اقتبسها من كتاب دفن القساوسة لتسليمها لك وكان قد نسى أن يخبرك بها عند لقائك إياه (التراث الأدبى، الجزء الخامس عشر، ص١٣٥). من البدهى أن دستويفسكى استحدم هذه الاقتباسات فى فصل «رائحة الجثة» («الإخوة كارامازوف»)، الجزء الثالث، الكتاب السابع، الفصل الأول).

(٢٧٥) نشرت «البشير الكنسى»، ١٨٨٠، العدد ٦، السابع من فبراير، خطاب إ. ل. يانيشيف، الذى ألقاه فى أثناء مراسم القداس الجنائزى الذى أقيم لدستويفسكى. وكان دستويفسكى قد تعرف على يانيشيف فى ڤيسبادن فى عام ١٨٦٥ وظل يحمل له منذ هذا التاريخ مشاعر الصداقة والإخلاص (انظر المجلد الأول من «خطابات» دستويفسكى، حيث نشر به خطابا دستويفسكى إلى يوان ليونتييڤيتش يانيشيف).

(٢٧٦) انظر نشرة: «فيودور ميخايلوڤيتش دستويفسكى. السيرة. ـ مؤلفاته. الدقائق الأخيرة فى حياته. حمل الجثمان، الدفن، الاحتفال الحماسى للمجتمع الروسى»، موسكو، ١٨٨١

(٢٧٧) ألقى ڤلاديمير سولوڤيوڤ محاضرته فى العاشر من مارس ١٨٧٨ وحضرها كل من تولستوى ودستويڤسكى. وقد ذكرت أنّا جريجوريڤنا من قبل أن ستراخوف أخبرها أن تولستوى طلب منه أل يقوم يتقديمه إلى أي من الحضور (انظر الباب الرابع من هذا الكتاب). ويمكن تفسير هذا التناقض بأن ستراخوف بسبب شعوره بالغيرة لم يشأ، بمبادرة شخصية منه، أن يُعرِّف تولستوى بالكاتب، إذ كان يشعر آنذاك بالكراهية تجاه «صديقه»، ومن ثم حاول فى هذا الوقت أن يحافظ على علاقته الودية المخلصة مع دستويڤسكى ظاهريًا، وقد انكشف هذا السلوك المزدوج القبيح الذى قام به ستراخوف على نحو نهائى فى خطابه المشهور إلى تولستوى والمؤرخ الثامن والعشرين من يناير ١٨٨٣ (انظر الفصل المعنون «ردِّى على ستراخوف»).

(٢٧٨) تم هذا اللقاء بين أنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا وليڤ نيكولايڤيتش تولستوى عام ١٩٠٢

(٢٧٩) نُشر خطاب ستراخوف إلى تولستوى والمؤرخ الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٨٣ أيضًا فى كتاب: «مراسلات ل. ن. تولستوى و ن. ن. ستراخوف» الجزء الثانى، سان بطرسبورج، ١٩١٤، ص٣٠٧ ــ ٣١٠.

(٢٨٠) يدور الحديث هنا عن كتاب: ف. م. دستويڤسكى، الأعمال الكاملة، الجزء الأول. السيرة، الخطابات وملاحظات من اليوميات، سان بطرسبورج، ١٨٨٣ قام كل من أوريست ميللر ونيكولاى ستراخوف بكتابة هذه «السيرة» بناء على طلب أنّا جريجوريڤنا.

(٢٨١) المقصود هو الفصل المعنون «عند تيخون» ويتضمن اعتراف ستاڤروجين وحديثه عن محاولته الفاشلة للتوبة النصوح والتطهر. وبناء على الفكرة

الأصلية لدستويفسكى فقد كان من المفترض أن يأتى هذا الفصل بعد فصل الأمير إيڤان»وتم جمع الرواية على هذا النحو، لكن م. كاتكوف رئيس تحرير «البشير الروسى» اعترض على نشره.

(٢٨٢) غير معروف على وجه الدقة عن أى كتاب لرجل الدين البروتستانتى بريسانسى يدور الحديث هنا. ومن المعروف أن تولستوى استفاد من كتابيه:

“Historie des trios premiers siécles de L΄Eglise Chrétienne» (1856-1859)

u «Jésus Christ, son temps, sa vie»(1865)

(٢٨٣) المقصود هنا طبعة باريس من كتاب الفيلسوف الشهير ماركوس أوريليوس «على انفراد مع نفسى»:

Pensées de L΄empereur Marc – Auréle. Trad du gres par. M de» Joly». Paris, 1803

(٢٨٤) خطاب تولستوى إلى ستراخوف المؤرخ الخامس من ديسمبر. ل. ن. تولستوى، الأعمال الكاملة. الجزء ٦٣، موسكو، ١٩٣٤، ص١٤٢. النص الصحيح للخطاب تم نشره للمرة الأولى فى كتاب ن. ن. جوسيف «ليف نيكولايڤيتش تولستوى. مواد للسيرة من ١٨٨١ إلى ١٨٨٥، موسكو، ١٩٧٠ ص٢١

(٢٨٥) «مراسلات ل. ن. تولستوى و ن. ن. ستراخوف»، الجزء الثانى، سان بطرسبورج، ١٩١٤، ص٣١٠.

(٢٨٦) ف. ن. دستويڤسكى، الأعمال الكاملة، الروايات والقصص. موجز حياة مسيرة الكتابة عند ف. م. دستويڤسكى، المحرر: د. ف. أڤرييڤ، سان

بطرسبورج، ١٨٨٥؛ ف. م. دستويفسكى، الأعمال الكاملة، الجزء الأول، الروايات والقصص، مقال عن حياة ونشاط دستويفسكى، المحرر ك. ك. سلوتشايفسكى، سان بطرسبورج، ١٨٨٨

٢٨٧) توقفت مجلة «الزمن» فى عام ١٨٦٣ بعد صدور عدد أبريل وذلك بسبب التأثير الهائل الذى تسبب فيه صدور مقال «القضية الحرجة» الذى كتبه ن. ن. ستراخوف فى المجلة. وقد تناول المقال القضية البولندية بروح رسمية وطنية. على أن المقال فهم على نحو معاكس، فقد رأى القراء فيه تعظيماً للحضارة البولندية على حساب القومية الروسية (انظر أ. دولينين «مدخل إلى تاريخ الرقابة» على مجلتى دستويفسكى. فى كتاب: دستويفسكى، الجزء الثانى، ص٤٢٣ ــ ٤٣٠).

(٢٨٨) «مذكرة الكاتب «١٨٧٧، والتى تستشهد بها أنّا جريجوريڤنا فى هذا الفصل. انظر أيضًا: دستويفسكى، ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠، الجزء الثانى عشر.

(٢٨٩) من خطابات دستويفسكى إلى خ. د. ألتشيڤسكى المؤرخ التاسع من أبريل ١٨٧٦ الخطابات، المجلد الثالث، ص٢٠٦

(٢٩٠) الخطابات، المجلد الأول، ص٨٤.

(٢٩١) لا يوجد، مع ذلك، فى مخطوط هذا الاستشهاد، بحسب أنّا جريجوريڤنا فى «الجزء الأول من خطابات تورجينيف» (وإن كان قد أشير خطأً إلى عام الإصدار أنه ١٨٨٤ بدلا من ١٨٨٥) وانطلاقًا من مغزى الاستشهاد فإن أنّا جريجوريڤنا لم تكمل كتابة هذا الاستشهاد تحديدًا من خطاب توجينيف الذى أرسله إلى دستويفسكى والمؤرخ الثامن والعشرين من مارس (التاسع من أبريل بالتقويم القديم) ١٨٧٧

(٢٩٢) انظر دستويفسكى، ١٩٥٦ ــ ١٩٥٨، الجزء العاشر، ص٤٤٧.

(٢٩٣) لا يمكن القول إن هذا المقطع كان من اختراع دستويڤسكى نفسه لكى «يزعج»ويضلل تورجينيف. على أية حال فإن إ. إ. ياسينسكى يحكى فى مذكراته بشكل محدد تمامًا أن دستويڤسكى قام ذات مرة بزيارة تورجينيف ليعبر له عن ندمه على الجريمة التى ارتكبها: «أواه يا إيڤان سيرجييڤيتش، لقد أتيت إليك لكى أعمق هوة خِستى بسمو آراءك الأخلاقية!»وعندما غضب تورجينيف من هذه الحكاية، قال له دستويڤسكى وهو يغادر المكان: «إن كل ما قلته لك يا إيڤان سيرجييڤيتش لم يكن سوى إختراع من بنات أفكارى. وإنما فعلت ذلك فقط من حبى لك ولتسليتك». واستنادًا إلى ما أعلنه إ. إ. ياسينسكى فقد وافق تورجينيف، بعد خروج دستويڤسكى، على أن هذه الحكاية كلها ليست سوى اختراع من عقل الكاتب (انظر: إ. إ. ياسينسكى، قصة حياتى. كتاب المذكرات، موسكو ــ ليننجراد، ١٩٢٦، ص١٦٨ ــ ١٦٩).

(٢٩٤) تقصد أنّا جريجوريڤنا خطاب دستويڤسكى إلى أبوللون مايكوف المؤرخ السادس عشر من أغسطس ١٨٦٧، الذى يحكى فيه عن لقائه فى ألمانيا بأحد الروس، الذى يعيش بصفة دائمة فى الخارج ويكره روسيا ولا يذهب إليها إلا للحصول على دخله من ضيعته (انظر: الخطابات، المجلد الثانى، ص٢٨). ولكن من غير المعروف لماذا اعتبرت أنّا جريجوريڤنا أن الحديث يدور هنا عن ب. أ. ڤيسكوڤانوڤ.

(٢٩٥) يقول ل. ن. تولستوى فى خطابه إلى ن. ن. ستراخوف المؤرخ الأول من فبراير ١٨٨١: «لم اشاهد هذا الرجل (دستويڤسكى) إطلاقا، ولم تكن لى به فى أى وقت علاقة مباشرة، وفجأة، وعندما مات، ادركت أنه كان أقرب وأعز إنسان بالنسبة إلىَّ. لقد فقدت توازنى على نحو ما. لقد شعرت بالإحباط، ثم أصبح من الواضح لى بعد ذلك، كم كان عزيزًا علىّ، وقد بكيته وما زلت أبكيه» (ل. ن. تولستوى، الأعمال الكاملة، الجزء ٦٣، موسكو، ١٩٣٤، ص٤٣).

(٢٩٦) تعرف دستويفسكى على ن. ن. ستراخوف الفيلسوف والناقد فى ديسمبر عام ١٨٥٩ بعد عودته مباشرة من المعتقل إلى بطرسبورج. وقد أصبح ستراخوف منذ عام ١٨٦١ واحدًا من أقرب المحررين فى مجلة «الزمن»، التى كان يصدرها الأخوان دستويفسكى، ثم فى مجلة «العصر»، وكان ستراخوف شريكًا لدستويفسكى فى آرائه الاجتماعية والسياسية والتى كانت تسمى عادة بنزعة «أنصار الأرض». ومن أشهر المؤلفات الفلسفية التى أصدرها ستراخوف ونالت أشهرة كبيرة، والتى تشير إلى أنه كان من أتباع هيجل «العالم باعتباره كلاً واحدًا» (الطبعة الثانية، ١٨٩٢)، «مقالات فلسفية» (١٨٩٥)، «عن المفاهيم النفسية والفسيولوجية الأساسية» (الطبعة الثانية، ١٨٩٤). أما أهم الأعمال الأدبية النقدية لستراخوف فهى: «مقالات نقدية عن تورجينيف وتولستوى» (الطبعة الثانية، ١٨٩٥) و«الصراع مع الغرب فى أدبنا» (الطبعة الثالثة، ١٨٩٨)، وكذلك أول سيرة كبرى لدستويفسكى فى الجزء الأول من الأعمال الكاملة (١٨٨٣). عن حياة وإبداع ستراخوف انظر كتاب: ب. نيكولسكى، ن. ن. ستراخوف. مقالات فى نقد السيرة. بطرسبورج، ١٨٩٦

وعلى الرغم من التقارب الفكرى بين دستويفسكى وستراخوف فى انتمائهما لمعسكر «أنصار الأرض»، فإنهما لم يكونا صديقين على الإطلاق. وقد اتضح ذلك على وجه الخصوص فى خطاب ستراخوف الشهير إلى ل. ن. تولستوى المؤرخ الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٨٣ (انظر: «مراسلات ل. ن. تولستوى ون. ن. ستراخوف»، الجزء الثانى، سان بطرسبورج، ١٩١٤، ص٣٠٧ــ٣١٠) والذى يعبر فيه عن ندمه لتولستوى لأنه قد رسم صورة أحادية لشخصية دستويفسكى فى «المذكرات» التى كتبها عنه (انظر: السيرة، ص١٧٧ ــ ٣٢٩). وعلى الرغم من أن «مذكرات» ستراخوف عن دستويفسكى كانت تتجه نحو «فضح» دستويفسكى وإدانته (وإن حدث ذلك بحذر بالغ) قد تطور فيما بعد على نحو تام فى خطابه إلى تولستوى. على أن دستويفسكى أيضًا لم يكن يضع ستراخوف

إطلاقًا فى موضع المثالى. خذ، على سبيل المثال، ما قاله فى أحد خطاباته: «إنه لاهوتى بغيض لا أكثر، لقد انصرف عنى فور انهيار «العصر»، ثم هرع عائدًا إلىّ فور نجاح «الجريمة» («الجريمة والعقاب» المترجم) (الخطابات، المجلد الثالث، ص١٥٥). لمزيد من التفاصيل عن هذا الأمر انظر المقال الافتتاحى لهذه «المذكرات» (مذكرات زوجة دستويفسكى ــ المترجم). وعن العلاقة بين دستويفسكى وستراخوف انظر مقالة أ. س. دولينين فى كتابه «روايات دستويفسكى الأخيرة» (موسكو ــ ليننجراد، ١٩٦٣، ص٣٠٧) ومقالة ب. إ. بورسوف «عند قبر دستويفسكى (مراسلات ل. ن. تولستوى و ن. ن. ستراخوف) («النشرات العلمية لمعهد ألكسندر جيرتسين للعلوم التربوية»، الجزء ٣٢٠، ليننجراد، ١٩٦٩، ص ٢٥٤ ــ ٢٧٠). خطابات ستراخوف إلى دستويفسكى انظر كتاب «الستينيات»، موسكو ــ ليننجراد، ١٩٤٠؛ ص ٢٥٥ ــ ٢٨٠

تمت

زوجة دستويفسكي في سطور:

أنّا جريجوريڤنا دستويفسكايا.

ـ ١٢ سبتمبر ١٨٤٦، سان بطرسبورج - ٩ يونيو ١٩١٨، يالطا.

ـ كاتبة مذكرات، مختزلة، ناشرة.

ـ الزوجة الثانية لفيودور ميخايلوڤيتش دستويڤسكي (منذ عام ١٨٦٧).

ـ كتبت سيرة حياتها مع دستويڤسكي التي نشرت للمرة الأولى عام ١٩٢٣

المترجم في سطور:

د. أنور محمد إبراهيم

- دكتوراه الفلسفة في فقه اللغة والأدب من جامعة موسكو، كلية العلوم الإنسانية، قسم تاريخ الأدب الروسي عام ١٩٨٣
- رئيس قطاع العلاقات الثقافية الخارجية الأسبق - وزارة الثقافة.
- حاصل على وسام الشرف من روسيا الاتحادية عام ٢٠٠٥، لجهوده في دعم العلاقات الثقافية بين جمهورية مصر العربية وروسيا الاتحادية.
- عضو اتحاد كتاب مصر.
- عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة.
- عضو اللجنة الاستشارية بالمركز القومي للترجمة.
- من أعماله المترجمة عن الروسية:

تطور الفكر الاجتماعي العربي من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٤٥

العربية السعودية والغرب.

تاريخ القرصنة في العالم.

الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية.

الاستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين.

نماذج من النقد الروسي الحديث.

مسرح الفنان في روسيا وألمانيا.

عمارة المسرح في القرن العشرين.

ذات يوم في مصر (شهادات الخبراء السوفيت على حرب الاستنزاف).

الروائي ومدينته.

التصحيح اللغوى: آمال الديب

الإشراف الفنى: حسـن كـامل



من دستويڤسكى الحقيقى؟ ما طبيعته المتفردة، التى انتقلت مباشرة إلى إبداعه بعدما انصهرت فى خلق خيال عظيم؟ إن كل من تناول عالم دستويڤسكى الفنى وحياته الشخصية لا يمكنه إلا أن يطرح على نفسه مثل هذه الأسئلة مثلما طرحتها على نفسها أنّا جريجوريڤنا. على أن ظهور مذكرات معاصرى الكاتب، التى كثيرا ما شوهت بفظاظة شخصيته واعتبرتها شخصية قدرية، ثنائية مريضة، عابسة متجهمة، معذَّبة، يعد أهم الأسباب التى دفعت أنّا جريجوريڤنا إلى إعادة الحقيقة والحديث عن دستويڤسكى الحقيقى.

تقول أنّا جريجوريڤنا: "إن مذكراتى والخطابات ضروريان ليرى الناس فى النهاية هذا الشخص على نحو حقيقى فالمذكرات التى كتبت عنه شوهت مرارا صورته تماما".

وضعت أنّا جريجوريڤنا مذكراتها فى الفترة من 1911 حتى 1916 وتطلبت منها جهدا فائقا. لقد وفرت أنّا لمذكراتها كل ما يستلزمه هذا النوع من دقة متناهية. يمكننا أن نشعر بسعى الكاتبة فى شروحها وتناولها لكل الحقائق المتنوعة فى حياة دستويڤسكى من خطابات أصدقائه وأقوال معاصريه.

تتسم مذكرات زوجة دستويڤسكى بالعمق والمحاجاة والبساطة الطبيعية، مستهدفة، بالدرجة الأولى، أن تقدم لقراء دستويڤسكى كاتبهم بكل جوانبه المضيئة وأخطائه على نحو ما كانت عليه تماما "فى حياته العائلية والشخصية".

تصميم الغلاف: نيرڤانا